

الدكتور صلاح الدين الهادي

اتجاهات الشعر في العصر الأموي

الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة

اتجاهات الشعر في العصر الأموي



تأليف

الدكتور صلاح الدين الهادي
أستاذ الدراسات الأدبية بكلية دارالعلوم
جامعة القاهرة

شبكة كتب الشيعة



shiabooks.net

المكتبة الشيعية mktba.net



الناشر مكتبة النخاسي بالقاهرة

صف هذا الكتاب بطريقة الجمع التصويري

مكتبة الخناجي

ص . ب ١٣٧٥ القاهرة

الطبعة الأولى

١٤٠٧ هـ = ١٩٨٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

أحمد الله حمد الشاكرين ، وأصلى وأسلم على عبد الله ورسوله محمد ، وعلى آله
أجمعين .

وبعد

فقد وجدت الباحثين في حياة الشعر في العصر الأموي ، قد تفاوتت بينهم المناهج
في النظر إلى هذا الشعر ، ورصد قضاياها ، وتعليل ظواهره ، والإلام بنواحي نشاطه ،
ومختلف اتجاهاته .

منهم من اكتفى بتتبع تيار واحد من التيارات الشعرية ، التي زخر بها حقل الشعر
في هذا العصر ، غير ملتفت إلى مسارات الحركة الشعرية الأخرى ، وما بينها من صلات ،
فنية ، وبيئية ، تجعل من هذا النتاج الفني كُلاً متلاحماً ، تتداخل ظروف تكوينه ،
ومقوماته ، وبواعثه ، بحيث يكون من التعسف الفصل بين مكوناته ، وقطع اتجاهاته
بعضها عن بعض .

كما يتعذر الوقوف على دقائق الصلة بين موضوعاته ، ودراسة حقائق ملامحه ، إلا
من خلال نظرة شاملة ، ترعى ما بينها من روابط ، فنية ، وسياسية واجتماعية ، وحضارية .
وفي العصر الأموي بخاصة ، حيث تصارعت الأهواء ، واهتزت وحدة الأمة
الإسلامية ، وعادت إلى الحياة نزعات جاهلية ، مع بزوغ فجر نهضة أخذت تتطلع إلى
تراث الأمم ، التي سبقت أمة العرب إلى ميادين الحضارة ، والفكر والفن

نقول : في هذا العصر لا يستطيع باحث أن يتجاهل تداخل المؤثرات والروابط في
إنحاء الحياة الأدبية بعامه ، والتأثير في الحركة الشعرية وتوجيهها بخاصة .

فالواقع السياسي الذي عاشه العصر الأموي — مثلاً — لم يثمر شعراً سياسياً

يعبر عن الحزبية السياسية ، المتصارعة في هذا العصر فحسب ، وإنما كان له تأثيره أيضا في دفع ألوان أخرى من النتاج الشعري ، إلى البروز والتطور أو الذبوع والانتشار .

وكثيرا ماتصافرت عوامل سياسية ، واجتماعية ، وثقافية ، في توجيه الشعر إلى موضوع أو أكثر ، أو اتجاه أو أكثر ، من اتجاهات الشعر ، التي تحركت في هذه الفترة الهامة من حياة الدولة الإسلامية .

على أن من الباحثين من وقف جهده في دراسة الشعر الأموي عند حد النظر فيما أصاب هذا الشعر من ملامح التطور أو التجديد ، واقتضاه منهج بحثه أن يعرض عن ألوان من شعر العصر ، لم يرَ فيها — حسب مقاييسه التي ارتضاها للحكم بالتطور أو التجديد — موضوعا لدراسته ، مع أن هذه الفنون ، أو الألوان ، تتمتع بقيمة تاريخية ، وأدبية ، ولغوية ، لاتقل أهمية ، عن قضايا التطور والتجديد في الشعر الأموي .

فالشعر القبلي — مثلا — ازدهر ، وهو يشغل جزءا ضخما من ديوان الشعر الأموي ، وسجل كثيرا من أوجه الحياة الاجتماعية والقبلية في عصر بني أمية ، ومع ذلك ، فليس موضوعا للدراسة ، عند الباحثين عن مظاهر التطور والتجديد في الشعر الأموي .

ولست بهذا أتجاهل قيمة هذه الدراسات ، التي نهض بها أساتذة فضلاء محققون ، لهم مقام الأستاذية والريادة في مجال الدراسات الأدبية ، فيعلم الله أنني ما إلى هذا قصدت ، فدراساتهم وأبحاثهم في دراسة شعر العصر الأموي سدت نقصاً ، وخدمت مجالا هاما في دراسة الأدب الأموي بعامة والشعر منه بخاصة .

غاية الأمر أن اختلاف مناهجهم في دراسة الشعر الأموي ، والنظر إليه ، هي التي أوحى إلى إعادة النظر في ديوان الشعر الأموي باتجاهاته المتعددة تصنيفا ، المؤتلفة روحا وباعثا ، وغاية ، على ضوء منهج يعالج هذا الشعر باعتباره صدى للنشاط المتكامل للحياة في هذا العصر ، وكُلّا فنيا ، تتعدد موضوعاته ، ولكنها تتآزر ، وتتلاقى ، لتعكس هذا النشاط .

ومع أنني حرصت الحرص كله على أن يقوم منهج دراستي هذه ، على استنطاق نصوص هذا الشعر ، وذلك بالناية بالناحية التحليلية لهذه النصوص ، فليست أنكر أنني أفدت كثيرا ، من الجهود التي فاض بها علم الأساتذة ، الذين وجهوا عنايتهم إلى دراسة جوانب من شعر هذا العصر الأدبي الهام .

فإلى هؤلاء الأساتذة العلماء أدين بالشكر والعرفان .

والله أسأل أن يجعل عملي هذا نافعا ، خالصا لوجهه الكريم ، فهو القصد ، ومنه التوفيق والعون .

صلاح الدين الهادي

منيل الروضة : ١١ من شوال ١٤٠٢ هـ

٣١ من يوليو ١٩٨٢ م

الفصل الأول

أبرزُ العوامل التي وجَّهَتَ الشعرُ
في العصر الأمويّ

تقديم

أول مايلفت نظر الباحث في أدب اللسان العربي بعامة ، ما بينه وبين أحداث التاريخ وظروف البيئة من تجاوب عميق ، وارتباط وثيق ، فعلى ضوء الدراسة التاريخية للحياة العربية في بيئاتها وعصورها المختلفة ، يمكن تفسير أكثر المفاهيم التي أداها هذا الأدب ، والاتجاهات التي اندفع إليها ، كما يتأتى إدراك غير قليل من خصائصه الفنية .

ومن مظاهر هذه الصلة القوية بين الأدب والتاريخ ، خضوع الشعر العربي في مختلف أدوار حياته لتطور حياة الأمة العربية ، في النواحي : السياسية ، والاجتماعية والثقافية ، والحضارية ، والاقتصادية أيضا ، فهذه النواحي هي التي فرضت عليه ماشاءت من التغيرات ، وهي التي رسمت له مجراه واتجاهاته ، ومن هنا تعددت أطواره ، وتبدلت موضوعاته وصوره ، وألفاظه ، وأساليبه ، وكثيرا ما ارتاد حقولا جديدة من المعاني ، أو غلبت عليه صياغات لم تكن مألوفة ، وكلما كانت التحولات في هذه النواحي بارزة ، مؤثرة في مسار الحياة ، كان خطر التغيرات التي تحدث في تطور الشعر ، والأدب بعامة .

وإذن ، فعلى المؤرخ لحياة الشعر في العصر الأموي ، أن يتصدى لرصد التطورات الهامة التي وجدت في الحياة العربية الإسلامية في هذا العصر ، وأن ينظر فيها نظرا يؤدي إلى الكشف عن الملامح الهامة لنواحي هذه الحياة ، ويوضح أهميتها في توجيه شعر العصر .

تغير وجه الحياة كثيرا في الدولة الإسلامية خلال حكم الأمويين ، عما كان عليه في عصر النبوة والراشدين ؛ لتعدد أوجه الخلاف بين العصرين ، وتوفر دواعيه ، في السياسة ، والفكر والثقافة ، والحضارة ، ونظم الاجتماع .

فالثابت أن أسس الحكم التي سار عليها النبي ﷺ والراشدون من بعده ، تختلف عن نظم الحكم الملكي في ظل دولة الأمويين ، التي تشبه في مظهرها ونظامها نظم الحكم الملكي في دولتي الفرس والروم ، وإن انضوت تحت لواء الإسلام .

كما أن الخلاف بين المسلمين ، فكريا ومذهبيا وسياسيا ، لم يعرف في العصر السابق على الصورة الحادة التي نراها في عصر بني أمية ^(١) ، فقد كان الناس يعيشون حياة مثالية تُسَّاسُ بالقانون الشرعي ، الذي يفرض الواجبات ، ويعطى الحقوق ، لم يكثر بينهم الخلاف في الآراء ، ولم يتأولوا في الدين بما يخرجهم عن حقيقته ، التي تدعو الناس إلى التآلف والعدل والمرحمة ، أو كما يقول الجاحظ : « كانوا على التوحيد الصحيح والإخلاص المخلص مع الألفة ، واجتماع الكلمة على الكتاب والسنة ، وليس هناك عمل قبيح ولا بدعة فاحشة ، ولا نزاع يد من طاعة ولا حسد ولا غل ولا تأول » ^(٢) أما في العهد الأموي ، فقد انقلب المسلمون أمة مختلفة الأهواء ، متعددة المنازع ، ضاربة في غمار الفتن السياسية ، والدينية والعصبية ، مما يسوِّغ لنا القول بأن « انتقال الدولة الإسلامية إلى بني أمية بعد انقلابا عظيما في تاريخ الإسلام » ^(٣) ، ونقله خطيرة في حياة المسلمين .

- ١ -

لعل من أهم ما يبرز في الحياة السياسية في العصر الأموي ، ذلك الصدع الخطير الذي ألم بحياة الجماعة الإسلامية ، وأثر تأثيرا بعيدا في تطور الأحداث فيها ، وخلفها أحزابا متناحرة ، وشيعا متنافرة .

وتضرب جذور هذا الصدع - في صورته المنذرة بالشر - إلى السنوات الأخيرة للخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان .

(١) انظر : الأدب في عصر النبوة والراشدين (للمؤلف) ص ٦ .

(٢) انظر : رسائل الجاحظ ٢ / ٧ .

(٣) تاريخ آداب اللغة العربية : جورجى زيدان ١ / ١٩٢ .

فقد كانت سياسته تجرى وفق ماعرف به — فى جاهليته وإسلامه — من الحياء واللين ، حتى قال النبى ﷺ فى حقه : « وكيف لأستحى ممن تستحى منه الملائكة » ^(١) ، لذا كان كثير التغاضى عما يكره ، حياء وإيثاراً للتسامح ، حتى مع من يناله منهم أذى فى نفسه ^(٢) ، وهذا وإن حسن عند الحكماء ، فإنه لا يحسن أبداً فى سياسة الرعية ، إذ لابد لمقام الخلافة من هيبة فى القلوب ، تقف الناس عند الحد اللائق بهم ؛ ولعل هذا هو الذى دفع عمر بن الخطاب إلى أن يعلو سعد بن أبى وقاص بالدرة ، حين زاحم الجموع المحيطة به ، ووصل إليه مُدلاً بمركزه ، قائلاً له : « إنك أقبلت لآتهاب سلطان الله فى الأرض ، فأحببت أن أعلمك أن سلطان الله لن يهابك » ^(٣) ، وكان عمر يقول : إن هذا الأمر لا يصلح له إلا اللين فى غير ضعف ، والقوى فى غير عنف ^(٤) .

كما أن ميل عثمان إلى اللين والتسامح ، قد حال بينه وبين اتخاذ أى تدبير لمعاقبة الساعين فى الفتنة ، الذين رُفعوا إليه ، وثبت أنهم على رأس مروجى الشر ضده فى الأمصار ، مع اجتماع كلمة عماله ، حينما التقوا به فى الموسم ، على ضرورة أخذ هؤلاء المفسدين بالشدة ، ومنهم عمرو بن العاص ، الذى قال له : « إنك قد لنت لهم ، وتراخيت عنهم ... وأرى أن تلزم طريقة صاحبك ، فتشتد فى موضع الشدة ، وتلين فى موضع اللين ، إن الشدة ينبغى لمن لا يألو الناس شراً ، واللين لمن يخلف الناس بالنصح ، وقد فرشتهما جميعاً اللين » ^(٥) .

غير أن عثمان لم يعبأ بما قالوا ، وآثر اللين ، لئلا يكون فاتح باب الفتنة ، التى كان يخافها ، ويقول : طوبى لعثمان إن مات ولم يحركها ^(٦) .

(١) المختصر فى أخبار البشر ١ / ١٧٠

(٢) انظر فى بعض ذلك : الكامل : لابن الأثير ٣ / ٦٥ (المطبعة الأميرية) وتاريخ الطبرى ٥ / ١١٤

(٣) تاريخ الطبرى ٥ / ٤٥

(٤) عيون الأخبار : لابن قتيبة ١ / ٩

(٥) الطبرى ٥ / ٩٩ والكامل لابن الأثير ٣ / ٦٠

(٦) الكامل لابن الأثير ٣ / ٦٠ والطبرى ٥ / ٩٤ وانظر أيضاً : تاريخ الأمم الإسلامية : الشيخ محمد

الحضرى ٢ / ٤٣ وما بعدها

ثم إن عثمان اتهم بانحيازهم إلى أهل بيته الأمويين ، وإغداق الأموال عليهم ، وتقريبهم ، وإيثار بعضهم بولاية الأعمال ، على حداثة سنهم ^(١) ، لمجرد قرابته منهم ، ودون نظر إلى مكانتهم في الإسلام ، أو تمكن الدين والورع في نفوسهم .

فقد عفا عن عمه الحكم بن أبي العاص بن أمية ، وسمح له بدخول المدينة ، وأعطاه مائة ألف ، وكان الرسول ﷺ قد طرده إلى الطائف ، فما زال بها طريد رسول الله وأبى بكر وعمر ، حتى استخلف عثمان فرده ^(٢) .

كما قرب مروان بن الحكم ، وأقطعته فذك ، وهي صدقة رسول الله ﷺ التي طلبتها فاطمة ميراثا ، فأبى أبو بكر استنادا على ما رواه عن رسول الله ﷺ : نحن معاشر الأنبياء لانورث ، ما تركناه صدقة . وقد انتزعها الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز الأموي من آل مروان ، وردها صدقة ^(٣) .

ولما فتح عبد الله بن سعد بن أبي سرح إفريقية ، وبعث بالخمس إلى عثمان ، اشتراه مروان بخمسمائة ألف دينار ، فوضعها عنه عثمان ^(٤) .

وقد عبر الشعر عن بعض مانقم الناس من عثمان ، فقال عبد الرحمن الكندي : ^(٥)

سأحلف بالله جهد اليم — من ماترك الله أمراً سدى
ولكن خلقت لنا فتنة — لكى تُبتلى بك أو تُبتلى
فإن الأمينين قد بينا — منار الطريق عليه الهدى
فما أخذنا درهما غيلة — وما جعلنا درهما في الهوى
دعوت اللعين فأدنيته — خلافا لسنة من قد مضى
وأعطيت مروان خمس العبا — د ظلما لهم وحيت الحمى

(١) عزل عثمان أبا موسى الأشعري عن ولاية البصرة ، وولاها عبد الله بن عامر — ابن خاله — وهو يومئذ ابن خمس وعشرين سنة انظر : الطبري ٥ / ٥٤ ، والكامل لابن الأثير ٣ / ٣٧

(٢) العبر في خير من غير : أبو عبد الله محمد بن أحمد الحافظ الذهبي ١ / ٣٢ ، والمختصر ١ / ١٦٩ ، وانظر : الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدى ٣ / ١٦٤ ، ومروج الذهب للمسعودى ٢ / ٣٤٣ مطبعة السعادة ١٩٥٨

(٣) المختصر ١ / ١٦٩

(٤) الكامل لابن الأثير ٣ / ٣٥ ، والمختصر ١ / ١٦٧

(٥) المختصر ١ / ١٦٩

وهكذا نقم الناس ، وفيهم كثير من المهاجرين والصحابة ، أمورا في سياسة عثمان « بعضها يتصل بمسائل دينية ، وبعضها بمسائل سياسية ، وإدارية ، واجتماعية ، ومالية ، وأكثر بعضهم من نصحه ، وأغلظ بعضهم في نصحه ، لكن عثمان لم يستجب للنصح الرفيق ، ولم يستمع للنصح الجاد الحازم ، فتفاقم الخطب ، واتسعت الهوة ^(١) . »

شاعت الفتنة في الأقاليم الإسلامية ، وكثرت القالة في سياسة عثمان وعماله في كل من الحجاز والعراق والشام ومصر ، وقد تجاهلها الخليفة حيناً ، وحذر منها باللين أحياناً ، وأعوزه الحرم كثيرا ، مما شجع بعض ذوى الهوى على إحياء الدعوى التى نبتت عقب وفاة الرسول ، القائلة بأن علياً أولى بخلافة الرسول ؛ لأنه أقرب أهله وعشيرته إليه ، ونهض بهذا الأمر عبد الله بن سبأ ، فبث دعاته يذيعون في الأمصار أن لكل نبي وصيا ، وعلى وصي محمد ، فمن أظلم ممن لم يحز وصية رسول الله ﷺ ، وأن عثمان أخذها بغير حق ، وأوصاهم أن يبدعوا بالطعن على أمرائهم ، وإظهار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليستميلوا الناس إليهم ، وسارت كتبه إلى الناقمين في كل مصر ، كما سارت كتبهم إليه ، وقرئت كتب الطعن على عمال عثمان في الأمصار ^(٢) ، مما زاد الأمر سوءاً ، وحرك الناس إلى ثورة ، أخذت بوادرها تتجمع ، حتى أعلنت عن نفسها بخروج جموع من مصر والبصرة والكوفة إلى المدينة ، وحاصرت عثمان أربعين يوماً ^(٣) ، وقيل : أكثر ^(٤) ، تمنعه من الصلاة في المسجد ، ومن الماء أيضاً ^(٥) ، ثم تسور جماعة من الثوار داره وقتلوه ، على صورة وحشية ، لاتتفق مع أصول الإسلام الذى انتسبوا إليه .

كان مقتل عثمان على يد جماعة الثوار هو مفتاح باب الشر ، الذى ولجت منه الجماعة الإسلامية إلى ميدان العداوة والفرقة ، حيث التف أهل الشام ، ومن تبعهم حول معاوية ، يفضلونه على أنفسهم ، ويروونه أليق للإمارة ، ولايرون لغيره بيعه عليهم توجب

(١) أدب السياسة في العصر الأموى : د . أحمد الحوقى ٣٠ .

(٢) لمزيد من التفصيل راجع : الطبرى ٥ / ٨٨ ، والكامل لابن الأثير ٣ / ٥٩ ، وتاريخ الأمم الإسلامية ٢

(٣) المختصر ١ / ١٦٩

(٤) الطبرى ٥ / ١٢٢

(٥) الكامل لابن الأثير ٣ / ٦٧

الطاعة^(١) وبذا كان معاوية في قوة ومنعة ، وهو فوق هذا من أهل بيت الخليفة المقتول ، الذى يحمل على — فى نظره — بعض وزر مقتله ، ويأوى تحت لوائه قتلته^(٢) ؛ ومن ثم عقد العزم على رفض الاعتراف بخلافة آل البيت الهاشمى ممثلة فى على بن أبى طالب ، فلما وجه إليه على جرير بن عبد الله البجلي ، ليأخذه بالبيعة له^(٣) ماطله ، واستنظره ، حتى قال له جرير : إن المنافق لا يصلح حتى لا يجد من الصلاة بُدَّ ، ولأحسبك تبائع ، حتى لا تجد من البيعة بُدَّ ، فقال له معاوية : إنها ليست بخدعة الصبى عن اللبن (أى ليست أمرا هينا يتجاوز فيه) ، إنه أمر له مابعده ، فأبلغنى ريقى (يعنى أمهلنى) ، ثم استدعى عمرو بن العاص — الذى كان بفلسطين آنذاك — واستشاره ، فأشار عليه أن يرسل إلى وجوه الشام ، ويلزم عليا دم عثمان ، ويقاتله بهم^(٤) ، وكتب لعمرو بولاية مصر طعمة ، وكتب عليه : ولا ينقض شرط طاعة ، فقال عمرو : يا غلام اكتب ، ولا تنقض طاعة شرطاً^(٥) .

ولما استوثق معاوية من طاعة شيوخ اليمنى من عرب الشام ، واجتمع له أمره ، رفع عقيرته ، ينشد ، ليُسمع جريرا^(٦) :

تطاول ليلى واعتزنتى وساوسى	لآت أتى بالترهات البساس
أتانى جرير والحوادث جمّة	بتلك التى فيها اجتداع المعاطس
أكابده والسيف بينى وبينه	ولست لأثواب الدنى بلاس
إن الشام أعطت طاعة يمنية	تواصفها أشياخها فى المجالس
فإن يفعلوا أضدم عليا بجبهة	تفت عليه كل رطب ويابس
وإنى لأرجو خير مانال نائل	ومأنا من مُلك العراق بيّاس

(١) بلغ من أمر أهل الشام فى طاعة معاوية أن جعلوا لمن على بن أبى طالب سنة ينشأ عليها الصغير ويهلك عليها الكبير . (المسعودى ٣ / ٧٢ البية)

(٢) الطبرى ٥ / ٢٣٥ ، وتاريخ الأمم الإسلامية ٢ / ٥٢

(٣) انظر : مروج الذهب السمعودى ٢ / ٣٨١ (السعادة)

(٤) الطبرى ٥ / ٢٣٥ ، وانظر : البداية والنهاية : لابن كثير ٨ / ١٢٨

(٥) الكامل فى اللغة والأدب : المبرد ١ : ٢٩ ، ومروج الذهب ٢ / ٣٦٣

(٦) المصدر السابق — الترهات : جمع ترهة (بتشديد الراء) وهى الباطل ، والبساس بمعناها ، الجبهة :

جماعة الخيل .

وأعلن رأيـه في رسالة بعث بها إلى علي ، يقول فيها : ... أما بعد ، فلعمري لو بايعك القوم الذين بايعوك ، وأنت برىء من دم عثمان ، كنت كأبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، رضى الله عنهم أجمعين ، ولكن أغريت بعثمان المهاجرين ، وخذلت عنه الأنصار ، فأطاعك الجاهل ، وقوى بك الضعيف .

وقد أبى أهل الشام إلا قتالك ، حتى تدفع إليهم قتلة عثمان ، فإن فعلت كانت شورى بين المسلمين .

ولعمري ما حجتك على كحجتك على طلحة والزبير ؛ لأنهما بايعاك ، ولم أباعك ، وما حجتك على أهل الشام كحجتك على أهل البصرة ؛ لأن أهل البصرة أطاعوك ، ولم يطعك أهل الشام ... (١) .

وأغلب الظن أن ما ذكره معاوية في هذه الرسالة من اتهام لعلى ، ماهو إلا تعلقة لإثارة الشبهة حول نوايا على في قيامه بالأمر بعد صاحبه ، وأنه أعان عليه خصومه ، أو تخاذل عن نصرته ليحل محله ، انتصاراً للهاشمية على الأموية ، بإعادة الأمر إلى آل البيت ، والحق « أن التاريخ المنصف يرى علياً من التحريض على الثورة ، ويبرئه من التقصير في حماية عثمان ، ويبرئه من السرور بمقتله (٢) » .

والتاريخ المنصف أيضاً ، يشهد بأن في سياسة عثمان ما يبرر نقمة بعض الناقمين عليه ، وما اقتضى لومه من بعض كبار الصحابة ، حتى كتب بعضهم إلى بعض بالقدوم إلى المدينة لمجاهدة عثمان (٣) ، مما دفع علياً بن أبى طالب إلى أن يكلمه ناصحاً ، محذراً فكان مما قال له : « ... إن شر الناس عند الله إمام جائر ضل وضلَّ به ، فأمات سنة معلومة ، وأحيا بدعة متروكة ... وإنى أحذرك الله ، وأحذرك سطوته ونقماته ، فإن عذابه شديد أليم ، وأحذرك أن تكون إمام هذه الأمة المقتول ... (٤) » وأخذ عليه ضعفه مع أقربائه ، وقطعهم بالأمر دونه ، لا يرضاه الناس ، وهو يعلم فلا يغيره .

(١) الكامل للمبرد ١ / ٢٣٠

(٢) أدب السياسة : د . الحوفى ١٩ ، وانظر أيضاً المرجع نفسه ٣١ - ٣٢

(٣) الطبرى ٥ / ٩٦

(٤) المصدر نفسه ٥ / ٩٧ ، والكامل لابن الأثير ٣ / ٥٨

وكانت أم المؤمنين عائشة تنكر على عثمان مع من ينكر عليه ، وكانت تخرج قميص رسول الله ﷺ وشعره ، وتقول : هذا قميصه وشعره لم يبل ، وقد بلى دينه ^(١) ، ثم قامت تطالب بدمه ، وتعلن أنه قتل مظلوما ، لما علمت أن البيعة تمت بالمدينة لعلي ^(٢) .

ونذكر كلمة لأم المؤمنين أم سلمة ، وجهتها لعثمان في قالب النصيحة ، نفهم منها أنها تأخذ عليه أشياء ، وأن اختلاف الناس حول سياسته ، فيه مايدل على صواب اتهامه ، « قالت أم سلمة لعثمان رحمهما الله ، وهي تعظه : يا بني ، مالى أرى رعيته عنك نافرين ، ومن جنبك مزورين ، لاأعف طريقا كان النبي ﷺ لحبها ، ولاتقذح زندا كان أكباها ، توخّ حيث توخ صاحبك ، فإنهما ثكما الأمر ثكما ، لم يظلما أحدا فتिला ، ولانفيرا ، ولايختلف إلا فى ظنّين ، هذه حق بنوتى ، قضيتها إليك ، ولى عليك حق الطاعة » ^(٣) .

نخلص من هذا كله إلى أن عثمان — رحمه الله — لم يكن يشتد على ولاته ويحاسبهم اشتداد عمر وحسابه فأمن الولاة جانبه واستلانوه ، ويعترف عثمان بذلك ، ويعلله بأنه لين العريكة ، سهل الخلق ، مأمون الجانب ، فكان يتهيب لوقاره وحيائه وشيخوخته أن يشتد

(١) المختصر ١ / ١٧٢

(٢) الطبرى ٥ / ١٧٢ ، والكامل لابن الأثير ٣ / ٨٠ يرى بعض المؤرخين أن أم المؤمنين عائشة إنما وقفت هذا الموقف من الإمام على ، لأنه كان ممن ألحوا على النبي ﷺ فى طلاقها أيام حديث الإفك . انظر : تاريخ الشعوب الإسلامية : كارل بروكلمان ٦٣ ، ١٣٨ .

وهناك أبيات لرجل يدعى عبيد بن أبى سلمة (ابن أم كلاب) يذكر فيها هذين الموقفين لأم المؤمنين المتغابرين ، ويذكرها بما كان منها أيام عثمان (قولها : اقتلوا نعتلا فقد كفر) فى أسلوب عتاب يبدو منه أن هوى الشاعر مع الإمام على ، من هذه الأبيات :

منك البداء ومنك الغير ومنك الرياح ومنك المطر
وأنت أمرت بقتل الإمام م وقلت لنا إنه قد كفر
فهينا أظعنك فى قتلـه وقاتله عندنا من أمر .. الخ

انظر : الطبرى ٥ / ١٧٣ ، والكامل لابن الأثير ٣ / ٨٠ ، وروى البيهتان الأولان لعمار بن ياسر قالهما يوم الجمل مع بعض الخلاف فى الرواية انظر : مروج المذهب ٢ / ٣٧١ (السعادة) .

(٣) أمالى الزجاجى ١٢٧ (السعادة) . لاتعف : لاتمح ، لحبها : أوضحها . توخ : اقصد . ثكما الأمر : لزما الحق ولم ينحرفا عن الحق . الظنين : المتهم .

على الولاة ، وكان لبعض أقربائه مطاعم وكان ببعضهم حاجة ، فكان ذوو المطاعم منهم يحتالون عليه ، وذوو الحاجة يرققونه عليهم باحتياجهم ، وهو لا يرى أن في مواساة هؤلاء وأولئك — بإسناد عمل من أعمال الدولة إليهم — إثماً ولا حرجاً ؛ لأنه لم يكن يسىء الظن بهم ، شأن الرجل الصالح ، الذى يظن أن كل الناس على شاكلته ، ومن هنا وقع ما وقع له من البلاء .

وأياً كانت النظرة فى سياسة عثمان رضى الله عنه ونتائجها فإن ما يعيننا فى هذا المقام ، أن معاوية اهتبل الفرصة ، وأخذ ينادى فى الناس بأن علياً يحمل وزرَ مقتل عثمان ، وينشر قميص عثمان المملوح بالدماء على منبره بمسجد دمشق ، ونصب نفسه مطالباً بدم الخليفة المظلوم (١) .

وعبر عن هذه الدعوى شعراً الوليد بن عقبة بن أبى معيط — أخو عثمان من الرضاع — فقال ، مخاطباً بنى هاشم (٢) :

بنى هاشم إنا وما كان بيننا كصدع الصفا ما يومض الدهر شاعبه
بنى هاشم كيف الهوادة بيننا وعند على درعه ونجائبه
بنى هاشم ردوا سلاح ابن أختكم ولا تنهبوه لاتحل مناهبه
غدرتم به كيما تكونوا مكانه كما غدرت يوماً بكسرى مراربه

فهو يردد دعوى الأمويين القائلة بمسئولية على عن مقتل عثمان ، وأن الهاشميين قد غدروا به ليتمكنوا زعيمهم علياً من اغتصاب منصب الخلافة من بعده .

ولم يسع الهاشميون أن يتغاضوا عن هذا الادعاء الباطل ، فنشطوا للرد عليه وإبطاله ، ذاهبين إلى أن علياً لم يكن فى حاجة إلى قتل عثمان ليثب على الخلافة ، فحقه فيها ثابت من قبل أن يتولى عثمان .

وقد هب أحد الهاشميين وهو الفضل بن العباس بن عتبة بن أبى لهب ، ليرد على شعر الوليد بن عقبة ، معبراً عن رأى آل البيت فيما ادعاه هذا الأموى قائلاً (٣) :

(١) لمزيد من التفصيل راجع : البداية والنهاية لابن كثير ٨ / ٢١ ، وأدب السياسة ص ١٧
(٢) الكامل للمبرد ٢ / ٢٥٦ (الأزهرية) ، والأغانى ٥ / ١٢٢ ، ومروج الذهب ٢ / ٣٥٦ (السعادة)
(٣) مروج الذهب ١ / ٣٥٧ (السعادة) .

فلا تسألونا سيفكم إن سيفكم أضيع وألقاه لدى لرؤع صاحبه
سلوا أهل مصر عن سلاح ابن أختنا فهم سلبوه سيفه وحرأته
وكان ولي الأمر بعد محمد عليّ وفي كل المواطن صاحبه
عليّ وليّ الله أظهر دينه وأنت مع الأشقيين فيما تحاربه

استنفر معاوية في هذه الخصومة عرب الشام ، فاستجابوا له والتفوا حوله — كما قدمنا — أما أهل العراق ، فقد بايعوا عليا ، وبخاصة أهل الكوفة ، التي اتخذها على عاصمة لخلافته ، ومركزا لتجمع أنصاره ، يقول المسعودي ^(١) : « كانت الكوفة أسرع الأمصار إجابة إلى بيعة علي » .

بهذا أتاحت الفرصة لإحياء المنافسة القديمة بين عرب الشام ، الذين كانوا يحاربون غالبا في صفوف الروم ، وعرب العراق ، الذين انضموا تحت لواء الفرس ضد الروم ، قبل الإسلام ^(٢) .

ولعل مما يصور هذه المنافسة ، التي أحيها هذا الصراع بين الإقليمين ، قول كعب بن جُعيل التغلبي ^(٣) ، الذي كان هواه وهوى قومه تغلب في معاوية ^(٤) :
أرى الشام تكره ملك العراق وأهل العراق لهم كارهينا
وكلا لصاحبه مُبغضاً يرى كل ما كان من ذلك دينا
إذا مارمونا رمينا هم وديناهم مثل مايقرضونا
فقالوا : عليّ إمام لنا فقلنا رضينا ابن هند رضينا
وقالوا : نرى أن تدينوا له فقلنا : ألا لانرى أن نديننا
ومن دون ذلك خرط القتاد وضرب وطعن يقرّ العيوناً

(١) مروج الذهب ٢ / ٣٦٢ (السعادة) وانظر : حياة الشعر في الكوفة للدكتور يوسف خليف: ٥٢

(٢) انظر : التطور والتجديد للدكتور شوقي ضيف ٣٩ ، وأدب السياسة ٣٧ والخوارج والشيعة ١٤٧

(٣) من بنى عمر وبن عثم بن تغلب ، شاعر مفلق قديم في أول الإسلام ، جعله ابن سلام في الطبقة الثالثة من فحول الإسلام ، وقال عنه أبو الفرج الأصفهاني : كان شاعر تغلب لا يأتى منهم قوما إلا أكرموه ، وضربوا له قبة ، وله مهاجاة مع الأحنط . انظر في أخباره : طبقات فحول الشعراء ٤٨٥ والأغاني ٧ / ١٦٢ والشعر والعشراء ٢٤٧

(٤) الكامل للمبرد ١ / ٢٣٠ (الأهرية) . الخرط : قشر الورق عن الشجرة اجتذابا باليد ، القتاد :

شجر له شوك أمثال الإبر ، وهذا مثل يضرب للأمر دونه مانع صعب ، يحول بينك وبينه .

كما يصورها من الجانب الآخر النجاشي^(١) صاحب عليّ وشاعره^(٢) :

دَعَا يامعاوي مالن يكونا فقد حقق الله ماتحذروننا
أتاكم على بأهل العراق وأهل الحجاز فما تصنعونا !؟

ومما زاد من حدة هذا الصراع ، وأدى إلى تطوره تطورا سريعا إلى صراع حرى ، إصرار عليّ على خلع معاوية من ولاية الشام ، وعدم قبوله أساليب السياسة والمداينة في هذا الأمر ، ورفضه القاطع لكل نصيح قدم إليه ليعالج أمر معاوية بالحيلة ، فقد أشار عليه المغيرة بن شعبة بإقرار معاوية وعبد الله بن عامر ، وسائر العمال ، على أعمالهم حتى تأتية طاعتهم ، وطاعت جندهم ، ثم يستبدل بعد ذلك أو يترك ، ولكن عليا رفض قائلا : والله لا أداهن في ديني ، ولا أعطي الرياء في أمري ، فأشار عليه المغيرة أن يعزل من شاء من العمال على أن يبقى على معاوية ، لأن لمعاوية جراءة ، وهو في أهل الشام مسموع منه ، وذكر له أن عنده الحاجة في إثباته ، فإن عمر ولاة الشام كلها ، غير أن عليا أجابه بقوله : لا والله لأستعمل معاوية يومين أبدا^(٣)

كما غضب عليّ حين تقدم إليه ابن عمه عبد الله بن العباس بمثل هذه النصيحة قائلا : ياأمير المؤمنين ، أنت رجل شجاع ، أما سمعت رسول الله ﷺ يقول : الحرب خُدعة ؟ ومع ذلك فقد أتى عليّ إلا أن يجعل السيف بينه وبين معاوية^(٤) .

لم يكن بد إذن من أن يحشد معاوية أنصاره للقتال ، وأن يفعل عليّ مثل ذلك ، وهنا يبدو الانقسام واضحا في صفوف الأمة الإسلامية ، وتبلور هذا الانقسام في صورة حزبين : حزب علي ، وحزب معاوية ، أو فلنقل : شيعة علي ، وشيعة معاوية^(٥) .

(١) أبو الحارث قيس بن عمرو بن مالك ، أحد بنى الحارث بن كعب ، شاعر من أشراف العرب ، إلا أنه كان فاسقا ، أتى به علي بن أبي طالب وهو سكران في رمضان ، فضربه حد الخمر ، وزاده لجرأته على الله وشربه الخمر في رمضان ، وله هجاء في أهل الكوفة بسبب هذا الحد ، كما هاجى عبد الرحمن بن حسان بن ثابت فغلبه عبد الرحمن وأفحمه ، وهجا بنى العجلان ، فشكوه إلى عمر بن الخطاب فهدده بقع لسانه ، انظر في أخباره وشعره : سبط اللائى ٢ / ٨٩٠ ، وخزانة الأدب ٤ / ٣٦٨ (بولاق) ، والعمدة ١ / ٦٨ ، والشعر والشعراء ١١٦ ، وديوان المعاني ١٧٦/١ (٢) الكامل للمبرد ١ / ٢٣٣ (الأزهرية) .

(٣) راجع تفصيل هذه الأخبار في مروج الذهب ٢ / ٣٦٤ (السعادة) .

(٤) المصدر السابق .

(٥) لفظ (الحزب) يطلق عليه في العربية أيضا اسم الشيعة ، لكن لما تولى معاوية الملك في دولة الإسلام كلها ، ولم يعد مجرد رئيس حزب ، أصبح استعمال لفظ (شيعة) مقصورا على أتباع عليّ . انظر : الخوارج والشيعة ١٤٦

والتقى الفريقان في وقعة صفين الشهيرة ، التي كان من نتائجها البارزة انتصار الشام يمثلها معاوية على العراق ممثلاً في عليّ .

وليس من ههنا هنا تفصيل الحديث عن أحداث هذه المعركة ، وتطوراتها ونتائجها ، لأن هذا كله مبسوط في مصادر التاريخ الإسلامي التي تعالج هذه الفترة من حياة الأمة الإسلامية .

ومع ذلك فنحن مضطرون إلى الوقوف عند نتيجة من نتائج حرب صفين ، لما لها من أهمية بالغة في ميلاد حزب إسلامي ثالث ، زاد من تصدع وحدة الإسلام والمسلمين في العصر الأموي .

لقد تمخضت هذه الحرب عن ظهور حزب جديد ، هو حزب الخوارج الثوري ، وكان السبب المباشر لمولد هذا الحزب مسألة التحكيم في إبان معركة صفين .

فحين لاح خطر هزيمة جند معاوية في آخر أيام صفين ، أشار عمرو بن العاص على معاوية أن يأمر أهل الشام برفع المصاحف على أسنة رماحهم ، فكثرت في الجيش رفع المصاحف ، ونادى جند الشام : كتاب الله بيننا وبينكم ، وفي ذلك يقول النجاشي^(١) : فأصبح أهل الشام قد رفعوا القنا عليها كتاب الله خير قرآن ونادوا علياً بابن عم محمد أما تتقى أن يهلك الثقلان

وسرعان ما أحدث هذا السلوك الأثر المطلوب في كثير من أهل العراق ، خصوصاً في القراء منهم ، إذ قالوا : نجيب إلى كتاب الله ، وكان عليّ يدرك أن مافعله جند معاوية ماهو إلا حيلة قصدوا من ورائها النجاة من الهزيمة التي توشك أن تفسد عليهم أمرهم ، بيد أنه لم يستطع أن يقاوم تأثيرها في نفوس أكثر جنده ، بل هُدد شخصياً لما أراد ذلك ، بأن يُصنعَ به ماصنعُ بعثان ، مما اضطره إلى أن يقبل التحكيم على مضض ، وأن يستدعي قائده الأشتر النخعي ، الذي كان من النصر قاب قوسين أو أدنى ؛ حتى لا يواصل القتال ، فأستجاب الأشتر للأمر رغماً عنه طاعة لعليّ .

وسعى الأشعث بن قيس — زعيم كندة بالكوفة وأحد أصحاب عليّ البارزين — بالوساطة بين الفريقين ، فذهب إلى معاوية ، وتلقى اقتراحه بالتحكيم ، واختيار عمرو بن

العاص ليكون أحد الحكمين عن أهل الشام ، وأكره على قبول أئى موسى الأشعرى حكما عن أهل العراق ، ووُضع صلح مكتوب بين الفريقين على أساس هذا الاقتراح .
وما إن قرىء مضمون الاتفاق في معسكر أهل العراق ، حتى أعلن قوم أكثرهم من بنى تميم رفضهم التحكيم ؛ لأنه يجعل مصير خلافة المسلمين بين أيدي رجلين ؛ ولأن حكم الله في الأمر واضح جلى ، فقد أمر بقتال الفئة الباغية حتى تعود إلى الطاعة وتدخل في الجماعة ^(١) ؛ ولأن التحكيم على هذا النحو يعنى « شك كل فريق من المحاربين أيهما الحق ، وليس يصح هذا الشك ؛ لأنهم وقتلهم إنما حاربوا وهم مؤمنون — بلا شك — أن الحق في جانبهم ^(٢) » .

وقد عبر عروة بن أذينة الحنظلى التميمى عن هذه المعانى التى اختلجت في نفسه ونفوس الرافضين في جملة « لا حكم إلا الله ^(٣) » .

وصاروا يطاردون عليا رضى الله عنه بهذه العبارة في المسجد ، وفي الطريق ، حتى ضايقوه ، مطالبين إياه أن يقر بخطئه في قبول التحكيم ، بل رموه بالكفر لإهماله أمر الله ، وإقراره مسألة الحكمين .

ولما يئست هذه الجماعة الرافضة للتحكيم من رجوع على عما أبرم من اتفاق مع معاوية ، اجتمعوا ، وتداعوا إلى الخروج من جند على ، ومغادرة الكوفة — التى كان جيش على قد عاد إليها بعد الاتفاق على التحكيم — لإعلانا عن استنكارهم بدعة التحكيم المضلة ، رافعين شعار « لاحكم إلا الله » ولذا سموا بالمحكمة ، وقصدوا قرية قرب الكوفة تسمى حروراء فسموا أيضا بالحرورية ، وهما اسمان كثيرا ما يطلقان على الخوارج ، وأمروا عليهم رجلا منهم سموه « أمير المؤمنين » وهو عبد الله بن وهب الراسبي .

يتضح من ظروف مولد حزب الخوارج ، أنه لم ينشأ عن عصبية للعروبة ، بل عن عصبية للإسلام ؛ إذ كان هدفه تقرير الأمور العامة للمسلمين — كمسألة الخلافة ، وقتال البغاة — وفقا لأوامر الله ونواهيه ، وهذا الحزب الجديد كان خارجا على المسلمين من

(١) راجع الآية ٩ من سورة الحجرات .

(٢) فجر الإسلام ١ / ٣٠٠

(٣) تاريخ الطبرى ٦ / ٣١

الفريقين ، يعد دارهم دار حرب ^(١) ، ولذا تجب مجاهدتهم ، واستمر هذا الجهاد طوال عصر بنى أمية .

في هذه الفترة كان شعور كثير من المسلمين متعاطفا مع عليّ ، مؤيدا لأمره ، وهؤلاء هم الذين كانوا يرون أن تكون الخلافة في بيت النبي ﷺ ، وأقرب الناس إليه حينئذ عمه العباس بن عبد المطلب ، وابن عمه عليّ بن أبي طالب ، « ولكن العباس لم يكن من السابقين إلى الإسلام ، فقد حضر غزوة بدر مع المشركين ، ولم يسلم إلا آخرأ ، فأول الناس من قرابة النبي ﷺ عليّ بن أبي طالب ، وهو أول الناس إسلاما ، وزوج فاطمة بنت النبي ﷺ ، وجهاده وفضله وعلمه لا ينكر ^(٢) .

وكان من بني هؤلاء عدد غير قليل من الصحابة ، من المهاجرين والأنصار ، نذكر منهم سلمان الفارسي ، وأبازر الغفاري ، والمقداد بن الأسود ، وعمار بن ياسر ، وأبا التيهان ، والفضل بن العباس ، وأخاه الحبر عبد الله بن العباس ، وأبا أيوب الأنصاري ... وغيرهم ^(٣) .

وهؤلاء وأمثالهم ، ممن التفوا حول عليّ ، وآزرُوا أمره ، ضد معاوية ، الذي كانوا يرونه جائرا ، منحرفا عن الحق ، طامعا فيما لا يستحق ، لأنه لم يعتنق الإسلام إلا بعد الفتح .

نقول : هؤلاء يمكن أن نعدّهم نواة التشيع ، بمعناه العاطفي والسياسي ، لا بمفهومه المذهبي العقدي .

(١) لم يلبث الخوارج أن انقلبوا يحاربون عليا ، حيث قاتلوه في وقعة النهروان سنة ٣٨ أو ٣٩ هـ ولكنه هزمهم شر هزيمة ، وقتل منهم مقتلة عظيمة ، مما زاد في إيمان الخوارج في كرهه ودفعهم إلى تدبير مكيدة قتله ، على يد عبد الرحمن بن ملجم الخارجي ، وكان زوجا — أو خاطبا — لامرأة قتل كثير من أفراد أسرتها في هذه الموقعة ، انظر : العبر للذهبي ١ / ٤٤ ، ومروج الذهب (البية) ٢ / ١٤٠ ، وتاريخ الطبري ٦ / ٣٣ وما بعدها ، وانظر تفصيل خبر خروج الخوارج ، وصدامهم مع علي ، وأسماء زعمائهم في : الخوارج والشيعة ٣ وما بعدها ، ومروج الذهب ٢ / ٤١٥ — ٤١٧ (السعادة) ، وتاريخ الشعوب الإسلامية ١٤٣ .

(٢) فجر الإسلام ١ / ٢٩٧ ، وانظر : الشيعة في التاريخ ص ١٣ ، والشيعة في الميزان ٢٤ وما بعدها .

(٣) انظر : أصل الشيعة وأصولها ٨٦ ، والإصابة ، والاستيعاب ، في مواضع متفرقة .

بيد أن هذا التشيع العاطفى ، لم يلبث أن تطور بعد مقتل على (سنة ٤٠ هـ) (١) ، إلى عقيدة مذهبية دينية وسياسية ، تدور حول إمامة المسلمين ، وحق آل البيت فيها ؛ بحيث صارت دعوى هذا الحق شعاراً لحزب يقوم على أسس مذهبية دينية وسياسية محددة ، أخذ ينشرها ، ويجمع الأنصار حولها ، وبجاهد الأمويين ، وغيرهم ممن يخالف الشيعة على أساسها .

بعد مقتل على ، لم تبق أمام معاوية ، لكى يستتب له الأمر ، إلا مناوشات يسيرة مع الحسن الابن الأكبر لعلى ، الذى أدرك بعد تجربة يسيرة فى محاولة مجاهدة معاوية بالقوة ، تحاذل أنصاره ، واستهانتهم بأمره ، مما اضطره إلى المهادنة ، التى انتهت بقبول الصلح ، والتنازل عن الأمر لمعاوية ، حقنا للدماء ، وجمعاً لكلمة الأمة (٢) .

بعد أن استقرت الخلافة لمعاوية ، أخذ يفكر فيما يكون عليه أمر الخلافة الأموية من بعده ، واهتدى إلى تقرير مبدأ الوراثة فى الحكم ، بالعهد لابنه يزيد ، ومن ثم أخذ يمهّد لهذه البيعة بذكاء ، وصبر ، وفطنة ، وحنكة سياسية واعية (٣) ، ففضلاً عن ثقته بتأييد عرب اليمن — أحوال يزيد — لهذا الاتجاه ، استطاع بهباته السخية ، ودهائه ومرونته ، أن يستميل كثيراً من خصومه ، ومنهم بعض بنى هاشم (٤) ، أما رءوس البيت الأموى ، فقد عاملهم بحذر متبصر حكيم ؛ خشية أن يصبحوا خطراً عليه وعلى ابنه ، وكان يتمتع بمقدرة فائقة على أن يفيد مما كان لشعراء عصره من تأثير عظيم فى الرأى العام ، واستغلال هذا التأثير فى تحقيق مصالحه .

(١) قتل على ليلة الجمعة فى السابع عشر من رمضان على يد ابن ملجم ، ثم قتل قاتله وأُحرق . العبر للذهبي ٤٦ / ١ .

(٢) قيل : لما صالح الحسن معاوية ، قام فخطب فى أهل الكوفة ، وقال : أيها الناس ، إن الله هذاكم بأولنا ، وحقن دماءكم بآخرنا .. يأهل الكوفة لم تذهب نفسى عنكم إلا لثلاث خصال ، مقتلكم لأى ، وسلبكم ثقل ، وطعنكم فى بطنى . وكانوا قد نهوا سراحه ، ورحله ، وطعنوا بالخنجر فى جوفه ؛ ولذا انقاد إلى الصلح ، انظر : مروج الذهب (البية) ٥٣ / ٢ .

(٣) قال أبو على القالى : كان معاوية مجرباً ، قد حنكته الأيام ، واسع الصدر ، حليماً ، وكان يقول عن نفسه :

قد عشت فى الدهر ألواناً على تلحق شتى وقاسيت فيه اللين والطبع
لايملاً الأمر صدرى قبل مصدره ولاأضيق به ذرعاً إذا وقعا

انظر : الأمالى ٣٠٨ / ٢

(٤) انظر تاريخ الشعوب الإسلامية ١ / ١٤٨

فقد أوعز إلى رجل من الأزد يقال له ذو الكلاع أن يواجه وفود الأمصار في مجلسه بطلب البيعة ليزيد ، ولما كان هذا المجلس ، قام الرجل فقال : هذا أمير المؤمنين ، وأشار بيده إلى معاوية ، فإن مات فهذا ، وأشار إلى يزيد ، فمن أى فهذا ، وأشار إلى السيف ، ثم قال : (١) :

معاوية الخليفة لا تُمارى فإن يهلك فساؤنا يزيد
فمن غلب الشقاء عليه جهلاً تحكّم في مفارقه الحديد

وكان اتجاه معاوية إلى هذا النظام الوراثي في الحكم ، نقلة خطيرة في حياة المسلمين ، الذين ألفوا البيعة والشورى ، والنظم الأولى في الإسلام ، وهم بعد قريبو عهد بها ، فقد صدم كثير منهم بتحول الإمامة إلى ملك كسرى ، والخلافة إلى غضب قيصرى — كما يقول الجاحظ (٢) .

وإلى هذا التحول يشير عبد الله بن همام السلولى في قوله (٣) :
فإن تأتوا برملة أو بهند نباعها أميرة مؤمنينا
إذا مامات كسرى قام كسرى نعد ثلاثة متناسقين

لهذا أحس كبار رجال الأمة ، وبخاصة في الحجاز — مهد الدعوة الأول — وعلى الأخص في مكة والمدينة ، بالسخط الشديد على هذا الاتجاه .

وكان لشخصية يزيد بن معاوية أثر كبير في شيوع هذا السخط بين المسلمين (٤) ، إذ كان — فيما يقول ابن جرير الطبرى — « متهما بركة الدين ، وشرب

(١) العمدة ١ / ٢١٢ ، وانظر أمالى القالى ١٦٢ ٥١

(٢) رسائل الجاحظ ١١ / ٢

(٣) الشعر في مروج الذهب (البية) ٢ / ٧٠ ، والشاعر : هو أبو عبد الرحمن عبد الله بن همام السلولى من بنى مرة بن صعصعة ، أخى عمر بن صعصعة ، وبنو مرة يعرفون ببني سلول ، وسلول أمهم ، غلبت عليهم ، وهو شاعر إسلامى قديم ، أدرك معاوية ، وبقي إلى أيام سليمان بن عبد الملك ، أو بعده ، وكان مكينا عند بنى أمية ، حظيا فيهم ، وعده ابن سلا فى الطبقة الخامسة من فحول الشعراء الإسلاميين . انظر : معاهد التنصيص ١ / ٩٦ ، والشعر والشعراء ٢٤٨ ، وسمط اللآلى ٢ / ٦٨٣ ، وطبقات فحول الشعراء ٥٢٢ ، وشرح الحماسة للمرزوق ٣ / ١١٣٩

(٤) بوع يزيد ولما للعهد سنة ٥٦ هـ ، وبوع بالخلافة بعد وفاة أبيه سنة ٦٠ هـ . تاريخ الطبرى ٦ /

الخمر ، والإقبال على اللهو ، ومجالس الغناء ، ومنادمة الفساق ^(١) » ، ويطلق عليه الجاحظ « الخليع » ^(٢) .

وقد خلع هذه الأوصاف أيضا على يزيد جماعة من أشرف المدينة ، كانوا قد وفدوا عليه فأكرمهم ، وأعظم جوائزهم ، فلما عادوا إلى المدينة ، أخذوا يسبونه ، قائلين : « إنا قادمون من عند رجل ليس له دين ، يشرب الخمر ، ويعزف بالطناير ، ويضرب عنده القيان ، ويلعب بالكلاب ، ويسامر الخُراب والفتيان ... » ^(٣) وفيه يقول موسى شهوات ^(٤) :

لست منا وليس خالك منا يامضيع الصلاة بالشهوات

وليس ببعيد أن تكون هذه الأخبار من الروايات المعادية لبنى أمية ^(٥) ، فرواية الطبرى التى تتحدث عن جماعة أشرف المدينة ، تضيف : وكان من أشد هؤلاء تحاملا على يزيد المنذر بن الزبير ، وكان يزيد قد أجازته بمائة ألف درهم ، فلما بلغه ما قال عنه ، قال : اللهم إني آثرته وأكرمته ، ففعل ماقد رأيت ، فاذكره بالكذب والقطبعة ^(٦) .

كما أن أبا حيان يروى ما يفيد أن يزيد لم يكن يشرب الخمر ، فقد أورد قول خالد ابن يزيد بن معاوية للحجاج بن يوسف : إلى متى تقتل أهل العراق يا أبا محمد ؟ فقال الحجاج : إلى أن يكفوا عن قولهم في أبيك ، إنه كان يشرب الخمر ^(٧) .

على أية حال لم يكذب يزيد يتولى الخلافة حتى شاع السخط ، وغلا الغضب فى صدور الغالبية من أهل الحجاز والعراق ، واتجهت أنظار الساخطين الغاضبين إلى زعيم آل البيت آنذاك ، الحسين بن على ، وكان الحسين قد رفض أن يجيب معاوية إلىبيعة يزيد

(١) تاريخ الطبرى ٧ / ٤ ، وانظر : أمالى الزجاجى ٦٩ (المذنب)

(٢) رسائل الجاحظ ٢ / ١١

(٣) تاريخ الطبرى ٧ / ٤ ، وابن الأثير (بيروت) ٤ / ١٠٢ — ١٠٤ ، وانظر خيرا عن منادمة يزيد

للفساق فى : أمالى الزجاجى (المذنب) ٦٩ .

(٤) هو أبو محمد موسى بن يسار مولى بنى سهم القرشيين ، وهو أخو اسماعيل بن يسار الشاعر الأموى

المعروف ، وشهوات لقب له ، وتفسير لقبه ، ومارويناه من شعره فى : سمط اللآلى ٢ / ٨٠٧ ، والأغاني ٣ / ١١٤ ، والأعلام للزركلى ٨ / ٢٨٧ .

(٥) انظر هذه الروايات فى : تاريخ الشعوب الإسلامية ١ / ١٨٣

(٦) تاريخ الطبرى ٧ / ٤

(٧) الإمتاع والمؤانسة ٣ / ١٧٨ ، وانظر الكامل لابن الأثير ٤ / ٥٠ .

بولاية العهد ، حين قدم معاوية إلى المدينة ، ورفضها معه جماعة من كبار أبناء الصحابة ، منهم عبد الرحمن بن أوى بكر ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ^(١) .. وغيرهم . ولما مات معاوية أوى الحسين أيضاً أن يبايع يزيد بالخلافة (سنة ٦٠ هـ) ، وحتى يخلص من سلطان يزيد فر من المدينة ، والتجأ إلى مكة ، فدعاه أهل الكوفة ليخرج بهم على يزيد ، وبعثوا إليه بالرسائل ، متوسلين أن يجيبهم إلى الثورة ، وأن يقدم عليهم ، باذلين له الوعود والعهد بالالتفاف حوله ونصرته ، وأكثر هذه الرسائل جاءت من رجال القبائل البارزين بالكوفة ، ومن اليمانية منهم على وجه التخصيص ، وكانت اليمانية أكبر القبائل عدداً وأهمية في الكوفة ^(٢) .

مالت نفس الحسين إلى تلبية هذه الدعوة الملحة ، ولكنه أثر أن يبعث أولاً بابن عمه مسلم بن عقيل ، ليعد الناس لمقدمه ، ويأخذ عليهم العهد ، فنزل مسلم الكوفة سراً ، وتوافد الناس عليه ، معلنين بيعه الحسين ، فأرسل مسلم كتاباً إلى الحسين يخبره بهذه البيعة ، ويدعوه إلى القدوم .

تأهب الحسين للخروج من مكة في ذى الحجة سنة ٦٠ هـ ، فتقدم إليه المخلصون ينصحوه بالعدول ، منهم : عبد الله بن عباس ، الذى قال له : يا ابن عم بلغنى أنك تريد العراق ، وإنهم أهل غدر .. فلا تعجل ، وإن أبيت إلا محاربة هذا الجبار .. فاشخص إلى اليمن فإنها فى عزله ولك فيها أنصار وإخوان ، فأقم بها وبث دعائك ، واكتب إلى أهل الكوفة ، وأنصارك بالعراق ، فيخرجوا أميرهم ، فإن قوا على ذلك .. ولم يكن بها أحد يعاديك أتيتهم ، وماأنا بغدرهم بآمن .. كما نصحه أبو بكر بن الحارث بن هشام الأموى بنحو من ذلك ، ولكنه الحسين احتج بأن مسلماً كتب إليه باجتماع أهل المصر (الكوفة) على بيعته ونصرته ، وأنه عازم على المسير إليهم ^(٣) .

لما علم يزيد بخروج الحسين ، عزل النعمان بن بشير الأنصارى من ولاية الكوفة ، وولى مكانه والياً أقل ورعاً وتحفظاً ، وحرصاً على الدين وهو عبيد الله بن زياد ، الذى

(١) راجع تفصيل هذا الخبر فى : النوارى للقالى ١٧٧ - ١٧٩ ، وتاريخ الطبرى ٦ / ١٧٠

(٢) الخوارى والشيعة ١٦٠ ، وتاريخ الطبرى ٦ / ١٩٧

(٣) مروج الذهب (البية) ٢ / ٨٦ - ٨٧ ، والخوارى والشيعة ١٦٠ ومابعدها .

أسرع إلى الكوفة ، وقضى على مسلم بن عقيل ، بعد أن انفض عنه أهل الكوفة خوفاً من عبيد الله ، الذى هدد كل من يأويه أو ينصره .

خرج الحسين متوجهاً إلى الكوفة ، وهو يعتقد أنه سيستقبل فيها استقبالا حافلا ، ولم يكن يعلم شيئا عن نهاية مسلم بن عقيل الأئمة ، وقبل بلوغه الكوفة جاءته الأنباء بمقتل مسلم ، وأن أهل الكوفة خلوا بينه وبين ابن زياد ، فقال من معه : « أتانا خبر فظيع ، قتل مسلم بن عقيل ، وهانىء بن عروة .. وقد خذلتنا شيعتنا ، فمن أحب منكم الأنصار فلينصرف ، ليس عليه منا ذمام .. فتفرق الناس عنه .. فأخذوا يميناً وشمالاً حتى بقى فى أصحابه الذين جاءوا معه من المدينة » ، ^(١) وخاصة أهله وأبناء عمومته من آل أبى طالب .

سار الحسين حتى لقي خيل عبيد الله بن زياد عليها عمرو بن سعد بن أبى وقاص ، فعدل إلى كربلاء قريباً من الفرات ، وقام عمرو بن سعيد بينه وبين الماء ثلاثة أيام حتى أخذ العطش منه ومن معه .

وفى العاشر من المحرم (سنة ٦١ هـ) استعد الفريقان للقتال ، ومع الحسين اثنان وثلاثون فارساً ، وأربعون رجلاً ، بينهم ثمانية عشر من أبناء عمومته ، وودع أصحاب الحسين صاحبهم على موعد لقاء فى الجنة ، قبل أن يدخل كل منهم المعركة الواحدة بعد الآخر ، وكذا فعل أبناء عمومته حتى قتلوا جميعاً ، واستطاع شمر بن ذى الجوش ومعه فرقة من الجند ، أن يبعدوا الحسين عن معسكر النساء والأطفال ، ثم انقضوا عليه طعناً وضرباً حتى أصابوه بثلاث وثلاثين طعنة وأربع وثلاثين ضربة ، وسلبوه سراويله وقطيفته ، ونعليه وسيفه .. ثم مالوا على نساء الحسين ومتاعه حتى كانت المرأة لتنازع ثوبها عن ظهرها حتى تغلب عليه ^(٢) .

قتل الحسين ، ووطأت الخيل جثمانه ، واحتز رأسه ، وحمل إلى ابن زياد ، الذى أمر أن يدار به فى الكوفة ، ثم أرسله مع نساء آل البيت وأطفالهم إلى يزيد بدمشق ، فلما وضع الرأس بين يديه ، أخذ بنكته بقضيب كان بيده ، ويقول :
يُفْلَقْنَ هَاماً من رجالٍ أعزّة علينا وهم كانوا أعق وأظلماً

(١) تاريخ الطبرى ٦ / ٢٢٦ ، وابن الأثير ٤ / ٤٣ (بيروت) وفيه « من مكة » .

(٢) تاريخ الطبرى ٦ / ٢٦٠

وكان في حضرته أبو بُردة الأسلمي الصحابي ، فقال له : « ارفع قضيبك ، فطال والله ما رأيت رسول الله ﷺ يضع فمه على فمه يلثمه » (١) .

ويقال : إن يزيد لما قتل الحسين ، تمثل بقول عبد الله بن الزبير متشفيا في قتل المسلمين بأحد :

ليت أشياخي بيدر شهدوا جزع الخرج من وقع الأسل
لاستطاروا واستهلوا فرحا ثم قالوا : يا يزيد لا تسأل
والبيت الثاني من صنعة يزيد ، لا من قول ابن الزبير (٢) .

ويقال أيضا : إن يزيد حين علم بمقتل الحسين دمعت عيناه ، وقال : كنا أرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين ، لعن الله بن سميّه (عبيد الله بن زياد) ، أما والله لو أنى صاحبه لعفوت عنه ، فرحم الله الحسن » (٣) .

وقالوا : وكان جميع من حضر مقتل الحسين من العساكر ، ومحاربيه ، وتولى قتله من أهل الكوفة خاصة ، لم يحضرهم شامي (٤) .

وكان مقتل الحسين مع جماعة كبيرة من أهل بيته ، على يد جند يزيد ، وعلى هذه الصورة التي ذكرنا ، جريمة بشعة ، ومأساة مروعة صدمت عواطف المسلمين على اختلاف طوائفهم وأمصارهم ، فلم يكن أحد يتصور أن تبلغ الجرأة بالأمويين إلى حد عدم مراعاة حرمة الرسل في آل بيته ، بل إن الحسين نفسه لم يمكن يتصور هذه الجرأة ، فقد اعترضه الحر بن يزيد التيمي في ألف فارس من جند ابن زياد ، وناشده ألا يعرض نفسه وآل بيته للقتل ، قائلًا : « إني أذكرك الله في نفسك ، فإني أشهد لعن قاتلت لتقتلن » فقال له الحسين : « وهل يعدو بكم الخطب أن تقتلوني ؟! » (٥) .

لقد ألهمت مأساة الحسين وآل بيته ، عواطف المسلمين وضمايرهم ، فهبوا من

(١) مقالات الإسلاميين ١ / ١٤٢ ، ومروج الذهب (البهية) ٢ / ٩٠ ، والكمال لابن الأثير ٤ / ٨٥ (بيروت ١٩٦٥ م) وفيه « أبو برزة » .

(٢) رسائل الجاحظ ٢ / ١٤

(٣) ابن الأثير (بيروت) ٤ / ٨٤ ، وانظر : تاريخ الطبري ٦ / ٣٦٤

(٤) مروج الذهب (البهية) ٢ : ٩١ ، وانظر : الخوارج والشيعة ١٨٣

(٥) ابن الأثير ٤ / ٨٤ .

كل صقيع يستنكرون هذه المذبحة المروعة ، التي راح ضحيتها حفيد الرسول ﷺ وشباب آل بيته ، وعلت الأصوات تندد بالأمويين السفاحين القتلة ، وتهافت الناس ينضوون تحت لواء آل البيت ، ويتشيعون لهم ، ويهددون بطلب ثأر الحسين ، فتعاضم أمر حزب الشيعة ، وازداد خطره ، واكتسب أنصارا جددا ، ممن كانوا يتخذون موقف الحياد من الأحزاب السياسية المتطاحنة ، إلى جانب كثير من الموالي ، وخاصة بالعراق ، وعلى الأخص بالكوفة ، حيث كان الموالي يؤلفون أكثر من نصف سكانها ^(١) .

ولعل ثورة المختار بن أبي عبيد الثقفي ، خير مثل يعكس مدى ما بلغه التشيع لآل البيت من ازدهار وقوة ، وكثرة أنصار ، عقب مقتل الحسين ، وكان شعار هذه الثورة « يا ثارات الحسين » ^(٢) .

وكان الموالي يمثلون كثرة عظيمة بين أنصار هذه الثورة ، وكان المختار يوليهم معظم ثقته ، ويقرهم إليه كل القرب ^(٣) ، وتحمس الموالي لإظهار تشيعهم ، فقد حانت الفرصة لأن ينتعش أملهم في التخلص من الولاء من ناحية ، وللنجاة من عنت الأمويين واضطهادهم من ناحية أخرى ؛ إذ كان الأمويون يرون كبح جماح هذه الأجناس غير العربية ، وتذكيرهم دائما بنفوذ الدولة العربية وسيطرتها ، حتى يتطامنوا ، ويخضعوا لها ، ولا تحدثهم نفوسهم بالخروج عليها .

ولأدل على ذلك من قول معاوية بن أبي سفيان : « إني رأيت هذه الحمراء (يعنى الموالي) قد كثرت ، وكأني أنظر إلى وثبة منهم على العرب والسلطان ، فقد رأيت أن أقتل شطرا ، وأدع شطرا لإقامة السوق ، وعمارة الطريق ، ولكنه عدل عن ذلك » ^(٤) . على أنه ينبغي لنا أن نتحفظ بالنسبة لإقبال الموالي على التشيع ، حتى لانقع في وهم إخلاص هؤلاء الموالي جميعا لعقيدة الشيعة وآرائهم ونظرياتهم وأهدافهم السياسية .

(١) الخوارج والشيعة ٢١١ ، وانظر : تيارات ثقافية بين العرب والفرس ١٤٣ ، وأصل الشيعة وأصولها

١١٨ — ١١٩

(٢) ابن الأثير (بيروت ٤ / ٢١٨ ، وانظر خبر ثورة المختار ، وتعاضم أمر الشيعة في المصدر نفسه ٤ /

٢١١ وما بعدها .

(٣) انظر : الخوارج والشيعة ٢١٢

(٤) العقد الفريد ٢ / ٩٠

حقا قد يكون من بينهم من اعتنق التشيع عن اعتقاد بصوابه ، واقتناع بحق آل البيت في خلافة الرسول باعتبارهم ورثته الشرعيين ، وبحكم الحق الإلهي ، الذي كان الفرس يؤمنون به في عهد الملوك الساسانية ، وبمقتضاه كان ملوك الفرس « يزعمون أنهم وحدهم أصحاب الحق في لبس التاج ، بما يجري في عروقهم من دم إلهي ^(١) » .

غير أننا لانشك في أن كثرة منهم كانت تشيع ، إما نكاية في بنى أمية ، الذين كانوا يبغضونهم أشد البغض ، ومن ثم فهم على فهم على استعداد للانضمام إلى كل حركة تناوى الأمويين ، وإما تسترا بالتشيع لعل وبنيه « لأعن موالاة خالصة للعلوية ، ولا عن حمية للحق المسلوب ، بل لبث الفرقة والانقسام ، وتقويض الوحدة ، وزلزلة القوة ؛ ليكون هذا وسيلة لاسترجاع الحكم الفارسي ، والخلاص من الحكم العربي ^(٢) » .

كان هذا في العراق ، أما الحجاز فقد عبر عن سخطه على الأمويين قتلة الحسين ، بخروج عبد الله بن الزبير على يزيد بن معاوية (سنة ٦٣ هـ) بمكة ، وسرعان ما خلعت المدينة طاعة يزيد ، وأخرجوا عامله عليها ، وحصرها بنى أمية ومواليهم في دار مروان بن الحكم ، حتى كتبوا إلى يزيد يستغيثون به ، فوجه إليهم مسلم بن عقبة المري ^(٣) في اثني عشر ألفا من جند الشام ، لقتال أهل المدينة أتباع ابن الزبير ، فأوقع بهم في موقعة الحرّة بالمدينة ، وقتل منهم مقتلة عظيمة ^(٤) ، وأباح المدينة لجنده ثلاثا يقتلون الناس ، ويأخذون المتاع والأموال ^(٥) .

ثم أخذ البيعة من الناس على أنهم حول ليزيد ، يحكم في دمائهم وأموالهم وأهلهم من شاء ، فمن امتنع من ذلك قتله ^(٦) .

(١) تيارات ثقافية بين العرب والفرس ٨٦ ، وانظره : ١٤٦

(٢) المصدر السابق ٢٢٥

(٣) يقال : إنه قدم المدينة وشهد وقعة الحرّة وهو شيخ مريض في محفة ، ثم توفي بعد قليل في أوائل سنة ٦٤ هـ : العبر للذهبي ١ / ٦٦

(٤) كانت وقعة الحرّة لليلتين بقيتا من ذى الحجة سنة ٦٣ هـ ، وفيها قتل من أبناء المهاجرين والأنصار ثلثمائة وستة ، وعدد من الصحابة ، وقيل : بل ثلاثة آلاف من قريش والأنصار ، وانظر : العبر للذهبي ١ / ٦٧ ، وتيارات ثقافية ١٤٣ ، وانظر في أخبار هذا اليوم أيضا : أيام الرعب في الإسلام ٤٠٩ — ٤٢١

(٥) ابن الأثير ٤ / ١١٧

(٦) مروج الذهب ٢ / ٩٥ (الهبة) وابن الأثير ٤ / ١١٨

بعد موقعة الحرة اتجه مسلم بن عقبة إلى قتال ابن الزبير بمكة ، فلما بلغ قديداً مات ، واستخلف على الجيش الحصين بن ثُمير ، فسار الحصين حتى أتى مكة وحاصرها ، ولما لاذ ابن الزبير بالكعبة ، ضربها بالمجانيق والعرادات ، وحرق أستارها ^(١) في خلال ذلك مات يزيد بن معاوية (بعد بضع وسبعين يوماً من موقعة الحرة في منتصف ربيع الأول سنة ٦٤ هـ) فعاد جيشه إلى الشام ، ونصب عبد الله بن الزبير خليفة ، وأطلق على نفسه « العائد بالبيت والمستجير بالرب » ^(٢) . واستوثق الأمر لابن الزبير ، وانتشرت دعوته في كثير من الأمصار الإسلامية ، حتى كادت الأمة تجتمع عليه ^(٣) ، فقد أخذت له البيعة بالشام ، وخطب له على سائر منابر الإسلام ، إلا منبر طبرية من بلاد الأردن ^(٤) .

ومع ذلك كانت دعوة ابن الزبير ، أو فلنقل : حربه ، من أقصر الدعوات والأحزاب عمراً ، في عصر بني أمية ، فقد ظهر هذا الحزب حين أعلن ابن الزبير نفسه خليفة بعد مقتل الحسين بن علي (سنة ٢٦ هـ) ، وبعد وفاة يزيد بن معاوية اجتمعت على دعونه أقطار : الحجاز ، والعراق ، واليمن ، ومصر ، وبعض بلدان الشام ، بل يقال : إنه غلب على دمشق عاصمة الأمويين ^(٥) .

ولكن مروان بن الحكم سرعان ما استخلص الشام من أيدي ابن الزبير بعد موقعة « مرج راهط » ^(٦) ، التي قتل فيها الضحّاك بن قيس الفهري زعيم القيسية ، ووالى ابن الزبير على دمشق ، بفضل انضواء البمانية وبواديها — المعادية للقيسية والموالية للأمويين منذ أيام معاوية ، الذي تزوج منهم ميسون بنت بحدل الكلبية أم يزيد ولده — تحت لوائه ، وهُزمت القيسية ، وقتل منها مقتلة عظيمة ، لم يرمثلها قط ، وفي ذلك يقول مروان بن الحكم ^(٧) :

(١) ابن الأثير ٤ / ١٢٤ و مروج الذهب ٢ / ٩٧ ، وانظر : تاريخ الشعوب الإسلامية ١ / ٥٥

(٢) مروج الذهب ٢ / ٩٩

(٣) العبر للذهبي ١ / ٧٠

(٤) ابن الأثير (بيروت) ٤ / ١٤٤ ، و مروج الذهب (البية) ٢ / ١٠٤

(٥) انظر : العبر للذهبي ١ / ٧٠ ، وتاريخ الشعوب الإسلامية ، ١ / ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧

(٦) موضع على أميال من دمشق ، وكانت هذه الواقعة في المحرم سنة ٦٥ هـ ، وقيل : في آخر سنة ٦٤ هـ ،

وانظر : ابن الأثير (بيروت) ٤ / ١٥٠

(٧) مروج الذهب (البية) ٢ / ١٠٧

لما رأيت الناس صاروا حزبا
والمال لا يؤخذ إلا غصبا
دعوت غسانا لهم وكلبا
والسكسكيين رجالا غلبا
والقين تمشى في الحديد نكبا
والأعوجيات يثن وثبا
يحملن سروات ودينا صلبا

ثم لم يلبث ابنه عبد الملك بن مروان أن قضى على دعوة ابن الزبير في العراق ،
بقتل أخيه مصعب بن الزبير ، واليه على العراق ^(١) ، بعد أن تخلّى أهل العراق عن
مصعب ، وغدروا به ، كما فعلوا من قبل بعلى بن أبى طالب وابنيه الحسين والحسن .
وإلى هذا تشير سكينه بنت الحسين وزوج مصعب ، حين خرجت من
الكوفة تريد المدينة بعد مقتل مصعب ، فأطاف بها أهل الكوفة فقالوا : أحسن الله
صحابتك يا بنت رسول الله ، فقالت : والله لقد قتلتهم جدى وأبى وعمى وزوجى
مصعبا ، أيتمتمونى صغيرة ، وأرملتمونى كبيرة ، فلا عافاكم الله من أهل بلد .
كما قضى الحجاج بن يوسف الثقفى قائد عبد الملك بن مروان ، على ابن
الزبير ودعوته بالحجاز ، بعد أن حاصر مكة ، وضرب الكعبة بالمنجنيقات ، حينما لاذ
بها ابن الزبير فاحترقت ، وانتهت بذلك دعوة ابن الزبير (سنة ٧٢ هـ) ^(٢) .

وقد ارتكب ابن الزبير عدة أخطاء ، كانت سببا فى القضاء على دعوته ، وتقصير
عمر حزبه ، بل واغتيال حياته ، من أهمها ، إخفاق سياسته فى مصانعة المختار بن عبيد
الثقفى ، مما جعل المختار يخلع طاعته ، ويحجده بيعته بالعراق ، ويرتضى فى أحضان الطالبين
وأىضا اضطهاده للهاشميين ، واشتداد وطأته عليهم ، مما أفقده عطف المحبين

(١) كان مقتله سنة ٧٢ هـ لثلاث عشرة خلت من جمادى الأولى .

(٢) قيل : بايع أهل الحرمين ابن الزبير سنة ٦٤ هـ ، وقتل بمكة سنة ٧٣ هـ . وانظر : العبر للذهبي

١ / ٧٠ ، ٨٢ وفى انتهاء أمر مصعب وابن الزبير ، انظر : ابن الأثير (بيروت) ٤ / ٣٢٣ — ٣٢٨ —

٣٥٧ ، ومروج الذهب (البهية) ٢ / ١١٨ — ١٢٥

لآل البيت ، فقد عمد إلى من بمكة من بنى هاشم فحصرهم في الشعب ، وجمع لهم حطباً عظيماً .. ومنهم محمد بن علي بن أبي طالب ، المعروف بمحمد بن الحنفية ، إرهاباً لهم ليدخلوا في طاعته (١) .

يضاف إلى هذا ما عرف به ابن الزبير من البخل ، والإعراض عن استمالة القلوب بالمال ، والشح بالدنيا على سائر الناس ، مما صرف قلوب المؤلفة قلوبهم عنه ، وعلى الأخص قلوب الشعراء وألستهم ، وإلى هذا يشير أبو حرة مولى الزبير (٢) :

إن الموالى أمست وهى عاتبة على الخليفة تشكو الجوع والحربا
ماذا علينا وماذا كان يرزؤنا أى الملك على ماحولنا غلبا

وهكذا لم تمض سنوات قليلة من حكم الأمويين ، حتى اجتمع في الحجاز ، والعراق أحزاب ثلاثة ، كانت تعارض دولة بنى أمية ، وتعمل جاهدة على تفويض ملكهم ، وإزالة دولتهم ، وهى : الشيعة ، والخوارج ، والزبيديون ، فإذا أضيف إليهم حزب بنى أمية ، اتضح لنا مدى التصدع الخطير الذى أصاب وحدة الأمة الإسلامية في هذا العصر .

ولئن كان هذا الانقسام والتصدع نقمة خطيرة على وحدة الأمة الإسلامية ، فإنه من جهة أخرى ، كان نعمة وبركة على الحياة الأدبية بعامة ، والشعرية بخاصة ، في العصر الأموى ؛ حيث تنافست الأحزاب في اصطناع الشعراء ، واتخاذ الشعر سلاحاً قوياً لنشر دعوة الحزب ، وآرائه ، والإشادة بسياسته ، وإظهار تأييده ونصرته ، ومناهضة خصومه ، فتوزع الشعراء على الأحزاب ، وأخذوا ينظمون شعرهم معبرين عن نظريات سياسية جديدة ، وأفكار ومبادئ موروثة ومستحدثة ، فأثروا في الشعر العربى من هذه الناحية ، تأثيراً كبيراً ؛ إذ وجهوه ناحية الحزبية والنشاط السياسى .

وأستأثر الحزب الأموى بأكثر هذا الشعر ، كما فاز باجتناب أكبر عدد من شعراء العصر ؛ لسخاء بنى أمية ، وضخامة عطائهم ، وطمع الشعراء في جوائزهم .

(١) مروج الذهب (البية) ٩٧ / ٢ - ١٠٠ والخوارج والشيعة ٢١٦

(٢) مروج الذهب (البية) ٩٩ / ٢

بذلك تراخت قبضة ولاية الأمور على الشعر والشعراء ، بعد أن كان الراشدون يتعقبونهم ، ويشددون النكير عليهم ، بخاصة عمر بن الخطاب ، الذى تقدم إلى الشعراء أن لا يشبَّ أحد منهم بامرأة إلا جلده ^(١) ، كما حبس الخطيئة ، وهدده بقطع لسانه لما هجا الزبرقان بن بدر ، حتى ضج الخطيئة ، واعتذر إلى عمر ، فخلى سبيله ، وأخذ عليه العهد ، أن لا يهجو أحدا ، وجعل له ثلاثة آلاف درهم ، على أن يكف عن تناول أعراض المسلمين فى شعره ^(٢) .

كما أخذ النجاشى بمثل هذه الشدة لما هجا بنى العجلان ، بقوله ^(٣) :
 وما سئى العجلان إلا لقيهم خذا القعب واحلب أيها العبد واعجل
 ولما هجا الشماخ بن ضرار الذيبانى ^(٤) بنى سليم ، ونال من أعراضهم ، بقوله مخاطبا امرأة منهم ، تدعى أسماء ^(٥) :
 وإنك من قوم تحن نساؤهم إلى الجانب الأقصى حنين المنائح
 استدعاه الخليفة الراشد عثمان بن عفان من البادية ، وهدده ، لولا أن أقسم الشماخ يمينا مغلظة على منبر رسول الله أنه ما هجاهم .

بعد هذه المراقبة الشديدة للشعر والشعراء فى عصر الراشدين ، صار الخلفاء ، وزعماء الأحزاب فى العصر الأموى يهتمون بالشعر ، ويقرّبونهم ، ويجزلون العطاء لهم ؛ رغبة فيما يقومون به من دعاية لمذاهبهم ، ودفاع عن وجهات نظرهم ، فانفتح باب هذا اللون من الشعر ، أمام الشعراء ، على مصراعيه ، وتدفقت الدماء فى شرايين الشعر بعد أن كادت تجف ، فى عصر الراشدين ، وعاود الشعراء شياطينهم ، فنهض الشعر من عقالة ، ونفض عن مناكبه غبار الزمن ، وصدأ الإهمال .
 ولما كان هذا الشعر السياسى معبراً عن آراء الأحزاب ، التى يتحدث باسمها ، ومتأثراً بمذاهبها الدينية والسياسية ، فإنه ينبغى علينا أن نخص كل حزب منها بعرض

(١) الأغاني ٤ / ٩٧

(٢) ديوان المعاني لأبى هلال العسكري ١ / ٣٨ - ٣٩

(٣) المصدر السابق ١ / ١٧٦ - ١٧٧

(٤) انظر خير وشعره فى كتابنا : الشماخ بن ضرار الذيبانى حياته وشعره .

(٥) ديوان الشماخ بتحقيقنا ١٠٨ ، وانظر : الشماخ بن ضرار حياته وشعره ٩٣ - ٩٤

موجز ، يلم بالسلمات العامة لأصول سياسته ومبادئه ، ودعائم مذهبه ؛ حتى يتسنى لنا فهم نصوص الشعر التي دارت مضموناتها حول هذه الأحزاب ، ولتقف على مآلعه هذه النصوص من عناصر متطورة أو جديدة في حقل الفن الشعر لهذا العصر ، ثم لتبين مدى نجاح هذا اللون من الشعر ، أو قصوره في خدمة السياسة الحزبية التي دار في فلکها .

أ — حزب الشيعة :

قلنا : إن التشيع لعل في حياته كان تشيعاً عاطفياً ^(١) ، لُحْمَتُهُ وسَدَّاهُ حب آل بيت رسول الله ﷺ ، وأنه ظل كذلك إلى أخريات أيام عليّ ، حيث نادى عبد الله بن سبأ — الذي كان يهودياً ثم أسلم ^(٢) — بأن علياً فيه طبيعة إلهية .

ومن الجلي أن هذا الغلو في عليّ ليس إسلامياً ، ولا يقره الإسلام ، وإنما هو دخيل على العقيدة الإسلامية ، متسرب من بعض الديانات السابقة على الإسلام ، ولعلها المسيحية ، فما ذهب إليه ابن سبأ في عليّ ، يشبه ما ذهب إليه بعض الطوائف المسيحية في الشرق ، قبيل الإسلام ، وعلى الأخص من أتباع الكنيسة المملكانية ، من أن للمسيح طبيعتين : إحداهما إلهية ، والأخرى بشرية (أو لاهوتية وناسوتية) ^(٣) .

ولما وصلت مقالة ابن سبأ إلى مسامع عليّ أنكرها أشد الإنكار ، وغضب عليّ ابن سبأ غضباً جعله ينفه إلى ساباط المدائن ^(٤) ، واستتاب بعض أتباعه من غواة

(١) راجع ص ٩ ، ١٢ من هذا البحث ويذهب بعض الشيعة إلى أن التشيع لعل يرجع في نشأته إلى أيام النبي ﷺ وأنه ﷺ هو واضع بذرة التشيع في حقل الإسلام ، مع بذرة الإسلام جنباً وأنه ظل يتعهد بها بالعناية حتى نمت وازدهرت في حياته ثم أثمرت بعد وفاته ويستشهدون بأقوال يروونها عن النبي ﷺ وآيات قرآنية يتأولونها ، وعلى هذا فالشيع لعل كان موجوداً في حياة النبي ﷺ وشيعة على آنذاك هم الذين لازموا ، وجعلوه إماماً كميلغ عن الرسول ، وشارح ومفسر لتعاليمه ، وأسرار حكمه وأحكامه . انظر أصل الشيعة وأصولها ١٠٩ وما بعدها ، ١١٢

(٢) انظر : الفرق بين الفرق ٢٢٥

(٣) انظر : تاريخ الفلسفة في الإسلام ١٥ — ١٦ ، وعقيدة الشيعة ٥٩

(٤) الملل والنحل ٢ / ١١ ، وانظر : الفرق بين الفرق ١٥

الكوفة ، ولكنهم لم يتوبوا فأحرقهم في حفرتين ، وفي ذلك يقول أحد الشعراء : ^(١)

لنرمي الحوادث حيث شاءت إذا لم ترمي في الحفرتين

وبعد مقتل عليّ نادى ابن سبأ برجعته ، وأنه لم يمت ، إلى غير ذلك من العقائد المتطرفة المتأثرة بديانته القديمة ، فكان بذلك رأس فرقة عرفت في تاريخ التشيع بالسبئية ، نسبة إليه ، كانت آراؤها من الأسس التي قامت عليها بعض الفرق الغالية ^(٢) من الشيعة كالكيسانية ^(٣) أتباع محمد بن الحنفية ^(٤) « التي تنسب بعلي وذريته علما لدنياً فوق الطبيعة البشرية ، به تنكشف بواطن الوحي الإلهي » ^(٥) .

وعندة مقالة الكيسانية ، أن الدين طاعة رجل ، يعتقدون فيه الإحاطة بالعلوم كلها ، ومعرفة الأسرار ، من علم التأويل والباطن وغيرهما ^(٦) .

وإلى جانب هاتين الفرقتين الغاليتين ، قامت فوق أخرى معتدلة في تشيعها لعلّي وآل بيته ، من أشهرها ، فرقة الزيدية ، أتباع زيد بن علي بن الحسين بن علي .

وأكثرية فرق الزيدية ، المعاصرين للدولة الأموية ، لايجبون تسلسل الإمامة من أب إلى ابن بطريق الوارثة المباشرة ، في أبناء علي والحسن ، والحسين ، وابن الحنفية ، وإنما يعترفون بإمامة كل علوي — دون مراعاة لانتسابه لواحد من أبناء علي الثلاثة — له من الاستعداد الروحي للرياسة الدينية ، مايعنيه على إظهار مواهبه في نضاله من أجل الغاية المقدسة ، وهي إرجاع الحق لآل البيت العلوي ، فيكون بذلك أهلاً لطاعة الجماعة إياه وانضوائها تحت لوائه .

(١) الفرق بين الفرق ٢٣٣

(٢) راجع في هذا : الملل والنحل ١ / ٢

(٣) هم أصحاب كيسان ، مولى علي بن أبي طالب ، وقيل : بل تلميذ بن الحنفية ، أو مولى له ، وقيل : إنما سموا بالكيسانية لإضافتهم إلى المختار بن أبي عبيد الثقفي ، وكان اسمه كيسان ، ويكنى أبا عمرة . انظر : مقالات الإسلاميين ١ / ٨٩ — ٩٠ والملل والنحل ١ / ١٩٦ ، والفرق بين الفرق ٢٧ ، وشرح رسالة الحور العين ١٨٢ ، ومزيد تفصيل في : تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي ١٥١ ، ويذهب فلهوون في كتابه الخوارج والشيعة ٢٣٩ إلى أن السبئية يسمون أيضاً الكيسانية ، ولعله يعني أن الفرقتين اندجتا في فرقة واحدة سميت بهذا الاسم أو ذاك .

(٤) هو أبو القاسم محمد بن علي بن أبي طالب ، وكانت أمه من بني حنيفة فنسب إليها ، وكانت شيعته تلقبه بالمهدي ، وترغم أنه لم يمت ، وأنه مختلف بجبل رضوى ، توفي عن تسعة وستين عاما سنة ٨١ هـ

(٥) تاريخ الفلسفة في الإسلام ص ٥

(٦) الملل والنحل ١ / ١٩٦

وهم لا يقولون أيضا بعقيدة العلم الباطني عند الأئمة ، وإن مالوا إلى القول بامتياز الأئمة في فقه الدين ، والمعرفة بالله ، لأخذهم عن جدتهم النبي ﷺ الآخذ عن الله . كما أنهم لم يضيفوا على الأئمة من صفات التقديس ماضفاه غيرهم من الشيعة الغالية على أئمتهم ، فإمامهم يأخذ صورة واقعية للإمام ، الذي يعمل في الحياة ، في نضال مكشوف ، ويكون على رأس الجماعة الإسلامية حاكما وفقها ؛ ومن ثم لو يؤمن هذا الفريق من الشيعة بالتقية ، أو العمل السرى .

هذا فضلا عن استمساكهم برأى مؤسس مذهبهم الإمام زيد بن علي في حكمه على خلافة أبي بكر وعمر وعثمان ، فلم يشاركوا غيرهم من الشيعة المتطرفة في لعنهم والبراءة منهم ، ومن سائر الصحابة الذي بايعوهم ، وتركوا عليا ، ولكنهم يأخذون عليهم عدم إدراكهم للمواهب الفذة ، التي امتاز بها علي ، وجعلته يفضل هؤلاء جميعا ، دون أن يحملوهم وزر هذا الخطأ في التقدير ، بإقامة المفضول إماما ، مع وجود الفاضل ؛ ولذا لانجدهم ينظرون إلى الخلفاء الثلاثة الأول نظرة القاهرين الغاصبين ^(١) .

من أجل هذا وغيره ، يمكن أن يعد الشيعة الزيدية ، الفرقة الشيعية المعتدلة حيال أهل السنة .

لعله قد اتضح لنا مما تقدم أن التشيع لعلى وآل بيته لم يأخذ طابع المذهبية ، القائمة على أسس ، ومبادئ ، وعقائد إلا بعد وفاة علي بن أبي طالب .

ولسنا هنا في مقام عقائد الشيعة في العصر الأموي ، وإنما يعيننا منها ماترك تأثيرا في الشعر الشيعي ، أو انبعث عنه هذا الشعر ، أو كان له انعكاس فيه ، وجملة ذلك تلك العقائد والنظريات الدينية والسياسية ، التي تكاد تجمع عليها فرق الشيعة عدا أكثرية الزيدية ، وأهمها مايلي :

١ — يتفق الشيعة مع أبي حنيفة ، وأكثر المرجئة في أن الإمامة ^(٢) لا تجوز إلا في

(١) انظر في عقائد فرق الزيدية المتعددة : مقالات الإسلاميين ١ / ١٣٧ ، والعقيدة والشرعية في الإسلام

(٢) لا يميل الشيعة إلى لقب الخليفة والخلافة ، ويفضلون أن يلقبوا من يدينون له بالطاعة من آل البيت في كل عصر بالإمام ؛ لأن هذا اللقب يدل في معناه على مقام ديني ، ومكانة دينية ملحوظة ، لا توجد في غيره من الألقاب . انظر : العقيدة والشرعية ١٧٥

قريش ؛ لقول النبي ﷺ : « الإمامة في قريش » ^(١) وقوله : « قدموا قريشا ، ولا تَقْدِّموها » وأدلة أخرى عديدة ، يوردونها من النص والعقل ^(٢) ، ثم يخالفون كل الفرق والمذاهب في الإمامة — عدا ماذكرنا — على النحو التالي :

٢ — الإمامة ليست من المصالح العامة ، التي يوكل الأمر فيها للمسلمين ليختاروا من يسوسهم وفق أحكام الله ، وإنما هي ركن من أركان الإسلام ، لا يجوز للرسول ﷺ إغفاله ، وإهماله ، ولا تفويضه إلى العامة ^(٣) ؛ لأنها منصب إلهي كالنبوة ، فكما أن الله سبحانه يختار من يشاء من عباده للنبوة والرسالة ، فكذلك يختار للإمامة من يشاء ، ويأمر نبيه بالنص عليه ، إماماً للناس من بعده ، للقيام بالوظائف التي كان على النبي أن يقول بها ، غير أن الإمام لا يوحى إليه كالنبي ^(٤) .

فالإمامة إذن ، ركن من أركان الإسلام ، ولا تكون إلا بالنص ، من الله ﷻ ورسوله ﷺ على عين الإمام ، واسمه ، وصفاته ، وفي سائر الأعصار لا تخلو الناس من حجة الله فيهم (الإمام) ظاهرا وباطنا ، على حسب استعماله التقية ، والخوف على نفسه .

والذي يبدو أن الشيعة إنما قالوا بالنص من الله ورسوله على الإمام ؛ لأنهم ماكان لهم أن يعتمدوا في القول بإمامة على وأبنائه على حق القرابة والإرث وحدهما ؛ لأنها لا ينهضان بهذا الحق ، والإلكان العباس عم النبي ﷺ صاحب الحق وحده — بعد النبي — لأنه عمه ، وعلى ابن عم ، وهو محجوب الإرث في حالة وجود العم ، وفاطمة بنت النبي ﷺ لاحق لها كذلك ؛ لأن الولاية لا تكون للنساء في الإسلام ، وولداها (الحسن والحسين) من بنى البنات ، وهم لا يرثون مع العم ، لكل هذا قال الشيعة بالنص على الإمام من الله ورسوله ، على اسم الإمام وذاته ، وإن قال بعضهم : يكفي في النص ، الإشارة ، وذكر صفات لا توجد إلا فيه .

٣ — إمامة عليّ بن أبي طالب نص عليها الرسول ﷺ ، وأوصى له بها فعليّ هو صاحب الحق في الإمامة بالنص والوصية .

(١) روى ذلك عن أبي بكر عن النبي ﷺ . انظر الفرق بين الفرق ١٣

(٢) انظرها : في مروج الذهب (البية) ٢ / ١٩٢

(٣) الملل والنحل ١ / ١٩٥

(٤) أصل الشيعة وأصولها ١٢٨ ، وانظر : عقائد الإمامية ٧١ ، وعقيدة الشيعة ٢٦

والشيعة يستندون في دعوى النص هذه على ما يروى من أن النبي ﷺ قال لعل في عزوة تبوك : « أنت منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لانيى بعدى » ، وأنه أخذ البيعة له بإمرأة المؤمنين يوم « غدیر خم » فقال : « ألا من كنت مولاه فهذا على مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ، وانصر من نصره ، واخذل من خذله ، وأدر الحق معه حيث دار » بل إن النبي ﷺ نص على إمامة على حينما دعا أقرباءه الأذنين ، وعشيرته الأقربين بمكة في أول الدعوة ، فقال : « هذا أخى ووصى ، وخليفتى من بعدى ، فاسمعوا له وأطيعوا » وعلى يومئذ صبى لم يبلغ الحلم ... إلى غير ذلك من الأقوال المنسوبة إلى الرسول ﷺ والآيات المؤولة على النحو الذى يترضون (١) .

ويعتقد الشيعة أن عليا أوصى بالإمامة إلى ولده الحسن ، ونص عليه بعد أن طعنه ابن ملجم ، وأن الحسن أوصى للحسين ، ويقال : بل أن عليا نص عليهما ، لأنهما شريكاه في آية التطهير (٢) .

٤ — الإمامة في ذرية على من بعده ، تتسلسل منهم بنص الإمام السابق على لاحقه ، ووصيته له ، ولا تخرج عنهم إلى سواهم ، وإن كانت فرق الشيعة قد اختلفت في تعيين الأئمة من ذرية على ، أهم من نسل الحسن ؟ أم الحسين ؟ أم هى بعدهما في أخيهما لأبيهما محمد بن الحنفية ؟

٥ — يجب على المسلمين أن يولوا عليهم صاحب النص والوصية في كل عصر ، وكل من يمنعه حقه ، في الإمامة مخطيء عند معتدلى الشيعة — كالزيدية — وكافر عند الغلاة منهم ، يتبرعون منه ؛ ولذا حكم غلاة الشيعة بكفر الصحابة جميعا ؛ لأنهم بايعوا أبا بكر ، وعمر ، وعثمان ، وتركوا عليا ، صاحب الحق المنصوص عليه ، والموصى له من قبل النبي ﷺ ، كما كفروا بنى أمية وأنصارهم ، لاغتصابهم الإمامة من ذرية على .

٦ — الإمام في كل عصر هو المصدر الشرعى الوحيد للتوجيه والإشارد الدينى في الجماعة الإسلامية لأنه وحده — بمقتضى الاختيار الإلهى ، وصفة العصمة التى وهبها الله إياها — قد خول له ووكل إليه تعليم جماعة المسلمين ، وتوجيههم ، في كافة شئونهم

(١) انظر : عقائد الإمامية ٧٨ ومروج الذهب (البهية) ٢ / ٤٩ ، ٦١ ، وأصل الشيعة وأصولها ١١٣

(٢) أصل الشيعة وأصولها ١٣٦ ، وانظر : مروج الذهب (السعادة) ٢ / ٤٢٥ ، وعقيدة الشيعة ١٠٠

الدينية ، وهذه نتيجة ضرورية ترتبت عن العدالة الإلهية ، التي اقتضت أن لا يحرم أى جيل من هذا التوجيه والارشاد .

وإذن ، فوجود إمام لكل عصر أمر ضرورى لاغنى عنه ؛ لأن الغاية من التشريع السماوى ، والتوجيه الإلهى ، لا تتحقق دون إمام حائز لمثل هذه الهداية ، وهذه العلوم الربانية ، فالإمامة نظام واجب ، كما يجب أن يكون الإمام أعلم الخلق ؛ لأنه يقيم حدود الله ، وإلا وضع أحكام الله فى غير مواضعها ^(١) .

وعلم الإمام يتلقاه من طريق النبى أو الإمام من قبله ، وإذا استجد شئ لابد أن يعلمه من طريق الإلهام بالقوة القدسية التى أودعها الله تعالى فيه ، فإن توجه إلى شئ ، وشاء أن يعلمه علمه على وجهه الحقيقى ، لا يخطئ فيه ، ولا يشبهه ، ولا يحتاج فى كل ذلك إلى البراهين العقلية ، ولا إلى تلقينات المعلمين ، فقوة الإلهام عند الإمام قوة قدسية ، تبلغ الكمال فى أعلى درجاته ، وغلاة الشيعة يثبتون العلم للإمام إرثا ، بغير حاجة إلى تعلم ، ومنهم من زعم أن النبى ﷺ بث علما علوما ، كان يخفيها عن جمهور صحابته ؛ لأنهم لم يكونوا أهلا لها ، وقد توارث العلويون هذه العلوم ^(٢) .

٧ — الأئمة كالأنبياء معصومون وجوبا من الكبائر والصغائر ، ومن الفواحش مآظهر منها وما بطن ، من سنّ الطفولة إلى الموت ، عمدا ، أو سهوا ، كما أنهم معصومون من السهو والخطأ والنسيان ، لأن الأئمة حفظة الشرع ، والقوامون عليه ، حالهم فى ذلك حال النبى ^(٣) ؛ ولأن الإمام لو لم يكن معصوما ، لم يأمن أن يدخل فيما يدخل فيه غيره من الذنوب ، فيحتاج إلى أن يقام عليه الحد ، كما يقيمه هو على غيره ، فيحتاج الإمام إلى إمام ... وهكذا إلى غير نهاية ، ولم يؤمن عليه كذلك أن يكون فاسقا فاجرا فى الباطن ^(٤) ، والفسق غير جائز عليه ظاهرا وباطنا ، كما لا يجوز على النبى .

٨ — التقية : وهى فى مفهومها العام تعنى : الحيلة والحذر ، وعند الشيعة :

(١) العقيدة والشرعة ١٧٦ ، ومروج الذهب ٢ / ٩٢

(٢) عقائد الإمامية ٧٣ ، والعقيدة والشرعة ١٧٥ ، ومقالات الإسلاميين ١ / ١١٧ ، وأصل الشيعة

وأصولها ١٤٦

(٣) عقائد الإمامية ٧٣ ، وعقيدة الشيعة ٣١٥

(٤) مقالات الإسلاميين ١ / ١١٦ ، ومروج الذهب (البهية) ٢ / ١٩٢ ، وانظر : الملل والنحل ١ /

١٩٥ ، وأمال المرتضى ٢ / ٣٤٨

مكاتمة المخالفين لهم ، وترك مظاهرتهم ، وستر اعتقاداتهم ، وأعمالهم المختصة بهم عنهم^(١) . وهذا يعنى أن للشيعة أن يظهر الولاء والموافقة لذوى السلطان . المخالفين لعقيدتهم ، وستر ما يؤمنون به عنهم ، حفاظا على سلامة الحياة والمال والعرض ، من بطش أعدائهم والتقية من هذا الجانب ، تكتسب مشروعيتها من حق كل إنسان فى حماية نفسه وماله وعرضه إذا أحس بالخطر عليها ، أو على شيء منها ، بسبب إظهار معتقده ، أو التظاهر به ، حينئذ يجب عليه أن يحتذى بالتقية ، ولذا كانت هذه العقيدة مبدءا من مبادئ الشيعة — عدا الزيدية — وعقيدة من عقائدهم الأساسية ، وواجبا ضروريا ، يجب على كل متشيع أن يراعيه من أجل حماية نفسه ، وحماية الجماعة التى ينتمى إليها .

والحق أن المخاطر التى كانت تهدد دائما الأئمة وشيعتهم فى العصر الأموى ، هى التى هدتهم إلى القول بهذه العقيدة ، ذات الصبغة الأخلاقية ، التى ترتدى ثياب المصانعة ، والمداجاة ، وبمقتضى عقيدة التقية ، لم يكن الشيعة « يستطيع فحسب أن يخفى مذهبه ، وأن يتكتم عقيدته ، بل يجب عليه أن يفعل ذلك ، وأن يبالغ فى الإخفاء والكتمان ، وعليه فى البلد التى يسودها خصومه أن يتكلم وأن يعمل كما لو كان واحدا منهم ؛ حتى لا يجلب الخطر ، والاضطهاد لأصحابه^(٢) » ، وخاصة فى عصر كان يكفى فيه أن يقال : هذا شيعى ليلاقى حتفه ، على يد أعداء آل البيت من الأمويين .

على أن لعقيدة التقية جانبا آخر ، تفرضه ظروف السياسة ، ويقتضيه حرص الشيعة على حق الأئمة ، وتمكينهم من هذا الحق ، بالعمل على تقويض دولة الغاصبين ، وتقوم التقية بدور هام فى هذا المجال ، حيث تمكن الشيعة من العمل فى الخفاء ضد أعدائهم ، فتكون بذلك ضريا من التعمية على أصحاب السلطان ، إلى أن تواتى الفرصة للوثوب عليهم ، والشيعة بهذا الاعتبار يأخذون طابع الجماعات السرية ، ولكنهم ينفون عن أنفسهم أن يكون هذا الطابع بقصد الهدم والتخريب ، وإشاعة الفوضى ، وإنما يرون فيه نصرة للدين ، وتمكينا للحق ، وخدمة للإسلام ؛ لأن تمكين صاحب الحق من إمامة المسلمين ، فيه استصلاح لحالهم ، وجمع لكلماتهم ، ولم لشعثهم ، وإقامة لدينهم^(٣)

(١) عقيدة الإمامية ٨٧

(٢) العقيدة والشرعية ١٨٠

(٣) عقيدة الإمامية ٨٦ — ٨٧

وعلى أساس من هذه العقيدة ، حملوا بيعة على بن أبى طالب ، لأبى بكر وعمر وعثمان .

٩— المهديّة ، والرجعة : المهديّة والرجعة عقيدتان من العقائد الجوهريّة في نظرية الإمامة لدى الغالبية العظمى لفرق الشيعة ، ولا تختلف هذه الفرق إلا في هوية الإمام الخفي ، الذي قدرت له العودة ، كما تختلف في قائمة الأئمة ، التي يؤلف الإمام المختفي واحداً منها .

والمهديّة : نسبة إلى عقيدة المهدي المنتظر ، ويطلق عليه أحيانا ، قائم الزمان ، أو إمام الوقت ^(١) ، وهو الإمام الذي يظهر ، أو يعود ، فيقوض ملك الظالمين ، ويملاّ الأرض عدلا ، كما ملئت جورا ، وهو عند بعض الشيعة إمام من آل البيت حتى لم يمّت ، ولكنه اختفى من وجه الظلم ، ويظل مختفيا إلى أن تتاح له الفرصة للظهور واسترداد الحق ، وإقامة العدل ^(٢) ، وعند بعضهم أنه إمام يبعثه الله بعد فترة من موته في الدنيا ، ليملاّ الأرض عدلا ، ويخلصها من الغاصبين الظالمين وهم يقولون : أى غرابة واستحالة في العقول أن سيحيى الله سبحانه هذا الإمام بعد موته ؟ ولهم حجج وأدلة من النقل والعقل على جواز ذلك ^(٣) .

وكان زعماء الشيعة يشيعون دائما أن هذا المهدي المنتقد سيأتى ليخلص الناس مما هم فيه من ظلم وعذاب .

وتختلف فرق الشيعة في تعيين هذا المهدي ، فالسبئية ترى أنه الإمام على ، وأنه سيرجع ؛ لأنه حتى لم يمّت ^(٤) ، ولن يموت حتى يملأ الأرض عدلا .

والكيسانية تعتقد أن محمد بن على (ابن الحنفية) هو المهدي ، فهو حي مقيم بجبل رضوى ، وسيرجع إلى الدنيا فيملؤها عدلا ^(٥) .

(١) العقيدة والشرعة ١٩٦ ، ١٩٧

(٢) عقيدة الإمامية ٨٢

(٣) انظر : أصل الشيعة وأصولها ١٠٠ ، ١٣٧ — ١٤١ ، وعقيدة الإمامية ٩ ، ٨٣

(٤) راجع : مقالات الإسلاميين ١ / ٨٥

(٥) الحق أن الكيسانية اختلفوا في موت ابن الحنفية ، فمنهم من قطع بموته ، وقال برجعته ، ومنهم من ذهب إلى أنه لم يمّت ، وأنه حتى مختلف بجبل رضوى ، دخل إلى شعب فيه ، ومعه جماعة من أصحابه ، فلم يعرف لهم خبر ، ولكنه سيظهر مهديا مصلحا . انظر : مروج الذهب (البهية) ٢ / ١٠١

ومما تجدر الإشارة إليه أن فكرة الرجعة هذه ، ليست من وضع الشيعة ، أو من عقائدهم التي اختصوا بها ، وإنما هي من الأفكار الدينية التي تسربت إلى الإسلام من الديانتين السابقتين عليه ، نعتى اليهودية والمسيحية « فعند اليهود والنصارى أن النبي إيليا قد رفع إلى السماء ، وأنه لابد أن يعود إلى الأرض آخر الزمان ؛ لإقامة دعائم الحق والعدل ، ولأشك أن إيليا هو الأنموذج الأول لأئمة الشيعة المختلفين الغائبين ، الذين يحيون ، لا يراهم أحد ، والذين سيعودون يوما مهديين منقذين للعالم » (١) .

وقد كثر الحديث في عقيدة المهديّة ، وطال نقاش المسلمين فيها ، ورويت عن النبي ﷺ أخبار تتحدث عن هذا المهدي المنتظر من آل البيت ، وتصور صفاته على وجه الدقة (٢) ، هذه الأخبار والروايات ، لم تجد لها مكانا في مصنفات الحديث المتشددة في ضبط الرواية ، وإنما أخرجتها الكتب الأخرى ، التي كانت أقل تشددا في صحة تخرج هذه الأحاديث (٣) .

وإيا ما كان الأمر في عقيدة المهديّة عند الشيعة ، وغيرهم ، فقد شاعت هذه العقيدة في الشعر الشعبي ، صفة لكل ممدوح من أئمة آل البيت .

ومن الطريف أن يريق هذه العقيدة قد دفع بعض أنصار البيت السفيفاني من الأمويين إلى القول بمهدي من بنى أئمة سفيفان بن حرب بن أمية .

فقد أورد أبو الفرج الأصفهاني رواية تذهب إلى أن خالد بن يزيد بن معاوية — وكان يوصف بالعلم — هو الذي وضع خبر السفيفاني ، وكبره ، وأراد أن يكون للناس فيه طمع ، حين غلبه مروان بن الحكم على الملك ، وتزوج أمه ؛ إمعانا في إذلاله .

(١) العقيدة والشرعة ١٩٢

(٢) أفرد ابن ماجة في سننه بابا خاصا في خروج المهدي ، وأنه من أهل البيت ٢ / ١٣٦٦ ، وكذلك فعل أبو داود في سننه ٤ / ١٠٦ حيث خصص بابا للأخبار الواردة فيه . وكذا فعل الترمذی في جامعه ، حيث خصص بابا لما جاء فيه . انظر تحفه الأحوذی بشرح جامع الترمذی ٦ / ٤٨٤ .

(٣) تولى ابن خلدون الرد على فكرة المهديّة ، والأخبار المروية فيها . انظر : مقدمة ابن خلدون ٣١١ — ٣٣٠ وانظر تعليق رونلدنس على عقيدة المهديّة عند الشيعة في كتابه : عقيدة الشيعة ٢٣٠ وما بعدها

ويعلق أبو الفرج على هذه الرواية بأنها وهمٌ ؛ لأن السفيناني قد رواه غير واحد ، وتتابع فيه رواية الخاصة والعامة ^(١) . أى أن أبا الفرج يميل إلى أن فكرة السفيناني حقيقة تتحدث عنها الروايات ، وليس اختراعاً من وضع خالد بن يزيد .

وهذه الفكرة ، على القول برواجها أيام الأمويين ، كانت خاصة بالدعوة إلى إعادة البيت السفيناني إلى الحكم ، الذى انتزعه منه بنو مروان الأمويين .

على أن هذه الفكرة لم يلبث أن ظهرت بعد سقوط الدولة الأموية ، فقد ظهر من يدعى أبو محمد السفيناني (ابن عبد الله بن يزيد بن معاوية) ، وهو الذى خرج على أئى العباس السفاح ، الخليفة العباس الأول ، فى جمع من أربعين ألفاً ، بنواحي قنسرين وحمص فى ذى الحجة سنة ١٣٢ هـ ، فقاتلهم عمه عبد الله بن على ، وهزمهم ، وفر السفيناني هائماً على وجهه ، مضيقاً ومشتتاً ، حتى لحق بأرض الحجاز أيام أئى جعفر المنصور ، فأخذه عامل المنصور وقتله ، وبعث برأسه إليه ، وقد أئى أتباعه أن يصدقوا وفاته ، وظلوا يتربصون عودته ، ليجدد أيام دولة بنى أمية ، ويعيد عز السلطان للأمويين ^(٢) .

وهكذا ظهرت الحاجة إلى مهدى سفيناني ، بعد أن ثلَّ عرش بنى أمية أيضاً ، إحياء للأمل فى استعادة السلطان للبيت الأموى ، من يد العباسيين ، وظلت هذه الفكرة تتراءى من حين لآخر ، فيقال : إنه فى عهد المأمون تعرض له رجل من الشام ، وقال له : يأمر انظر لعرب الشام ، كما نظرت إلى عجم أهل خراسان ، فكان مما أجابه به المأمون ، مبينا اتجاهات الولاء عند قبائل العرب بالنسبة له : « وأما قضاة فسادتها تنتظر السفيناني وخروجه فتكون من أشياعه ^(٣) » .

من هذا نرى أن عقيدة المهدية كان لها بريق سياسى أخاذ ، ساعد على انتشارها عند الشيعة ، وعند خصومهم أيضاً ، إن حقاً ، وإن باطلاً ، وإلى هذا يشير أستاذنا

(١) الأغاني ١٦ / ٨٥ .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ١٠ / ٥٢ ، وانظر : تاريخ الشعوب ١ / ٢٠٦ .

(٣) تولى ابن خلدون الرد على فكرة المهدية ، والأخبار المروية فيها . انظر : مقدمة ابن خلدون ٣١١ — ٣٣٠ وانظر تعليق رونلدىسن على عقيدة المهدية عند الشيعة فى كتابه : عقيدة الشيعة ٢٣٠ ومابعدا

الدكتور أحمد الحوفي في قوله ^(١) : « ويظهر أن بنى مروان خشوا العقيدة في المهدي ، لأنه من الشيعة وسيعيد الحكم إليهم ، وتخوفوا العقيدة في السفيناني ؛ لأنه من بنى سفينان ، وسيرجع الحكم إليهم ، فجعل بعض شعرائهم يدعون أن القائم بالحكم من بنى مروان هو المهدي الذي ينتظره الناس ؛ ليقتضوا بالواقع على الأمل في مهدي أو سفيناني » .

ولقد كان لعقيدة المهدي صدى قوى في شعر الشيعة ، وفي شعر الأمويين — تأثرا بريق هذه العقيدة الشيعية — كما نرى ، إن شاء الله .

ب — الحزب الأموي :

من خلال العرض السابق لأهم عقائد الشيعة ، يلاحظ أن الشيعة حرصوا على إقامة حق آل (البيت السياسي على أسس دينية ، تجعل من هذا الحق ضرورة ، تملئها حاجة الدعوة إلى استمرار الهدى والارشاد الإلهي ، وتقتضيها العدالة الإلهية ؛ حتى لبيدوا الجانب الديني ، أو الصبغة الدينية في عقائدهم ، غالبية على الجانب السياسي ، متقدمة عليه ، وإن كان الغرض السياسي هو مهمهم الأكبر من وراء كل هذا ؛ ولذا أحاطوه بهذه القواعد ، التي أجهدوا أنفسهم في إقامة الأدلة على صوابها ، من نصوص القرآن ، التي تأولوها ، أو من الأخبار ، والآثار المروية عن الرسول ، التي فهموها فهما خاصا ، أو قاموا بوضعها ، وأسباغ صفة الشرعية عليها .

ولئن كان المتشيعون لآل البيت ، قد أعانهم قرابة الأئمة من الرسول ﷺ على محاولة صبغ دعاوهم بهذه الصبغة الدينية الشرعية ، فإن بنى أمية لم تهبىء لهم ، أن يقيموا دعوى خلفائهم في حق الخلافة على أدلة تستند إلى نص من شرع ، أو رأى من دين ، أو منطق من عقل ، فدعاوهم السياسية ، لم تقم على شيء من هذا في الواقع ، على خلاف ما رأينا عند الشيعة ، وما سنرى عند الخوارج أيضا ؛ لذا كان الأمويون « يضعون نصب أعينهم المصلحة الدنيوية للحكومة الإسلامية ، ويجعلونها في المحل الأول » ^(٢) ؛ ولذا غلب على حكومتهم الطابع الملكي ، لا الديني .

(١) أدب السياسة في العصر الأموي ٧٢ .

(٢) العقيدة والشرعية ١٧٦ .

خلاصة هذا ، أن بنى أمية اغتصبوا الخلافة لأنفسهم « ضد شرعية آل على ، فى نظر الشيعة ، وضد شرعية الإمام المختار من كل الجماعة الإسلامية ، على مذهب الخوارج ، إذ الحكم الأموى ، لا يستند إلى شرعية الوراثة فى الملك ، ولا إلى ديمقراطية الانتخاب العام ، بإجماع الأمة لأصلح الناس للإمامة ، وإنما هو حكم القوة الباطشة الماكرة معا ، الخُلُو من كل سبب ، أو سند ، يعترف به العقل ، أو تدعو إليه التقاليد والعرف » (١) .

أى أن الخلافة الأموية قامت على : الغضب ، والحيلة ، والقهر . ومع ذلك فقد أبى أنصار بنى أمية ، والمروجون لدعاوهم فى حق الخلافة إلا أن يضيفوا على خلافته صيبة دينية ، ردها كثير من شعرائهم ، وتتخلص هذه الصيغة ، فيما يلى :

١ — أنهم خلفاء الله ورسوله فى الأرض ، اختارهم الله ، واصطفاهم لولاية أمر المسلمين ، وليس بعد اختيار الله اختيار ، ولا فوق إرادته إرادة ، فهم يتخذون من واقع أمرهم ، ويقين سيطرتهم على الخلافة دليلا على حقهم فيها ، يستمد شرعيته من إرادة الله العادلة ، وقضائه الذى لا يرد ، إذ لا يقع فى ملك الله إلا ما يريد ، فهو احتجاج بالقضاء والقدر ، كما نرى .

ولأن الله قيض الخلافة لهم ، واختارهم لها ، فقد وفق الأمة إلى أن تبسط يدها إليهم بالبيعة ، رغبة فيهم ، وهوى إليهم ، كما وفقهم إلى القتال عليها بحقها ، فأدركوها (٢) . وليس من العسير مناقشة هذه الحجة ، وبيان زيفها ، وتهافتها ، بالأدلة الشرعية ، والعقلية أيضا ، ويكفي فى هذا المقام أن نقول : إن كل جبار ظالم ، يملك القوة ، وتتاح له وسائل القهر ، يستطيع أن يدعى — بالباطل — الاحتماء بقضاء الله وقدره .

٢ — وإذا كانت خلافته تستند إلى إرادة الله ، فهذا يعنى أن طاعتهم واجبة ونصرتهم مفروضة على الأمة ؛ لأن طاعتهم من طاعة الله الذى اختارهم ، واصطفاهم لولاية الأمر ، عملا بقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ ، وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ، وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ (٣) ، وطاعة خصومهم من طاعة الشيطان .

(١) مقدمه المترجم لكتاب : الخوارج والشيعة ص (يب) .

(٢) عيون الأخبار لابن قتيبة ١ / ٥ .

(٣) سورة النساء ٤ / ٥٩ .

٣— الخارجون عليهم ، النابذون لطاعتهم عصاة ، منشقون على الجماعة ، بغاة ، تجب مجاهدتهم ، ويحل قتالهم وقتلهم ، بل قد يحكمون بكفرهم .

٤— وقد يضيفون إلى هذه الدعاوى ذات الصبغة الدينية ، دعوى حقهم في وراثة الخليفة عثمان بن عفان الأموى ، لحل قرابتهم منه .

ولئن كانت حجج الأمويين في دعوى الخلافة ضعيفة ، فإن دعواهم وراثة الخلافة عن عثمان لهى أوهى حججهم جميعا ؛ ذلك أنهم تصدوا لآل البيت ، منكرين عليهم أن قرابتهم من الرسول توجب لهم حق إرث الخلافة عنه .

فقد ناظر معاوية بن أبى سفيان ، عبد الله بن عباس ، حول دعوى آل البيت هذا الحق ، فقال ^(١) : يا بنى هاشم ، ألا تحدثونى عن ادعائكم الخلافة دون قريش ، بم تكون لكم ؟ أبالرضا بكم ؟ أم بالاجتماع عليكم دون القرابة ؟ أم بالقرابة دون الجماعة ؟ أم بهما جميعا ؟ فإن كان هذا الأمر بالرضا والجماعة دون القرابة ، فلا أرى القرابة أثبتت حقا ، ولا أسست ملكا ، وإن كان بالقرابة ، دون الجماعة والرضا ، فما منع العباس عم النبى ﷺ وارث النبى ﷺ وساقى الحجيج ، وضامن الأيتام ، أن يطلبها ؟ وقد ضمن له أبو سفيان بنى عبد مناف ، وإن كانت الخلافة بالرضا والجماعة والقرابة جميعا ، فإن القرابة خصلة من خصال الإمامة ، لا تكون الإمامة بها وحدها ، وأنتم تدعونها بها وحدها ^(٢) .

ولكننا نقول : أحق قريش بها من بسط الناس أيديهم إليه بالبيعة عليها ، ونقلوا أقدامهم إليه للرغبة ، وطارت إليه أهواؤهم للثقة ، وقاتل عليها بحقها فأدركها من وجهها ... انظروا ، فإن كان القوم أخذوا حقكم فاطلبوهم ، وإن كانوا أخذوا حقهم فسلموا إليهم ، فإنه لا ينفعكم أن تروا الأنفوسكم مالا يراه الناس لكم .

فقال ابن عباس : ندعى هذا الأمر بحق من لولاحقه لم تقعد مقعدك هذا ، ونقول : كان ترك الناس أن يرضوا بنا ، ويجتمعوا علينا ، حقا ضيعوه ، وحظاً حرموه ... فإما الذى منعنا من طلب هذا الأمر بعد رسول الله ﷺ فعهد منه إلينا ، قبلنا فيه قوله ،

(١) عيون الأخبار ١ / ٥ - ٦

(٢) سبق أن ذكرنا أنه من أجل هذا قال الشيعة بالنص والوصية . راجع ص ٢٥ من هذه الدراسة .

ودنا بتأويله ، ولو أمرنا أن نأخذ ، على الوجه الذى نهانا عنه لأخذناه ، أو أعذرنا فيه ، ولا يُعاب أحد على ترك حقه ، إنما المعيب من يطلب ما ليس له ، فأما القرابة فقد نفعت المشرك ، وهى للمؤمن أنفع ، قال رسول الله ﷺ للعباس : أنت عمى ، وصنو أبى ، ومن أبغض العباس فقد أبغضنى ، وهجرتك آخر الهجرة ، كما أن نبوتى آخر النبوة ، وقال لعمه أبى طالب عند موته : يا عم ، قل لا إله إلا الله ، أشفع لك بها غدا ، وليس ذلك لأحد من الناس .

ج : حزب الخوارج . (١) :

يلتقى حزب الخوارج مع حزب الشيعة فى الأهمية ؛ من حيث أنهما أقدم الفرق الدينية والسياسية فى تاريخ الإسلام ، ومن حيث تأثيرهما البارز فى أحداث هذا التاريخ ، بخاصة فى العصر الأموى ، الذى نourخ الحياة الشعر فيه .

على أن هناك آصرة أخرى تربط بينهما فى تاريخ نشأة كل منهما ، إذ كان مؤسسوا حزب الخوارج ورجاله الأول من بين أنصار على بن أبى طالب ، إمام الشيعة الأول . وقد أشرنا من قبل إلى ظروف مولد هذا الحزب (٢) ، ونضيف هنا أن الخوارج ظهوروا فى شكل حزب قائم على مبادئ سياسية ودينية واضحة ، تتعارض تماما مع قواعد حزب الشيعة ، ومبادئه ، بل ومع سائر المذاهب الإسلامية الأخرى .

وكان جماع أمر الخوارج : العودة إلى الكلمة الأصيلة للدين ، كما يعبر عنها ، دستوره الأول ، وكتابه المقدس ، وهو القرآن الكريم ، دون تأويل أو ترخص بل بتشدد فى الفهم لا يقبل المساومة والالتواء ، فهم دعاة الطاعة العمياء لكل ماجاء به القرآن ، وعبر عنه ، ومأتى به بنى الإسلام من قواعد وأحكام ، وطرائق سلوك ، أى أنهم يتمسكون

(١) قيل : سموا بذلك ؛ لخروجهم على إمامهم على الذى بايعوه ، وقيل : بل لخروجهم على الجماعة ، لتكفيرهم من سواهم من فرق المسلمين ، واعتبار دارهم دار حرب ، وذهب الشهرستانى فى : الملل والنحل (١ / ١٥٥) إلى أن هذه التسمية تطلق على كل من خرج على الإمام الحق ، الذى اتفقت الجماعة عليه فى كل زمان . وانظر : مقالات الإسلاميين ١ / ٦٤ ، وهم يطلقون على أنفسهم اسم (الشراة) أى الذين باعوا أرواحهم دفاعا عن دين الله ، أخلوه من قوله تعالى فى سورة البقرة (٢ / ٢٠٧) : « ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله » أى يبيع ، ويسمون أيضا (الحرورية) نسبة إلى قرية حروراء القريبة من الكوفة ، والنسبة خرجوا إليها عقب مفارقتهم جيش على . كما سموا (المحكمة) لما كان شعارهم عند خروجهم ، (لاحكم الا لله) . انظر : مقالات الإسلاميين ١ / ١٩١ والخوارج والشيعة ٦

(٢) راجع ص ١٠ - ١١ من هذه الدراسة .

بعمود الدين ضد جميع التيارات ، والفرق والأحزاب ، التى تبدو لهم ، قد انحرفت عنه ، أو تأولت ، أو ابتدعت فيه ، ولذا كان مذهب الخوارج مغايراً لكل المذاهب الأخرى ، كما ذكرنا من قبل .

ولعل مما يميز الخوارج فى العصر الأموى ، عن غيرهم من الأحزاب ، كثرة تفرقهم واختلافهم ؛ ولذا تعددت فرقهم ، فبلغوا نحو من عشرين فرقة — فيما يقال ^(١) .

وفى العصر الأموى اشتهر من الخوارج فرعان ^(٢) :

فرع بالعراق وماحولها ، كان أهم مركز لهم (البطائح) بالقرب من البصرة ، وهؤلاء استولوا على كرمان وبلاد فارس ، وهددوا البصرة ، وتولى قتالهم المهلب بن أبى صفرة — القائد الأموى المشهور — وعانى فى قتالهم الشدائد والأهوال سنين طوال ، وأشهر زعمائهم : نافع بن الأزرق ، وقطربى بن الفجاءة .

وفرع بالجزيرة العربية ، استولوا على اليمامة ، وحضر موت ، واليمن ، والطائف ، ومن أشهر زعمائهم : أبو طالوت ، ونجدة بن عامر الحنفى ، وأبو فديك .

أما فرقهم فى هذا العصر الذى نتحدث عنه ، فأشهرها أربع : ^(٣) .

الأزارقة : أتباع نافع بن الأزرق ، وهؤلاء أكثر فرق الخوارج تشدداً ، إذ يكفرون من عداهم ، فلا يقبل منه إلا الإسلام (أى القول بمقاتلتهم) أو السيف ، كما يستحلون قتل نساء مخالفهم وأطفالهم ، ويبيحون الغدر بأعدائهم ، ويكفرون القعدة ^(٤) عن القتال مع قدرتهم عليه .

الصفورية : أتباع زياد بن الأصفر ، وهم أقل غلوا وتشددوا فى عقائدهم وآرائهم من الأزارقة ، وإن اتفقوا معهم فى كثير من آرائهم المتطرفة .

(١) انظر الفرق بين الفرق ١٥ ، ١٧

(٢) انظر : فجر الإسلام ١ / ٣٠٢

(٣) انظر فى هذه الفرق ، وعقائد كل فرقة : الملل والنحل ١ / ١٥٤ وما بعدها ، ومقالات الإسلاميين ١

/ ١٥٦ وما بعدها ، والفرق بين الفرق ٥٦ وما بعدها ، والخوارج والشيعة ٧٢ ، ٧٥ ، ١٣٧ — ١٣٨ ، وانظر فى فرق الخوارج أيضاً وأهم زعمائهم : الكامل للمبرد (الأزهرية) ٣ / ١٦٣ وما بعدها .

(٤) القعدة : جمع قاعد ، وهو عند الخوارج : كل خارجي يقعد عن قتال المخالفين مع قدرته عليه .

النجيدات :أتباع نجدة بن عامر الحنفى ، وهم معتدلون فى آرائهم ، يعذرون المجتهد المخطئ ، وإن استحل محرما ، أو أحل حراما ، خلافا لغيرهم من فرق الخوارج .
الاباضية :أتباع عبد الله بن يحيى بن أباض التميمى ، وهؤلاء لا يغالون فى الحكم على مخاليفهم كالأزارقة .

فالفرقتان الأوليان متطرفتان متشددتان فى عقائدهما وأفكارهما ، ومواقفهما من المخالفين ، والأخريان معتدلتان فى كل ذلك .

وهذه الفرق الأربع هى الأصل الذى تفرعت منه كل فرق الخوارج فيما بعد . وكانت لهذه الفرق جولات حامية ، ولقاءات دموية مع كل من العلويين والزييريين كما دوخوا جيوش بنى أمية ، وظلوا شوكة فى جنب الدولة الأموية ، حتى أوشكوا أن يقوضوا أركان ملك بنى أمية .

أهم نظرياتهم السياسية والدينية :

١ — تذهب جميع فرق الخوارج إلى أن الخلافة ليست حقا مقصورا على قريش ، ولا على العرب ، وإنما هى اختيار من الأمة ، وحق لكل مسلم ، يتولاها من المسلمين خيرهم ، تقوى ، ووعا ، وعلما ، وزهدا ...

ذلك أن الله عز وجل لم ينص على رجل بعينه ، فاختيار الخليفة مفوض إلى الأمة ، تختار أصلحها لهذا المنصب ، سواء أكان قرشيا أم غيره ، من أهل الملة ، وأهل العدالة والإيمان ، دون مراعاة لنسب أو غيره ، وواجب على أهل كل عصر أن يختاروا من بينهم من يلى أمرهم ، ينفذ فيهم وبينهم أحكام الله ، ويذهب النجيدات منهم خاصة إلى عدم وجوب الخلافة ، أو الإمامة ، وأن الأمة إن عدلت ولم يكن فيها فاسق ، لم تحتج إلى إمام ^(١) .

ونظرية الخوارج فى الخلافة تخالف — كما نرى — نظرية الشيعة القائلة بانحصار الإمامة فى بيت النبى ، على وآله ، كما تخالف مذهب أهل السنة القائل بقصرها على قريش ^(٢) .

(١) انظر مزيدا من التفصيل فى : العقيدة والشرعية ١٧١ ، ومقالات الإسلاميين ١ / ١٨٩

(٢) راجع مقالات الإسلاميين ١ / ٢٤ ، والفرق بين الفرق ١٣

٢- وجوب الخروج على السلطان الجائر وعزله ، فإن امتنع جاز قتاله وقتله ، ومن هنا تميز الخوارج في العصر الأموي بنزعة حرية ، جعلتهم في صراع دائم ، وجهاد يكاد يكون مستمرا مع بنى أمية طوال عصر حكمهم .

٣- الخليفة الشرعى هو الذى يختاره المسلمون عن طريق الشورى ، والاختيار الحر ، أيا كانت أسرته ، أو قبيلته ، أو جنسه .

٤- ليس للخليفة الذى يختاره المسلمون ، أن يتنازل عن الخلافة لأحد ، وله أن يعتزل بعد اختياره إن قام له عذر يقتضى ذلك ، دون أن يعهد لأحد ، أو يتنازل له عنها .

٥- الخوارج جميعا يشبثون خلافة أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، ويؤمنون بشرعيتها ، كما يصححون خلافة عثمان رضى الله عنه فى السنوات الست الأولى من خلافته ، ويكفرونه بعدها ^(١) ؛ للأحداث التى أحدثها ، وخالف بها سيرة أبى بكر وعمر ، ويقولون بإمامة على قبل قبوله التحكيم ، ويحكمون بكفروه ، وكفر أتباعه بعد التحكيم ؛ لقبولهم تحكيم الناس ، وإلقاء السلاح ، وحكم الله يقضى بمجالدته الفئة الباغية (معاوية وأتباعه) حتى تفىء إلى أمر الله .

أما معاوية وأنصاره فهم كفار عندهم ؛ لأنهم بغاة ، يجب قتالهم ، ويحل قتلهم ، أى أنهم ذهبوا إلى تكفير من عداهم من المسلمين ، لقبولهم التحكيم ، سواء على وأنصاره ومعاوية وأتباعه ، فهم جميعا مشركون « السيرة فيهم ، السيرة فى أهل حرب رسول الله ﷺ الذين حاربوه من المشركين ^(٢) » .

وكل ماتقدم من آراء ومبادئ تغلب عليها الصبغة السياسية ، بيد أن الخوارج لم يلبثوا — منذ أيام عبد الملك بن مروان (تولى عبد الملك الخلافة فى رمضان سنة ٦٥ هـ) — أن مزجوا تعاليمهم السياسية هذه بأفكار وآراء دينية ، واكتسب مذهبهم منذ ذلك الحين الطابع السياسى الدينى ، ومن مظاهر هذا الامتزاج قولهم:

(١) انظر : رسائل الجاحظ ٧ / ٢

(٢) مقالات الإسلاميين ١ / ١٦٩

٦— العمل جزء من الإيمان ، فالذى ينطق بالشهادتين ، ثم لا يؤدي فرائض الإسلام كافر ، وقد تركت هذه العقيدة أثرها القوى على سلوك الخوارج ، فكانت « العلامة المميزة لهم كل التمييز ، هى الترجمة عن إيمانهم بالأفعال ، وامتشاق السيف فى سبيل إقرارها ، كلما اجتمع اثنان من رأى واحد ^(١) » .

٧— تجمع فرق الخوارج على كفر مرتكب الكبيرة ، وإن لم يصر عليها ، إلا النجذات منهم ^(٢) .

٨— التشدد فى الاستمساك بظاهر النص القرآنى ، والعمل بأحكامه ؛ ولذا تجمع فرق الخوارج على عدم جواز الاجتهاد بالرأى ، إلا النجذات منهم فإنهم يجيزونه ^(٣) .

هذه هى أبرز الأفكار والآراء ، التى تكاد تجمع عليها فرق الخوارج فى العصر الأموى ، ثم خالفت كل فرقة منهم الأخرى فى بعض الآراء والتعاليم الأخرى مما لاداعى لذكره هنا ؛ إذ لاجاجة إليه .

وقد تأثر سلوك الخوارج بمبادئهم ، وحرصهم عليها ، وتفانيهم فى الذود عنها ، وكانت أبرز صفاتهم : الإخلاص للعقيدة ، والتعصب لها ، والشجاعة الفائقة فى الدفاع عنها ، والتقوى ، التى يحفها الخوف الشديد من عذاب الآخرة والتطلع والحنين الدائم إلى نعيم الجنة ؛ ولذا كانوا أهل عبادة وورع .

د— حزب الزبيريين :

من حديثنا السابق عن نشأة هذا الحزب ، والأحداث التى مرت به ، والأخطاء التى تردى فيها زعيمه عبد الله بن الزبير ، والتى أدت فى النهاية إلى القضاء عليه ، وعلى حزبه ، الذى ارتبطت حياته بحياة زعيمه ، وانتهت بانتهاؤها ، ندرك مدى قصر الفترة التى عاشها هذا الحزب ، وازدحام هذه الفترة — على قصرها — بالعديد من الاشتباكات الشرسة ، بين أنصار ابن الزبير ومناهضيه .

(١) الخوارج والشيعة ٣٨

(٢) مقالات الإسلاميين ١ / ١٥٧ ، ١٥٩

(٣) المصدر السابق ١ / ١٩٠

وبالطبع لم تتح مدت السنوات التسع التي تمثل عمر هذا الحزب ، فرصة كافية لزعيمه ، أو مؤيديه ، ليكونوا نظرية سياسية واضحة المعالم ، يستطيع أتباعه أن يسيروا على هديها ، ويطوروها ، ويديروا حولها الآراء ، وقيموا على أساسها الأسس التي تمكن الحزب من الاستمرار ، والنضال في سبيل البقاء ، ومعاودة النشاط للوثوب على السلطة ، حتى بعد أن يسقط زعيم الحزب — كما فعل الشيعة مثلا .

من أجل هذا لم يجد الشعراء الذين التفوا حول دعوة ابن الزبير — على قتلهم — أفكارا محددة واضحة يمثلونها ، وتغلغل في عواطفهم وضمائرهم ، فيدينون بها ، ويدافعون عنها ، فحامت أشعارهم حول بعض الآراء العامة ، التي لاتنهض للاستدلال السياسي أو الديني القوي ، على حق آل الزبير في الخلافة ؛ إذ وصفوه بالعدل ، والتقوى ، والورع ، وأنه أكفأ القرشيين المعاصرين له ، بعد موت معاوية ، وقتل الحسين بن علي ، ثم لصلته بالرسول ﷺ فأبوه ابن عمه النبي ﷺ صفية بنت عبد المطلب ، وابن أخى خديجة زوج الرسول ﷺ ، وعبد الله ابن أسماء بنت أبي بكر ، أخت عائشة أم المؤمنين .. إلى غير ذلك مما يشاركه فيه كثير من القرشيين ، فضلا عما يمتاز به أهل البيت من أئمة الشيعة .

ولذا كان تأثير هذا الحزب في الحياة الأدبية في العصر الأموي ، كتأثيره في أحداث التاريخ الإسلامي لهذه الفترة ، محدود الأثر ، سريع التوهج والانطفاء ، ما إن بدأ حتى انتهى ، فلم يحتل هذا الحزب في التاريخ ، الأدبي والسياسي إلا حيزا ضيقا يمكن إغفاله دون خطر كبير .

* * *

ولقد كان لهذه الأحزاب الإسلامية ، ولما اشتجر بينها من حروب وصراع تأثير قوي في نهضة الشعر ، وتشجيع الشعراء في هذا العصر ، حتى بلغ شعراء الحزب الأموي وحده ، من الكثرة حدا ، يصعب معه الإلمام بشعرهم ، أو محاولة إحصاء عددهم . وليس من قبيل المبالغة أن نقول : إن الشعر السياسي الذي دار في فلك هذه الأحزاب ، كان أكثر التقاج الشعري في عصر بني أمية .

— ٢ —

وهناك جانب آخر من الحياة السياسية والاجتماعية ، أعان بعض فنون الشعر ، على الازدياد والقوة والازدهار ، بعد فترة من الخمول والانكماش .

نعنى بهذا الجانب السياسى الاجتماعى ، صحة العصبية القبلية ، انطلاقها من كل قيد ، بعد أن كان مضيئاً عليها فى العصر السابق ، عصر صدر الإسلام ، حيث عهد النبوة والراشدين .

وقد تدخلت عوامل سياسية واجتماعية فى إحياء هذه العصبية التى عملت بدورها على إذكاء فنون الشعر ، التى تدور حول العصبية القبلية ، وتعبّر عنها ، وتنفخ فى نارها ، كالهاء ، والفخر ، والحماسة .

فقد شاعت ظروف السياسة الأموية ، أن تتعصب للقبائل القحطانية (اليمنية الأصل) ضد أكثر القبائل العدنانية (القيسية أو المضرية) ؛ ذلك أن أكثر عرب الشام ، الذين قامت الدولة الأموية على أكتافهم ، يمنيون ، نزحت قبائلهم إلى الشام ، مهاجرة من جنوب الجزيرة العربية باليمن قبل الإسلام ، لأسباب اقتصادية ، أو بيئية مختلفة ، ليس من شأننا الحديث عنها هنا .

فكان يسكن الشام منهم عند الفتح الإسلامى قبائل ، أشهرها : غسان ، وجذام وقضاعة ، وكلب ^(١) . وكانوا فى القسم الجنوى من الشام أكثر منهم فى القسم الشمالى ، بحكم قرب جنوب الشام من بلادهم التى نزحوا منها .

ولقد عمل معاوية بن أبى سفيان منذ وضع قدمه بالشام واليا عليها من قبل عمر ابن الخطاب ، على أن يستميل عرب الشام هؤلاء ، وكان من سياسته فى ذلك أن عقد مصاهرة مع قبيلة من كبريات القبائل اليمنية بالشام وأقواها وهى قبيلة كلب ، حيث تزوج ميسون بنت بحدل الكلبية ، ومنها أنجب ولى عهده ، وخليفته من بعده يزيد .

ومن سياسته فى احتواء عرب الشام ، وضمان ولائهم ، أن يحرص على تقييدهم منه ، وإيثارهم بخيرات الإقليم ، ورعاية مصالحهم فيه ، حتى بلغ من تعصبه لهم ، أن ظل حيناً من الدهر ، لايفرض عطاء من بيت المال لغيرهم .

فإذا أضفنا إلى ذلك أن أكثر عرب العراق ، الذين ناصرُوا الشيعة والزبيريين والخوارج ، كانوا من القيسية ، أدركنا سر تعصب بنى أمية لعرب اليمنية ، هذا التعصب الذى أثار غضب القيسية وحقدهم على بنى أمية ، فلم يدعوا فرصته إلا اغتناموها ؛ لمناهضة الأمويين ، وإضعاف شوكتهم .

وقد ذكرنا من قبل ماكان من انضمام القيسية لابن الزبير ، والنهوض بدعوته فى

العراق والشام بقيادة زعيمهم الضحّاك بن قيس^(١)، في حربه مع مروان بن الحكم ومن معه من اليمنية، ومعهم تميم المضربية، وتغلب العدنانية.

وقد أعقبت موقعة مرج راهط مواقع كثيرة، وغارات متبادلة، وثورات عديدة، بين القيسية من جانب، واليمنية ومعهم تميم وتغلب من جانب آخر. وهكذا عملت سياسة بنى أمية مرة أخرى على تصدع الوحدة العربية الإسلامية، التي ظلت المظهر العام للحياة في صدر الإسلام.

كانت تميم المضربية، وتغلب العدنانية، وكلب وغيرها من القبائل اليمنية تمثل حزب الدولة الرسمي، كما كانت قيس تقف، بحكم عدائها للأمويين في الصفوف المعارضة لهم، وورث العصر الأموي، بسبب هذه الخصومة القبلية، أياماً كثيرة، وأشعاراً كثيرة أيضاً، نظمها شعراء كل قبيلة في الانتصار لقيلتهم، خلال تلك الحروب^(٢)، التي أججتها العصبية القبلية، بتشجيع من سياسة بنى أمية.

وكان للعراق في هذا العصر النصيب الأوفر من تلك الخصومات القبلية، ونتائجها الشعري، كما كان له النصيب الأوفر من الخصومات السياسية، وما قيل فيها من شعر؛ إذ كان أكبر الأقاليم الإسلامية ميداناً للفتن السياسية، والحروب القبلية، في عهد الدولة الأموية.

ويعد من أبرز العوامل، التي ساعدت على ارتفاع صوت العصبية القبلية بالعراق، وغزارة الأشعار التي خلفتها، طبيعة الاجتماع العمراني، الذي كانت عليه مدينتا العراق الكبيرتان: البصرة والكوفة، فقد خططت كل منهما تخطيطاً قبلياً^(٣) منذ إنشائهما أيام عمر بن الخطاب.

فيقال: إن وفود جند المسلمين قدمت على عمر من جلولاء، وحلوان، وتكريت، والموصل، وغيرها، من مدن العراق، يذكرون له الفتح والغنائم، فلاحظ أن جو هذه المدن قد أضر بصحة جند المسلمين، وكان حذيفة بن اليمان قد كتب إلى عمر في ذلك، فأرسل عمر إلى سعد بن أبي وقاص: إن العرب لا يوافقها إلا ماوافق إبلها، من البلدان، وأمره أن يختار لهم منزلاً برياً بحرياً، لا يجعل بينه وبينهم بحراً ولا جسراً، فاختر سعد موضعا الكوفة على

(١) راجع ص ١٩ من هذه الدراسة.

(٢) التطور والتجديد في الشعر الأموي ٣٧.

(٣) انظر في بعض القبائل التي نزلت الكوفة بعد تخطيطها: رسائل الجاحظ ٢ / ١١٧ وتاريخ الطبري

١ / ١٩١ - ١٩٢ وفجر الإسلام ١ / ٢١٢ - ٢١٣.

مقرية من الحيرة ، وهى مثلها تقع على الفرات ، غير بعيد من الصحراء فاختارت كل قبيلة مكانا نزلته وجعلت به خيامها ، ثم اتخذوا بيوتهم من البوص ، فلما وقع فيها الحريق ، اتخذوها من اللبن ، وكان ذلك سنة ١٥ هـ (١) .

ولثل هذا الغرض مُصرت البصرة (سنة ١٦ أو ١٧ أو ١٨ هـ (٢)) ، وفقد وجه عمر بن الخطاب عتبة بن غزوان إلى اختيار مكان لجنده قائلا له : « انطلق أنت ومن معك ، حتى إذا كنتم فى أقصى أرض العرب ، وأدنى العجم فأقيموا » (٤) ، فنزل البصرة ، على مقربة من الأبلّة فى دلتا النهرين ، واتخذ عتبة ومن معه دار الجند المسلمين ، يسكنون فيها إذا انصرفوا من غزواتهم .

ولم تلبث القبائل أن نزحت إلى هاتين المدينتين من شتى أنحاء الجزيرة العربية ، فهاجرت قبائل من اليمن وماجاورها إلى الكوفة ، ونزحت قبائل من الأنصار بالمدينة ، ومن قبائل شمال الجزيرة إلى البصرة ، حتى امتلأتا بالقبائل اليمنية والنزارية ، التماسا لسعة العيش فى هاتين المدينتين العامرتين ، دون أن يتعدوا كثيرا عن البادية ، فهما على الحدود بين بواديهم ، وحضر العراق ، ومن ثم « فهم يستطيعون أن يشموا منهما هواء الصحراء ، ويتجنبوا بهما وخم المدن » (٤) .

والأمر الذى لاشك فيه ، ولاخلاف حوله هو أن الجيوش الإسلامية ، التى خطط لها هذان المصران ، لتنزل فيهما خلال الفترات التى تفصل بين وقائع الفتوح إنما نزلتهما قبائل ، فهى لم تفقد إحساسها القبلى ، إلا ريثما تعود إلى مصرها ، فلاتكاد تستقر ، وينقشع عنها غبار الحرب ، حتى يأخذ استقرارها صورة قبلية ، يرتفع فيها الإحساس بالقبيلة ، والتعصب لها ، مما يبيح لنا القول بأن الحياة فى البصرة والكوفة ارتبطت بالنزعة القبلية منذ نشأتها (٤) .

(١) انظر : مروج الذهب (السعادة) ٢ / ٣٢٩ ، وتاريخ الطبرى ٤ / ١٥٣ ، وانظره أيضا ١ / ١٨٨ ومايعدها .

(٢) راجع تاريخ الطبرى ٤ / ١٤٨ ، ١٤٩ ، وعيون الأخبار ١ / ٢١٧ ، ومروج الذهب (السعادة) ٢ / ٣٢٨ .

(٣) تاريخ الطبرى ٤ / ١٤٩

(٤) فجر الإسلام ١ / ١٠٠ ، وانظر : تاريخ آداب اللغة (زيدان) ١ / ٢٠٠

(٥) للاستزادة راجع : حياة الشعر فى الكوفة ١٧٩ — ١٨١

وكانت القبائل التي أقامت بكل من هذين البلدين تنافس ، ويفاخر بعضها بعضا ، ذلك أن روح القبلية الأصيلة بينهم حفزهم إلى هذا التنافس .

غير أن هذا التنافس لم يكن له أثر يخشى مغبته في عهد عمر ، إذ كانوا يدعون من حين لآخر إلى ميادين القتال ، فيسكن التنافس ، ويشغل أهلهم بالتطلع إلى أخبارهم ، ثم إن عمر كان حازما ، فلم تدع شدته وحزمه فرصة لفتنة تثور .

ثم أخذ الزمام ينفلت شيئا فشيئا منذ ظهور الفتنة الكبرى أيام عثمان ، وطوال عهد علي يذكر صاحب شرح نهج البلاغة ^(١) ، أن أهل الكوفة في آخر عهد علي كانوا قبائل ، فكان الرجل يخرج من منازل قبيلته ، فيمر بمنازل قبيلة أخرى ، فينادى باسم قبيلته ، يالللنخع ، أو يالكندة ، فيتألب عليه فتیان القبيلة التي مر بها ، فينادون بالقيم ، أو بالريبعة ، ويقبلون إلى ذلك الصائح فيضربونه ، فيمضى إلى قبيلته ، فيستصرخها ، فنسل السيوف ، وتثور الفتنة ، وهذا نص قوى الدلالة على تحكم الروح القبلي ، والعصية القبلية في نفوس أهل الكوفة في عصرها الأموي .

تجاورت القبائل إذن في مدينتي العراق ، البصرة والكوفة ، لكل قبيلة ، منازلها المتجاورة في خطة مستقلة ، بحيث ضمت كل منها قبائل قحطانية ، وقبائل عدنانية ^(٢) .

وساعد هذا التخطيط على احتدام العصبية بين القبائل في العصر الأموي ، فما إن أحيت سياسة بنى أمية العصبية بين اليمنية والقيسية ، على نحو مامر ، حتى أصبحت كل من البصرة والكوفة مسرحا لهذه العصبية ، يدلى كل شاعر فيها بدلوه ، ثناء على قبيلته ، وافتخارا بها ، وطعنا على خصومها ، وثلباً لشرفها وأمجادها ، برميهم بكل ما يستطيع من سهام الهجاء ، وأصبح لكل قبيلة شاعرها ، أو شعراؤها ، الذين يتغنون بماثرها في الجاهلية ، وماكان لها من أيام وحروب ، وأمجاد ، كما يصبون جام غضبهم على القبائل المعادية ، ويحاولون أن يطعنوها في صميم شرفها ، وحسبها ، شأنهم في ذلك شأن

(١) ٤٧٦ / ٣

(٢) تعدلت خطط الكوفة والبصرة عدة تعديلات في أيام عمر وعلى وأيام الحجاج (سنة ٥٠ هـ) فمثلا كان التخطيط القبلي للكوفة أيام بنى أمية على أساس تقسيم رباعي : فالربع الأول لأهل العالية من بدو نجد ، والثاني لحم المضرية وهمدان اليمنية ، والثالث ليكر وريبعة العدنانية ، وكندة اليمنية ، والرابع لمذحج اليمنية وأسد المضرية فامتزجت القبائل اليمنية والنزارية في عمران الكوفة . انظر : حياة الشعر في الكوفة ٢٨ ومابعدها

آبائهم وأجدادهم من شعراء الجاهلية ، بل ازداد شعراء القبائل الأمويون في هذا الهجاء حدة على نظرائهم الجاهليين — كما سنرى .

وإذن ، فقد اشتعلت نار العصبية القبلية في العراق ، وسرعان ما أخذت شكل فخر وهجاء وحماسة ، في ظل ظروف لم تتح للعصبيات في العصر الجاهلي نفسه ؛ فقد كان شعراء القبائل في الجاهلية يتفاخرون ، ويتهاجون ، ويحمسون ، ومنازلهم بعيدة ، أما في هذا العصر فهم مصطفىون ، بعضهم أمام بعض ، وكل قبيل تسحتت شعراءها ؛ ليروا خصومها بسهام الهجاء اللاذع .

بهذا أخذ الهجاء في العصر الأموي شكلا أعنف من شكله في العصر الجاهلي ؛ حيث كانت كل قبيلة تحاول أن تستخرج من شاعرها ، أو شعرائها ، أحد ما في جعبتهم من سهام تصيب بها القبائل التي عاداتها قديما ، ولا تزال تعاديا حديثا .

ولم تقف العصبية القبلية عند حد العداء بين فرعى العرب الكبيرين : القيسية واليمنية ، بل انتقلت عدواها إلى القبائل والبطون ذات الأصل الواحد ، فتطاحنت هذه القبائل والبطون ، تطاحنا قويا عنيفا ، في حرب لسانية ، أشرعت فيها أسنة الشعر ، وتزامى فيها الشعراء من كل جانب بالنبال والسهام .

— ٣ —

وكأنما أغرى إقبال الناس في العراق — بخاصة في مدينتيه : البصرة والكوفة — على هذا اللون من الشعر ، الذى يذكر نار الخصومة بين القبائل ، نقول : أغرى بعض الشعراء على الدخول في نوع من الهجاء والفخر ، يشغل فيه الشاعر بنفسه ، وبمنافسة من الشعراء ، أكثر مما يشغل بقبيلته ، ومن نافسها من القبائل والبطون .

وأشهر من نفذ من هذا الباب جرير والفرزدق والأخطل ، نفذوا إلى أهاج كانت تلقى على مسرح المربد بالبصرة ، ويتحلق الناس للاستماع إليها ، كما كانوا يتحلقون في الكناسة بالكوفة ؛ للاستماع إلى شعراء القبائل ، وهم يصفرون ، أو يصفقون لهذا ، أو ذاك ، وكانت حصيلة هذه الخصومة الأدبية ، (أو الفردية) ماعرف في تاريخ الشعر العربى بنقائض جرير والفرزدق من جهة ، ونقائض جرير والأخطل من جهة أخرى ^(١) .

(١) سيأتى مزيد تفصيل عن عوامل ازدهار فن النقائض الشعرية في العصر الأموى عند دراسته .

فإذا ما تركنا العراق ، واتجهنا جنوباً إلى الحجاز بخاصة ، والبادية العربية بعامة ، وجدنا هذه البيئات ، يسودها نوع آخر من الحياة ، موزعاً بين الحضر والبادية ، تخف فيه حدة الصراع ، وتخفت أصوات الخصومات كثيراً ، عما كان يسود وجه الحياة في العراق . أما حضر الحجاز (نعني به : مكة والمدينة والطائف بخاصة) فقد شاع فيه لون من الحياة الهادئة — إلى حد ما — قوامها : الثراء ، والترف ، والفراغ ، ينعم بها ، أبناء الصحابة من المهاجرين والأنصار ، وغيرهم ، من سكان بيئة الحضر في الحجاز ، لم تلبث أن انزلت بهم ، أو فلنقل : بكثرة من بينهم ، إلى حياة عابثة حيناً ، لاهية في أكثر الأحيان .

أما الثراء والترف : فقد توفر لهم بفضل الأموال ، التي تدفقت على الحجاز من الأقاليم ، والأمصار الداخلة في الإسلام ، منذ أيام الفتوح الإسلامية في عهد الخلفيتين الراشدين ، عمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان .

فقد بلغ من وفرة هذه الأموال ، المتدفقة في بيت المسلمين ، أن قال عمر بن الخطاب — في خلافة — : « لقد هممت أن أجعل العطاء أربعة آلاف ألفاً يجعلها الرجل في أهله ، وألفاً يزودها معه ، وألفاً يتجهز بها ، وألفاً يتفرق بها » ^(١) .

ونظرة واحدة فيما أورده الطبري وغيره ، من نظام الفروض في عهد عمر ، تدلنا على مدى ما كان عليه جند المسلمين ، وأهل الحضر من حال ميسرة كافلة .

ومن صور اكتظاظ بين مال المسلمين بالأموال أيام الخليفة عثمان ، والتوسعة على المسلمين ، بتفريقها فيهم ، ما أورده الذهبي في خبر الفتوح الإسلامية في عهده ، قال ^(٢) : « ولما كثرت الفتوح في هذا العام (٣٠ هـ) وأتى الخراج من كل ناحية ، اتخذ عثمان له الخزائن ، ثم قسمها ، وكان يأمر للرجل بمائة ألف » .

وروى أن سعد بن أبي وقاص عزل الخمس من فيء القادسية وغنائمها ، وبقي مال عظيم ، حتى بلغ نصيب الفارس ستة آلاف ، والراجل ألفين ، وبقي مال كثير ، فأمر عمر برده على حملة القرآن ^(٣) .

(١) تاريخ الطبري ٤ / ١٦٢ وانظر : كتابنا : الأدب في عصر النبوة والراشدين ٣٢ .

(٢) العبر ١ / ٣١ .

(٣) معاهد التنصيص ١ / ٢٢٣ .

ويذهل الإنسان حين يقرأ مآصار إليه الصحابة (وبخاصة المهاجرون والأنصار) من ثراء عريض ، وعلى الأخص كبارهم .

ولئن كان مافاء الله به على المسلمين من الفتوح ، وما أنعم عليهم به من خراج الأمصار ، قد فاض على المسلمين بعامه ، والمجاهدين منهم بخاصة ، فمما لا شك فيه ، وأن إقليم الحجاز قد فاز بأوفى نصيب من هذه النعم ، باعتباره مهد الدعوة الأول ، ومركز السلطة الإسلامية ، وفيه أكبر تجمع من صحابة رسول الله ، وأولى الفضل والسابقة والجهاد ، وعليه تندفق هذه الأموال ، ومنه تخرج للتوسعة على أهله ، وعلى المسلمين غيرهم .

إذن ، فقد سار الثراء في حجور الحجازيين ، من أهل الحضر بخاصة ، فتبعة تبدل في حياتهم وحياة أبنائهم .

ومن دلائل ذلك ما روى ، أن عمرو بن العاص لما توفى (٤٣ هـ) خلف من الذهب ثلثمائة وخمسة وعشرين ألف دينار ، ومن الفضة ألفى درهم ، وضيعة المعروفة بالهط ، قيمتها عشرة آلاف درهم ^(١) ، وهناك العديد من الأمثلة ، ذات الدلالة الواضحة على ما بلغه الصحابة من ثراء واسع ^(٢) .

ومن دلائله أيضا اتخاذهم القصور المبنية بالآخر والجص والساج ، المخلاة بالشرفات ، يحضرون لها البنائين ، من الفرس ، لتقدمهم في فن العمارة .

ففى عهد عثمان بن عفان ، بنيت الدور والقصور ، وشيدت بالكس ، وجعلت أبوابها من الساج ، واقتنى كثير من الصحابة الأموال والجنان والعيون ، كالزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبى وقاص ، والمقدار بن الأسود ... وغيرهم ^(٣) .

(١) مروج الذهب (البهية) ٢ / ٦٧

(٢) راجع أمثلة لذلك فى : طبقات ابن سعد ٣ / ١ ص ٧٧ ، ١٥٨ ، ومروج الذهب (السعادة) ٢ /

٣٤١ — ٣٤٢

(٣) فجر الإسلام ١ / ١٦٨

وفاق أبناء الصحابة آباءهم ، في التحضر ، والثراء ^(١) والترف ، فقد عاشوا في عصر جديد ، عصر الفتوح والثراء .

وأعانت سياسة بنى أمية — إلى حد كبير — تجاه أبناء الصحابة بالحجاز على ازدياد ثرائهم وترفعهم ، حتى طعم وشرب بعضهم في أوالي الذهب والفضة ، ولبسوا الخز ، والدبياج ، والحلل الموشاة ، وغالوا في ذلك .

ففى حضر الحجاز حشد الأمويون عظماء قريش ، وأبناء الأنصار ، ومنعواهم من التجول في أنحاء الدولة ، أو الاتصال برجالاتها ، من ذوى الأقدار والخطر ، في البلاد المفتوحة ، وأغمدقوا عليهم الأموال والنعم إغداقاً ، ونثروا لهم المال نثراً ؛ ليلهوهم بذلك عن التفكير في سياستهم ، أو محاولة الخروج عليهم ، والمطالبة بحقوقهم في حكم الدولة ، فتوفر لهم بذلك الثراء والترف ، كما توفر لهم الفراغ .

وأما اللهو والعبث : فقد تم لهم نتيجة لما أحسّوه — بخاصة الشباب منهم — من يأس وتشاؤم ، وهم يرون بنى أمية يستأثرون بالأمر ، وينعمون بالسلطان دونهم ، ويحطمون كل مقاومة ، أو حركة معارضة ، تنهض لمجالدتهم ، حتى الكعبة لم تسلم من عدوانهم — كما رأينا — بينما هم عاجزون ، معزولون عن سياسة الدولة ، والتصرف في أمورها ، أو العمل في أداراتها .

فماذا يفعل هذا الشباب الفارغ التائر اليائس ، إلا أن يلتفت إلى اللهو يغرق فيه يأسه ، ويقتل وقت فراغه ، ويلتمس فيه السلوى عن ماضيه الضائع ، وحاضره القلق ، ومستقبله الملبد بالغيوم .

سار كثرة من شباب حضر الحجاز في طريق اللهو ، والمرح ، والاستماع إلى الغناء ، وترتيل أناشيد الحب ، بما فيه من عبث ودعابة ، ومغامرة ، وظفر ، ولقاء وهجران ، وسعادة وشقاء .

(١) بلغ من ثراء مصعب بن الزبير — مثلاً — أنه أصدق كلاً من : سكينه بنت الحسين بن علي ، وعائشة بنت طلحة بن عبيد الله التميمية ، مائة ألف دينار (العبر للذهبي ١ / ١٢٣ ، وعيون الأخبار ١ / ٢٥٨) وقيل : خمسمائة ألف درهم ، وجهاز كلاً منهما بمثلها ، وأن عبد الله بن عباس كان يرتدى رداء بألف (عيون الأخبار ١ / ٢٩٨) وأن عبد الله بن عمر أصدق صفية بنت أبي عبيد بن مسعود الثقفي أخت المختار عشرة آلاف درهم . (عيون الأخبار ٢ / ٧١) .

وهناك عامل آخر ساعد على تهيئة مجالات اللهو والعبث أمام هذا الشباب الفارغ اليأس . ومدها بوسائل الترفية ، وحاجات مجالس اللهو ، من غناء وموسيقى ، وهو إغراق مدن الحجاز بالقيان ^(١) والجواري .

ومن المعلوم أن الاسترقاق من الأمم التي غلبها الإسلام ، قد كثر كثرة هائلة ، بكثرة الفتوح الإسلامية ، وكان هؤلاء الرقيق يوزعون على الفاتحين ، حتى صارت الدور تعج بالرقيق والجواري الفارسيات والروميات وغيرهن ، فيروى : أن الزبير بن العوام كان له ألف عبد ، وألف أمة ^(٢) .

وليس من شك في أن من بين هذا الرقيق ، وهؤلاء الإماء ، من كان يجيد فن الغناء ، أو فن الموسيقى ، أوهما معا ، وهؤلاء وأولئك ، كانوا وكن عماد مجالس الغناء ، التي كثرت في مدن حضر الحجاز ، وأقبل عليها كثير من أهله ، وكان ذلك مما يسعد الأمويين ، إذ يحقق لهم ما يرمون إليه ، من انشغال شباب هذا الحضر ، بهذه المجالس ، عن التفكير في أمور الدولة ، أو تدبير المؤامرات والحركات الثورية للانقضاض عليها ، يروى المسعودي ^(٣) : أنه في أيام يزيد بن معاوية ظهر الغناء بمكة والمدينة ، واستعملت الملاهي ، وأظهر الناس شرب الشراب .

وفضلا عن تأثير انتشار مجالس الغناء والموسيقى في حضر الحجاز في إشاعة اللهو والعبث ، فقد كان لها أيضا فعلها الواضح في ترقيق الذوق المترف ، وانعكاسه رقة في الشعور ، ورقة في الجسّ ، وتفتحاً على مجالي جديدة من الحسن والجمال ، لم يكن لأهل حضر الحجاز عهد بها من قبل على هذا النحو المتاح ، وأثمر هذا كله لونا من الإقبال والرضا ، والاستمتاع بالموسيقى والغناء ، اللذين ارتقيا في هذه البيئة ، على أيدي كثير من الموالي ، رجالا ونساء ، بحيث صارت مكة والمدينة مركزين هامين لهذين الفنين ، يتولاهما فيهما موسيقيون ومغنون مشهورون ، وموسيقيات ومغنيات لمعت أسماؤهن في سماء

(١) القيان : جمع قَيْنَه : وهى الأمة المغنية ، وقيل : القينة : هى الأمة مغنية أو غير مغنية ، والمغنية تسمى قينة : إذا كان الغناء صناعة لها ، وذلك من عمل الإماء ، لا الحرائر (اللسان — قين)

(٢) فجر الإسلام ١ / ١٥٥

(٣) مروج الذهب (البية) ٢ / ٩٤ ، وانظر في كثرة الجواري بمكة خاصة رسائل الجاحظ ٢ / ١٥٨

هذين الفنين في عصر بنى أمية ، وفي بيئة حضر الحجاز خاصة ، من أمثال : ابن سريج ، وطويس ، وسائب خاثر ، ومعبد ، وابن عائشة ، ونافع بن طنبورة ، وسلامة القش ، وعزة الميلاء ، وحبابة ، وبُلبلة ، وجميلة ، وغيرهم وغيرهن ^(١) .

وطبيعى أن يكون لون الشعر الملائم لهذه البيئة ، بظروفها التى ذكرنا ، هو فن الغزل ؛ إذ هو لون يتلاءم مع رقة الحس والشعور ، كما يتجاوب مع فنى الغناء والموسيقى الجديدين .

فليس غريباً إذن ، أن يكون أكثر شعراء حضر الحجاز — فى هذا العصر — شعراء حب وغزل ، من أمثال : أبى الخطاب عمر بن أبى ربيعة ، وتلميذه العرجى (عبد الله بن عمر بن عثمان بن عفان) وعبيد الله بن قيس الرقيات ، وخالد بن الحارث المخزومى ، وأبى ذُهبل الجُمحى ، وكلهم من شعراء مكة ، والأحوص بن محمد ، وعبد الله بن حسان بن ثابت ، من شعراء المدينة .

وهكذا كان حضر الحجاز فى العصر الأموى مسرحاً لشعر غنائى ، يقوم على حكاية قصة الحب من جهة ، وعلى الصلة الحميمة القوية بالغناء وألحانه من جهة أخرى .

أما طابع الحياة فى البادية ، فيختلف عن هذه الصورة التى رأيناها فى الحضر ، فالقوم هناك يعيشون حياة يغلب عليها الشظف والحرمان ، فى ظل ظروف بيئية صعبة ، وتقاليد بدوية صارمة ، يشق معها الاتصال بين الرجل والمرأة ، اتصال هوى وحب ، كما يقل حظها من وسائل الترفية ، التى تنتشر بالحضر ، كمجالس الغناء ، التى تتاح فيها كثير من فرص اللقاء بين الرجل والمرأة ، فيستمع إلى غنائها ، ويستمتع بمحادثتها ، ومجالستها ، دون حرج أو تضيق .

فى ظل هذه الحياة البدوية ، التى تحكمها ظروفها الخاصة ، فيما يتصل بحرية اللقاء بين الرجل والمرأة ، لم يكن بد من شيوع نوع من الغزل الباكى الحزين ، اصطلاح على تسميته « الغزل العذرى » أو « الغزل العفيف » .

(١) لمعرفة المزيد عن تأثير هؤلاء فى فنى الغناء والموسيقى بحضر الحجاز ، راجع : فجر الإسلام ١ / ٢٧ —

ويميل بعض الباحثين ^(١) إلى إدخال عامل ديني في بواعث هذا اللون من الغزل ، ذاهبا إلى أن الإسلام هو الذى صَفَّى نفوس الشعراء العذريين بالبادية ، وأحال الحب فيها إلى براءة وطهر ، وسمو ، ونبل ، وعفة ، مما أثر في غزلهم ، فارتفع به عن الحس والمادة في كثير من جوانبه .

بيد أننا نرى ، أن عامل الإسلام في هذا الغزل — إن وجد — ضعيف الأثر ، ونميل إلى أن أهم بواعث الغزل العذري في البادية ، ترجع إلى ظروف البيئة البدوية ، التى أشرنا إليها منذ قليل ، وأبرزها القيود العنيفة الصارمة ، على حرية اتصال المحبين بالبادية ؛ مما يحيل الحب في ظل الحرمان ، إلى شخص يتسم سلوكه ، وتعبيره عن حبه بالطابع العاطفى الوجدانى ، لا الطابع العملى ، فيقضى الحياة على أبواب معبد الحب ، حائرا ، تنقصه الجرأة على سلوك إيجائى للوصول إلى محبوبته ولقائها ، مكتفيا بترتيل أناشيد الشوق والهيام ، وإراقة الدموع ، ممزوجة بالآلام ، مشبعة بالأنات والزفرات . وللحديث هنا بقية ، تأتى عند دراسة هذا اللون من الغزل ^(٢) .

— ٥ —

إذا كان الغزل اللاهى العاثر ، الذى امتازت به بيئة حضر الحجاز ، يعد ثورة متواضعة على الروح الإسلامية ، وتحررا مهذبا — إلى حد ما — مما جاءت به ، ودعت إليه ، من عفة ، وورع ، واستقامة خلق ، فإن العصر الأموى قد شهد لونا آخر من الشعر ، يمثل ثورة عارمة ، وتحررا صارخا ، لا من الروح الإسلامية فحسب ، بل من التقاليد العربية ، وقيم الأخلاق العربية أيضا ، هذا الضرب من الشعر ، هو الذى يعكس من المجون والتهتك ، والاستهتار بوصف الخمر ومجالسها ، وما يحدث بين ندمائها ، مايجرح الفضيلة ، وينافى قيم الدين ، الذى يستظل أهل العصر برايته .

لقد ذهب شعراء المجون والخمر في شعرهم مذاهب لم يألّفها الشعر العربى من قبل ، وأسرفوا فيه إسرافا شديداً ، حتى قصر بعضهم شعره على وصف الخمر ، ومايصاحب مجالسها ، من خلاعة ومجون ، وكل مايدور حولها ، أو يتصل بها . كما سنرى إن شاء الله .

(١) انظر : التطور والتجديد في الشعر الأموى ٣٨ ، ١١٥

(٢) سنعود إلى دراسة العوامل المؤثرة في هذا الغزل بمزيد من التفصيل في مقدمة دراسة الغزل العذري في البادية

إن شاء الله .

وكان من ثمرة هذا الاتجاه الشعري ، أن انزلق بعض الشعراء إلى معان قبيحة ، يندى لها جبين الفضيلة ، ويأبى الخلق المستقيم إثارتها ، والعبارة عنها ، وزاد هؤلاء الشعراء إمعاناً في الإسفاف والرذيلة ، فعبروا عن هذه المعاني بعبارات وأساليب أقرب إلى الكشف منها إلى التكنية ، وإلى التصريح منها إلى التلميح ، فدفَعوا إلى الحياة الشعرية بلون جديد من الشعر ، هو الذي عرف منذ هذا العصر بـ « الأدب المكشوف » .

وموطن هذا الشعر العراق ، بل الكوفة منه على الأخص ، حيث نشطت بها طائفة من الشعراء اتَّجهوا بشعرهم إلى اللهو والمجون ، يتخذون من حديثهم عن الخمر مجالا لإعلان استهتارهم بالدين ، واستخفافهم بعقائده ^(١) ، فكانوا بذلك طليعة للشعراء الزنادقة ، الذين ظهروا ، واستحكم أمرهم ، فيما بعد بالبصرة وبغداد ، في العصر العباسي .

وكان على رأس هؤلاء الشاعر الكوفي الأقيشر الأسدي ^(٢) ، وهو الذي وضع الأسس الأولى لتقاليد مدرسة اللهو والمجون الفنية بالكوفة في بداية العصر الأموي ، ثم تابعه من بعده شعراء كوفيون آخرون في أواخر هذا العصر ، منهم : أبو دُلَامة ، ويحيى بن زياد ، وآدم بن عبد العزيز .. وغيرهم من شعراء الكوفة ، الذين أَلَفَ اللهو بينهم ، وربط المجون بين أسبابهم ، كلهم فاسق ، وكلهم خليع ، وكلهم سكير ، وكلهم متهم في دينه ^(٣) .

ويكفي هنا أن نعجل بنموذج من شعر الأقيشر ، أستاذ هذه المدرسة ، لنرى إلى أى مدى بلغ شعراء مدرسة اللهو والمجون بالكوفة ، من الاستهتار بالدين ومقدساته ، والسخرية من واجباته ، يقول الأقيشر ^(٤) :

(١) حياة الشعر في الكوفة ٧٧٣

(٢) شاعر كوفي معمر ذكره أبو الفرج (الأغاني ١٠ / ٨٠ وما بعدها) ووصفه بأنه أحد المعمرين ، قيل : ولد في الجاهلية ، وعمر حتى أدرك عهد عبد الملك بن مروان ، ومات في أيامه ، وكان صاحب شراب وندامي ، وذكره ابن سلام في طبقاته (ص ٦٩٤) وقال عنه : كان كوفيا خليعا ماجنا مدمنا لشرب الخمر .

(٣) راجع الأغاني ١٦ / ١٤٣

(٤) الأغاني ١٠ / ٩٧ هرها : كرهها وردها . السمادير : ما يترأى للإنسان من خيالات عند السكر .
الحقه من النوق : الداخلة في السنة الرابعة من عمرها .

رب نَذْمَان كَرِيمَ ماجِد سِيدِ الجَدِّينَ مِنْ فرَعَى مُضَرٍّ
 قَدْ سَقَيْتِ الكَأْسَ حَتَّى هَرَهَا لَمْ يَخَالِطَ صَفْوَهَا مِنْهُ كَدْرٌ
 قُلْتُ : قَمِ صَلِّ فَصَلِّ قَاعِدًا تَغْشَاهُ سَمَادِيرُ السَّكَّرِ
 قَرْنَ الظَّهْرَ مَعَ العَصْرِ كَمَا تُقَرْنَ الحَقَّةَ بِالْحَقِّ الذَّكَرِ
 تَرَكِ الفَجْرَ فَمَا يَقْرؤها وَقَرَا الكَوْثَرَ مِنْ بَيْنِ السُّورِ

وهَاكُمُ نَمُودَجَا آخِرَ لِأَحَدِ تَلَامِذَةِ هَذِهِ المَدْرَسَةِ فِي أَوَاخِرِ العَصْرِ الأُمَوِيِّ وَهُوَ أَبُو دَلَامَةَ ، الَّذِي كَثُرَ فِي شِعْرِهِ التَّعْبِيرُ عَنْ ضَيْقِهِ بِالشَّعَائِرِ الدِّينِيَّةِ ، وَلَهُ أَيْيَاتٌ يَتَحَدَّثُ فِيهَا عَنِ الصَّلَاةِ ، وَأَنَّهَا تَصْدَهُ عَنِ المَسْجِدِ الَّذِي يَسْتَلْذِقُ فِيهِ الصَّلَاةَ لِلْكُتُوسِ وَالْأَوْتَارِ ، وَهُوَ لَا يُؤَدِّيهِمَا إِلَّا كَارَهَا ، وَهُوَ يَعْجَبُ مِنْ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَهُ بِالصَّلَاةِ لِتَحُطَّ عَنْهُ آثَامُهُ ، فَهُوَ رَاضٍ بِحِمْلِ هَذِهِ الْآثَارِ ، بَلْ هُوَ رَاضٍ بِأَنْ يَحْمَلَ عَلَى ظَهْرِهِ ذُنُوبَ الْعَالَمِينَ جَمِيعًا ^(١) :

أَلَمْ تَرِ يَا أُنَ الخَلِيفَةِ لَزْنَى بِمَسْجِدِهِ وَالْقَصْرِ مَالِي وَلِلْقَصْرِ
 فَقَدْ صَدَنِي عَنْ مَسْجِدِ اسْتَلْذَه أُعْلَلٌ فِيهِ بِالسَّمَاعِ وَبِالْخَمْرِ
 وَكَلَفَنِي الأَوَّلَى جَمِيعًا وَعَصَرَهَا فَوَيْلِي مِنَ الأَوَّلَى وَعَوَّلَى مِنَ العَصْرِ
 أَصْلِيهَا بِالكِرْهِ فِي غَيْرِ مَسْجِدِي فَمَالِي مِنَ الأَوَّلَى وَلَا العَصْرِ مِنْ أَجْرِ
 لَقَدْ كَانَ فِي قَوْمِي مَسَاجِدَ جَمَّةَ وَلَمْ يَنْشَرْحْ يَوْمًا لَغَشِيَانَهَا صَدْرِي
 وَوَاللَّهِ مَالِي نِيَّةً فِي صَلَاتِهِ وَلَا الْبِرَّ وَالْإِحْسَانَ وَالْخَيْرَ مِنْ أَمْرِي
 وَمَاضِرُهُ - وَاللَّهُ يَغْفِرُ ذَنْبَهُ - لَوْ أَنَّ ذُنُوبَ الْعَالَمِينَ عَلَى ظَهْرِي

وَلَهُمَا وَلِغَيْرِهِمَا مِنْ شِعْرَاءَ مَدْرَسَتِهِ بِالكُوفَةِ فِي العَصْرِ الأُمَوِيِّ ، مَا يَفُوقُ هَذَا الاسْتِهْتَارَ بِالدِّينِ ، تَوَقُّحًا وَجَرَأَةً ، وَسُخْرِيَّةً ، وَفَسَادَ دِينٍ وَخَلْقٍ . كَمَا سَنَرَى عِنْدَ دِرَاسَتِنَا لِهَذَا اللَّوْنِ مِنَ الشَّعْرِ ، فِي الجُزْءِ الثَّانِي مِنْ كِتَابِنَا هَذَا .

وَهُنَا نَتَسَاءَلُ ، لِمَاذَا كَانَتِ الكُوفَةُ خَاصَّةً بِيئَةِ لَشَعْرِ المَجُونِ وَاللَّهُوِ ، مِنْ دُونِ بِيئَاتِ الشَّعْرِ فِي العَصْرِ الأُمَوِيِّ ؟ أَوْ بِعِبَارَةٍ أُخْرَى ، مَا الْعَوَامِلُ الَّتِي جَعَلَتْ مِنْهَا مَرْتَعًا لِهَذَا الضَّرْبِ مِنَ الشَّعْرِ ؟

يَأْتِي فِي مَقْدَمَةِ الْعَوَامِلِ الَّتِي أَمَدَّتِ الكُوفَةَ بِأَسْبَابِ اللَّهُوِ وَالْمَجُونِ ، وَمَقُومَاتِهِمَا ، قَرِيبًا مِنَ الْحَيَرَةِ ، الَّتِي كَانَتْ عَلَى ثَلَاثَةِ أَمْيَالٍ مِنْهَا ^(٢) ، وَمِنْ المَعْرُوفِ أَنَّ الْحَيَرَةَ كَانَتْ

(١) الأغاني ١٠ / ٢٤٦ (دار الكتب) .

(٢) تيارات ثقافية ١١

بيئة نصرانية ومركزا حضاريا ، غنيا بآماكن اللهو وأسبابه ، تنتشر فيها الحانات ؛ إذ كانت الخمر مباحة عند النصارى ، بل هى تدخل عندهم فى أسرار القربان المقدس ، كما تكثر فيها الأديرة التى أقامها بعض أفراد الأسرة المالكة فى الحيرة قبل الإسلام ، أو طائفة العباد المسيحيين .

وهذه الأديرة كانت تهيب لروادها فرصة الشراب ، كما كان مولدوها ومولداتها بعد الإسلام يقدمون لهؤلاء الرواد ألوانا من المتع واللهو ^(١) .

ونظرة فيما أورده ابن فضل الله العمري عن حانات الحيرة وأديرتها قبل الإسلام وبعده ، وأخبارها ، وروادها ، وما كان يقدم فيها ، تطلعنا على الدور الهام الذى قامت به هذه البيئة من مد الكوفة القريبة منها بتيارات متلاحقة من اللهو ، وصنوف عديدة من بضاعته الفاسدة المفسدة ^(٢) .

فضلا عن أن الحيرة اشتهرت بالغناء ، وظهر فيها — أوائل هذا العصر — مغن نصرانى شاعر برع فى الغناء ، وبلغ منه مبلغا كبيرا ^(٣) ، وهو حنين الحيرى ^(٤) ، الذى لفت إليه أنظار بشر بن مروان ، أيام ولايته على الكوفة فى خلافة عبد الملك ، فاستقدمه واستمع إلى غنائه وفتح له أبواب قصره ^(٥) ، كما فتحه لأمثاله من المغنين ، الذين كانوا يفلدون إلى حنين بالحيرة ليتمتعوا بطبيعتها ، وجودة خمرها ، وحسن غنائه ، مثل ابن سريج الذى قدم من مكة ، ونزل عنده بالحيرة ، حيث أكرمه ، ثم قدمه إلى بشر بن مروان ، فسمعه وأجزل جائزته ، وقد أشاع حنين هذا فى مجالس غنائه جوا من اللهو والشراب ، جعل خالد بن عبد الله القسرى والى الكوفة لهشام بن عبد الملك (١٠٥ — ١٢٠ هـ) يحرم الغناء بالعراق ؛ لأن مجالسه كانت مباءة للفسوق ، ولما سمع لحنا فى الزهد ، غناه حنين عاد فأباحه ، على أن لا يخضر مجالسه سفيه أو عريب ، أو امرأة عربية ^(٦) .

(١) راجع خبرا يرويه أبو الفرج يلقى ضوءا على ما ذكرنا فى : الأغاني ٢ / ٣٥١

(٢) انظر فى حانات الحيرة : مسالك الأبصار ١ / ٣٨٩ وما بعدها ، وفى أديرتها ١ / ٣١١

(٣) الأغاني ٢ / ١٢٠

(٤) انظر أخباره فى الأغاني ٢ / ١١٦ وما بعدها .

(٥) انظر الأغاني ٢ / ٣٤٩ (دار الكتب) .

(٦) تيارات ثقافية ٢٨

وأخيراً ، فقد كانت الحيرة مجمعا لأديان فارسية شتى في الجاهلية ، كالزرادشتية ، والمزدكية ، والمأنوية ^(١) ، وظلت المأنوية (نسبة إلى ماني صاحب هذه النحلة) والمزدكية إلى مابعد الإسلام بالحيرة ، كما ظهرتا في الكوفة ، وطارد خالد بن عبد الله القسري أتباعهما ، وبعض هذه الأديان كان يدعو للإباحة كالمزدكية ، وبعضها يدعو إلى الخمول والكسل وترك الزواج والتناسل حتى يفنى العالم المادي ويعود النور إلى موطنه كالمأنوية ^(٢) .

كما كانت الحيرة جسراً حضارياً بين الفرس والعرب ، عبرته ألوان من المعارف والثقافات الفارسية كما عبرته جاليات كثيرة فارسية إلى الكوفة ، فكثرت فيها هذا الجنس ، وأثر في مختلف جوانب حياتها ، ومنها حياة اللهو والمجون ، والاستهتار بالقيم الروحية والأخلاقية .

ورثت الكوفة عن الحيرة كل هذا ، بعد أن نازعتها فيه فغلبتها ، وأخملت شأنها ، بحيث صارت الكوفة في أواخر العصر الأموي مركز اللهو والمجون في المجتمع الإسلامي ، ومنها خرج هذا التيار ليفزو بيئات إسلامية أخرى في العراق والشام ، قبيل حكم العباسيين ، وفي أيامهم .

ثم يأتي العامل السياسي ، ليسهم بدوره في إثماء موجة اللهو والمجون بالكوفة ، ويمد تيار شعرهما بمقومات وجوده .

فمن المعروف أن الكوفة مرت بفترات سياسية مضطربة في العصر الأموي ، جعلتها هدفاً لبطش السلطة الأموية الحاكمة ، وعرضتها لسخطهم المتواصل ، فمنها خرج على لقتال معاوية ، ومنها ، توالى الرسائل لدعوة الحسين للثورة على بني أمية ، وفيها تركزت معارضة شيعية قوية ، للحكم الأموي ، طالما أفلقت الأمويين ، وطيرت الأعاصير في سماء دولتهم .

(١) راجع في مبادئ هذه الأديان : تيارات ثقافية ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٦ وفجر الإسلام ١ / ١٢٥ وما بعدها ،

وانظر : تاريخ الطبري ٢ / ٨٨

(٢) تيارات ثقافية ٢٨

هذه الحياة السياسية المضطربة ، غرست القلق في نفوس الكوفيين ، وأفقدتهم الإحساس بالطمأنينة والأمان ، ومن ثم وقفوا من الحياة موقفين : « فجماعة نفضوا أيديهم منها ، واتجهوا إلى الآخرة ، وهم الزهاد ، وجماعة اندفعوا خلفها ، يعبون من كثرتها ما استطاعوا ، قبل أن يدركها النضوب والجفاف ، وهم اللاهون والمجان .

وكلا الفريقين نتيجة طبيعية لهذه الحياة ، فإذا كان الفريق الأول دفعهم اليأس من الحياة إلى وضع أملهم كله في الآخرة ، فإن الفريق الآخر لم يدفعهم اليأس من الحياة إلى الوقوف منها ذلك الموقف السلبي ، وإنما دفعهم إلى اتخاذ موقف إيجابي منها ، يريدون به أن يفوضوا أنفسهم عليها ، وإذا كان الزهاد طلقوا الدنيا إلى غير رجعة ، فإن هؤلاء اللاهين والمجان تزوجوها إلى غير طلاق ، ولكنهم لم يتزوجوا الحياة الجادة العاملة ، التي صدوا عنها وصدت عنهم ، وإنما تزوجوا الحياة اللاهية العابثة الماجنة ، التي استطاعت أن تغريهم ، وتغويهم ، فأقبلوا عليها ، لينسوا بين أحضانها ذلك القلق ، الذي كان يسيطر على نفوسهم ^(١) » .

وأكثر هؤلاء ، الذين انصرفوا إلى الحياة الماجنة اللاهية ، كانوا من الموالي والشيعة ، الذين تعرضوا لصنوف الاضطهاد والعسف والقسوة والقهر على يد عمال الأمويين على الكوفة .

والنفوس تتفاوت في التسلي عن الهموم ، وقد وجد بعض هؤلاء — منهم شعراء — سلوكهم في الإقبال على الخمر ، يشربونها ، ويدمنون شربها ، ويغرقون همومهم في كثرتها ، ودنانها ، إذ رأوها مسكنا سريعا لآلامهم ، وقلق حياتهم ، وساعدهم على هذا انتشار الأديرة النصرانية في منطقة الكوفة وفي ظاهرها ^(٢) ، وبالحيرة القريبة منها ، حيث يتاحة للنازلين بها حظ كبير من الحرية واللهو ، والشراب والسماع ، وأيضا العبث بالجوارى والقيان ، وكان الرهبان في هذه الأديرة يبالغون في العناية بكرومها ، واتخاذ المعاصر لها ، ولهذا كان شراب الخمر من المسلمين يجدون في هذه الأديرة مكانا صالحا للشراب ، كما

(١) حياة الشعر في الكوفة ٢١٤

(٢) راجع : مسالك الأبصار ١ / ٣٩٢ ، ومعجم البلدان ٧ / ٢٢٩

كانوا يقصدون إليها ليمتاروا من خمرها ، وكان من أثر الإقبال على خمرها أن اتخذت حانات لها تباعه فيها ؛ لتظل لأماكن العبادة حرمتها ، وكانت هذه الحانات تقام — غالبا — بينحدائق هذه الأديرة ^(١) ولعل هذا الإقبال على الخمر والشراب ، مما يفسر تقديم أهل الكوفة شعر الأعشى على شعر غيره من الشعراء الجاهلتيين ، لإجاداته وصف الخمر في شعره ^(٢) .

ومع ذلك فإن هناك طائفة من شعراء الخمر والمجون في الكوفة ، لم يكن الباعث عندهم التسلي عن الهموم ، وإنما أقبلوا على هذا اللون من الحياة ، وعبروا عنه ، تأثرا بعناصر من الحضارة الفارسية الوافدة من الحيرة — واسطة الحضارة الفارسية بين الفرس والعرب كما قدمنا — على بيئة الكوفة أولا ، لقرنها منها .

ولما كان الفرس قد سبقوا العرب في مضمار الحضارة ، فقد كان من بعض جوانب هذه الحضارة الميل الى الترف واللهو ، والتفنن في وسائلهما ، وبذا حملت الحضارة الفارسية بعض الأفكار الهدامة ، كما حملت كثيرا من العادات المنحرفة ، التي انعكس تأثيرها على هؤلاء الشعراء ، ثوره على العرف ؛ والتقاليد ، وجميع القيم الدينية والمورثة . والحق أننا لانستطيع أن نسقط من حسابنا تأثير العناصر الفارسية ، في تدعيم تيار المجون بالكوفة ، ومدته بأسباب القوة والحياة .

ففي عصر انحطاط الدولة الفارسية اهتمت الطبقات المترفة من الفرس باللذائذ والشهوات ، فاستكثروا من الغلمان في قصورهم ودورهم ، يستخدمونهم في أغراض شتى ، ويزينونهم بما تتزين به الإناث ^(٣) ؛ كما غصت بيوتهم بالقيان ، والخليعات من الجوارى ، والأرقاء الفاسدين المفسدين ، كما كان السكر رذيلة شائعة بين كل الطبقات ^(٤) ، وانتقل كل ذلك إلى حياة الكوفة على يد بعض العناصر الفارسية ، التي انتشرت في المجتمع الكوفي منذ أيام الفتوح الإسلامية ، وكثرت كثرة هائلة في العصر الأموي ، يقول فلهوزن : إن أكثر من نصف سكان الكوفة كانوا من الموالي ، وأكثر هؤلاء

(١) حياة الشعر في الكوفة ٢٢٣

(٢) العمدة لابن رشيقي ١ / ٦٢

(٣) تيارات ثقافية ١٢٥

(٤) قصة الحضارة الفارسية ٢ / ٤٥٤

من الفرس^(١)، وقد عاشت هذه العناصر في المجتمع الكوفي، وهي تحمل معها تقاليدھا وحياتها الاجتماعية الأجنبية، ثم أخذت تؤثر في مجاورها ومخالطها من سكان الكوفة العرب، ومن بينهم بعض الشعراء.

هذا فضلا عن أن ميل الحياة الفارسية إلى اللذات، قد أثر نوعا من الأدب الفارسي المكشوف، ترجمه المترجمون الفرس أو العرب^(٢) — أو ترجموا بعضه على الأقل — في العصر الأموي، فكان بمثابة القدوة المرشدة لطلاب اللهو والمجون في المجتمع الإسلامي بالكوفة.

وإلى جانب ماتقدم من عوامل ظهور شعر اللهو والمجون بالكوفة، ينبغي أن لا نغفل عاملا آخر، كان له تأثيره القوي في انتشار اللهو والمجون والتهتك بمجتمع الكوفة وظهور آثارها في الشعر الكوفي، نعتي انتشار موجة الغناء والموسيقى، فالصلة حميمة بين هاتين الظاهرتين، ذلك أن الغناء اقتضى كثرة القيان، واختصاصهن ببيوت سميت (دور القيان)، وبعض هذه الدور كان مرتعا لرواد العبت والمجون والخلاعة، يتعوا فدون عليها، ليستمتعوا باللذات، «متأثرين بالآراء الإباحية التي تزين التحلل من سلطان الدين، والجرأة على حرمانه^(٣)».

على أنه كان لبعض غلاة الشيعة أثر واضح في الاتجاه إلى هذا اللون الماجن من الحياة بالكوفة؛ إذ جنح بعضهم إلى الحض على الإباحة، والإغراق في اللذات، متأثرين ببعض رواهب ديانات الفرس القديمة، وخاصة المزدكية — دين الإباحة والشيوع في الاء —^(٤) فساعدوا بذلك تيار المجون على الانتشار في بيئة الكوفة، التي كانت موطن نشاطهم الهدام ابتداء من هذا العصر.

نهض هذا التيار الماجن بالكوفة نتيجة لكل العوامل التي أوجزناها، ثم لم يلبث أن أخذ طريقه إلى الشام في أخريات العصر الأموي، على يد الخليفة الأموي الشاب، الوليد ابن يزيد، الذي أفسدته بيئة الترف واللهو المحيطة به، في عهد أبيه، الذي كان صباً

(١) الخوارج والشيعة ٢١١

(٢) من المعروف أن الترجمة من الفارسية إلى العربية بدأت في العصر الأموي، على يد من أتقنوا اللسان العري من الفرس، أو الذين اتقنوا اللسان الفارسي من العرب. انظر: تيارات ثقافية ١٨٢

(٣) المصدر السابق ١٢٣ — ١٢٤

(٤) تاريخ الطبری ٢ / ٨٨ وتيارات ثقافية ٣٠

أيضاً باللهو والترف ، فأسبع فنونهما على ابنه ، فشبه عليهما ، وأولع بهما ، ولم يتخل عنهما حتى بعد أن تُنصَّب خليفة للمسلمين ، وإماما لهم !!

وفيه يقول الطبرى ، « ظهر من الوليد بن يزيد مجون وشرب الشراب » ويقول : « ظهر للناس منه تهاون بالدين ، واستخفاف به ^(١) » .

أما المسعودى فإنه يلقى أضواء أكثر على شخصية الوليد فيقول ^(٢) : « كان الوليد بن يزيد صاحب شراب وهو وطرب ، وسماع للغناء ، وهو أول من حمل المغنين من البلدان إليه ، وجالس الملهين ، وأظهر الشراب والملاهى والعزف ... وغلبت عليه شهوة الغناء في أيامه ، وعلى العام والخاص ، واتخذ القيان ، وكان متهتكا ، ماجنا ، خليعا » وقال : « والوليد يدعى خليع بنى مروان » ^(٣) .

فلا بدع إذن أن يتطلع الوليد إلى المجان وأصحاب الخمر من شعراء الكوفة ، وأن يستقدمهم إليه ويسمع منهم ويُسمعهم ، ويتخذ منهم ندماء ، وخاصةً مجالسه الماجنة ^(٤) .

وكان الوليد شاعرا ، فجاهر في شعره باللذة ، وارتكاب المحرمات ، دون مواربة أو تحشم .

يقول ابن جرير الطبرى ^(٥) « وتمادى الوليد فى الشراب ، وطلب اللذات فأفرط ، فقال له هشام (عمه) : ويحك يا وليد ، والله ما أدري على الإسلام أنت ، أم لا ، ماتدع شيئا من المنكر إلا أتيت ، غير متحاش ، ولا مستتر به ، فكتب إليه الوليد :

يأيها السائل عن ديننا نحن على دين أبى شاعر
نشرّبها صرفاً ومزوجة بالسُّخُن أحيانا وبالفاتر

(١) انظر مثلا : سبط اللآل ١ / ١٤٣ ، وتاريخ الطبرى ٨ / ٢٨٨

(٢) مروج الذهب (البية) ٢ / ١٨٥

(٣) المصدر السابق ٢ / ١٨٧

(٤) لمزيد من المعرفة راجع حياة الشعر فى الكوفة ٢٠٩

(٥) تاريخ الطبرى ٨ / ٢٨٩ .

فغضب هشام على ابنه مسلمة ، وكان يكنى أبا شاعر ، وقال له : يعيرني لك الوليد ... » من أجل هذا عدّ بعض الباحثين الوليد بن يزيد من أئمة المجان في العصر الأموي ، بل في القرن الثاني كله ^(١) .

— ٦ —

ولعلنا بعد هذا لانغفل تأثيرا الثقافة الدينية في وجدان بعض شعراء العصر الأموي ، وفي فنهم أيضا ، وخاصة في العراق .

فقد نزع كثير من صحابة رسول الله ﷺ إلى هذا الإقليم منذ الأيام الأولى للفتح الإسلامي للعراق ، واستقروا في مدينتيه ، البصرة والكوفة ، ثم توالى وفود أعداد أخرى من الصحابة والتابعين ، والتف حولهم جمهور كبير من أهل المصريين ، يسمعون منهم فقه الدين ، ويأخذون عنهم أحكامه ، ويجلسون إليهم في حلقات دروسهم في المساجد أحيانا ، وفي دورهم أحيانا أخرى ، وبالطبع كانت المادة التي تدور في هذه الحلقات دينية خالصة ، من تفسير لكتاب الله ، أو رواية للحديث الشريف ، أو وعظ وهداية ، وإرشاد مستمد من هذين الأصلين ، فتكونت بذلك مدارس دينية بالعراق ، « فقد كان لكل صحابي مدرسة من التابعين ، تأخذ عنه ، وتلتف حوله ، كما كان لكل تابعي مدرسة من تابعيه ، تأخذ عنه أيضا وتلتف حوله » ^(٢) .

كانت هذه الظاهرة الطيبة عاملا من أهم العوامل في بث روح التدين الصادق العميق في العراق ، هذا التدين الذي اتخذ في أبرز طابع موجة قوية واسعة المدى من الزهد ، كان هؤلاء الصحابة ، ومن تبعهم ممن صدق إيمانهم ، رواه وباعثي نهضته .

نعم ، انتشر الزهد في العراق ، وبلغ من المدى حداً لم يبلغه في بيئة أخرى من البيئات الإسلامية ، « فكل من يدرس هذه الموجة من الزهد ، ويتعقبها في الأقاليم الإسلامية ، أثناء عصر بنى أمية ، يستطيع أن يلاحظ في وضوح ، أن أهم إقليم انتشرت

(١) اتجاهات الشعر (هدارة) ٢٠٩ ، وانظر : التطور والتجديد ٣٣٣

(٢) حياة الشعر في الكوفة ١٨٧

فيه هذه الموجة ، هو أقليم العراق ^(١) ، فقد ظهرت فيه هذه النزعة إلى رفض زخرف الحياة الدنيا ، وإيثار التقشف ، في وقت مبكر ، بعيد الفتح الإسلامي وأوائل الدولة الأموية ، كما يقول جولد تسهير ^(٢) .

ولمعت في سماء العراق جماعات من الزهاد ، ارتقت إلى طبقات عالية من التجرد والروحانية الخالصة في العصر الأموي ، من بينهم : قتادة المحدث الزاهد المشهور ، والشعبي المحدث والعابد ، وعلقمة بن قيس ، والحسن البصري ، والربيع بن خثيم ، زاهد الكوفة الأكبر ، الذي يراه جولد تسهير المثل الكامل لحياة الزهد ، سواء في آرائه ومواعظه ، وفي أسلوبحياته ^(٣) ، فقد لخص الزهد في تسعة من ألوان السلوك ، ينبغي للزاهد أن يلزمها ، ولا يغفل عنها ، فقال : « أقلل الكلام إلا من تسع : تكبير وتهليل ، وتسبيح ، وتحميد ، وسؤالك الخير ، وتعوذك من الشر ، وأمرك بالمعروف ، ونهيك عن المنكر ، وقراءتك القرآن ^(٤) » .

ومن مشاهير زهاد الكوفة ، أويس القرني ، وهو من كبار التابعين ، تحدث عنه ابن سعد في الطبقات الكبرى ، قال : جاء رجل من مراد إلى أويس القرني ... فقال له : كيف الزمان عليكم ؟ فقال أويس : « ماتسأل رجلا إذا أمسى لم ير أنه يصبح ، وإذا أصبح لم ير أنه يمسي ، يأخامراد ، إن الموت لم يبق لمؤمن فرحا ^(٥) » .

ولايتسع المقام للإفاضة في ذكر زهاد العراق ، ومناقبهم ، وصور زهادتهم ، فقد كفانا ، ابن سعد في طبقاته مؤونة كل هذا ، فليرجع إليها من شاء ^(٦) ، ونكتفي بما حدثنا به من أنه كان في بني ثور (حتى من أحياء الكوفة) ثلاثون رجلا ، مامنهم رجل دون الربيع بن خيثم ^(٧) .

(١) التطور والتجديد ٣٦

(٢) العقيدة والشرعية ١٣٠

(٣) المصدر السابق

(٤) طبقات ابن سعد ٦ / ٢٩

(٥) المصدر السابق ٦ / ١١٦

(٦) نجيل على الجزء السادس من الطبقات

(٧) طبقات ابن سعد ٦ / ١٣٣

ليس غريبا إذن أن يعمر العرق بألوان من الزهد ، وطبقات من الزهاد ساروا على الدرب الذى اختطه لهم الرواد الأول من الصحابة والتابعين ، اقتداء بهم ، وطلبنا لحسنى العقبى مثلهم .

ولاننسى ماسبقت الإشارة إليه فى حديث اللهو والمجون بالكوفة ، من أن حياة الاضطراب ، والقلق السياسى ، التى ألقت بظلمها القاتم على حياة الناس فى الكوفة قد دفعت فريقا من الناس إلى لانصراف عن دنيا الناس ، التى يتطاحنون على حطامها ، وخلفوها وراء ظهورهم ، وزهدوا فى متعتها ولذائذها ، وولوا قلوبهم وآمالهم ، إلى الدار الآخرة الباقية ، مؤمنين بأن ما عند الناس ينفد ، وما عند الله باق ، وأن الباقيات الصالحات خير عند الله ثوابا ، وخيرا أملا ، قد آثروا التقشف والزهد .

ولعل هؤلاء هم الذين عناهم جولدتسهر ، فيما ذهب إليه من أن الميل إلى الزهد كان مرتبطا بالثورة على السلطان القائم ، وأن كثيرا من المسلمين لجئوا إلى حياة الاعتكاف والزهد احتجاجا على ماينكرون من النظام السياسى ، وشاطروهم الفرار من الدنيا ^(١) ، ولا أدل على صواب هذا رأى من قول أويس القرنى : « الوحدة أحب إلى ^(٢) » ، فرما عنى أن الاعتكاف والانقطاع إلى العبادة ، والزهد فى الدنيا أحب إليه من الالتفات إلى الحياة القلقة فى مجتمع عصره .

نستطيع بعد هذه النظرة فى مقومات حياة الزهد بالعراق ، فى العصر الأموى أن نقول : إن الحياة فى مجتمع تشع فيه نفحات الزهد ، وتتردد فى جنباته أنغامه الروحانية ، لا بد أن تترك أثرها فى ضمائر جمهور من الناس ، وعقولهم ، أو على الأقل فى أسماعهم . وبالطبع كان من بين هذا الجمهور عدد من شعراء العراق ، تفاوتت استجابتهم ، لما يشاهدون من حياة الزهد ، ومايسمعون فى مجالس الزهاد ، وحلقات دروسهم ، إذ لانستطيع أن يتصور أن كل شعراء العراق كانوا بمعزل عن هذه الحياة الزاهدة ، أو « أن ماديتهم كانت (مادة عازلة) تحول دون وصول هذا التيار الروحانى إلى نفوسهم ^(٣) » . المعقول أن يكون شعراء العراق ، الذين احتكوا بهذه العناصر الزاهدة ، أو عاشوا على مقربة منهم ، يشهدون مجالسهم ، أو يشاهدون أحوالهم ، قد تأثروا بتيار الزهد ،

(١) العقيدة والشريعة ١٣٠

(٢) طبقات ابن سعد ٦ / ١١٤

(٣) حياة الشعر فى الكوفة ٥٠٣

والمعقول أيضا أن يكون لهذا التأثير صداه في أشعارهم ، مادام الشعر ، كما هو معروف ، مرآة لنفس مبدعه .

وسوف نلمح نماذج من هذا التأثير في شعر كل من : الفرزدق ، وجريز ، والطَّرمَاح بن حكيم ، ووضَّاح اليمن ، وعُروة بن أذينة فقيه المدينة وزاهدها ، وذى الرُّمة ، وأعشى همدان وغيرهم .

— ٧ —

وبالمثل لانستطيع — في مقام الحديث عن الظروف والعوامل التي وجهت الشعر في العصر الأموي — أن نغفل تأثير الحركة العقلية والفكرية والثقافية في توجيه بعض النتائج الشعرى لهذا العصر ، وتغذية عقول شعرائه بألوان من الفكر والثقافة ، كان له صدى غير قليل في أشعارهم .

لقد بدأ نشاط هذه الحركة ممثلاً أولاً في الحلقات الدينية التعليمية ، التي انتشرت في مكة والمدينة ، والكوفة والبصرة ، ودمشق .. وغيرها من الأمصار الإسلامية ، التي نزلها ، أو استوطنها عدد من أصحاب رسول الله ﷺ ، أو بعض تلاميذهم من كبار التابعين . وقد انصببت عناية هذه الحركة الدينية التعليمية على تفسير كتاب الله ، ورواية حديث رسول الله ﷺ ومدارسه ، واستنباط الأحكام الفقهية ، والتشريعية منهما ، وكانت هذه الحركة أكبر الحركات العلمية ، في العصر الأموي ، وأوسعها نشاطاً . وعنهما ، وتحت تأثيرها صدرت ألوان من الشعر ، متأثرة بالنظر الديني ، والعاطفة الدينية ، كالشعر الذي عبر عن حياة الزهاد ، وأفكارهم ، وضروب أخرى ونماذج أخرى من الشعر عكست بعض المضامين الدينية ، أو رددت ألفاظاً ، وعبارات ومصطلحات دينية ، إلى غير ذلك ، مما يمكن أن نسلكه فيما أسميناه سابقاً بالشعر الديني .

ثم لم تلبث الحركة العقلية والثقافية ، أن اتخذت مساراً ، أميل إلى التفكير العقلي والفلسفي ، القائم على البحث والنظر ، والحوار والجدل والمناظرة . عرف أصحاب هذا اللون من الثقافة الفكرية العقلية بالمتكلمين ، وتمثل في المذاهب الكلامية ، التي عرفت في هذا العصر ، والتي اتخذت من العراق خاصة مركز إشعاع لثقافتها وأفكارها ، وميداناً لحلقات دروسها ، ومجالس مناقشتها ومناظراتها ، وجدالها فيما بينها .

عرف العصر الأموي من هذه المذاهب الكلامية : الشيعة ، والمرجئة ، والمعتزلة ، والجبرية والقدرية ... وغيرها . وقد اقترنت نشأة أكثر هذه الفرق في العصر الأموي ، بظروف سياسية ،

وأهواء سياسية ، كانت القاعدة الأساسية التي انطلقت منها ، وقامت أفكارها المبكرة على هدى منها .

وقد رأينا من قبل كيف نشأ التشيع لعلى وآل بيته على أساس نظرية سياسية تقول بحق آل البيت في خلافة الرسول ﷺ وإمامة المسلمين ، وكثرة من عقائد الشيعة تدور حول هذه النظرية السياسية ، أو تنبثق منها .

ولو تتبعنا نشأة المرجئة ، لوجدناها ترتبط ارتباطا وثيقا بالسياسة ، فقد وجد بعض الصحابة في أيام النزاع الحزبي بن عليّ ومعاوية ، أن كلا من الفريقين يستحل دم الفريق الآخر ويرميه بالبغي والكفر ، فتحيروا ، وغمّ عليهم وجه الحق ، ومن ثم أثروا اعتزال الفريقين ، وتوقفوا عن الحكم عليهما .

في هذا الجو السياسي المضطرب المتخاصم ظهرت المرجئة ، مذهبا سياسيا مسالما ، يعلن للجميع ، أن الشيعة والخوارج والأمويين مؤمنون ، وليسوا كفارا ، بعضهم مخطيء وبعضهم مصيب ، ولكننا لانستطيع أن نعين ، أيهم المخطيء ، وأيهم المصيب .

وعلى أساس من هذه الظروف السياسية ، قامت أراؤهم في الإيمان ، ومدلوله ، فما داموا لا يكفرون أحدا من المسلمين المتحاربين ، فمن الطبيعي أن يحددوا معنى الإيمان ، فمن قائل منهم ، بأنه التصديق بالقلب ، فيكفي أن يكون الإنسان مؤمنا بالقلب بأن الله واحد وأن محمدا رسوله ، وأن ما جاء هو الحق ؛ ليكون مؤمنا ، ولا يشترط مع ذلك الإقرار باللسان ، ومنهم من ذهب إلى أن الإيمان إقرار بالقلب وتصديق اللسان ، وكلهم على أن العمل (أى أداء الطاعات كالصلاة والصوم ... ونحوها) ليس جزءا من الإيمان ^(١) ، ثم تفرعت المسائل ، وتجددت القضايا ، واتخذت أفكار المرجئة صبغة دينية ، وبذا تطورت إلى مذهب ديني ، وصار أنصارها فرقة من فرق المتكلمين ^(٢) .

وقد لا يكون من لوازم هذا البحث ، أن نتبع هذه المذاهب والفرق ، في نشأتها وتطورها ، وأن نعرض لمبادئها وآرائها ، فقد أفاضت كتب الفرق والعقائد في عرضها ومناقشتها ، وما يهمنا هنا أن نذكر أن آراء هذه الفرق ، ونظرياتها ، كانت تمثل نشأة الحركة الفلسفية الحقيقية في الإسلام ، التي اتخذت من المسائل الاعتقادية موضوعا للبحث والنظر والجدل ^(٣) .

(١) الملل والنحل ١ / ٢٦٠ ، ٢٦٣

(٢) راجع فيما ذكرناه عن المرجئة : مقالات الإسلاميين ١ / ١٩٧ وما بعدها ، والفرق بين الفرق ١٩٠

وما بعدها ، وانظر : فجر الإسلام ١ / ٣٤٢ ، وضحي الإسلام ٣ / ٣١٦ — ٣١٨ ، والعقيدة والشرعية ٧٥

(٣) انظر : تاريخ الفلسفة في الإسلام ، هامش ص ٤٨ ، ٥٠ ، وفجر الإسلام ١ / ٣٥١ — ٣٥٢

وليس من شك في أن ماكان يدور بين هذه الفرق من حوار وجدل ، أثر في العقلية العربية حينئذ ؛ فإن الناس ومعهم الشعراء كانوا يستمعون إلى مايدور في مجالس هذه الفرق ، من نقاش وجدل ومناظرة .

من ذلك مثلاً : أن رجلاً جاء إلى الحسن البصري ، وعنده الفرزدق الشاعر ، فقال : ياأبا سعيد ، إنا نكون في هذه البعوث والسرايا ، فنصيب المرأة من العدو ، وهي ذات زوج ، أفتحل لنا من قبل أن يطلقها زوجها ؟ فقال الفرزدق : قد قلت أنا مثل هذا في شعري ، فقال الحسن : وماقلت ؟ قال قلت :

وذات حليل أنكحتنا رماحنا حلا لا لمن بيني بها لم تطلق
فقال الحسن : صدق ^(١) .

وجاء آخر ، فقال : ياأبا سعيد ، الرجل يقول : لا والله ، ولم والله ، في كلامه ، لايريد اليمين ، فقال الفرزدق : أو ماسمعت ماقلت في ذلك ؟ لقد قلت :
ولست بمأخوذ بلغو تقوله إذا لم تعمّد عاقداً العزائم ^(٢)
ولئن كان هذا الشعر متأثراً بثقافة ، تأخذ طابعا فقهيا دينيا ، فهناك أشعار أخرى ، تردد بعض مقولات علم الكلام ، أو الثقافة الفكرية لفرق المتكلمين .
يقول عون بن عبد الله — من مرجئة الكوفة — معبرا عن تراجع عن الإرجاء : ^(٣) :

وأول ماأفارق غير شك أفارق مايقول المرجئون
وقالوا : مؤمن من آل جور وليس المؤمنون بجائرينا
وقالوا : مؤمن دمه حلال وقد حرمت دماء المؤمنين
فهو يعجب ، كيف يعد المرجئة أهل الجور مؤمنين ؟ ، وكيف يحكمون على المتقاتلين من المسلمين بالإيمان ، سواء منهم القاتل والمقتول ؟ مع أن دماء المؤمنين محرمة ، وقد عرفنا منذ قليل أنهم لا يرون العمل جزءاً من الإيمان .
وهذا مرجيء آخر ، يتمسك بمقولة مذهبه بعدم الحكم على عليّ ومعاوية والحرب بينهما ، كما يعبر عن رأى فرقته في معنى الإيمان ، وهو محارب بن دثار الذهلي : ^(٤)

(١) العمدة ١ / ٣٠ ، وانظر : الأغاني ١٩ / ١٤

(٢) المصدر السابق

(٣) الأغاني ٩ / ١٣٩

(٤) الأغاني ٧ / ٢٤٨ (دار الكتب)

يعيب على أقوام سَفَاهًا بأن أُرْجى أبا حسن عليا
 وإرجائي أبا حسن صوابٌ عن العَمْرَيْنِ بَرًّا أو شَقِيئاً
 فإن قدمتُ قوماً قال قوم أسأتُ وكنت كذاباً رَدِيئاً
 إذا أيقنت أن الله ربي وأرسل أحمداً حقاً نبيّاً
 وأن الرسل قد بعثوا بحق وأن الله كان لهم وليّاً
 فليس على في الإرجاء بأس ولا لبس ولست أخاف شيئاً

وأشبه هذه المعاني تعكس بعض مقولات المذاهب الكلامية في العصر الأموي ، خاصة أشعار الشعراء الذين عرف من تاريخهم أنهم كانوا كثيرون التردد على مجالس المتكلمين ، أو لازموا رؤسا من رءوسهم ، كالفرزدق ، الذي يقال أنه لزم حلقات دروس الحسن البصري ^(١) ، وجريز ، الذي لزم حلقة ابن سيرين ^(٢) .

كما خطت الحركة العقلية خطوات أخرى ، مع بدايات النظر في العلوم الدخيلة ونقصد بها تلك المعارف ، التي أخذ بعض المثقفين من المسلمين — العرب وغير العرب — ينقلها إلى اللسان العربي ، من ألسنتها الأصلية ، ويدخل فيها معارف وعلوم وثقافات لأمم اليونان ، والفرس ، والهند ، والسريريان ، وغيرهم .

وقد ظهرت بواكير هذه المعارف المترجمة في العصر الأموي ، وبخاصة في حياة الأمير الأموي خالد بن يزيد بن معاوية (توفي سنة ٨٥ هـ) . الذي كان يلقب بالحكيم ؛ لانصرافه لاكتساب العلا بالعلم ، فقد استقدم جماعة من علماء مدرسة الإسكندرية ، ووكل إلى بعضهم ترجمة بعض آثار اليونان ، في علوم الطب ، والكيمياء ، والفلك ، كما ترجمت آثار يونانية طبية أخرى أيام مروان بن الحكم ، وفي أيام هشام بن عبد الملك

(١) أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن البصري ، مولى زيد بن ثابت ، وهو إمام أهل البصرة ، وحرير زمانه ، يعده الصوفية أحدهم ، ويضعه المعتزلة على رأس فرقهم ، كما يعد من سادة القصاصين ، وأصدقهم ، ولد سنة ٢١ هـ وتوفي سنة ١١٠ هـ . انظر : طبقات ابن سعد ٧ / ١٤٠

(٢) أبو محمد بن سيرين ، مولى أنس بن مالك ، محدث ثقة ، وفقه عالم ، اشتهر بتفسير الأحلام ، وهو والحسن البصري سيدا أهل البصرة علماء وتقوى وورعا . توفي سنة ١١٠ هـ انظر : طبقات ابن سعد ٧ / ١٤٢ ، وانظر في ملازمة الفرزدق حلقة الحسن البصري ، وملازمة جريز حلقة ابن سيرين : العقد الفريد ٣ / ١٦٩ ، وطبقات ابن سلام ٢٨٣ — ٢٨٥ والعمدة ١ / ٣٠

ترجمت رسائل أرسطو إلى الإسكندر^(١) ... فكان هذا إيذاناً ببدء نهضة عقلية ، لم تلبث أن زكت وازدهرت في العصر العباسي ، غير أن هذه الخطوة في الحركة العقلية ، لم تترك أثراً واضحاً في شعر هذا العصر ، ربما لتأخر ظهورها ، أو لقلّة نتاجها ، ولأنّ الأمويين — بعامّة — لم يشجعوا كثيراً هذه الألوان والمعارف العلمية ، بقدر تشجيعهم للحركة الأدبية ، والقصص الرسمى ؛ إذ فتحوا أبوابهم للشعراء والخطباء ، وعينوا القصاص في المساجد ، ولم يفعلوا مثل ذلك مع العلماء والفلاسفة ، فحاجتهم إلى الشعراء والقصاص كانت أشد ، فهم الذين ييسرون بهم ، ويشيدون بذكرهم^(٢) .

وبعد :

فقد كان همتنا في هذا الفصل أن نوجز الملامح العامة والبارزة ، للتغيرات السياسية ، والاجتماعية ، والحضارية ، والثقافية ، التي طرأت على حياة المجتمعات الإسلامية في العصر الأموي ، ومانتج عنها من اتجاهات ، وأغراض ، وألوان شعرية عامة ، في هذا العصر .

ولعله قد اتضح لنا أن أهم هذه الاتجاهات ، أو الألوان مايلي :

١ — الشعر السياسي .

٢ — شعر الخصومات القبيلية .

٣ — شعر الخصومات الأدبية ، أو الفردية (النقائض)

٤ — الغزل اللاهني العايب

٥ — الغزل العفيف ، أو العذري

٦ — الشعر الديني (الزهد)

٧ — الشعر المتأثر بالحركة الفكرية والعقلية .

وسنعالج بالدراسة في هذا الجزء الأول الألوان الخمس الأولى منها على أن نخصص للونين الآخرين ، الجزء الثاني من كتابنا هذا ، إن شاء الله ، فهو المستعان .

* * *

(١) راجع تفصيل هذه الحركة العقلية في : تاريخ آداب اللغة العربية (زيدان) ١ / ٢١٧ — ٢١٨ وفجر

الإسلام ١ / ١٥٧ — ١٥٨ ، ١٩٢ — ١٩٤

(٢) انظر : فجر الإسلام ١ / ١٩٣

الفصل الثاني

شعرُ الخصومة السياسيّة

تقديم

مفهوم السياسة من وجهة النظر الإسلامية يعنى : تدبير شئون الأمة حسب التعاليم الإسلامية ، التى تتناول الجوانب الدينية والدينية معا ؛ ذلك أن الإسلام — كما فهمه المسلمون الأولون — دين وسياسة ، عقيدة ونظام ، فالدين والسياسة متلازمان فى الشريعة الإسلامية .

من هنا كانت الخلافة أول مسألة احتدم حولها الخلاف بين المسلمين ، وتشعبت فيها آراؤهم ، وتكونت حولها أهم الفرق الإسلامية فى العصر الأموى ، ومن هنا أيضا كان مفهوم الخلافة — كما يقول ابن خلدون ^(١) : حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى فى مصالحهم الآخروية والدينية الراجعة إليها ؛ إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة ، فهى فى الحقيقة ، خلافة عن صاحب الشرع فى حراسة الدين ، وسياسة الدنيا به .

والارتباط بين النزعات السياسية ، ومنصب الخلافة أو الإمامة ، أقدم من العصر الأموى ؛ إذ يرجع إلى الفترة التى تلت وفاة الرسول ﷺ .

فقد ووجه المسلمون بمشكلة اختيار خليفة للرسول ﷺ يتولى قيادة الأمة ، ويقوم على مصالحها الدينية والدينية ، وزاد من صعوبة الاختيار أن النبى ﷺ توفى ، ولم يعرف المسلمون — معرفة يقينية ، لايتطرق إليها الشك — رأيه فى ولاية أمر جماعة المسلمين من بعده ^(٢) .

لذا قفزت هذه المشكلة ؛ لتحتل المقام الأول من اهتمام المسلمين ، بحيث صارت المهمة الشاغلة لأذهانهم هى الفصل فى مسألة الخلافة .

وظهرت اتجاهات مختلفة ، أرادت أن توجه المسلمين فى اختيار الخليفة ، فالأنصار يرون أن تكون الخلافة فيهم ؛ فهم الذين آووا ونصروا ؛ والمهاجرون القرشيون يدفعونهم عنها ، ويفنلون حججهم ، على نحو ما هو معروف فى خبر السقية المشهور .

(١) مقدمة ابن خلدون ١٩١ .

(٢) انظر : العقيدة والشريعة ١٦٩ .

ولئن كان أهل السقيفة قد وفقوا — بعد جدال قصير — إلى اختيار أبى بكر القرشى المهاجرى الصحابى الصديق ، فأذعنت الأمة لهذا الاختيار ، فإن نفراً من كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار أبدوا نقيمتهم على إهمال القرابة من الرسول ، باعتبارها من أهم الأسس — فى نظرهم — التى كان يجب مراعاتها فيمن يخلف الرسول ﷺ .

وكان على بن أبى طالب ، فى نظر هؤلاء ، جامعا للأسس التى ارتضتها الجماعة ، من حيث الأصل القرشى ، والسبق إلى الإسلام ، وصدق الصحبة والجهاد ، وفوق هذا كله قرابته القريبة من صاحب الدعوة .

غير أن هؤلاء نفر لم يجدوا فرصة مواتية أمام إجماع الجمهور الأعظم من المسلمين على أبى بكر ، ثم عمر من بعده ، ثم عثمان فى سنواته الأولى ؛ ليرفعوا أصواتهم عالية لتحقيق ما رتأوا .

وقد أتاحت هذه الفرصة بعد أن اختلف الناس على عثمان ، اختلافاً أدى إلى مصرعه ، فتجددت مشكلة الخلافة مرة أخرى ، فالخليفة السابق لم يعين خلفاً له ، كما فعل أبو بكر ، ولم يحصر الخلافة فى عدد محدود ، يختار المسلمون من بينهم من يرتضونه ، كما أثر عمر أن يفعل ، فاحتدم الصراع منذ ذلك التاريخ حول منصب الخلافة .

حول هذه الخلافة ، ولمن تكون ؟ وما يتعلق بها من حقوق وواجبات ، والأسس التى يقوم عليها اختيار الخليفة ، حول هذا كله قامت دعوات ، وآراء ، سياسية ودينية ، تميزت بصراع عنيف فيما بينها ، فى العصر الأموى ، واعتمد هذا الصراع على السيف أحياناً ، وعلى اللسان أحياناً ، وعليهما معا ، يظهر كل منهما الآخر ، أحياناً أخرى .

وفن القول الشعرى ، الذى صاحب هذه الدعوات والآراء ، تأييداً ودعمًا ومساندة ، أو تفنييداً ودفعاً وإبطالاً وتزييفاً ، هو مانعني هنا بالشعر السياسى .

والشعر السياسى — بهذا المفهوم — قد سلك ، فى العصر الأموى ، طرقاً شتى فى تناوله لأمر السياسة ، التى دار حولها صراع الأحزاب .

فمنه ما أثر أسلوب البرهنة والاحتجاج ، على صدق دعاوى الحزب الذى يظاها ، ونقض دعاوى الأحزاب الأخرى المناوئة له وتفنيدها فى أسلوب شعرى ، لايلتزم

دائماً القواعد والأشكال المقررة لأساليب الجدل والبرهنة والاحتجاج — على نحو مايفعل فن النثر — وعلى القارىء، أو السامع، أن يرتب المقدمات والنتائج، بردها إلى مواضعها من الكلام، ثم عليه بعد ذلك أن يستخلص بنفسه الحقائق، أو النتائج، التى لم يصرح بها الشاعر .

وقد يقف الشعر مؤيداً لمذهب سياسى، مستخدماً فى ذلك أساليب أخرى، ليس من بينها أسلوب البرهنة والاحتجاج، كأن يعمل على نشر مبادئ الحزب والتنويه بها، ويشيد بزعمائه ورجالاته وانتصاراته، ويرثى من قضى من قاداته وشهادته، ويتهم على غيره من الأحزاب المعارضة، ويهجو ساداتها ورجالها، ويصممهم بها ينفر المسلمين منهم، ويصرف الناس عن مذهبهم، كل ذلك على أساس من العقيدة السياسية المذهبية التى يدين بها صاحب هذا الضرب من الشعر .

وقد يكون من الشعر السياسى مايمدح قادة مذهب منوهاً بهم، مشيداً بخصالهم وسياستهم، أو يرثى قتلاهم الذين سقطوا شهداء الصراع الدموى مع خصومهم، أو يعجب بماثرهم، مع أن قائله لايعتق مبادئ هذا الحزب وآراءه، وإنما يكون ذلك منه طمعاً فى دنيا يصيبها، أو تخلصاً من إيداء واقع عليه، أو دفعا لضرر متوقع يخشى نزوله به .

فالكميت ^(١) شاعر الشيعة المتعصب مدح عبد الملك بن مروان، وهشام بن عبد الملك مضطراً، بعد أن جدَّ الأول فى طلبه، وحبسه الثانى . ومن قوله فى مدح بنى أمية، من قصيدة أنشدتها بين يدى هشام بن عبد الملك ^(٢) .

أَبْنَى أُمَيَّةَ إِنَّكُمْ أَهْلُ الْوَسَائِلِ وَالْأَوَامِرِ
ثَقَتَى لِكُلِّ مُلِمَّةٍ وَعَشِيرَتِي دُونَ الْعَشَائِرِ
أَنْتُمْ مَعَادُنُ لِلْخِلَافَةِ كَابِرًا مِنْ بَعْدِ كَابِرٍ .. إلخ

(١) أبو عماره — أو أبو المستنهل — الكميت بن زيد الأسدى القرشى، شاعر مقدم عالم بلغات العرب، خبير بآياها، فصيح خطيب، عاش بالكوفة، وتعصب لمصر، واشتهر بالتشيع لبني هاشم، وكانت بينه وبين الطرماح شاعر الخوارج خلطة ومودة، على اختلاف مذهبهما، وكانت ولادته أيام مقتل الحسين بن على سنة ٦٠ هـ، ووفاته فى أيام مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ١٢٦ هـ. انظر: الموشع ١٧٢، ١٩١، والأغاني ١٥ / ١٠٨ والشعر والشعراء ٢٣٧ وطبقات ابن سلام ٦٣١ ومعاهد التنصيص ٢ / ٢٦ ومابعدها، ورسائل الجاحظ ٢ / ١٣٦ والعبر للذهبي ١ / ١٦٣ ومجالس العلماء ٢١٦ .

(٢) الأغاني ١٥ / ١١٣، ومعاهد التنصيص ٢ / ٢٩

وعُبيد الله بن قيس الرقيات ^(١) ، الذى كان يتشيع لابن الزبير ، مدح عبد الملك ابن مروان بعد أن ظل هائما على وجهه ، مختفيا من بنى أمية عاما بعد وفاة مُصْعَب بن الزُّبَيْر ، ملتَمسا منه العفو ، حتى عفا عنه ، واستمع إلى مدائحِه ، ومنها قوله فيه وفي قومه :

ما نَقُمُوا من أُمِيَّةٍ إِلَّا أَنَّهُمْ يَخْلُمُونَ إن غضبوا
وَأَنَّهُمْ سَادَةُ المُلُوكِ فلا تَصْلُحُ إِلَّا عَلَيْهِمُ العَرَبُ
إنَّ الأَعْرَ الذى أبوه أبو آل حاصى عليه الوقار والحُجُبُ
يَعْتَدِلُ التاج فوق مَفْرِقِهِ على جبين كأنه الذَّهَبُ
خليفةُ الله فى رعيَّتِهِ جَفَتْ بِذَلِكَ الأَقْلَامُ وَالْكَتَبُ ^(٢)

وروح التكلف فى ماء هذا الشعر واضحة ، ونرى ، أن الشاعر أساء فيه إلى بنى أمية ، أكثر مما أحسن ، ألا نراه قد جعلهم ملوكا ، بل سادة الملوك ؟ والمملك بدعة ، لا تتفق مع نظام الحكم فى الإسلام ، كما أن الشاعر أوحى من طرف خفى بأنهم جبابرة ، لا يُصلح العرب إلا شدة سطوتهم ، ثم إنه لما لم يجد مايؤيد به دعواهم فى الخلافة ، من حق يؤيده الشرع ، أو منطق يُقَرُّ به العقل ، ردّها إلى القضاء والقدر ، كما يفهم من البيت الأخير .

ولقد أدرك الخليفة عبد الملك بن مروان — الممدوح بهذا الشعر — مافى هذا النظم من تكلف ، وما يفتقر إليه من صدق الانفعال ، وربما فهم منه مافهمنا ، فلام الشاعر قائلا ^(٣) : أقول لمصعب بن الزبير :

إنَّما مُصْعَبٌ شهاب من الله تجلَّتْ عن وجهه الظَّلْماءُ
وتقول لى :

يَعْتَدِلُ التاج فوق مفرقة على جبين كأنه الذهب !؟

(١) أبو هاشم ، أو أبو هشام ، عبيد الله بن قيس بن شريح ، قرشى الأب والأم ، والرقيات لقب له ، قيل : لأنه كان يشب بثلاث نسوة ، اسم كل واحدة منهن رقية ، وقيل غير ذلك ، كان يتشيع لابن الزبير ، وله غزل جيد ، توفى سنة ٨٥ هـ ، انظر : الأغاني ٤ / ١٥٧ ، والشعر والشعراء ٣٤٤ ، وطبقات ابن سلام ٥٢٩ ، وخزانة الأدب ٣ / ٢٦٨ ، وسمط اللآلى ١ / ٢٩٤ ، والموشح ١٨٧

(٢) الأغاني ٤ / ١٥٧ ، ١٥٩ ، وطبقات ابن سلام ٥٣٣

(٣) الكامل للمبرد (الأزهرية) ١ / ٢٠٧ ، وسمط اللآلى ١ / ٢٩٥ ، والموشح ١٨٦

وينحو هذا مدح أيمن بن خُرَيْم الشاعر الشيعي ^(١) ، بشر بن مروان ، فقال : ^(٢)
 كَأَنَّ التَّاجَ تَاجَ بَنِي هِرَقْلَ جَلَّوْهُ لِأَعْظَمِ الْأَعْيَادِ عِيداً
 يَصَافِحُ خَدَّ بَشَرٍ حِينَ يُمَسَّى إِذَا الظُّلُمَاءُ بَاسَرَتْ الْخُدُودَا

فالشاعر صريح في رؤياه للخلافة بنى أمية وحكمهم ، وأنه ملك ، وهم ملوك ، بل
 ملوك هرقلية ، لاخلفاء دولة إسلامية !!

ولعل مما يلقي الضوء على مافي هذا الشعر من صنعة وتكلف — فوق ماذكرنا —
 مايرى من أن محمد بن علي الطالبي ، قال لأيم بن خريم : « تزعم أنك من شيعتنا ،
 وتمدح آل مروان ؟! فقال : إنما أسخر منهم ، فأجعلهم حيات وعقارب ، وأخذ
 أموالهم ^(٣) ».

والحق ، أن الأمويين ، لما جعلوا من الخلافة الإسلامية ملكا متوارثا ، كما اعترف
 بذلك مؤسس دولتهم ، معاوية بن أبي سفيان ، قائلا في فخر : « أنا أول الملوك » ، لم يكن
 لهم أن يلوموا الشعراء إن مدحهم بما يمدح به الملوك ، من قوة السلطان ، وشدة البأس
 على الأعداء ، وعظيم الهيبة ، وأبهة الملك ، واعتدال التاج فوق رؤوسهم ... وما إلى ذلك ،
 مما هو أليق بمدح الملوك منه بمدح الخلفاء ، الذين يستند حقهم في الخلافة إلى أسس
 شرعية دينية .

وكان معروفا من سياسة بنى أمية مع الشعراء ، أنهم يحرصون على تأليف قلوبهم ،
 بالجوائز السنية ، والعطايا السخية ، فلا غرابة أن هفت قلوب كثير من شعراء الفرق
 الأخرى إلى أموالهم ، وإن جفتهم قلوبهم .

وأوضح مثل هؤلاء الشعراء ، أيمن بن خريم ، المتشيع لآل البيت بعامة ، وكثير

(١) أيمن بن خريم بن فاتك الأسدي ، شاعر فارس متشيع ، اعتزل الجمل وصفين ، وما بعدهما من الأحداث
 ولأبيه صبة ، انظر : الأغاني ٢١ / ٥ ، وسمط اللآل ١ / ٢٦٢ ، وحاسة الظرفاء ١ / ٨٢

(٢) العمدة ١ / ٢٠٨

(٣) الموشح ١٤٤ ، وانظر فيما أشار إليه من تشبيههم بالحيات والعقارب شعرا له في المصدر نفسه ١٤٤ —

عَزَّة^(١) ، شاعر الشيعة الكيسانية ، والطَّرِمَاح بن حكيم^(٢) ، الخارجي المذهب .
 أما أيمن بن خريم ، فقد مدح عبد الملك بن مروان ، وأخويه : عبد العزيز ، وبشر ،
 وغيرهم من بني أمية طمعا في عطائهم لاغير ، ولأدل على ذلك من قوله في مدح بشر بن
 مروان^(٣) :

ولو أعطاك بشرٌ أَلْفَ أَلْفٍ رأى حقاً عليه أن يَزِيدَا
 أميرَ المؤمنين أقمَ يبشرُ عَمُودَ الدين إن له عَمُودَا
 ودغَ بشرًا يُقوِّمُهُم ويُحدثُ لأهل الشرك إسلاماً جديداً

ولعمري لقد حدد الشاعر بضاعته بنفسه صراحة ، ولأبأس من أن يساوم على
 المزيد !! .

وأما كثير عزة ، فله قصيدة طويلة جيدة في مدح عبد الملك بن مروان ، نظر فيها
 إلى ما عرف عن عبد الملك من بصره بالشعر ، وتقديره للشعراء ، وإجزال العطاء لهم ،
 وهي طويلته التي مطلعها^(٤) :

(١) أبو صخر الخزاعي المدني ، عبد الرحمن بن أبي جمعة الأسود بن عامر بن عويمر ، لقب كثيرا؛ لأنه كان
 شديد القصر — على سبيل السخرية — وتشيع على مذهب الكيسانية ، وكان عمر بن عبد العزيز يقول : إنى
 لأعرف صالح بنى هاشم من فاسدهم ، بحب كثير ، من أحبه منهم فهو فاسد ، ومن أبغضه فهو صالح ، وكان عبد
 الملك بن مروان يعجب بشعره ، ويقول : أراه يسبق السحر ، ويغلب الشعر ، وتعشق عزة بنت جميل بن حفص من
 بنى حاجب ابن غفار ، وكنيتها أم عمرو الضمرية ، نسبة إلى قبيلة ضمرة ، وكثيرا ما يطلق عليها الحاجبية نسبة إلى
 جدّها الأعلى ، ولكنه كان متها في صدق عشقه ، وروى ابن سلام ، وأبو عبيدة أخبارا في تأييد كذب صباهته ،
 وكانت وفاته بالمدينة سنة ١٠٥ هـ . انظر : الأغاني ٨ / ٢٥ ومابعدا ، وأيضا ٨ / ١٨٩ ومعاهد التنصيص ١ /
 ١٨٢ ومابعدا ، والعبر للذهبي ١ / ١٣٢ وفيه أنه مات سنة ١٠٧ هـ . وابن خلكان ١ / ٥٤٧ ، وتزوين
 الأسواق ٣٩ ، وحزاة الأدب ٢ / ٣٨١ ، وفيها « كثير بن عبد الرحمن » .

(٢) أبو نضر الطرمّاح بن حكيم الطائي من فحول الشعراء في العصر الأموي ، نشأ بالشام ثم عاش بالكوفة
 صديقا للكُميت بن زيد ، وكان هو والكُميت يعملان الصببة بالكوفة . توفي سنة ١٠٠ هـ ، انظر : الأغاني ١٠ /
 ١٤٨ ومعاهد التنصيص ٢ / ٢٦ والشعر والشعراء ٢٢٨ والمؤتلف والمختلف ١٤٨ والاشتقاق لابن دريد ٣٩٢
 وشرح الحماسة للمرزوق ٢٢٧

(٣) الأغاني ١ / ١٢٧ ، ٢١ / ٨ ورسائل الجاحظ ٢ / ٢٧٧

(٤) انظرها في طبقات ابن سلام ٤٥٨ ، ٤٦٠ . الدلائل : الدرر البراقة للمساء . المسدي : الناسج ،
 الذي عمل سداها ولحمتها . سردها : نسجها . أذالها : جعل لها ذيولا .

على ابن أبي العاصي دِلاصَ حصينة أجاد المُسدّي سرّدها وأذاها
وخص يزيد بن عبد الملك بعدة قصائد جياذ مشهورة ، أثابه يزيد على إحداها
بمائة ألف درهم .

وكثير نفسه يصرح بأنه مامدح بنى أمية إلا طمعا في جوائزهم ، فقد قال لأبي
جعفر محمد بن علي العلوي ، لما لاه في هذا المديح ^(١) : « لم أقل .. يا إمام الهدى ، إنما
قلت : يا شجاع ، والشجاع حية ، وبأسد ، والأسد كلب ، وباغيث ، والغيث موات ،
فتبسم أبو جعفر » .

أى أنه كان يمدحهم بمعان تقليدية جوفاء ، لاتعنى تفضيلا لهم على آل البيت .
والطرماح بن حكيم ، مدح بعض ولاة بنى أمية ، طامعا فيما بأيديهم من مال ، فقد دخل
على خالد بن عبد الله القسرى ، في ولايته بالكوفة ، وقال ^(٢) .

وشيّنى أن لأزال مناهضاً بغير غنى أسموا به وأبوع
وأن رجال المال أضحوّ ومألهم ألهم عند أبواب الملوك شفيع
أُمخترمي ربّ المنون ولم أنل من المال ما أعصى به وأطيع
فأمر له بعشرين ألفا ، وقال له : « اعص بها الآن وأطع إذا شئت » .

فالطرماح كسابقه ، طامع في العطية ، بل ربما كان أكثر صراحة منهما ، إذ
اقتصر على الطلب ، ولم يقدم له بضاعة من مديح .

وغير هؤلاء كثير ، ممن نوهوا بنى أمية ، وهم يعتنقون مذاهب أخرى ، تتفاوت
أشعارهم جودة وضعفا ، ولكنها تقبل منهم ، ويشجعون عليها من بنى أمية بالعطايا
والتكريم ، أو بغفران خطاياهم ، أو برفع الأذى والضر عنهم ، اصطناعا منهم للشعراء ،
حتى يكثروا قاصدوهم ، والمشيدون بذكرهم ، مادام في ذلك بعد لصيتهم ، وقوة لنفوذهم
ومكانتهم ^(٣) ، ولعلمهم بما لقول الشاعر من تأثير في نفوس عشيرته ، لأنه لسان حالها .

(١) أمالي المرتضى ١ / ٢٨٧

(٢) ديوان المعاني ٢ / ٢٣٨ ، وانظر أمثلة أخرى في الأغاني ١٠ / ١٥٢

(٣) انظر : تاريخ الشعر السياسي (الشايب) ١٠

من ثم اصطنع بنو أمية الشعراء ، واستعانوا بهم على اختلاف قبائلهم وبطونهم ومنازعتهم ، « فازداد الشعراء بذلك نفوذا وتقربا من الخلفاء أو الأمراء ، وكان الخليفة يعد مدح الشاعر له دليلا على رضى قبيلته عن أغراضه ... والقبيلة تعد لإكرام الخليفة لشاعرها إكراماً لها ^(١) » .

وقد تجتمع كل هذه الألوان من الشعر السياسى فى شعر حزب أو أكثر ، وقد يخفى بعضها ، على نحو ماسنرى فى دراستنا التالية ، لشعر كل فرقة أو حزب على حدة .

— ١ —

شعر الشيعة:

يرتبط نشاط الشيعة السياسى بنشاطهم الشعرى ، فكل منهما صدى لعقيدة أساسية ، تنادى بأن خلافة الرسول ﷺ وإمامة المسلمين حق لآل البيت وحدهم ، وهذا الحق عدا عليه بنو أمية واغتصبوه ، بالغدر والظلم والقهر والتآمر . كما يرتبطان فى الباعث ، لأن كلا منهما منبعث عن شعور السخط المتأجج فى صدور الشيعة على هؤلاء الغاصبين .

وكانت سياسة بنى أمية إزاء زعماء آل البيت وشيعتهم عاملا هاما فى تنمية هذا السخط وتلهبه ، فقد أخذوا كل حركة شيعية قامت لنصرة الأئمة ، واستعادة حقهم بالشدّة والعنف ، وتبعوا آل البيت أنفسهم بالقتل ، والتشريد ، والتعذيب ، والاضطهاد ، فقتلوا الحسين بن على بكرىلاء ، فيما يشبه أن يكون مذبحه ، سفكت فيها دماء كل من مع الحسين من آل بيته وأبناء عمومته ، ولم ينج منها إلا النساء والأطفال ، واشتد وقعها فى نفوس المسلمين بعامّة ، وألّبت مشاعرهم ومشاعر الشيعة وشعرائهم ، إلى جانب كثير من شعراء المسلمين الآخرين ، فهبوا ينددون فى كل مكان بهذه الجريمة البشعة فى حق أبناء النبى ﷺ ، ويصورون نكر هذه المذبحة ، ويحملون ضمير المسلمين وزر خذلان آل البيت .

كما قتلوا زيد بن على بن الحسين (سنة ١٢٢ هـ) ، الذى خرج على هشام بن عبد الملك ^(٢) بالكوفة ، وبعثوا برأسه إلى هشام بدمشق ، ثم أرسلت إلى المدينة ، أما جثثانه

(١) تاريخ آداب اللغة العربية (زيدان) ١ / ٢٢٠

(٢) انظر فى خروج زيد بن على وقته : تاريخ الشعوب ١ / ١٩٠ ومروج الذهب (البهية) ٢ / ١٨١ —

١٨٢ والخوارج والشيعة ٢٥٩ ، ومقالات الإسلاميين ١ / ١٣٠ ، ١٤٤ والعبر للذهبي ١ / ١٥٤

فصلبوه عريانا مدة ثم حرقوه في الرياح ، ويقال : إنه ظل مصلوبا حتى توفى هشام سنة ١٢٥ هـ .

ولما خرج ابنه يحيى على الوليد بن يزيد بنواحي خراسان ، أخذ وقتل (سنة ١٢٤ هـ) وأحرق جثمانه ، وألقى برمادة في الفرات ، وقيل : ظل مصلوبا إلى أن خرج أبو مسلم الخراساني صاحب الدعوة العباسية ، فأنزله وصلى عليه ، ودفنه بالجوزجان من بلاد خراسان ^(١) ، وكان قتل زيد وابنه يحيى على هذا النحو من أسباب زيادة بغض المؤمنين ^(٢) .

امتزج سخط الشيعة على بني أمية بالحزن على أئمتهم المغضوبين ، المضطهدين ، المشردين ، الذين لا يملكون قوة مادية كالتى يملكها خصومهم ، ولا يجترءون على الحق ، كما اجترءوا .

وانعكس ذلك كله في أشعار شعرائهم ، محبة لآل البيت ، وحزنا على ما أصابهم ، وتمجيذا وإشادة بأئمتهم ومذهبهم ، واحتجاجا وبرهنة على صواب حقهم في الخلافة ، وهجاء وتنديدا بأعدائهم ، وحول هذه الموضوعات دار أكثر شعر الشيعة السياسى .

أ - إظهار المحبة لآل البيت :

من الواضح أن القلوب التى هفت إلى آل البيت ، والتفت حولهم ، ونبضت بحبهم وإجلالهم ، كانت تنبعث في هذا كله ، أساسا عن محبة الرسول ﷺ وإجلاله ، والوفاء بحقوقه على الأمة ، وأولى هذه الحقوق بالرعاية مودة آل بيته عملا بقوله تعالى : ^(٥)

(١) انظر خروج يحيى بن زيد ومقتله في : مروج الذهب (البهية) ٢ / ١٨٥ ، والخوارج والشيعة ٢٦٠

(٢) انظر : ضحى الإسلام ٣ / ٢٧٣

(٣) المصدر السابق . قالوا: مات الحجاج وقد بلغ من قتله صبرا (من الشيعة وغيرهم) مائة وعشرين ألفا ، وكان في حبسه عند موته خمسون ألف رجل ، وثلاثون ألف امرأة ، منهن ستة عشر ألفا مجردة ، وكان يحبس النساء والرجال في موضع واحد ، ولم يكن للحبس ستريستر الناس من الشمس والمطر . مروج الذهب (البهية) ٢ / ١٥٧

(٤) فجر الإسلام ١ / ٣٢٢

(٥) سورة الشورى ٤٢ / ٢٣

« قل لأسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى » .

وليست محبة آل البيت قاصرة على من تشيعوا لهم ، ووقفوا عواطفهم عليهم دون غيرهم ، فهذه المحبة شركة شائعة بين قلوب المسلمين ، من تشيع منهم لحق آل البيت ، ومن لم يتشيع .

غاية الأمر أن الشعراء من غير الشيعة لم يفيضوا في التعبير عن هذه المحبة إفاضة شعراء الشيعة ، ولم يفتنوا افتنائهم ، ولم يطرخوا من المعاني في هذا المجال ، كثرة وجدة ، مثل ماطرقة شعراء الشيعة .

فكثير عزة يردّ على من يعاتبه في حب آل البيت ، ويعد ذلك من مساوئه ، ذاكرة أن من يحب النبي ﷺ وعلياً وأبناءه ، والحسن والحسين ، ومحمد بن الحنفية ، لا ينبغي أن يعاتب ؛ لأنّ حبه ليس ذنباً ، وإنما هو قربة ، يتقرب بها إلى الله ، راجياً أن تكفر سيئاته ، وتمحو ذنوبه : (١)

إن امرءاً كانت مساوئه حبّ النبي لغير ذى عتب
وبنى أوى حسنٍ والدهم من طاب في الأرحام والصُّلب
أترؤن ذنباً أن نحبه بل حبهم كفارة الذنب

ويتجه شاعر شيعى آخر إلى أسلوب آخر يؤكد به مكيّن حب آل البيت في قلبه ، واستغناءه به عما سواه ، يقول حرب بن المنذر بن الجارود (٢) :

فحسنى من الدنيا كفافٌ يُقيمنى وأثوابُ كُتّان أزورُ بها قبرى
وحُبى ذوى قُربى النبىِّ محمدٍ فما سألنا إلا المودّة من أجر

فهذا الشاعر يقف حياته كلها على حب آل بيت النبى ، ويجعل حبه همه ووُكده ، وزاده للآخرة ؛ ومن ثمّ فهو لا يطمع أن يصيب من حاجات الدنيا إلا الزاد القليل ، الذى يقيم أوده ؛ ليوصل هذا الحب ، والكفن الذى يستره في رقدة القبر .
وواضح أن الشاعر ينظر في البيت الثانى إلى قوله تعالى : « قل لأسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى » .

(١) ديوانه ٤٩٤

(٢) لم أعثر على ترجمة له ، والشعر في البيان والتبيين ٣ / ٣٦٥

وأبو الأسود الدؤلى ^(١)، شاعر محب لآل البيت، يرى حبهم من فيض حبه لله، وهذا الحب متمكن من قلبه، لن يحيد عنه، يحيا عليه، ويبعث يوم القيامة عليه.

وأبو الأسود ممن تعرضوا للأذى في سبيل هذا الحب، إذ كان ينزل في بنى قُشَيْرٍ، وهم يخالفونه في المذهب، فكانوا يؤذونه كثيرا؛ لتشيعه لعل وآل بيته، وكثيرا ما كانوا يقدفونه بالحجارة ليلا، فإذا أصبح شكا ذلك، فشكا مرة، فقالوا: مانحن نرميك، ولكن الله يرميك، فقال: كذبتُم، لو كان الله يرميني ما أخطأ ^(٢).

ويبدو أنهم لاموه في تشيعه لآل البيت، فهو يرد عليهم بأنه مصيب في حبهم، سواء أكان هذا الحب رُشداً أو غيياً في نظرهم ^(٣):

أحبُّ محمداً حباً شديداً	وعباساً وحمة والوصيّا
وجعفر إن جعفر خير سبط	شهيداً في الجنان مهاجرياً
يقول الأذلون بنو قُشير	طوال الدهر ماتنسى علياً
بنو عم النبي وأقربوه	أحبُّ الناس كلهم إلياً
فإن يكَّ حبُّهم رُشداً أصبهُ	وفيهمْ أسوة إن كان غيياً
أحبهم لحبِّ الله حتّى	أجىء إذا بُعثت على هوى
هوى أعطيتُه منذ استدرات	رحى الإسلام لم يعدل سويّاً

فحبه كما نرى، نبع من حب الله ورسوله، وينبغى أن لا نخدع بظاهر قوله:

فإن يكَّ حبهم رشداً (البيت)، فنفهم أنه لم يكن على يقين من رشده أو غيه في حبه آل البيت، يقول أبو عبيد البكرى: «لم يشك أبو الأسود في أنه رشد،

(١) ظالم بن عمرو بن جندل بن سفيان، من بنى الدؤل بن بكر بن عبد مناة بن كنانة، شاعر إسلامي فارس، أدرك علياً بن أبى طالب وصحبه، وروى عنه، وتشيع له، وهو أول من وضع كتاباً في النحو، لما كثر اللحن، ويعد أبو الأسود من التابعين، والمحدثين، والنحويين، والقضاة، والعلمين، كما أنه أحد البخلاء والمفاليح والعرج.

مات بالطاعون سنة ٦٩ هـ. انظر: الأغاني ١١ / ١٠١ وسمط اللآلى ١ / ٦٦، ٢ / ٦٤٢ والشعر والشعراء ٢٨٠ والمؤلف ١٥١ والإمتاع والمؤاندة ٣ / ٣٣، وابن خلكان ١ / ٣٠١، وفي نوادر بحله انظر: عيون الأخبار ٢ / ٣١. قالوا: وبنو الدؤل من كنانة، وبنو الدؤل — غير مهموز — من حنيفة، وبنو الدؤل من عبد القيس، انظر: سمط اللآلى ١ / ٦٦.

(٢) أمالى المرتضى ١ / ٢٩٣

(٣) ديوانه ٧٣ وانظر: سمط اللآلى ٢ / ٦٤٣ وأمالى المرتضى ١ / ٢٩٣ والكامل للمبرد (الأزهرية) ٣ /

١١٩ - ١٢٠. السبط: ولد الولد. لم يعدل سويّاً: مستوى، لم ينحرف. هوى: مأهوى، وهو حب آل البيت.

وهو على تأويل قول الله عز وجل ^(١) : « وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين ^(٢) » .

هذا الشعر وغيره ، وقف عند حد التعبير عن محبة آل البيت ، وإظهار محبتهم المتغلغلة فى قلوب شعرائه ، وهى عاطفة سامية حقاً ، غير أن آل البيت — فى ظل ظروف الاضطهاد ، التى كانوا واقعين تحت نيرها ، وحقهم السليب ، وعجزهم عن استرداده — كانوا يحتاجون من شعراء مذهبهم إلى أكثر من مجرد إظهار الحب لهم ، كانوا فى حاجة — مع هذا — إلى شعر يقف إلى جانب حقهم ، يؤيده ، ويصر الناس به ، ويقنعهم بصوابه ، أو يدعو إلى إبراز شخصيتهم المتميزة فى تدينها وتقواها ، وحسن بصيرتها بالدين ، وسياسة المسلمين ، فيجذب القلوب إليهم ، ويعطفها نحوهم ، أو يدعو لعقيدتهم ، ويقنع بها العقول ، ومحبيها إلى القلوب ، ونحو ذلك مما من شأنه أن ينهض بالدعاية لهم ، ولحقهم ، ومذهبهم ، ويجمع الأنصار حولهم .

ولقد نهضت ألوان أخرى من الشعر الشيعى لأداء هذا الواجب ، وتحقيق هذه الأغراض ، فكانت أكثر إيجابية فى خدمة أئمة آل البيت ، وقضاياهم ، ومذاهبهم ، كما سنرى فى المباحث التالية :

ب — الاحتجاج لحق الأئمة فى الخلافة :

قلنا إن الشعر الشيعى ينبعث — أساساً — عن عواطف المحبة لآل البيت ، التى هى نبع محبتهم لله ورسوله ، وهذه المحبة كانت تأخذ — أحياناً — فى شعر الشيعة طابعاً أكثر فاعلية ، فى خدمة المذهب الشيعى ، فلا يكتفى الشاعر بمجرد إظهار هذه العاطفة على نحو مارأينا فى النماذج السابقة ، بل إن الشاعر الشيعى قد يدفعه حبه لآل البيت ، وتحمسه لحقهم الضائع ، إلى أن يجعل من شعره منبراً للاحتجاج لقضيتهم ، وتقرير دعواهم فى حق الإمامة ، تقريراً مدعوماً بالأدلة والبراهين ، مصحوباً بالجدل ، ومناقشة الخصوم .

(١) سورة سبأ ٣٤ / ٢٤

(٢) سمط اللآلى ٢ / ٦٤٣

ويعد الكميت بن زيد — المتشيع للهاشمية بعامة ، المتمذهب بمذهب الزيدية منهم بخاصة ^(١) — أول من مهد هذا الاتجاه في الشعر الشيعي ، وفتح لشعرائه باب الاحتجاج لمذهبهم ، ودلهم على طرق هذا الاحتجاج .

ومنهج الكميت في ذلك لايقوم على الإقناع العاطفي فحسب ، وإنما يعتمد — أولاً وقبل كل شيء — على الإقناع العقلي ، الذي يتخذ لتحقيقه أساليب ثابتة لايجيد عنها ، أى أن شعر الكميت المتشيع يتغيًا إقناع العقول ، قبل التأثير في القلوب .

فالكميت يستعين في شعره هذا بالنظر العقلي ، كما يستعين بالاستدلال النقلى ، مستغلاً بعض آيات القرآن العظيم ، التى يراها تقرر حق الأئمة .

والواقع أن ثقافة الكميت العقلية ، هى التى هدته إلى هذا الاتجاه ، وهىأت له هذه السبيل ، فقد كان على صلة وثيقة بالفكر المعتزلى ، عن طريق علاقته الوطيدة بإمامه زيد بن على ، الذى كان حجة فى مقولة المعتزلة ^(٢) — من ناحية — وصلته بواصل بن عطاء — رأس المعتزلة — من ناحية أخرى .

وكانت محصلة هذا الاتصال تأثر الكميت بمنهج الاعتزال ، الذى ينهض على جناحى : الاستدلال العقلي ، والاحتجاج بآى القرآن العظيم ، فى تقرير مسائل الاعتزال .

ويرى بعض الباحثين المحدثين ^(٣) أنه « من الممكن أن نلاحظ أيضاً أن اتصال الكميت بالفقه الحنفى ، كان عاملاً آخر من عوامل هذا الاتجاه العقلي ، وهل كان من الممكن أن يتصل الكميت بأبى حنيفة ومدرسته ، دون أن يتأثر بطريقتهم فى القياس ، وبمذهبهم العقلي فى مناقشة المسائل والوصول إلى الفروع من الأصول ؟ » ^(٤) .

حقاً لم يكن الكميت رجلاً من عامة الناس ، وإنما كان فقيهاً ومعلماً ، فلم يكن من المعقول ، أن يتنكر لثقافته الفقهية حين ينظم شعره المتشيع ، ولم يكن له بد من أن

(١) لاستيضاح هذا الاتجاه فى تشيع الكميت ، انظر : حياة الشعر فى الكوفة ٧١١

(٢) انظر : التطور والتجديد ٢٤١ ، ٢٤٢

(٣) هو الدكتور يوسف خليف فى كتابه : حياة الشعر فى الكوفة .

(٤) حياة الشعر فى الكوفة ٧١٢

يصوغ شعره صياغة العالم الفقيه ، الذى يعرف كيف يناقش المسائل ، ويثبتها بالأدلة والبراهين .

بهذا « لم يعد الشعر عند الكميت يعبر عن الشعور فحسب ، بل أصبح يعبر أيضا عن الفكر ، وأصبح يُشفع بكل ماوصل إليه العقل العربى فى هذا العصر من قدرة على الجدل والإقناع ^(١) » ، فكان شعره نموذجا واضحا فى هذا المنهج ، أمام غيره من شعراء الشيعة ، يهديهم ، ويفتح عيونهم ، على ماينبغى أن يكون عليه الشعر ، الذى يجعل من حق الأئمة ، وقضايا مذاهبهم موضوعا له .

وللكميت شعر كثير فى هذا الباب ، يؤلف مجموعة من القصائد والمقطعات ، اشتهرت باسم « هاشميات الكميت » هى من جيد شعره ومختاره ، كما يقول العباسى ^(٢) .

هذه المجموعة تضم أربع قصائد طوال ، تتراوح ما بين مائة وأربعين بيتا ، ومائة وثلاثين بيتا ، وقصيدتين قصيرتين ، إحداهما مجموع أبياتها ثلاثة وثلاثون ، والأخرى عشرون ، ومقطعتين أبيات كل منهما سبعة ، ثم ثلاث مقطعات قصيرة ، عدة كل منها بيتان .

هذا من حيث كمّها ، وعدد قصائدها ومقطعاتها ، أما من حيث مضامينها ، فإنها — فى مجموعها — دفاع عن حق الهاشميين فى الإمامة ، ضد الأمويين غاصبى هذا الحق .

ويحقق الكميت هذا المضمون العام من خلال ثلاثة موضوعات هى :
 ١ — مدح بنى هاشم ٢ — هجاء بنى أمية ٣ — الموازنة بين عدل الأئمة وجور الخلفاء الأمويين ، وبين شخصيات الأئمة ذات السمات المتدين التقى الورع ، وشخصيات الأمويين ذات الطابع الملكى المترف ، الظالم ، المحرّف لكتاب الله وسنة رسوله ، المبتدع فى الدين مالىس منه .

(١) التطور والتجديد ٢٤١

(٢) صاحب كتاب معاهد التنصيص . انظره : ٢ / ٢٦

ويلاحظ أن الكميت لا يعالج هذه الموضوعات ، باعتبار كل منها فنا مستقلا بذاته يقصد إليه قصدا ، وإنما يتناولها باعتبارها أساليب ، وطرقاً متنوعة لخدمة المضمون العام الذى أشرنا إليه منذ قليل ، فهو لا يقصد من مدح آل البيت الهاشميين إنشاء قصائد فى المدح ، ولا يريد من هجاء الأمويين نظم قصائد فى الهجاء ، وإنما همه من وراء كل هذا إثبات حق الأئمة الهاشميين فى الإمامة ، والبرهنة على أن بنى أمية اعتصبوا هذا الحق منهم .

يتضح من هذا العرض الموجز لمضامين هاشميات الكميت ، أنها لم تكن تعبيراً عن مذهب الزيدية — الذى يدين به الكميت — وحده ، وإنما كانت تعبيراً عن العقيدة الشيعية ، فى صورتها العامة ، ممثلة فى شعارها الأساسى ، وعقيدتها الأصلية فى حق آل البيت ، وبهذا الاعتبار يكون الكميت شاعر الشيعة الأكبر ، فى تلك الفترة المبكرة من تاريخ التشيع ، وهاشمياته — بهذا الاعتبار — أيضاً تعد « ثورة نظرية يشنها هو نيابة عن بنى هاشم عامة ، ضد الأمويين ، الذين غصبوهم حقهم فى الخلافة » ^(١) .

ومن دلائل هذه العمومية فى تشيع الهاشميات للهاشميين ، أنها تضم مصطلحات شيعية ، بعضها مما يتفق فيه الشيعة ، وبعضها لا تقول به فرقة الزيدية التى ينتمى إليها الكميت .

فمما تتفق فيه فرق الشيعة ، الحديث عن على بن أبى طالب بأنه « الوصى » أو « الوصى الولى » وعن الحسن بأنه « وصى الوصى » ، وعن أئمة الشيعة بعامة بأنهم « المهتدون » ، والحديث عن ولاية على يوم غدیر خُتم .. إلى غير ذلك مما تقول به فرق الشيعة بعامة .

ومما لا تقول به الزيدية ، اختفاء محمد بن الحنفية — إمام الكيسانية — فى شعب رضوى ، نرى إشارة إلى هذا المعنى فى إحدى هاشميات الكميت ^(٢) ، وهذا إنما يقول به الكيسانية من الشيعة خاصة ، وعقيدة « التقية » تترد فى الهاشميات ^(٣) ، مع أنها ليست من عقائد الزيدية .

(١) حياة الشعر فى الكوفة ٧٢٥

(٢) ص ٢١

(٣) انظر ص ٣٨ ، ١٤٢

وليس معنى هذا أن الكميت لم يتحدث بعقائد الشيعة الزيدية في هاشمياته ، فنحن واجدون فيها طائفة من عقائد مذهبه الزيدى ، باعتبارها جزءا من العقيدة الشيعية في صورتها المعتدلة .

هكذا نحا الكميت في هاشمياته ، يناظر فيها عن الشيعة ، ويقرر نظريتهم ، مجادلا ، محاورا ، دافعا حجج الخصوم ، مثبتا مكانها حججا قوية ، من شأنها أن لا يجد الخصم مناصا من التسليم بها ؛ لأنها قائمة على قضايا ومقدمات صحيحة ، تارة تستمد من القرآن العظيم ، وأخرى تعتمد على التفكير العقلى المنطقى .

ولنبدا بهذا النموذج من الهاشميات :

يقول الكميت (١) :

نَفَى عَنْ عَيْنِكَ الْأَرْقُ الْهُجُوعَا	وَهَمْ يَمْتَرِي مِنْهَا الدَّمُوعَا
لِفَقْدَانِ الْخَضَارِمِ مِنْ قَرِيشٍ	وَحَيْرِ الشَّافِعِينَ مَعَ شَفِيعَا
لَدَى الرَّحْمَنِ يَصْدَعُ بِالْمَثَانِي	وَكَانَ لَهُ أَبُو حَسَنِ قَرِيعَا
حَطُوطَا فِي مَسَرَّتِهِ وَمَوْلَى	إِلَى مَرَضَاةٍ خَالَقَهُ سَرِيعَا
وَأَصْفَاهُ النَّبِيُّ عَلَى اخْتِبَارٍ	بِمَا أَعْيَا الرِّفُوضَ لَهُ الْمَذِيعَا
وَيَوْمَ الدُّوْحِ دُوحَ غَدِيرُحُمٍّ	أَبَانَ لَهُ الْوَلَايَةَ أَوْ أَطِيعَا
وَلَكِنِ الرِّجَالُ تَبَايَعُوهَا	فَلَمْ أَرِ مِثْلَهَا خَطَرًا مَبِيعَا
فَلَمْ أَبْلُغْ بِهَا لُغْنًا وَلَكِنْ	أَسَاءَ بِذَلِكَ لَوْلَهُمْ صَنِيعَا
فَصَارَ بِذَلِكَ أَقْرَبُهُمْ لِعَدْلِ	إِلَى جَوْرِ وَأَحْفَظُهُمْ مُضِيعَا
أَضَاعُوا أَمْرَ قَائِدِهِمْ فَضَلُّوا	وَأَقْوَمُهُمْ لَدَى الْحَدَثَانِ رِيعَا
تَنَاسَوْا حَقَّهُ وَبَعَوْا عَلَيْهِ	بَلَا تَرَةٍ وَكَانَ لَهُمْ قَرِيعَا

(١) هاشميات الكميت ٨١ — ٨٢ . يمتري : يحلب ، استعاره من مَرَى ضرع الناقة ليدر لبنها . الخضارم : جمع خضرم (بكسر الخاء والراء) : السادة الكثيرو العطاء ، يقال : يمر خضرم : كثير الماء . يصدع : من الصدع ، ومن الشق ، والمراد : يشق عصا الكفر بالقرآن ، أو يفرق به بين الحق والباطل . المثاني : القرآن ، أو ماتكرر من آياته مرة بعد مرة (انظر : القاموس المحيط ، مادة : ثنى) القرع في البيت الثالث : المقروع ، أى المختار ، وفى البيت الأخير : السيد . الحطوط : السريع . غدير خم : موضع بين مكة والمدينة .
الريع : الطريق والمنهج .

هنا يحتاج الكميت لحق على في الخلافة ، وهو يبدأ هذه الآيات بالتعبير عما أصابه من سهد وهم ؛ لوفاة الرسول ﷺ ومن مضى على إثره من أئمة آل البيت .
ثم يأخذ في الاحتجاج لحق على ، ويؤيد هذا الحق ، بأن عليا ابن عم النبي ﷺ ، والمقرب إليه ، الحريص على مرضاته ، ومرضاه الله ، ومع هذا فإن النبي ﷺ اختاره ليخلفه في الأمة ، بعد أن اختبره ، ولمس فضائله ، التي يصعب إنكارها على من يكتم ذكرها أو يذيعه .

وقد ثبت هذا الاختيار بنص الرسول ﷺ على ولاية علي يوم غدیرخم ، وينتقد الكميت موقف الصحابة ، الذين منعوا عليا حقه في الولاية ، وأهملوا ماأمر به الرسول ﷺ من الولاية له ، فكانوا بذلك بين ظالم للحق ، باغ عليه ، ومضيع لأمر الرسول القائد .

ويستمد الكميت من مذهبه ، مذهب الزيدية المعتدل ، قاعدة يؤمن بها كل زیدی ، تقول بجواز إمامة المفضل مع وجود الفاضل ، ويستند عليها ، فيرفض أن يلعن أبابكر وعمر وعثمان ، والصحابة الذين بايعوهم ، ورضوا بإمامتهم ، ويرى أنهم أخطأوا فحسب ؛ لأنهم قدموا المفضل على الفاضل .

ويرد الكميت هذه الأفكار — تقريبا — في هاشمية أخرى — يقول فيها ^(١) :
أهوى علياً أمير المؤمنين ولا أرضى بشتم أئى بكر ولا عمراً
ولأقول وإن لم يعطيا فذكاً بنت الرسول ولا ميراثه كفراً
الله يعلم ماذا يأتيان به يوم القيامة من عذر إذا اعتذرا
إن الرسول رسول الله قال لنا إن الولي على غير ما هجرا
في موقف أوقف الله النبي به لم يعطه قبله من خلقه بشراً
هو الإمام إمام الحق نعرفه لا كاللذين استدللنا بما ائتمرا

(١) ص ١٥٦ . فذك قرية بالحجاز ، أفاء الله بها على رسوله ﷺ وطالبت بها ابنته فاطمة بعد وفاته فأبى أبو بكر ، وروى خبراً عن رسول الله ﷺ أن الأنبياء لا يورثون (انظر : اللسان : فذك) وانظر : عقيدة الشيعة ٣٦ ، وفي العقد الفريد ٣ / ١٧١ أن فذكاً كانت مما أفاء الله على رسوله فسألته فاطمة رسول الله فقال لها : مالك أن تسألني ، ولأني أن أعطيك . ثم توارثها بنو أمية حتى ردها عمر بن عبد العزيز إلى بيت مال المسلمين .

فهو يدور حول القاعدة التي يستمدّها من مذهبه ، وهى التى أشرنا إليها من قبل ، فيصحح خلافة أبى بكر وعمر ، مع قيام علىّ ، وهو أفضل عند الزيدية ، ويشير مسألة ميراث فذكّ ورفض أبى بكر وعمر أن يعطياه لفاطمة ، أو الاعتراف بحقها فيه ، ويصف عليا بأنه الإمام ، ويبنى هذا الوصف على أساس ما صرح به الرسول ﷺ يوم غد يرخم ، بأنه مولاه ، وعلى الرغم من أن أبى بكر وعمر حرما فاطمة بنت الرسول ﷺ حقها فى نظره فإنه لا يقبل بشتيمهما ، ولا يقول بكفرهما ، بل يفوض الأمر فيهما لله ، فهو وحده الذى يعلم بماذا يعتذران بين يديه ، يوم الحساب ، عن موقفهما هذا .

والكميت فى هاتين الهاشمتين يقتصر على بعض البراهين المستمدة من عقائد المذهب الزيدى ، وعقيدة الشيعة بعامة فى ولاية علىّ بن أبى طالب ، إلى جانب بعض البراهين القائمة على صلة القرابة القريبة ، التى تربط بين النبى وعلى ، كما يعتمد على ماهو معروف من مناقب علىّ وفضله ، وكلها براهين وحجج تعكس بدقة منهجه فى الاستدلال الذى أشرنا إليه فى صدر الحديث عن هاشمياته .

على أن هذا المنهج نراه بوضوح فى هاشمية أخرى مشهورة ، يناقش فيها مسألة ميراث النبى ، ومن أحقّ به ، ويسوق من حجج النقل والعقل ما يؤيد به حق آل البيت فى إرث النبى — ومنه الخلافة — نعى الهاشمية التى مطلعها :

طَرِبْتُ وما شوقاً إلى البيض أطربُ ولا لِعَبَائِنِي وذو الشيب يلعبُ
والتي يقول فيها :

ومالى إلا آل أحمد شيعة ومالى إلا مذهب الحق مذهب
وأبياتها التى تعكس منهجه فى الجدل والبرهنة ، هى التى يقول فيها ^(١) :

(١) الهاشميات ٤٠ — ٤١ . آل حاميم : السور القرآنية المبسوذة ب (حم) وهى سبع سور ، غافر ، وفصلت ، والشورى ، والزخرف ، والدخان ، والجنات ، والأحقاف ، والآية المشار إليها فى البيت ، هى قوله تعالى ، فى سورة الشورى : « قل لأسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى » لكم نصب : النصيب لنا : الراية المنصوبة الواضحة ، أى إن وضوح دلالتها على حق آل البيت متعب لذى الشك ، ويجوز أن يكون النصيب هنا : الغاية ، أى لكم غاية فى تأويلها يابنى أمية على غير وجهها ، ولكن هذا التأويل سوف يعينكم ويتعكم الوصول إليه ، الفذ : الفرد ، والمقصود هنا أول خلفاء بنى أمية معاوية . الرديفين : يقصد من جاء بعده من الخلفاء الأمويين . نعتب : من أعتب : إذا أزال سبب العتاب . نعتب (بالبناء للمجهول) : من العتاب ، وهو اللوم . بكيلى وأرحب ، وكل القبائل المذكورة بعدهما من عرب القحطانية ، سوى بكر وتغلب ، فهما عدنانيتان ، والمقصود : العرب جميعاً . راثمها : يعنى أحبوها ، وقبلوها من غير إكراه . غير ظنر : أى دون أن يظأروا عليها ، أى دون أن يكرهوا على اعتناقها ، ورعايتها . أشبلوا : عطفوا ، يقال : أشبلت المرأة على أولادها بعد وفاة زوجها : إذا عطف علىهم ، فلم تتزوج من أجلهم . تحدبوا : تآزروا على نصرتها .

بِخَاتِمِكُمْ غَضَبًا تَجُوزُ أُمُورَهُمْ
وَجَدْنَا لَكُمْ فِي آلِ حَامِيمٍ آيَةً
وَفِي غَيْرِهَا آيَاتٌ وَأَيًّا تَتَابَعْتُ
بِحَقِّكُمْ أَمْسَتْ قَرِيشٌ تَقُودُنَا
وَقَالُوا: وَرَثَانَهَا أَبَانَا وَأَمْنَا
يَرَوْنَ لَهُمْ فَضْلًا عَلَى النَّاسِ وَاجِبًا
وَلَكِنْ مَوَارِيثُ ابْنِ أَمَنَةَ الَّذِي
وَتَسْتَخْلِفُ الْأُمُوتَ غَيْرَكَ كُلَّهُمْ
يَقُولُونَ: لَمْ يُورَثْ وَلَوْلَا تَرَاثُهُ
وَعَكَ وَلَحْمٌ وَالسَّكُونُ وَجَمِيرٌ
وَمَا كَانَتْ الْأَنْصَارُ فِيهَا أَذَلَّةٌ
هُمْ شَهِدُوا بِذَرٍّ وَخَبِيرٌ بَعْدَهَا
وَهُمْ رَائِمُوهَا غَيْرَ ظَنٍّ وَأَشْبَلُوا
فَإِنْ هِيَ لَمْ تَصْلُحْ لِقَوْمٍ سِوَاهُمْ

فَلَمْ أَرْغَضْهَا مِثْلَهُ يُتَغَضَّبُ
تَأُولِهَا مِنَّا تَقَى وَمُغْرِبُ
لَكُمْ نَصَبٌ فِيهَا الَّذِي الشُّكُّ مُنْصَبٌ
وَبِالْفَدِّ مِنْهَا وَالرَّدِيفَيْنِ تُرْكَبُ
وَمَا وَرَثَتُهُمْ ذَاكَ أُمَّ وَلَا أَبُ
سَفَاهَا وَحَقُّ الْهَاشِمِيِّينَ أَوْجِبُ
بِهِ دَانَ شَرَقِي لَكُمْ وَمُغْرِبُ
وَتُغْتَبُ لَوْ كُنَّا عَلَى الْحَقِّ نُغْتَبُ
لَقَدْ شَرَكْتُ فِيهِ بِكَيْلٍ وَأَرْحُبُ
وَكِنْدَةُ وَالْحَيَّانُ : بَكَرٌ وَتَغْلِبُ
وَلَاغِيَاءُ عَنْهَا إِذِ النَّاسُ غَيْبُ
وَيَوْمَ حُتَيْنِ وَالِدِمَاءُ تَنْصَبُ
عَلَيْهَا بِأَطْرَافِ الْقَنَا وَتَحْدَبُوا
فَإِنْ ذَوَى الْقُرْبَى أَحَقُّ وَأَقْرَبُ

في هذه الآيات يتجلى التفكير العقلي في تأليف الأقيسه ، واختيار المقدمات واستخلاص النتائج .

والكميت يبدؤها بتقرير القضية ، التي سيقم عليها الأدلة ، ويدير حولها النقاش :

بِخَاتِمِكُمْ غَضَبًا تَجُوزُ أُمُورَهُمْ فَلَمْ أَرْغَضْهَا مِثْلَهُ يُتَغَضَّبُ
فيقرر أن خاتم النبي — وهو خاتم الخلافة — اغتصبه الأمويون من الهاشميين أصحابه الحقيقيين ، وبه تنفذ أمورهم ظلماً ، وهو اغتصاب لا نظير له في دنيا الظلم والاعتداء على حقوق الآخرين .
بعد هذا يأخذ في سوق الأدلة على أن الخلافة وما يترتب عليها من أنفاذ الأمور حق لأهل البيت ، ويعجل بالدليل النقلى ، فسيبدل بأية من القرآن العظيم في سورة حاميم (الشورى) وغيرها (١) .

(١) أما آية الشورى ، فقوله تعالى « قل لأسألكم عليه أجراً » وأما غيرها ، فمن مثل قوله تعالى في سورة الإسراء (١٧ / ٢٦) : « وَأَتَىٰ ذَا الْقُرْنَىٰ حَقُّهُ » وقوله في سورة الأحزاب (٣٣ — ٢٣) « إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا » وقوله في سورة الشعراء : « وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ » ، يفسرها الشيعة بأن المقصود بنو أمية الذي ظلموا أهل البيت باغتصاب حقهم في الخلافة .

وهي آيات تأمر بتمكين أهل البيت من حقهم ، أو تفضلهم بالإشادة بهم ، أو تقرر نظام التوريث في الإسلام ، الذي يجعل الهاشميين أصحاب الحق في وراثة ولاية المسلمين عن الرسول ، ويراها الكمية واضحة الدلالة — حسب تأويل الشيعة لها — على هذا الحق ، بحيث تعيى بنى أمية وتعذبهم ؛ إذ لا يستطيعون تأويلها على غير هذا الوجه ، ولاصرفها عنه .

والنتيجة ، أن الخلافة حق لبنى هاشم بحكم القرآن العظيم نفسه ، وقد اغتصب بنو أمية منهم هذا الحق ، واستبدوا بولاية المسلمين ، بدأ بذلك معاوية ، ثم سار على دربه كل من جاء بعده من خلفاء بنى أمية .

ثم يناقش الكمية مسألة الوراثة ، التي اتخذها بنو أمية مبدأ ، ساروا عليه في تنصيب خلفائهم .

فيذكر أنهم يحتجون بأنهم ورثوها عن آبائهم (عن الخليفة الأموي عثمان بن عفان) وهو احتجاج مردود ؛ لأن الولاية ، لا تورث عن عثمان ، وإنما تورث عن الرسول ﷺ صاحب الدعوة ، والإمام الأول للمسلمين ، فهو الذى تورث عنه الخلافة ، وآله الأقربون ، وهم بنو هاشم ، أولى بميراثه من غيرهم .

ويكشف زيف حجة بنى أمية ، وما فيها من ضلال وتناقض ، بمنطق آخر ، فهم يدعون ميراث الخلافة ، وفي الوقت نفسه يقولون : إن النبى لا يورث ^(١) .

ويفند دعواهم هذه بأن النبى لو لم يورث ، لكانت الخلافة حقاً لجميع المسلمين وليست قاصرة على قريش ^(٢) ، ولطلبتها القبائل العربية المختلفة من عدنانية وقحطانية ، بل كان للأنصار فيها الحظ الأوفر ، فهم الذين آووا ونصروا .

(١) روى أبو بكر عن الرسول ﷺ « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ... » انظر : الفرق بين الفرق ١٣

(٢) يرى الشيعة أن الإمامة في قريش ثم في أهل البيت منهم خاصة . راجع ص ٢٧ من هذا البحث .

النتيجة : أن الخلافة ميراث ، بدليل اختصاص قریش بها ^(١) ، ومادامت كذلك فلنتبع قانون الإسلام في التوريث ، الذى يجعلها حقا لأهل بيت الرسول المورث ؛ لأنهم أقرب الناس إليه ، ولنستردها من أيدي بنى أمية الغاصبين ، الذين يعطون أنفسهم حق الاستخلاف ، ولا يعطون للرسول ﷺ هذا الحق ، وهو أولى به .

ويلخص الكميت هذه النتيجة التى انتهى إليها في البيت الأخير :
فإن هى لم تصلح لقوم سواهم فإن ذوى القرى أحق وأقرب
والأبيات بعد هذا تعكس أيضا تفكيرا فقهيا ، ويرجع ذلك إلى طبيعة المسألة ، موضوع النقاش ؛ فهى تتضمن بحثا فقهيا في مسألة الميراث ، التى يختلف فيها المذهب الشيعى مع المذهب السننى ^(٢) .

ونقاش الكميت لهذه المسألة يقوم — بالطبع — على أساس الفقه الشيعى ، الذى يقدم القرابة على العصبية في الميراث ، ولذا فابن العم الشقيق مقدم على العم لأب عند الشيعة ، وعند الشيعة أن الأنبياء يورثون .

وعلى أساس من هذه القواعد الفقهية الشيعية ، راح الكميت يناقش مسألة إرث النبى ﷺ ، ويختار مقدمات براهينه على النحو التالى :

الأنبياء يورثون ، ومحمد نبى ، وإذن محمد ﷺ يورث ، والقرابة مقدمة على العصبية في الإرث ، وفاطمة أقرب للنبي ﷺ فهى مقدمة على من سواها ، وعلى ابن العم الشقيق ، مقدم على العم لأب ، فعلى وفاطمة هما أحق آل البيت بميراث النبى .

(١) يروى في ذلك ، أن بشر بن سعد الأنصارى قام يوم السقيفة ، فقال مؤيدا حق المهاجرين ، حسما للنزاع : « ألا إن محمد ﷺ من قریش ، وقومه أحق به وأولى ، وأيم الله لا يراى الله أنازعهم هذا الأمر أبدا ، فاتقوا الله ، ولا تخالفوهم ، ولا تنازعوهم » (تاريخ الطبرى ٣ / ٢٠٩) وبهذا أيضا احت. أبو بكر لحق المهاجرين يوم السقيفة (المصدر نفسه ٢٠٨ — ٢٠٩) .

ونقول الأشعرى : « واحتج عليهم (يعنى أبا بكر) بقول النبى ﷺ : الإمامة في قریش ، فأذعنوا لذلك منقادين » (مقالات الإسلاميين ١ / ٢٤) . وروى أن على بن أبى طالب سأل عما حدث في سقيفة بنى ساعدة ، قائلا : ماذا قالت قریش ؟ فقالوا : احتجت بأنها شجرة الرسول ﷺ فقال : احتجوا بالشجرة وأضاعوا الثمرة . (شرح نهج البلاغة ٢ / ١٧٠) يعنى بالثمره أهل البيت .

(٢) راجع : ضحى الإسلام ٣ / ٢٦٠

والخلافة إرث عن النبي ﷺ لقريش (وهذا مااحتج به الأمويون وسائر القرشيين ، ومنهم المهاجرون يوم السقيفة) وعلى وفاطمة أحق قريش بميراث النبي ، ويترتب على هذا أن أبناءهما أحق قريش بالخلافة .

فإذا قال الأمويون : إن النبي لايرث ، كانت الخلافة حقاً لكل عربى مهما كانت قبيلته ، وحينئذ ليس من حق الأميين قصرها عليهم .

هكذا نرى الكميت يؤلف من هذه القضايا الفقهية ، أقيسة عقلية ، راح يعتمد عليها فى استخلاص النتيجة الوحيدة ، التى تؤدى إليها ، وهى أن آل بيت النبي (على وأبنائه) هم أصحاب الحق فى خلافة النبي ، وهذه نتيجة صريحة ، يلزم منها عقلاً أن الأمويين مغتصبون لهذا الحق ، وهذا ما قصد إليه الكميت من هذا الشعر .

وهكذا كان الكميت يمشى فى جدله واحتجاجه ، مستعيناً بالقرآن العظيم مرة ، وبالنظر الفقهى والعقلى مرة أخرى ، فى أسلوب من الشعر لانهرفه لشاعر قبله ؛ لأنه لايعبر ، فقط ، عن الشعور والعواطف ، وإنما يعبر عن الفكر أيضاً ، فكان بذلك أول من فتح باب الجدل والتقير والاحتجاج فى الشعر العربى .

ح : إبراز الجوانب الدينية والإنسانية فى شخصية الأئمة (الملاح السياسى) :

كثيراً ما يأخذ الشعر الشيعى مساراً آخر ، فى التعبير عن حب آل البيت ، والولاء لهم ، والدعوة إلى الالتفاف حولهم ، بمجذب القلوب إليهم ، فيقدم لهم صوراً مثالية ، تجعل منهم مثلاً علياً دينية وإنسانية ، فى صفاتهم الذاتية والأخلاقية ، وسلوكهم الدينى والإنسانى .

وعنصر الدعاية فى مثل هذا الشعر واضح ، لا يغيب عن البصر المتأمل ، فليس من شك فى أن تقديم الأئمة فى صور دينية وإنسانية على هذا النحو من المثالية ، يحببهم إلى القلوب ، ويرقىهم من النفوس ، فقد كان المسلمون فى هذا العصر قريبي عهد بعصر الروحانية الدينية ، والمثالية الأخلاقية ، عصر النبوة والراشدين ، ومازال فى القوم غير قليل من الصحابة ، وبينهم كثرة من كبار التابعين ، الذين أخذوا عنهم هذه الروحانية والمثالية ، وتمسكوا بها ، وأعلوا شأنها فى دروسهم ومجالسهم .

ثم إن منصب الخلافة ، يقتضى أن يكون خليفة المسلمين قدوة للرعية دينا وخلقا وسلوكا ؛ لأنه القائم على رعاية أمورهم الدينية والدنيوية — كما مر ^(١) — وإبراز أئمة آل البيت فى سمى دينى وإنسانى ، يجعلهم معقد أمل المسلمين الحريصين على صلاح حال الدين ، واستقامة أمور المسلمين ، وهذا لا يتحقق إلا إذا تولى أمر الإسلام أمثال هذه النماذج فى دينها وتقواها وعدلها ؛ فترعى الحق ، وتعالى القدوة .

من هذا المنطلق أخذ شعراء الشيعة يضيفون على أئمتهم من الصفات ما يجعل منهم الأمل ، الذى يتطلع إليه المسلمون للخلاص من حكم ملكى ، لا يحرص كثيرا على الأسس الدينية والسياسية والإنسانية ، التى وضعها الإسلام لنظام الحكم فى الدولة الإسلامية .

ويختلف الشعر الشيعى فيما يقدم من هذه الصور ، من حيث شمول الصورة المقدمة لأئمة آل البيت بعامة ، أو اختصاصها بإمام منهم بعينه ، والمؤدى واحد على الحالىن ، وهو تحقيق الغرض الذى ذكرنا .

فمن الشعراء الشيعيين من يجمع بين الأئمة جميعا ، ويقدم لهم صورة عامة ، لا يخصص منهم أحداً بعينه ، وكأنما يوحى بأن خطوط هذه الصورة وملامحها ، وظلالها ، محققة دائما فى كل إمام من أئمة آل البيت ، لافرق بينهم فيها .

من هؤلاء الشعراء أئمن بن خرئيم ، الذى يقول فى الهاشميين ^(٢) :

نَهَارُكُمْ مُكَابِدَةٌ وَصَوْمٌ وَلَيْلُكُمْ صَلَاةٌ وَاقْتِرَاءُ
وَلَيْتُمْ بِالْقُرَّانِ وَبِالتَّزَكَّى فَأَسْرَعَ فِيكُمْ ذَاكَ الْبَلَاءُ
بَكِي نَجْدٌ غَدَاةٌ غَدٍ عَلَيْكُمْ وَمَكَّةُ وَالْمَدِينَةُ وَالْجَوَاءُ
وَحُقَّ لِكُلِّ أَرْضٍ فَارِقُوهَا عَلَيْكُمْ — لِأَبَالِكُمْ — الْبَكَاءُ
أَجْعَلِكُمْ وَأَقْوَاماً سَوَاءً وَبَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمُ الْهَوَاءُ
وَهُمْ أَرْضٌ لَأَرْجَلِكُمْ وَأَنْتُمْ لِأَرْؤُسِهِمْ وَأَعْيُنِهِمْ سَمَاءُ

(١) راجع مفهوم الخلافة فى الإسلام ص ٦٢ من هذه الدراسة .

(٢) الأغاني ٢١ / ٦ . الجواء : موضع بالصَّمان من رمل عالج .

هكذا يرى الشاعر الهاشميين ، ويُريهم للناس ، حريصين على الطاعات ، ينفقون نهارهم وليلهم في عبادة متصلة ، وتقرب دائم إلى الله ، يكابدون الصوم نهارا ، ويقطعون الليل سهارى ، بين صلاة وابتهاال ، وترتيل لكلام ذى الجلال ، حتى غدوا ولاهم لهم إلا هذا النسك ، شغلوا به فشغلهم عن السعى لإدراك حقهم ، والتصدى لغاصبيه ، ومقاومة مايتلونهم به من صنوف الظلم والقهر والاستبداد .

إنها لخسارة فادحة أن يتساقط الأئمة الهاشميون واحدا إثر واحد ، فتحرم الدنيا من هذه المصاييح المضيفة ، والمثل الورعة الثقية ، وتضج أركان الأرض الطاهرة بالبكاء عليهم ، لحرامتها من فضلهم وعدلهم وهدايتهم .

ولايفوت الشاعر أن يوحى لكل ذى عقل واع ، وبصيرة مستنيرة ، أن يوازن بين من هذه صفاتهم ، وبين خصوم لهم ، هم أدنى منهم منزلة ومقاما — وهو بالقطع يقصد بنى أمية ، الذين تحدث عما ينزلونه بالأئمة من بلاء — وحينئذ سيدرك مآدركه الشاعر من أن فرق ماينهم وبين هؤلاء ، هو فرق ماين السماء والأرض .

ويقدم الكميت بن زيد صورة أخرى لآل البيت الهاشميين بعامه ، ينزع فيها منزعا آخر ، فيقول ^(١) :

بَلْ هَوَاىَ الذِّى أُجِنُّ وَأُبْدَى	لبنى هاشم فروع الأنام
للقريبين من ندى والبعيد	من من الجور في عرى الأحكام
والمُصبيين باب ماأخطأ النأ	سُ ومُرْسَى قواعد الإسلام
والغيوث الذين إن أمحل النأ	سُ فمأوى حواضن الأيتام
رأججى الوزن كامل العِدل في السَّير	ة طَبَّين بالأمور العظام
غالبين هاشميين في العِلْم —	م رَبَّوْا من عَظِيَّة العَلَام
وهمُ الآخذون من ثقة الأئم	ر بَتَقَوَاهم عَرَى لانفصام ..

(١) الهاشميات ٢٢ . أحمل الناس : أصابهم الجذب . الحواضن : الأمهات . طين : خافقين . ربوا : زادوا ، يريد : خصوا بالعلم منحة من الله ؛ لأنهم أقرب الناس إلى النبي صاحب الوحي ، وفي هذا إشارة إلى عقيدة الشيعة في علم الأئمة . راجع ص ٢٦ من هذه الدراسة .

ألم نقل : إن الشعر الشيعي حرص على أن يضفي على الأئمة الكمالين :
الديني ، والإنساني ؟! فإذا كان أمين بن خريم قد قصد إلى إسباغ الكمال الأول عليهم ،
فإن الكميت هنا ، يجمع لهم أطراف الكمال الثاني ، دون أن يحرم صورته من بعض
اللمحات الدينية أيضا .

وهل تكون المثالية الإنسانية إلا جماعا لخصال : الكرم ، والعدل في الفصل بين
الناس ، والعلم ، والمرورة ، والبر بالضعيف ، ورجاحة العقل ، ونفاذ البصيرة والاستقامة في
القول والفعل ، والحدق والمهارة في سياسة الأمور العظام ، وعلو الكعب في الأصل
والشرف ؟

فإذا حفت هذه الخصال بالتقوى الصادقة ، والغيرة على الدين ، والحرص على
إرساء قواعده ، والثقة بالله ، وبحسن العقبي عنده ، حق للشاعر أن يجعل هوى قلبه
فيهم ، سراً وعلانية ، وحق لكل من يراهم على هذه الصورة أن ينزع هواه إليهم ، ويربط
أسبابه بأسبابهم ، وما إلى غير هذا قصد الشاعر بما قال .

وقد ينظر الشاعر الشيعي إلى إمام بعينه ، ويثبت له مايؤيد الصورة العامة عن أئمة
آل البيت ، ممثلة فيه ، أو يركز أضواء شعره على إمامه ، فيبرز من الصفات والدلائل
ما يعكس اعتقاده فيه .

ويغلب أن يستعين الشاعر في مثل هذه الصورة بعناصر دينية عقدية ، يستمدّها
من عقائد المذهب الذي يدين به .

فالسيد الحميري — وهو شيعي على مذهب الكيسانية — يرى إمامه محمد بن
علي (ابن الحنفية) مهدي هذه الأمة ، بهذا بشر النبي ﷺ ، حتى قبل أن يولد إمامه ،
فقد أنهى النبي إلى أمين سره ، وخازن علمه علي بن أبي طالب (هكذا يعتقد الشيعة) بأن
سيكون من ولده ، من يحمل اسمه وكنيته (أبو القاسم محمد) ، وأن من صفات هذا الولد
رجاحة العقل ، والتبحر في العلم ، وسلامة الطبع ، واستقامة الخلق ، فيكون المهدي من
بعده ، يغيب عن الأنظار ، مختفيا من الأخطار ، يتخذ من جبل رضوى دار لغيبته
المؤقتة ، حتى يظن الناس أنه مات ، ودفن بمكة .

يصوغ السيد الحميرى هذه الصورة شعرا ، فيقول ^(١) :

أَلَمْ يَلْعَنَكَ وَالْأَنْبَاءُ تَنْمِي مَقَالُ مُحَمَّدٍ فِيمَا يُؤْدِي
إِلَى ذِي عِلْمِهِ الْهَادِي عَلَى وَخَوْلَةُ خَادِمٍ فِي الْبَيْتِ تَرْدِي
أَلَمْ تَرَ أَنَّ خَوْلَةَ سَوَفَ تَأْتِي بِوَارِي الزُّنْدِ صَافِي الْعَيْمِ نَجْدِ
يَفُورُ بِكُنْيَتِي وَاسْمِي لِأَنِّي نَجَلْتُهُمَا هُوَ الْمَهْدَى بَعْدِي
يَغِيبُ عَنْهُمْ حَتَّى يَقُولُوا تَضَمَّنَهُ بِطَيْبَةِ بَطْنٍ لَحْدِ
سَنِينَ وَأَشْهَرًا وَيُرَى بِرَضْوَى بِشَعْبٍ بَيْنَ أُمَّارٍ وَأُسْدِ

والطابع المذهبي هو الغالب في شعر السيد الحميرى هذا ، فهو ينظم بعض عقائد الشيعة الكيسانية في إمامهم محمد بن الحنفية .

ويتحدث كثير عزة — شاعر الكيسانية أيضا — عن إمامه ابن الحنفية ، ويرى أن إمامته ثابتة بالنص والوصية ، ولكنه لا يسترسل في هذه المعاني المذهبية ، كما فعل السيد الحميرى ، فسرعان ما يلجأ إلى صبغ صورة أمامه ، بصبغة أخرى ، تعتمد على بعض الفضائل الدينية والإنسانية العامة ، فيقول ^(٢) :

وَصَّى النَّبَى الْمُصْطَفَى وَابْنَ عَمِّهِ وَفَكَأَنَّ أَغْلَالَ وَقَاضَى مَعَارِمِ
أَبْنَى فَهُوَ لَا يَشْرِي هُدًى بِضَلَالَةٍ وَلَا يَتَّقَى فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَا ئِمِ

فابن الحنفية انتهت إليه الإمامة عن طريق النص والوصية من النبي على أبيه على ، ثم من على على ابنه محمد ؛ ولذا فقد اجتمعت له من خصائص الأئمة صفات المروءة ، وإغاثة المكروب ، والعطف على الضعفاء ، والورع والتقوى ، والشجاعة في الحق ، لا يخشى فيه لومة لائم .

(١) الأغاني ٧ / ٤ . خولة : أم محمد بن علي ، من بنى حنيفة . تردى : تضرب الأرض برجلها مسرعة في العدو ، والمراد أنها كانت مازالت في بيت أهلها تروح وتغدو مسرعة في العمل . الخيم : السجية والطبيعة . طيبة : اسم من أسماء مكة المكرمة (انظر : كتابنا: أمراء الشعر في العصر الجاهلي ص ٥٤ هامش ٤) أُمَّارٍ وَأُسْدٍ : نمور وأسود ، يقصد أنه يعيش بين هذه الوحوش بشعب رضوى .

(٢) ديوانه ٢٢٥ والكامل للمبرد (الأزهرية) ٣ / ١١٩ . وابن عمه : يعنى : ووصى ابن عمه على بن أبى طالب . يشرى : المعنى هنا : يبيع ، على حد قوله تعالى : « ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله » أى يبيع . (سورة البقرة ٢ / ٢٠٧) .

وله من قصيدة أخرى ، يخلع فيها صفة المهديّة على ابن الحنفية ، ويشير إلى أنه المذكور بها في كتب الأولين منذ قديم الزمان ، يتحدث بها العلماء بهذه الكتب ، ثم يعبر عن حنو إمامه وعطفه على أتباعه ، ورعايته لهم ، وسؤاله عنهم وعن أحوالهم تكريماً وفضلاً ، وإن الشاعر بحب إمامه له ، وعطفه عليه لسعيد ، قرير العين ^(١) :

هُوَ الْمَهْدِيُّ خَيْرُنَاهُ كَعَبُّ أَخُو الْأَخْبَارِ فِي الْحُقُبِ الْخَوَالِي
أَقَرَّ اللَّهُ عَيْنِي إِذْ دَعَانِي أَمِينُ اللَّهِ يَلْطُفُ فِي السُّؤَالِ
وَأَتْنَسَى فِي هَوَايَ عَلَى خَيْرٍ وَسَاءَلُ عَنْ بَنِيَّ وَكَيْفَ حَالِي

فإمام كثير هو المهدي ، الذي يرجع ليملا الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً ، وهو أمين الله على ولاية أمر عباده .

على هذا النحو مضى الشعر الشيعي يمجّد الأئمة ، ويشيد بخصالهم ، ويخلع عليهم من الفضائل الذاتية ، والأخلاقية والدينية ، ما يعقد القلوب على محبتهم ، والنفوس على هواهم .

ح : إظهار الحزن والتفجع على الشهداء من الأئمة (الرثاء السياسي) :

سبق أن تحدثنا عما تعرض له آل البيت من قهر واضطهاد على يد خصومهم بعامّة ، ومافرض عليهم من صراع مع هؤلاء الخصوم ، دفعا للظلم عنهم ، أو سعيا وراء استرداد حقوقهم ، أو غيرة على الدين ، وثورة على العابثين بقواعده وقيمته ، والمخرفين لكتابه ، وسنة نبية .

وكان الأمويون — كما قدمنا — أشد هؤلاء الخصوم عنفا في البطش بزعماء آل البيت وأنصارهم ، وإمعانا في قسوة التنكيل بمن تحدّثه نفسه منهم بالخروج على سلطانهم ، أو محاولة زعزعة أركان دولتهم .

(١) ديوانه ٢٣٢ ومروج الذهب للمسعودي (البهية) ٢ / ١٠١ . كعب أخو الأخبار : يقصد كعب الأخبار ، وهو أبو إسحاق كعب بن ماتب الحميري ، والأخبار لقب وصف به ، كان من علماء اليهود باليمن في الجاهلية ، ثم قدم المدينة في خلافة عمر بن الخطاب — وقيل : في خلافة أبي بكر — وأعلن إسلامه ، ثم نزح إلى الشام ، وتوفى بجمص سنة ٣٢ هـ وقيل ٣٤ هـ ، وعنه رويت إسرائيليّات كثيرة في كتب الأخبار والتفاسير ، وصنوه في العلم بكتب الأولين وأخبار الأمم ، وقصصهم ، أبو عبد الله وهب بن منبه الصنعاني المتوفى سنة ١١٤ هـ . انظر في ترجمة كعب الأخبار وأخباره : الإصابة ٥ / ٥٤٧ ، وحلية الأولياء ٥ / ٣٦٤ وطبقات ابن سعد ٧ / ١٥٦ والعبر للذهبي ١ / ٣٥ والكمال لابن الأثير ٣ / ٥٩ (الأممية) .

وقد أدى هذا الصراع العنيف بين الشيعة وخصومهم إلى سقوط بعض أئمة آل البيت وزعمائهم صرعى الغدر حيناً ، وسيوف الأعداء الباطشة أحياناً .

وقد نهض الشعر الشيعي برسائلته نحو الوفاء للأئمة الشهداء ، الذى سقطوا ضحايا الظلم والبغى والعدوان ، فعبّر فى العديد من نماذجه عن عواطف الشيعة الحزينة الملتاعة ، فى رثاء حار ، ينضح بالتفجع ، والنقمة على المعتدين الآثمين .

وصور رثاء الأئمة فى شعر الشيعة متنوعة المعانى ، متعددة الاتجاهات والمرامي ، مما يضيف على هذا الفن من شعرهم طابع الحيوية ، ويكسبه الحرارة وقوة التأثير .

ويمكن رد الرثاء فى شعر الشيعة السياسى إلى ثلاثة ألوان عامة :

١— رثاء صابر محتسب ، تمتزج فيه عواطف الحزن على الأئمة الراحلين ، والنقمة والسخط على الطغاة الذين عدوا عليهم ، واجتروا على الفتك بهم .

٢— رثاء ناثر غاضب ، يعكس معانى المرارة والحزن ، والتقريع واللوم ، لتقصير المسلمين فى حماية الأئمة والدفاع عنهم .

٣— رثاء يمزج بين معانى الحزن والسخط ، والتهديد جميعاً .

وبالطبع ينبغى أن لا ننصوّر أن هذا التقسيم يبلغ من الحدة والدقة ، بحيث تميز هذه الألوان تمايزاً تاماً ، وتبرأ كل البراءة من التداخل بين معانيها ، فما إلى هذا قصدنا ، ولا تعطينا النماذج التى سنسوقها حق ادعائه .

غاية الأمر أننا لاحظنا غلبة كل صبغة منها على طائفة من أشعار الشيعة فى هذا المجال .

ويمكن أن نعد من الاتجاه الأول قول أبى زُبَيْد الطائى ^(١) يرثى على بن أبى طالب ^(٢) :

(١) المنذر بن حرمة الطائى ، شاعر معمر ، عاش — فيما يقال — مائة وخمسين سنة ، وأدرك سلام ، ولكنه مات نصرانياً ، واشتهر بتعلقه بالخمير ، ونام عليها الوليد بن عقبة والى الكوفة من قبل عثمان بن عفان ، وكان أبو زيد يعيش بين أحواله من بنى تغلب . انظر : الأغاني ١١ / ٢٣ والشعر والشعراء ١٠١ — ١٠٣ .
(٢) الكامل للمبرد (الأزهرية) ٣ / ١١٨ . خارجه : اختاده . أضغان الرجال : أسرار قلوبهم . الحبر : العالم . اتصلها : استخرجها ، يعنى روحه . حمت : حان أجله ، وقدرت وفاته .

إِنَّ الْكَرَامَ عَلَى مَا كَانَ مِنْ خَلْقٍ رَهْطُ امْرِئٍءِ خَارَةٌ لِلدِّينِ مُخْتَارُ
 طَبٌّ بِصِيرٍ بِأَضْعَافِ الرِّجَالِ وَلَمْ يُعْدَلْ بِخَيْرِ رَسُولِ اللَّهِ أَحْبَارُ
 وَقَطْرَةٌ قَطُرَتْ إِذْ حَانَ مَوْعِدُهَا وَكُلُّ شَيْءٍ لَهُ وَقْتُ وَمَقْدَارُ
 حَتَّى تَنْصَلَّهَا فِي مَسْجِدٍ طُهُرُ عَلَى إِمَامٍ هَدَى إِذْ مَعَشَرَ جَارُوا
 حُمْتُ لِيَدْخُلَ جَنَابُ أَبِي حَسَنِ وَأُوجِبْتُ بَعْدَهُ لِلْقَاتِلِ النَّارُ

فهذا رثاء صابر محتسب ، فيه التسليم بقضاء الله في مقتل علي ، وفيه يبكي الشاعر الخصال التي حرص شعراء الشيعة على إثباتها لأئمتهم ، من كرم الخلق ، والحدق والمهارة والبصر بسياسة الرجال ، وتدير الأمور ، وغزارة العلم ، والهداية والعدل ، وشرف الأرومة ، وأنه الإمام الذي اصطفاه الرسول ﷺ ليقود الأمة ، ويرعى الدين من بعده ، وفيه مع هذا النعمة والسخط على أعداء الإمام ، حيث يرميهم الشاعر بالظلم ؛ لتعديهم بمقتله ، ويتوعد القاتل ومحرضيه بانتقام الله وعذابه الأليم في نار جهنم .

والكميت أيضا يرى الإمام علياً — رحمه الله — فيتفجع ويتوجع ، ولكنه يعنى في هذا الرثاء بإبراز مدى خسارة الإسلام ، والمسلمين بفقده .

إن الذين تآمروا به ، قتلوا بقتله أمل الأمة في إقامة العدل ، والتحكين له بين الرعية ، وهل يستقيم أمر المسلمين بغير حاكم عادل ، يعرف كيف يقضى بينهم ، ويسوس أمورهم ، ويرعاهم ، بنفاز بصيرته ، وحسن عفوه ، ورجاحة عقله ؟

ولا ينسى الكميت أن يرى برثائه الشجاعة ، والطهر ، ونبع الخير ، وأن يندد بأعدائه ، الذين أعانوا على قتله ، بتدبير مؤامرة اغتياله ، فيرميهم بالجرأة على الدين ؛ لأن في قتل الإمام على هدم لعرش الأمة الإسلامية ، ويصممهم بالظلم لفتكهم بالراعى العادل ، الذى تهلك بهلاكه الرعية .

يقول الكميت (١) :

(١) المصدر السابق . التجوى : نسبة إلى تجوب ، قبيلة من حمير ، إليها ينسب ابن ملجم ، قاتل الإمام على . المعلم : الذى يضع على رأسه علامة في الحرب ، إعراباً عن شجاعته وإقدامه . العجاج : الغبار المتكاثف المثار ، وهو هنا كناية عن المعارك . الكهام : الذى لاخير فيه ، وأصل الكهام : السحاب الأحمر الذى لامطر فيه . مسجحا : حسن العفو . المسم : الراعى الذى يسوم الماشية . السوام : الإبل السائمة : أى التى أطلقت لترعى ، استعار الشاعر المسم والسوام للحاكم والرعية .

والوصى الذى أمال التجو بى به عرش أمة لا تهدام
قتلوا يوم ذاك إذ قتلوه حكماً لا كفاً للحكام
الإمام الزكى والفراس المغ لم تحت العجاج غير الكهام
راعياً كان مسجحاً ففقدنا ه وفقد المسيم هلك السوام

أما أبو الأسود الدؤلى فيلاحظ ماكان فى مقتل الإمام على من تأمر سياسى ،
لايرى الأمويين منه ، وهو على يقين من أنهم فرحون شامتون ، فقد خلا لهم الميدان
بمقتل الرجل الذى لاكفء له بينهم ، جهادا ، وشجاعة ، وحسبا ، وتقوى ، وتدينا ؛ ولذا
فهو يوجه رسالة شعرية إلى معاوية والأمويين ، داعيا الله أن يجرهم مما يؤملون من وراء
تدبيرهم المجرم ، جزاء استهتارهم بالدين وحرماته ، وعدم مبالاتهم بإراقة الدماء فى شهر
الصيام ، ودم من ؟ دم خير الناس طراً أجمعين : (١)

ألا أبلغ معاوية بن حرب فلا قرئت عيون الشامتين
أفى شهر الصيام فجعتمونا بخير الناس طراً أجمعينا؟!
قتلتم خير من ركب المطايا وذللها ، ومن ركب السفينا
ومن لبس النعال ومن حذاها ومن قرأ القرآن والمئينا
لقد علمت قريش حيث كانت بأنك خيرهم حسبا ودينا

هذه النماذج — وأمثالها من الرثاء الشيعى — يجمعها طابع الاحتساب والصبر ،
وتعدد مناقب المرثى ، لإثارة عواطف الحسرة لفقده ، والحزن واللوعة لحرمان الإسلام
والمسلمين من هذه المناقب ، كما أنها لا تخلو من الإشارة إلى المعتدين ، والتنديد بهم ، أما
أبو زيد فيرميهم بالجور ، ويتوعدهم بعقاب الله الشديد ، وأما الكميت وأبو الأسود ،
فيدمغانهم بالجرأة على الدين ، والاستهتار بحرماته .

وكثيرا مايتجاوز الشعر الشيعى فى الرثاء ، هذا الطابع الذى يميل إلى التعبير عن
الحزن الصابر ، الهادى — إلى حدما — والسخط المستنكر ، والمكتفى — غالبا —
بمجرد إظهار الاستنكار ، يتجاوز هذا المستوى ، إلى رثاء معبر عن الغضب الهادر ،
والثورة النفسية العارمة ، حتى ليكاد يقتصر فى معانيه على مايؤدى هذين الانفعالين ،

وقلما يعرج على الحديث عن مناقب المرثى .

وأكثر رثاء الشيعة للحسين بن علي يسلك هذا النهج ، المعبر عن الغضب الثائر العنيف ، فلقد كان مقتل الحسين — على الصورة التي رأيناها آنفاً — جريمة بشعة ، زلزلت مشاعر المسلمين ، وجرحت عواطف الحب والوفاء لرسول الله ﷺ في أبنائه لدى الأمة ، مما جعل موجة الغضب والحنق على بنى أمية تعم وتطم ، نقمة على هؤلاء السفاحين ، قتلة ابن النبي .

فحين ردّ يزيد بن معاوية النساء والأطفال من آل البيت ، اللأى كن في صحبة الحسين ، ردهن بعد مقتله من الشام إلى المدينة ، خرجت عَقِيلَة ^(١) بنت عَقِيل بن أبي طالب في نساء من بنى هاشم حواسر ، وهي تقول : ^(٢)

مَاذَا تَقُولُونَ إِنْ قَالَ النَّبِيُّ لَكُمْ مَاذَا فَعَلْتُمْ وَأَنْتُمْ آخِرُ الْأُمَمِ
بِعَثْرَتِي وَبِأَهْلِي بَعْدَ مُفْتَقِدِي مِنْهُمْ أَسَارَى وَصَرَغَى ضُرَّجُوا بِدَمِ
مَا كَانَ هَذَا جَزَائِي إِذْ نَصَحْتُ لَكُمْ أَنْ تَخْلَفُونِي بِسَوْءِ فِي بَنِي رَحْمِي
قَالُوا : فَمَا سَمِعَهَا أَحَدٌ إِلَّا بَكَى .

فهذا تفجع أليم ، يهز القلوب ، ويفجر الدموع ، تسوقه الشاعرة من خلال أسلوب يفيض باللوم العنيف ، والتقريع الشديد ، والغضب البالغ ، والثورة النفسية العارمة ، وهي تتجه بهذا كله ، لا إلى بنى أمية وأعوانهم القتلَة فحسب ، بل إلى أمة الإسلام بأسرها ؛ لعود المسلمين عن نصره الحسين وحمایته ، وسلبيتهم إزاء هذه الجريمة النكراء .

وكان الشاعرة بهذا تستثير عواطف المسلمين ، وتوقظ ضمائرهم ، ليثوروا على هؤلاء السفاحين ، الذين أساءوا إلى النبي ﷺ في أبنائه ، وجازوا إحسانه إلى الأمة أسوأ الجزاء .

(١) كذا اسمها في الموشح ١٦٠ ، واقتصر مصادر شعرها الآتي على (ابنة عقيل) .

(٢) الموشح ١٦٠ وتاريخ الطبری ٢ / ٢٦٨ وعبون الأخبار ١ / ٢١٢ والمختصر لأبي الفدا ١ / ١٩١

والكامل لابن الأثير ٤ / ٨٩ (بيروت) — عترة الرجل : أبناؤه وعشيرته الأذنون .

وهذا شاعر تدفعه نفسه الثائرة ، إلى أن يستمطر اللعنات على قتلة الحسين من أهل السماء والأرض جميعا ، من ملائكة وأنبياء ، وكل قبيل من الناس ، ويسجل عليهم اللعنة والحرمان من رضوان الله ، في كل الكتب المقدمة السابقة ، في زبور داود ، وتوراة موسى وإنجيل عيسى ، كما تدفعه مرارة الإحساس بجريمة مقتل الحسين ، إلى أن يتهم ويسخر ، فيشرهم بغضب الله ، المفضي إلى العذاب الشديد ، والتنكيل المروّع ^(١) :
 أيُّها القتاتلون جَهْلًا حُسَيْنًا أبشروا بالعذاب والتنكيل
 كُلُّ أَهْلِ السَّمَاءِ يَدْعُو عَلَيْكُمْ مِنْ نَبِيٍّ وَمَلَكٍ وَقَبِيلٍ
 قد لعنتم على لسان داود وموسى وحامل الإنجيل
 وأغلب الظن أن هذه المعاني إنما كان يراد بها — فيما يراد — استشارة النفوس ، وتوبيخ العواطف ، ضد أعداء آل البيت ، الذين سولت لهم نفوسهم ارتكاب هذا الجرم البشع في حق أبناء النبي .

ويظهر القصد إلى هذه الاستشارة ، في قول شاعر آخر ، يصور مقتل الحسين وفجعة آل البيت به : ^(٢)

أَبْكَ حُسَيْنًا لِيَوْمٍ مَصْرَعُهُ بِالطَّفِّ بَيْنَ الْكَتَائِبِ الْخُرْسِ
 أَضَحَّتْ بَنَاتُ النَّبِيِّ إِذْ قُتِلُوا فِي مَأْتَمٍ وَالسَّبَّاعُ فِي عُرْسِ
 فاختيار هذا الشاعر للكلمات : الكتائب الخرس — بنات النبي ، مأتم ، عرس ، يدل على القصد الذي ذكرنا .

وفي قول سليمان بن قَتَّة ^(٣) ، يريث الحسين أيضا : ^(٤) :

(١) تاريخ الطبري ٦ / ٢٦٩ ، والكمال لابن الأثير ٤ / ٩٠ (بيروت) وفيهما « سمع بعض أهل المدينة ليلة قتل الحسين مناديا ينادي » .

(٢) عيون الأخبار ١ / ٢١٢ . الطف : ماء قرب كربلاء . الخرس هنا : جمع خرساء ، والكتيبة الخرساء : الصامتة من كثرة الدروع ، وقيل : هي التي لا يسمع لها صوت من وقارهم في (الحرب انظر : اللسان : خرس)
 (٣) شاعر قرشي من بني تيم بن مرة بن كعب بن لؤي ، كان منقطعا لبني هاشم . انظر : الكامل للمبرد ١ / ١٣١ (الاستقامة) .

(٤) الكامل للمبرد ١ / ١٣١ ، ومروج الذهب ٢ / ٩٢ (البية) ، وتنسب الأبيات إلى أبي ذهل الجمحي في معجم البلدان ٦ / ٥٢ ، وانظر : الكامل لابن الأثير ٤ / ٣٧ (الأميرية) ، وفي مقالات الإسلاميين ١ / ١٤٢ تنسب إلى أبي ربح الخزازي .

مررتُ على أيّابِ آلِ محمدٍ فلم أرَها أمثالَها يومَ حُلَّتِ
فلا يبعدُ اللهَ الديارَ وأهلُها وإنْ أصبحتُ من أهلها قد تَحَلَّتِ
ألمَ تر أن الأرضَ أضحتْ مريضةً بقتلِ حسينٍ والبلادُ اقشعرتْ
وإن قَتيلَ الطُفِّ من آلِ هاشمٍ أذلَّ رقابَ المسلمين فذَلَّتْ
وكانوا رجاءً ثم أضحووا رزيةً لقد عظمتُ تلك الرزايا وجلَّتْ

فانظر إلى هذه العبارات المهيجة : « الأرض مريضة » ، « البلاد اقشعرت » ، « أذل رقاب المسلمين » « كانوا رجاء ثم أضحووا رزية » ؟!

إن الشاعر بها وبغيرها مما تركنا ، يحاول إثارة مشاعر المسلمين ، حزنا على ما أصاب أهل البيت بمقتل الحسين .

فقد عم الحزن ديارهم ، وليس المسلمون ثوب المذلة والعار ؛ لتخاذلهم عن نصرة الحسين ، وسكوتهم على جريمة قتله ، وهكذا تفقد الأمة هدايتها وأئمتها ، واحدا بعد واحد ، فتعم المصائب بفقدهم ، ويضيع الأمل الذي كان معقودا عليهم ، للخلاص من سيطرة الأمويين واستبدادهم .

أما الرثاء الشيعي ، الذي يمزج بين الحزن والسخط والثورة ، والتهديد ، فمثله قول الشاعر الهاشمي الفضل بن العباس ^(١) ، يرثي زيد بن علي بن الحسين — إمام الزيدية ^(٢) :

ألا ياعينُ لا تَرَقِي وَجُودِي بدمْعِكَ ليس ذا حين الجُمود
غداة ابنُ النبيّ أبو حُسَيْنٍ صَلَبٌ بالكُنَاسَةِ فوق عُود
يَظُلُّ على عَمُودِهِمْ وَيُـمَسِّي بِنَفْسِي أَعْظَمُ فوقَ العُمُود
تَعْدَى الكافِرُ الجِبَارُ فِيهِ فأُخْرِجُهُ من القَبْرِ اللَّحِيدِ

(١) هو : أبو المطلب ، أو : أبو عتبة الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب ، وأبو لهب ، هو : عبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم ، شيخ بني هاشم وفصيحهم وشاعرهم في وقته ، وأمه هاشمية أيضا ، فهي : آمنة بنت العباس ابن عبد المطلب توفي سنة ١٧٣ هـ تقريبا ، وفي سلسلة نسبه خلاف . انظر : سمط اللآلئ ٢ / ٧٠٠ والموضح ٢٣ ومقاتل الطالبين ١٤٩ والأغاني ١٥ / ٢ والتذكرة السعدية ٣٤٨ ورسائل الجاحظ ١ / ٢٠٨ وخزانة الأدب ١ / ٤٦٥

(٢) مقاتل الطالبين ١٤٩ . الكافر الجبار : يعني هشام بن عبد الملك الأموي . الدم الجسيم : الطرى الذي لم يجف بعد . لا ترقى : لا ينقطع دمك . اللعيد : الملحد . أي المحفور . حلق الحديد : الدروع . الكناسة : موضع بالكوفة ، تقام فيه السوق .

فَظَلُّوا يَنْبِشُونَ أَبَا حُسَيْنٍ وَمَا قَدَرُوا عَلَى الرُّوحِ الصَّعِيدِ
إِلَى أَنْ يَقُولَ مَتَوَعِّدًا بَنِي أُمِيَّةَ ، وَمَنْ يُوَالِيهِمْ مِنْ قِبَائِلِ الْعَرَبِ :

وَكَيْفَ تَضَيُّنُ بِالْعَبْرَاتِ عَيْنِي وَتَطْمَعُ بَعْدَ زَيْدٍ فِي الْهُجُودِ
وَكَيْفَ لَهَا الرُّقَادُ وَلَمْ تَرَأَى جِيَادُ الْخَيْلِ تَعْدُو بِالْأَسُودِ
تَجْمَعُ لِلْقِبَائِلِ مِنْ مَعَدٍّ وَمَنْ قَحْطَانَ فِي حَلَقِ الْحَدِيدِ
كُتَابُ كُلِّمَا أُرْدَتْ قَتِيلًا تَنَادَتْ : أَنْ إِلَى الْأَعْدَاءِ عِوْدِي
نَجَازِيكُمْ بِمَا أُؤَيِّتُمُونَا قِصَاصًا أَوْ نَزِيدُ عَلَى الْمَزِيدِ
وَنَتَرَكُكُمْ بِأَرْضِ الشَّامِ صَرْعَى وَشَتَّى مِنْ قَتِيلٍ أَوْ طَرِيدِ

فهذا رثاء باك حار ملتاع حزين لفقد هذا الإمام الهاشمي ، وهو غاضب ناثر
أيضا ، ينحل القتلة صفات الكفر ، والفجور في الاعتداء ، والاستهتار بدماء أبناء
النبي ، والتثليل المهين بأجسادهم الطاهرة ، وكل هذا مما ينفر المسلمين ، ويستثير
حفاظهم على بني أمية ، وهذا هو الوجه السياسي لهذا الرثاء وأمثاله .

كما أن روح التهديد والوعيد في هذا الشعر أوضح من أن تحتاج إلى أن ندل
عليها ، وأكثر من أن نحاول تعديدها .

حقا إن الفضل ليجعل من هذه المراثية قصة حزينة دامية ، تروى مأساة هذا
الإمام ، الذي قتله بنو أمية ، ونكلوا بجثمانه أبشع تنكيل ، وهو يرويه بدموعه ، وزفرات
قلبه ، التي تتصاعد نارا محرقة ، تتوعد الأمويين وأنصارهم .

ويحض يحيى بن زيد بنى هاشم صراحة على النهوض بثأر أبيه ، ويستثير كوامن
النخوة والعزة والإباء فيهم ، ليطلبوا بني أمية بهذا الثأر ^(١) :

خَلِيلِي عَنِّي بِالْمَدِينَةِ بَلْغَاً بَنِي هَاشِمٍ أَهْلَ التُّهَى وَالتَّجَارِبِ
فَحَتَّى مَتَى مَرْوَانَ يَقْتُلُ مِنْكُمْ خِيَارَكُمْ وَالْدَّهْرُ جَمُّ الْعَجَائِبِ

(١) مقالات الإسلاميين ١ / ١٣١ . مروان : يعنى بنى مروان . التحارب : الاشتباك في الحرب ، وفي البيت
الأخير إقواء .

وحتى متى ترضون بالحسيف منهم وكنتم أباة الحسيف عند التجارب
لكل قتييل معشر يطلبونه وليس لزيد بالعراقيين طالب

والحق أن هذا الضرب من الشعر الشيعي تتجلى فيه العاطفة الحزينة الصادقة ،
والسخط الشديد والمرارة ؛ ولذا كثيرا ماأثارت أشعار الشيعة في رثاء أئمتهم نفوس
المسلمين ومشاعرهم ضد بنى أمية .

د: التصدى لخصوم الشيعة (الهجاء السياسى) :

كما وقف شعراء الشيعة إلى جانب أئمة المذهب معبرين عن عواطف الحب والولاء
والوفاء لهم ، أو مؤيدين حقهم ، مظهرين حجتهم ، هبوا كذلك للوقوف في وجه
خصومهم ، وأعداء مذهبهم ، وغاصبي ولايتهم ، ينقضون دعاواهم ، ويكشفون عن باطل
زعمهم ، ويظهرون للمسلمين حقائق نواياهم ، وفساد سياستهم ، ويخلعون عليهم في أثناء
ذلك من الصفات مايصرف القلوب عنهم ، وينفرها منهم .

نعم استخدم شعراء الشيعة كلمتهم المنغومة سلاحا قويا ضد أعداء الشيعة
والتشيع من أمويين وزبيريين وخوارج ، أما الأمويون ، فلأنهم عدوا على حق آل البيت ،
واضطهدوهم ، دون مبالاة بحمة انتسابهم للرسول ﷺ ، وأما الزبيريون فلمنا هضتهم
الشيعة ، وادعاء زعميهم حق الأئمة من آل البيت لنفسه ، وأما الخوارج فلعدم اعترافهم
بتقديم الأئمة وفضلهم ، ثم لأنهم بغاة خارجون ، تنكروا لبيعة إمام الشيعة الأول على بن
أبى طالب ، وخرجوا عليه وقتلوه .

وقصد شعراء الشيعة إلى تحقيق الغايات التى أشرنا إليها ، بشعرهم في هجاء
الخصوم ، وهو الذى يعطى هذا الشعر طابعه السياسى ؛ إذ كانت الغاية المرجوة من كل
ذلك ، صرف القلوب والأهواء عن أعداء الشيعة ، وتوجيهها إلى الأئمة ، وكسب الأنصار
لهم ولحقهم ولذهبهم .

وقد يكشف شعراء الشيعة عن هذه الغاية السياسية في شعرهم ، بجمعهم بين صورتين متقابلتين ، إحداهما بإبراز المثالية التي رأينا هؤلاء الشعراء يحرصون على إضافتها على أئمتهم ، بوجهيها الديني والإنساني ، والأخرى تجرد أعدائهم من كل مزينة في الدين أو الخلق أو السياسة ، وعلى القارئ والسامع أن يستخلص محصلة هذه المقارنة ، وهي لن تكون في عين الإنصاف إلا كسبا لأولئك ، وخسراناً لهؤلاء .

حقيقة أخرى نرى أن نعجل بها هنا ، قبل أن نأخذ في دراسة نماذج من الهجاء السياسي في شعر الشيعة ، مؤداها أن بنى أمية قد خُصوا بأوفى نصيب من هذا الشعر ، على الرغم من تمتعهم بالسلطة الباطشة ، التي تقذف الرعب في قلوب الشعراء إذا اجترعوا على مناهضتهم ، ومن سياستهم في إغراء الشعراء بالعطايا والهبات وصنوف المغريات ، وإن لم يكونوا على رأيهم ، أو من المواكبين لهم .

ويمكن تعليل هذا بأمرين : أولهما : صدق الاعتقاد ، وإخلاص النية ، عند شعراء الشيعة ، وتجردهم من كل مطمع دنيوى ، واعتقادهم الراسخ أنهم بما يقولون في نصرة أئمتهم ومذهبهم ، إنما ينتصرون للحق ، ويتقربون إلى الرب ، والآخر : أن الأمويين كانوا أكثر عداً للشيعة وظلماً لهم ، وتنكيلاً بحركاتهم الثورية ، ومناهضة لمذهبهم وأئمتهم ؛ ولذا حفل الشعر الشيعي بهجائهم ، والطعن عليهم ، والنيل منهم .

فالأُمويون ملوك لا يتمتعون بتوافر الشرائط التي يجب أن تجتمع لمن يخلف الرسول ﷺ في ولاية الأمة ، ومع ذلك فهم ملوك سوء ، وملوك السوء إن طالت أيام حكمهم ، كانت نكبة وبلاء على رعاياهم ، فيتمنون الخلاص منهم ، ومن عناء حكمهم ، وشذوذ سياستهم .

والأُمويون ، تبعاً لهذا — لا يحكمون الرعية المسلمة وفق ما أمر به الله ورسوله ، فقد عدلوا عن هدى كتاب الله وسنة نبيه ، وجاروا على حقوق المسلمين ، وانحرفوا عن جادة الدين ؛ ولذا فهم أهل أهواء وبدع وضلال ، يحلون ما حرم الله ، ويحرمون ما أحل الله ، يحلون قتل المسلم ، ويحرمون أكل التمرة المتهدلة .

بهذه المعانى هجا الكميث بن زيد بنى أمية ، في قوله (١) :

فَتَلَكَ مَلُوكُ السُّوءِ قَدْ طَالَ مَلِكُهُمْ فَحَتَّامَ حَتَّامِ الْعَنَاءِ الْمَطْوُلِ
رَضُوا بِفَعَالِ السُّوءِ مِنْ أَمْرِ دِينِهِمْ فَقَدْ أُتِمُوا طَوْرًا عِدَاءً وَأَتَكَلُّوا
لَهُمْ كُلُّ عَامٍ بِذَعَةٍ يُحَدِّثُونَهَا أَرْزَلُوا بِهَا أَتْبَاعَهُمْ ثُمَّ أَوْحَلُوا
كَمَا ابْتَدَعَ الرَّهْبَانُ مَا لَمْ يَجِئْ بِهِ كِتَابٌ وَلَا وَحْيٌ مِنَ اللَّهِ مُنْزَلٌ
تَجِلُّ دِمَاءُ الْمُسْلِمِينَ لَدَيْهِمْ وَيَحْرُمُ طَلْعُ التَّخْلِةِ الْمُتَدَلِّ
فِيَارِبُّ هَلْ إِلَّا بِكَ النَّصْرُ يُرْتَجَى عَلَيْهِمْ وَهَلْ إِلَّا عَلَيْكَ الْمَعْوَلُ

وحملة الكميت هذه على الأمويين ، بسلب كثير من الصفات الدينية ، التي يجب أن يتحلى بها كل مسلم ، فضلا عن حكام المسلمين ، إنما هي في حقيقتها دعوة للثورة عليهم ؛ لأنهم خارجون على الدين ، محرفون لتعاليمه ؛ ولذا كان هذا الهجاء سياسيا بالمقام الأول .

ويتضح هذا الاتجاه السياسي في الهجاء الشيعي ، من هذه المقارنة التي يمزج فيها الكميت بين مدحه لأهل البيت ، وسخطه على بنى أمية ، ويقارن بين سياسة هؤلاء وأولئك في الرعية ، وسلوكها في النظر إلى مصالح المسلمين ، مقارنة يروم من وراءها غرضا سياسيا ، هو تهييج جمهور الناس للثورة على الأمويين ، وتقويض دولتهم ، دولة الظلمة ، المثقلين بالآثام ، يقول الكميت (١) :

بَلْ هَوَايَ الَّذِي أُجَنِّ وَأُيْدِي لِبْنَى هَاشِمٍ فُرُوعَ الْأَنَامِ
لِلقَرِيبِينَ مِنْ نَدَى وَالْبَعِيدِ مِنْ مِنَ الْجَوْرِ فِي غُرَى الْأَحْكَامِ
رَاجِحِي الْوِزْنَ كَامِلِي الْعَدْلَ فِي السِّدِّ حِرَّةَ طَبِئِينَ بِالْأُمُورِ الْعِظَامِ
سَاسَةً لَا كَمَنْ يَرَى رِعْيَةَ النَّاسِ سِي سَوَاءٍ وَرِعْيَةَ الْأَنْعَامِ
لَا كَعَبْدِ الْمَلِكِ أَوْ كَوَلِيدِ أَوْ سُلَيْمَانَ بَعْدُ أَوْ كَهَشَامِ
رَأْيِهِ فِيهِمْ كَرَأْيِ ذَوِي الثَّلَّةِ فِي الثَّائِجَاتِ جُنْحِ الظَّلَامِ

(١) المصدر السابق ٢٣ — ٢٧ . طين : حاذقين ماهرين . الثلة هنا : جماعة الغنم . الثائجات : جمع ثائجة ، وهي الصائحة من الضأن . جنح الظلام : وقت الظلام . ذو الخة : السمين : نعقا : أى ينقع نعقا ، والمعنى : يصيح بها . الدعدة : دعاء الغنم . البهام : أولاد الضأن والمعز : الزوامل : جمع زاملة ، وهي الناقة التي يحمل عليها الناع .

جَزْ ذِي الصُّوفِ وانتقاءً لذى الـ مُنْحَةً نَعْقًا ودُعْدُعًا بِالْيَهَامِ
وَهُم الْأَوْفُونَ بالناسِ فى الرَأْفَةِ والأَحْلَمُونَ فى الْأَحْلَامِ
أَخَذُوا الْقَصْدَ واستقاموا عليه حين مَالَتْ زَوَامِلُ الْآثَامِ

هذه مقارنة صريحة ، يقرر فيها الكميت عدل أئمة الشيعة ، بنفى الجور والظلم عنهم ، بينما يصمم بنى أمية بأنهم جائرون ظالمون ، يسوسون الرعية سياسة غاشمة ، تقوم على استخلاص كل ما يملكون ويدخرون ، وكأن الرعية غنم لهم ، يجزون صوفها ، ويشربون ألبانها ، ويأكلون لحومها ، وفى الوقت نفسه لا يرحمون ، حتى صغارها من قهرهم ، وزجرهم ، فهم الظلمة الغاشمون ، أما بنو هاشم فهم يبتغون الرحمة والعدل بين الناس ، وقد استقاموا على جادة الدين ، بينما حاد عنه بنو أمية ، وهم مثقلون بالخطايا والآثام . ولا تختلف نظرة الشيعة إلى الخوارج كثيرا عن رأيهم فى بنى أمية ، غير أن الخوارج لم يثبوا على الخلافة ، ولم يغتصبوا حق أئمة الشيعة فى الولاية لأنفسهم ، كما فعل الأمويون ، ولم ييطشوا بالشيعة وأئمتهم بطش الأمويين ، ولكنهم بموقفهم المناهض لآل البيت ، الخارج على طاعتهم ، ورأيهم المصمم على أن عليا وذريته وأتباعهم كفار يحل قتالهم وقتلهم ، استحقوا أن يبادلهم الشيعة عداء بعداء ، وأن يرى الشيعة فيهم ، ما يروونه هم فى الشيعة .

وترجم شعراء الشيعة هذه النظرة إلى الخوارج فى العديد من صور الهجاء ، التى تجردهم من شرف الانتماء إلى ملة الإسلام ، وتقدمهم إلى الناس بوصفهم طائفة مارقة ، أعماها ضلالها عن رؤية الحق ، واتباع سبيله ، طاغية باغية ، لاترعى لدين الله حرمة ، وليس بينها وبينه عهد ولاذمة .. إلى غير ذلك مما أغدقه شعر الشيعة على الخوارج إغداقا ، وأضافوهم به إلى أعدائهم الأمويين ، فكلهم سواء فى المروق من دين الله ، والعبث بحدوده . فهذا عدى بن حاتم الطائى ^(١) — صاحب الإمام على وأحد من أخلصوا فى التشيع له — يتقدم ليقف بين يدى إمامه ، يوم أن خرج من الكوفة لقتال الخوارج بالنهروان واصفا هذه الطائفة ^(٢) بالطغيان ، والعمى عن الحق ، والمروق من الدين ، والعداء لله ورسوله وآل بيت نبيه ، قائلا :

(١) قتله معاوية بن أبى سفيان سنة ٥٣ هـ وهو أول من قتل صبرا فى الإسلام .

(٢) الفرق بين الفرق ٥٨ . كاع القوم : جنبوا ، ورجل كاع : جبان (اللسان — كيع) .

نسیر إذا ما کاع قوم وبلدوا برايات صدق کالنسور الخوافق
إلى شر قوم من شرة تحربوا وعادوا إله الناس رب المشارق
طغاة عمارة مارقين عن الهدى وكل ينفي قوله غير صادق
وفينا على ذو المعالي يقودنا إليهم جهاراً بالسيف البوارق

ولما كان عبد الله بن الزبير قد ادعى حق الخلافة لنفسه ، وجحد حق الهاشميين المعاصرين له فيها ، فقد صار بذلك — في نظر الشيعة — غاصبا كالأمويين ، جديرا بلعنات الشيعة وغضبهم ، وزاد من حدة هذا الغضب سياسته العنيفة مع بنى هاشم (١) .

ومن ثم انطلقت ألسنة الشعراء الشيعة في ابن الزبير وأنصاره ، تصفه بادعاء ماليس له ، وتهكم به ، وتسخر من ادعائه ، مما يخلعه على نفسه من ألقاب .

فحين قام ابن الزبير بمكة ، لقب نفسه (العائذ ببيت الله) ، وادعى الحفاظ على حرمة هذا البيت ، ثم إنه حاصر محمد بن الحنفية ، إمام الشيعة الكيسانية ، داخل الحرم ، في الموسم (٦٦ هـ) ، ويقال إنه حبسه ومعه خمسة عشر رجلا من بنى هاشم ، وأراد حملهم على البيعة له ، وهددهم بالتحريق إن لم يفعلوا (٢) ، فقال كثير متوعدا ساخرًا (٣) .

(١) راجع ص ٣٠ — ٣١ من هذه الدراسة .

(٢) هكذا يخلط بعض الرواة بين حادثتي الحبس والتهديد بالنار ، فيجعلونهما حادثا واحدا ، ضحيتما معا ابن الحنفية ، والذي يظهر أن الحادثين منفصلين ، وأن الذي كان في حبس ابن الزبير هو الحسن بن محمد بن الحنفية ، حبسه ابن الزبير في سجن عارم — كما في مروج الذهب ، وفيه « سجن غارم — بالغين » وهو حبس موحش مظلم ، وأراد قتله ، فعمل الحيلة حتى فر من السجن ، وتعمف الطريق على الجبال حتى أتى ميني ، وبها أبوه محمد بن الحنفية ، وأن شعر كثير الآتي إنما قاله في هذه الحادثة (مروج الذهب ٢ / ١٠٠ — البهية —) أما حادث التهديد بالنار فقد وقع لابن الحنفية لما دخل الحرم في موسم الحج سنة ٦٦ هـ ، محاصره ابن الزبير ، ولم يخلصه من الحصار إلا جند المختار الثقفي لما استنجد به ابن الحنفية (انظر : الشيعة والحوارج ٢١٦) .

(٣) ديوانه ٢٢٤ ومروج الذهب ٢ / ١٠٠ . خبيب وثابت وحمزة : أبناء عبد الله بن الزبير . الحداء : جمع حداة ، وهي الطائر المعروف .

لك الوليُّ من عيني حبيب^(١) وثابت^(٢) وحمة^(٣) أشباه الحداءِ التَّوأمِ
 تحبُّرٌ من لاقيتَ أنَّكَ عائِذٌ بل العائِذُ المظلوم في سجنِ عَارِمْ
 ومن يَر هذا الشيخ بالخيف من مني من الناس يعلم أنه غير ظالم
 سمى نبي الله وابن وصيه وفكَّك أغلالٍ وقاضى مغارم
 فمن الجلي أن كثيراً يتهم بابن الزبير ، الذى يدعى أنه معتز بالحرم ، بينما
 ينتهك حرمة ، بتهديد قصاده ، وتفزع يعهم ، وهو الذى جعله الله مثابة للناس وأمناً ،
 وحرَم أن يفزع طيره ، فضلاً عن التهديد بإرهاق الأرواح فيه ؟!
 كما يتهم الشاعر بأبناء عبد الله بن الزبير ، حبيب ، وثابت ، وحمة ، الذين
 تشبه عيونهم عيون الحداء .

وينحوي من هذا يتهم السيد الحميرى بابن الزبير ، حينما مرت عليه بالأهواز
 أسماء بنت يعقوب ، من ولد عبد الله بن الزبير ، وقد زفت إلى إسماعيل بن عبد الله بن
 عباس ، فيرميه بأنه استحل حرمة الكعبة ، حتى استحق أن يلقب عند أهل الشام
 — (المُحِل) لتعريضه الكعبة للحروب ، لما أقام فيها ^(٤) :

مَرَّتْ تُرْفَ عَلَى بَغْلَةٍ وفوق رِحَالِهَا قُبَّةُ
 زُبَيْرِيَّةٍ من بنات الذى أحلَّ الحرام من الكعبة

غير أن دولة ابن الزبير لم تعمّر طويلاً — كما مر — فقل نصيبها من هجاء
 الشيعة ، وإن لم تحرم منه ، ومن لدعاته .

هـ : شعر الدعاية لعقائد الشيعة (الشعر المذهبي) :

كان للمذاهب الشيعية وعقائدها نصيب من الشعر الشيعي ؛ إذ لم ينس
 شعراء الشيعة ، أن يروّجوا لمذهبهم ، وينطقوا أشعارهم بعقائده ، متحمسين لها ،
 معربين عن اعتقادهم الراسخ فيها .

(١) قال المسعودى : به كان أبوه يكنى (مروج الذهب — البهية — ٢ / ٩٥)

(٢) كان هو وحبيب من أم واحدة هي تماضر بنت منظور بن زيان ، ولما ماتت تزوج ابن الزبير أختها ،
 أم هاشم ، فولدت له : هاشما وحمة وعباداً (الأغاني ٨ / ١٨٣) .

(٣) ولده أبوه العراق سنة ٦٧ أو ٦٨ هـ ثم عزله وأعاد أخاه مصعباً لإمارته ، وللفرزدق شعر في مدح
 حمزة . انظر : الأغاني ١٩ / ١٠ ، ١١ ، والعبير للذهبي ١ / ٧٦ ، ٧٧ وتزيين الأسواق ١٥٥ ، والاشتقاق ٩٤
 والكامل لابن الأثير ٤ / ٢٧٨ (بيروت) .

(٤) رسائل الجاحظ ٢ / ٣٦١ والأغاني ٦ / ٣٠ ، ٧ / ١١

وهم بهذا يثرون الشعر العربى ، بلون جديد ، لم يظهر فيه ، قبل هذا العصر الأموى ، يمكن أن نطلق عليه (الشعر الدينى المذهبى) .

وقد يقال : إن الشعر الجاهلى لم يخل من الأفكار الدينية ، التى تكشف عن بعض المعتقدات ، التى كان الجاهليون يدينون بها ، سواء أكانت وثنية ، أم مسيحية ، أم يهودية ^(١) غير أن هذه الأفكار إنما كانت ترد فى أشعار الجاهليين عرضاً ، لم يقصد إليها قصداً ، فما كانت الحياة الدينية الجاهلية عنصراً قوى التأثير فى الحياة الاجتماعية أو الاقتصادية للبيئة العربية فى العصر الجاهلى ، بحيث يمكننا القول بأن ظهور الناقة والفرس فى هذا الشعر العربى ، كان أقوى بكثير من ظهور الروح الدينية ^(٢) .

ثم أن هذه الأفكار الدينية فى الشعر الجاهلى ليست وليدة مذهبية دينية ، أو عقائد واضحة محددة ، بحيث تعد فى باب الدعاية المذهبية الدينية .

يضاف إلى هذا كله أن هذه الأفكار كانت خالية تماماً من كل غرض سياسى ، بمعنى أنها لم تكن إطلاقاً بالدعوة إلى مذهب دينى بعينه ، ومحاولة كسب الأنصار ، وتجميع القلوب حول عقيدة سياسية بذاتها .

ويقال مثل هذا فيما كان من شعر يحمل عناصر دينية فى صدر الإسلام ؛ إذ لم يكن الخلاف السياسى المذهبى قد ثار حول عقائد الدين ؛ ولذا لا يمكن القول بأن الدعاية السياسية كانت غرضاً من أغراض الشعر فى صدر الإسلام ، وإنما كان هذا كله من غرض الشعر المذهبى السياسى فى العصر الأموى ، لاقبله .

ومن جهة أخرى ، فإن هذا الشعر المذهبى يعكس قيمة فكرية ، لم تتح للشعر العربى من قبل ، فهو وليد نهضة فكرية ، قامت حول التفكير فى عقائد الدين الإسلامى ، وتأثرت بغير قليل من الآراء الدخيلة على العقيدة الإسلامية ، وقد تسربت هذه الآراء إليها على يد بعض من دخل فى الإسلام من أهل الديانات الأخرى ، ونقول : (بعض) ، حتى

(١) انظر فى تأثر الشعر الجاهلى بأفكار من هذه الديانات : كتابنا : أمراء الشعر فى العصر الجاهلى ص ٨٠

— ٨٢ ، ٨٤ — ٨٥ ، ٨٩ — ٩٠

(٢) للاستزادة راجع : دراسات فى الشعر الجاهلى (د. أبو الأنوار) ٧٩ — ٨٠

لأنقع في خطأ التعميم ، الذى ذهب إليه الأستاذ أحمد أمين ، في قوله : « أتظن أن الفارسي ، أو السوري النصراني ، أو الروماني ، أو القبطي ، إذا دخل في الإسلام انحلت منه كل العقائد التي ورثها من آبائه وأجداده قرونا ، وفهم الإسلام كما يريد الإسلام من تعاليمه ؟ كلا ، لا يمكن أن يكون ذلك ، وعلم النفس يأباه كل الإباء ، فللفارسي صورة للإله ، غير صورة النصراني الروماني ، وهما غير صورة النصراني المصري ، وللألفاظ المستعملة في الديانات (جهنم ، والجنة ، وإبليس ، والملائكة ، والآخرة ، والنبى ، ونحو ذلك) معان عند كل من هؤلاء ، تخالف المعانى التي يتصورها الآخر ، فلا تظن أن هؤلاء الذين دخلوا في الإسلام ، من الأمم الأخرى فهموه بخلافه ، كما فهمه العربى ، حتى المخلصون منهم في اعتناقهم الإسلام ، إنما فهمه كل قوم مشوبا بكثير من تقاليدهم الدينية القديمة ... » (١) .

وهذا الرأى — كما نرى — لا يخلو من تعميم غير دقيق ، وتجن غير قليل ، على من دخل في الإسلام من أبناء الأمم ذات الديانات القديمة ، فالتاريخ الإسلامى يشهد لكثرة منهم بحسن إسلامهم ، واطراح عقائد آبائهم القديمة ، خارج عقولهم ووجدانهم ، حقا هناك قلة من مسلمى هذه الأمم ، هى التى يصدق عليها رأى الأستاذ أحمد أمين ، على أن هذا الذى يقول به ، ليس قاصرا على بعض أبناء الأمم غير العربية ، فمن العرب أيضا من ظل متأثرا ببعض عادات الديانة الوثنية وعقائدها .

وإذن ، فليس من قبيل الادعاء أو المبالغة ، أن نعد الشعر المعبر عن عقائد دينية مذهبية ، نغمة حظيت بها قيامة الشعر العربى ، تحت تأثير ظروف السياسة في العصر الأموى .

ولنتقدم الآن لدراسة نماذج من هذا الشعر ، ليتضح ماذكرناه عنه .

مر بنا قول الكميت في الأئمة الهاشميين :

بل هوأى الذى أجن وأبدى لبنى هاشم فروع الأنام
للقربين من ندى والبعيدى من من الجور فى عرى الأحكام
والمصبيين باب مأخطأ النأ س ومُرسى قواعد الإسلام

وَالْعَيُوثَ الَّذِينَ إِنْ أُمِّحِلَ النَّاسُ فَمَاوَى حَوَاضِنَ الْإِيمَانِ
 رَاجِحِي الْوِزْنَ كَامِلِي الْعَدْلَ فِي السَّيِّئِ حَيْرَةَ طَائِفٍ بِالْأُمُورِ الْعِظَامِ
 غَالِبِيْنَ هَاشِمِيْنَ فِي الْعِلْمِ — م رَبُّوْا مِنْ عَطِيَّةِ الْعِلَامِ

فهو يصفهم بكل ماتشرطه الشيعة الزيدية في الإمام من عدل ، وعلم ، وزهد ، وتقوى ، وورع ، وشجاعة ، وبر ، ورحمة ... وغيرها ، وهذه الصفات تتردد كثيرا في شعر الكميث يكررها ولا يمل تكرارها ، حتى يثبت عقائد المذهب في نفوس أتباعه من جهة ، ونفوس غير الأتباع من جهة أخرى .

كما مر بنا قوله في مقام الاحتجاج لحق علي بن أبي طالب في الولاية :
 وَيَوْمَ الدُّوْحِ دُوحٌ غَدِيرٌ حُمٌّ أَبَانَ لَهُ الْوِلَايَةَ لَوْ أُطِيعَا
 وَلَكِنَّ الرِّجَالَ تَبَايَعُوهَا فَلَمْ أَرْ مِثْلَهَا خَطَرًا مِيعَا
 فَلَمْ أَبْلُغْ بِهَا لَعْنًا وَلَكِنْ أَسَاءَ بِذَلِكَ أَوْلَهُمْ صَنِيعَا
 فَصَارَ بِذَلِكَ أَقْرَبَهُمْ لِعَدْلٍ إِلَى جَوْرِ وَأَحْفَظَهُمْ مَضِيْعَا

فهو يصدر فيما يقول هنا ، عن عقيدة مذهبية تقول بها الشيعة الزيدية ، ترى جواز إمامة المفضل مع وجود الفاضل ؛ ولذا فهو يرفض أن يلعن أبا بكر وعمر وعثمان ، ومن بايعهم ، رعاية لهذه العقيدة ، فهم مخطئون مسيئون فقط .

كما أنه يشير إلى عقيدة أخرى تشارك فيها الزيدية غيرها من الفرق ، وهي القول بالوصية من الرسول ﷺ لعلي بالولاية ، يوم غدير خم .

ويردد الكميث هذه الأفكار ، في قوله السابق :
 أَهْوَى عَلِيًّا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَلَا أَرْضَى بِشْتَمِ أَبِي بَكْرٍ وَلَا عَمْرَا
 وَلَا أَقُولُ وَإِنْ لَمْ يَعْطِيَا فَدَكَاً بِنْتَ الرَّسُولِ وَلَا مِيرَاثَهُ كَفْرَا
 اللَّهُ يَعْلَمُ مَاذَا يَأْتِيَانِ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عَذْرِ إِذَا اعْتَذَرَا

فهو يدور حول العقيدة التي يستمدّها من مذهبه ، والتي أشرنا إليها منذ قليل ، وفي هاشميات الكميث ، شعر كثير يكاد ينظم عقائد الشيعة العامة ، وعقائد الشيعة الزيدية أيضا .

أما شعراء الكيسانية فيردون في أشعارهم عقائد مذهبهم ، التي لا تخلوا من عناصر دينية دخيلة على العقيدة الإسلامية .

وأكثر عقائدهم دورانا في أشعارهم ، عقيدة رجعة إمامهم محمد بن الحنفية ، وأنه المهدي الذي سيظهر ليلاً الأرض عدلاً ، بعد أن ملكت جوراً .
من ذلك قول كثير ^(١) :

ألا إن الأئمة من قرش ولاية الحق أربعة سواء
على والثلاثة من بنيه هم الأسباط ليس بهم خفاء
فسيبسط سبط إيمان وبر وسيبسط غيظه كزبلاء
وسيبسط لآتراه العين حتي يقود الخيل يتبعها اللواء
تغيّب لا يرى عنهم زماناً يرضوى عنده غسل وماء

وتتردد هذه العقيدة في شعر السيد الحميري ^(٢) — وهو من مخضرمي الدولتين —
من ذلك قوله : ^(٣)

ألا قل للوصي فدتك نفسي أطلت بذلك الجبل المقاما
أضر بمعشر والوك منا وسموك الخليفة والإماما
وعادوا فيك أهل الأرض طراً مغيبك عنهم سبعين عاما
وماذاق ابن خولة ^(٤) طعم موت ولاوارث له أرض عظاما

(١) الأغاني ٨ / ٣١ و عيون الأخبار ٢ / ١٤٤ ومقالات الإسلاميين ١ / ٩١ ومروج الذهب ٢ / ١٠١ (البية) .

(٢) أبو هاشم إسماعيل بن محمد بن يزيد بن مفرغ الحميري ، والسيد لقب له ، وجده يزيد بن مفرغ الشاعر ، والسيد شاعر مجيد ، حسن الألفاظ ، ولولا مذهبه العقدي ، لتقدم بشعره عند العلماء بالشعر قديماً ، يقول الأصمعي : « ماأسلكه لطريق الفحول ، لولا مذهبه » ويقول أبو الفرج الأصفهاني عنه : « شاعر متقدم مطبوع ، يقال : إن أكثر الناس شعرا في الجاهلية والإسلام ثلاثة : بشار ، وأبو العتاهية ، والسيد ، فإنه لايعلم أن أحدا قدر على تحصيل شعر أحد منهم أجمع ، وإنما مات ذكره ، وهجر الناس شعره ، لما كان يفرط فيه من سب أصحاب رسول الله ﷺ وأزواجه في شعره » (الأغاني ٧ / ٢ ومابعدها) .

(٣) عيون الأخبار ٢ / ١٤٤ ومروج الذهب ٢ / ١٠١ (البية) والفرق بين الفرق ٣٠ وفيه : « مقامك عندهم ستين عاما » .

(٤) أم محمد بن الحنفية ، اختلف في نسبها ، فقيل إنها : خولة بنت إياس الحنفي ، وقيل : ابنة جعفر بن قيس بن مسلمة الحنفي (انظر : مروج الذهب ٢ / ٩٢ — البية) .

لقد أسمى بمورق شعب رضوى تراجع الملائكة الكلاما
وإن له لرزقاً من إدام وأشرية يُعل بها الطعاما

إنها مناجاة من هذا الشاعر لإمامه ، لم يقصد بها إلا بث اعتقاده فيه ، وإيمانه بهذا الاعتقاد .

فأيات السيد الحميرى هذه خالصة للتعبير عن هذه العقائد المذهبية ، فإمامه ثبتت له الولاية بالوصية ، وهو حي لم يمّت ، متغيب عن الأنظار منذ سبعين عاما ، أو ستين عاما ، محتف بشعب جبل رضوى الخصب ، والملائكة تهبط إليه وتبادل الكلام — ولست أدري إن كان يعنى بهذا أن الوحي ينزل عليه هناك ؟! — ورزقة يجري عليه من طعام وشراب .

وكل هذه العناصر المذهبية ، لامت إلى الإسلام بصلة ، ولكن الشاعر يعتقد صوابها ، وهو يريد أيضا أن يثبها في عقول الآخرين ليؤمنوا بها ، كما آمن ، ومن هنا يكتسب هذا الضرب من الشعر لونه الدعائى المذهبى .

ولهذا الشاعر نفسه شعر يتشوق فيه لرجعة إمامه ابن الحنفية ، ويتعجل ظهوره ، ويؤكد أنه حي يرزق : (١)

ياشعب رضوى مالمين بك لايرى وبنا إليه من الصبابة أولق
حتى متى وإلى متى ومتى المدى يابن الوصى وأنت حي ترزق
أرأيت كيف يلح الشاعر على هذه العقائد في صور مختلفة من التعابير ، ليثبتها في أذهان أتباع المذهب ، وغيرهم .

ويتولى كثير التعبير عن هذه العقيدة الغالية ، فيقول (٢) :

برئت إلى الإله من ابن أروى (٣) ومن دين الخوارج أجمعينا
ومن عمر برئت ومن عتيق غداة دعى أمير المؤمنيننا

(١) مروج الذهب ٢ / ١٠٢ (البهية) وانظر : طبقات ابن المعتز ٣٣

(٢) الفرق بين الفرق ٢٩

(٣) ابن أروى هو : عثمان بن عفان ، نسب الشاعر إلى أمه وينسب إليها كثيرا في الشعر انظر مثلا : مروج الذهب ١ / ٣٥٦ عتيق : كنية لأبى بكر .

كما يجوز في مذهبيهم سب أزواج الرسول ﷺ والطعن عليهم ، والسيد الحميري يعبر عن هذه العقيدة في قوله — معرّضاً بالأمويين وبالسيدة عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها: (١)

أين التطرف بالولاء وبالهوى إلى الكواذب من بروق الخلب
إلى أمية أم إلى الشيعة التي جاءت على الجمل الخدب الشوقب
تهوى من البلد الحرام فنهت بعد الهدؤ كلاب أهل الحوآب (٢)

ولعلنا لاحظنا الأسلوب الساخر الذي يتحدث به الشاعر عن أم المؤمنين في البيتين الأخيرين ، والتعبير غير اللائق ، الذي جمع فيه بينها وبين بنى أمية « الكواذب من بروق الخلب » في البيت الأول .

وللسيد الحميري أيضاً أبيات يسب فيها بعض الصحابة ، وأبناءهم ممن قعدوا عن بيعه على ، ويرميهم بالصلف ، والحسد لعلّى ، والجحود لحق الله ، والجهل ، والصدود عن صراط الله ، وأنهم أوغاد !؟ (٣)

* * *

بعد هذه المعاشاة للشعر الشيعة السياسى فى مختلف أغراضه ومناحيه ، قد نستطيع القول ، بأن هذا الشعر قد نهض برسائله نحو الأئمة ومذاهبيهم ، والدفاع عنهم والدعاية لهم ، وأنه بلغ من ذلك كله ماأرادوا منه ، وأرضاهم به .

(١) طبقات ابن المعتز ٣٣ . لخدب الشوقب : البعير الشديد الطويل . الحوآب : ماء على طريق البصرة . الخلب : السحاب الذى لايمطر .

(٢) كانت عائشة رضى الله عنها ومن معها قد انتهوا ليلا ، فى طريقهم إلى البصرة على ماء لبنى كلاب يعرف بالحوآب عليه الناس من بنى كلاب ، فعوت كلابهم على الركب ، فقالت : مااسم هذا الموضع ؟ فقال لها سائق جملها : الحوآب ، فذكرت أن الرسول ﷺ قال لنسائه : « كأنى بإحداكن ، وقد نبحتها كلاب الحوآب » ثم قال لعائشة : « إياك أن تكونيها » فقالت : ردونى ، فأقسموا لها بالله ماهذا الحوآب ، وأن السائق غلط ، وشهد على ذلك خمسون ، فكانت هذه أول شهادة زور فى الإسلام . انظر : مروج الذهب ٢ / ٣٣٦ (السعادة) .

(٣) انظرها فى : مروج الذهب ٢ / ٦٢ (البية) .

و — نظرات فنية في شعر الشيعة السياسي :

من خلال ماقدمنا من نصوص شعر الشيعة السياسي ، ودراستها وتحليلها ، يمكن أن نقف على أهم الجوانب الفنية ، التي تميز بها هذا الشعر ، أو كانت — على الأقل — من الملامح البارزة فيه ، حتى نستبين قيمته الفنية ، بعد أن عرفنا مدى أهميته التاريخية ، ونضعه في موضعه من حركة تطور الشعر العربي ، في موكبه التاريخي الطويل .

ويمكن تلخيص ملامحه الفنية في النقاط التالية :

١ — ظهور أسلوب الجدل والبرهنة ، واعتماده على الحجج القوية ، والأدلة البارة ، وفاق أكام هذا الأسلوب الجديد في الشعر العربي هو الكميت بن زيد — كما مر — (١) .

ونستطيع أن نلاحظ في يسر أن قيمة هذا الشعر الفنية ، أقل من قيمته التاريخية والفكرية ؛ لعنايته بالاستدلال ، والوقائع ، والنظريات ، أكثر من تفتاته إلى جودة التعبير ورقته ، أو جمال الأسلوب والأداء ، أو التألق في انتقاء الألفاظ ، وصوغ العبارات ، واختيار الصور .

ومن اليسير كذلك أن نرد هذه الظاهرة الفنية إلى علتها ، إذا عرفنا أن الكميت ابن زيد — مبتدع هذا الأسلوب الشعري — كان يجمع بين القدرة على الشعر ، والقدرة على الخطابة كما يقول الجاحظ (٢) ، ولاشك أن التقاء الخطابة والشعر في لسان الكميت ، طبع شعره — بخاصة في هذا الأسلوب الجدلي — بطابع خطابي ملحوظ ؛ إذ يغلب عليه الأسلوب التقريري ، الذي هو سمة من سمات الأسلوب النثري ، كما جعل غايته الإقناع العقلي ، لا التأثير العاطفي . غالباً ، وقد لفتت هذه السمة الفنية في شعر الكميت الجدلي أنظار بعض قدامى العلماء بالشعر ونقدته ومبدعيه ، فيروى أن حماد الراوية قال للكميت : « إنما شعرك خطب (٣) » ، وأن الفرزدق الشاعر الأموي الفحل قال له ، في معرض الحكم على شعره : « أنت خطيب » (٤) .

(١) راجع ص ٩٢ ، ٩٣ ، ١٠١ من هذه الدراسة .

(٢) البيان والتبيين ١ / ١٣٤ ، ٤ / ٨٤

(٣) الموشح ١٩٦

(٤) أمالي المرتضى ١ / ٤٤

وقد نضيف إلى هذا أن طبيعة الموضوع الذى كان الكميت يعالجه فى شعر الاحتجاج والجدل ، لايتيح للشاعر كثيرا مجال التفنن ، ويمنحه السعة فى اصطلياد الصور التخيلية ، والعبارات الأدبية ، لاشتغاله بالبحث عن الأدلة ، وتركيب الأقيسة ، ووضع المقدمات ، واستخلاص النتائج .

ومع ذلك يبقى للكميت فضل اعتساف هذا الأسلوب ، وإخضاعه للقبول الشعري ، حتى عد إضافة جديدة لأساليب الشعر وأغراضه .

٢ — حرارة العاطفة ، وصدق الباعث : ذلك أن شعراء الشيعة ، كانوا يصدرون فيما يقولون عن اقتناع صادق ، وعقيدة راسخة ، وحب ممكن لأئمتهم ، وإخلاص تام لمذهبهم وعقائدهم .

وأشعارهم التى أوردناها خير شاهد على توفر هذه الظاهرة الفنية فى شعرهم ، فإن أردنا أن نظاهر الرواية التاريخية الشعر فى هذا المقام ، اكتفينا بما روى من قول الكميت بن زيد ، لأبى جعفر ، محمد بن على بن الحسين ، حين قدم له ألف دينار وكسوة ، جائزة على أشعاره فى آل البيت : « والله ما أحببتكم للدنيا ، ولو أردت الدنيا لأنت من هى فى يديه (يعنى بنى أمية أصحاب السلطان والمال) ، ولكنى أحببتكم للآخرة ، فأما الثياب التى أصابت أجسامكم فأنا أقبلها ؛ لبركاتنا ، وأما المال فلا أقبله ، فرده ، وقبل الثياب » ^(١) ، وقوله أيضا لعبد الله بن الحسن بن على ، وقد أجازته على شعر فى آل البيت بضبيعة قيمتها أربعة آلاف دينار ، وسلمه كتابها : « بأى أنت وأمى ، إنى كنت أقول الشعر فى غيركم أريد بذلك الدنيا والمال ، ولا والله ماقلت فيكم إلا لله ، وماكنت لآخذ على شئ جعلته لله مالا ولا ثمنا » ^(٢) .

يضاف إلى ذلك أن الاضطهاد الذى تحمله أهل البيت ، وتحمله معهم أنصارهم ، قد عمل على زيادة العنصر الوجدانى فى أشعارهم ، وبخاصة تلك التى تدور حول حب أهل البيت ، والولاء لهم ، والإشادة بمناقبهم ، أو التى تعبر عن سخطهم على

(١) الأغاني ١٥ / ١١٨ ومعاهد التنصيص ٢ / ٢٧

(٢) مروج الذهب ٢ / ١٩٥ (البهية) وانظر رواية أخرى لموقف آخر فى المصدر نفسه ٢ / ١٩٦

الأعداء ، الغاصبين ، أو تفيض باللوعة والبكاء على قتلاهم ، ويظهر هذا جليا فيما أوردنا من نماذج شعرهم ، في هذه الأغراض .

٣ — امتزاج العناصر السياسية بالعناصر الدينية في شعرهم ؛ إذ كان محور مذهبهم نظريتهم في الخلافة ، وهم يعتقدون أن منصب الخلافة ليس أمراً دنيوياً ، ولكنه جزء لا ينفصل من العقيدة الدينية نفسها ، فهي ركن من أركان الدين عندهم ، كما ذكرنا من قبل ؛ ولذا كثر في شعرهم التعبير عن أن الخلافة حق شرعى لأئمتهم ، كما حرصوا في إشادتهم بهؤلاء الأئمة على أن يسبغوا عليهم كثيرا من الصفات الدينية ، التي يرونها ضرورية للإمامة .

٤ — تنوع الأسلوب بتنوع الموضوعات : فهو مرة أسلوب هادئ رزين ، حين يسلك سبيل التقرير والاحتجاج العقلى أو الدينى (أبيات الكميت) ومرة أسلوب ناثر قوى مهتاج ، حين يغضب على الخصوم ، وينقم منهم ظلمهم واغتصابهم ، وثالثة أسلوب حزين باك مكلوم إذا صور نكباتهم ، وتفجع على قتلاهم ، وتحسر على حق أئمتهم المضائع ، أما القوة والفخامة والتدفق ، فهي سمات لشعرهم في الإشادة بأهل البيت وتمجيدهم .

٥ — يعد شعر الشيعة بعامة أدبا جديدا ، في كثير من موضوعاته ومعانيه ، فموضوعه سياسى مذهبى ، ومعانيه مستمدة من دعاوى الشيعة في مذهبهم ، وبعض أساليبه تعتمد على القرآن ، ولعل هذا التجديد ، في الموضوعات والمعاني ، هو الذى لفت نظر عبد الملك بن مروان — وكان بصيرا بالشعر — فقال لشعراء الأمويين المداحين ^(١) : يامعشر الشعراء تشبهوننا بالأسد ، والأسد أنجر ، وبالبحر ، والبحر أجاج ، وبالجبل والجبل أوعر ، ألا قلتم فينا ، كما قال أيمن بن خريم في بنى هاشم :
نهاركم مكابدةً وصومٌ وليلكم صلاةً واقتراء ..
(الآيات ، وقد مرت) .

وهذه لمحة ذكية من عبد الملك ، ففضلا عن جودة المدح بهذه المعاني ، فإنها أليق بمدح الخلفاء ، الذى كان يتوق إليه بنو أمية .

(١) ديوان المعاني ٢٦/١ ، وانظر : الأغاني ٦/٢١ .

شعر الأمويين :

يلاحظ المتتبع لشعر الشيعة في العصر الأموي ، أن الشعراء الذين انقطعوا لهم — أو كاودا — وأخلصوا الولاء لأئمتهم ومذاهبهم ، كانوا قليلين .

فإذا استثنينا كثير عزة ، والسيد الحميري ، شاعرني الكيسانية ، والكميت بن زيد ، المتشيع على مذهب الزيدية ، وأيمن بن خُرَيْم ، المحب لآل البيت بعامة ، لا نكاد نجد من الشعراء الفحول ، أو المعروفين ، من كان يخص آل البيت بولائه ، ويكثر القول في تأييد حقهم ، أو التعبير عن محبتهم ، والإشادة بهم ، كما فعل هؤلاء .

ويمكن تفسير ذلك بأن حظ آل البيت من الغروة والسلطان ، كان محدودا في هذا العصر ، مما قعد بهم عن اصطناع الشعراء ، الذين تستهويهم العطايا ، ويحرك لسانهم الأمل والرغبة في دنيا يصيبونها ، ولا أدل على ذلك من قول أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين للكميت بن زيد ^(١) : « ياكميت لو كان عندنا لأعطيناك ، ولكن لك ما قال رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت : لازلت مؤيدا بروح القدس ، ماذبيت عنا أهل البيت » .

وها هو ذا عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب يجمع مالا وحلياً من بعض رجال آل البيت ونسائهم للكميت ، ثم يقدمه له ، قائلا ^(٢) : « يا أبا المستهل : أتيناك بجهد المقل ، ونحن في دولة عدونا ... » .

حقا كان هناك من الشعراء من أسهم بقصيدتين ، أو قصيدة ، أو مُقْطَعَة ، أو أبيات قليلة في مدح آل البيت ، أو رثاء شهدائهم ، أو هجاء أعدائهم ، في مناسبات قليلة هزت عواطفه بالإعجاب بهم ، أو الحزن على ما أصابهم ، ثم لم يلبث أن شغل عنهم بدنياه ، وطبيعي أن يكثر أمثال هؤلاء الشعراء لكثرة ما تعرض له أهل البيت من عسف الأمويين وتنكيلهم .

ومع ذلك فقد كان الشعراء المقبلون على بنى أمية ، القائلون فيهم وفي دولتهم

(١) مروج الذهب ٢ / ١٩٥ (البهية)

(٢) المصدر السابق ٢ / ١٩

مايرضيهـم أكثر عدداً ، وأبرز شخصية من شعراء أهل البيت ؛ لأن المال كثير في خزائن الأمويين ، وهم يتصرفون فيه كما يخلو لهم ، غير متأنمين ، أو متحرجين ، أو مراعين لقواعد الإسلام في الإنفاق من بيت مال المسلمين ^(١) ، كما أن السلطة والسلطان في أيديهم ، وقد سخوا بهذا وذاك على كل ناعق بفضلهـم ، أو مؤيد لدولتهـم .

والروايات التاريخية والأدبية تحدثننا عن كثير من صور سخاء بنى أمية وعمالهـم ، في عطايا الشعراء وهباتهـم ، نجيزىء منها ببعضها :

روى أن أعرابيا من ضبة وفد على عبد الملك بن مروان ، وأنشده ^(٢) :

والله ماندرى إذا مافاتنا طلبٌ إليك من الذى نتطلبُ
فلقد ضربنا فى البلاد فلم نجد أحدا سواك إلى المكارم ينسبُ
فاصبر لعادتنا التى عودتنا أو لا فأرشدنا إلى من نذهب

فقال عبد الملك : إني إني ، وأمر له بألف دينار ، ووفد عليه فى العام التالى ، فأعطاه ألف دينار ، وفى العام الثالث ، أعطاه ثلاثة آلاف دينار ^(٣) ، ومدحه آخر فأمر له بجائزة وقطعة بالعراق ^(٤) .

ودخل الطرماح بن حكيم ، وهو من شعراء الخوارج ، على خالد بن عبد الله القسرى — عامل الأمويين على الكوفة — فأنشده أبياتا يعرض فيها بسوء حاله ^(٥) ، فأمر له بعشرين ألفا .

وكان الحجاج بن يوسف الثقفى يعطى الشعراء ، الذين كانوا يقصدونه بالعراق ، وفضل أحدهم مرة ، على الآخرين ، بألف درهم ؛ لأنه أعجب بيت قاله ^(٦) .

(١) ينسب إلى معاوية بن أبى سفيان أنه قال : « الأرض لله ، وأنا خليفة الله فما آخذ من مال الله فهو لى ،

وماتركت منه كان جائزاً لى ، وكان صعصعة ابن صوحان العبدى حاضرا فى مجلس معاوية الذى قال فيه هذا

الكلام ، فقال :

ثُمَّنِيكَ نَفْسُكَ مَالِيكَو ن جَهْلًا مَعَاوَى لَا تَأْتُم

انظر : مروج الذهب ٢ / ٧٩ (البهجة) .

(٢) أمالى القالى ٢ / ٢٨٧

(٣) المصدر السابق .

(٤) هو أعشى ربيعة كما سياتى . انظر : المصدر نفسه ٢ / ٢٧٠ ، وانظر : ديوان المعانى ١ / ٤٩

(٥) مرت ص ٨٦ من هذه الدراسة

(٦) أمالى القالى ٢ / ٢٦٦

لقد أغرى المال والجاه ، كثيرا من شعراء العصر ، فأقبلوا عليهم مخلصين أو متملقين طامعين ، لينتفعوا بمالهم وجاههم .

بخلاف شعراء أهل البيت ؛ إذ كانوا بميلهم إليهم إنما يرضون عواطفهم الدينية لاغير ، فضلا عن أنهم يتعرضون بذلك إلى سخط أصحاب السلطان ، ونقمتهم ، وما من شك في أن الناس إلى نعيم الدنيا وزينتها أميل ، وعلى إثثار السلامة أحرص . وينبغي أن لا نفهم من هذا ، أن حزب الأمويين قد خلت صفوفه ، وأقفر ميدانه من الشعراء المتحمسين له ، المخلصين في تحمسهم وولائهم لمبادئه .

فالتاريخ الأدبي يمدنا بأسماء عدد من الشعراء ، الذي كانوا منقطعين ، أو كالمنقطعين لبنى أمية ، من أمثال : الأخطل التغلبي ^(١) ، وعبد الله بن الزبير الأسدي ^(٢) ، وأبي صخر الهذلي ^(٣) ، وأبي العباس الأعمى ^(٤) ونُصيب بن

(١) أبو مالك غياث بن غوث بن الصلت بن طارقة ، يتصل نسبه بتغلب ، والأخطل لقب له ، أطلقه عليه كعب بن جعيل ، حين سمعه يهجو وهو غلام ، ومعناه : السفه ، وهو نصراني من أهل الجزيرة بالعراق ، في الطبقة الأولى من الشعراء الإسلاميين مع جرير والفرزدق ، وكان أسن من جرير ، وشعره يشبه شعر النابغة الذبياني — فيما ذكر أبو عبيدة — لصحة شعره . وهو شاعر الأمويين لما مدحهم بقصيدته المشهورة (خف القطين فراحوا منك أبو بكر) قال له عبد الملك بن مروان : أتريد أن أكتب إلى الآفاق أنك أشعر العرب ؟ وسماه : شاعر أمير المؤمنين ، وقال : لكل قوم شاعر ، وإن شاعر بني أمية الأخطل ، وله في الأمويين مدائح مروية ، وقال عنه جرير : هو أنعتنا للخمر والخمر الوحشية ، وفي رواية أن جريرا قال عنه : يجيد نعت الملوك ، وصيب صفة الخمر ، ويدو من شعر قاله الأخطل ، عندما حضرته الوفاة ، أنه مات قبل جرير والفرزدق ، أيام عبد الملك بن مروان ، ولكننا لم ننف على سنة وفاته . انظر : الأغاني ٧ / ٦١ وما بعدها ، ١٠ / ٢ ، وطبقات ابن سلام ٢٥٠ ، ٣٨٦ ، ٤٢١ ، والاشتقاق ١٠٦ ، ٣٣٨ ، والشعر والشعراء ١٨٩ ، والمؤتلف ٢١

(٢) أبو كثير عبد الله بن الزبير ، يتصل نسبه ببني أسد بن خزيمه ، فهو قرشي النسب ، شاعر كوفي المنشأ والمنزل ، من شيعة بني أمية ، وذوى الهوى فيهم ، والعصية لهم ، والنصرة على عدوهم ، أسره مصعب بن الزبير ، لما غلب على الكوفة ، ثم من عليه ووصله ، فمدحه ، وأكثر ، وانقطع إليه ، فلم يزل معه حتى قتل مصعب ، وأصيب ابن الزبير بالعمى في آخر عمره ، ومات في خلافة عبد الملك بن مروان . انظر : الأغاني ١٣ / ٣١ ، ومعاهد التنصيص ١٠٨ / ٢

(٣) أبو صخر عبد الله بن أسلم السهمي ، أحد بني سهم بن مرة بن معاوية بن هذيل ، من شعراء الدولة الأموية ، كان شديد الولاء لبني مروان ، مدح عبد الملك ، وعبد العزيز ابني مروان بمدائح كثيرة ، وله موقف مع ابن الزبير صارحه فيه بعدائه ، فأخذه وحبسه بسجن عارم ، ثم استوهبته هذيل ، ومن له خوولة من قريش في هذيل ، فأطلقه بعد سنة . انظر : الأغاني ٢١ / ٩٤ ، وخزانة الأدب ١ / ٥٥٥ (السلفية) ، وسمط اللآلئ ١ / ٣٩٩ ، والعيني على الخزانة ١ / ١٦٢ ، وشرح ديوان الحماسة ١ / ٣٢٧

(٤) هو السائب بن فروح مولى بني الذليل ، عرى بالولاء ، أصله من أذربيجان ، فهو من الشعراء الموالي ، ومن شعراء بني أمية المعدادين ، كان يقيم في مكة ، وله أشعار كثيرة في الإشادة ببني أمية ، وهجاء بني الزبير ، حتى نفاه ابن الزبير إلى الطائف . انظر : الأغاني ١٥ / ٥٧

رَبَّاح^(١) ، مَوْلَى عبد العزيز بن مروان ، وعدى بن الرقاع^(٢) ، وأعشى ربيعة^(٣) وغيرهم .

ومن هؤلاء من اعتر بهم بنو أمية أشد الاعتزاز ، لإخلاصهم الشديد في الموالاة لهم ، ونذكر في هذا المقام قول عبد الملك بن مروان للأخطل ، لما مدح بنى أمية بقصيدته المعروفة (خف القطين فراحوا منك أو بكروا) والتي يقول فيها عن بنى أمية :
حُشِدَ عَلَى الْحَقِّ عُيَافُ الْحُزْنِ أَنْفُ إِذَا أَلَمْتُ بِهِمْ مَكْرُوهَةٌ صَبَرُوا
شُمْسُ الْعَدَاوَةِ حَتَّى يُسْتَقَادَ لَهُمْ وَأَعْظُمُ النَّاسُ أَحْلَامًا إِذَا قَدَرُوا
« لكل قوم شاعر ، وإن شاعر بنى أمية الأخطل » ، وسماه : شاعر أمير المؤمنين .

وقوله لأعشى ربيعة ، لما دخل عليه وعنده ابنه الوليد وسليمان ، فقال له : يَا أَبَا الْمَغيرة ، مابقي من شعرك ؟ فقال : والله لقد ذهب أكثره ، وأنا الذى أقول :
وَفَضَّلْنِي فِي الشَّعْرِ وَالْعِلْمِ أَنَّنِي أَقُولُ عَلَى عِلْمٍ وَأَعْلَمُ مَا أَعْنِي
فَأَصْبَحْتُ إِذْ فَضَّلْتُ مَرَوَانَ وَابْنَهُ عَلَى النَّاسِ قَدْ فَضَّلْتُ خَيْرَ أَبِي وَابْنِي
« من يلومني على حب هذا ، وأمر له بجائزة وقطيعه بالعراق »^(٤) .

(١) أبو محجن ، أو أبو الحجناء نصيب بن رباح الشهير بالشاعر الزنجي كان أولاً مولى لرجل من كنانة يدعى راشد بن عبد العزى ثم لما اشتهر بالغزل ، خشي مولاه أن يشب بنساء قومه فباعه ، واشتراه عبد العزيز بن مروان وأعتقه ، وهو شاعر أموى فحل مقدم في المدح والنسيب ، وكان يتعفف في غزله ، وهو القائل :
وَبِى كَرَمٍ عَنِ الْفَحْشَاءِ نَاءٍ كَبُعدِ الْأَرْضِ عَنِ جَوْ السَّمَاءِ

وله مهاجاة مع الفرزق مروية ، توفي سنة ١١١ هـ ، أو ١١٣ هـ ، انظر : الأغاني ١ / ١٢٥ وأمالى الزجاجي ٣١ والموشح ١٨٩ وسقط اللال ١ / ٢٩١ .

(٢) أبو داود عدى بن زيد بن مالك بن عدى بن الرقاع العاملى ، من بنى الحارث (وهو عاملة) وعاملة حيمن قضاعة ، شاعر محسن ، عده ابن سلام في الطبقة السابعة من فحول الإسلاميين ، وهو من شعراء بنى أمية المقدمين عندهم ، واختص بمدح الوليد بن عبد الملك ، وكان ينزل بدمشق . انظر : الأغاني ٨ / ١٧٢ وطبقات ابن سلام ٥٥٨ والتذكرة السعدية ٣٥٩ والشعر والشعراء ٢٣٧ والتؤلف ١١٦ ومعجم الشعراء ٢٥٣

(٣) ابو المغيرة عبد الله بن خارجة بن حبيب ، أحد بنى أئى ربيعة من شيبان ، ثم من بكر بن وائل ، شاعر أموى من ساكنى الكوفة ، شديد التعصب لبنى أمية ، مرواى المذهب توفي سنة ٨٥ هـ انظر : الأغاني ١٦ / ١٥٥ ، والحماسة لأئى ثمام ٢ / ٣٨٩ (نشرة عبد الله عسيلان) .

(٤) أمالى القالى ٢ / ٢٧٠ .

وهؤلاء الشعراء لم يوقفوا شعرهم على السياسة ، فقد قالوه في فنون شعرية أخرى ، فحين نقول بانقطاعهم إلى بنى أمية ، إنما نعني إن ما كان من شعرهم متعلقا بالسياسة ، إنما جاء كله أو أكثوه ، في نصرة بنى أمية .

وقد يكون من المفيد أن ننبه إلى أن هؤلاء الشعراء لم تبرأ دوافعهم تماماً من الرغبة في المال ، والتطلع إلى الاستفادة من سخاء الأمويين في البذل لأنصارهم .

فقد أغرى ثراء الأمويين ، وحبهم للترف ، غالبية شعراء دولتهم بالإقبال على الدنيا ، والتمتع بنعيمها ، وأقرب السبل إلى ذلك ، وآكدها نجاحا ، الأرتقاء في أحضان الأمويين ، والتشيع لهم .

فأبوا العباس الأعمى ، الذى يقول عنه أبو الفرج الأصفهاني ^(١) : « وكان من شعراء بنى أمية المعدودين المقدمين في مدحهم ، والتشيع لهم ، وانصباب الهوى إليهم » ، يقول حين كسا عبد الله بن الزبير بنى أسد بن عبد العزى — قومه — وأحلافهم ، ولم يَكْسَى أبَا العباس ، وكان بمكة : ^(٢) .

كَسَتْ أَسَدٌ إِخْوَانَهَا وَلَوَانَسَى بِلْدَةَ إِخْوَانِي إِذْنٌ لَكُسَيْتُ
فَلَمْ تَرَعِنِي مِثْلَ حَيٍّ تَحْمَلُوا إِلَى الشَّامِ مَظْلُومِينَ مِنْذُ بُرَيْتُ
فهو يعرض بطلب العطاء من بنى أمية ، إخوانه بالشام ، وما إن يسمع عبد الملك بن مروان بذلك حتى يوحى إلى الناس أن يخلعوا عليه ، ففعلوا ، واجتمع له من ذلك قدر ضخم ، ثم أمر له بمالٍ عظيم .

وعبد الله بن الزبير الأسدى ، وهو كسابقه من ذوى الهوى في بنى أمية ، والتعصب لهم ، والنصرة على عدوهم ، كما يقول أبو الفرج ^(٣) ، يجذبه هو الآخر عطاء مصعب ابن الزبير ، حينما غلب على الكوفة لأخيه عبد الله ^(٤) فيمدحه ، وينقطع

(١) الأغاني ١٥ / ٥٧

(٢) المصدر السابق . بریت : بُرَيْتُ : أى خلقت .

(٣) الأغاني ١٣ / ٣١

(٤) يرى جورجى زيدان أن ابن الزبير من شعراء الأمويين الذين اضطروا لمدح آل الزبير ؛ لأنهم كانوا يقيمون بين أظهرهم ، ولأن أكثرهم كانوا يمدحون بعض أمراء بنى أمية وليس خلفاءهم ، ولو كانوا من شعراء الخلفاء ، ربما كانوا أثبت في مدحهم (تاريخ آداب اللغة العربية ١ / ٢٥٤) ، وفي أخبار ابن الزبير ما يدل على أن عطاء مصعب كان من أهم أسباب اجتذابه ، وانقطاعه لمدح الأمير الزبيرى .

إليه ، ولم يزل كذلك حتى قتل مصعب ، مع أنه كان كثير التهجم على عبد الله بن الزبير في مديحه لبنى أمية .

أما نصيب بن رباح ، فقد أفل نجمه بعد وفاة عبد العزيز بن مروان ، الذى كان نصيب يكيل له الثناء ، فيجزل عبد العزيز له العطاء ، فلما قيل له : هَرِمَ شعرك ، قال : « لا والله ماهرم ، ولكن العطاء هرم ^(١) » ، وهو القائل لهشام بن عبد الملك ، حين أعجب بمدحه ، وقال له : « يأسود بلغت غاية المدح فسلنى : فقال يدك بالعطية أجود ، وأبسط من لسانى بمسألتك ^(٢) » فأجزل له العطية .

على أية حال ، فقد كان شعراء بنى أمية أكثر شعراء الأحزاب عدداً ؛ لأنهم كانوا شعراء الدولة القائمة يلتفون حولها ، رغبة في التكبس كثيرا ، وتأثرا بالعصبية القرشية ، أحيانا ، وكرها لسائر الأحزاب في بعض الأحيان .

وأيا ما كان الدافع ، أو الدوافع ، وراء الشعر المنتصر للحزب الأموى ، فقد استطاع هذا الشعر أن يُرضى حاجة الأمويين تمجيد خلفائهم ، وتأييد خلافتهم ، ومناهضة أعدائهم ، والوقوف إلى جانب عمالهم وقوادهم ، في كفاحهم ضد أعداء دولتهم ، وقد يعرّج على قتلاهم ، فيرثى بعض من سقط في ميادين نضالهم .

والصور التى يقدمها هذا الشعر يمكن تلخيصها فيما يلى :

صور يغلب عليها الطابع الأخلاقى ، وصور يغلب عليها الطابع الدينى ، وثالثة تجمع مزجاً من المعانى الأخلاقية ، والدينية ، والسياسية ، وقد تلوح في ثنايا هذا كله بعض الدعاوى التى تحاول الاحتجاج لخلافة الأمويين .

أ : صور من الإشادة ببنى أمية والاحتجاج لخلافتهم (المدح السياسى) :

يلاحظ أننا نمزج بين هذين الموضوعين قصداً ؛ يدفعنا إلى هذا مانعلم من أن شعراء الأمويين ، لم يجدوا من الحق الشرعى ، أو الأسس الدينية ، أو المنطق العقلى ، ما يستندون إليه في دعوى استحقاق بنى أمية الخلافة .

وهذا أمر طبيعى ، مادامت الدولة الأموية قد قامت على التآمر والدهاء ، والخديعة ، والقوة ، والغصب ، وتآليف القلوب بالمال تارة ، وبالجاء تارة أخرى .

(١) الأغاني ١ / ١٤١

(٢) الأغاني ١ / ١٣١

ويعبر عن هذا صمصعة بن صوحان العبدى فى حديث له مع معاوية بن أبى سفيان ، وقد سأل معاوية مَنْ بمجلسه ؛ أى الخلفاء رأيتمونى ؟ فقال صمصعة : « أنى يكون الخليفة مَنْ ملك الناس قهراً ، ودانهم كبراً ، واستولى بأسباب الباطل كذبا ومكرا » (١) .

وقد أشرنا فى صدر هذا المبحث (٢) إلى مفهوم السياسة فى الإسلام ، غير أن بنى أمية لم يتزموا هذا المفهوم فى سياستهم للرعية ، فقد كان لهم مفهومهم الخاص بالنسبة للسياسة ، يعبر عنه عبد الملك بن مروان ، حين سأله ابنه الوليد قائلاً : يا أبت ، ما السياسة ؟ قال : « هبة الخاصة ، مع صدق مودتها ، واقتيا دقلوب العامة بالإنصاف لها ، واحتمال هفوات الصنائع ، فإن شكرها أقرب الأيادى إليها » (٣) .

لكل هذا لم يجد الشعراء الأمويون بداً من أن يلجأوا إلى بعض الدعاوى الدينية ، يضيفونها على خلفائهم ، ويثبونها خلال مدائحهم فيهم وفى أنصارهم ، تدور فى معظمها حول اختيار الله لهم ، ونصرته إياهم ، وأنهم الحراس على دين الله ، القائمون على مصالح المسلمين بالعدل ، فضلاً عن أنهم أفضل قريش وسادتها ، ومزجوا بين هذه المعانى وغيرها من الصفات الدينية ، والسياسية ، والأخلاقية ، فى مقام تمجيدهم ، والإعلاء من شأنهم .

أما الاحتجاج على النحو الذى رأيناه فى الشعر الشيعى — وبخاصة فى شعر الكميت — ذلك الاحتجاج القائم على الجدل ، والاستدلال بعناصر دينية ، أو أقيسة عقلية ، فلا نجد له نظيراً فى أشعار شعراء الحزب الأموى .

فهذا كعب بن جعيل التغلبى يحاول أن ينح خلافة معاوية بن أبى سفيان صبغة شرعية باعتباره أفضل القرشيين ، فيقول : (٤)

كأنَّ أبَا موسى عَشِيَّةٌ أَذْرَجَ يَطُوفُ بِلَقْمَانِ الْحَكِيمِ يُوَارِبُهُ
ولمَّا تَذَارَوْا فى تَرَاثِ مُحَمَّدٍ سَمِتَ بَابِنَ هَنْدٍ فى قَرِيْشٍ مُضَارِبِهِ

(١) مروج الذهب ٢ / ٧٨ (البية) .

(٢) راجع ص ٨٠ من هذه الدراسة .

(٣) عيون الأخبار ١ / ١٠ وأمالى القالى ٢ / ٨٢ .

(٤) طبقات ابن سلام ٤٨٧ . تداروا : الأصل تدارعوا : تخصموا وتنازعوا . أذرج : بلدة بمجنب جرباء بالشام .

يواربه : يداهيه ويخاتله . تراث محمد : معنى الخلافة . المضارب : جمع مضرب (بكسر الراء) الأصل والمنصب . أبو موسى الأشعرى : أحد الحكمين بعد صفين . لقمان : المقصود هنا : عمرو بن العاص الحكم الآخر .

والحق أن الشاعر يغلو غلواً شديداً في تفضيل معاوية على الإمام عليّ في النسب ، وأنه بذلك كان أحق بالخلافة ، فنحن لانكر شرف بنى أمية في الجاهلية ، ولكننا لانعلى هذا الشرف على بنى هاشم ، آل بيت النبي ﷺ ، فادعاء الشاعر تقديم هذا الأموي ، على عليّ الهاشمي ، ادعاء باطل ، وغلو لا يثبت حقاً ، فضلاً عن أنه لا يقنع أحداً ، من المسلمين .

وأضعف من حجة كعب بن جعيل ، محاولة نابغة بنى شيبان (١) ، تأصيل الخلافة في بنى أمية ، ونفى أى حق لغيرهم فيها ، في قوله : (٢)

معشّر معدن الخلافة منهم بدوها منهم وفيهم تحوور
لا يروم من ملكهم آدمي إن من رام ملكهم مغرور
رامه الناكشون فاستأصلوهم ولاة الشيطان حتى أيسروا

فهذه معان عامة ، ودعاوى يعوزها الدليل على صوابها وصدقها ، وإلا ، فلماذا كان بدوها واستمرارها فيهم ؟ وما دلائل الشاعر على انفرادهم بها ، وأن من طلبها من غيرهم غواة من حزب الشيطان ؟ إن جعبة الشاعر تخلو من أى برهان مقنع على صدق ما ادعى .

وطابع الادعاء ظاهرة بارزة في أكثر ما خلع الشعراء الأمويون ، على بنى أمية من معان ، وبخاصة ما كان منها في محاولة إظهارهم في مظهر ديني ، على نحو ما فعل شعراء الشيعة في تصوير أئمتهم ، ومادام الغرض هو الدعاية للخلفاء ، فلا بأس أن ينزع شعرائهم هذا المنزع ، وأن يخلعوا عليهم من الأردية الدينية ، ما قد يتخذ به البعيدون عن مشاهدة أحوالهم من المسلمين .

من هذا المنطلق ، يندفع جرير (٣) في مدح عبد الملك بن مروان ، بصورة يجمع

(١) عبد الله بن مخارق بن سليم ، أحد بنى ذهل بن شيبان ، شاعر بدوى من شعراء الدولة الأموية ، كان يفد على خلفاء بنى أمية بالشام فيمدحهم ، ويجزلون عطاءه ، وكان فيما يبدو من شعره وخبره على دين النصرانية . انظر : الأغاني ٦ / ١٤٦ والمؤتلف ١٩٢ .

(٢) ديوانه ١٢٣

(٣) أبو حرزة جرير بن عطية بن الخطفى ، واسم الخطفى ، حذيفة بن بدر من بنى كليب بن يربوع ، ثم من بنى تميم ، وأمّه كلبية أيضاً ، كان لسان مضر وشاعراً ، يقدمه العلماء بالشعر كثيراً على صاحبه الفرزدق اتجيمى ، ولم يلحق به إلا الخطل التغلبي عند أكثرهم . قالوا : بيوت الشعر أربعة : فخر وهجاء ، ومدح ونسيب ، وفي كلها غلب جرير ، وقال عنه الأصمعي . كان ينهش (أى يهجو) ثلاثة وأربعين شاعراً فينبذهم وراء ظهره ، ويشبه أبو عمرو بن العلاء شعره بشعر الأعشى الكبير ، وله مدائح جياذ في بنى أمية . توفي بأرض الحجاز سنة ١١٠ أو ١١١ هـ بعد الفرزدق بستة أشهر ، وقيل بسنة ، وأخباره كثيرة ، انظر : الأغاني ٧ / ٣٥ ومعاهد التنصيص ١ / ٢٢٨ وابن خلكان ١ / ١٢٧ والشعر والشعراء ١٧٩ والمؤتلف ٧١ وغيرها كثير .

فيها بين صفات دينية ، ودعاوى تعسفية ، يزعم بها تفضيل بنى أمية على غيرهم في حق الخلافة فيقول : (١)

لولا الخليفةُ والقرآنُ يقرؤه مقام للناس أحكامٌ ولا جُمعُ
أنت الأمينُ أمينُ الله لاسرِفُ فيما وَلِيَتْ ولا هِيَابَةٌ وَرَعُ
أنت المبارك يهدى الله شيعته إذا تفرقت الأهواءُ والشَّيْعُ
يا آل مروان إنَّ الله فضلَكم فضلاً عظيماً على مَنْ دينُه البدْعُ

فالمعاني الدينية هي الضبغة الواضحة في هذا المدح ، الذى يصور الخليفة بأنه ركن الدين ، والقيم على أحكام الشريعة ، وإمام المسلمين الذى بدونه لاتنعقد صلوات الجمع ، وهو أمين الله على ولاية الأمر ، والمبارك الذى يهدى الله به عباده ، والذين يوفقهم إلى طاعته والالتفاف حول ولايته ، وقد هدى الله قومه (بنى أمية) إلى الصواب فى الدين ، والاستقامة على جادته ، وفضلهم بذلك على غيرهم (أعداء الأمويين) من أصحاب الدعاوى الضالة المضلة فاخترتهم للخلافة .

ودعوى اختيار الله لبنى أمية هذه تتردد كثيراً فى أشعار شعرائهم ، باعتبارها حجة على ثبوت حقهم فى الخلافة ، وقد ناقشناها عند كلامنا على مبادئ الحزب الأموى .

وقريب من هذه الصورة الدينية للخليفة الأموى ، قول نابغة بنى شيبان ، فى يزيد بن عبد الملك (٢) :

وحباه المليك تقوى وبراً وهو من سوس ناسكٍ وصالٍ
يقطع الليل آهة وانتحاباً وابتهالاً لله أئى ابتهاًل
تارة راكعاً وطوراً سجوداً ذا دموع تنهلُ أئى انهلال
وله نَحْبَةٌ إذا قام يتلو سُوراً بعد سورة الأنفال
عادلٌ مقسطٌ وميزان حقُّ لم يحِفْ فى قضائه للموالى
موافياً بالعهود من خشية الله وَمَنْ يَغْفُه يكن غير قالٍ

(١) ديوانه ٣٥٥ . سرف : متجاوز للحد . ورع : جبان .

(٢) ديوانه ٦٨ . السوس : الأصل ، النجبة : الواحدة من الحبيب ، وهو البكاء . مقسط : من أقسط :

عدل . يحف : يجور . يغفه : يطلب عطاءه . قال : كاره ، والمعنى لايعطه عطاء قليلا فيغضب ، أو لايجرمه فيكرهه .

وتذكرنا هذه الصورة للخليفة الأموي ، بصورة الإمام الهاشمي ، التي وصف بها
أئمن بن خريم الشيعي الأئمة بعامة ، وكأنما أراد شعراء بني أمية أن يواجهوا بهذه المعاني
الدينية ، التي تصور الخليفة الأموي ، حاكما تقيا ، هاديا مهديا ، ورعا ، عادلا ، مرضيا ،
أن يقابلوا بها ، ماخلعه شعراء الشيعة على أئمتهم من سمت ديني ، فتكون دعاية أموية
تقاوم دعاية شيعية .

وحول فكرة الاختيار التي أشرنا إليها منذ قليل ، يقول عدى بن الرقاع العاملي ^(١)
مادحا الوليد بن عبد الملك :

أو لا ترى أن البرية كلها ألفت خزائمهإ إليه فقادها
ولقد أراد الله إذ ولاكها من أمة إصلاحها ورشادها
أغمرت أرض المسلمين فأقبلت وكففت عنها من يروم فسادها
وأصبت في أرض العدو مصيبة عمّت أفاصي غورها ونجادها

فقد جعل الله صلاح أمة ورشادها على يدى هذا الخليفة الأموي ، الذى اختاره
الله للخلافة ، فقام على مصالحها خير قيام ، ودفع عن أمة الإسلام المفسدين ، وحوى دين
الله ، ونصره على المتربصين به من أعدائه على الثغور .

ولايفوتنا أن نلاحظ هنا أن الشاعر خلط هذه المعانى والدعاوى الدينية ، بمعان
سياسية ، تجعل من هذا الخليفة حاكما راشدا مصلحا .

ويضيف الفرزدق ^(٢) إلى مسألة الاختيار ، كأساس شرعى — فى زعم بني أمية —

(١) الأغاني ٨ / ١٧٧

(٢) أبو فراس همام بن غالب بن صعصعة ، من بني مجاشع بن دارم التميمي والفرزدق لقب غلب عليه ،
ويكنى أيضا أبا الأخطل لولد كان له اسمه الأخطل وهو شاعر أيضا ، ووهم قوم فطنوه الأخطل التغلبي النصراني ،
وجعلوه أخا للفرزدق ، مع أن الفرزدق مسلم ، وأم الفرزدق ليل بنت حابس أخت الأقرع بن حابس ، وللفرزدق
رواية ، فقد روى عن علي بن أبي طالب ، وأبي هريرة ، والحسين ، وابن عمر ، وأبي سعيد الخدري ، رضى الله عنهم ،
ووقد مادحا على الوليد ابن عبد الملك وأخيه سليمان ، واختلف العلماء بالشعر فى الحكم بينه وبين جرير ، والأكثرون
على تقديم جرير ، وهم جميعا لايسوون بين جرير والفرزدق وبين الأخطل ، ويرونه لم يلحق شأوهما ، ولا له مثل
مالهما . ومات الفرزدق على الأرجح سنة ١١٠ هـ ، وقيل ١١٢ هـ ، وقيل ١١٤ هـ بالبصرة . وأخباره كثيرة كصاحبه
جرير . انظر : الأغاني ١٩ / ٢ ، ٨ / ١٨٠ ، ومعاهد التنصيص ١ / ١٧ ، وابن خلكان ٢ / ٢٥٩ ، وأمالى المرتضى ٢ /
٢٨٤ ، والشعر والشعراء ١٨٣ ، ومعجم الشعراء ٤٨٦ ، والمؤتلف ١٦٦

للخلافة الأموية ، حجة أخرى — سبق أن أشرنا إليها في عرض مبادئ الحزب الأموى — وهى الوراثة ، زاعما أن الخلافة تراث عثمان الأموى ، وهم أوليائه ، فيقول مادحاً عبد الملك بن مروان ^(١) :

فالأرضُ لله ولأهـا خليفته وصاحبُ الله فيها غير مغلوب
تُراث عثمان كانوا الأولياء له سِرْبـالُ مُلكٍ عليهم غير مَسْلُوب

والغريب أن يصف الفرزدق عبد الملك في البيت الأول بأنه خليفة الله ، ثم ينقلب في البيت الثانى فيجعله ملكا ، وبين الخلافة والملك بُعد ؟! ولكنه ضعف الإيمان بما يقول هو الذى جعله يخلط فيه .

وتكثر المعانى الدينية فيما مدح به الشعراء الأمويون الخليفة العادل العابد عمر بن عبد العزيز الأموى ، حتى لتكاد تنفرد الصبغة الدينية بالمدائح التى قيلت فيه ، ويرجع هذا إلى مأخذ به هذا الخليفة الأموى نفسه من تحرى العدل ، والزهد ، ورعاية أمور المسلمين الدينية ، ومصالحهم الدنيوية مهتديا بسنن الخلفاء الراشدين ، وبخاصة عمر بن الخطاب ، الذى كان نسبه من جهة أمه يتصل به ، فأمه بنت عاصم بن عمر بن الخطاب ، وكان عمر بن عبد العزيز يعتز بهذا الانتساب أشد الاعتزاز ويفخر به ^(٢) .

ولهذا كان الإمام الشافعى — رحمه الله — يعده خامس الخفاء الراشدين ويقول : « الخلفاء خمسة : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، وعمر بن عبد العزيز ، رضى الله عنهم » ^(٣) ، ولذا لم يكن ينظر إلى الخلافة نظرة غيره من الخلفاء الأمويين ، الذين جعلوا منها ملكا عضوضا .

فلننظر فيما مدحه به جرير ^(٤) :

(١) ديوانه ٢٥ — ٢٧

(٢) تاريخ الطبرى ٧ / ١٣٧ والمختصر لأبى الفدا ١ / ٢٠٠ وانظر تاريخ الشعوب الإسلامية ١ / ١٨٠ ومروج الذهب ٢ / ١٦٧ (البهيّة) .

وانظر صورا من تحريه العدل بين الرعية وسيرته فيهم ، ومنهجه فى الحكم : فى عيون الأخبار ٢ / ١١٥ وأمالى المرتضى ٢ / ٣١٢

(٣) آداب الشافعى ومناقبه (سوريا) ١٨٩

(٤) ديوانه ٥١٠ — ٥١١ والكامل للمبرد ٢ / ٢٠٩ (الأزهريّة) . أبو حفص : كنيه عمر بن الخطاب خلعها الشاعر على عمر بن عبد العزيز لما جعله راشداً مثله .

أشبهت من عُمر الفاروق سيرته قاد البرية وائتمت به الأمم
تدعو قريش وأنصار الرسول له أن يُمتنعوا بأبي حفص وما ظلموا

ولم يكذب جرير فيما قال عن اجتماع قريش والأنصار على الدعاء لهذا الخليفة ،
والرضا به ، وبسياسته ، فقد أَرْضَى معهم كل محبى العدل والإنصاف ، واستقامة السيرة
من المسلمين ، وكثيراً ممن هواهم مع آل البيت ؛ إذ كان أول من أبطل سب علي بن أبي
طالب على المنابر من الخلفاء الأمويين ^(١) ، فلم يُسَبَّ على بعد ذلك .

بهذا وغيره مدحه عبد الرحمن الخزاعي ، فقال ^(٢) :

وَلَيْتَ فَلَمْ تَشْتُمْ عَلِيًّا وَلَمْ تُخَفْ بَرًّا وَلَمْ تَتَّبِعْ سَجِيَّةَ مُجْرِمٍ
وَقَلْتَ فَصَدَّقْتَ الَّذِي قُلْتَ بِالَّذِي فَعَلْتَ فَأَضْحَى رَاضِيًا كُلُّ مُسْلِمٍ

وناحية أخرى نخب أن نؤكد بها المغزى السياسى لهذا الشعر الذى قيل فى بنى
أمية ، والقصد إلى الدعاية فيه ، فى مقابل الدعاية الشيعية فى شعر الشيعة للأئمة ، ونعنى
بهذه الناحية ، ما تردد فى بعض أشعار الشعراء الأمويين من أن الخليفة الأموى هو مهدى
هذه الأمة ، وهى الفكرة نفسها التى ردها شعراء الشيعة فى الإشادة بأئمتهم .

نجد هذا فى قول جرير يمدح سليمان بن عبد الملك ^(٣) :

سُلَيْمَانُ الْمُبَارَكُ قَدْ عَلِمْتُمْ هُوَ الْمَهْدِيُّ قَدْ وَضَحَ السَّبِيلُ
أَجَرَتْ مِنَ الْمَظَالِمِ كُلِّ نَفْسٍ وَأَدَيْتَ الَّذِي عَهْدَ الرَّسُولِ

يصفه بالعدل ، وأنه قائم فى الأمة بما عهد به النبى ، من الأخذ بكتاب الله وسنة
نبيه ، وهو من أجل هذا مهدى هذه الأمة ، الذى ينشر العدل ، ويمحو الظلم .

وكثيراً ما أطلق شعراء بنى أمية اسم « المهدى » أو صفاته على بعض خلفاء بنى
أمية ^(٤) ، تأثراً بعقيدة المهديّة عند الشيعة ، ومقابلة لدعواهم بمثلها ، وحتى يوقعوا اليأس
فى قلوب أتباع المذاهب الشيعية ، بأن الخليفة الأموى القائم هو المهدى ، كما أشرنا إلى

(١) مروج الذهب ٢ / ١٦٧ (البية) .

(٢) المختصر لأبى الفدا ١ / ٢٠١

(٣) ديوانه ٤٣٢ . وفى أخبار سليمان بن عبد الملك أنه كان فضيحاً فهُماً ، محباً للعدل والغزو . انظر :

العبر للذهبي ١ / ١١٨ .

(٤) انظر مثلاً : ديوان جرير ٣٤ ، ٥٠٥ ، وديوان الفرزدق ٣٢٧

ذلك في كلامنا على هذه العقيدة عند الشيعة (١) .

وإذا كان الشيعة — أو بعض فرقهم — قد بالغوا في إضفاء صفات القداسة على أئمتهم ، فإن من الشعراء الموالين لبنى أمية من جاراتهم في مبالغاتهم ، فأسبغ على بعض الخلفاء المؤمنين من الصفات ما يرفعهم إلى مقامات ليسوا من أهلها ، تزيدا وتهويلا ، وإمعانا في الدعاية لهم ، تبعا للرغبة العارمة في إرضائهم ، وهز أريحياتهم للعتاء .

من ذلك قول الفرزدق يمدح يزيد بن عبد الملك (٢) :

ولو كان بعد المصطفى من عباده نبىُّ لهم منهم لأمر العزائم
لكنَّ الذى يختاره الله بعده لحمل الأمانات الثقال العظام
ورثم خليل الله كلَّ خزانة وكلَّ كتابٍ بالنبوة قائم
بحكم الذى فوق السماوات عرشه بما فى ثرى سبع من الأرض عالم

وأيما الله إنها لمبالغات سمجة ، ممجوجة ، يرفضها الضمير المسلم ، وتأبأها كل شرائط المبالغة المستملحة في الشعر ، ولكنه المال والرغبة فيه ، أعمت بصيرة هذا الشاعر ، فأنسته رعاية دينه ، وغيت ضميره ، ولاشفع له أن صدر دعواه في صلاحية يزيد للنبوة بلفظة «لو» ، فمن يكون يزيد بن عبد الملك ؟ وماذا كان فيه من خلق ودين ، ليصلح للنبوة ؟ بخاصة والفرزدق يرى أن العقبة الوحيدة في طريقه ليكون نبيا ، أنه لانبى بعد المصطفى !!

والشعر كله مبالغات ، فقد بالغ الفرزدق في دعوى بنى أمية أن الله اصطفاهم للخلافة ، وبالع فجع يزيد أهلا للنبوة ، وبالع فخلع عليه صفة خص الله تعالى بها نبيه إبراهيم ، فزعم أن يزيد خليل الله ، وبالع في توريث بنى أمية علم الله ، وما استدوعه كتب أنبيائه .

وأغلب الظن أن الفرزدق متأثر في مبالغاته تلك بغلاة الشيعة ، الذين زعموا أن أئمتهم ورثة العلم الإلهي ، المعروف عندهم بعلم الباطن وقد يعزز هذا ما يرى من أن

(١) راجع ص ٤٣ من هذه الدراسة .

(٢) ديوانه ٨٢٩

الفرزدق كان يتشيع لآل البيت ، وإن لم يكن من غلاة الشيعة ، وله أبيات في مدح سليمان بن عبد الملك ، يصفه فيها بمثل ما كان يمدح به الشيعة أئمتهم من صفات التقديس ^(١) .

هذه الصور والمعاني الدينية ، لم تكن دائما تمثل الصبغة الغالبة على هذا الضرب من الشعر السياسى الأموى ، فجانبا قامت صور ومعان أخلاقية ، هى فى مجموعها من المثل العليا التى كان العربى يتمدح بها ، ويهتز طربا إذا مدح بها أيضا .
وقد تخلص نماذج أشعار الأمويين لهذه المثل ، وقد تمازجها بعض المعانى الدينية ، أو السياسية ، أو اللوان معا .
ولنضرب لذلك مثلا قول الأخطل التغلبى النصرانى ، شاعر الأمويين الأكبر ، يشيد ببنى أمية عامة ^(٢) :

حتى ثَنَاهَى إلى القوم الذين لهم
بيضُ مصاليتُ لم يُعدل بهم أحدٌ
الأكثرين حصَى والأطيبين ثَرَى
ما إن كَأْخَلامهم جِلْمٌ إذا قَدَرُوا
وهم ذُرَى عبد شمسٍ فى أُرُومتها
وكان ذلك مقسوماً لأوْلهم
عِزُّ الملوك وأعلى سُوْرَة الحسب
بكل مُعْظَمَةٍ من سادة العرب
والأخْمَدِينَ قِرَى فى شِدَّةِ اللَّزْبِ
ولا كِبَسَتْهُمْ بَسْطٌ لدى الغضبِ
وهم صَمِيمُهُمْ لَيْسُوا من الشَّدْبِ
وَرِاثَةٌ ورِثُوهَا عن أب فَأَبِ

فمدار الإشادة فى هذه الأبيات ، شرف النسب ، والشجاعة ، والحزم ، والعفو عند المقدرة وكثرة الأتباع ، وعزة السلطان ، والكرم ، وكأنا أحس الأخطل أن هذه الصفات غير كافية لتبرير انفرادهم بالسلطان ، فأضاف أن الملك كان قدراً مقسوماً لأول خلفائهم ، ثم توارثه من جاء بعده ، ولعمري ، إنها حجة واهية ، لاتؤيد دعوى ، ولاتنفع باستحقاق .

ولا يقال : إنما مدح الأخطل بهذا المعانى ، واحتج بهذه الحجة الواهية ، لأنه كان نصرانيا ، فمن أين له المعانى الدينية ، والبراهين الشرعية ، فقد رأينا من قبل شعراء مسلمين عجزوا أيضا عما عجز عنه الأخطل فى باب الاحتجاج ، لانعدام البراهين

(١) انظر ديوانه ٣٢٧

(٢) ديوانه ١٨٨ — ١٨٩ . السورة : أعلى الشئ وحدته ومنتهاه : مصاليت : جمع مصلات : وهو الرجل

الماضى فى الخواج . اللزب : القحط . الشذب : الفروع الضعيفة من الشجرة تقطع لتفرقها وعدم فائدتها .

المقنعة أصلاً على دعوى بنى أمية .

ثم إن الأخطل ليس وحده ، من حيث الميل إلى المثل الأخلاقية في مديح بنى أمية فأبو العباس الأعمى يشيد برجاجة عقولهم ، وسعة صدورهم ، وشدة غضبتهم ، وسدادهم في الملمات ... في قوله : (١)

أبْنِي أُمِيَّةَ لَا أَرَى لَكُمْ شَبَّهًا إِذَا مَا التَّفَّتِ الشَّيْعُ
سَعَةً وَأَحْلَامًا إِذَا نَزَعَتْ أَهْلَ الْحُلُومِ فَضْرَهَا النَّزْعُ
وَحَفِيزَةً فِي كُلِّ نَائِبَةٍ شَهْبَاءَ لَا يَنْهَى لَهَا الرَّيْعُ
اللَّهُ أَعْطَاكُمْ وَإِنْ رَغِمَتْ مِنْ ذَاكَ أَنْفَ مَعَاشِرٍ رَفَعُوا

وهو كأصحابه السابقين لا يجد حجة قوية يدلى بها ، فيكتفى بأن الله أعطى !؟

أما جرير فيمزج بين معان أخلاقية ، ومعان دينية في مدح هشام بن عبد الملك (٢) :

وَأَنْتَ إِذَا نَظَرْتُ إِلَى هِشَامٍ عَرَفْتَ نِجَارَ مُتَنَجِّبٍ كَرِيمٍ
وَلَى الْحَقِّ حِينَ يَوْمٍ حَجًّا صَفَوْا بَيْنَ زَمَرٍ وَالْحَاطِمِ
يَرَى لِلْمُسْلِمِينَ عَلَيْهِ حَقًّا كَفِعَلَ الْوَالِدِ الرَّؤُفِ الرَّحِيمِ
إِذَا بَعْضُ السَّنِينَ تَعَرَّقْنَا كَفَى الْإِيثَامَ فَقَدْ أَى الْيَتِيمِ
أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى صِرَاطٍ إِذَا اعْوَجَّ الْمَوَارِدُ مُسْتَقِيمِ
أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ جَمَعَتْ دِينًا وَحِلْمًا فَاضِلًا لَذَوَى الْحُلُومِ

هنا يمزج جرير بين المعاني الدينية والأخلاقية ، فالخليفة هشام شريف النسب ، كريم ، وهو أكثر ما يكون كرماً حينما يشتد القحط ، حيث يتولى رعاية الضعفاء ، والفقراء ، ومن لاعائل لهم ، كما أنه حليم عاقل ، فاق حلمه وعقله ذوى العقول .

أما العناصر الدينية في هذه الصورة ، فنراها في قوله : (ولى الحق) ، وقوله : (يرى)

(١) الأغاني ١٥ / ٥٨

(٢) ديوانه ٥٠٧ — ٥٠٨ ، والكامل للمبرد ٢ / ١١٢ (الأزهرية) . النجار (بالكسر) : الأصل والمعدن .

المنتجب : المختار . الحطيم : ما بين الركن والباب . تعرقنا : اجتاحت ماعدننا ، والمراد زمن الجذب .

للمسلمين عليه حقاً) وقوله : (على صراط مستقيم) وقوله : (جمعت ديناً) .

وقد يكون من تنمة الصورة للمديح السياسى فى شعر الحزب الأموى ، أن ننظر فى بعض ماخص به شعراء بنى أمية كبار رجال الدولة الأموية من أمراء الأقاليم ، وقادة الجند ، من إشادة نوهت بجهودهم فى تثبيت دعائم ملك بنى أمية ، وحمايته من أعدائه المتربصين به ، وحسن سياستهم فى تدبير أقاليمهم ، ورعاية أهلها .

والذى يبدو أن شخصية الحجاج بن يوسف الثقفى الأمير القائد الأموى المشهور ، وما كان لها من سمات قوية ، وهيبة عظيمة فى قلوب الناس ، ورهبة شديدة أيضاً ، وماأداه من خدمات للدولة الأموية ، يبدو أن ذلك كله جذب أنظار كثير من شعراء بنى أمية ، فالتفتوا إليه ، وخصوه بغير قليل من مدائحهم ، ولم يحظ أمير أو قائد أموى من هؤلاء الشعراء بمثل ما حظى به الحجاج .

وعلى بعض ما قيل فيه من مدائح ، تقتصر ، باعتباره مثلاً لما قيل فى غيره من العمال والقواد ؛ يعكس المعانى التى دارت حولها أشعار شعراء الحزب الأموى فى هذا الباب .

من ذلك قول ليل الأخيلية ^(١) فى الحجاج ^(٢) :

أَحْجَّاجُ لَا يَفْقُلُ سِلَاحُكُ إِنِّهَا أَلْ
سَمَانِيَا بِكَفَ اللَّهُ حَيْثُ تَرَاهَا
أَحْجَّاجُ لَا تُعْطَى الْعَصَا مِنْهُمْ وَلَا اللَّهُ يُعْطَى لِلْعَصَا مِنْهَا
إِذَا هَبَطَ الْحَجَّاجُ أَرْضاً مَرِيضَةً تَتَّبِعُ أَقْصَى دَائِهَا فَشَفَاهَا

فهى تمدح شجاعته فى الضرب بقوة على يد العصاة ، أعداء الدولة وترى أن الله مؤيده وناصره ؛ ولذا فهو يقضى على الفتن ، ويتتبع العصاة أينما كانوا ، فيشفى الأرض منهم ، ويخلص الدولة من فسادهم .

(١) صاحبة توبة بن الحمير الشاعر ، الذى اشتهر بحبها ، واشتهرت به ، وهى شاعرة مجيدة ، جمع شعرها ونشر فى العراق ، وأجود شعرها ما قالته فى رثاء صاحبها توبة ، وعمرت طويلاً حتى ماتت ١٠١ هـ ، بقونس أو بخلوان ، وهى فى طريقها إلى قتيبة بن مسلم وإلى خراسان . انظر : الأغاني ١٠ / ٦٣ ، وأمالى القالى ١ / ٩٠ ، ومقدمة ديوانها .

(٢) ديوانها ١٢٢

وتبلغ بها المبالغة في تصوير شخصية الحجاج إلى أن ترفعه إلى مقام عال ، ومنزلة عظيمة ، تلى في السلطان والهيبية منزلة الخليفة ، وليس فوقه إلا الله والخليفة :
 حجاج أنت الذى مافوقه أحدٌ إلا الخليفة والمستغفر الصمد
 وجميل منها هذا الوصف لله في هذا المقام ، وكأنها تستغفر الله من هذا المعنى !!
 وماها لاتبالغ في مدح الحجاج ، والمبالغة أسلوب يكاد يطرد على ألسنة شعراء
 الأمويين ، في مدح خلفائهم وعمالهم على السواء ؟!

وليبالغ أيضا العذيل بن الفرخ ^(١) ، في مدحه الحجاج ، كما نرى في قوله ^(٢) :
 بنى قبة الإسلام حتى كأنما هذى الناس من بعد الضلال رسول
 خليل أمير المؤمنين وسيفه لكل إمام صاحب خليل
 به نصر الله الخليفة منهم وثبت ملكاً كاد عنه يزول
 فأنت كسيف الله في الأرض خالد تصول بعون الله حين تصول
 رأيت كيف يشبه الحجاج بالرسول في الهداية بعد الضلال ؟! ويصفه بأنه
 خليل أمير المؤمنين وسيفه ، وهو سيف يصول بعون الله ، فيبنى قبة الاسلام سامقة
 تطاول عنان السماء ، وثبت أركان الدولة ، وينصر الخليفة .

وهذا المزج بين المعاني الدينية وغير الدينية هو أيضا سمة رأيها في مدح الخلفاء ،
 ونراها في قول أحد بنى سعد بن زيد مناة للحجاج ^(٣) :

قلت لعنسى وهى عجلتى تعتدى لانوم حتى تحسرى وتلهدى
 أو تردى حوض أى محمد ليس الأمير بالشحيح الملحد

(١) العذيل بن الفرخ العجلي ، أحد بنى الحارث بن ربيعة بن عجل ، ويلقب العباب — وهو اسم كلبه —
 شاعر فارسي ، هجا الحجاج فطلبه ، فهرب منه إلى قيصر الروم ، فبعث الحجاج يهدد قيصر ، فبعث به إلى الحجاج ،
 وجرى بينهما حديث انتهى بالعفو عنه . انظر : الأغاني ٢٠ / ١١ ، وخزانة الأدب ٢ / ٣٦٨ (بولاق) ، والتذكرة السعدية
 ١٣٨ ، والاشتقاق ٣٤٥ ، والشعر الشعراء ١١٥

(٢) الأغاني ٢٠ / ١٤ ، والشعر والشعراء ١٥٥

(٣) سمط اللآل ٢ / ٦٤٩ . تحسرى : تضعفى وينال منك الهزال . تلهدى : يقال لَهْدَ البعير : إذا عض
 الحمل غاربه وسنامه حتى يؤله .

ومثل هذه المعاني مدح جرير ^(١) ، والفرزدق ^(٢) الحجاج ، ومدح حارثة بن زيد زياد بن أبيه ^(٣) .

ب: التصدى لأعداء بنى أمية ومناهضة خصومهم (الهجاء السياسي):

عانت دولة الأمويين منذ قيامها إلى آخر أيام حياتها ، من معارضة قوية نشطة ، حرمتها كثيراً من التمتع بالهدوء والاستقرار ، وجعلتها على أهبة ، تكاد تكون دائمة ، لمواجهة هذه المعارضة بالسيف واللسان يظاهر كل منهما الآخر .

لقد اجتمع على مناوأتها ، ومناهضة سياستها طوال فترة حكمها حزبان قويان : الشيعة ، والخوارج ، وأقلقها وهدد كيائها فترة من حياتها حزب ثالث ، هو حزب ابن الزبير ، أو فلنقل ثورة ابن الزبير ، التي لم يتح لها من العمر مايساعدها على استكمال مقومات الحزب .

وكان الشيعة أشد المعارضين لبنى أمية خطراً من الناحية السياسية والفكرية ، وأكثرهم تهديداً للأسس التي قامت عليها دولتهم ، ففضلاً عن أنهم كانوا أكثر أحزاب المعارضة تنظيماً ، وأوفرها حظاً من الجماهير المناصرة ، كانت أقواها حجة ، وأظهرها حقاً ، وأخطرها فكراً ، بينما اقتصر خطورة الحزبين الآخرين على الناحية الحربية ، لكثرة ما أشعلاه من وقائع وحروب ، شغلوا بها جند الأمويين ، وهددوا في بعض هذه المعارك كيان دولتهم ووجودها ، حتى كادت تسقط في يد الزبيريين حيناً ، كما ظلت معارك الخوارج شوكة في جنبها في كل الأحيان .

فلم يكن بد من أن يجرد بنو أمية سلاح الشعر ، باعتباره أقوى وسائل الدعاية في الحياة العربية آنذاك ، ليحاولوا إسكات دعاية خصومهم ، كما جردوا سيوف الحرب ، لتسكت حركات معارضتهم ، وثوراتهم .

ونفض شعراء بنى أمية يريشون سهام الشعر ، ويحددون أسنة القوافي ، ليجردوا

(١) ديوانه ٩٠

(٢) ديوانه ٦٩٥

(٣) تاريخ الطبري ٦ / ١٢٦

أعداء الدولة وخصومها السياسيين من كل فضيلة ، ويدمغهم بكل نقیصة فی الخلق والسيرة والدين .

وسنلاحظ من خلال دراستنا لتماذجهم فی هذا الاتجاه ، أن أكثر الدعاوى تردیداً فی هذا النوع من شعرهم ، هی التي تدور حول الرمی بالفسق والضلال والكفر ، والزیغ واتباع الهوى ، واعتناق البدع ، ومحاربة الله ورسوله ، والانحراف عن كتاب الله وسنة نبیه ، وهی المعانی نفسها التي أثارها الشعر الشيعی المناهض لأعداء الأئمة ومذاهبهم ، والتي سنراها بارزة أيضاً فی شعر الخوارج والزييرين فی هذا المقام .

وترجع غلبة الصبغة الدينية على شعراء الهجاء السياسی فی العصر الأموی بعامة ، إلى أن كل حزب من الأحزاب السياسية فی هذا العصر ، كان یحرص على أن یحوط فكره ، وسلوكه ، وأوجه نشاطه بسیاج من الدين ، وأن یقدم نفسه للجماهير المسلمة على أنه حزب الله ، المؤید بنصره ، الحارس على دينه ، المؤید لتعالیم هذا الدين وقيمة ، وأن الدعاوى التي تناهضه ، والأحزاب التي تعارضه ، كلها ضالة مضلة فاسدة مفسدة ، تحالفت مع الشیطان ، فتنكبت طریق الله ، ووسيلة هذه الأحزاب جمیعا الدعاية بلسان الشعر ، وغایتهم جمیعا ، اجتذاب الأنظار ، وجمع القلوب المسلمة حول دعوتهم ، وصرفها عن دعاوى الخصوم ، وتغییرها منهم .

ولایعنی ما ذكرنا من غلبة الطابع الدينى على شعر الهجاء السياسی فی هذا العصر ، قلة العناصر غیر الدينية فيه ، إذ كان من هم الدعاية السياسية للأحزاب تجرید الخصوم أيضاً من القيم الأخلاقية والإنسانية ، تجتمع هذه العناصر وتمتزج ، أو تفترق وتنفرد فی هذا النموذج أو ذاك .

فعبد الله بن همام السلولى یصور أعداء الأمویین بعامة ، على أنهم أهل شغب وعصیان ، وفتن ، وأن السياسة التي تصلح لردعهم هی سياسة الشدة والبطش والعنف ، ولاینسئ مع ذلك أن یوصی بنی أمیة بالحرص على ملكهم ، ويحثهم على التمسك بالخلافة فیهم (١) :

(١) طبقات ابن سلام ٥٢٤ ، وانظر : مروج الذهب ٢ / ٨٥ (البیة) . عنابة : جمع غنبة ، وهو الأسد الكالح الوجه عند اللقاء . معاوی : یعنی معاوية بن يزيد . لا ترموا بها الغرض البعیدا : یعنی لا تخرجوها من بیتکم إلى بیت بعید النسب عنکم . أهلها : یعنی الرعية . ضجرت علیکم : شغبت وفترت ، یعنی الرعية ، استعاره من ضجر الناقة عند الحلب ، وهو شغبها ورغاؤها . اعصیوها ... الخ : هذا مثل للشدة وقهر أهل العناد والخلاف ، من عصب الناقة : وهو شد فخذیها وأدنى منخريها یجبل حتى تحلب .

خِلَافَةَ رِيكُم كُونُوا عَلَيْهَا كَمَا كُنْتُمْ عَنَابِسَةً أَسُودَا
تَلَقَّفَهَا يَزِيدٌ عَنْ أَبِيهِ وَخُذَهَا يَامَعَاوَى عَنْ يَزِيدَا
أُدِيرُوهَا بَنِي حَرْبٍ عَلَيْكُمْ وَلَا تَرْمُوا بِهَا الْغُرَضَ الْبَعِيدَا
فَإِنْ دُنْيَاكُمْ بِكُمْ أَطْمَأْنَتْ فَأُولُوا أَهْلَهَا خَلَقَا سَدِيدَا
وَلِنْ ضَجَرْتُمْ عَلَيْكُمْ فَاعْصِبُوهَا عَصَاباً تُسَدِّرُ بِهِ شَدِيدَا

ويلاحظ أن الشاعر — وهو يرسم لبنى أمية السياسة التي ينبغي أن يسيروا عليها —
إزاء الرعية — يقيم نصائحه وإرشاداته على أساس أن دولتهم قامت بحق الاختيار الإلهي ،
وقانون الإرث ، وهما الأساسان اللذان طالما تحدث بهما أنصار الأموية من الشعراء ، كما
رأينا في شعر المدح السياسي عند شعراء بني أمية .

ويصم نابعة بني شيبان خصوم الأمويين بعامة أيضا ، بالحقْد والغدر ، والعمى عن
الحق ، والإعراض عن سماع صوت العقل والضمير ، ويبالغ فيصفهم بأنهم مشركون
نجس ، ويدعى أن الله قد توعدهم بما توعد به المشركين النجس ، الذي حاربوا الله
ورسوله : (١)

قَسْرًا عَدُوكَ إِنْ الضُّغْنَ قَاتَلْتَهُمْ وَلَئِنْهُمْ إِنْ أَرَادُوا غَدْرَةَ تَعَسُّوْا
لَا يَبْصُرُونَ وَفِي آذَانِهِمْ صَمَمٌ إِذَا نَعَشْتَهُمْ مِنْ فِتْنَةٍ رَكَسُوا
هُمْ الَّذِينَ سَمِعْتُ اللَّهَ أَوْعَدَهُمْ الْمَشْرُكُونَ وَمَنْ لَمْ يَهْوَكُمْ نَجَسٌ

ولما قتل زيد بن علي بن الحسين — إمام الشيعة الزيدية — ونقلت رأسه إلى المدينة
وصلبت هناك ، وقف أمامها شاعر من صنائع أمير الأمويين على المدينة ، وقال (٢) :

أَلَا يَنَاقِضُ الْمِثْلَا قِ أَبْشِيرَ بِالذِي سَاكََا
نَقَضَتْ الْعَهْدَ وَالْمِثْلَا قِ قَدَمَا كَانَ قَدَمَاكََا
لَقَدْ أَخْلَفَ إِبْلِيسُ الْـ لَذِي قَدْ كَانَ مَنَّاكََا

فهذا الإمام الشيعي خائن ، ناقض للعهد والميثاق ، الذي أخذه بنو أمية على
الناس بالطاعة ، فخرج بذلك عن الجماعة ، ومن ثم لقي جزاء البغاة الخارجين ، فكانت

(١) ديوانه ٢٩ . ركسوا : عادوا إلى الفتنة .

(٢) تاريخ الطبري ٨ / ٢٧٨ (بيروت) . قد : من القود وهو القصاص . قدماك : ما قدمت يداك .

عاقبته عاقبة كل من يسلم زمام قلبه وعقله لقيادة إبليس اللعين ، فيغويه ويضله ، ويوسوس له بالأمانى ، ثم يتخلى عنه ، ويتركه ليلقى حتفه ، شأن كل من دان بطاعة إبليس .
وطابع المبالغة هو الغلاب على ما أورده هذا الراجز من معانٍ في هذا الهجاء ، فليس مثل زيد بن الحسين من يهجو بأنه صاحب إبليس ، غوى باغ ، ولذا استنكر من استمع إلى الراجز هذه المعانى ، وقال له : « ويلك ، أتقول هذا لمثل زيد ، فقال : الأمير غضبان ، فأردت أن أرضيه !! » (١) ، ثم لم يسكت عنه أنصار زيد ، فنهض أحد شعرائهم ، يرد على هذا الرجز ، قائلا (٢) :

ألا يا شاعر السوء لقد أصبحت أفاكا
أتشتم ابن رسول الله وتُرضى من تولأكا
ألا صبحك الله بخزي ثم مسأكا
ويوم الحشر لاشك بأن النار مثواكا

ألم نكن على حق فيما ذهبنا إليه من تعليل شيوع المبالغة غير المقبولة في أشعار المعبرين عن الأموية ، بالرغبة في إرضاء بنى أمية ، طمعا فيما وراء رضاهم من مال أوجاه ؟ ألم يصرح هذا الراجز بأنه قال ما قال في الإمام زيد ، لاعن إيمان واعتقاد بما قال ، وإنما لإرضاء الأمير الأموى ؟ وهذا هو الفرق الجوهرى بين أمثال هذه المعانى في شعر الأمويين السياسى ، وشعر الشيعة السياسى ، وكذا شعر الخوارج — كما سنرى في دراسة شعرهم — هى هنا إدعاء زائف لاحقيقة له ولاصدى في نفس قائله ، وهى هناك تعبير عما يؤمن به الشاعر ويعتقده حقا وصدقا .

ويتهكم بعض شعراء بنى أمية من اعتقاد الشيعة في مهديهم ، قائلا حين قتل زيد ابن الحسين وصلب (٣) :

صلبنا لكم زيدا على جذع نخلة ولم أر مهديا على الجذع يُصلب
وقد غلط الشاعر ، فما قال أحد بمهدية زيد بن على بن الحسين ، وإنما ذهب

(١) المصدر السابق

(٢) المصدر نفسه

(٣) مروج الذهب ٢ / ١٨٢ (البهجة) .

إلى القول بالمهدية فرق الشيعة الأخرى غير الزيدية ، فإن كان هذا من قبيل التشنيع على الشيعة ، حتى المعتدلين منهم ، فلا بأس به في مقام الدعاية السياسية !!

ومن قبل زيد بن علي ، تهجم بعض شعراء بنى أمية على الحسين بن علي فوصفه أحدهم — وهو كعب بن جابر الأزدي ^(١) — بأنه باغ ، خارج عن الملة ، يحل قتاله وقتله ، تشاركه في كل هذا شيعته ؛ ولذا كان هذا الشاعر في جملة من اجترعوا على الحسين يوم كربلاء ، وشاركوا في سلبه ، وحكى ذلك في ابيات ختمها بقوله :
فجردته في عصابة ليس دينهم بديني وإني بابن حرب لقانع
فقد أباح له — في زعمه — تجريد سيفه على الحسين وشيعته ، أنهم يدينون ديناً غير دين الإسلام الذي عليه بنو أمية وأتباعهم .

وفي أخبار المعارك التي كانت تدور بين الخوارج وبنى أمية شعر كثير من الفريقين ، يحكى هذه الوقائع ويشيد بالأبطال ، ويرثى القتلى ، كما يعبر عن تنديد كل منهما بالآخر ، وسخريته من رأيه واعتقاده ، وكثيراً ما يتبادل شعراء الفريقين تهمة الكفر ، والجور ، والمروق من الدين ، وتحريف أصوله .

فعقب انتصار المهلب بن أبي صفرة على الخوارج في إحدى معاركه معهم بنواحي كerman ، نهض كعب الأشقرى ^(٢) ، يسجل هذا الانتصار ، ويعبر عن رأى الأمويين في الخوارج قائلاً ^(٣) :

لولا المهلبُ للجيش الذي وردوا أنهار كِرمَان — بعد الله — ماصدروا
إنا اعتصمنا بحبل الله إذ جحدوا بالمُحكّمات ، ولم نكفر كما كفروا
جاروا عن القصد والإسلام واتبعوا ديناً يخالف ما جاءت به التّدُر

فهو يرى في الخوارج ، ما يراه الخوارج فيمن عداهم من المسلمين ، منحرفين عن

(١) لم أعثر على ترجمة له .

(٢) أبو مالك كعب بن معدان الأشقرى ، والأشاقة قبيلة من الأزد ، فارس شاعر خطيب ، معدود في جملة أصحاب المهلب ، ومذكور في حروبه مع الأزارقة ، وهو من شعراء خراسان ، استفرغ شعره في مدح المهلب . انظر : سمط اللآلئ ١ / ٥٨٩ ، ومعجم الشعراء ٣٤٦ ، والأغانى ١٣ / ٥٤ .

(٣) تاريخ الطبرى ٨ / ٢٧١

سنن الدين ، يعتنقون عقائد وأفكاراً لم يأت بها كتاب منزل ، ويحمدون آيات الله المحكمة في كتابه ، التي تدعو إلى طاعة الله ورسوله وأولى الأمر من المسلمين ، ولذا فهم كافرون كفرا صريحاً ، لاشبهة فيه .

ويتقرب الراعى الحميري^(١) إلى عبد الملك بن مروان ، بقسم عظيم صادق ، يتبرأ فيه من الخوارج والزبيريين جميعاً ، مؤكداً بذلك ولاءه للأمويين ، يعادى من يعادونه ويعتقد في أعدائهم ما يعتقدونه^(٢) :

إئى حلفتُ على يمينِ برةٍ لا أكذبُ اليومَ الخليفةَ قيلاً
ما إن أتيت أبا حُبيبٍ وافداً يوماً أريدُ لبيعتى تبديلاً
ولأتيت نُجيدةَ بنِ عويمٍ أبغى الهدى فيزيدنى تضليلاً

فالشاعر يسخر من دعوى الخوارج بأنهم على الحق والهدى ، زاعماً أنهم أهل ضلالة ، فهم ضالون مضلون ، إذا قصدهم ضال طالبا الاهتداء بما عندهم زادوه ضلالاً بمقولاتهم .

وعلى الرغم من قصر الفترة التي عاشتها ثورة ابن الزبير ، فقد أثارت حولها وحول صاحبها عبد الله طائفة من شعر الهجاء ، أكثره موجه لابن الزبير ، يسخر من دعواه ، وما أطلقه على نفسه من ألقاب ، ويحمله وزر تعريض الكعبة لانتهاك حرمتها ، وعدم مراعاته لهذه الحرمه ، فيما يرتكبه بالحرم من استهتار بدماء الناس وحریاتهم ... إلخ ماسنرى في النماذج التالية :

(١) أبو جندل عبيد بن حصين بن معاوية ، من بنى نعيم بن عامر بن صعصعة من هوازن ، شاعر فحل أكثر من وصف الإبل فلقب بالراعى ، وكان مقدماً حتى هجا جريراً فهجاه وأخجل ذكره ، وعده ابن سلام من الطبقة الأولى في الإسلام . انظر : الأغاني ٢٠ / ١٦٨ ، وطبقات ابن سلام ٤٣٤ ، والشعر والشعراء ١٥٦ ، والمؤتلف ١٢٢ .

(٢) الكامل للمبرد ٣ / ١٥٥ (الأزهرية) ، وطبقات ابن سلام ٤٣٩ . يمين برة : صادقة . أبو حبيب : كنية عبد الله بن الزبير . نجيدة : هو نجدة بن عويم ، أو عامر ، الحنفى الحرورى ، كان رأساً من رموس الخوارج ، ذا مقالة منفردة من مقالاتهم ، وإليه تنسب فرقة النجدية منهم ، وصغره الشاعر إظهاراً لتحقيقه والاستهانة بأمره ، قتل على يد أصحابه سنة ٦٩ هـ . انظر : العبر للذهبي ١ / ٧٧ ، والخوارج والشيعة ٨٣ ، وتاريخ الطبرى ٧ / ١٩٤ ، والكامل لابن الأثير ٤ / ٢٠١ (بيروت).

لما قتل عبد الله بن الزبير وصلب جثثانه بمكة ، قال عبد الله بن الزبير الأسدي ،
يتشفى في مقتله ، ويصفه ويصف أتباعه بالإلحاد : (١)

كأني بعبد الله يركبُ درعَهُ وفيه سِنَانٌ زاعبِيٌّ مُحَرَّبُ
وقد قرَّ عنه المَلحدون وحلَّقَتْ به وعن آسَاهُ عَنَقَاءُ مُغَرَّبُ
تولَّوْا فخلَّوْهُ فشاَل بِشِلْوِهِ طویلٌ من الأجداع عارٍ مشدَّبُ

ولما بلغ ابن الزبير الأسدي أن ابن الزبير قتل بعض شيعة بنى أمية ، كانوا
يتجسسون لعبد الملك بن مروان بمكة ، هجاه ، وسخر من ادعائه بأنه العائذ ببيت الله
الحامي لحماه ، وهو يسفك الدماء في الحرم ، ولايرعى له حرمة ، فقال (٢):

أيُّهَا العائِذُ في مَكَّةَ كم من دمٍ أُجريتِه في غير دَمِ
أَيَّدُ عائِذَةً مُعَصِّمَةً وَيَدُّ تَقْتُلُ من جاء الحرم؟

وهو يبطل حجة الزبيرية القائمة على الاعتزاز بالحرم ، وحمايته ، فيقول (٣) :

أيا راكباً إمّا عرضتَ فبلِّغْ كَبيرَ بنى العوَامِ إن قيلَ مَنْ تُعْنِي
تحدَّثُ من لاقيتَ أنك عائِذٌ وصرَّعتَ قتلى بين زمزم والركن

وهذه النعمة الساخرة من لقب ابن الزبير بارزة ، كثيرة التردد في الشعر الأموي
الذي هجى به ، وغنى عن البيان أن هذا الشعر إنما قصد به إثارة غضب المسلمين على
هذا الذي ينتهك حرمة الحرم ، ويتجاهل حكم الله فيه ، بأن من دخله كان آمناً ، وقد
أجاد شعراء بنى أمية الضرب على هذا الوتر الحساس في ضمائر المسلمين ، لينفروا قلوبهم
من ابن الزبير ، ويصدوهم عن اتباعه ، والانتصار له ، وفي هذا مالا يخفى من الدعاية
السياسية ، التي تسلك هذا الشعر في عقد السياسة الحزبية .

فأبو صخر الهذلي يشيد بعبد الملك لقتاله ابن الزبير ، وإنقاذ الحرم الشريف من
عبثه وإفساده ، فيقول (٤):

(١) ديوانه ٥٢ ومعهاد التنصيص ٢ / ١١٠ . يركب درعه : يقال للقتيل : ركب درعه ، إذا خر لوجهه على
دمه . محب : محدد . الزاعبي : الرمح الذي إذا هز تدافع كله ، شال بشلوه : رفع أشلاءه .

(٢) ديوانه ١٣٢ والأغانى ١٤ / ٢٥١ (دار الكتب) .

(٣) ديوانه ١٣٣ — ١٣٤ والأغانى ١٣ / ٣٨ ومروج الذهب ٢ / ٩٩ (البيهة) .

(٤) الأغانى ٢١ / ٩٥ . الجأواء : الكتبية العظيمة من الجيش .

وإن أمير المؤمنين الذى رمى بجأواء جمهور تسيل إكامها
من أرض قرى الزيتون مكة بعدما غلبنا عليها واستحل حرامها
وإذ عاث فيها الناكثون وأفسدوا فخيف أقاصيها وطار حمائمها

فالفسق والإفساد فى الأرض ، وانتهاك حرمة البيت الحرام ، وإزعاج الآمنين ، من أهل الحرم وحمامه ، هى العناصر التى اعتمدها أبو صخر فى هذا الهجاء ، والغالب عليها الصبغة الدينية ، كما نرى .

وصفة الإلحاد ، من عناصر الهجاء ، التى تدور كثيرا ، فيما وجه من هجاء لابن الزبير وأصحابه ، وقد مر بنا قول ابن الزبير الأسدى الذى يشمت فيه بمقتل ابن الزبير ، ويرميه وأنصاره بالإلحاد .

ونضيف هنا قول جرير ، من قصيدته المشهورة فى مدح عبد الملك ، التى يقول فيها مادحا بنى أمية :

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطنون راح
متهما ابن الزبير وأنصاره بالإلحاد (١) :
دعوت الملحدنين أبا حبيب جماحا هل شفيت من الجماح؟

كما يروى أن يزيد بن معاوية ، استعرض جيش الشام الذى وجهه إلى المدينة ، لما دانت لابن الزبير ، ثم قال منددا بابن الزبير ، متهمكا ببخله فى العطاء ، واصما إياه بالخداع بالدين والإلحاد (٢) :

أبلغ أبا بكر إذا الليل سرى وهبط القوم على وادى القرى
أجمع سكران من القوم ترى أم جمع يقظان نفى عنه الكرى
ياعجبا من ملجيد ياعجبا مخادع بالدين يعفو بالعرى

(١) ديوانه ٩٩ وطبقات ابن سلام ٣٥٨

(٢) الكامل لابن الأثير ٤ / ١١٢ (بيروت) وانظر : مروج الذهب ٢ / ٩٥ (البيبة) . أبو بكر : كنية أخرى لابن الزبير إلى جانب أبى حبيب . أجمع سكران : كان ابن الزبير يسمى يزيد « السكران الخمير » (انظر : مروج الذهب ٢ / ٩٥) يعفو بالعرى : يجود بالعطاء التافه ، وضرب العرى مثلا لذلك .

وبمثل هذا يعرض أحد بنى سعد بن زيد مناة ببخل ابن الزبير — الذى اشتهر به — ويصفه بالإلحاد فى ثنايا مديحه للحجاج بن يوسف ^(١) :

قلت لعنسي وهى عَجَلَى تعتدى لانوم حتى تُحسرى وتلهدى
أو تردى حوض أوى محمد ليس الأمير بالشحيح الملهد

وتلوح هذه المعانى الدينية أيضا من خلال ماوجهه شعراء بنى أمية إلى الزبيرين من تهديد لهم ، أو تحريض عليهم .

نرى هذا فى قول أعشى ربيعة ، يحرض عبد الملك على قتال ابن الزبير ويسخر من دعواه فى الخلافة ^(٢) :

آل الزبير من الخلافة كالتى عَجَل التاج بِحَمَلِهَا فَأَحَالَهَا
أو كالضُعَاف من الحَمُولَةِ حُمِلَتْ مالا تَطْلُقُ فَضِيعَتْ أَحْمَالُهَا
قَوْمُوا إِلَيْهِمْ لَاتَنَامُوا عَنْهُمْ كَمْ لِلْعُقَاةِ أَطْلُثُمْ إِمْنَهَا
أَمْسُوا عَلَى الْخَيْرَاتِ قُفْلًا مُغْلَقًا فَانْهَضْ بِيَمْنِكَ فَافْتَحْ أَقْفَالَهَا

يعنى أن آل الزبير فى تعرضهم للخلافة دون صلاحية لها ، كناقاة أريد لها أن تحمل وتلد ، قبل أن تنضج ، وتطبق الحمل ، فكان ذلك سببا فى إفساد أمرها ، أو كالناقاة الضعيفة التى حملت فوق قدرة تحملها ، فألقت حملها وأفسدته ، وإنما جرأهم على هذا طول صبركم وإمهالكهم يابنى أمية لهؤلاء الغاوين المفسدين الضالين ، البعيدين عن كل خير .

وقد يخلص الهجاء السياسى الأموى للمعانى الأخلاقية والاجتماعية ، ويعتمد عليها فى تشويه صورة المهجو أخلاقيا واجتماعيا ، بسلب كل صفة حميدة ، وكل سلوك اجتماعى طيب عنه ، ويقدم لنا أبو العباس الأعمى أبرز نموذج فى هذا الاتجاه .

قالوا: لما علم ابن الزبير أن أبا العباس الأعمى ، يكتب بنى مروان بعوراته ، ويمدح عبد الملك ، ويتقبل صلاته ، أغلظ له ، وهم به ، ثم نفاه من مكة إلى الطائف ، فقال أبو

(١) فى الرواية أن الشاعر كان يعرض بابن الزبير فى هذا الشعر . انظر : سمط اللآلى ٢ / ٦٤٩

(٢) الأغاني ١٦ / ١٥٦ . أحالت الناقة : مضى عليها عام دون حمل . الحمولة : الناقة التى يُحمل عليها .

العباس ، يهجو ويهجو قومه بنى أسد القرشيين ^(١) :

بنو أسد لاتذكروا الفخر إنكم متى تذكره تكذبوا وتحمقوا
متى تسألوا فضلاً تضنوا وتبخلوا ونيرانكم بالشر فيها تحرق
إذا استبقت يوماً قريش خرجتم بنى أسد سكناً وذو المجد يسبق
تحيئون خلف القوم سوداً وجوهكم إذا ما قريش للأضاميم أصفقوا
وما ذاك إلا أن للوم طابعا يلوح عليكم وسنمه ليس يخلق

فالهجاء هنا بالبخل ، والدناءة ، وهوان الشأن بين القوم ، والضعف والصغار ،
واللوم المتأصل في الطبع ، وكلها مما كان العرب — قبل هذا العصر — تهجو به ، وتسقط
المروءة ، فيما بينها ، وكانوا يعدونه من الهجاء المقذع ^(٢) .

ولم يسلم مصعب بن الزبير — على جوده واصطناعه الشعراء بجزيل العطاء — من
شرر نار هذا الهجاء ، التي أهدقت بأخيه عبد الله ، وما كان مصعب ليكون بمنأى عن
هذه الحرب الكلامية ، مادام قد ارتضى أن يكون ساعداً لأخيه ، ومعينا له على أمره ،
وعاملاً على العراق من قبله .

وهذا شاعر من أهل الشام يراه منافقاً لا يربح إلا لصوت القوة ، ولا يشفيه من نفاقه
إلا حد السلاح في حرب شديدة ضرور ^(٣) :

إذا مامناق أهل العرا ق عوتب يوماً فلم يعتب
دلنا إليه لدى موقف قليل التفقد للغيب

ويفخر شاعر أموى شامى آخر ، من اليمانية ، بيوم مسكن ^(٤) ، الذى قتل فيه
مصعب (سنة ٧١هـ) ، وابن له يسمى عيسى ^(٥) ، ويتشفى في المضربة أنصار ابن

(١) الأغاني ١٥ / ٦٠ . سكتا : جمع ساكت ، وهو من الخيل الذى يأتى آخرأ . ليس يخلق : ليس يلى .

(٢) انظر : العمد ١ / ١٣٣

(٣) تاريخ الطبرى ٧ / ١٨١ ومروج الذهب ٢ / ١٢١ (البهية) . يعتب : يزيل سبب العتاب ، والمعنى يرجع

عن نفاقه .

(٤) موضع على نهر دُجيل ، عند دير الجاثليق ، وهو دير قديم البناء ، غربي دجلة ، على الحد بين آخر سواد
العراق وأول أرض تكريت . انظر : مسالك الأبصار ١ / ٣٨ ، وفي يوم مسكن راجع : العبر للذهبي ١ / ٨٠ وتاريخ
الطبرى ٧ / ١٨٥ وأيام العرب في الإسلام ٤٦١ .

(٥) قتل مع مصعب في هذا اليوم ولداه : عيسى وعروة . انظر : العبر للذهبي ١ / ٨١ والكامل لابن الأثير

٤ / ٣٢٧ (بيروت) .

الزبير ، فيقول (١):

نحن قتلنا مصعباً وعيسى
وابن الزبير البطل الرئيسا
عمداً أذقنا مُضَرَ التبييسا

هكذا كانت حملة شعراء بنى أمية عنيفة على خصومهم ، المناهضين لدولتهم ، وأبرز ما اتسمت به هذه الحملة ، روح السخرية من ابن الزبير ، وسلب الصفات الدينية .

ج : تخليد ذكر من قضوا من زعماء الحزب وأبطاله (الرثاء السياسى) :
قل حظ الحزب الأموى من شعر الرثاء ، مع أنه كان أكثر الأحزاب شعراً و شعراء
كما ذكرنا من قبل .

وليس هذا راجعا لقلة أبطال الحزب الذين جادوا بأرواحهم فى المعارك الحربية الكثيرة بين الأمويين وأحزاب المعارضة المعاصرة لهم ، ولا عن خلو صفوف هذا الحزب من الشخصيات القوية ، التى أدت خدمات جليلة فى الحفاظ على دولته من كيد أعدائه ، وخلفت وراءها — بعد موتها — صفحات من الكفاح المخلص ، تسجل مآثرهم فى نصره زعمائه ، وتأييد سلطانهم ، ولا عن فقر فى نصيبه من الرجال ، ذوى الرأى والتدبير والحنكة ، الذين تولوا زعامته .

وإنما يرجع تأخر الرثاء — كما وكيفا — بين فنون الشعر السياسى للحزب الأموى إلى الشعراء المعبرين عن هذا الحزب ؛ إذ كانت كثرتهم من الشعراء الذين اجتذبهم عطاء بنى أمية ، وحركت ألسنتهم الرغبة فيما يصيبونه من مالههم وجاههم ، والرثاء فن يقال بدافع الوفاء للمرئى ، وبين الرجاء والوفاء بون بعيد ، كما قال العلماء بالشعر قديما (٢) .
وما وجدنا من أشعار قليلة فى الرثاء السياسى الأموى ، يأخذ اتجاهين :

أحدهما : رثاء الخلفاء : وفيه يعنى الشاعر بالنظر إلى المغزى السياسى ، الذى يمكن أن يوجه إليه هذا الفن ؛ ولذا نرى الشعراء يحرصون فى رثائهم على إبراز صورة مثلى للسياسة الأموية مجسمة فى الخليفة المرئى ، وغالبا ماتعتمد هذه الصورة على المبالغة والادعاء .

(١) الكامل للمبرد ٢ / ١٠٨ (الاستقامة) .

(٢) انظر : الشعر والشعراء ١٧

والآخر : رثاء القواد والفرسان : وهو رثاء ييكي فيهم البطولة والتضحية في سبيل نصره الحق ، وإقامة الدين ، وقوة دولة الإسلام ، والإبقاء على وحدة الجماعة الإسلامية ، ومن هنا يكثر أن يصفى عليهم الشعراء صفة الشهداء ، ويشروهم بأجر الشهادة عند الله ؛ لأنهم قاتلوا وقتلوا في سبيل إعلاء دين الله .

وقد يلتفتون إلى بعض مناقبهم — كالشجاعة ، وصدق القتال ، والصبر عليه ... ونحو ذلك — فيعدونها ، كما يصورون مدى خسارة الدين والدولة بفقدهم ، وعظم الرزء .

فمن رثاء الخلفاء الأمويين قول عبد الله بن همام السلولى ، يرثى معاوية بن أبى سفيان (١) :

تَعَزَّوْا يَا بَنَى حَرْبٍ بَصِيرٍ فَمَنْ هَذَا الذِّى يَرْجُو الْخُلُودَ؟!
لَقَدْ وَارَى قَلْبِيكُمْ بَيَانًا وَحَلَمًا لَكِفَاءَ لَهُ وَجُودًا
وَجَدْنَاهُ بَغِيضًا فِي الْأَعَادَى حَبِيبًا فِي رَعِيَّتِهِ حَمِيدًا
أَمِينًا مُؤْمِنًا لَمْ يَقْضِ أَمْرًا فَيُوجِدُ غَيْبُهُ إِلَّا رَشِيدًا
فَقَدْ أَضْحَى الْعَدُوُّ رَحِيًّا بِالْ وَقَدْ أَمْسَى التَّقَى بِهِ عَمِيدًا
فَعَاضَ اللَّهُ أَهْلَ الدِّينِ مِنْكُمْ وَرَدَّ لَنَا خِلَافَتَكُمْ جَدِيدًا

وأهم ما يبرزه هذا الرثاء ، إحاطة السياسة الأموية ، بمثلة في المرثى ، بهالة من الرشد ، وحسن الرعاية للرعية ، وصدق النكاية في الأعداء ، حتى نالت رضا أهل التقوى والدين .

وهذا ما يجعل من مثل هذا الرثاء رثاء سياسيا ، لا مجرد تعبير عن عاطفة خاصة بين الشاعر والمرثى ؛ إذ لا يفوتنا أيضا أن نلاحظ هذه المعانى الدينية التى خلعتها الشاعر على هذه الشخصية السياسية ، فصفات الأمانة على حقوق الدين ، والإيمان ، والتقوى ، والرشد ، والاستقامة على طريق الهدى ، هى التى جعلت من فقد هذا الخليفة الأموى خسارة فادحة ، فرح بها الأعداء ، وأحزنت الأتقياء .

(١) طبقات ابن سلام ٥٢٢ . القلب : البئر القديمة ، والمراد هنا القبر ، لأنه يحفر كما يحفر القبر . لا كفاء له : لا نظير له . غبه : الغب والمغبة هنا : العاقبة . عميد : شديد الحزن . عاض : من العرض ، يقال : عاضه وأعاضه : أعطاه بدل ما ذهب منه .

ولعل في البيت الأخير ما يعبر بوضوح عن الغرض السياسي لهذا الرثاء ؛ حيث يدعو الشاعر لأهل الحق والدين ، أن يخلف الله عليهم ، من بنى أمة ، من يكون مثيلاً لمعاوية ، فيحفظ خلافتهم على خير أمرها .

وقد أكثر شعراء الأمويين من رثاء الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز ، لما عرف عنه من العدل ، والزهد ، ورعاية حق الدين ، وأكثر ما بأيدينا من الرثاء الذي قيل في خلفاء بنى أمة ، قيل في هذا الخليفة ، وربما كان ذلك لأنه يجسم بحق ما كان يدعيه الشعراء لغيره من الخلفاء الأمويين ، من المثالية السياسية للخليفة المسلم ، دون أن يكون له واقع حقيقي في سياستهم ، أما رثاء عمر بن عبد العزيز ، في ظل سياسته الرشيدة ، فإنه يفتح للشعراء أبواباً من القول ، ويتيح لهم ثروة من المعاني ، كفيلة بتحقيق الغرض السياسي ، الذين يسعون إليه من وراء هذا الفن ، لما توفره لشعرهم في رثائه من عنصر الصدق ، وما تضمنه له من قوة التأثير .

ومن جيد ما رثى به عمر بن عبد العزيز قول محارب بن دثار ^(١) :

كم من شريعة حق قد أقيمت لهم	كانت أميتت وأخرى منك تنتظر
يا لهف نفسي ونفس الواجدين معي	على النجوم التي تغتالها الحُضر
ثلاثة مارأت عين لهم شهباً	يضمّ أعظمهم في المسجد المدر
فأنت تبعهم لم تأل مجتهداً	سقياً لها سنناً بالحق تُقتفر
لو كنت أملك والأقدار غالباً	تأتي صباحاً وتباناً وتبتكر
صرفت عن عمر الخيرات مصرعه	بدير ^(٢) سيمعان لكن يغلب القدر

فقد أحكم الشاعر ربط سياسة عمر بن عبد العزيز بسياسة الخلفاء الراشدين الثلاثة الأول أبي بكر وعمر وعثمان ، وتجاهل رابعهم علي بن أبي طالب ؛ لعدم اعتراف الأمويين وأنصارهم بخلافته .

(١) مسالك الأبصار ١ / ٣٥٢ . المدر : قطع الطين اليابس الذي لا رمل فيه . تقتفر : تتبع ، من قفر الأثر

واقتره ، إذا تبعه .

(٢) دير سيمعان ، من أعمال حمص مما يلي بلاد قنسرين (مروج الذهب ٢ / ١٦٧) (البنية) ، وقيل بغوطة

دمشق على سفح جبل قيسون (الأغاني ٨ / ١٤٦) وما بعدها (ويرفض ابن فضل الله العمري هذه الأقوال ، ويقول : إنما هو في قرية يقال لها البقرة من قبل مرة النعمان (مسالك الأبصار ١ / ٣٥١ — ٣٥٢) وكانت وفاة عمر بن عبد العزيز لخمس بقين من رجب سنة ١٠١ هـ ، وانظر : الاشتقاق ٣٥٦ والعبر للذهبي ١ / ١٢٠ — ١٢٢)

فسياسته أحيت الحق ، وأماتت الباطل ، وأخذت الناس بما كانت عليه السياسة الإسلامية أيام العهد الديني الزاهر ، عهد الراشدين ، الذي كان الخليفة يترسم خطاه ، ويجتهد في السير على دربه ، ويعمل جاهداً على إحياء ما أهمل من تقاليده العادلة الصالحة . من أجل هذا يلهف الشاعر نفسه ، ونفس أهل الحق والدين ، على فقد هذا الخليفة الذي تعادل الخسارة فيه ، الخسارة فيمن سبقوه من الثلاثة الراشدين ، الذين أشار إليهم ، ويتمنى — والمنى خدع — لو أعطى القدرة على دفع المنية عنه ، وأنى له هذا ؟! فالمنية قدر ، والله غالب على أمره .

هنا فقط — أعنى في رثاء عمر بن عبد العزيز — تختفى ظاهرة المبالغة والادعاء ، وهما سمتان غالبتان على أكثر الرثاء في شعر الحزب الأموي ، بل على أكثر شعرهم السياسي باتجاهاته المختلفة .

ونحسب أن هذا الرثاء كان قوى التأثير في نفوس سامعيه من معاصري الشاعر ، كما هو قوى التأثير في نفوسنا الآن ، فنقول : رحم الله عمر بن عبد العزيز ، وأجزل ثوابه ، على ما اجتهد في رعاية دين الله ، وصلاح حال عباده .

وهذا شاعر آخر يركى في عمر بن عبد العزيز ، عدله ، وزهده في متاع الدنيا ولهوها وزينتها ، وحرصه على سلامة الدين ونقاؤه ^(١) :

قد غَيَّبَ الدَّافِنُونَ اللَّحْدَ إِذْ دَفَنُوا بَدِيرَ سِمْعَانَ قِسْطَاسَ الْمَوَازِينِ
مَنْ لَمْ يَكُنْ هُمُّهُ عَيْنًا يُفَجِّرُهَا وَلَا النِّخِيلَ وَلَا رَكْضَ الْبَرَاذِينِ
أَقُولُ لَمَّا أَتَانِي تَمَّ مَهْلُكُهُ لَا يَتَعَدَّنْ قِوَامُ الْحَقِّ وَالْدِينِ

فهذه صورة مثلى أيضا ، لما ينبغي أن تكون عليه سياسة ولى الأمر في الإسلام ، يراها الشاعر محققة في هذا الخليفة العادل ، الزاهد ، القائم في سياسة حكمه على الحق والدين .

(١) ينسب هذا الشعر للفرزدق مع بعض الاختلاف في الرواية في مروج الذهب ٢ / ١٧٤ (البهية) ويروى دون عزو ، في الكامل للمبرد ٢ / ٢١٣ (الاستقامة) وتاريخ الطبرى ٨ / ١٤١ ، قسطاس الموازنين : كناية عن وصفه بالعدل . لم يكن همه ... الخ أراد أنه لم يكن مشغولا بالدنيا ، حريصا على متاعها ، وإنما كان همه الدين والآخرة . ركض البراذين : جمع برذون : الدابة ، كناية عن اللهو واللعب .

ومع أن شخصية عمر بن عبد العزيز وسياسته ، كانت ثرية رحية في جوانب الحق والخير ، والعدل ، بحيث لا تحوج القائل فيها إلى تزيد أو مبالغة ، فقد أرى بعض الشعراء إلا أن يطبع شعره في رثاء هذا الخليفة بطابع شعر الأموية بعامة ، من المبالغة والتهويل والادعاء .

ومن عجب أن نجد هذه الظاهرة في شعر جرير ، يرثي الخليفة عمر بن عبد العزيز ، مع أنه واجد — مع أصالة فنه ، وتوهج موهبته — من واقع شخصية المرثى وسياسته ، ما كان يرضى فنه ، ويبرز عبقرية الشعرية ، دون حاجة إلى التردى في هوة المبالغة المرفوضة ، والادعاء الذى يجافى الحق والعقل والدين ؟!

يقول جرير (١) :

تَنعَى النِّعَاةَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَنَا يَآخِيْرَ مِنْ حَجِّ بَيْتِ اللَّهِ وَاعْتَمَرَ
حَمَلْتُ أَمْرًا جَسِيمًا فَاصْطَبَّرْتُ لَهُ وَقَمْتُ فِيهِ بِحَقِّ اللَّهِ يَاعُمَرَ
فَالشَّمْسُ طَالَعَةٌ لَيْسَتْ بِكَاسِفَةٍ تَبْكِي عَلَيْكَ نَجْمَ اللَّيْلِ وَالْقَمَرَ

فهنا مبالغة غير مقبولة ، تبدو في إطلاق المعنى في الشطر الثانى من البيت الأول ، وفي ادعاء أن الشمس — مع أنها طالعة — لم يحجب ضياؤها الكواكب والقمر ؛ لأنها حزينة لفقد الخليفة ، ومن ثم فقد ذهب ضياؤها .

ويؤكد ما ذكرنا من أن شخصية عمر بن عبد العزيز وسياسته ، كانتا عامرتين بالخير ، مما ينفى الحاجة إلى المبالغة في الحديث عنها إشادة أو رثاء ، أن من أعداء بنى أمية — بخاصة من الشيعة — من بكى عمر بن عبد العزيز بعد وفاته ، وأثنى عليه وعلى سياسته ؛ لأنه كان بحق خير بنى أمية .

ففى رثائه يقول الشريف الرضى — الشاعر العباسى : (٢)

يَا بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ لَوْ بَكَتِ الْعَيْدُ مِنْ فِتْنٍ مِنْ أُمِيَّةٍ لِبَكِيَّتِكَ
أَنْتَ نَزَّهْتَنَا عَنِ السَّبِّ وَالشَّتِّ حِمِّ فُلُو يُمْكِنُ الْجَزَا لَجَزِيَّتِكَ
قَبَّرَ سَمْعَانَ لَأَعْدَتِكَ الْعَوَادَى خَيْرٌ مَيِّتٍ مِنْ آلِ مَرْوَانَ مَيِّتِكَ

(١) ديوانه ٣٠٤ والكمال للمبرد ٢ / ٢١٠ (الاستقامة) والعقد الفريد ٣ / ١٧٣ (الجمالية) .

(٢) مسالك الأبصار ١ / ٣٥٢

ومن رثاء عمال بنى أمية وقوادهم وأبطاهم : قول الفرزدق يرثى الحجاج (١) :
 ليبيك على الإسلام مَنْ كان باكيا على الدين أو شارب على الثغر واقف
 إلى أن يقول :

وما ذرفت عيناى بعد محمد على مثله إلا نفوس الخلائف

فالفرزدق يخشى على الإسلام بعد فقد الحجاج ، ويبدى من الجزع عليه ، مالم يده على فقيد من غير الخلفاء .

والتكلف فى هذا الشعر واضح ، والشاعر يركب فيه مركبا صعبا ، إذ جرت المبالغة إلى أن يختار هذا المعنى ليرثى به الحجاج ، وهو من هو فى الجرأة على الدين ، وانتهاك حرمة الكعبة ، بضربها بالجانيق ، وإحراق ستائرهما ، فى حصاره لابن الزبير ، فضلا عن استهتاره بسفك دماء المسلمين ، والشاعر نفسه يشهد بأنه لم يكن صادقا فى هذا الرثاء ، وإنما قاله إرضاء للخليفة الوليد بن عبد الملك ، ولما عوتب فى ذلك من ابن عباس أظهر ندمه (٢) .

ولما مات القائد والفارس الأموى أبو غسان مالك بن مسعم (٣) الشيبانى البكرى ، وكان من أبطال الأمويين فى حروبهم ضد مصعب ابن الزبير بالعراق ، رثاه جرير ، معتمدا هو الآخر أسلوب المبالغة والتحويل فى هذا الرثاء ، بقوله (٤) :

بَحْرَى قَوْمَى هَبْجَى الْأَحْزَانَا وَاسْتَعْجِلْنَ بدمعك الأرنأنا
 ولقد تواضع مَنْ بحضرة مالك ما بين مصر إلى قصور عُمانَا
 قالت ربيعةُ إذ تُوفى مالك لا رُزءَ أكبر من أبى غسانَا
 ولقد تركت بنى الزبير بمأزق لاطاعة تبعوا ولا سلطانَا

فجرير يستدر الدموع على هذا الفارس الفقيد ، ويصور الفجعية فيه شديدة

(١) ديوانه ٥ والعقد الفريد ٣ / ٢٥٨ . محمد : يقصد أبا محمد ، وهى كنية الحجاج .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) ممن شهد صفين مع معاوية ، وقاتل مصعب بن الزبير يوم الجفرة بالبصرة وأبلى بلاءً حسناً ، وفقد إحدى عينيه فى هذه المعركة ، ولما غلب مصعب على البصرة هدم داره ونهب متاعه . توفى سنة ٧٣ هـ . انظر : الكامل لابن الأثير ٤ / ٢٧٨ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٦٣ وتاريخ الطبرى ٧ / ١٨٢

(٤) ديوانه ٥٨٢ . بحرى : اسم امرأة . الأرنأنا : الصراخ والعويل . تواضع : المراد هنا : أطرق فى حزن خاشع .

حتى لقد استشعرها المسلمون في أنحاء الدولة ، من مصر إلى عُمان ، فأطرقوا في حزن أليم خاشع .

أما قومه بنو ربيعة ، فمصيبتهم فيه أعظم وأجل ، فقد فقدوا بموته بطلهم الشجاع ، الذى لاعوض له .

وأخيرا يقدم جرير صورة من صور بطولة المرثى ، وتفانيه في خدمة الأموية، ومجالدته أعدائها بالعراق، فينوه بلاء مالك «يوم الحُفْرة»^(١) وهو يوم وثبت فيه المروانية على الزبيرية.

د: نظرات فنية في شعر الأموية السياسى :

نوجز هنا أبرز الملامح الفنية الهامة ، التى يمكن استخلاصها من الدراسة التحليلية السابقة ، لشعر الأموية السياسى ، بمختلف ألوانه ، مع ملاحظة أننا لم نستكثر من نماذج هذا الشعر ، لما وجدنا من اضطراب ظواهره الفنية ، فقليله يغنى عن كثيره .

١ — امتزاج المعانى الدينية ، بالعناصر السياسية ، بخاصة في الأشعار التى اتجهت إلى خلفائهم ، وكبار رجال دولتهم ، تشيد بهم ، وتصور سياستهم .

ففيها تكثر المعانى الدينية ، التى حرص الشعراء في كل حزب على إضافتها إلى زعمائهم ، كما تترد كثير من المعانى السياسية العامة ، التى من شأنها أن تجعل من سياستهم نموذجاً مثالياً للسياسة الإسلامية في رعاية مصالح الرعية ، دينا ودنيا ، كحسن السياسة ، والسهر على مصالح الرعية ، والبراعة في تدبير شئون الملك ، وإخماد الثورات والفتن ، والوقوف بالمرصاد لأعداء الإسلام على الثغور ، وتصوير عظمة ملكهم ، وقوة سلطانهم ، وكثرة أنصارهم ، واتساع دولتهم^(٢) .

رأينا هذا في مدح الأخطل لبنى أمية بعامه ، ومدح عدى بن الرقاع للوليد بن عبد الملك ، وإشادة أبى العباس الأعمى بمكارم بنى أمية ... وغيرها ، وقد مر بنا تحليل هذه الظاهرة في صدر دراسة شعرهم .

(١) كان هذا اليوم سنة ٧٠ هـ . راجع في خبره ، وبلاء مالك فيه : الكامل لابن الأثير ٤ / ٦٠ ٣ (بيروت)

وتاريخ الطبرى ٧ / ١٨٢

(٢) اتسعت رقعة الدولة الإسلامية أيام حكم الأمويين ، وامتدت من المحيط الأطلسي إلى ما وراء حدود الهند والتركستان ، ومن المحيط الهندي إلى بلاد القوقاز . وإلى أسوار القسطنطينية ، وخاصة في خلافة الوليد بن عبد الملك ، حيث غزت جيوشه قلب أوروبا الغربية . انظر : دولة الأمويين (د. على حبيبة) ص ١١ ومابعداها .

٢— حاول بعض شعرائهم أن يصور الخليفة الأموي في صورة أقرب إلى القداسة ، تشبه إلى حد كبير مايسمو إليه الشيعة بأئمتهم ، فقد استعاروا بعض صفات الأئمة في الشعر الشيعي ، ونسبوها إلى بعض الخلفاء ، كالمهدية ، والحق الإلهي القائم على اختيار الله ، ووراثه علم الأنبياء ... وغير ذلك ، مما تأثروا فيه بالشيعة ، وأسبغوه على خلفائهم وممرت بعض نماذجه ، كمدح جرير لسليمان بن عبد الملك ، ومدح الفرزدق له، ولأخيه يزيد ، وقد فسرنا هذه الظاهرة في ثنايا دراستنا لأشعارهم في هذه الناحية .

٣— شيوع المعاني الدينية في شعرهم المناهض للخصوم (الهجاء السياسي) ؛ إذ كانوا يدركون أن كل حزب من الأحزاب المعارضة ، يدعى لنفسه حقا شرعيا ، قائما على أسس دينية ، فالشيعة يدعون الحق بالإرث والوصية لعلّ بن أوى طالب — رأس الأئمة — والنص عليه ، والخوارج يستندون إلى أن الإسلام يسوى بين المسلمين في الحقوق والواجبات ، وأن الخلافة حق للمسلمين ، يتولاها منهم أصلحهم لها ، فهى ليست قاصرة على قريش ، أو أهل البيت منهم ، والزبيريون يرون أنهم أحق من بنى أمية القرشيين مثلهم ، الذين تحولوا بالخلافة إلى النظام الملكى ، بإقرارهم نظام ولاية العهد فى الأعقاب ، ثم إنهم استأثروا بأموال المسلمين ، وحققهم فى الفىء ، وفوق هذا ، فإن يزيد ابن معاوية الذى خرج عليه ابن الزبير فاسق ، لاتبوز ولايته ، وابن الزبير بتقواه وورعه ، وحرصه على مال المسلمين ومصالحهم أحق منه .

من هنا اهتم شعراء الأمويين بسلب هذه الأسس والمعاني الدينية فى مناهضتهم لزعماء هذه الأحزاب ، فكثرت وصفهم بالكفر والضلال ، واستباحة المحرمات ، والانقياد للشيطان ، واتباع الهوى ، والابتداع فى الدين ... وغير ذلك مما ظهر فى نماذج شعرهم فى الهجاء .

ومع ذلك فهذا الاتجاه ليس سمة فنية يختص بها شعر الأمويين هذا ، فهو يكاد يكون اتجاها عاما فى الشعر السياسى ، الذى يتصدى للخصوم ، لدى الأحزاب جميعا .

٤— ضعف عنصر الصدق الانفعالى فى شعر الأمويين بعامه ؛ وذلك لكثرة الشعراء المتكسبين ، المدفوعين بالرغبة ، فى الاعتراف من عطاء بنى أمية ، فى صفوفهم . وآية هذا الضعف شيوع المبالغة والتحويل والادعاء ، وافتعال المواقف فى كثير من نماذجه ،

فقطع الشعراء في أن يزيد ما ينالونه على أشعارهم من منح الأمويين وهباتهم ، هو الذى دفعهم إلى استيحاء عقولهم ، ومهارتهم اللغوية ، أكثر من استيحاء عواطفهم ، فأجهدوا أنفسهم في اختيار اللفظ ، وصنعة العبارة ، والجرى وراء الخيال ، والمبالغة في المعاني .

وفيما عرضناه من نماذج شعرهم ما يؤيد صدق هذه الملاحظة ، وقد تخرج المبالغة على لسان بعض شعرائهم إلى حد الغلو البعيد كل البعد عن تصور العقل ، ورعاية جانب الدين ، كما رأينا في مدح الفرزدق ليزيد بن عبد الملك .

* * * *

— ٣ —

شعر الخوارج :

نذكر هنا بما سبق أن أشرنا إليه في صدر حديثنا عن آراء الخوارج وعقائدهم ^(١) ، ونضيف إليه ما يساعدنا على تفهم نفسية الخوارج وشخصيتهم ، التى عنها صدر أدبهم .

يعد حزب الخوارج من أعرق الفرق الإسلامية ، التى كانت تستمد أصول مقولاتها من أفكار دينية ؛ لأنها إنما خرجت من أجل الدين ، دفاعاً عن أوامره الصريحة التى انحرف عنها المسلمون — فى نظرهم — بقبولهم فكرة التحكيم ، بعد موقعة صفين ، ثم سرعان ما اضطغت أفكارهم بنزعات وآراء ونظريات سياسية ، آمنوسا بها ، واتخذوها جزءاً من عقيدتهم .

من أجل هذا اجتمع الخوارج ، بفرقهم المختلفة ، على تكفير على ^(٢) ومعاوية

(١) راجع ص ٤٦ — ٥٠ من هذه الدراسة .

(٢) كان مما ناقش فيه الخوارج على بن أبى طالب — زاعمين خروجه على الدين فيه — أنه أباح لهم ما فى عسكر أهل الجمل ، بعد هزيمتهم من الأموال ، ومنعهم من سبى النساء والذرائى ، قائلين : كيف استحللت ما لهم دون النساء والذرية ؟ كما نعموا منه نحو عبارة (أمير المؤمنين) قبل اسمه ، فى الكتاب الذى أرسله إلى معاوية بقبول التحكيم ، وأخذ عليه أنه شكك فى حقه ، حين قال للحكمين : إن كنت أهدأ للخلافة فأثبتانى . قائلين : إن كنت فى شك من خلافتك ، فغيرك بالشك فيك أولى . كذلك قالوا له : لم حكمت الحكمين فى حق كان لك ؟ . وقد ناقشهم على فى كل هذا ، ورد عليهم ، فى كلام طويل ، راجع فيه : الفرق بين الفرق ٥٨ — ٥٩ ، وانظر : مروج الذهب ٢ / ٤٠ (البية) .

وأتباعهما ، وأكثرهم يؤمنون بوجوب الخروج على الإمام الجائر ، وأن الخلافة حق مشترك بين المسلمين ، يتولاها الصالح للنهوض به ، من أى جنس أو طبقة ، فليس بلام أن يكون الخليفة عربيا ، ولا قرشيا ، كما يرى الزبيريون ، ولاها شميا ، كما يرى الشيعة ، ولا أمويا ، كما يحرص بنو أمية .

أى أنهم كانوا دعاة المساواة الإسلامية ؛ ولذا امتازوا فى شعرهم السياسى الدينى بشيء تفردوا به ، وامتازوا عن غيرهم فيه ، هو التفاهم حول المبادئ ، لآحول شخص ، أو جنس ، أو قبيلة ، أو عائلة ^(١) .

وعلى هذا الأساس ، فالخوارج حزب ثورى ، جامع ، صريح العداء للدولة الأموية القائمة على وراثة الملك ، لاعلى ديمقراطية الانتخاب العام بإجماع الأمة ، لأصلح المسلمين للإمامة حسب نظرية الخوارج السياسية التى تدور حول الخلافة ، والتى تستند إلى أسس دينية ، محورها توجيه شئون المسلمين العامة ، وفقا لأوامر الله ونواهيه ، كما تبدو فى ظاهر النص القرآنى .

ومن هنا كان الخوارج من أشد الناس تمسكا بالقرآن ، وأكثرهم عكوفاً على تلاوته وحفظه وتفهم ظاهر نصوصه ، فكان القرآن بهذا ، قوى التأثير فى حياتهم ، استشهدوا بآياته فى تأييد وجهة نظرهم ، كما تمثلوه ، وصدروا عنه فى حياتهم المختلفة .

ولما كان الخوارج هم الحزب الوحيد البرىء من مطامع الخلافة ، والمطالبة بها ، فقد تصوروا أنفسهم حماة الدين ، المجاهدين فى سبيله ، وتحمسوا لهذه العقيدة — ولكل عقائدهم — تحمسا شديدا ، وآمنوا بها إيمانا قويا ، يبعثه ويغذيه ، الشعور بأنهم ينتصرون لمبادئ ، منزهة عن الأغراض والأهواء ، فاندفعوا يحاربون عليها جهارا ، لا يخفون شيئا ، ولا يطيئون من شيء ، ولا يطيئون غير ما يحاربون من أجله .

لهذا كان من مميزات شخصيتهم أيضا ، الصدق والصراحة ، وهما من مميزات سلوكهم ^(٢) وأدبهم ، فجاء هذا الأدب قويا ، شديد التأثير فى النفوس ، سريع النفاذ إلى القلوب ، يزيد من قوته وتأثيره ما يعكسه من شدة التلازم بين المذهب الأدبى (الصدق

(١) لمزيد تفصيل . انظر: أدب الخوارج ٤٤

(٢) انظر مزيد تفصيل لاتسام سلوك الخوارج بالصدق والصراحة : أدب الخوارج ٤٦

والصراحة في القول) وواقع السلوك في الحياة العملية ، فاجتمع فيه الصدقان : « الصدق الفنى والصدق الاجتماعى » ^(١) .

وملمح آخر من ملامح شخصية الخوارج ، التى انعكست فى أدبهم بعامة ، وشعرهم بخاصة ، نتلمسه من خلال حروبهم الكثيرة مع خصوم فرقتهم — بخاصة المؤمنين — حيث نراهم يمتازون بالاندفاع والشجاعة والبطولة والحماس ، فاتخذت شخصيتهم طابعا فذاثيا ، فكل منهم يقبل على الموت حريصا على الاستشهاد ، إقبال غيرهم على الحياة ، وحرصهم عليها ، فغدا الموت أمنية يحرص عليها الخارجى فى حروبه ، ويسعى وراءها ، « إذ لم يعد الموت (فى نظرهم) إلا دخول الجنة ، أو لقاء الإخوان والأحباب والأبرار الأتقياء ، الذين تقدموا على الطريق » ^(٢) .

وقد بلغ من شدة تحمسهم ، وإيمانهم بمذهبهم ونظريتهم ، وإقدامهم على الموت فى جراحة نادرة ، دفاعا عنهما ، وحبا فى الشهادة ، أن دوت فتات قليلة منهم ، جموعا غفيرة للمؤمنين ، ولولاهم بالعراق ، ويكفيها فى هذا المقام أن نذكر أن الحجاج بن يوسف وجه ثمانية من القواد لقتال شبيب بن يزيد الشيباني الخارجى وأصحابه ، خلال سنتى ٧٦ ، ٧٧ هـ ، فهزمهم شبيب جميعا ، وقتل خمسة منهم ، مما اضطر معه الحجاج إلى الخروج إليهم بنفسه ، وأكثر ما كان شبيب فى مائتى رجل من الخوارج ، ومع ذلك كانوا يهزمون الألوفا ^(٣) .

وإذ كان التلازم قويا بين شخصيتهم السلوكية وأدبهم ، فقد جاء شعرهم ، الذى يتحدث عن معاركهم ، ويصور بطولاتهم تصديرا حماسيا جامحا ، مندفعا اندفاعهم فى حروبهم ، قويا قوة اقتحامهم الأهوال والمخاطر .

وتتضح شخصية الخوارج ، المتحمسة لمذهبها ، الواثقة من صواب بصيرتها فى الدين ، المؤمنة بضلال من عداهم ، المندفعة فى شجاعة إلى مناوأة أعدائها ، يتضح هذا كله من رسالة قطري بن الفجاءة ^(٤) ، ردًا على رسالة بعث بها الحجاج إليه ،

(١) شعر الخوارج ٣ .

(٢) المصدر السابق

(٣) راجع تفصيل ماأشرنا إليه فى : العبر للذهبي ١ / ٨٦ — ٨٨ ، وعيون الأخبار ١ / ١٢١ ، وتاريخ

الطبرى ٧ / ٢٢٢ ومابعدها .

(٤) أبو محمد قطري بن الفجاءة (واسم الفجاءة جَعُونَة ، وقيل مازن) أحد بنى مازن بن مالك بن عمرو بن

تميم ، ولقبه فى الحرب أبو نعام ، وهو منسوب إلى قطر قرب البحرين ، قيل : اسمه جعونة ، وقيل هذا اسم أبيه الفجاءة ، من فحول شعراء الخوارج ، ورأس من رؤوس الأزارقة ، تولى أمرهم فترة طويلة تقدر بعشرين سنة ، خرج أيام =

يقول فيها ^(١) :

«بسم الله الرحمن الرحيم : من الحجاج بن يوسف إلى قطرى بن الفجاءة .
سلام عليك .

المُوَحَّدُ الله ، والمُصَلَّى عليه محمد عليه السلام . أما بعد :
فإنك كنت أعرايا بدويا ، تستطعم الكِسْرَةَ ، وتحف إلى التمرة ، ثم خرجت تحاول
ماليس لك بحق ، واعترضت على كتاب الله ، ومقرت من سنة رسول الله ﷺ ،
فارجع عما أنت عليه ، بما زُيِّن لك ، وادْعُنِي ، فقد آن لك » .
فرد عليه قطرى بقوله :

« بسم الله الرحمن الرحيم : من قطرى بن الفجاءة ، إلى الحجاج بن يوسف .
سلام على من اتبع الهدى .

ذكرت في كتابك أنى كنت استطعم الكِسْرَةَ ، وأبدر إلى التمرة ، وبالله لقد قلت
زورا ، بل الله بصّرني من دينه ماعماك عنه ، إذ أنت سائح في الضلالة ، غرق في غمرات
الكفر .

ذكرت أن الضرورة (الفقر) طالت بي ، فهلا برز لي من حزيك مَنْ نال الشَّيْعَ ،
وأتكأ فائدع ، أما والله لئن أبرز الله صفحتك ، وأظهر لي صُلْعَتَكَ ، لتنكرن شبعك ،
ولتعلمن أن مقارعة الأبطال ، ليست كتسطين الأمثال » .

والعلة التي عمت الخوراج بالنجدة والشجاعة والبطولة ، استواء حالاتهم في
الديانة ، واعتقادهم أن القتال دين — كما يذكر الجاحظ ^(٢) .

وهذا ما يعلل مانراه في شعر الخوراج من ترديد المعاني حول استعذاب الموت في
سبيل العقيدة ، والاستخفاف بالمخاطر ، دفاعا عن حقوق الله والإسلام ، كما يعلل كثرة
ذكرهم لأبطالهم وشهادتهم ، ومواقفهم .

= مصعب بن الزبير بالعراق وبقي ثلاث عشرة سنة يقاتل ، ويسلم عليه بإمرة المؤمنين ، وكان أيضا من مقدمي فرسان
الخوارج ، حتى ليقال : ما استحي شجاع أن يفر من قطرى بن الفجاءة . قتل بالرى في أواخر أيام الحجاج سنة ٧٨ هـ
أو ٧٩ هـ . انظر : الطبري ٧ / ٢٧٤ والعبر للذهبي ١ / ٩٠ وعيون الأخبار ١ / ١٧٥ والاشتقاق ١٣٨ ، ٢٠٥
والتذكرة السعدية ٧٠ وذيل أمالي القالي ١٥ والخزانة ٣ / ٣٦١ وابن خلكان ١ / ٥٤٤ وزهر الآداب ٤ / ١٦٢
(١) الكامل للمبرد ١ / ٢٧٠ تحف إلى التمرة : تسرع ، يعني أنه كان فقيرا معدما . أبدر : أسرع . فائدع :
من الدعة ، النعمة والترفع .

(٢) رسائل الجاحظ ١ / ٥١

تلك أهم القسمات البارزة لشخصية الخوارج الدينية ، والنفسية ، والسلوكية ، وهى التى طبعت شخصيتهم الأدبية بطابعها ، فخلفت شعرا يعكس نفوسهم المؤمنة ، الثابتة على مبادئها ، كما يصور حياتهم ، ويعبر عما يجول فى رعوسهم ، وتهفو إليه قلوبهم ، من حب الشهادة فى سبيل الحق ، الذى خرجوا من أجله ، واستهانوا فى سبيله بما صادفهم من عقبات وصعاب ، حاكيا مع هذا بطولاتهم ، واستبسالهم فى حماسة دينية منقطعة النظير ، حفزتهم إلى الإقبال على حياض الموت ، دون خوف أو وجل ، بل فى رضا وطمأنينة ، واستبشار برضوان الله ومغفرته ، كل منهم ينشد الموت شهيدا ، فى ساحة الجهاد الدينى ، الذى وهب نفسه له ، إيمانا منهم بأنهم وحدهم أهل الحق والهدى ، ومن عداهم جميعا على الكفر والضلال .

روى ابن قتيبة أن الفرزدق الشاعر مرّ يوما على أحد زعماء الخوارج بالبصرة ، ويدعى عاصم بن الحدثنان ، فقال عاصم لابنه : أنشده ، فأنشده شعرا يمجّد بطولة الخوارج ، ثم قال عاصم للفرزدق : يا فرزدق : هذا شاعر المؤمنين (يعنى الخوارج) وأنت شاعر الكافرين (يعنى من عداهم) ^(١) .

لعلنا أدركنا من هذا الحديث عن شخصية الخوارج ، وطابع أدبهم ، المحاور الموضوعية التى دارت حولها أشعارهم ، مفرزة صورا عديدة لجوانب حياتهم الإنسانية والدينية والمذهبية ، وبطولاتهم فى معاركهم الحربية ، وآرائهم فى مخالفهم ، وإعظامهم لأمر الشهادة فى سبيل الدفاع عن معتقدهم ، وإكبارهم لشهادتهم ، والتنويه بما أعد الله لهم من جنات عدن ، لهم فيها مستقر ومقام .

* * * *

يرسم شعر الخوارج صورا قوية الملامح ، لميولهم الدينية ، فينوه بتقواهم ، وزهدهم فى الدنيا ومتاعها ، وحرصهم على أداء فرائض الدين ، وحنينهم الدائم لما وعد الله به عباده المتقين ، وخوفهم الشديد مما أوعد به الجاحدين والعاصين ، وخشوعهم المؤمن لله ،

وإقبالهم في شغف ونهم على تلاوة القرآن ، تجرى به ألسنتهم ، وتتدبر معانيه عقولهم ، وتستوعب هديه قلوبهم ، كانوا يتعبدون به ، ويفكرون فيه آناء الليل ، وأطراف النهار .
نعم ، صور شعرهم هذا الجانب الديني في شخصيتهم ، على مثال ما وصفهم به واحد منهم في نثره ، وهو أبو حمزة الشاربي ، الذي يقول عنهم : شباب والله مكتهلون في شبابهم ، غضيضة عن الشر أعينهم ، ثقيلة عن الباطل أرجلهم ، أنضاء عبادة ، وأطلاح سهر ، فنظر الله إليهم في جوف الليل ، منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن ، كلما مرَّ أحدهم بآية من ذكر الجنة بكى شوقاً إليها ، وإذا مرَّ بآية من ذكر النار شقق شهقة خوفاً منها ، كأن زفير جهنم بين أذنيه ، موصول كلالهم بكلالهم ، كلال الليل ، بكلال النهار ، قد أكلت الأرض ركبهم وأيديهم وأنوفهم وجباههم من كثرة السجود ، يستقلون ذلك في جنب الله ^(١) .

كما يرسم شعرهم صوراً لميولهم الثورية ، وشجاعتهم ، وبطولتهم ، واقتحامهم الأهوال ، واستهانتهم بالمخاطر ، وترحيبهم بالاستشهاد في سبيل عقيدتهم .
أ : صور من شخصية الخوارج المذهبية :

يث شعر الخوارج في ثنايا تعبيره عن المعاني والصور التي ذكرناها ، غير قليل من عقائدهم ، ونظرياتهم المذهبية ، يرسلها شعراؤهم لإرسالا ، ويقررونها كما آمنوا بها ، لا يقصدون بذلك إثارة جدل حولها ، ولا يهتمون بإقامة الحجج والبراهين على صوابها ، من نص منقول ، أو منطق معقول — كما فعل الشيعة مثلاً .

وهذا المنهج التقريري يمكن أن يفسر ، بما ذكره بعض الباحثين ^(٢) ، من أن شعور الخوارج الديني لم يكن شعور المفكرين المتفلسفين ، وإنما كان شعور أعراب سدج ، لم يدرسوا ، ولم يحثوا ، أو يعملوا أو يحللوا ، فقد آمنوا بما آمنوا به إيماناً قويا متعصبا ؛ لأن في طبعهم التعصب ، مندفعاً ، لأن في طبيعتهم الاندفاع ، ولهذا لانجد في شعرهم الديني المذهبي جدلاً ، أو دفاعاً بالحجج والبراهين ، وإنما نجد نغماً دينياً مؤمناً ، قويا في إيمانه ، ساذجاً ، بسيطاً ، يستمد جماله من هذه القوة والبساطة والسذاجة .

(١) البيان والتبيين ٣ / ١٢١

(٢) الدكتور سهر القلماوي في أدب الخوارج ٤١

وهذا الوصف للناحية المذهبية في شعر الخوارج معقول إلى حد كبير ، إذا لاحظنا أن شعر الخوارج المذهبي إنما صدر عنهم ، ليصور إيمانهم بعقائدهم ، واستمسакهم بها ، وثباتهم عليها ، لاليقويها بالحجج والبراهين .

فلنأخذ مثلاً ، قول الصَّحاري بن شبيب ^(١) الصَّفري الخارجي : (٢)
 إنني شارٍ بنفسي لِرَبِيٍّ تاركٌ قِيلاً لديهم وقالاً
 بائعٌ أهلي ومالي وأرجو في جنان الخُلْد أهلاً ومالاً

فهو يشير إلى مبدأ الخوارج ، الذي لا يحيدون عنه ، وهو الثورة ، والخروج على السلطان الجائر ، مضحين في سبيل ذلك بالنفس والأهل والمال ، راجين أن ينالوا جزاءهم عند الله في الآخرة .

والشاعر يقرر هذه العقيدة ، دون أدنى محاولة لإثبات صوابها بالبرهان ، بل إنه لا يقبل جدلاً (قيلاً وقالاً) من أحد حول هذا الاعتقاد .

ووقف جماعة من أسرى الخوارج بين يدي الحجاج ، فلما أمر بقتل رجل منهم ، قال الرجل له : « اسمع مني بيتين ، أختم بهما عملي ، ثم أنشأ يقول (٣) :
 أبراً إلى الله من عمرو وشيعته ومن على ومن أصحاب صفين
 ومن معاوية الطاغى وشيعته لا بارك الله في القوم الملاعين

هذا الخارجي يقرر اعتقاده في كفر على ومعاوية وعمرو بن العاص وشيعتهم جميعاً ، ويجعل النطق بهذا الاعتقاد قريناً يتقرب بها إلى الله ، وهو في طريقه إلى رحابه ، بعد أن يفرغ من إنشاده ، وتقريره هذه العقيدة ، وهو على أعتاب الموت ، دليل على يقين اعتقاده ، وهذا هو كل ما يعنيه ، أما أن تكون هذه المقولة صواباً أو غير صواب

(١) فارس من فرسان الخوارج ، وابن قائد الخوارج الصفرية المشهور ، شبيب بن يزيد الشيباني الذي خرج أيام عبد الملك بن مروان ، وقاد حملات كثيرة ضد الحجاج ودوخ جيوشه حتى قتل غرقاً بنهر دجيل سنة ٧٧ هـ واستخلف على الجيش زوجته غزالة الخارجية أم الصحاري هذا ، أما الصحاري فقد خرج على خالد بن عبد الله القسري وإلى العراق لهشام بن عبد الملك سنة ١١٩ هـ فهزمه خالد وقتله . انظر . تاريخ الطبري ٨ / ٢٤٦ ، وانظر في أخبار شبيب أبيه : عيون الأخبار ١ / ١٢٢ ، والفرق بين الفرق ٨٩ — ٩٢ ، وتاريخ الطبري ٧ / ٢٢٢

(٢) الشعر في تاريخ الطبري ٨ / ٢٤٧ وشعر الخوارج ٧٣

(٣) الفرق بين الفرق ٩٢ وهما لأبي المصلك الطائي في شعر الخوارج ٦٨

في نظر غيره ، فهذا ما لا يعنيه .

أما الرَّهْمَنُ بن سَهْم المَرَادِي الخارجي ^(١) فيذكر ما ذكره الصحاري بن شبيب من عقيدة الخروج والتضحية في سبيله ، ويضيف أنه يتمنى الموت حتى يدرك إخوانه الذين سبقوه إلى الفردوس ، وهو على يقين من أن هذا هو مصيرهم ؛ ولذا فهو يتعجل اللحاق بهم ^(٢) :

إِنِّي لِبَائِعٍ مَا يَفْنَى لِبَاقِيَةٍ إِن لَمْ يَعْفُنِي رَجَاءُ الْعَيْشِ تَرْبِيعَا
وَأَسْأَلُ اللَّهَ بِيَعِ النَّفْسَ مُحْتَسِبًا حَتَّى الْأَقْبَى فِي الْفَرْدُوسِ حَرْقُوصَا
وَابْنُ الْمَنِيحِ وَمَرْذَأَسًا وَإِخْوَتَهُ إِذْ فَارَقُوا زَهْرَةَ الدُّنْيَا مَخَامِيعَا
تَخَالُ صَفْهَهُمْ فِي كُلِّ مُعْتَرِكٍ لِلْمَوْتِ سَوْرًا مِنَ الْبَنِيَانِ مَرْصُوصَا

يعني أنه اشترى الآخرة بالدنيا ، ولذا فهو يتمنى الشهادة ، طمعا في الفردوس ، الذي أعده الله للشهداء من أبناء طائفته .

ويقول عِمْرَانُ بن حِطَّانٍ ^(٣) يشيد بعبد الرحمن بن ملجم قاتل علي بن أبي طالب ، مبشرا إياه بحسن المثوبة على هذا العمل عند الله ^(٤) :

(١) رجل من مراد ، كان لا يرى القعود عن الحرب ، وكان في الدهاء والعلم والشعر والفقه بمقولة الخوارج بمنزلة عمران بن حطان الآتي ذكره . انظر : الكامل للمبرد ٣ / ١٥٦

(٢) شعر الخوارج ٣٢ / ١٥٦ والكامل للمبرد ٣ / ١٥٦ وحرقوص الثاني هو : حرقوص بن زهير البجلي المعروف بذي الثدية ، أحد فرسان الخوارج الذين قتلهم علي بن أبي طالب يوم النهروان سنة ٣٧ هـ . انظر : الفرق بين الفرق ٥٧ ، ومروج الذهب ٢ / ٤١٧ ، (السعادة) والكامل للمبرد ٣ / ١٣٠ (الأزهرية) . تربيعا : انتظارا وتأخيرا .

(٣) أبو سماك (أو أبودلان) عمران بن حطان بن طبيان السُدُوسِي من بني ذهل بن ثعلبة ، من بكر بن وائل ، رأس القعدة من الخوارج الصفرية ، بعد أبي بلال مرداس بن أدية الآتي ذكره ، وخطيبهم ، ومفتيهم ، وشاعرهم ، أدرك جماعة من الصحابة وروى عنهم ، ثم لحق بالشراسة فطلبه الحجاج فهرب إلى الشام ، ثم طلبه عبد الملك ففر إلى عمان ، ولما طال عمره قعد عن الحرب واكتفى بالتحريض ، والدعوة بشعره ، وله مسائل كثيرة من أبواب العلم في القرآن والسنة والآثار وغيرها . توفي سنة ٨٤ و قبل ٨٩ هـ ، انظر : خزنة الأدب ٢ / ٤٣٦ والتذكرة السعدية ٣٨٤ وأمالى المرتضى ١ / ٦٣٥ والأغانى ١٦ / ١٤٦ وفي إشارته القعود انظر : شعر الخوارج ١٠ — ١١

(٤) الأغاني ١٦ / ١٤٧ وشعر الخوارج ٢٦ ومروج الذهب ٢ / ٤٣ (البيهة) والكامل للمبرد ٢ / ٩٥ (الأزهرية) .

يَاضِرِيَّةٌ مِنْ تَقِيٍّ مَا أَرَادَ بِهَا إِلَّا لِيَلْغَ مِنْ ذِي الْعَرْشِ رِضْوَانَا
إِنِّي لِأَذْكُرُهُ حِينًا فَأَحْسِبُهُ أَوْفَى الْبَرِيَّةِ عِنْدَ اللَّهِ مِيزَانَا
لِلَّهِ دَرُّ الْمُرَادِيِّ الَّذِي سَفَكْتُ كِفَاءَ مَهْجَةِ شَرِّ الْخَلْقِ إِنْسَانَا
أُمْسَى عَشِيَّةً غَشَّاهُ بِضَرِبَتِهِ مِمَّا جَنَاهُ مِنَ الْآثَامِ عُزْيَانَا

فهذا الخارجى يذكر أن ابن ملجم قتل عليا ابتغاء مرضاة الله ، وأن جزاءه لعظيم عنده الله ، بل هو أفضل الخلق عنده ، وأن هذا العمل قد غفر له ماتقدم من ذنوبه . ولكن هل تكفى هذه الدعاوى حجة تبرر جريمته ؟! ولم يهتم بتعليل المنزلة التى ادعاها للقتال ، هل لأن عليا شر الخلق ، كما يقول فى البيت الثالث ؟ ولماذا كان على شر الخلق ؟

لأشأن للشاعر بهذه التساؤلات ، إنه قرر مايؤمن به ، وبانطباقه على قواعد الدين فى اعتقاده ، دون أن يكلف نفسه مقنونة الاحتجاج والبرهنة . وقد كثر الرد على شعر عمران هذا ، من شعراء شيعيين وغيرهم ، محبة لآل البيت ، ونقضا لعقيدة هذا الخارجى :

من ذلك قول القاضى أبو الطيب ، طاهر بن عبد الله الشافعى (١) :
إِنِّي لِابْرَأَ مِمَّا أَنْتَ قَائِلُهُ عَنْ ابْنِ مُلْجِمِ الْمَلْعُونِ بُهْتَانَا
يَاضِرِيَّةٌ مِنْ شَقِيٍّ مَا أَرَادَ بِهَا إِلَّا لِيَهْدِمَ لِلْإِسْلَامِ أَرْكَانَا
إِنِّي لِأَذْكُرُهُ يَوْمًا فَأَلْعَنُهُ دِينًا وَالْعَنُ عِمْرَانَ بْنَ حِطَّانَا
عَلَيْهِ ثُمَّ عَلَيْهِ الدَّهْرُ مُتَصِلًا لِعَائِنُ اللَّهِ إِسْرَارًا وَإِعْلَانَا
فَأَنْتَ مِنْ كِلَابِ النَّارِ جَاءَ بِهِ نَصُّ الشَّرِيعَةِ بَرَهَانًا وَتَبْيَانًا
عَلَيْكُمَا لَعْنَةُ الْجَبَّارِ مَا طَلَعَتْ شَمْسٌ وَمَا وَقَدُوا فِي الْكُونِ نِيرَانَا

كما نقض شعر عمران شاعر آخر يدعى محمد بن أحمد الطيب ، فقال (٢) :
يَاضِرِيَّةٌ مِنْ غَدُورٍ صَارَ ضَارِبُهَا أَشَقَى الْبَرِيَّةِ عِنْدَ اللَّهِ إِنْسَانَا
إِذَا تَفَكَّرْتُ فِيهِ ظَلْتُ أَلْعَنُهُ وَالْعَنُ الْكَلْبَ عِمْرَانَ بْنَ حِطَّانَا

(١) مروج الذهب ٢ / ٤٣ (البهية). وانظر : الكامل للمبرد ٢ / ٩٥ (الأزهرية) .

(٢) الكامل للمبرد ٢ / ٩٥

والشاعران ينقضان اعتقاد عمران في أبياته السابقة ، ويلعنان القاتل والشاعر معاً .

وقد ذكرنا في عقائد الخوارج ، أنهم يؤمنون بالخروج لقتال المخالفين ، وأن أكثرهم يوجبونه ، ويكفرون القعدة عنه ، مع قدرتهم عليه ^(١) .

لذلك كتب قطرى بن الفجاءة — وهو من الأزارقة الذين يكفرون القعدة — إلى رجل خارجي أزرقى ، يقال له : أبو خالد القنأني ، كان يتخلف عن القتال ، كتب إليه رسالة شعرية ، ضمنها حكم طائفته على قعوده ، قال فيها : ^(٢)

أبا خالدٍ إنفِرْ فلستَ بخالدٍ وماجعل الرحمنُ عُذْراً لقاعد
أترغم أن الخارجى على الهدى وأنت مقيم بين لصٍّ وجاحد ؟
إنه يعبر عن وجوب الخروج للقتال ، الثابت بنص القرآن (فقاتلوا التي تبغى) ، وينذر هذا القاعد ، بأنه خرج عن ملة أهل الهدى (الخوارج) ، فهو واحد من اثنين : إما لص ، يقيم بعد خروج الرجال للقتال ، لينسل إلى البيوت ويسرقها ، وإما كافر بعقيدة الخوارج .

وقد ردَّ أبو خالد على رسالة قطرى هذه برسالة يعتذر فيها عن قعوده ، ويبرره بقوله ^(٣) :

لقد زاد الحياة إلى حُبِّا بناتى إنهنَّ من الضُّعَافِ
مخافةً أن يرئسَ الفقر بعدى وأن يشرَّبنَ رَتْقاً بعد صافٍ
وأن يعرَّثنَ إن كُسىَ الجوارى فتنبو العينُ عن كرمٍ عِجَافٍ
وأن يضطرهنَّ الدهرُ بعدى إلى جِلْفٍ من الأعمام جافٍ
فلولا ذاك قد سوَّمتُ مُهْرِي وفي الرحمن للضعاء كافٍ
وأمر هذا الخارجى عجيب ، فما كان الخوارج يؤثرون شيئاً على الخروج ، وطلب إحدى الحسينيين !! غير أن للقعدة عن الواجب ، في كل زمان ، من الخوارج وغير

(١) راجع ص ٤٩ من هذه الدراسة .

(٢) شعر الخوارج ٤١ والأغاني ١٦ / ١٤٩ والكمال للمبرد ٣ / ٩٢

(٣) شعر الخوارج ١٣ منسوبة إلى عيسى بن عاتك الخطي ، والكمال للمبرد ٣ / ٩٢ وهى فيه لأبى خالد المذكور . الرنق : الكدر . سوَّمتُ مهري : أرسلته في الأعداء .

الخوارج ، منطلقهم يتعززون به عن التقصير ، ومنطق أى خالد القناني ، غلبة عاطفة الأوبة ، والشفقة على بناته الضعاف ، والخوف من أن تذهبن الحاجة من بعده ، فيلجأن إلى أعمام غلاظ الأكباد ، أو يضعن بين أقدام الحياة ، فماله وللقتال إذن ، وها هي ذى ابنته ، تصرخ فيه كلما هم بالخروج :

أبانا مَنْ لَنَا إِنْ غِبْتَ عَنَا وَصَارَ الْحَيُّ بِعَدِكَ فِي اخْتِلَافٍ!؟

والمتشددون من الخوارج يعتقدون أيضاً أن مجرد مجالسة المخالفين ، الذين يراهم الخوارج ظالمين ، تعد ذنباً لا يمحوه إلا التوبة النصوح ، ومعنى التوبة ومقتضاها عندهم ، أن يحرص على أن ينال الشهادة في ميدان حروبهم الدينية ، فيها وحدها ، تكفر هذه السيئة ، ويوضع عنه إصرها .

ويث قطرى بن الفجاءة هذه العقيدة في رسالته إلى سُميرة بن الجعد الخارجي ، الذى جالس الحجاج بن يوسف الثقفى ، وكان قطرى إذ ذاك يحارب المهلب بن أبى صفرة بأمر الحجاج ، فيقول (١) :

لَشَتَّانَ مَا بَيْنَ ابْنِ جَعْدٍ وَبَيْنَنَا	إِذَا نَحْنُ رُحْنَا فِي الْحَدِيدِ الْمُظَاهِرِ
نَجَاهِدُ فِرْسَانَ الْمَهْلَبِ كُلَّنَا	صَبُورٌ عَلَى وَقَعِ السِّیُوفِ الْبَوَاتِرِ
وَرَاحَ يُجَرُّ الْحَزْرُ عِنْدَ أَمِيرِهِ	أَمِيرٌ بِتَقْوَى رَبِّهِ غَيْرَ أَمْرِ
أَبَا الْجَعْدِ أَيْنَ الْعِلْمُ وَالْحِلْمُ وَالنَّهْيُ	وَمِيرَاثُ آبَاءِ كِرَامِ الْعُنَاصِرِ
أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْمَوْتَ لَأَشْكُ نَازِلُ	وَلَا بَدَّ مِنْ بَعَثِ الْأُلَى فِي الْمَقَابِرِ
فَإِنَّ الَّذِي قَدْ نَلْتَ يَفْنَى وَإِنَّمَا	حَيَاتُكَ فِي الدُّنْيَا كَوَقْعَةِ طَائِرٍ
فَرَا جَعُ أَبَا جَعْدٍ وَلَاتُكَ مَغْضِيًّا	عَلَى ظُلْمَةٍ أَعَشْتُ جَمِيعَ النَّوَاطِرِ
وَتُبْ تَوْبَةً تُهْدِي إِلَيْكَ شَهَادَةً	فَإِنَّكَ ذُو ذَنْبٍ وَلَسْتَ بِكَافِرٍ
وَسِرْ نَحُونَا نَلْقَ الْجِهَادَ غَنِيمَةً	تُفِيدُكَ ابْتِیَاعَا رَاحِجًا غَيْرَ خَاسِرٍ
هِيَ الْغَايَةُ الْقُصُوى الرِّغْبُ ثَوَابُهَا	إِذَا نَالَ فِي الدُّنْيَا الْغِنَى كُلُّ تَاجِرٍ

فبعد أن لام قطرى سُميرة ، وعنفه ، مبينا له أن فعلته خاطئة لاتليق من عالم عاقل

(١) شعر الخوارج ٤٧ ومروج الذهب ٢ / ١٣٨ (البية) . وسُميرة رجل من بنى شيان من أصحاب قطرى ، كان عالماً بأيام العرب وأخبارها ، ولذا اتخذ الحجاج سميراً له .

مثله ، بخاصة والحرب قائمة بين أبناء طائفته والحجاج الذى يسامره ، راح ينظم عقيدة الطائفة ، فى فعلة هذا الخارجى ، وقدم له الفتوى صريحة واضحة « إنك ذو ذنب ولست بكافر » ، فهو إذن عاص ، وعلى العاصى أن يتوب ، والتوبة تقتضيه ، أن يترك هذا الذنب ، ويتجه إلى أبناء الطائفة ليشاركهم فى قتال المخالفين ، وليكن حريصا على الشهادة ، فهى فى عقيدة الخوارج المطهرة للذنوب ، والغاية القصوى من خروجهم ، المرغوب فى ثوابها منهم .

وقد أحدثت هذه الفتوى أثرها المطلوب ، فسرعان ما بكى سميرة عقب قراءتها ، وركب فرسه ، وأخذ سلاحه ولحق بقطرى ، وترك رسالة إلى الحجاج يقول فيها ^(١) :

فَمَنْ مَبْلَغُ الْحِجَاكِ أَنْ سَمِيرَةٌ قَلَّا كُلَّ دِينٍ غَيْرَ دِينِ الْخَوَارِجِ
رَأَى النَّاسَ — إِلَّا مِنْ رَأْيٍ مِثْلَ رَأْيِهِ — مَلَاعِينَ تَرَاكِينِ قَصْدِ الْخَوَارِجِ
فَأَقْبَلْتُ نَحْوَ اللَّهِ بِاللَّهِ وَاتَّقَا وَمَا كَرِهْتَنِ غَيْرَ إِلَهِهِ بِفَارِجِ
إِلَى عُصْبَةٍ أَمَّا النَّهَارُ فَإِنَّهُمْ هُمُ الْأَسَدُ أَسَدُ الْغِيلِ عِنْدَ التَّهَائِجِ
وَأَمَّا إِذَا مَا اللَّيْلُ جَنَّ فَإِنَّهُمْ قِيَامُ بَأَنْوَاحِ النِّسَاءِ النَّوَاشِجِ
يَنَادُونَ لِلتَّحْكِيمِ تَاللَّهِ إِنَّهُمْ رَأَوْا حُكْمَ عَمْرٍو كَالرِّيَّاحِ الْهَوَاجِ
وَحُكْمَ ابْنِ قَيْسٍ مِثْلَ ذَاكَ فَأَعَصَمُوا بِجَبَلٍ شَدِيدٍ الْمُتَنِ لَيْسَ بِنَاهِجِ
إنه يعتز بعقيدته أشد الاعتزاز ، ويرفض كل عقيدة غيرها ، وما عقيدته ؟ إنه يرسلها فى إيمان شديد بها ، أن كل من ليس على رأى الخوارج ملعون ، كلهم ضال تائه عن الحق ، تتقاذفه رياح الضلال الهائجة ، أما الخوارج فقد اعتصموا بجبل الله المتين ، بالقرآن العظيم ، يأتمرون بأمره ، وينتهون بنهيه .

إن تعبير الخوارج عن عقائدهم فى ثنايا أشعارهم يأخذ هذا الطابع دائما ، طابع البساطة والتلقائية ، الذى يبدو فى إرسالها واضحة صريحة ، تنبىء عن شدة اعتقادهم فيها ، مهما بدت فى نظرنا ونظر غيرنا قابلة للمناقشة ، مفتقرة إلى الحجة ، بل شديدة الحاجة إلى البرهنة والاستدلال على صوابها ، فحسبهم ، ما يقول شاعرهم ^(٢) فروة بن نوفل :

(١) مروج الذهب ٢ / ١٣٩ (البهية) ، وانظر : شعر الخوارج ٥٠ . ابن قيس : هو أبو موسى الأشعرى .

(٢) شعر الخوارج ٥

لقد علمتُ وخيرُ العلم أنفعُهُ أن السعيد الذى ينجو من النار
ولكن كان هذا الشاعر لم يهتم بأن يوضح كيفية ضمان هذه النجاة ، فإن أخأله
فى العقيدة ، يمدنا بالإيضاح ، هو الطُّرْمَاح بن حكيم ، حيث يقول ^(١) :
والنارُ لم يَنْجُ من روعاتها أحدٌ إلا المُنيب بقلب المخلص الشارى
فليس إلا الشرة التوابون المخلصون ، يكون سعيدا بالنجاة من النار .

ب : صور من شخصية الخوارج الدينية والبطولية (تمجيد الطائفة) :

يلح شعراء الخوارج على رصد سلوك أبناء طائفتهم الدينى ، ووصف ما يبدو من
أثر إدمانهم الطاعات ، والإكثار من التقرب إلى الله بالعبادات ، فى شفافية أرواحهم ،
وهزال أجسامهم ، وتصوير حركاتهم النفسية ، خائفين من عقاب الله ، راغبين فى
رضوانه .

وإذ كان الصدق من معالم شخصيتهم البارزة — كما ذكرنا من قبل — فإن
ما يقدمه شعرهم من صور فى تمجيد أبناء طائفتهم ، والتنويه بخصالهم الدينية ، تخلو من
المبالغة والتحويل ، وتلتزم بما يشاهد من أحوالهم ، وما يراه الكافة من سلوك دينى واضح فى
حياتهم ، لا يكاد يختلف فيه خارجى عن أخيه فى العقيدة ، ولذا اتسم هذا الشعر أيضا ،
بما يمكن أن نطلق عليه (وحدة الخصائص) أى مجموعة الصفات الدينية السامية ، التى
تصلح أن تقال فى كل خارجى صادق العقيدة ، ولذا تشابهت صور أشعارهم فى هذا
الجانب .

فالشعر المقول فى وصف حال الشارى الدينية ، لا يميز إلا باختلاف الأسماء ،
فالصور العامة واحدة ، وكل ما يقال فى أحدهم ، يقال فى الآخرين ، لأن الخصائص
الدينية لهذه الصور تتمثل فى كل فرد على حدة ، كما تتمثل فى مجموع أبناء الطائفة ، فهم
دائما ، كما يقول عمر بن الحصين العنبرى الخارجى ^(٢) :

(١) شعر الخوارج ٩٨

(٢) شرح نهج البلاغة ١ / ٤٦١ . وشعر الخوارج ٨٥

متأهبون لكل صالحة ناهون من لاقوا عن النكر
صمت إذا احتضروا مجالسهم من غير ماعى بهم يزرى
متأهون كأن جمر غصاً للموت بين ضلوعهم يسرى
لاليلهم ليل فيلبسهم فيه غواشى النوم بالسكر
إلا كرى خلسا وآونة حذر العقاب فهم على دغر
وقوله (١) :

متأهين كأن فى أجوافهم ناراً تسعرها أكف حواطب
تلقاهم فتراهم من راع أو ساجد متضرع أو ناحب
يتلو قوارع تترى عبراته فيجودها مرى المرى الحالب
ويقول فى الواحد منهم (٢) :

كم من أخ لك قد فجعت به قوام ليلته إلى الفجر
متأوهاً يتلو قوارع من آى الكتاب مفرح الصدر
ومبرأ من كل سيئة عف الهوى ذامرة شزر

فالملاحظ أن مقومات الصورتين تتطابق تقريباً ، فى الجماعة ، والفرد ، فهم يتأهون خوفاً إذا قرعوا آيات العذاب فى القرآن ، كأن فى قلوبهم ناراً ، والواحد منهم متأوه أيضاً إذا قرأ آيات العذاب القوارع ، وهم قوامون الليل ، ساهرون على الطاعة والعبادة ، لايزور النوم عيونهم الإفتراة قليلة تختلس اختلاسا ، وكل فرد منهم ، قوام ليلته إلى الفجر ، وهم فى الجملة متأهبون لكل صالحة ، وواحدهم مبرأ من كل سيئة .

ونجد هذا التطابق يطالعنا فى كل صور أشعارهم — غالباً — ماتناول منها جماعتهم كطائفة ، وماخص منها فردا منهم بعينه .

ويقول الطرماح بن حكيم جامعاً للخوارج من الصفات الدينية ، مايعكس شخصيتهم المؤمنة ، الصابرة على العبادة ، المتمسكة بعقيدها (٣) :

(١) شعر الخوارج ٨٩ والأغانى ٢٠ / ١٢٠ .

(٢) شعر الخوارج ٨٥ والأغانى ٢٠ / ١١١ .

(٣) ديوانه (دمشق) ٥٧٨ . الطلا : جمع طلاة ، وهى العنق .

لله دُرُّ الشُّرَّةِ إنهم إذا الكرى مال بالطلا أرقوا
يرجعون الحين آونةً وإن علَّابهم ساعةً شهقوا
خوفاً تبیت القلوب واجفةً تكاد عنها الصدور تنفلق
قوم شحاحٌ على اعتقادهم بالفوز مما يخاف قد وثقوا

هذه صورة تعد مثلاً لوحدة الخصائص الدينية لدى الخوارج جميعاً ، كما تعد نموذجاً يبرز مع النماذج السابقة ما سبقت الإشارة إليه ، من التشابه بين عناصر الصور الشعرية ، التي رسمها شعر الخوارج لطائفتهم ، جماعات وأفراد .

إنها صورة تعبر عن تقوى الخوارج وورعهم ، وقوة إيمانهم بمذهبهم ، إذ يصورهم الطرماح ساهرين على تلاوة القرآن ، كلما مرَّ بهم ذكر الجنة حنوا إليها ، فإذا تلوا آيات العذاب ووصف النار أنوَّأ أنينا موجعا ، تكاد تنخلع منه قلوبهم ، وتنشق عنها صدورهم ؛ خوفاً من عذاب الله ، وهم شديداً التمسك بعقيدتهم ، يسترخصون أرواحهم في سبيلها ، واثقين من الفوز برضوان الله وجناته .

أما تأثير هذا النسك الديني روحياً وجسمانياً ، فيوجزه أحد شعرائهم في قوله (١) :

فتيةٌ تعرف التخشُّعَ فيهم كلُّهم حَكَمَ القرآنَ غلاماً
قد برى لحمه التهجُّدَ حتى عاد جلدًا مُصَفَّرًا وعظاماً
كما يعبر عنه خارجي آخر ، فيقول (٢) :

أجاهد أعدائي إذا تتابعوا وأدعى بإسعى للهدى فأجيب
معى كلُّ أوَّاهٍ برى الصومُ جسمه ففى الجسم منه نَهْكةٌ وشحوبُ

فالخشوع سمة عامة فيهم ، من أثر خشية الله ، وإدمان طاعته ، كما أن أجسادهم مرهقة من مواصلة الليل بالنهار في هذه الطاعة ، حتى غدت جلداً على عظم ، إذا رأيتهم خلعت ماء الحياة قد فارق هذه الأجساد ، ألم يصفهم أبو حمزة الشاربي بأنهم أنضاء عبادة وأطلاح سهر ؟

(١) شعر الخوارج ١١١ . القرآن : القرآن . برى لحمه : المراد أنخلت العبادة بدنه .

(٢) شعر الخوارج ٣٩ ومعجم الشعراء ٢٢٨ .

هذه الصور المؤمنة ، إنما هي انعكاس لما كان الخوارج يستشعرونه دائماً من الثقة بأنهم وحدهم على الحق ، وأنهم وحدهم الفائزون بحسن العقبي عند الله ، ويترجم هذه الثقة ، شاعر الخوارج الأزراقة عيسى بن (١) عاتك الحطّي ، لما خرج أبو بلال مرداس (٢) بن أدية في أربعين من الخوارج (سنة ٦٠ هـ) بناحية الأهواز ، فوجه إليه عبيد الله بن زياد جيشاً من ألفي رجل ، فثبت الأربعون ، وفر الألفان ، ويسجل عيسى بن عاتك هذه الحادثة ، ويفسر انتصار هذا العدد القليل من الخوارج على جند من ألفي رجل ، بإيمان الخوارج ، وشدة ثقتهم بعقيدتهم ، فيقول (٣) :

فلما أصبحوا صلّوا وقاموا إلى الجُرد العتاق مُسَوِّمينَا
فلما استجمعوا حملوا عليهم فظل ذوو الجَعائل يُقتلونَا
بقية يومهم حتى أتاهم بأن القوم ولّوا هاربينَا
ألفاً مؤمن - فيما زَعَمْتُم - ويقتلهم بآسك أربعونَا
كذبْتُم ليس ذاك كما زَعَمْتُم ولكنّ الخوارج مؤمنونَا
هُم الفئة القليلة غير شك على الفئة الكثيرة ينصرونَا
أطعْتُم أمرَ جبارٍ عنيدٍ ومامن طاعةٍ للظالمينَا

فالأبيات صورة من صور الشجاعة الفائقة ، وصدق القتال ، غير أن مايمهنا هنا ، أنها تؤكد ثقة الخوارج بنصر الله ، وتعلل هذه الثقة بأنهم هم وحدهم المؤمنون ؛ ولذا أيدهم الله بنصره ، ونصر الله موعود بنص القرآن للمؤمنين ، في قوله تعالى : « ياأيها النبي حرّض المؤمنین علی القتال ، إن ینکن منکم عشرون صابرون یغلبوا مائتین ، وإن ینکن

(١) أحد بنی ودیعة من بنی تيم اللات بن ثعلبة ، كان من أصحاب نافع بن الأزرق ، قتل في معارك الأزراقة بعد سنة ٦١ هـ . انظر : أنساب الأشراف ٤ / ٢ ، ٩٥ وتهذيب الكامل ١ / ١٥٠

(٢) حنظلي تميمي ، تولى زعامة الصفرية ، وهو أخو عروة بن أدية التميمي أول من نادى بشعار (لاحكم إلّا لله) عقب قبول علی التحكيم بعد صفين ، وخرج أبو بلال في أيام يزيد بن معاوية بناحية البصرة على عبيد الله بن زياد ، وهزم قائده زرعة بن مسلم العامري ، فأرسل إليه عبيد الله قائده عباد بن أخضر التميمي الذي هزم أبا بلال وقتله سنة ٦١ هـ ، فاتخذت الصفرية عمران بن حطان زعيماً لها من بعده . انظر : الكامل لابن الأثير ٤ / ٩٤ بيروت ، والفرق بين الفرق ٧١ والخوارج والشيعه ٤ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٧

(٣) شعر الخوارج ١٤ وعبون الأخبار ١ / ١٦٣ وديوان المعاني ٢ / ٢٣٠ . الجعائل : جمع جعالة ، وهي شيء يدفعه الذي عليه الغزو لرجل آخر كي يغزو عنه ، يريد أنهم مأجورون للقتال ، فهم مدفوعون بحب الدنيا ، وكان الخوارج يرون في هذا أبلغ ذم لأعدائهم . آسك : موضع بهمدان قرب أَرْجان .

منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا^(١) » ، وبالقياص على نص الآية الكريمة فإن الأربعين يغلبون الألفين ، لأنهم مؤمنون .

كما أن الشاعر في البيت قبل الأخير ينظر إلى نص قول الله تعالى : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين^(٢) » .

ولايفوتنا أن نلتفت إلى المعنى الآخر ، الذى يمكن أن نربط بينه وبين النصر العظيم الذى أحرزته هذه الفئة القليلة من طائفة الخوارج ، والذى أشار إليه الشاعر إشارة عابرة، فى قوله : « فظل ذوو الجعائل يقتلوننا » ، ففيه تلميح إلى الفرق بين الخوارج وبين الآخرين، فجند الأمويين — فى سبيل الرزق — قد يحارب اليوم معهم ، وغدا مع غيرهم ، يدل على هذا قول بعض هذا الجند ، وقد دعوا لقتال الخوارج بناحية كَسْكَر ، ومالنا لانتقاتل الخوارج ؟ أليست أعطياتنا دَارَةً ؟ ، وقد علق عمران بن حَظَّان على هذه الحال بقوله^(٣) :

فلو بُعِثَتْ بعضُ اليهودِ عليهمُ يؤمُّهمُ أو بعضُ مَنْ قد تنصَّرا
لقالوا رضينا إن أقمْتَ عطاءنا وأجريتَ ذاكَ الفرضِ من بُرِّ كَسْكَرا

أما الخوارج فباعثهم إلى القتال إيمان قوى بما يرونه حق الإسلام عليهم ، ورغبة عارمة فى الفوز بإحدى الحسينيين ، النصر أو الشهادة ، لاعتقادهم أنهم حراس دين الله ، الخارجون من أجل نصرته .

* * *

وصور البطولة فى شعر الخوارج كثيرة متنوعة ، حادة الملامح ، بارزة القسمات ، فاتصاف الخوارج بالشجاعة والإقدام والفدائية ، أتاح لشعرائهم أن يفتنوا فى التعبير عنها فى كثير من أشعارهم ، تمدهم معارك الخوارج الكثيرة مع خصومهم ، بخاصة الأمويين ، بالمعين الثَّر من الخطوط والألوان والظلال ، التى تتألف فى أشكال ومعارض كثيرة ، لبطولة الخوارج فى حروبهم الدينية المقدسة .

(١) سورة الأنفال ٨ / ٦٥

(٢) سورة البقرة ٢ / ٢٤٩

(٣) معجم البلدان (رسم : كسكرا) وشعر الخوارج ٢٠

لهذا كان من أبرز خصائص شعرهم ، المعبر عن بطولتهم وأبطالهم ، كثرة الافتنان في المعاني والصور ، التي تضيف على الخارجى شجاعة نادرة المثال .

من هذه الصور قول أحد الخوارج ، في معرض الإشادة بضروب البسالة ، وآيات البطولة ، التي تميز أصحابه ، في حومات القتال (١):

وَهُمُ الْأَسْوَدُ لَدَى الْعَرِينِ بِسَالَةً وَمِنَ الْخَشُوعِ كَأَنَّهُمْ أَجْبَارُ
يَمْضُونَ قَدْ كَسَرُوا الْجَفُونَ إِلَى الْوَعَى مَتَبَسِّمِينَ وَفِيهِمْ اسْتِبْشَارُ
فَكَأَنَّمَا أَعْدَاؤُهُمْ أَحْبَابُهُمْ فَرِحًا إِذَا خَطَرَ الْقَنَا الْخَطَارُ
يَرُدُّونَ حَوْمَاتِ الْحُمَامِ وَإِنَّمَا وَاللَّهِ عِنْدَ نَفْسِهِمْ لَصَّعَارُ

وهل هناك من هو أكثر شجاعة وإقداما ممن يمضى إلى لقاء عدوه في إصرار وفرحة ، كأنه ذاهب إلى لقاء حبيب ، مستهينا بحومات الوعى !!

وهل أدل على بطولة الخوارج من كثرة النساء المحاربات المتحمسات للقتال واقتحام المخاطر بين صفوفهن ، مما دفع عبيد الله بن زياد إلى عرض جثث القتلى منهن عاريات ؛ ليبرد من حماسة غيرهن من نساء الخوارج المقاتلات المتحمسات ، فذهبت جهوده في هذا المجال عبثا ، من هؤلاء امرأة اشتهرت بالقتال في صفوف قطرى بن الفجاءة ، وبرغبتها الشديدة في طلب الشهادة ، وهى أم حكيم ، التي ضاقت بحمل رأسها فوق كتفها ، تكلفها العناية بشعرها ، فهى تتطلع إلى من يريحها من هذه الرأس في مواطن القتال ، في تحدٍّ واضح ، واستفزاز صريح للأبطال ، وهى تعرض علينا هذه الصورة الطريفة من صور البطولة ، فتقول (٢) :

أَصْحَبُ رَأْسًا قَدْ سَمْتُ حَمَلَهُ

وَقَدْ سَمْتُ دَهْنَهُ وَغَسَلَهُ

أَلَا فَتَى يَحْمِلُ عَنِّي ثَقْلَهُ ؟

أو من هذا الذى يستعذب الموت في سبيل الذكر الطيب ، ويرى في الموت راحة من الدنيا وطريقا إلى حسن العقبى (٣) :

(١) عيون الأخبار ١ / ١٢٤ / وشرح نهج البلاغة ١ / ٣١٦ / شعر الخوارج ١١٦ . أخبار : جمع حبر ، والمراد هنا : العالم بالدين . كسروا الجفون : كناية عن التصميم والجد في القتال .

(٢) شعر الخوارج ٤١ وحماسة الظرفاء ١ / ٢٣ / وانظر : الخوارج والشيعة ٦٤

(٣) المصدر السابق ١ / ٣٨

ومن يَحْشَ أَظْفَارَ المنايا فإننا لَبَسْنَا هُنَّ السابغات من الصبر
وإن كربه الموت عذب مذاقه إذا ما فَرَجْنَاه بطيب من الذكر
ومارزق الإنسان مثل منية أراحت من الدنيا ولم يَحْزَ في القبر

وبهنا أن نلاحظ الباعث الديني من وراء هذه البطولة ، وحرص الشعراء على الإشارة إليه في ثنايا صورها ، فالاستهانة بحومات الوغى وعدم الخزاية في القبر من ورائها باعث وغاية ، أما الباعث فاعتقاد الخوارج أنهم يقتلون في سبيل الحق الذي خرجوا من أجله ، وأما الغاية ، فالفوز بنصرة الدين والعقيدة ، أو الفوز بالشهادة ، الرغبة ثوابها .
ولقطرى بن الفجاءة صور تحكى واقعا ، يقدمها من خلال وصفه لشجاعة الخوارج ، واندفاعهم في الحرب ، وصدقهم في اللقاء ، وتنكيلهم بالأعداء ، في معركة دولاب ^(١) (سنة ٦٥ هـ) بين الخوارج الأزارقة وأهل البصرة ^(٢) :

فيا كَبْدًا من غير جوع ولا ظمًا وواكَبْدًا مِنْ وَجْدٍ أَمْ حَكِيمٌ ^(٣)
ولو شَهِدْتَنِي يومَ دولابٍ أَبْصَرْتُ طعانَ فِتْنٍ في الحربِ غيرَ لَعِيمٍ
غَدَاةً طُفْتُ عِلْمَاءَ بَكْرٍ بنِ وائِلٍ وَأَبَ عَمِيدُ الْأَزْدِ غيرَ ذَمِيمٍ
وكانَ لَعَبْدِ الْقَيْسِ أَوَّلَ جَدِّهَا وَعُجْنَا صَدُورَ الْخَيْلِ نَحْوَ تَمِيمٍ

وقد تبدو هذه الصورة أشبه بالفخر في شعر الحماسة القبلية منها بصور البطولة في شعر الخوارج ، ففيها يفخر بالشجاعة وشدة النكاية في الأعداء ، وهما معنيان يكثر دورانهما في شعر الحماسة بعامة ، ونحن نعلم خصوصية صور البطولة في شعر الخوارج ، من حيث ارتباطها بالحماسة الدينية ، ولم تشذ صورة قطرى عن هذه الخصوصية ، إذ يقول بعد هذه الأبيات :

(١) موضع من أرض الأهواز ، وفي موقعة دولاب قتل نافع بن الأزرق وجماعة من أصحابه ، وأبلى الخوارج بلاء حسنا ، فأوقعوا بأهل البصرة ومن معهم من جند الأمويين وقوادهم . راجع تفصيل أخبارها في تاريخ الطبرى ٧ / ٨٥ والكمال لابن الأثير ٤ / ١٩٤ (بيروت) .

(٢) الكامل للمبرد ١ / ٢٧٠ (الأثرية) . وشعر الخوارج ٤٤ وشرح نهج البلاغة ١ / ٤٥٥ والطبرى ٧ / ٨٦ . عِلْمَاءُ : يريد على الماء ، يعنى طفت على الماء جثث بكر بن وائل . الجَدُ : الحظ والنصيب . عميد الأزْد : سيدهم وزعيمهم وهو المهلب بن أبقى صفرة .

(٣) هى التى أوردنا لها رجزا منذ قليل ، وتناظرها في الحماسة والبطولة امرأة خارجية أخرى تسمى البجاءة ، كانت تخطب خطبا نارية ضد عبيد الله بن زياد ، فأخذنا وقتلها في سوق البصرة (انظر : الخوارج والشيعة ٦٦) وكان مقتلها سببا في خروج أبى بلال مرداس بن أدية في الأربعين خارجيا ، كما مر . وسيأتى الحديث عن أخرى فارسة مقاتلة قائدة تسمى غزالة الخارجية .

فلو شهدتنا يوم ذاك وخيلنا تُبَيح من الكفار كل حريم
رأت فتية باعوا الإله نفوسهم بجنات عدن عنده ونعيم

بمثل هذه الغايات الدينية السامية امتازت بطولة الخوارج في قتالهم ضد مخالفهم ،
فكانت معاركهم نوعاً من الجهاد المقدس — في نظرهم — يخلصونه لوجه الله والدين ،
وينزهونه عن مطامع الدنيا ، فما نظر يوماً خارجي إلى غنيمة أو سلب ، أو كسب من
وراء هذه الحروب ، اللهم إلا كسب الآخرة ، المدخر لهم عند الله .

وإذا كان الأمر كذلك فمن الطبيعي أن يلوم يزيد بن حنناء ^(١) زوجه ، التي
أرسلت إليه — وهو يقاتل بجهة سابور — تطلب هدايا وألطافاً ، ويذكرها بأنها زوجة
خارجي ، والخارجي لا يخرج إلى القتال طلباً للمغانم ^(٢) :

دَعِ اللُّومَ إِنْ العِيشَ لَيْسَ بِدَائِمٍ وَلَا تَعْجَلِ بِاللُّومِ يَا أُمَّ عَاصِمٍ
فَإِنْ عَجَلْتُ مِنْكَ الْمَلَامَةُ فَاسْمَعِي مَقَالَةً مَعْنِي بِحَقِّكَ عَالِمٍ
وَلَا تَعْذِلِينَا فِي الْهَدْيَةِ إِنَّمَا تَكُونُ الْهَدَايَا مِنْ فَضُولِ الْمَغَانِمِ
فَلَيْسَ بِمُهْدٍ مَنْ يَكُونُ نَهَارُهُ جَلَادٌ وَيَمْسِي لَيْلُهُ غَيْرُ نَائِمٍ
يُرِيدُ ثَوَابَ اللَّهِ يَوْمًا بِطَعْنَةٍ غَمُوسٍ كَشِدْقِ الْعَنْبَرِيِّ بْنِ سَالِمٍ
أَبَيْتُ وَسِرِّي إِلَى دِلَاصٍ حَصِينَةٍ وَمَغْفَرَهَا وَالسَّيْفِ فَوْقَ الْحِيَازِمِ

فيزيد ينكر على زوجه أن تتطلع إلى هدية منه ، أو مغنم دينوي ، من وراء حرب
الخوارج التي يخوضها ، ويلومها على هذه النظرة ، التي لاتليق بخارجية زوج خارجي ،
وفهمها أنه لم يرغب عنه ماها عليه من حقوق الرعاية والإنفاق ، ولكنه رجل وهب نفسه
لله ، وجعل همه الدفاع عن عقيدته ؛ ومن ثم فهو لايأبه بمغانم الحروب ، ولا يحرص عليها ،
وكيف ينظر إلى هذا العرض مَنْ كان مثله يقضى نهاره مجاهداً في سبيل الحق ، وليله في
تبتل وعبادة ، دائم الضراعة إلى الله أن يرزقه الشهادة ؟!

والآيات كما نرى ، تعكس صورة للخارجي المحارب الشجاع ، المؤمن بعقيدته ،

(١) حنناء أمه ، وكان له أخوان هواهما مع بنى أمية هما صخر والمغيرة ، ويزيد شاعر فارس من الأزارقة . انظر
مصادر شعره الآتي .

(٢) الكامل للمبرد ١ / ٢٤٨ وشعر الخوارج ٣٦ والمؤتلف ١٦ . طعنة غموس : واسعة محيطية . العنبري :
خارجي من الأزارقة يقال له : الأشدق ، لاتساع شدقه . الدلاص : الدرع اللينة البراقة . الحيازيم : جمع حيزوم وهو الصدر .

المجاهد في سبيلها ، فهو على استعداد دائم للقتال دونها ، لا يضع سلاحه ساعة من ليل أو نهار ، لا يتغنى من وراء ذلك مغنما ، ولا عرضا من أعراض الدنيا .

وإلى هذا المعنى ، نعني اقتحام المعارك ، دفاعا عن العقيدة ، لاطلبا لمغنم دنيوى يشير قطرى بن الفجاءة أيضا ، في قوله (١) :

وَرُبَّ مَصَالِيَةٍ نَشَاطٍ إِلَى الْوَعْيِ سَرَّاعٍ إِلَى الدَّاعِي كَرَامِ الْمَقَادِمِ
أَخْضَتْهُمْ بَحْرُ الْحَمَامِ وَخُضَّتْهُ رَجَاءُ الثَّوَابِ لِارْجَاءِ الْغَنَائِمِ

* * *

وهكذا تعكس هذه الأشعار شخصية الخوارج الدينية ، الثابتة على إيمانها ، الواثقة بحسن المثوبة عند ربها ، المتعصبة لعقيدتها ، المندفعة في سبيل نصره هذه العقيدة ، اندفاعا حماسيا ، يصل إلى حد الفداية .

ومن هنا تخطف الموت أرواح الخوارج من كل جانب ، وهم لا يبالون ، وإنما يرون في ذلك فضيلة انفردوا بها ، ووفاء بعهد قطعوه على أنفسهم حين باعوها ، ثمنا لرضوان الله ، وطمعا في جناته ؛ ولذا يقول شاعرهم عبيدة بن هلال اليشكري (٢) في رجل منهم سقط صريعا ، في إحدى معاركهم (٣) :

وَمُسَوِّمٌ لِلْمَوْتِ يَرْكَبُ دَرْعَهُ بَيْنَ الْقَوَاضِي وَالْقَنَا الْخَطَّارِ
يَهْوِي وَتَرْفَعُ الرِّمَاحُ كَأَنَّهُ شِلْوٌ تَنْشَبُ فِي مَخَالِبِ ضَارِي
فَتَوَى صَرِيعاً وَالرِّمَاحُ تَنُوشُهُ إِنَّ الشُّرَاةَ قَصِيرَةَ الْأَعْمَارِ

وفي قوله : « إن الشراة قصيرة الأعمار » أبلغ تلخيص لما وصفنا من شجاعتهم ، وفدائيتهم .

(١) التذكرة السعدية ٢١٧ .

(٢) أبو مالك عبيدة بن هلال اليشكري ، من بكر بن وائل ، شاعر فارس ، كان مع قطرى بن الفجاءة في حروب الخوارج الأزارقة ، وولى أمرهم بعد قطرى ، قتل بناحية قومس سنة ٧٨ هـ ، انظر : الطبرى ٧ / ٢٧٥ . والاشتقاق ٣٤٣ . والمؤتلف ١٥٤ وكنى الشعراء ٢٩١ . والخوارج والشيعة ٦٧ - ٦٩ .

(٣) شعر الخوارج ٥٢ والكامل للمبرد ٢ / ٢٤٩ (الاستقامة) . يركب درعه : مجاز عن سقوطه مضرجا بدمه فوق درعه . القنا الخطار : الرماح الطويلة . الشلو هنا : العضو من أعضاء الجسم إذا بتر . تنوشه : تأخذه من كل جانب .

ب : نظرة الخوارج إلى مخالفهم (هجاء الخصوم) :

كانت الصبغة الدينية هي الطابع الغالب على المعانى التى هجأها كل من الشيعة والأمويين خصوصاً حزبهم ، تبين لنا هذا من خلال دراستنا لنصوص شعرهم الموجه إلى أعدائهم .

وسنرى هذا الطابع الدينى واضحاً غالباً فى شعر الهجاء عند كل من الخوارج والزبيريين أيضاً ، لأسباب سبق أن أشرنا إليها مراراً ^(١) ، غير أن هذه المعانى الدينية كانت تستند فى شعر الشيعة والخوارج إلى عقيدة راسخة ، أى أنهم كانوا يدينون عن يقين واعتقاد برأيهم فى خصومهم ، بينما هى عند الأمويين والزبيريين ، وليدة الرأى والهوى والادعاء .

كان الخوارج يعتقدون أنهم وحدهم حماة الدين ، يقاتلون من أجل الحفاظ عليه سليماً نقياً من الانحراف ، ومن البدع والأهواء ، ومن ثمَّ ذهبوا إلى اعتقاد وجوب قتال من يخالفونهم ، فقتلهم فرضٌ عليهم ؛ لمخالفتهم أوامر الدين ونواهيه .

ومن الطبيعى أن يقف شعرهم إلى جانب عقيدتهم فى أعداء طائفتهم ، وأن يرددها فيما يرمونهم به من سهام هجائهم ، فهم الكفرة الملحدون ، المنحرفون عن جادة الحق ، الباغون المفسدون فى الأرض ، المفسئون للضلال ... إلى غير ذلك ، مما يجردهم من كل سمة للإسلام ، توصلنا إلى الغاية المأمولة من الهجاء السياسى ، التى تعنى تشويه صورة الأعداء ، وتنفير القلوب منهم ، وصرفها عنهم ، وإيغارها عليهم .

وكما اهتم الهجاء عند الشيعة والأمويين بالجانب الأخلاقى والاجتماعى ، راعى الهجاءون الخوارج هذا الجانب أيضاً ، فاهتموا بسلب الفضائل الأخلاقية والاجتماعية — التى كان كل عربى يعتز بها — عن خصومهم ، فهم يجنبون عن الحرب ، ويفرون عند اللقاء ، غادرون متجبرون ، ظلمة أى أنهم يجردونهم من كل فضيلة فى دين أو خلق .

(١) راجع مثلاً : ص ١٤٧ ، ١٦٣ ، من هذه الدراسة .

يقول فروة بن نوفل الخارجي (١) :

نُقاتل من يُقاتلنا ونرضى بحكم الله لأحكام الرجال
وفارقنا أبا حسن علياً فما من رجعة أخرى الليالي
فحكم في كتاب الله عمراً وذاك الأشعري أخا الضلال

فهو يتهكم بعلي بن أبي طالب ، الذي أعرض عن حكم كتاب الله ، ورضى حكم الناس ، ويذكر أنه فارقه من غير رجعة لضلال أصحابه .

أما ابن أبي مياس المرادي ، فيرمي علياً صراحة بالطغيان والتجبر ، ويفخر أن قومه قتلوه ، وثلوا عرش ملكه لذلك ، والمعروف أن قاتل علي من بني مراد (٢) :
ونحن ضربنا يالك الخير حيدرا أبا حسن مأمومة فتفطرا
ونحن خللنا ملكه من نظامه بضربة سيف إذ علا وتجيأرا

على أننا لم نجد شعرا ذا بال للخوارج في هجاء الشيعة وأئمتهم ، وربما كان ذلك لقلة اصطدامهم بالشيعة حربيا ، ولانشغالهم بالخروج على السلطان القائم ، مما جعل الغالبية العظمى من وقائعهم تدور مع الأمويين ، ثم إن الشيعة أنفسهم كانوا منصرفين — غالبا — إلى من اغتصبوا حق أئمتهم في ولاية الأمر ، ولأن الأمويين كانوا يصبون نير اضطهادهم ، وجام غضبهم على الشيعة والخوارج معا .

فلا غرابة أن يرتبط شعر الخوارج في هجاء أعدائهم ، بقدمرماخاضه من حروب معهم ، قلة وكثرة .

نخلص من هذا إلى أن أكثر ما بين أيدينا من شعر الخوارج في مناهضة خصومهم موجه إلى الأمويين أعدائهم الألداء .

على أية حال ، فإن جماع رأى الخوارج فيمن عداهم ، هو رفض عداهم من أهل

(١) شعر الخوارج ٦ وفروة بن نوفل من بني أشجع ، ومن قدامى الخوارج ، وهو ممن اعتزل موقعة النهروان ، وحارب أهل الكوفة أيام معاوية ثم انقطعت أخباره ، انظر الخوارج والشيعة ٤٣ ومصادره .

(٢) شعر الخوارج ٧ . وشرح نهج البلاغة ٢ / ٤٤ . ولم أعثر على خبر لهذا الشاعر . حيدر : لقب لعلي بن أبي طالب .

الملة ، ويعبر عن هذه القاعدة شعر لإحدى نسائهم ، كانت قد أقامت فترة طويلة في عسكر الضحاك ، ثم تركته (١) :

مُرُوا بنا نرجع إلى ديننا فكل دين غيره باطل
يستوى في نظرها ، ونظر طائفتها دين الأمويين والشيعة والزييريين ، فالكل باطل ،
ودينها هو الحق .

ويؤكد هذه النظرة قول أحد فرسانهم (٢) :
أضربُ قوماً حبطت أعمالهم الله مولانا ولا مولى لهم
فإن الله مولى الخوارج وحدهم ، لأنهم أهل طاعته ودينه ، المؤمنون به ، وهو لا يتولى
بنصره إلا المؤمنين .

أما بنو أمية فقد حدد الخوارج نصال الشعر ، وقد فوهم بها ، كما أرهفوا سيوفهم
في قتالهم : شعارهم قول أبو الوازع الراسبي (٣) :
فجاهد أناساً حاربوا الله واصطبر عسى الله أن يخزي غوي بني حرب
فما دام بنو حرب (الأمويون) يحاربون دين الله ، فالخوارج حرب عليهم ، حتى
يخزيهم الله ، ويكشف ضلالهم للناس ، فينصرفوا عنهم ، ويناهضوهم .

وإذ كان بنو أمية في اعتقاد الخوارج ضالين ، كفارا ، فديارهم ديار حرب ،
وقتلهم واجب ، ودمائهم مباحة مهدرة .

يصدر هذه الفتوى قائد الخوارج الأزارقة وشاعرهم وفقههم قطري بن الفجاءة ،
من خلال وصفه لموقعة دولاب على نهر دُجِيل .

فقد اشتبك نافع بن الأزرق (٤) وأتباعه بأهل البصرة ، تظاهروهم جيوش الأمويين

(١) شعر الخوارج ١١٢ وبلاغات النساء ١٩١

(٢) شعر الخوارج ١١٦ .

(٣) شرح نهج البلاغة ١ / ٤٥٤ وشعر الخوارج ٣٣ ولانعرف عن أبي الوازع الراسبي ، إلا أنه كان شاعرا
من مجتهدى الخوارج ، كثير التلوم لقيوده ، كثير التحضيض لأصحابه على الخروج .

(٤) أبو راشد نافع بن الأزرق ، من بنى حنيفة ، نسب أصحابه إليه ، فسموا بالأزارقة ، وكان مقدما في فقه
الخوارج ، فارسا شجاعا ، قتل في موقعة دولاب هذه (سنة ٦٥ هـ) وأخباره كثيرة ، انظرها في : الملل والنحل ١ / ١٦٢
والكامل للمبرد ٢ / ١١٩ والطبري ٧ / ٨٥ ومروج الذهب ٢ / ١١٥ (البيهقي).

في هذه الموقعة ، وكان الخوارج في ألف رجل ، والبصريون في عشرة آلاف ، ومع ذلك أحرز نافع وأصحابه نصرا باهرا ، وهربت جموع البصريين سابحين في نهر دجيل ، وغرق منهم أثناء ذلك كثيرون ، فقال قطرى ^(١) ، مخاطبا أم حكيم السالفة الذكر ، من أبيات :
 فلم أرَ يوماً كان أكثر مقعصاً يُمجُّ دماً من فائِظ وكليم
 وضاربة خذاً كريماً على فتى أغرَّ نجيب الأمهات كريم
 أُصيبَ بدولابٍ ولم تك موطننا له أرضٌ دولابٍ ودير حميم
 فلو شهدتنا يوم ذاك وخيلنا تُبيحُ من الكفار كل حريم
 رأث فتيةً باعوا الإله نفوسهم بجنات عذنٍ عنده ونعيم

وقد مرَّ بنا شعر لأحد الخوارج ، قاله بين يدي الحجاج ، وقد أمر بقتله ، يتقرب به إلى الله قبل أن يقتل ، ويقرر فيه أن من عدا الخوارج مطرودون من رحمة الله ، ملاعين ، « لا بارك الله في القوم الملاعين » ^(٢) .

ويضيف عيسى بن عاتك الخطي إلى مامر ، أن المخالفين جائرون ، غادرون ، باغون ، ملحدون ، في قوله ^(٣) :
 أخافُ عقاب الله إن متُّ راضياً بحكم عبيد الله ذى الجور والغدر
 وأحذرُ أن ألقى إلهي ولم أرُع ذوى البغي والإلحاد في جَحْفَلٍ مَجْرٍ

وذهب الصحارى بن شبيب إلى خالد بن عبد الله القسرى ^(٤) ، يسأله حقه في بيت المال فأبى خالد ، قائلاً : وما يصنع ابن شبيب بالفريضة ، فخرج الصحارى غاضباً وركب حتى جاوز واسطاً ، ثم عبر النهر ونزل على نفر من بنى تيم اللات بن ثعلبة من الخوارج ، فأخبرهم خبره مع خالد ، فقالوا : كنت لأن تخرج إلى ابن النصرانية

(١) الأغاني ٦ / ٥ والكمال للمبرد ١ / ١٨٣ وشعر الخوارج ٤٤ . القصص : الطعن بالرماح . الفائض : من فاضت روحه . الكلم : الجريح .

(٢) راجع ص ١٧٠ من هذه الدراسة .

(٣) أنساب الأشراف ٤ / ٢ : ٩٥ وشعر الخوارج ١٢ . عبيد الله : هو عبيد الله بن زياد وإلى الأمويين على البصرة أيام يزيد بن معاوية . المجر : الكثير .

(٤) توفي في الحرم ١٢٦ هـ وكان جواداً مدحاً خطيباً مفوها ، ولى العراق لهشام بن عبد الملك سنة ١٠٦ هـ انظر : العبر للذهبي ١ / ١٦٢ والطبرى ٨ / ١٨٧

فتضربه بسيفك أخرى ، فقال : إني والله ما أردت الفريضة ، وما أردت إلا التوصل إليه لئلا ينكرني (أى ليأنس إليه إن دخل عليه بعد ذلك) ثم أقتل ابن النصرانية غيلة ، ثم صاغ رأيه هذا شعراً فقال (١):

لم أُرِدْ مِنْهُ الْفَرِيضَةَ إِلَّا طَمَعاً فِي قَتْلِهِ أَنْ أَلَا
فَأَرْجِي الْأَرْضَ مِنْهُ وَمَنْ عَاثَ فِيهَا وَعَنِ الْحَقِّ مَالاً

وواضح أنه يعبر عن رأى الخوارج ، القائل بوجوب قتل المخالف ، وعلى كل خارجي أن يسعى لأدائه ، بكل السبل الممكنة ، ومنها الاغتيال ، فالدم المهدر ، لاحرمة له ، ولاكرامة ، وهذا ما كان يسعى إليه هذا الخارجى ؛ ليخلص الدنيا من فساد المخالف ، وميله عن الحق (عقيدة الخوارج) ، وتجيده ، وإفشائه الضلال .

ولأن الخوارج يعتقدون كفر المخالفين ، وإلحادهم ، فقد كثر تهافتهم على قتالهم ، وكل منهم يأمل أن يصاب على أيديهم بما يرزقه الشهادة ؛ ليفوز بما أعده الله للشهداء من كريم المنزلة .

وهذا ما يفسر قول أم عمران بن الحارث الراسبي ترى ولدها ، الذى قتل يوم دولاب (٢) :

اللَّهُ أَيَّدَ عِمْرَاناً وَطَهَّرَهُ
يَدْعُوهُ سِرّاً وَإِعْلَاناً لِيَرْزُقَهُ شَهَادَةً بِيَدَيْ مِلْحَادَةٍ غُدْرٍ

وإذا عرفنا أن الملحادة ، هو المغالى فى كفره وإلحاده ، أدركنا رأى الخوارج فى مخالفيتهم ، وحكمهم عليهم .

إلى جانب هذه المعانى الدينية ، التى أكثر منها شعراء الخوارج فى هجاء خصومهم ، حرص بعض شعرائهم على الهجاء بمعان أخلاقية ، تدمغ الخصوم بالخرى والعار ، فى مجتمع عربى ، كان أفراده يحرمون على التمدح بخصال الشرف ، وقيم الجدة ، والمروءة .

ولنضرب مثلاً لهذا الضرب من هجاء الخوارج بقول عمران بن حطان ، لما تحصن

(١) الطبرى ٨ / ٢٤٦ وشعر الخوارج ٧٢

(٢) الأغاني ٦ / ٤ وشعر الخوارج ٤٠

الحجاج بن يوسف بالكوفة ، وأغلق عليه قصره ، حين هاجمتها غزاة الخارجية ^(١) — وكان الحجاج يطلب عمران ويشدد في طلبه ^(٢) :

أَسَدٌ عَلِيٌّ فِي الْحُرُوبِ نِعَامَةٌ رِيْدَاءُ تَجْفِلُ مِنْ صَفِيرِ الصَّافِرِ
هَلَّا بَرَزْتَ إِلَى غَزَاةٍ فِي الْوَغَى بَلْ كَانَ قَلْبُكَ فِي جَنَاحَيْ طَائِرِ
صَدَعَتْ غَزَاةٌ قَلْبَهُ بِفَوَارِسٍ تَرَكْتُ مَنَابِرَهُ كَأَمْسِ الدَّابِرِ
أَلْقَ السَّلَاحَ وَخَذَ وَشَاحِي مُعْصِرٍ وَاعْمَدَ لِمَنْزِلَةِ الْجَبَانِ الْكَافِرِ

فالجبن ، وضعف الهمة ، وسقوط المروءة ، والعجز عن مقاومة الأبطال ، واضطهاد العزّل المسنين الضعفاء ، هي المثالب التي اقتصر عليها عمران بن حطان ، في هجاء هذه الشخصية الأموية الهامة ، الحجاج بن يوسف الثقفي .

من هذا العرض لشعر الخوارج المؤيد لطائفتهم ، بالتصدي لأعدائهم ، نستطيع أن نلاحظ أن طابع الحماسة الذي يميز شخصية الخوارج هو الظاهرة البارزة في هذا الشعر ، وأن حماسة شعر الخوارج لم تنزلق بهم إلى اصطناع أسلوب المبالغة والتحويل في الأداء ؛ لاستناد حماسهم إلى عقيدة راسخة ، هي المثير الأساسي لكل المعاني التي طرقوها ، كما أنها جعلتهم يربطون بين هذه المعاني ، وبين أملهم الأكبر ، في الفوز بثواب الله ، محتسبين كل مايقولون عند الله ، قاصدين به نصره دينه وإعزازه .

ج : تمجيد شهداء الخوارج (الرثاء) :

كان الخوارج يؤمنون بالخروج ، والجهاد في سبيل عقيدتهم ، وكانت الحرب هي وسيلتهم في الخروج والجهاد ؛ ولذا كثرت وقائعهم مع من يخالفهم في عقيدتهم ، وبخاصة الأمويين ، كما ذكرنا من قبل .

حقاً إنهم كانوا يناصبون العداء كل مَنْ يخالفهم في العقيدة ، فالناس في اعتقادهم

(١) فارسة خارجية ، كانت زوجة لشبيب الخارجي السالف الذكر ، وكان يضرب بشجاعتها المثل ، قتلت في معركة بقيادة زوجها بينه وبين الحجاج سنة ٧٧ هـ . انظر : العبر للذهبي ٨٧/١ والطبري ٢٢٢/٧ ومابعدها ، وفيها يقول أحد شعراء الخوارج :

غزاة ذات النذر منا حميدة لها في سهام المسلمين نصيب

(شعر الخوارج ٦٤)

(٢) الأغاني ١٥٠/١٦ والكامل للمبرد ٣٨/٢ والعقيد الفريد ٢٥١/٣ . وانظر : مروج الذهب ١٥٣/٢ . فقد ورد البيتان الأولان في ضمن خبر طريف بين الحجاج وأم البنين زوج الوليد عبد الملك . ربداء : سوداء في حمرة . المعصر : الفتاة الشابة .

إما مؤمن مجاهد ، أو قاعد ، وهم الخوارج بفرقهم المختلفة ، وإما كافر ، وهم من عداهم ، وهؤلاء يطلقون عليهم المخالفين ، لافرق بين شيعة أو أموية ، أو زيرية .

غير أن صراعهم الحزبي إنما كثر مع الأمويين ، الذين طاردوهم ، ورموهم بالجيش طوال أيام حكمهم .

وكان طبعيا ، وهم المحاربون الفدائيون ، أن يكثر القتل في صفوفهم ، بخاصة أنهم كانوا حريصين على ما يمكن أن نسميه تقصير المسافة بينهم وبين لقاء الله بالموت ، وهذا ما يظهر في كثير من أشعارهم ، التي تعبر عن استطلاة الحياة ، ومحاولة التخلص منها ، استعجالا للقاء الله من ناحية ، وللحاق بإخوانهم وأصحابهم ، الذين سبقوهم إلى شرف الفوز بالشهادة من ناحية أخرى .

ومن المعلوم أن الخوارج كانوا هدفا دائما للاضطهاد والتشريد على يد بنى أمية ، مبغضين إلى جمهور غفير من معاصريهم ، فكان وضعهم سيئا في أغلب أحوالهم ، وفي حدة الثورة على الوضع السيئ يكمن الأمل في التخلص من هذه الحياة عند الخوارج ، أى أن الموت عندهم هو (الغاية المنشودة) ؛ ولذلك كان الشاعر الخارجي في صراع كبير مع الزمن ، وسبيله إلى الانتصار عليه هو الموت ، فإذا قارنا بين صراع الخوارج مع الزمن ، وصراع أتقياء أهل السنة له ، نجد أن الأخيرين يؤمنون بأن الصبر هو طريق النصر ، وإذا قارناه بصراع المتصوفة ، نجد أن هؤلاء يؤمنون بأن تقصير المسافة إنما يتم قبل الموت ، بالاتحاد والفناء ، أما الخوارج فيرون أن تقصير المسافة انتصار متوج بالموت ^(١) .

بسبب تهافت الخوارج على الموت ، تفشى فيهم القتل ، وقصرت أعمارهم ، كما قال شاعرهم : « إن الشراة قصيرة الأعمار » ، وبسببه أيضا تفشت في أشعارهم تلك النغمة ، التي تتحدث عن تبوهم بالحياة ، وعن شعورهم بأيامها وكأنها عناء مطول ملؤه السأم والملالة ، على حد قول أبي بلال مرداس بن أدية : ^(٢)

إلهى هب لي زلفَةً ووسيلةً إليك فأني قد سئمت من الهَرِّ
وما الزلفى والوسيلة التي يتمناها أبو بلال إلا ما عبر عنه كعب بن عميرة ^(٣) الخارجي في

(١) رجعنا في هذه الفكرة إلى مقدمة شعر الخوارج ص ٧ .

(٢) شعر الخوارج ١١ .

(٣) أحد قدماء الخوارج ، أراد أن يشهد النهروان فحبسه أخوه . انظر معجم الشعراء ٣٤٥ .

قوله (١) :

ويارب هب لي ضربةً بمُهْنِدٍ حسامٍ إذا لاقى الضريبة يَهْبُزُّ

والخويرث الراسبي يمل الحياة كما ملها أبو بلال ، ويدخل في صراع مع نفسه ، يحاورها ، ويزجرها عن التعلق بالحياة ، التي لاخير فيها ، ويحزم أمره على طلب الموت ، باقتحام مظانه (٢) :

أَقُولُ لِنَفْسِي فِي الْخَلَاءِ أَلُومَهَا هُبْلَيْتِ دَعِينِي قَدْ مَلَلْتُ مِنَ الْعَمْرِ

وَمِنْ عَيْشَةٍ لَاخِرٍ فِيهَا دَنِئَةٌ مُدَمَّمَةٌ عِنْدَ الْكِرَامِ ذَوِي الصَّبْرِ

سَأَرْكَبُ حَوْبَاءَ الْأُمُورِ لَعَلَّنِي أَلَاقِي الَّذِي لَاقَى الْحَرْقَ فِي الْقَصْرِ

إنها موجة من السخط على الحياة ، والتبرم من البقاء فيها ، وموقف معكوس عند المؤمنين بالحياة ، الراغبين فيها .

وهذا الهيام بالموت ترك في أشعار الخوارج أيضاً ، لونا حزينا ، ونغما حزينا ، ولكنه ليس حزن اليائسين المتخاذلين الضعفاء ، بل حزن الأقوياء « لأن هذا الموت نفسه كان عند أصحاب ذلك الشعر نوعا من الأمل ؛ إذ لم يعد الموت — في نظرهم — إلا دخول الجنة ، أو لقاء الإخوان والأحباب (٣) » .

بهذه النظرة إلى الموت ، اندفع الخوارج في حروبهم ، يتهافون على الموت تهافت الفراش على النار ، وفازوا من ذلك مأملوا ، حيث حصدت الحروب أرواحهم حصداً . ووقف الشعر يسجل مهرجان الشهادة ، الذي أقامة الخوارج ، باندفاعهم وفدايتهم ، في مراث قوية ، حافلة بمعاني القدوة والمثل ، تخلد الأبطال ، وتمجد فعالهم ، وتبشرهم بمنازل الشهداء عند ربهم .

ومن الجدير بالذكر أن رثاء الخوارج شهداءهم ، يختلف عن رثاء القتلى في شعر الأحزاب الأخرى ؛ إذ يقل فيه الأنين والشكوى والعويل ، ويعمر بطلب المثوبة ، وتحقير أمر الدنيا ، وإعظام أمر المجاهدين ، المستشهدين ، وتمنى اللحاق بالشهداء . فلننظر في قول أم عمران بن الحارث الراسبي ، تربيته (٤) :

(١) شعر الخوارج ٥ ومعجم الشعراء ٣٤٥ . الضريبة : اللحم .

(٢) شعر الخوارج ٦٠ .

(٣) شعر الخوارج (المقدمة ص ٣) .

(٤) الأغاني ٦ / ٤ وشعر الخوارج ٤٠ . المصير : الأسد القتال .

اللهُ أَيْدِ عِمْرَانَا وَطَهَّرَهُ وَكَانَ عِمْرَانُ يَدْعُو اللَّهَ فِي السَّحَرِ
يَدْعُوهُ سِرًّا وَإِعْلَانًا لِرِزْقَةٍ شَهَادَةٌ بِيَدَيْهِ مِلْحَادَةٌ غُدْرُ
وَلِيُّ صَحَابَتِهِ عَنْ حُرٍّ مِلْحَمَةٍ وَشَدَّ عِمْرَانُ كَالضَّرْغَامَةِ الْهَصِيرِ

ويقول أبو بلال مرداس بن أدية في شهداء موقعة النهروان ^(١) من الخوارج ^(٢) :

أَبْعَدَ ابْنُ وَهَبٍ ذِي النَّزَاهَةِ وَالتَّقَى وَمَنْ خَاضَ فِي تِلْكَ الْحُرُوبِ الْمَهَالِكَا
أَحَبُّ بَقَاءً أَوْ أَرْجَى سَلَامَةً وَقَدْ قَتَلُوا زَيْدَ بْنَ حَصِينٍ وَمَالِكَا
فِيَارِبٌ سَلَّمَ نَيْتِي وَبَصِيرَتِي وَهَبٌ لِي التَّقَى حَتَّى أَلَاقِيَ أَوْلَكَكَ

نعم ، الشاعر حزين على فقد هؤلاء الأعلام من شهداء الخوارج يوم النهروان ، ولكن حزنه أخذ طابعا يبعد عن الجزع والتوجع والخور ، بحيث يدفعه إلى تمنى اللحاق بهم ، وانتزاع حب البقاء والسلامة من نفسه ، فهو حزن الأقوياء الشجعان ، الذين يلحظون مافي هؤلاء من القدوة ، والتأسي بتقواهم ، وشجاعتهم ، وبطولتهم ، فيتمنون لقاءهم ، على ما كانوا عليه من صدق البصيرة ، وكمال التقوى .

وعلى أثر المعركة التي دارت بين الخوارج بقيادة بسطام اليشكري الملقب بشوذب ^(٣) والأمويين (سنة ١٠١ هـ) بالعراق ، رثى أبو ثعلبة أيوب بن خُوَلَّى قتلى الخوارج ، وخص منهم هذبة اليشكري ابن عم بسطام ، وأبا شيبيل مقاتل بن شيبان ، فقال ^(٤) :

فِيَاهِدْ لِلْهَيْجَا وَيَاهِدْ لِلْنَدَى وَيَاهِدْ لِلْخَصْمِ الْأَلْدِّ بِحَارِبِهِ
وَيَاهِدْ كَمْ مِنْ مُلْحَمٍ قَدْ أَجَبْتَهُ وَقَدْ أَسْلَمْتَهُ لِلرَّمَاكِ حَوَالِبِهِ
وَكَانَ أَبُو شَيْبَانَ خَيْرَ مُقَاتِلٍ يُرْجَى وَيَخْشَى بِأَسَمِهِ مِنْ يُحَارِبِهِ
فَفَازَ وَلَاقَى اللَّهَ بِالْخَيْرِ كُلِّهِ وَخَذَمَهُ بِالسَّيْفِ فِي اللَّهِ ضَارِبِهِ

(١) تعد أولى معارك الخوارج مع خصومهم ، وكانت بينهم وبين علي وأنصاره في صفر ٣٧ هـ قتل فيها أكثر من كان مع عبد الله بن وهب الراسي . انظر : مروج الذهب ٢ / ٣٧ (البهية) .

(٢) شرح نهج البلاغة ١ / ٤٤٨ وشعر الخوارج ١٠

(٣) خرج أيام عمر بن عبد العزيز سنة ١٠٠ هـ في ثمانين فارسا أكثرهم من ربيعة ، وقتل سنة ١٠١ هـ في لقاء آخر مع جند مسلمة بن عبد الملك . انظر : الطبري ٨ / ١٤٢

(٤) الطبري ٨ / ١٤٣ وشعر الخوارج ٧١ . الملحم : الذي أسر وظفر به أعداؤه . جذمه : قطعه . الجوابل : الخيل المجلوبة للقتال .

فهو يعلى فيمن رثاهما الغناء في الحرب ، ومقارعة الأعداء واقتحام الأهوال ، ونجدة الأسير ، ويغبطهما على الفوز بالشهادة ، ولقاء الله ، وبين أيديهما كل ماقدماه في سبيل الله .

ولما سقط أبو بلال مرداس بن أدية (سنة ٦١ هـ) قتيلا ، رثاه عمران بن حطان ، فقال (١) :

لقد زادَ الحياةَ إلَيَّ بُغْضاً وحباً للخروج أبو بلال
أحاذرُ أن أموت على فراشي وأرجو الموت تحت ذُرَى العوالى
ولو أنى علمت بأن حتفى كحتفى أئى بلالٍ لم أبال
فمن يك همُّه الدنيا فإنى لها والله رب البيت قال

إن هذا الرثاء يعد نموذجاً لحزن الأقوياء ، غير المتخاذلين ؛ إذ يرى عمران في هذا الخارجى ، الذى قتل دفاعاً عن عقيدته ، قذوة ومثلاً ، فيتطلع إلى الفوز بما فاز به من شهادة ، تحبب إليه الخروج ، جهاداً في سبيل الله والعقيدة ، وتبغض إليه الحياة ، وتدفعه إلى أن يلقى بنفسه في غمار المعارك ؛ ليدرك صاحبه ، ويحظى بالشهادة مثله ، وهذا ما جعله يجار بالضرعة إلى الله ، أن يلحقه بصاحبه (٢) :

يا عين بكى لمرداس ومصرعه ياربُ مرداس الحفنى بمرداس
والتبشير بالجنة معنى بارز ، إلى جانب معنى القذوة ، وتمنى اللحاق ، في رثاء الخوارج شهداءهم ، من ذلك قول شاعرهم ، يرثى من يدعى جَوَّازاً الضبى الخارجى (٣) :

لا برك الله في قومٍ أجاز لهم حكّامهم أن أصابوا الحرَّ جَوَّازاً
إن يقتلوه فما فازوا بمقتله وقد أصاب الذى رَجَّى وقد فازا
وقد مر بنا قول أيوب بن خولى في رثاء مقاتل الشيبانى :
فهاز ولاقى الله بالخير كله

(١) الكامل للمبرد ١ / ١٠٨ وخزانة الأدب ٢ / ٤٣٩ وشعر الخوارج ١٦

(٢) أمالى المرتضى ١ / ٣٣٦ . والكامل للمبرد ١ / ١٠٨ وانظر : الفرق بين الفرق ٧٢ .

(٣) شعر الخوارج ١١١

لقد غدا شهداء الخوارج الذين سقطوا في موقعة النهروان كابن وهب وأصحابه ، أو من قتل منهم في غيرها من حروبهم الكثيرة ، غدوا رمزا لمعانى التضحية والشهادة في سبيل الحق ، ومنبعا لكثير من شعر الرثاء ، الذى تتمتع فيه عواطف الحزن والثورة والرغبة في الشهادة ، ليلحقوا بمن سبقوهم إلى دار النعيم .

وفى هذا يقترب شعر الخوارج فى الرثاء من شعر الشيعة فيه ، فالشيعة أيضا اتخذوا من مقتل أئمتهم ، وبخاصة الحسن بن على ، شهيد كربلاء ، رمزا للتضحية في سبيل الحق ، وباعثا على شعر كثير ، فيه الثورة ، وفيه الحزن ، وفيه الندم ... وإن ظل رثاء الخوارج يحتفظ بوجهه الإيجابى البرىء — غالبا — من التسليم والتخاذل ، وانحياز النفس أمام مصيبة الموت ، العامر بمعانى القدوة ، والاستمرار فى الحرب والرفض والمقاومة ، وبذا كان رثاء الشجعان الأقوياء ، لالضعفاء المتخاذلين المنهارين .

نعم ، قد يربط الشاعر الخارجى رثاءه بالدموع ، وقد تغزر هذه الدموع ، ولكن سرعان ما يفيق الشاعر ، فيكفكف دمه ، ويعود إلى الطابع العام فى رثاء شهدائهم ، الذى يمجّد البطولة ، ويرى فى البطل الشهيد قدوة ومثلا .

فقد بكى عمران بن حطان أبا بلال مرداس بن أدية ، واستذرف دمع عينه على مصرعه ، فى شطر بيت ، ثم عاد إلى التماسك فى الشطر الثانى ، داعيا الله أن يرزقه الشهادة التى رزقها أبا بلال :

يا عين بكى لمرداس ومصرعه يارب مرداس الحقنى بمرداس

وقد يسترسل الشاعر الخارجى فى حزنه ودموعه أكثر ، ولكنه دائما ينحرف عن هذا المظهر من مظاهر الضعف ، إلى طابع رثاء الخوارج الذى ذكرنا .

ونذكر فى هذا المقام ماثرى به حسان بن جعدة الخارجى ^(١) ، بسطاما اليشكرى

(١) لانعرف له إلا شعره الآتى وما حوله من خبر المعركة التى قتل فيها أصحابه الذين يرثيهم به . انظر : الطبرى

وصحبه الذين قتلهم مسلمة بن عبد الملك ^(١) (سنة ١٠١ هـ) ^(٢) .

يا عين أذرى دموعاً منك تسجماً وابكى صحابة بسطامٍ وبسطاماً
فلن ترى أبداً ماعشت مثلهم أنقى وأكمل في الأحلام أحلاماً
بسيهم قد تأسوا عند شدتهم ولم يريدوا عن الأعداء إجحاماً
حتى مضوا للذى كانوا له خرجوا فأورثونا منارات وأعلاماً
إني لأعلم أن قد أنزلوا غرماً من الجنان ونالوا ثم خداماً

وقول الضحاك بن قيس الخارجي ^(٣) :

يا عين أذرى دموعاً منك تهتانا وابكى لنا صحبةً بانوا وإخوانا
خلوا لنا ظاهر الدنيا وباطنها وأصبحوا في جنان الخلد جيراناً

وقول الأصم الضبي ^(٤) يرى إخوانه الذين قتلوا عند الجوسق : ^(٥) :

قوماً إذا ذكروا بالله أو ذكروا خرواً من الخوف للأذقان والركب
ساروا إلى الله حتى أنزلوا غرماً من الأرائك في بيت من الذهب

ففى هذا الرثاء حزن ولوعة ، ودموع غزيرة حقاً ، ولكن فيه إلى جانب الحزن والعبرات طابع الخوارج في رثائهم ، الذى يمكن أن نسميه رثاءً مذهبياً ، فيه تمجيد للبطولة والأبطال ، وعظمة القدوة ، والحرص على طلب الشهادة ، والبشارة بحسن العقبى ، والثقة التامة بالجنة ونعيمها — (إني لأعلم) و (أصبحوا في جنان) و(أنزلوا غرماً) — جزاء ومستقراً ومقاماً .

* * *

(١) راجع ص ١٩٣ هامش رقم ٣ من هذا البحث . ومسلمة بن عبد الملك الأمير الأموى ، كان يلقب بالجرادة الصفراء ، موصوفاً بالشجاعة والإقدام والرأى والدهاء ، ولى أرمينية وأذربيجان غير مرة ، كما تولى إمرة العراقين ، وتوفى سنة ١٢١ هـ . انظر : العبر للذهبي ١ / ١٥٤

(٢) الطبرى ٨ / ١٤٤ . وشعر الخوارج ٦٩ .

(٣) الطبرى ٨ / ٢٤٤

(٤) قيس بن عبد الله ، الملقب بالحسي ، حارب مع عبيدة بن هلال ، وكان فى المستأمنة بعد مقتل عبيدة ، وعاش إلى أن كف بصره ، انظر مصدر شعره الآتى .

(٥) معجم البلدان (رسم — جوسق) وشعر الخوارج ٥٦ . وجوسق : موضع بظاهر الكوفة .

ى : نظرات فنية في شعر الخوارج السياسى :

اقترن شعر الخوارج بعقيدتهم ، كما جاء انعكاساً لشخصيتهم الراضية لكل الآراء والنظم السياسية القائمة حينذاك ، والمتمردة في حماس وانفعال صادقين ، على كلتا القوتين العظميين ، اللتين كانتا تخوضان صراعاً عنيفاً حول الحكم في الشام والعراق .

لقد اجتمع الخوارج على عقيدة واحدة ، هى أن أمور الحكم وسياسته لم تكن تسير وفق ماتقتضيه الشريعة الإسلامية ، ويدل عليه نص القرآن ، من قيام الحكم الإسلامى على التقوى ، والعدالة ، والمساواة ، وربما اختلفت فرق الخوارج وطوائفهم فيما ترى كل منها من وسائل الإصلاح ، وأساليب الرفض ، مابين معتقد في وجوب الخروج والقتال ، ومواجهة الحكم القائم بالقوة ، أو جواز القعود مع الاستنكار والدعوة ضد هذا الحكم بأساليب أخرى غير القتال ، لكن تجمعهم جميعاً نزعة دينية متحمسة أشد التحمس ، متطلعة في إصرار إلى صورة من الحكم الإسلامى ، البرىء من شوائب المطامع الدنيوية ، التى تقود الحاكّم إلى طريق ، غير طريق الحق والعدل والدين والخير .

ومن هنا جاء شعر الخوارج على اختلاف موضوعاته ، انعكاساً لحياتهم بجانبها ، المذهبى والحربى ، فيه تمتاز روح التأمل والزهد بروح البطولة والتضحية والفداء والتهافت على الاستشهاد فى ساحات الجهاد الدينى ، وتظله سحابة من التبرم بالحياة ، والحزن لمصارع الأبطال والزعماء ، المغلف بقوة الإيمان ، وشبوية الاندفاع والحماس .

هذا هو الإطار العام ، الذى تحرك بداخله شعر الخوارج ، محققاً ذاته ، مبرزاً شخصية ، فى النواحي الفنية التالية :

١ — وضوح الطابع الدينى المذهبى : حيث تكثرت المعانى الدينية العامة ، أو المنبعثة عن عقيدة الخوارج ومذهبهم فى الكثرة الغالبة من أشعارهم ، وفى كل غرض اتجه إليه هذا الشعر وعالجه — غالباً — والنماذج السالفة تبرز هذا الجانب الفنى فى شعرهم ، سواء فى تمجيد طائفتهم ، والتعبير عن إيمانهم الشديد بعقائدهم ، أو فى الإشادة بأبطالهم ، أو رثاء قتلاهم .

ويجدر بنا أن نفرق هنا بين المعانى الدينية ، المستوحاة من عقائد المذهب ، والمعانى

الدينية العامة غير المذهبية ، أى التى نجدها عندهم وعند غيرهم ، فالأولى بالطبع متفردة متميزة ، تفرد عقيدة الخوارج وتميزها عن عقائد الأحزاب والفرق الإسلامية الأخرى ، أما الأخرى ، فلا يكاد شعر الخوارج ينفرد فيها أو يتميز ، عن نظائرها فى شعر الأحزاب الأخرى ، وبخاصة فى مقام الإشادة بالطائفة وتمجيدها .

فالملاحظ أن أكثر الصور الدينية التى لهجت بها ألسنة شعرائهم فى هذا المقام ، تشبه فى كثير من عناصرها ، ما قدمه الشعر الشيعى من صور دينية للأئمة الشيعيين ، ونستطيع أن نذهب إلى أبعد من هذا ، فنرى هذه الصور تتنازعها الفرق الإسلامية جميعا ، سياسية كانت أو دينية ، باعتبارها المثل الذى تتحقق فيه صورة المؤمن الحق ، وإن لم تترجم دائما فى صورة شعرية عند الفرق الإسلامية كلها .

فالحسن البصرى يقدم لنا صورة المؤمن السنى نثرا ، فيقول : ^(١) « إن المؤمنين والله قوم ذُلل ، ذلت والله الأسماع والأبصار والجوارح ، حتى يحسبهم الجاهل مرضى ، وإنهم لأصحاء القلوب ، ولكن دخلهم من الخوف ، مالم يدخل غيرهم ، ومنعهم من الدنيا عملهم بالآخرة ، فقالوا : الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن ، والله ماحزنهم حزن الدنيا ، ولا تعاضم فى أنفسهم ما طلبوا به الجنة ، أبكاهم الخوف من النار ، وأن من لا يعتز بعز الله يقطع نفسه على الدنيا حسرات ، هذا نهارهم ، فكيف ليلهم ، خير ليل ، صفوا أقدامهم ، وأجروا دموعهم على خدودهم ، يطلبون إلى الله — جل ثناؤه — فكاك رقابهم » .

ألا تذكرنا هذه المعانى ، التى تدور حول الخشوع لله ، وتأثر الأبدان بكثرة العبادة ونحوها ، والبكاء خوفا من النار ، والزهد فى الدنيا ، والرغبة الشديدة فى ثواب الآخرة ... إلى آخر ما ذكر الحسن البصرى ، ألا تذكرنا ، بقول عمر بن الحصين العنبرى الخارجى فى أبناء طائفته ^(٢) (السابق) :

متأهبون لكل صالحة ناهون من لاقوا عن النكر

(١) جامع البيان (تفسير الطبرى) ١٩ / ٢٠ .

(٢) راجع ص ١٧٦ — ١٧٧ من هذه الدراسة ، فى هذه الآيات التى يلجأ من شعر الخوارج .

متأوهون كأن جمر غضا للموت بين ضلوعهم يسرى
 لاليلهم ليل فيلبسهم فيه غواشي النوم بالسكر
 إلا كرى خلّسا وآونة حذر العقاب فهم على دعر
 وقوله (السابق في أبيات) :

تلقاهم فتراهم من راعع أو ساجد متضرع أو ناحب
 وقول الطرماح (السابق في أبيات) :

لله در الشراة إنهم إذا الكرى مال بالطلأ أرقوا (الخ الأبيات)
 كما تذكرنا بوصف أى حمزة الشارى للخوارج نثراً ، وقد مرّ (١) .

ولانكاد نجد فرقاً بين هذه وتلك (صورة المؤمن السنى ، والمؤمن الخارجى) وبين صورة
 المؤمن الشيعى ، ويكفى أن نذكر يقول أمين بن خريم الشاعر المتشيع فى أئمة آل البيت ، وقد
 سبق (٢) :

نهاركم مكابدة وصوم وليلكم صلاة واقتراء
 وليتم بالقران وبالتركى فأسرع فيكم ذاك البلاء...

ولا تختلف كثيراً صورة المؤمن المعتزلى عن هذه الصورة ، يقول شاعر معتزلى فى وصف
 أصحاب واصل بن عطاء — رأس المعتزلة (٣) :

تراهم كأن الطير فوق رعوسهم على عمّة معروفة فى المعاشر
 وسيماهم معروفة فى وجوههم وظاهر قول فى مثال الضمائر
 وفى قصّ هداى وإحفاء شارب وكور عل شيب يضىء النواظر

آية هذا كله : أن المعانى الدينية العامة فى شعر الخوارج ، لاتكاد تمتاز عن نظائرها فى
 شعر غيرهم ، أما ما كان من معانيهم الدينية الملونة بصبغة مذهبية عقدية ، فهى التى تعكس
 طابعهم المذهبى ، وشخصيتهم الدينية المذهبية .

ولسنا نقصد بالطابع المذهبى إيراد العقائد ، أو المعانى المستمدة من العقائد

(١) راجع ص ١٦٩ من هذه الدراسة .

(٢) راجع ص ١٠٢ من هذه الدراسة

(٣) الأغاني ٢٠ / ١١١

الخارجية ، مدعمة بالحجة والبرهان المقنع بصوابها ، أو التعليل لإيمان الخوارج بها ، فشعرهم يكاد يخلو من هذا .

وإنما نقصد تلك الصبغة الدينية المنبعثة من عقائدهم ، والتي تلون معانيهم ، أو فلنقل : ذلك الشعور الدينى الذى يتمثل فى شعرهم أكثر مما تتمثل عقائدهم نفسها .

٢ — صدق الباعث ، وحرارة العاطفة : فقد لاحظنا خلال دراستنا لثمادج شعر الخوارج السابقة ، فى مختلف ألوانه ، ومضامينه ، أنهم يصدرون فى كل مايقولون عن إيمان راسخ ، وحماسة مندفعة متوهجة ؛ ولذا لم يعتمد شعرهم فى أساليب أدائه على أسلوب المبالغة الصارخة ، والادعاء وافتعال المعانى أو المواقف ، ونحو ذلك مما يدل على ضعف الباعث ، والافتقار إلى الانفعال الصادق ، ومما حاجتهم إلى ذلك ، وهم قوم لا يؤمنون بالتقية فى شئ من أفعالهم وأقوالهم ^(١) ؛ ومن ثم اتسموا فيها بالصراحة والصدق ، تبعاً لإيمانهم الشديد بمبادئهم ، لايتحولون عنها ، ولايدارون فيها ، وإنما يضحون فى سبيلها بأرواحهم ، وينافحون عنها بسلاحهم .

من أجل هذا قصر شعراء الخوارج شعرهم — غالباً — على التعبير عن آرائهم ، ومايتصل بحياتهم من حروب وثورات ، وقلما عالجوا به أغراضاً أخرى ، وبمقتضى هذا بعدوا بشعرهم عن الإطار التقليدى ، الذى كان يسير عليه الشعراء قبل عصرهم ومن معاصريهم فى قصائدهم ؛ إذ ليس فى حياتهم مجال لذلك الغزل التقليدى الذى يقع فى مفتح القصائد ، وليس فى حياتهم ، مايدعو إلى الوقوف على الأطلال ، وبكاء الديار ، أو وصف الرحلة إلى الممدوح ، أو الحديث المفصل عن مآثر الآباء والأجداد ، والفخر بالأحساب والأنساب ، والتغنى بملاحم المجد والشرف التليد ، ماداموا يرفضون التفاضل

(١) قالت جمهرة الخوارج بعدم جواز التقية ؛ إذ لا قيمة للنفس والعرض والمال إذا انظم الدين ، فسلامة الدين مقدمة على سلامتها جميعاً ، حتى ليذهب بعضهم إلى أنه لا يصح قطع الصلاة إذا جاء سارق ليسرق متاعه ، وهو يصلى . ومذهب أهل السنة أن من خاف على نفسه أو ماله بسبب عقيدته ، وجب أن يهاجر من البلد الذى يخاف التعرض للأذى فيه ، فإن لم يستطع أظهر التقية بقدر الضرورة ، عملاً بقوله تعالى : « إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان » (سورة النحل- ١٦ / ١٦) ووجب عليه مع ذلك أن يسعى فى الخروج بدينه . (انظر : فجر الإسلام ١ / ٣٢١ والخوارج والشيعة ٣٠ — ٣١) ومعلوم أن التقية عقيدة من عقائد الشيعة ، كما أسلفنا .

بالنسب ؛ لأن القرآن رفضه (١) .

حقا نجد في شعر الخوارج حديثا عن المرأة ، ولكنه ليس من قبيل حديث غيرهم عن المرأة في غزلهم ، إنه حديث يختلف عن الغزل العاطفي الذي يث فيه الشاعر أشواقه ، ومعاناته في الحب ، وحرمانه وافتتانه ، وإنما حديث عن المرأة رفيقة السلاح والكفاح ، التي تخوض المعارك — أحيانا — وتبلى فيها بلاء ، لا يقل عن بلاء الرجال ، حديث كالذي رأيناه في مناجاة قطري بن الفجاءة زوجته الفارسة ، التي كانت تحارب معه جنبا إلى جنب ، وهي ترتجز برجزها السابق :

أحمل رأسا قد سثمت حمله
وقد مللت دهنه وغسله
ألا فُتًى يحمل عني ثقله

فهو يقرن بين حبها وحب الشهادة في سبيل الإيمان والمبدأ ، لإدلالا بفروسيته المفردة ، على طريقة الشعراء الفرسان في هذا المقام ، ولكن تصويرا لوجه آخر من الحب ، ينصرف فيه عن أهواء الدنيا ، ومتع النفس ، وإن كانت جميلة محبة ، كما رأينا في قوله :

فيا كبدا من غير جوع ولاظما وواكبدا من وجد أم حكيم
ولو شهدتني يوم دُولاب أبصرت طعان فتى في الحرب غير لئيم
إلى أن يقول :

فلو شهدتنا يوم ذاك وخيلنا تبيح من الكفار كل حريم
رأت فتية باعوا الإله نفوسهم بجنات عدن عنده ونعيم

ومن أجل هذا أيضا لم يتجهوا بشعرهم إلى غيرهم ، على خلاف ما رأينا عند بعض شعراء الشيعة والأمويين والزيديين ، من تذبذب طمعا في كسب ، أو دفعا لضر ، فقد رفضوا مسلك أكثر شعراء عصرهم ، وبخاصة الفحول منهم ، في الارتزاق بالشعر ،

(١) في قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا » إن أكرمكم عند الله أتقاكم « (سورة الحجرات ٤٩ / ١٣) .

والسير في ركاب الخلفاء والولاة والقواد ، بل أدانوا هذا المسلك بمنطقهم الديني ، الذي انطلقت منه آراؤهم وألوان سلوكهم ، ويلخص موقفهم من قضية التكسب بالشعر ، قول عمران بن حطان ، يخاطب الفرزدق ^(١) :

أيها المادحُ العبادَ ليعطى إن الله مابأيدى العباد
فاسأل الله ماطلبت إليهم وارحُ فضل المُقسّم العوَاد
لانتقل في الجواد مالميس فيه وتسمى البخيل باسم الجواد

ولانكاد نستثنى من هذا الاتجاه في شعر الخوارج إلا الطرمّاح بن حكيم ، الذي رأيناه يتجه ببعض شعره ، مادحا بعض عمال بنى أمية طامعاً في العطاء ^(٢) ؛ ولا يمكننا أن نقارن بين الطرمّاح وغيره من شعراء الخوارج في هذا السلوك ، فقد شارك الطرمّاح — على خلاف شعراء طائفته — في المنازعات القبلية ، وأسرف في العصية للقبيلة ، كما أكثر من هجاء القبائل ، ومن الفخر بنفسه فكان كشعراء القبائل بالكوفة في عصره ، ومن حين لآخر كانت تستيقظ في صدره بعض المشاعر الزهدية ، وتتحرك في قلبه نبضات مذهبية ، غير أن حرصه على المال وطلبه ، باعد بينه وبين تمثيل الروح الخارجية ، المندفعة في تيار الزهد الدقيق .

يضاف إلى كل ما ذكرنا من دلائل صدق الباعث ، وحرارة العاطفة في شعر الخوارج ، أن أكثر شعرائهم كانوا من أبطال القتال ، وزعماء المذهب المتحمسين ، ومثل هؤلاء أبعد ما يكونون عن الادعاء ، أو التكلف في فعل أو قول ، مما يكسب شعرهم قوة في التأثير ، وسرعة في النفاذ إلى القلوب لصدوره عن عقيدة ، وعن إيمان بالغ بهذه العقيدة ، فقد آمن كل خارجي من هؤلاء بأنه يدافع عن حقوق الله والإسلام ، وأنه إن لم يخرج للدفاع عن عقيدته ، حقت عليه اللعنة ، بل حقت عليه النار ، يقول الطرمّاح في صحوة من صحوات التلّوم ^(٣) :

(١) الأغاني ١٦ / ١٥١ وانظر خزانة الأدب ٢ / ٤٤٠ وشعر الخوارج ٢٠

(٢) راجع ص ٨٦ من هذه الدراسة .

(٣) ديوانه ٢٥٣ والشعر والشعراء ٢٢٩ وشعر الخوارج ٩٨

لقد شقيتُ شقاءً لانقطاع له إن لم أفرزْ فَوْزَةً تُنجي من النَّارِ
والنَّارُ لم يَنْجُ من روعاتها أحدٌ إلا المُنِيبُ بقلب المخلص الشَّارِي
أو الذي سبقَتْ من قبل مولده له السَّعادةُ من خَلْقها الباري
فأمله في النجاة من عذاب النار مرتبط بفوزه بهذه الهداية التي لدى الشِّراة
(الخوارج) ، وكأنه يعتقد أن النار أعدت لمن لا يخرج ، ويترك فئات المسلمين الضالة في
رأيه .

٤ — استشعار روح الحزن : فالقارئ في شعر الخوارج يحس بنغمة حزينة ، تلف
هذا الشعر ، وتنبعث منه .

وبواعث هذه النغمة كثيرة في أشعارهم ، فهم قوم أهل حرب ، والزهد عندهم
قرين الحرب ، وهو زهد كثيرا مادفعهم إلى اقتحام أهوال الحروب طلبا للموت ، يسعى
الواحد منهم إليه سعيا ، وتضيق نفسه إذا طالت به أيام الحياة ، ولم يرزق الشهادة في وقعة
من الوقائع .

ولعلنا مازلنا نذكر قول كعب بن عُميرة :

لقد فاز إخواني فنالوا التي بها نَجَوْا من عذاب دائم لا يُفْتَرُ
أبى الله إلا أن أعيش خلافتهم وفي الله لى عزٌّ وحرزٌ ومنصُرُ
ويارب هبْ لى ضربةً بمهْنَدٍ حسامٍ إذا لاقى الضريبة يَهْبُرُ
وقول مرداس بن أدية:

إلهي هبْ لى زلفَةً ووسيلة إليك فإني قد سئمت من الدهر
وغير ذلك كثير — مما مرّ بنا بعضه .

وكثيرا ما اتخذ شعراؤهم من طول العمر ، يرغم المخاطر ، عظة يحضون بها القعدة
عن القتال خشية القتل ، كذا فعل الحويرث الراسبي ، الذي يقول :
أقول لنفسي في الخلاء ألومها هبلت دعيني قد مللت من العمر..
وحطّان الأعسر الخارجي ، في قوله ^(١) :

(١) شعرا الخوارج ٥٦ ، وانظر أمثلة أخرى ص ١٥٥ — ١٥٧ وشعر الخوارج ٤٣ ، ٤٥

بليتْ وأُبلاني الجهادُ وساقني إلى الموت إخواناً لنا وأقارب
شريتْ فلم أُقتل ونازلتْ لم أُصَبْ كذاك صروف الدهر فينا عجائب

ولطالما انتهى شعراء الخوارج من حض أنفسهم على القتال وطلب الشهادة ، والاستهانة بأمر الحياة ، إلى ما يشبه الزهد الخالص بعيداً عن معاني الحرب والفداء ، زهد المتأمل حال الدنيا ، ومصائر البشر ، ويسلمهم هذا التأمل إلى نوع من رفض الحياة ، وعرضها الزائل ، وإلى الإحساس بتفاهة حياة الإنسان ، التي لاتعدو أن تكون ظلاً عابراً ، فلا مناص إذن من الإعداد للحياة الباقية ، نجاء من شرور هذه الدنيا الفانية .

يقول عمران بن حطان ^(١) :

أرى أشقياء الناس لا يسأمونها على أنهم فيها عراة وجُوع ..
ويقول ^(٢) :

حتى متى تُسقى النفوسُ بكأسها ريب المنون وأنت لاهٍ ترتع ...
فتزودنَّ ليومٍ فقرك دائباً واجمع لنفسك لا لغيرك تجمعُ

هكذا تشيع هذه الروح القلقة الحزينة في جوانب أشعار الخوارج ، حتى شعرهم الذي يتحدث عن طائفتهم ويمجدها ، حيث تبدو الصورة متجهة ، فيها الأجساد التي أنحلَّتْها العبادة ، والبشر المصفر ، والنفوس التي انهكتها العبادة ، وقد سقنا طائفة من هذه الأشعار فلا نطيل بإعادتها هنا .

٤ — فصاحة العبارة ، وقوة الأسلوب : فأكثر الخوارج وعلى الأخص الشعراء منهم ، كانت تغلب عليهم البداوة ، والبدو — كما نعلم — هم أرباب اللغة ، يمتازون بالفصاحة ، وذلاقة اللسان ، ومنهم كثرة المجيدين لفن الكلام .

وقد احتفظ الخوارج بطبعهم البدوي المذهب ، لم تفسده تقاليد الحضارة ، فبقى صافياً نقياً ، فإذا أضيف إلى ذلك ، صدق الشعور ، والاعتراف من بلاغة

(١) خزنة الأدب ٢ / ٤٤٠ والعبر للذهبي ٣ / ٢٨٤ وشعر الخوارج ١٧

(٢) خزنة الأدب ٢ / ٤٤٠ والعبر للذهبي ٣ / ٢٨٤ وشعر الخوارج ١٧

القرآن ، الذى أدمنوا قراءته وحفظه وتدبره ، واتخذوه منهاجا لهم ، فى القول والعمل ، أدركنا مدى ما كان يتمتع به أسلوهم ، من قوة تأثير ، شهد به فصحاء أعدائهم ، يقول عبيد الله بن زياد ^(١) : « لكلام هؤلاء (يعنى الخوارج) أسرع إلى قلوب الناس من النار إلى البراق » ويقول عبد الملك بن مروان — وكان بصيرا بفن القول ^(٢) — عن خارجي بسط له مذهبه ، بلسان طلق ، وألفاظ بينة ، ومعان قريبة : « لقد كاد يوقع فى خاطري أن الجنة خلقت لهم ... » ^(٣) .

٥ — قلة شعر الخوارج : هو كذلك بالنسبة لشعر الشيعة أو الأمويين ، ومما يفسر هذا انشغالهم بحروبهم وثوراتهم ؛ إذ هى همهم ، وغرض حياتهم ، وماالشعر إلا وسيلة تعينهم فى غرضهم هذا ، فالخوارج لم يكونوا شعراء فى المقام الأول ، بل مناضلي سياسة وحرب ، تحيش نفس أحدهم بالشعر قبيل معركة ، أو أثنائها ، أو عقبها ، فينطلق لسانه بالآيات ، يصور فيها بلاءه ، وبطولة أصحابه ، أو يعبر عن إحساسه إزاء من لقي حتفه منهم ، وقد يقف متأملا فى هذا المقام أو غيره ، يرصد أحوال الحياة بنظرة الزاهدة ، التى تقترب فى كثير من الأحيان إلى مايشبه التصوف ، وإن لم تفقد وجهها الإيجابي فى المقاومة والحرب والرفض .

وحتى هؤلاء الذين اتخذوا الشعر وسيلة للتعبير عن حياتهم تلك ، أتت حروب الخوارج الكثيرة على أرواح العديد منهم ، فضاع ماضع من أشعارهم .
وأكثر شعر الخوارج جاء على صورة مقطعات لا قصائد ؛ لأن الشعر — كما قلنا — لم يكن عندهم حرفة تجود ، وتصنع لذاتها ، بل كان أداة لخدمة أغراض حياتهم ،

(١) الكامل للمبرد ٣ / ١٤٧ (الأزهرية) . البراق : الخطب الجاف .

(٢) روى الشعبي أنه كان مع عبد الملك على طعام ، فلما فرغوا منه ، اندفع الشعبي فى الحديث ، قال : فما ابتدأت بشئ من الحديث إلا استلبه منى عبد الملك فحدث الناس به ، وربما زاد فيه على ما عندى ، ولأنشدته شعرا ، إلا فعل مثل ذلك ، فغمنى ذلك وانكسر بالى له ، فلما كان آخر الوقت ، التفت إلى وقال : يا شعبي قد والله تبينت الكراهية فى وجهك لما فعلت ، أتدرى أى شئ حملنى على ذلك ؟ قلت لا يأمر المؤمنين ، قال : لتلا تقول : لئن فازوا بالملك أولا ، لقد فزنا نحن بالعلم ، فأردت أن أعرفك أنا فزنا بالملك ، وشاركناك فيما أنت فيه . (مجالس العلماء ٢٠٩) وانظر صورا من فصاحته وبصره بفن الكلمة الأدبية فى : أمالى القالى ٢ / ١٠٣ وذيل الأمالى ٣١ وديوان المعانى ١ / ٧٦ ، ٧٧ ، ١٥٢ ورسائل الجاحظ ١ / ٣٦٢ ، ومروج الذهب ٢ / ١٥٩ .

(٣) الكامل للمبرد ٣ / ١٣٧ (الأزهرية) .

ومذهبهم ، وثمرة لها ، ينشأ عند الحاجة إليه ، فكان لذلك مقطعات في أغلب نماذجه ، أو قصائد قصيرة في بعض التجارب .

٦ — وحدة الخصائص الفنية : وهذا ثمرة ماأشرنا إليه في مقدمة هذا الباب ، من وحدة الصفات التي يمكن أن تقال في كل خارجي صادق العقيدة ، التي أدت إلى تشابه الخوارج في صورتهم العامة الكبرى ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى اقتصار شعرهم في قالبه على شكل المقطعات أو القصائد القصيرة ، ومن ثم تحققت فيه الوحدة الفنية .

فالتجربة التي يعبر عنها الشاعر الخارجى في مقطعته واحدة ، والصور متشابهة حماسية ، ومن هنا تشابه شعرهم بعامه ، في موضوعاته ، وأساليبه ومعانيه .

ولعل هذا يفسر لنا كثرة الاضطراب في نسبة أشعار بعضهم إلى بعض ، فما دامت شخصياتهم الشعرية ، لاتباز كثيرا ، فما على الرواة من بأس إن نسبوا شعر أحدهم إلى الآخر .

٧ — شدة التأثير بالقرآن الكريم : أما في الأسلوب ، فظهر في أساليبهم الرقيقة ، السلسلة الجزلة معا ، التي تعتمد كثيرا على القرآن في صياغتها ، وتراكيبها ، وأما في المعاني ، فقد مر بنا قول عيسى بن عاتك الخطى في وصف معركة الخوارج بأسك ، واستمداده لبعض معاني القرآن في هذا الوصف ، في قوله :

أَلْفَا مُؤْمِنٌ فِيمَا زَعَمْتُمْ وَيَقْتُلُهُمْ بِأَسْكَ أَرْبَعُونَ
كَذَبْتُمْ لَيْسَ ذَاكَ كَمَا زَعَمْتُمْ وَلَكِنَّ الْخَوَارِجَ مُؤْمِنُونَ
هُمْ الْفِتَّةُ الْقَلِيلَةُ غَيْرُ شَكٍّ عَلَى الْفِتَّةِ الْكَثِيرَةِ يَنْصُرُونَا
وقد بينا هناك مصادر هذه المعاني من آى القرآن العظيم ^(١) .

ومن ذلك قول الحسن بن عمرو الإباضى ^(٢) :

إِذَا مَا خَلَوْتُ الدَّهْرَ يَوْمًا فَلَا تَقُلْ خَلَوْتُ وَلَكِنْ قُلْ عَلَيَّ رَقِيبٌ
وَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهَ يَغْفُلُ سَاعَةً وَلَا أَنْ مَا يَخْفَى عَلَيْهِ يَغِيبُ

(١) راجع ص ١٧٩ من هذه الدراسة .

(٢) شعر الخوارج ٩١

وواضح أن الشاعر ينظر في البيت الثاني إلى قوله تعالى : « ولا تحسبن الله غافلاً عما يفعل الظالمون » ومنه أيضاً قول عمران بن حطان ، تعبيرا عن المساواة الإسلامية ، التي كانوا يدينون بها ^(١) :

فنحن بنو الإسلام والله واحدٌ وأولَى عباد الله بالله مَنْ شَكَرَ
فالمعنى في الشطر الثاني من البيت مستمد من قول الله تعالى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

* * *

— ٤ —

شعر الزبيريين :

ذكرنا في مقدمة هذا البحث أن سلطان الزبيريين لم يدم طويلا ، إذ لم يعمر أكثر من تسع سنوات تقريبا (٦٣ — ٧٢ هـ) ، وحاولنا هناك أن نستكشف فلسفة سياسية أو دينية خاصة ، يمكن أن تكون أساسا لحزب سياسى بالمعنى الصحيح ، وانتهينا إلى أن دعوى الزبيريين ، لم تتح لها فرصة كافية ، لتكوين نظرية سياسية واضحة المعالم ، فقد ارتبطت نهاية هذه الدعوى بنهاية ابن الزبير نفسه ، وكان هذا قد قضى مدة دعوته في تأسيس ملكه ، وصراع حرنى مع الأحزاب الأخرى ، ومقاومة مؤامرات الشيعة عليه ، وبخاصة في العراق ، حيث تصدى لدعوته هناك المختار بن أبى عبيد الثقفى ^(٢) ، وشغب الخوارج عليه بعد أن كانوا قد ناصروه بمكة ضد جيش الشام ^(٣) ، هذا فضلا عن الجيوش العديدة التى وجهها الأمويون للقضاء عليه وعلى دعوته بالمدينة (موقعة الحرة) ومكة ، وغيرها .

لم يتسع الوقت إذن لابن الزبير ليلبور وجهة نظره في الخلافة ، ويظهر بشكل عملى نواياه في مسألة تسلسل الخلافة من بعده ، مما ربط دعوته بشخصه ، فماتت بموته ، ولم يفكر أحد من أتباعه في استمرارها ، فهو لم يترك دعاة ينهضون بإقرار نظريته ^(٤) ، وتطويرها وإرسائها على أسس يدعمها الدين ، أو المنطق ، كما فعلت الأحزاب الأخرى .

(١) الأغاني ١٦ / ١٤٩ وشعر الخوارج ٢٥ .

(٢) انظر : مروج الذهب ٢ / ١١٤ (البهية) .

(٣) انظر الطبرى ٧ / ٥٥ وما بعدها .

(٤) تاريخ الشعر السياسى ١٧٦

ونتج عن ذلك ، سياسيا : أن أصبحت دعوته أشبه بثورة طارئة ، وأديا : أن ضعف تمثل الشعراء لدعوته ، فجاء تعبيرهم عنها في صورة آراء عامة ، تختلط فيها الألوان الدينية ، والادعاءات السياسية ، بالعصبية القرشية .

والحق أن دعوى ابن الزبير إنما هي انعكاس للعصبية القرشية والإقليمية ، فلو تجاوزنا الأشخاص ، نعنى شخص ابن الزبير وآل بيته ، وتدبرنا أمر الدولة التى أقامتها ثورة ابن الزبير ، والتى لم تطل حياتها ، لأدركنا أنها لم تكن تمثل مجرد طموح شخصى ، وتطلع إلى الحكم عند الزبيريين ، بل كانت فى حقيقتها تطلعا من القرشيين ، وأهل الحجاز عامة ، لكى يستعيدوا ماسلبهم الأمويون ، الذين تنكروا لقرشيتهم وإقليمهم ، فانتقلوا إلى الشام ، وحرّموا الحجاز ، إقليم الدعوة الأول ، من السلطة المركزية ، باتخاذهم دمشق عاصمة لدولتهم ، ثم إنهم استعانوا بالقبائل البعيدة ، متجاهلين أكثر عرب المضربة ، الذين تنتمى قريش إليهم .

ولعل هذا هو السر فى أننا لانجد من الشعراء من أخلص لحركة ابن الزبير ، وبرىء من الطمع والهوى ، إلا الشاعر القرشى عبيد الله بن قيس الرقيات ، الذى نشأ وعاش فى الحجاز ، فأحب موطنه ، وظهر اعتزازه بالقرشية فى شعره ، فكثرت حديثه عن قريش ، وما أصابها من محن وفرقة ، بتنكر بنى أمية لها ، كما ذكرنا ، ومن دلائل ذلك فى شعره قوله (١) :

حبذا العيش حين قومي جميعٌ لم تُفَرِّقْ أمورها الأهواءُ
قبل أن تطمع القبائل فى مد لك قريش وتشمّت الأعداءُ
إن تودّع من البلاد قريشٌ لا يَكُنْ بعدهم لحى بقاءُ
لو تُقَفِّى وتترك الناس كانوا غنم الذئب غاب عنها الرعاءُ

وهذا الإخلاص الذى أبداه ابن قيس الرقيات للقرشية ممثلة فى دعوى ابن الزبير ، عرضه لنقمة بنى أمية وغيظهم ، لا مجرد إشادته بأبناء الزبير ، ومساندته لدعوتهم ، وإلا لما ظل بنو أمية يتربصون به ، حتى بعد أن أسقطوا دولة ابن الزبير ، فقد أرسلوا شرطتهم فى إثره ، مما اضطره إلى اللجوء إلى عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، ليتشفع له عند عبد الملك بن مروان ، حتى عفا عنه فى قصة طريفة يروها صاحب الأغاني (٢) .

(١) ديوانه ٩٤ وطبقات ابن سلام ٥٢٩ . تقفى : تذهب .

(٢) الأغاني ٤ / ١٥٨

ثم تحول إليهم بمدحهم بنفس الحرارة والإخلاص ، اللذين كان يمدح بهما الزبيريين من قبل ، دون أن يشعر بالخرج في هذا التحول ، مما يؤكد ماسبق أن أشرنا إليه من أن ولاء ابن قيس الرقيات للزبيريين ، لم يكن مرتبطا بأشخاصهم ، وإنما كان لما يمثلونه من طموح إلى استعادة ما فقدت قريش من سلطان ، ومن هنا لم يشعر بالتحرج في التحول إلى بنى أمية ، فالأميون على أية حال ، قرشيون ، ومادام الأمر قد انتهى باجتماع كلمة قريش عليهم ، فليعتز بهم ممثلين للقرشية .

نعود إلى دعوى ابن الزبير فنضيف أنها كانت تمثل الخلافة كما تراها (الارستقراطية) العربية المضرة الحجازية أقوى تمثيل ، خلافة لا يلبق بها إلا فارس محارب عربى قرشى ، لا يعتز بالبنية ، كما اعتز بنو أمية ، وإنما يعتز بقومه المضرين ، ولا ينزع عن مركز القبيلة القرشية ، وموطنها الأصلي ، ومركز فخارها الدينى وهو الحجاز .

وقد صور هذا المثل للخليفة القرشى ابن قيس الرقيات في مدحه الزبيريين ، بخاصة مصعب بن الزبير — الذى كان الشاعر قد لزمه ، واختصه بمدحه ، وأخلص الولاء له — حيث يصوره فارسا عربيا (ارستقراطيا) قرشيا ، يعطى فى سخاء ، ويحارب فى قوة المعتز بحقه (١) .

ويذكر الرواة انقطاع شاعرين آخرين لآل الزبير ، أحدهما : أبو وجزة السَّعدى (٢) ، والآخر : إسماعيل بن يسار النسائى (٣) .

وأغلب الظن أن انقطاعهما لآل الزبير لم يكن عن اقتناع بدعواهم ، وحقهم الذى يزعمونه ، كما أنه لم يكن بريئا من الطمع أو الهوى .

فقد جذب أبا وجزة إلى آل الزبير ولاؤه لعبد الله بن عروة بن الزبير ، الذى كان

(١) انظر هذه الصورة فى ديوانه ٩٤ .

(٢) اسمه يزيد بن عبيد من بنى سعد بن بكر بن هوزان ، شاعر مجيد ، توفى بالمدينة سنة ١٣٠ هـ . انظر فى أخباره وأشعاره : الأغاني ١١ / ٧٥ والشعر والشعراء ٢٦٨

(٣) إسماعيل بن يسار مولى بنى تيم القرشيين ، شاعر أعجمى الأصل ، مليح الشعر ، اشتهر بشعوبيته ، وعدائه الشديد لبنى أمية ، وانقطاعه لآل الزبير ، وكان مقيما بمكة ، توفى سنة ١٣٠ هـ . انظر : الأغاني ٤ / ١١٨ وما بعدها ، والتذكرة السعدية ٥٤٥ ، وانظر مراجع أخرى فى هامشها .

يفضّل عليه ، ويقوم بأمره ^(١) ، يضاف إلى ذلك ما يروى من أنه قال لأبي زيد الأسلمي ،
الذى امتدح إبراهيم بن هشام المخزومي ، وإلى الأمويين على المدينة ، « هل لك في أن
أشاركك فيما أصيب من آل الزبير ، وتشاركني فيما تصيب من إبراهيم ...؟ » ^(٢) مما
يدل على أنه قصد الزبيريين للتكسب ، وأراد أن يعقد شركة مع زميله البدوي لاقتسام
غنائم شعرهما !!

وأما اسماعيل بن يسار ، فقد كان من موالي قريش ، والموالي بعامية ، كانوا شديدي النعمة
على بني أمية في هذا العصر — كما ذكرنا في مقدمة هذه الدراسة — ؛ لذا كانوا يلتفون
حول كل ناعق يبغي مناهضة الأمويين ، فهم في العراق مع الشيعة ، وفي الحجاز مع
الزبيريين .

ومما يصور نعمة إسماعيل بن يسار وأهله على بني أمية ، ادعاؤه — وقد أراد أن
يوجب حقاً له على الأمويين ، بعد وفاة ابن الزبير — أنه وأباه من قبله مروانيان ، فلما سئل
بعد « أى مروانية لك ، أو لأبيك ؟ قال : بغضنا إياهم » ^(٣) ، ثم أقسم بالطلاق أن أمه
كانت تلعن مروان وآله كل يوم مكان التسييح ، وأن أباه نطق بلعن مروان عند موته بدل
الشهادتين !!

وهناك شعراء آخرون ، وفدوا على آل الزبير ، ولكن لم يكن أحد منهم معبراً عن
رأى هذا الحزب ، تعبير المخلص المتحمس ؛ إذ كانوا مرتزقة ، أو ناقلين على بني أمية ،
راغبين في النكاية بهم ، لأغراض شخصية أو قبلية ، أو عنصرية .

خلاصة ماتقدم أن افتقار دعوة ابن الزبير إلى الأفكار الواضحة ، والمبادئ
المحددة ، كان من أهم العوامل ، التي أدت إلى قلة حظها من الشعر والشعراء .

وأكثر ما كان لها من أثر بارز في حركة الشعر ، في هذا العصر ، إنما يرجع إلى
ما أركته من نار العصبية القبلية بين القيسية واليمنية في الشعر ، على أثر موقعة « مرج
راهط » بين عرب القيسية ، الموالي لابن الزبير ، وعرب اليمنية المؤيدين للأمويين ، يقول

(١) الأغاني ١١ / ٨١

(٢) الأغاني ١١ / ٧٧

(٣) الأغاني ٤ / ١١٩

الدكتور شوقي ضيف^(١) : « وأكثر ماتكون حوله (يعنى الحزب الزبيرى) من شعر ، نجده في حروب القيسية واليمية في الشام ... وهو ليس شعر حزب بالمعنى المفهوم ، وإنما هو هجاء وحماسة ، على نحو ماكان الشعر في العصر الجاهلى » ، أى أنه شعر قبلى ، لاشعر حزنى سياسى .

ومما يعلل به كذلك ، لقلّة حظ حركة ابن الزبير من الشعر والشعراء ، أن زعيمها عبد الله ابن الزبير ، لم يحرص على اصطناع الشعراء ، وتأليف قلوبهم بالعتاء ، كما كان يفعل بنو أمية ؛ وحجته في هذا حرصه على مال المسلمين ، وتأثمه من إنفاقه في غير مصالحهم ، أو لأنه أراد أن يبدو في صورة الزاهد المتعفف عن أن يكون له مال يعطى منه الشعراء ، يقول المسعودى^(٢) : « وأظهر ابن الزبير الزهد في الدنيا والعبادة ، مع الحرص على الخلافة ، وقال إنما بطنى شير فما عسى أن يسع ذلك من الدنيا ، وأنا العائد بالبيت ، والمستجير بالرب » .

ولم يكن الشعراء يفهمون هذا المنطق ، فرموه بالبخل الشديد ، ولولا مااشتهر به أخوه مصعب من سخاء وتسامح في المال ، ورغبة في استمالة ذوى الرأى والمكانة والخطر ، ومنهم الشعراء استمالتهم — اقتداء ببنى أمية — لولّى عن ابن الزبير أكثر من ناصره من الشعراء . قال زفر بن الحارث الكلابى في مجلس لعبد الملك بن مروان^(٣) : « لو كان لعبد الله [بن الزبير] سخاء مصعب ، وكان لمصعب عبادة عبد الله ، لكانا ماشاء المتمنى » . وقال عبد الملك بن مروان :^(٤) « ما أعلم مكان أحد أقوى على هذا الأمر منى ، وإن ابن الزبير لطويل الصلاة ، كثير الصيام ، ولكنه لبخله لا يصلح أن يكون سائساً » . لقد أدرك عبد الملك وغيره من خلفاء بنى أمية — عدا عمر بن العزيز — قيمة ملاينة الناس ، وتأليف قلوبهم بالمعروف والبذل ، فهفت إليهم قلوب ذوى المطامع ، والتف حولهم من يؤثرون العاجلة — وما أكثرهم — ورأوا حظ دنياهم مع بنى أمية ،

(١) التطور والتجديد ٩٣

(٢) مروج الذهب ٢ / ٩٩ (الهيئة) .

(٣) الإمتاع والمؤانسة ٣ / ١٧٠

(٤) الطبرى ٨ / ٥٨

فانصرفوا إليهم ، وورطوا أهواءهم بهم ، ومن ثم وجدوا نصره أغراضهم في الانتصار للأمويين ، وبقاء نعمتهم مابقيت دولة الأمويين ، وهذه هى السياسة ، كما فهمها بنو أمية ، وعبر عنها عبد الملك ، حين سأله ابنه الوليد ما السياسة ؟ فقال : ^(١) « هيبة الخاصة ، مع صدق مودتها ، واقتياد قلوب العامة بالإنصاف لها ، واحتمال هفوات الصنائع ، فإن شكرها أقرب الأيادى إليها » .

بهذا كان الأميون أقدر على سياسة الناس ، ومن أجل هذا قال عبد الملك : ما أعلم مكان أحد أقوى على هذا الأمر منى .

ولم يكن عبد الله بن الزبير يفهم السياسة على هذا النحو ، وإنما رآها كما كان يفهمها ويطبّقها الخلفاء الراشدون من قبله ، وعمر بن عبد العزيز من بعده ، سياسة إسلامية ، يراعى فيها العدل والحق ، بحيث يكون الحاكم قدوة للرعية فى الحرص على ماشرعه الإسلام فى سياسة الدين والدنيا .

أما مصعب أخوه ، فقد وعى الدرس من بنى أمية ، وفهم السياسة كما فهموها ، فتسامح كما تسامحوا ، وبذل كما بذلوا .

أما التسامح فنفهمه من مواقفه من كان يريد اصطناعهم ، فقد قدم عليه الأحنف ابن قيس ، وكلمه فى قوم حبسهم ، قائلاً ^(٢) : « أصلح الله الأمير ، إن كانوا حبسوا فى باطل فالحق يخرجهم ، وإن كانوا حبسوا فى حق ، فاعفو يسعهم ، فخلاهم » .

وأما البذل مع التسامح فنذكره من هذه الرواية ، قيل ^(٣) : أخذ مصعب رجلاً من أصحاب المختار بن أبى عبيد الثقفى ، فأمر بضرب عنقه ، فقال : أيها الأمير ما أقبح بك أن أقوم يوم القيامة إلى صورتك هذه الحسنة ^(٤) ، ووجهك هذا الذى يستضاء به ،

(١) عيون الأخبار ١ / ١٠ / وأمالى القالى ٢ / ٨٢ وانظر ص ١٣٥ من هذه الدراسة .

(٢) عيون الأخبار ١ / ١٠٢

(٣) العمد ١ / ٤٢ . وعيون الأخبار ١ / ١٠٣

(٤) كان مصعب موصوفاً بالجمال ، قال جميل الشاعر صاحب بثينة ، مارأيت مصعباً يخال بالبلاط — وهو موضع بالمدينة بسط بالحجارة ، بين مسجد الرسول ﷺ وسوق المدينة — إلا غرت على بثينة ، وبينهما ثلاثة أيام . (عيون الأخبار ٤ / ٢١) .

فأتعلق بأطرافك ، وأقول : أى رب سل مصعباً فيم قتلنى !! فقال مصعب : أطلقوه ، قال الرجل : اجعل ماوهبت لى من حياىى فى خَفَضِى ، قال : أعطوه مائة ألف ، قال : بأى أنت وأمى ، أشهد الله أن لابن قيس الرقيات منها خمسين ألفا قال : ولم ؟ قال لقوله فيك : إنما مصعبٌ شهابٌ من الله تجلّت عن وجهه الظلماء ...

فضحك مصعب ، وقال : أرى فيك موضعاً للصنيعة ، وأمره بلزومه ، وأحسن إليه ، فلم يزل معه حتى قتل .

فأين هذا مما فعله أخوه عبد الله ، وقد دخل عليه أبو صخر الهذلى فى قومه ، طالبين عطاءهم ، وكان عبد الله يعرف أن هواه فى بنى أمية ، فمنعه عطاءه وقال : « عليك بنى أمية ، فأطلب عندهم عطاءك ^(١) » ، فلم يحاول أن يصطنعه ويصطنع قومه بالعطاء ، مما جعل أبا صخر يرميه فى مواجهته ، بشدة البخل ويفضل عليه بنى أمية ، حتى ارتعدت فرائض عبد الله من الغضب ، ثم أمر به إلى سجن عارم ، فحبس به عاما .

وكان عبد الله بن الزبير الأسدى الشاعر مقيما بمكة ، وقد عرفناه أموى الهوى ، إلى أن اجتذبه عطاء مصعب بن الزبير فانقطع له ، وكان من الممكن أن يصطنع ابن الزبير لسان هذا الشاعر الأموى ، أو على الأقل ، يفقد بنى أمية واحدا من شعرائهم المتحمسين ، لو أنه استجاب له عندما قصده طالبا العطاء ، ولكنه حرمة ، فقال له ابن الزبير : « لعن الله ناقة حملتني إليك ، فقال له : إن وراكها » ^(٢) .

ويبدو أن ابن الزبير نفسه كان يدرك هذا الفرق بين سياسته مع الناس والشعراء وسياسة أخيه مصعب معهم ، فقد جاءه وفد من العراق ، فسألهم عن مصعب ، فأثنوا عليه ، فقال : « أيها الناس : أنى سألت الوفد عن مصعب ، فأحسنوا الثناء عليه ... وإن مصعبا أطبى القلوب ، حتى ماتعدل به ، والأهواء حتى ماتحول عنه ، واستمال الألسن بثنائها ، والقلوب بنصحها ... فهو المحبوب فى خاصته ، المحمود فى عامته ، بما أطلق الله به لسانه من الخير ، ويسط يده من البذل » ^(٣) .

(١) الأغاني ٢١ / ٩٤ وانظر شعرا فى بخل ابن الزبير فى مروج الذهب ٢ / ٩٩

(٢) القاموس المحيط (مادة — زبر) ٢ / ٣٧

(٣) أمالى القالى ١ / ٢٨٦

هكذا كانت سياسة ابن الزبير ، بعيدة عن استهواء القلوب ، بخاصة قلوب الشعراء ، فلم يجدوا طلبتهم عنده ، فازوروا به ، كما ازورَّهم ، وبذا قل حظ دعوته من لسان الشعر ، وكان حظ شخصه منه أقل ، والشعر — كما هو معلوم — كان لسان الدعاية الحزبية القوى في هذا العصر .

والناظر في هذا الشعر القليل ، الذى وقف إلى جوار حركة ابن الزبير ، يلاحظ أنه استفترغ مضمونه — غالباً — فى التعبير عن الإشادة بآل الزبير ، وأكثر ما كان من ذلك فى مصعب بخاصة ، وأقله فى عبد الله ، ولم يخل من القليل ، الذى يحاول فيه الشعراء مساندة حق آل الزبير فى الخلافة ، أو يواجه خصومهم برأيهم فيهم ، أو يرثى قتلى الزبيريين فى معاركهم .

أ : التنويه بآل الزبير ، ومحاولة تأييد خلافة زعيمهم :

على الرغم مما عرف به ابن الزبير من الورع ، والتقوى ، والزهّد ، واستقامة الدين وسلامته ، فإننا لانجد هذه المعانى مرددة فيما خص به من شعر ، يمجده ، ويعلى من شأنه ، والذى يبدو أن الشعراء كانوا يريدونه على صورة أخرى ، تتفق ونظرتهم إلى حركته ، وما يتطلعون إليه من ورائها ، ومن ثم لم ينظروا إلى خصاله الشخصية ، بقدر ما نظروا إلى النموذج الذى كان عليه أن يمثله ، وهو نموذج الخليفة القرشى ، الذى أشرنا إليه منذ قليل . وتتكامل هذه الصورة ، أو هذا النموذج فى شعر الشعراء ، الذين أشادوا به ، يقدم كل منهم جانباً منها ، ويبرز بعض خطوطها ، ومن جملة ما قالوا تتضح كل معالمها وألوانها وظلالها ، فإذا بها صورة رجل عريق الحسب ، يحتل نسبه من قریش ذروتها ، كريم الفعال ، رفيع المكانة بين قومه ، شجاع من قوم شجعان ، كريم سخي من قوم كرماء أسخياء ، لا يفاخره مفاخر ، ولا يقوم لشرفه شرف .

نلمح بعض هذه الملامح فى قول عبيد الله بن قيس الرقيات ، مشيداً بعبد الله بن الزبير ^(١) :

وابن أسماء خيرٌ من مسح الرُّكُـ
نَ فَعَالاً وخيرُهُم بَنِياناً
وَإِذَا قِيلَ مَنْ هَـجَانِ قَرِيشٍ كُنتِ أَنْتِ الْفَتَى وَكُنْتَ الْهَـجَانَا
وَيُؤَكِّدُ هَذِهِ الْمَلَامِحَ وَيُضِيفُ إِلَيْهَا بِلَالُ بْنُ جَرِيرٍ ، فيقول ^(٢) :

(١) ديوان ١٥٧ (بيروت) . الهجان من كل شيء : خياره وخالفه .

(٢) الكامل للمبرد ١٠٨/٢ (الأهربية) العيوق: نجم مرتفع. السموق: العلو. النفورة: المنافرة والمفاخرة.

مَدَّ الزُّبَيْرُ عَلَيْكَ إِذْ بَيْنِي الْعُلَا كَفَّيْهِ حَتَّى نَالَتَا الْعَيْوَقَا
وَلَوْ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ فَاحِرٌ مِنْ تَرَى فَاتَ الْبَرِيَّةَ عَزَهُ وَسُمُوقَهَا
قَوْمٌ إِذَا مَا كَانَ يَوْمَ نَفْوُورَةٍ جَمَعَ الزُّبَيْرُ عَلَيْكَ وَالصَّدِيقَا

وليس في هذا الشعر ما يصلح لتصوير ابن الزبير في صورة خليفة رسول الله (ﷺ) القائم على أمر المسلمين بالعدل، الراعي لشئون الإسلام بما يرضاه الله، على النحو الذي رأيناه عند الشيعة في تصوير أئمتهم، وحتى عند شعراء بنى أمية في الإشادة بالخلفاء. كما أن هذه المعاني ليس من شأنها أن تصلح دعاية تساند دعوى آل الزبير في حق الخلافة، وإنما هي معان عامة، تشبه، إلى حد بعيد، ما كان يمدح به الشعراء شيوخ القبائل ورؤساء العشائر في الجاهلية والإسلام، من علو الشرف والجد، وارتفاع المقام عند المفاخرة وأصالة النسب وعراقته، ولولا ما في هذا الشعر من ذكر أسماء: عبد الله، والزبير، والصديق (أبو بكر) والد أسماء أم عبد الله (لما عرفنا أنه في ابن الزبير).

والعجيب، أن يتجاهل عبد الله ابن قيس الرقيات، صفات ابن الزبير الدينية، التي هي أنسب في هذا المقام، مقام مدح خليفة رسول الله (ﷺ) وأمير المؤمنين، وأكثر واقعية وصداقاً لما كان عليه ابن الزبير بالفعل، نقول: من العجيب أن يتجاهل الشاعر هذا، في جانب عبد الله ويسبغه على مصعب أخيه، فيقول في الإشادة به (١):

إِنَّمَا مَصْعَبٌ شَهَابٌ مِنَ الدِّلِّ هـ تَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ الظُّلُمَاءُ
مَلِكُهُ مَلِكٌ رَحْمَةٌ لَيْسَ فِيهِ جَبْرُوتٌ وَلَا لَهُ كِبَرِيَاءُ
يَتَّقَى اللَّهُ فِي الْأُمُورِ وَقَدْ أَفْـلَحَ مَنْ كَانَ هُمُّهُ الْإِتْقَاءُ

فالتواضع للرعية، والبعد عن الظلم والجبروت، وإسباغ الرحمة، طابعاً لسياسة مصعب، واستشعار الخوف من الله في سياسة أمور المسلمين، كلها معان دينية، أليق بمدح الخليفة وأجدى في إظهاره بهذا السمت الديني من مصعب أخيه.

أما أبو ليلى النابغة الجعدي (٢) فقد قصد عبد الله بن الزبير في سنة شديدة

(١) ديوانه ٩٤ وسمط اللآلئ ١ / ٢٩٤ وطبقات ابن سلام ٥٢٠ والكمال للمبرد ١ / ٣٩٩ (الاستقامة).

(٢) قيس بن عبد الله بن عدس بن ربيعة بن جعدة، صاحب النبی وروی عنه ومدحه وأنشده، قيل: عاش ثلاثة

أجيال، والحيل ثمانون سنة، وقال في ذلك:

صَحِبْتُ أَنَسَا فَاْفَنَيْتِهِمْ وَأَفْنَيْتُ بَعْدَ أَنَسَا أَنَسَا
ثَلَاثَةَ أَهْلِينَ أَفْنَيْتِهِمْ وَكَانَ إِلَهُهُ الْمُسْتَأْسَا

ويقال: إنه تحف في الجاهلية، وهجر الأوثان، وكان يصوم ويستغفر، وتوفى بأصبهان: انظر: سمط اللآلئ ١ /

٢٤٧ والأغاني ٤ / ١٢٧ والشعر والشعراء ٩٦

القحط ، ومدحه بقوله : (١)

حكيتَ لنا الصَّدِيقَ لما وَلَيْتَنَّا وعثمان والفاروق فارتاح مُعَدَمٌ
وسَوَّيْتَ بين الناسِ في العَدْلِ فاستَوُوا فعاد صباحاً حالُكَ الليلِ مظْلُمٌ
أتاك أبو ليلى يَجُوبُ به الدُّجَى دُجَى الليلِ جَوَابُ الفلاةِ عَثْمُومٌ
لتَجبر منه جانباً زِعزَعْتُ به صروف الليلي والزمان المصمَّم

فهذا شاعر لاشأن له بالقرشية ، والتعصب لها ، كما كان ابن قيس الرقيات ؛ ولذا اتجه مباشرة إلى شخصية ابن الزبير ، يرصد سماتها ، ويعلى خصائصها ، فنوه بتقواه ، وعدله في الحكم ، والتسوية بين الرعية ، والبر بالمسلمين ، وترسمه خطى الخلفاء الراشدين ، حتى أعاد إلى الأذهان ذكرى حكمهم الصالح الرشيد .

ولو أكثر شعراء آل الزبير من هذا الاتجاه ، في الإشادة بزعيمهم عبد الله ، لكان لشعرهم السياسي في هذا الباب شأن آخر .

وأما أبو وجزة السعدي الشاعر البدوي ، فإنه لم ير في ابن الزبير وآله ، إلا ما يراه في شيخ القبيلة وقومه في البادية ، فهم أبناء حرة ، شجعان ، يشفون أعداءهم من داء الحقد عليهم بالسيوف ، أجواد غاية الجود ، في السنة الشديدة الجذب ، لانعدام المطر فيها (٢) :

آل الزُّبَيْر بنو حرة مَرَّوا بالسيوف صدوراً خِفافاً
سِلَّ الجُرْدِ عنهم وأيامها إذا امتعطوا المِرْهَفَاتِ الخِفَافِ
مطاعيم تحمّدُ أبياتهم إذا قَنَعَ الشاهقات الطُّحَافِ
ويقول (٣) :

راحتْ قَلوُصِي رَواحاً وهى حامدةٌ آل الزُّبَيْر ولم تُعَدِلْ بهم أحداً

(١) مجالس ثعلب ٣٢ والكامل للمبرد ٢ / ٩٧ ، ٣ / ٢٤٣ (الأزهرية) والأغاني ٤ / ١٣٧ . الجمل العثم : الشديد . المصم هنا : المؤذي .

(٢) الأغاني ١١ / ٨١ . امتعطوا ... : سلوا السيوف الحادة . الطحاف : قطع السحاب العالية ، التي لامطر فيها .

(٣) الأغاني ١١ / ٧٧ . الوسق : ستون صاعاً . السدد : الحمل المعتاد . الملوية الجدد : السوط الحديث الصنع .

راحت بستين وَسَقاً في حقيبتها ما حُمِلَتْ جِمْلُهَا الْأَدْنَى وَلَا السَّدَادَا
 ذَاكَ الْفَرَى لَا قَرَى قَوْمٌ رَأَيْتُهُمْ يَقْرُونُ ضَيْفَهُمُ الْمَلُوءَةَ الْجُدَادَا
 وهو يعرض في البيت الأخير بينى أمية ، إذ ضربه عاملهم في الحجاز بالسوط ،
 لأمر كان منه .

ومدار الأبيات هو المدح بالكرم ، والشجاعة ، وشرف النسب ، وفي شعر ابن
 قيس الرقيات أمثال لهذه المعاني ، في مدح عبد الله ، وأخيه مصعب ، فلا نستكثر
 بإيرادها (١) .

غير أنه من الضروري أن نورد هنا أبياتاً لابن قيس الرقيات ، لانحسبه أرادها تمجيد
 ابن الزبير ، بقدر ما قصد إلى إرضاء نزعتة القرشية ، في محاولة لتدعيم هذه الدولة
 القرشية ، التي يرى فيها عز قريش ، واسترداد حق إقليم الحجاز ، موطن القبيلة ، ومهد
 الإسلام .

يقول عبيد الله بن قيس الرقيات ، يعني عبد الله بن الزبير (٢) :

ذَكَرْتُ قَوْمَهَا قَرِيشاً فَقَالَتْ رَأْبَ ذَهْرَى وَأَيَّ ذَهْرٍ يَدُومُ
 لَا يَرْنِكَ الذِي تَرْنِنُ فَإِنَّ اللَّهَ طَبُّ بَمَا تَرْنِنُ عَلِيمُ
 إِنْ يَكُنْ لِلْإِلَهِ فِي هَذِهِ مِ الْأُمَّةِ دَعْوَى يُعَدُّ عَلَيْكَ النِّعِمُ
 وَتَحُلِّيَ مَحَلَّ آبَائِكَ الْأَخْيَارِ بِالْحَجَرِ حَيْثُ يُلْفَى الْحَطِيمُ
 بِلَدِّ تَأْمَنُ الْحَمَامَةُ فِيهِ حَيْثُ عَاذَ الْخَلِيفَةُ الْمَظْلُومُ

(١) راجع ديوانه ٩١ — ٩٤ ، ١٣١ — ١٣٢ والكامل للمبرد ١ / ٣٩٩ (الاستقامة) وطبقات ابن سلام

٦٥١ (المدني) .

(٢) طبقات ابن سلام ٦٥٠ (المدني) . وليس في ديوانه إلا البيت الأخير منها ص ١٩٤ . الرب : صروف
 الدهر وحوادثه ، ورايه الدهر : أصابه بما يزعجه . طب : حاذق ماهر ، قال في هامش الطبقات « وأساء ابن الرقيات
 فإن الله أعلى وأجل من أن يوصف بغير ما وصف به نفسه سبحانه ، وأراد (خير) ، فأساء غاية الإساءة » ورجع أن
 يكون صواب قوله « بماترين » « بما يريب » أي يفجع من حوادث الدهر . دعوى : أراد الدعاء ، وأراد ابن قيس
 الرقيات : دعوة الحق في قوله تعالى : « له دعوة الحق » (سورة الرعد ١٣ / ١٤) وهي شهادة الإسلام التي يدعى
 إليها أهل الملل الكافرة جميعاً . الحجر : هو حجر الكعبة ، وهو ماتركت قريش في بنائها من أساس إبراهيم وإسماعيل
 عليهما السلام . الحطيم : هو ما بين الركن الأسود إلى الباب إلى مقام إبراهيم ، حيث يتحطم الناس (أي يزدحمون)
 للدعاء . عاذ الخليفة : كان ابن الزبير يلقب نفسه بالعائد بالبيت ، كما قدمنا .

لقد جعل قريشاً في قلق وخوف مما فعل بها ، من فرقة على يد بنى أمية ، وجعل أمانها وخلاصها مما فعله بها بنو أمية مرتبط بهذه الحركة وبزعيمها ابن الزبير ، الذى أراد الله — وهو الخبير العليم بما ينوب — أن يكون عز قريش ، ونعيمها على يديه ، وأن يكون خليفة لآبائه وأجداده ، الذين احتفظوا لقريش في موطنها وبلدها بعز المكانة وراسخ السلطان ، وماموطن قريش إلا هذا البلد الحرام ، المؤيد بأمان الله ، الذى اتخذ ابن الزبير مركزاً لخلافته ، وعاصمةً للملكة .

ودلالة هذه المعانى على القصد إلى تأييد حركة ابن الزبير القرشية غير خافية ، غير أنها لا تخرج عن كونها مجرد دعاوى تصدق على ابن الزبير ، وعلى غيره من ذوى المكانة في قريش ، المعاصرين لابن الزبير ، وفي مقدمتهم زعماء آل البيت .

وبمثل هذه الدعاوى مضى ابن قيس الرقيات في محاولاته تأييد خلافة ابن الزبير ، في أبيات أخرى له ، يذكر فيها انتساب ابن الزبير إلى أشرف القرشيين الذين سكنوا الحرم وخدموه ، وأنه أعدل القرشيين المعاصرين له حكماً وقضاءً ، وأرفعهم شأنًا ومكانةً ، وأعلمهم بما أصاب قريشاً من فرقة ، وأبرؤهم من هذه النكبات التى أصابها ونحو ذلك ، مما نراه في قوله (١) :

أَنْتَ ابْنُ مُعْتَلِجِ الْبَطَا	ح كُدَيْهَا فَكَدَائِهَا
فَمَحَلُّ أَعْلَاهَا إِلَى	عَرَفَاتِهَا فَحَرَائِهَا
مَنْ سَرُّهَا فِيهَا وَمَعْدُ	يَدِ بْنِ بَرِّهَا وَوَفَائِهَا
أَوْفَى قَرِيشٍ بِالْعِلَا	فِي حُكْمِهَا وَقَضَائِهَا
وَلَأَنْتَ أَعْلَمُهَا بِهَا	وَأَصَحُّهَا مِنْ دَائِهَا
وَأَتَمُّهَا نَسَباً إِذَا	نُسِبَتْ إِلَى آبَائِهَا

فهذه الدعاوى خطائية ، لا يسلك الشاعر فيها مسلك البرهنة والاحتجاج ، كما فعل الكميت مثلاً في تأييد حق الهاشميين ؛ ولذا يبدو ابن قيس الرقيات في شعره هذا أشبه بالخطيب ، غير أن إخلاصه لفكرته ، وانفعاله بما يقول ، وحسن عرضه له ، قد

(١) ديوانه ١١٧ . معتلج البطاح : يعنى بطن مكة الذى يعتلج فيه الرمل والحصى ، أى يتراكم ، ويدخل بعضه في بعض . كُدَى : جبل بأسفل مكة ، كداء : جبل بأعلاها .

أسبغ على هذا الشعر ، وعلى القضية التى يؤيدها لونا من الجاذبية ، جديرا باهتمام السامعين ، وتعاطفهم ، وهذا ماجعل ابن قيس الرقيات شاعر الزبيرين ، وكسبا لحركتهم .

على ضوء مادرسنا من شعر الزبيرين فى الإشادة بابن الزبير وآله خاصة ، وماتركنا — مما لا يختلف كثيرا عما ذكرنا — نحسب أن هذا الشعر قد قَصُرَ عن بلوغ الغاية ، التى ترتجى من الشعر السياسى ، فى هذا المجال ، للأسباب التى أشرنا إليها فى مقدمة الحديث عن شعر الزبيرين .

ب : التصدى لخصوم دعوى ابن الزبير :

كان الزبيريون ينقمون على بنى أمية سياستهم الجائرة ، واستئثارهم بأموال بيت مال المسلمين ، وإنفاقها على ملذاتهم وترفهم وصنائعهم ، وحرمان ذوى الحقوق من حقهم ، لالشىء ، إلا لأنهم لا يؤيدون سياستهم الغاشمة الظالمة المستبدة .

والزبيريون يأخذون على بنى أمية أيضا تجريدهم الحجاز من عز الخلافة ، واعتزازهم باليمنية ، وعدائهم لقومهم المضرين .

أما الخوارج فالزبيريون يمتقون فيهم نزعتهم الجمهورية ، وإنكارهم على قريش حقها الثابت لها ، فى قصر الخلافة على أبنائها .

كما يأخذون على الشيعة ، ما يذهبون إليه من قصر الخلافة ، على بنى هاشم من دون غيرهم من القرشيين ، وينقمون منهم ارتقاءهم فى أحضان الموالى ، ومنهم من يكيد للإسلام ، ويدعو للكسروية .

من أجل هذا نجد شعراء آل الزبير ، يحملون على هؤلاء جميعا فى أشعارهم ، باعتبارهم منحرفين عن الحق ، مدعين بهتاناً من الأمر وزورا .

ولما كانت دعوى الزبيرين قد قامت على التعصب للمضرية بعامة ، والقرشية بخاصة ؛ لتناهض تعصب بنى أمية لليمنية ، فابن قيس الرقيات يحمل على هذه السياسة الأموية ، مؤكداً أن قريشا ستظل عزيزة الجانب ، عالية المجد ، مرفوعة الهامة، فمنها النبى صلوات الله عليه القرشى، ومنها خلفاؤه الأتقياء الراشدون ، فليمت أعداؤها كمداء، ولتذهب

أنفسهم حسرات بأدواء الحقد عليها ، واشتباء فنائها ، فأحقادهم لن تنال منها ؛ لأن البقاء والفناء بيد الله لا بأيديهم .

نرى هذا في قوله ، مخاطبا عبد الملك بن مروان (١) :

أيها المشتبهى فناء قرشي بيد الله عمرها والفناء
قد عمّرنا فمت بدائك غيظاً لأئمتين غيرك الأدواء
إن منا النبي الأمي والصدى حق منا التقى والخلفاء

وقد أخذ شعر ابن قيس الرقيات طابع الثورة على الأمويين ، والتحريض على قتالهم ، والدعوة إلى القضاء على دولتهم بالشام ، معرباً عن عداء الشاعر الصريح لهؤلاء الذين يكيّدون لقرشي ، ضمن هذا قوله (٢) :

كيف تؤمّي على الفراش ولما تشمّل الشام غارة شعواء
تذهل الشيخ عن بنيه وتبدي عن برأها العقيلة العذراء
أنا عنكم بنى أمية مزور وأنتم في نفسى الأعداء

إنها دعوة إلى ثورة عنيفة ، تقذف الرعب والهلع في قلوب أهل الشام الأمويين ، حتى يلتمس الأب الهرب متخلّياً عن أبنائه ، وتنسى الفتيات العذراوات حياهن ، فيكشفن عن سيقانهن أثناء الهرب ، مشغولات بالنجاة بأنفسن من هول ماتنزل هذه الثورة بأهل الشام .

وبمثل هذه الثورة يهدّد زفر بن الحارث الكلابي (٣) بنى أمية ، فيقول (٤) :

(١) ديوانه ٩٤ وطبقات ابن سلام ٥٣٠ . عمرنا : يقال : عمر الرجل : إذا عاش زماناً طويلاً .

(٢) ديوانه ٩٥ والشعر والشعراء ٢١٣ . البرى : هى هنا الخلاخيل .

(٣) أبو الهذيل زفر بن الحارث ، من بنى يزيد بن عمرو بن الصقع ، ثم من بنى كلاب ، تابعى كان يقم بالجزيرة أيامه مروان بن الحكم ، ساد قومه في أيام ، شهد صفين مع معاوية ، وقاد القيسية مع الضحّاك يوم مرج راهط ضد مروان وأهل الشام وهرب إلى قرقيسيا وبها مات سنة ٧٥ هـ . انظر الاشتقاق ٢٩٧ والمؤتلف ١٢٩ وخزانة الأدب ١ / ٣٩٣ ، والطبرى في حوادث سنة ٦٥ هـ حول موقعة مرج راهط .

(٤) شرح الحماسة للمرزوقي ٢ / ٦٤٩ — ٦٥١ . ابن بجدل : هو حسان بن مالك بن بجدل الكلبي . وهو أخو ميسون بنت بجدل الكلبي التي تزوجها معاوية بن أبي سفيان ، وكان حسان زعيماً لبني كلب ، وحارب مع مروان بن الحكم في موقعة مرج راهط . ترجل : ترتفع . ومعنى أفى الله ... الخ : أفى ذات الله ومرضى حكمه ، أى هل ممايرضى الله الحرص على حياة هذا البدوى حسان الكلبي بموالاته ، بينما يطلب ابن الزبير التقى الورع للقتل بمعاداته ؟!

أَفَى اللَّهِ أَمَّا بَحْدَلٌ وَابْنُ بَحْدَلٍ فَيُخَيَّا وَأَمَّا ابْنُ الزَّيْبِرِ فَيُقْتَلُ !
 كَذِبْتُمْ وَبَيْتَ اللَّهِ لَا تَقْتُلُونَهُ وَلَمَّا يَكُنْ يَوْمٌ أُغْرُ مُحَجَّلُ
 وَلَمَّا يَكُنْ لِلْمَشْرِفَةِ فَوْقَكُمْ شَعَاعٌ كَقَرْنِ الشَّمْسِ حِينَ تَرَجَّلُ

إنه يوجه نقداً لأذعاً لسياسة بنى أمية ، التى لاتراعى جانب الله والدين فيمن توالى ، وفيمن تعادى ، فهى توالى كل من يتعصب للأُموية ، وإن لم يعرف بفضيلة فى الدين ، أو مزية فى نصره الإسلام والمسلمين ، وتعادى الأتقياء الصالحين ، الذين يعرفون لله حقه ، ويعبدونه حق عبادته ، ويرعون مصالح عبادته بما يرضيه ، ثم هو يهددهم بأنهم لن يتمكنوا من عبد الله بن الزبير ، وإنما سيواجهون حرباً شعواء ، تحدث بهولها عليهم الأيام ، وتعلو فيها السيوف القاطعة هاماتهم ، فتخطف أرواحهم خطفاً .

ولما تجرأ بنو أمية على حرمة المدينة ، وأوطأوا جيوشهم الشامية أرضها الطاهرة ، وأعملوا السيف فى رقاب أهلها الموالين لابن الزبير ، فى موقعة الحرة ^(١) ، قال عبد الله بن حنظلة المعروف بابن الغسيل ^(٢) ، يهجو بنى أمية ، وهو يقاتل ، مرتجراً ^(٣) :

بُعْدًا لِمَنْ رَامَ الْفُسَادَ وَطَعَى
 وَجَانِبَ الْحَقِّ وَآيَاتِ الْهُدَى
 لِأَيُّبِ الرَّحْمَنِ إِلَّا مَنْ عَصَى

ويذكرنا هذا الهجاء ، بالهجاء عند كل من الشيعة والأُمويين والخوارج ، لقيامه على سلب بعض الصفات الدينية ، فالأُمويون فى نظر ابن الغسيل طغاة ، مفسدون فى الأرض ، خارجون على الدين ، مجانبون للحق ، عصاة ، عليهم لعنة الله ، لانحرافهم عن هدى القرآن .

ولابن قيس الرقيات ضرب طريف من التهجم على بنى أمية ، اتخذ له قالب الغزل

(١) راجع فى خبر هذه الموقعة وعدد من قتل فيها من الصحابة وأبنائهم ومواليهم ، ص ٢٨ من هذه الدراسة .

(٢) عبد الله بن حنظلة (وحنظله هو الغسيل) الأنصارى ، كان على رأس جند الأنصار ، دفاعاً عن المدينة يوم الحرة ، وفيها قتل أولاده جميعاً . انظر : الطبرى ٧ / ٩ والكامل لابن الأثير ٤ / ١١٥ — ١١٧ (بيروت) .

(٣) الطبرى ٧ / ١٠ والكامل لابن الأثير ٤ / ١١٧ (بيروت) .

الذى أراد به النكاية فى بنى أمية ، وإغاظتهم ، وتجريحهم ، يطلق عليه الدكتور طه حسين « الغزل الهجائى » ^(١) ، ويمكن أن نطلق عليه أيضا « الغزل الكيدى » أو « الغزل السياسى » ، وهو غزل لا يصدر عن الشاعر تعبيرا عن عاطفة الحب ، بل قصداً إلى التشهير بأعراض الخصوم ، وإغاظتهم ، وتحقيرهم بين الناس .

من ذلك قوله يشبُّبُ بأم البنين ، زوج الوليد بن عبد الملك ، وابنة عمه عبد العزيز بن مروان ^(٢) :

أصحوّت عن أمّ البنيـ من وذكرها وعنائها
وهجرتها هجرَ امرئٍ لم يقل صفو صفائها
زادت على البيض الحسا ن بحسنا ونقائها
لولا هوى أمّ البنيـ من وحاجتى للقائها
قد قربت لى بغلة محبوسة لنجائها

وله أبيات أخرى يدعى فيها أنها زارته فى المنام ، فقبلها ، وضاجعها ، وأعجبته وأعجبها ، ولاشك أن ابن قيس الرقيات قد بلغ من هذا الغزل ما أراد ، فقد ثارت ثائرة الأمويين ، وغلت صدورهم بالغضب والحقد عليه ، فتوعده ، وأهدروا دمه ، والذى يهمنى هنا أن شاعر الزبيرين ، قد أظهر الاستخفاف ببنى أمية ، ونال من هيبتهم ، وتجاهل ولايتهم ، وسلطانهم ، ونحسبه ما قصد إلا إلى هذا .

بهذا الضرب من الغزل السياسى ، كان ابن قيس الرقيات أحد الشعراء المجديدين فى فن الشعر السياسى فى العصر الأموى ^(٣) ، يقول الدكتور طه حسين : « هذا الغزل

(١) حديث الأربعاء ٢٤٧

(٢) ديوانه ١٧٥ ، وانظر فى بعض أخبار أم البنين وشخصيتها : عيون الأخبار ٢ / ٩٢ . وانظر هامشه ومروج الذهب ٢ / ١٥٣ (البية) .

(٣) ديوانه ١٢٣

(٤) سبق ابن قيس الرقيات إلى هذا النوع من الغزل — فى الإسلام — يعبد الرحمن بن حسان بن ثابت (انظر : الكامل للمبرد ١ / ٢٠٩ الأزهرية) وقال ابن سلام فى طبقاته ٢٨٢ (المدنى) عن كعب بن الأشرف اليهودى أنه كان يشبب بنساء رسول الله ﷺ ونساء المسلمين وأن الرسول ﷺ أمر بقتله لذلك ، فهذا غزل كيدى سابق لغزل عبد الرحمن بن حسان ، وابن قيس الرقيات . فدعوى طه حسين الآتية ليست على إطلاقها .

(٥) حديث الأربعاء ٢٤٧ / ١

الهبجائي ، الذى يكاد ابن قيس الرقيات يكون مبتدعه ، خليق بالعناية ، فهو لون من الألوان الفنية الجديدة التى استحدثها الشعراء المسلمون » (ونضيف نحن) تحت تأثير السياسة فى العصر الأموى ، إلى جانب اللون الذى استحدثه الكميت بن زيد ، وهو شعر الجدل والاحتجاج والبرهنة .

وفى مجال التصدى للشيعه وأنصارهم ، لم يتجرأ الشعراء الزبيريون على مقام أئمة آل البيت أورجالاته ، كما فعل شعراء الأمويون ، وإنما اتجهوا بخصومتهم وهجائهم إلى بعض كبار أنصارهم ، يسخرون منهم ، ويمزجونهم بالزيف ، والتخليط ، والانحراف عن الحق ، والجرأة على الدين ... ونحو ذلك ، مما نجد له نظيراً فى شعر الهجاء السياسى لدى الأحزاب الأخرى .

ففى قتال الزبيريين المختار بن أبى عبيد الثقفى ، الذى أظهر التشيع ، وانحاز زمانا للشيعه الكيسانية بالكوفة (سنة ٦٦ هـ) ، أسر المختار سراقه بن مرداس البارقي (١) فاحتال عليه حتى أطلقه ، فلحق بمصعب بن الزبير ، وكان المختار يزعم أنه يوحى إليه ، ويتخذ أتباعه ، ببعض الحيل ؛ ليوهمهم أنه مؤيد بها من قبل الله ، فقال سراقه يتهمكم به ، ويتهدده ، ويعرض بكذبه ، وكفرو (٢) ، وكان المختار يكنى أبا اسحاق :

ألا أبلغ أبا اسحاق أنى رأيتُ البُلُقَ دُهْماً مُصْمَتَاتِ
أرى عينى ما لم تُبصره كلانا عالمٌ بالترهات
كفرت بوحيكم وجعلتُ نذراً على قتالكم حتى المماتِ
إذا قالوا أقول لهم كذبتُم وإن خرجوا لبستُ لهم أداتِ

إنه يسخر من حق أبى اسحاق المختار بن أبى عبيد ، وغفلته ؛ حيث صدق ما احتال به لينجو منه ، وكان سراقه زعم له أنه رأى الملائكة تنصرو وتقاتل فى جيشه، وعبر عن ذلك بأنه يرى الأبيض أبيض، والأسود أسود، ولكنه ادعى أمام المختار خلاف ذلك،

(١) شاعر ظريف ، حلو الحديث ، مقرب للملوك ، قاتل المختار فأُسره المختار ، ثم احتال حتى أطلقه ، ولحق بمصعب ، وقدم العراق مع بشر بن مروان ، وله مهاجاة مع جرير وخبر طريف معه أيضاً . انظر : طبقات ابن سلام ٤٣٩ — ٤٤٤ (المدنى) والطبرى أحداث سنة ٦٦ هـ ص ١٢١ وما بعدها .

(٢) ديوانه ٧٨ والفرق بين الفرق ٣٥ وابن سلام ٤٤٠ (المدنى) والطبرى ٧ / ١٢٣ . البلق : البيض . مصمات : شديدة السواد . الترهات : الحيل والأكاذيب .

واحتال بما لم تره عيناه ، مجازاة لهذا الأحمق ، كما يتهمكم بما يدعيه المختار من الوحي ، ويتهده إن عاد إلى قتال مصعب صاحبه ، بأنه سوف يكون على استعداد لقتاله .

ولم يبعد رأى الزبيريين فى الخوارج عن نظرهم إلى الأمويين والشيعة ، فهم عندهم كفار ، مارقون ، مبعدون عن حظيرة الإسلام .

يعبر عن هذا ابن قيس الرقيات فى قوله : (١)

أَلَا طَرَقْتُ مِنْ أَهْلِ بَيْتَةِ طَارِقَةٍ عَلَى أَنَّهَا مَعْشُوقَةُ الدَّلِّ عَاشِقُهُ
تَبَيَّنَتْ وَأَرْضُ السُّوسِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا وَسُؤْلَافُ رُسْتَقٍ حَمَمَتُهُ الْأَزَارِقَهُ
إِذَا نَحْنُ شَتْنَا صَادِفَتْنَا عَصَابَةٌ حَرُورِيَّةٌ أَضْحَحَتْ مِنَ الدِّينِ مَارِقَهُ

وتحت المروق من الدين يمكن أن ترد كل المعانى الدينية التى حرص شعراء الأحزاب على إلصاقها بخصوم حزبهم ؛ ليجردوهم من كل مزية فى الدين ، وليخرجوهم من الملة ، فتتفر منهم قلوب المسلمين ، وتنفض عنهم جموعهم .

ج : رثاء قتلى الزبيريين :

على الرغم من قصر المدة التى عاشتها حركة ابن الزبير ، فإنها كانت مشحونة بالحروب والوقائع ، التى دارت بين أنصارها ، وأنصار الشيعة بالعراق ، وبينها وبين جيوش الدولة الأموية فى العراق والشام والحجاز خاصة .

فى هذه الحروب قتل كثير من رجال دولة ابن الزبير ، وبخاصة فى معارك مصعب مع الأمويين بالعراق ، التى انتهت بقتله ، وفى معركة الحرّة الشهيرة بالمدينة — كما قدمنا .

ومع ذلك لم نجد لشعراء الزبيريين فى رثاء هؤلاء القتلى إلا شعرا قليلا ، أكثره فى رثاء مصعب ، وقتلى الحرّة ، وأجوده وأجدره بالرواية ، ماجاء على لسان شاعرهم الفحل ، عبيد الله بن قيس الرقيات .

(١) الكامل للمبرد ٣ / ١٠٧ ، ١٨٧ (الأزهرية) والكامل لابن الأثير ٤ / ١٩٧ (بيروت) . بَيْتَةُ : قيل :

هو لقب لعبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ، وقيل كانت أمه ترقصه وتقول بية ، (انظر الطبرى ٧ / ٢٤ ، ٢٦) فهو لقب قرشى ، وقيل : قوم بمكة تعرف دارهم بدار بية (انظر القاموس ١ / ٣٨) السوس : بلدة بالأهواز . سولاف : ناحية بخوزستان . الرستاق : القرى .

وربما كانت قلة الرثاء في شعرهم راجعة إلى ماسبق ذكره ، من أن أكثر شعراء دولة ابن الزبير كانوا من الشعراء ذوى الأهواء والمطامع المادية ، وهؤلاء إنما تتحقق مطامعهم ومكاسبهم بالمديح لا بالرثاء .

ومن أجود ما قال ابن قيس الرقيات في رثاء مصعب بن الزبير ، الذى قتل سنة ٧١ أو ٧٢ هـ بالكوفة ، شعره الذى يندد فيه بقبائل مضر التى غدرت بمصعب ؛ وخلت بينه وبين جيوش عبد الملك بن مروان بموقعة مسكن — على نهر دجيل عند دير الجاثليق — قريبا من الكوفة ، وفيه يقول : (١)

إن الرزية يوم مَسَّ	نَكِنِ والمصيبة والفجعة
بابن الحوارى الذى	لم يَعُدْهُ أهل الوقعة
غدرتْ به مضر العرا	ق وأمكنت منه ربيعة
فأصبتِ وترك ياربيـ	ع وكنت سامعة مطبعة
يالف لو كانت له	بالطف يوم الطف شيعه
أو لَمْ يَخُونُوا عهده	أهل العراق بنو اللكيعة
لوجدتموه حين يغـ	ضَبُّ لا يُعْرَجُ بالمضبعة

فهو يسجل قعود مضر عن نصرته على ربيعة ، التى قتلتها لتنصر بنى أمية ، وتذكر ثاراتها القديمة عند مضر العراق ، كما يصف أهل العراق الذين خذلوه بالغدر والخيانة واللؤم .

ويدير هذه المعانى فى صور أخرى فى أبيات له ، يقول فيها (٢) :

لقد أورث المصيرين خزيا وذلة	قتيلٌ بدير الجاثليق مقيم
فما نصحتُ لله بكرُّ بن وائل	ولاصبرت عند اللقاء تميم
ولو كان بكرًّا تعطف حوله	كتائبُ يغلى حميها ويدوم
ولكنه ضاع الذمام ولم يكن	بها مضيرى يوم ذاك كريم

(١) ديوانه ١٨٤ ، أهل الوقعة : يشير إلى غدر أهل العراق ، اللكيعة : اللثيمة . لا يرجع بالمضبعة : لا يقيم على الذل . وانظر فى خبر معركة مسكن التى قتل فيها مصعب : الطبرى ٧ / ١٨٤ والكامل لابن الأثير ٤ / ٣٢٣ ومابعدها (بيروت) والعبر للذهبي ١ / ٨٠ وأيام العرف فى الإسلام ٤٦١ — ٤٦٥ .

(٢) الطبرى ٧ / ١٨٧ . وانظر التعريف بدير الجاثليق فى ص ١٥٥ هامش ٤ من هذه الدراسة .

جزى الله كوفيًا هناك ملامه وبصريتهم إن المليم ملهم
فإن نفن لايقوا أولئك بعدنا لدى حومة في المسلمين حريم

وروح العصبية القبلية تطل من هذا الرثاء ، وكأنه رثاء قبلى ، فابن قيس الرقيات يلوم العصبية المضرية ، لأنها لم تقف في وجه ربيعة ، وتنصر مصعب وتدافع عنه ، وتحميه من بطش الأمويين ، ويوبخ بكرا، ويؤنب تميماً ، ويرمى مضر باللؤم ، ويصب غضبه على أهل المصرين الكوفة والبصرة بعامه .

وهذا ليس بغريب من ابن قيس الرقيات ، فالقبلية باعته الأساسى في شعره الذى يناصر آل الزبير ، ويؤيد دولتهم ، لأنه في الحقيقة انتصار لقريش ، وتأيد لحقها في استرداد عزاها ، وعز موطنها الحجاز ، والعصبية هى مادة حديثه في رثائه أيضا .
أماموقعة الحرة ، فقد كانت شديدة الوقع على نفس ابن قيس الرقيات ؛ إذ كان له بين قتلها إخوة ، وأهل وأحباب ، فكان رثاؤه حاراً حزينا ، ممزوجاً بالغیظ والحنق والوعيد ، نرى هذا في قوله : (١)

كيف الرقاد وكلما هجعت عيني ألم خيال إخوتي
تبكى لهم أسماء معلولة وتقول ليلي وأرزيتيه
والله أبرح في مقدمة أهدى الجيوش على شكتيه
حتى أفجعهم بإخوتهم وأسوق نسوتهم بنسوتيه

ولايمثل الموتورين من ظلم بنى أمية وعدوانهم ، مثلما تمثلهم أبيات ابن قيس الرقيات هذه ، بما فيها من وعيد ملتهب بنار الحزن والأسى ، وماتضمنته من ألفاظ سهلة وقافية لينة ممتدة (٢) ، وعاطفة قوية مغيظة ، تتفجر حسرة و ألماً .

ى : نظرات فنية في شعر الزبيريين السياسى :

١ — ضعف الاحتجاج والبرهنة على صواب دعوتهم ؛ إذ لم نجد من تصدى

(١) ديوانه ١٩٥ . الشكة : السلاح ، وفي موقعة الحرة قتل سعد وأسامة ابنا أخيه يزيد فرثاهما في أبيات

من هذه القصيدة . انظرها . في ديوانه ، وسمط الآلى ١ / ٣٢١

(٢) أنشد ابن قيس الرقيات هذه الأبيات في مجلس عبد الملك ، فقال له : أحسنت ياابن قيس ، لولا أنك

خنت قوافيه — يقصد أن الهاء في آخره جعلته رخوا ، كما يقول أبو عمرو بن العلاء — فقال : ياأمر المؤمنين ماعدوت قول الله تعالى : « ماأغنى عنى ماله ، هلك عنى سلطانيه » فقال له عبد الملك : أنت في هذا أشعر منك في شعرك . (مجالس العلماء للزجاجى ١٨٨) .

للتعبير عن آرائهم إلا ابن قيس الرقيات ، وهو مع ذلك لم يلجأ في تأييد دعواهم إلى البراهين والحجج المقنعة ، المدعمة بالأدلة الشرعية أو العقلية ، وهو في هذا يشبه إلى حد كبير منهج شعراء الأمويين في الاحتجاج لهم ، إذ لم تخرج دعاوى هؤلاء وأولئك ، عن كونها دعاوى خطائية ، يعوزها التعليل والبرهان .

٢ — قلة النتاج الشعري ، الذى خلفه شعراؤهم ، إذا استثنينا مادار من شعر حول معركة مرج راهط ، وماتولد عنها من غارات ومعارك بين القيسية والبنمية ؛ لأن الغالبية العظمى من مادة هذا الشعر ، تنبعث عن العصبية القبلية ، وتصورها أكثر مما تصور ما قامت أساسا من أجله ، وهو حماية خلافة ابن الزبير ، والدفاع عنها ، والتحكين لها ، أى أنها لاتصلح موضوعا للدراسة في مقام الحديث عن الشعر السياسى في العصر الأموى .

٣ — قلة المعانى الدينية في أشعارهم ، فهى لاتتجاوز بعض الصفات الدينية ، التى تشيد بتقوى ابن الزبير ، وأخيه مصعب ، وصلاحيهما ، وعدلهما ، وحراستهما لدين الله ، وحمائتهما للحرمين ، وبعض المعانى التى تسلب بعض الصفات الدينية عن خصومهم وبخاصة الأمويين ، وأكثر ماتدور معانهم ، حول الكرم والشجاعة والاعتزاز بالحجاز ، والتعصب لقريش ومضر ، وشرف الانتساب إليهم في مقام الإشادة ، ونقضها في مقام التنديد ، وكل هذا يتضح من نماذجهم التى قدمناها في هذه الأغراض .

٤ — في شعرهم قوة ، وجزالة تشبه فصاحة البادية ، إذ كان أكثر شعرائهم بدوا ، ويمتاز ابن قيس الرقيات في شعره المناصر لهم ، بسهولة اللفظ والعبارة ، وحسن العرض ، ورشاقة الوزن ، وحرارة العاطفة ، ونماذجه السابقة في المدح والتأييد والرثاء خير شاهد عن ماذكرنا .

٥ — انفرد شعرهم في التصدى لخصومهم بهذا الغزل السياسى ، أو الكيدى ، أو الهجائى ، الذى كاد ابن قيس الرقيات يكون مبتدعه ، كما يقول الدكتور طه حسين .

* * *

تعقيب على الشعر السياسى بعامة

في هذا العصر

لعلنا بعد هذه المعاشة لشعر الأحزاب السياسية في العصر الأموى ، التى طالت

— نوعاً ما — نستطيع أن نحدد أهم معالم التطور أو التجديد ، التي حظى بها الشعر العربى فى هذا العصر ، تحت تأثير السياسة الحزبية فيه .

ويمكن إيجاز هذه المعالم فى النقاط الآتية :

(١) لعل أول مايلفت النظر هذا الفيض الزاخر من الشعر ، الذى جعل من السياسة — بمعناها فى هذا العصر — محوره ومداره ، فالصراع بين الأحزاب ، ومآثار بينها من خلاف سياسى ومذهبى ، وماقتضته سياسة الأحزاب من اصطناع الشعراء لترويج دعاواهم ، كل ذلك وغيره ، مما أشرنا اليه فى المقدمة ، كان من أهم العوامل التى أثرت الشعر وفجرت يناعيه ، وحركت شياطينه ، فألهمت الشعراء بألوان وضروب من القول ، تعددت موضوعاتها ، وغزرت معانيها ، وتنوعت أساليبها .

(٢) كثرة الشعراء الذين شاركوا بشعرهم فى ميدان السياسة ، حتى لا يكاد يخلو شعر شاعر فى هذا العصر من هذه المشاركة ولو بأبيات ، بينما كان الشعراء الذين أسهموا بشعرهم فى الحياة الإسلامية العامة قبل هذا العصر محدودى العدد والنتاج ، إلى حد كبير ، بالقياس إلى شعراء العصر الأموى .

وكان التنافس بين زعماء الأحزاب ، فى الإغداق على الشعراء ذا أثر كبير فى إبراز مواهب كثير من الشعراء ، ارتقوا بفنهم إلى مرتبة الفحول فى هذا العصر ، بحيث لم يخل حزب من بعض هؤلاء الفحول .

ففى الحزب الشيعى نعرف الكميت بن زيد ، وكثير عزة ، والسيد الحميرى ، وفى الحزب الأموى يتربع الأخطل وجريز والفرزدق على قمة الفحولة ، لافى شعر العصر الأموى وحده ، بل فى الشعر العربى فى العصور الإسلامية القديمة بعامه ، وفى الخوارج تلمع أسماء قطري بن الفجاءة ، والطرماح بن حكيم ، وعمران بن حطان ، وفى الحزب الزبيرى يعترف الشعر العربى بالعبقريّة والنبوغ لابن قيس الرقيات .

٣ — اختلاف ألوان الشعر السياسى تبعاً لتعدد ألوان الأحزاب السياسية والدينية ، فكان الشعر عند شعراء بنى أمية حديثاً عن سعة سلطانهم ، وقوة ملكهم ، وتسلطهم ، وقوة جيوشهم ، ورجاحة عقولهم . أو تهديداً لأعدائهم ، وتهكما بهم ، فمثل شعر (الاستقرابية) الملكية .

وعند شعراء الشيعة ، إستثارة لحماسة الجماهير الإسلامية ، واجتذابا لعواطفهم ، ونقمة على أعدائهم ، فهو شعر المضطهدين ، المنكوبين في حياتهم وحقوقهم ، وعند شعراء آل الزبير ، تمجيذا لأصلهم القرشي ، وإذاعة لمسلكتهم الديني ، ولدعاواهم العريضة ، فهو شعر التعصب القبلي والإقليمي .

وعند شعراء الخوارج ، تصويراً لحياتهم ، وانعكاساً لشخصيتهم المتفردة بالحماس الديني ، والبطولة الفدائية ، وتعبيراً عما يجول في روعهم ، ويضطرم في صدورهم من حب الشهادة ، في سبيل الحق الذي خرجوا من أجله ، واستهانة بما يكابدونه في سبيله من آلام وعقبات ، فهو شعر الحماسة الدينية والحرية .

٤- — التأثير بالأنكار والمعاني الدينية والمذهبية ، على صورة أوسع نطاقاً ، مما نراه في الشعر السابق على هذا العصر .

وهذا أمر طبيعي ، إذا تذكرنا ماسبق أن أشرنا إليه من المبادئ والآراء والنظريات والعقائد ، التي أخذت تتبلور ، لتكون الأسس الهامة ، التي تنبعث عنها الأحزاب السياسية في العصر الأموي ، في نشاطها السياسي والديني والحرثي ، وعلى الأخص حزبي الشيعة والخوارج ، حيث تكثر البواعث الدينية في المجالات المتعددة لنشاطهما ، « والحق أن المسائل السياسية في جماعة بنت كيائها على أساس ديني ، لا بد أن تصطبغ بصبغة دينية ، وأن تتخذ المصالح الدينية مظهرها لها — على الأقل — مما يضيف على المنازعات السياسية طابعاً خاصاً » (١) .

نعم ، لقد رأت الأحزاب في هذا العصر أنه من الضروري ؛ لتكون مقبولة لدى جمهور المسلمين ، أن تأخذ صبغة دينية تحاول بها النفاذ إلى مشاعر الناس ، والتأثير عليها .

واستجاب الشعر لهوى الأحزاب ، فراح يستمد من الدين كثيراً من أفكاره ومعانيه ، وأقبل بعض الشعراء على القرآن الكريم ، يستلهمونه الحجة والدليل ، ويستوحونه المعنى والأسلوب .

وهذه الصبغة الدينية قد رأيناها في شعر الأحزاب جميعا — وإن تضاءلت في شعر الزيريين — تحف ألوانها حيناً كما رأينا في الشعر الأموى ، وتزهو أحيانا ، كما في شعر الشيعة والخوارج ، وهى عند الشيعة — والخوارج على قلة — تأخذ طابعا مذهبيا ، يجعل كثيرا من شعرهم مذهبيا خالصا ؛ بحيث يعد إضافة جديدة ، لم يعرفها الشعر العربى من قبل ، وقد دللنا على جدته فيما سلف ^(١) ؛ إذ تتردد فيه المصطلحات المذهبية ، وتتضح فيه أساليب الجدل والبرهنة ، المتأثرة بمناهج المفكرين والمتكلمين والفقهاء في هذا العصر ، وبخاصة في أواخره ، وعلى يد الكميت ابن زيد ، صاحب الهاشميات ، التى يقول عنها الدكتور شوق ضيف : إنها « تعد لونا أدبيا جديدا في تاريخ الشعر العربى ، فمن قبل الكميت لم يتخذ شاعر شعره لإثبات مقالة مذهبية ، أما الكميت فإنه عمد عمدا إلى صياغة مقالة الزيدية في الشعر ، مستعينا بكل مائقفه العقل العربى في العراق لهذا العصر ، من صور حجاج وجدال واستدلال » ^(٢) وقد تكون قيمة هذا الشعر الفكرية أكثر من قيمته الفنية ؛ لأنه يعنى بالناحية الموضوعية ، أكثر من عنايته بركة التعبير وجمال الأساليب ورونق الألفاظ ، ومع هذا ، فهو يعد اتجاها جديدا حقا في الشعر العربى ^(٣) ، غرسته وأثمته وغذته الخصومات السياسية في العصر الأموى .

(٥) وهناك تأثير آخر واضح وهام للسياسة في شعر هذه الفترة ، وهو أثر أيضا لما ذكرنا من حرص الأحزاب على صبغ دعاواها بالصبغة الدينية ، فليس من شك في أن المعانى الإسلامية المحضة الغزيرة التى غزت الشعر العربى في عصر بنى أمية ، كانت أول تطور موضوعى لِفَنِّ المدح والهجاء ، فقد بدأ كل منهما يهتم بالفضائل المعنوية الدينية — إيجابا أو سلبا — أكثر من اهتمامه بالفضائل الحسية ، كبهاء الطلعة وبسطة الجسم ، وما إلى ذلك في المدح ، وقبح الوجه وزراية الهيئة وغيرهما في الهجاء .

(١) راجع ص ١١٩ — ١٢١ من هذه الدراسة .

(٢) التطور والتجديد : (شوق) ص ٣١٧

(٣) انظر : اتجاهات الشعر العربى : (هدارة) ص ٣٥٣

ومع أننا لانتفى أن كلا من هذين الفنين كان يتضمن بعض الأوصاف الحسية ، فإن هذه الأوصاف لم تكن مقصودة لذاتها ، بل كانت تقتن — غالبا — بمعان دينية ترمى إليها ، فبهاء الطلعة ، وإشراق الوجه ، يُعربان عن التقوى والورع ، ونقاء السرية ^(١) ، وقوة أسر العينين دليل الذكاء والفطنة ، والبسطة في الجسم مظهر من مظاهر الهيبة ، وعكس ذلك في مقام الهجاء .

من هذا يتضح أن الشعر في عصر بني أمية تطور تحت تأثير السياسة ، ولابد لنا من الرجوع إلى نماذج الشعر التي سقناها آنفا لدى الأحزاب المختلفة ، لنربط بين هذه النماذج ونواحي التطور المذكورة هنا ، وبخاصة الثلاث الأخيرة منها .

(١) من ذلك قول ابن قيس الرقيات في الإشادة بمصعب بن الزبير :

إنما مصعب شهاب من اللآه — تجلت عن وجهه الظلماء

الفصل الثالث

شعر الخصومة القبليّة

نقصد بالشعر القبلى هنا ، ذلك اللون من الشعر ، الذى ارتبط بصحوة العصبية القبلية فى العصر الأموى ، وعبر عنها ، وسار فى ركابها ، تلهمه مادته ، وتمنحه القوة والذىوع والازدهار ، وينفخ هو فى نارها ، فيلهبها ، ويريدها اشتعالا .

وإذا كانت بعض دواعى السياسة والاجتماع ^(١) ، قد شجعت على إحياء العصبية القبلية ، وأمدتها بمقومات نهوضها وتطورها وحدثها ، فإن الشعر الناتج عن هذه الخصومات القبلية ، يختلف أساسا عن الشعر الذى كان وليد الخصومات السياسية بين الأحزاب ، من حيث الباعث ، ومن حيث الغاية ، فى كل منهما .

فالشاعر فى الخصومات القبلية ، يحركه ، أولا وقبل كل شيء ، الولاء للقبيلة التى ينافع عنها ، ويتعصب لها ، وهى فى الأعم الأغلب قبيلته ، وغايته تمجيد هذه القبيلة ، والإشادة بآثرها ، وانتصاراتها ، وإذاعة مفاخر ماضيها وحاضرها ، والتنديد بأعدائها ، وإبراز مثالبهم .

ومعنى هذا أن شخصية الشاعر ، وآراءه ، ومعتقداته الشخصية ، تتوارى فى هذا الشعر ، لتخلى مكانها لشخصية القبيلة ، فهو لا يفتخر ببطولته ، وبلائه ، وصبره على القتال ، وإنما يفتخر ببلاء قبيلته وشجاعته ، وصبرها فى مواطن النزال ، كما يزهر بأبنائها الكرام ، الذين جاءوا من آباء كرام ، وبمكانتها بين القبائل الأخرى ، وينوه بمحاسنها وفضائلها التى تعزز بها ، فالقبيلة إذن هى محور شعره وباعثه ، وخدمتها قصده وغايته .

وليس كذلك الشعر السياسى ، الذى يحل الحزب فيه محل القبيلة فى ولاء الشاعر له ، ودفاعه عنه ، وإشادته به ، كما أنه يفسح المجال للشاعر ليعبر عن آرائه ومعتقداته ، ومشاعره نحو الحزب الذى ينتمى إليه .

هذا فضلا عما بين شعر الخصومات السياسية ، والشعر القبلى من فروق فنية ، تتناول الشكل والمضمون معا .

(١) راجع ما ذكرناه عن إحياء العصبية القبلية فى العصر الأموى ، فى مقدمة هذه الدراسة ص ٥٢ — ٥٦

وأيام العرب فى الإسلام ٣٥١ — ٣٧٨ .

ويكفى هنا أن نشير إلى واحد من هذه الفروق الفنية بين هذين اللونين ، تتعلق بفن الهجاء في كل منهما ، ففي الشعر القبلي نقف على غير قليل من المعاني والعبارات ، التي تחדش الحياء ، وتنافي الفضيلة ، وقيم الأخلاق والدين ، فيها إفحاش وغلو في هتك الحرمات ونهش الأعراض ، والتصریح بالمخازي ، مما يضطر الباحث إلى إمساك لسانه عن روايته ، وترديد نصوصه ، أما الهجاء السياسي فلم ينزل إلى هذه الحمأة ، ونصوصه التي درسناها شاهد صدق على براءته ونقاؤه من البذاءة والفحش .

وستتضح الفروق الفنية بين الشعر القبلي والشعر السياسي ، من خلال دراستنا لنصوص من شعر الخصومات القبلية ، مقارنة بما سبقت دراسته من نصوص الشعر السياسي .

— ٢ —

كانت العصبية القبلية من أهم عناصر الحياة العربية في العصر الجاهلي ؛ إذ كانت ضرورة من ضرورات حياة الجاهليين ، لتكوين وحدات اجتماعية قائمة على أساس قبلي ، تتكفل بالعدالة الداخلية ، والأمن الخارجي لأفرادها وأسرها ، ولتحقيق السيادة في المواطن ، للإبقاء على الحياة ، والحفاظ على الشرف ، وبسط الحماية على القريب والجار ، « مادامت الحياة البدوية مضطربة ، لا تنتظمها وحدة شعبية شاملة ، ولا ترأسها حكومة عامة تفرض النظام ، وتقرر الأمن ، وتنفذ القانون ، وتنتصف للمظلوم » ^(١).

وكان هذا يفرض على البدوي الاحتواء بقبيلته ، فهي ملجؤه وملأذه ، من عزها وسطوتها يستمد عزته وسطوته ، في تلك البيئة الصحراوية التي تهدده ، في كل وقت ، بالمخاطر والخن ، مما يجعله في أمس الحاجة إلى ملاذ يلوذ به وقت الشدة ، ونجدة تسعفه ، حين يحزبه الضر ، ويتراءى له شبح الخطر .

من أجل هذا كان تعصب البدوي لقبيلته شديداً ، واعتزازه بالانتساب إليها لاحقاً ، فهو يحميها لتحمية ، ويدافع عنها ؛ لتنصرو .

وكان لهذه العصبية القبلية أثر كبير في الشعر الجاهلي ، فكثيراً ما دفعت الشعراء

إلى العرف على قيثارها بأعذب ألحان التمجيد والتعظيم ، والإشادة بأبجاء قبيلتهم ، وأيامها وآثرها ، وأشد وأقسى القوافي في ذم أعدائها ، ووصمهم بالعار والخزى ^(١) .

ثم جاء الإسلام ، فأعلنها حرباً شعواء على العصبية القبلية ، ودعا إلى التآخي العام بين الناس جميعاً ، لافرق بين الأجناس والقبائل ، فالمؤمنون في ظل الإسلام إخوة .

وأخذ الرسول (ﷺ) مدة حياته ينكر حمية الجاهلية ، ويقاومها في العرب بحزم ، وتبعه خلفاؤه الراشدون على ذلك ، فتوارت العصبية القبلية ، وخمدت نارها حيناً ، ولو طال العهد بالرسول (ﷺ) ، وأنى بكر وعمر بخاصة ، لاستطاعوا أن يكسروا حدة هذه العصبية ، إن لم يقضوا عليها قضاء تاماً .

ولكن العصبية كانت أصيلة في دم العرب ، متمكنة في نفوسهم ، لايسهل استئصالها ، فبقيت حية عند كثرة العرب ، تشوه حياتهم الإسلامية ، وتصدع وحدتهم السياسية والاجتماعية ، على الرغم من حزم الرسول (ﷺ) وصرامة أنى بكر وعمر ، وجددهم في مناهضتها ، والقضاء عليها .

وهل أدل على قوة سلطان العصبية القبلية على مشاعر العرب ، وبقائها حية كامنة في نفوسهم ، مما يروى في أخبار غزوة بنى المصطلق ، من أن رجلاً من المهاجرين كسع ^(٢) رجلاً من الأنصار ، فاشتبكاً في قتال ، تداعت على إثره عشائرها بدعوة العصبية القبلية ، فأنكر الرسول (ﷺ) هذه الدعوة الجاهلية ، وأراد عبد الله بن أنى بن سلول المنافق أن يشعلها نارا ، فقال ماحكاه عنه القرآن : « لكن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ^(٣) » ؟!

لم تلبث العصبية القبلية أن وجدت لها متنفساً بعد مقتل الخليفة الراشد عثمان بن عفان ، ثم أسفرت عن وجهها القبيح في الصراع الذي قام بين عليٍّ ومعاوية ، حيث انضمت اليمنية بالشام إلى معاوية ، لما كان له ولعثمان بن عفان ، من قبله ، من صهر فيهم ، إذ تزوج عثمان من نائلة بنت الفرافصة من قبيلة كلب اليمنية الحميرية ، واقتدى به

(١) لمزيد تفصيل راجع كتاب المؤلف : الشمآخ بن ضرار الذبياني ٢٨

(٢) يقال : كسع الرجل الرجل إذا ضربه على دبره بيده أو بصدر قدمه .

(٣) سورة المنافقون ٦٣ / ٨ وانظر في خبر هذه الحادثة : تفسير الطبري ٢٨ / ٧٣

معاوية فتزوج من ميسون بنت بحدل الكلبية أيضا ، وبذا ظفر معاوية بنصرة أصهاره وأحوال ابنه يزيد ، وفتح بذلك باب العصبية اليمنية ، وولج منه ، احتسابا لعصبية العدنانية ، التي رآها تسير في ركب السياسة الحجازية والعراقية ، بينما انحاز أكثر عرب القيسية إلى جانب علي .

وفي موقعة صفين أخذت القبائل العربية يحارب بعضها بعضا ، وتقطع شواجر أرماعها شواجر أرحامها ، مما قوى فيها الإحساس القبلي ، وأدكى في نفوس أهلها ما كان الإسلام قد أخمده من حياة جاهلية ، فيها غلبت الروح القبلية على كل شيء ، حتى أصبحت العصبية كل حياة القوم الاجتماعية .

كانت ميادين صفين هي التي رددت النعمات الأولى — تقريبا — المنبعثة من قيامة العصبية القبلية القديمة ، ومن الجلى أن هذا إنما يرجع إلى أن صفين كانت حربا أهلية بين القبائل العربية ، أكثر منها حربا سياسية ، أعادت إلى الأذهان أيام الجاهلية القديمة ، نضيف إلى ذلك أن عليا ومعاوية كانا يحشدان كتائبهما حشدا قبليا ^(١) ، مما جعل جيوشهما يواجه بعضها بعضا في ميدان المنافسة ، فيدفعها هذا إلى التفاخر بالأنساب والأحساب والأيام ، على نحو ما فعل راجز بنى تميم ، مفتخرا بقبيلته يومذاك :

قد ضاربتُ في حربها تميمُ
إن تميمًا خطبها عظيمُ
لها حديثٌ ولها قديمُ
إن الكريمَ نسله كريمُ

وما فعل راجز بنو أسد ، مرتجزا أمام كتائب قومه في صفين :

قد حافظتُ في حربها بنو أسدُ
مامثلها تحت العجاج من أحدُ
أقربُ من يُمنى وأُنأى من نكدُ
كأننا ركننا ثبير أو أحدُ
لسنا بأوباشٍ ولابيض البلدُ

(١) انظر : وقعة صفين ، لابن مزاحم ٢٢٦ — ٢٢٨ ، ٣٠٨ — ٣١١

لكننا المُنَّة من وُلد مَعَد (١)

وكما عبر الرجز عن هذه الروح القبلية يوم صفين ، كذلك نهض القصيد ليسهم في هذه المعزوفة القبلية ، فالشعراء يتغنون بقبائلهم ، ويفتخرون بانتصاراتهم ، ويمدحون رؤساءهم وقادتهم ، في أنغام تشيع فيها العصبية القبلية ، ويسيطر عليها الإحساس بالقبيلة ، فهذا شاعر كنانى من المقاتلة مع على ، يعدد أسماء القبائل المتآزرة في مواجهة القبائل الشامية ، ويشيد بفعالهم ونكايتهم في أعدائهم (٢) :

حامت كِنانة في حربها وحامت تَمِيمٌ وحامت أسد
وحامت هوازن يوم اللقا إلى حضرموتٍ وأهل الجند
فلما تنادوا بآبائهم دعونا مَعَدًّا ونعم المَعَد
فظلنا نُفَلِّقُ هاماتِهِم ولم نكُ فيها ببيض البلد
ونعم الفوارس يوم اللقا فقل في عَدِيدٍ وقل في عُدَد
وقل في طعانٍ كُفِرَغ الدلا وضرب عظيم كنار الوقْد
طحنًا الفوارس وسَط العجاج وسقنا الرعانف سوق التَّقْد

وواضح أن الشاعر يتحدث عن العصبية المعديّة المضريّة ، في مواجهة العصبية اليمنية . كما يبدو في البيت الثانى والثالث .

فهو يفخر بمضر ويعدد قبائلها ، ويشنى عليها ، ولكنه لا ينسى أن يبدأ بقبيلته كِنانة ، ولا ينسى كذلك أن هذا الشاعر المضرى إنما جمع بين القبائل المضريّة ، لتنافس القبائل الرَبِيعيّة ، التى كانت تقاتل في صفوف على أيضا ، قتالاً أثنى عليه على ، مما أثار حسد المضريّة ، فطلبت أن تفرد لها أيام تقابل فيها وحدها ، حتى يرى على صدق قتالها ، وبالفعل استجاب على لهذا المطلب ، غير أن تفشى العصبية بين قبائل مضر ، لم يمكنها من الاجتماع جميعا في يوم واحد للقتال ، فحدد لكل قبيلة منها يوماً تقاتل فيه (٣) .

(١) انظر في هذه الأخبار المصدر السابق ، وأيام العرب في الإسلام ٣٥١ — ٣٧٨ . بيض البلد : مثل يضرب في الذلة ، يقال : أذل من بيضة البلد ، وهى بيضة النعامة التى تتركها (القاموس المحيط ٢ / ٣٢٥) . المَحُ : خالص كل شيء .

(٢) وقعة صفين ٣١٢

(٣) راجع تفصيل هذه الأخبار في : وقعة صفين ٣٠٨ — ٣١٢

هى إذن عصبيات ثلاث ، المضرية ، والرعية ، واليمنية ، اتخذ منها هذا الشاعر مادة لشعره القبلى .

وورث العصر الأموى هذه العداوة القبلية ، وعمل خلفاؤه على استغلالها فى دعم ملكهم وسياستهم ، فما دام الملك وتمكن السلطان هو جل غايتهم ، فلتكن الوسائل إلى هذه الغاية ماتكون ، ولو بالجور على الدين ، وبث الفرقة بين المسلمين ؛ لشغل بعضهم ببعض ، وبهذا توارى الحرج الدينى ، والعدالة المثالية ، والقضاء على الحمية الجاهلية ، وكلها من الركائز التى سارت عليها السياسة فى العصر السابق ، « وعادت الحياة الإسلامية فى ظل الأمويين خاضعة لعوامل فيها عناصر جاهلية ، وأخرى إسلامية ، ولكنها تتسم جميعا بسمة واحدة عامة ، هى ملاءمتها للسياسة القائمة ، وخضوعها لنزعاتها ... فالعصبيات القبلية تقوى ، وتستأنف نشاطها القديم ، وتبلغ فى آثارها ، درجة جاهلية ، أو تزيد » (١) .

كانت هذه السياسة من بنى أمية إيذانا برفع سوط الإسلام عن العصبية ، وكسر القيود التى فرضت عليها أيام النبوة والراشدين .

ولم يكن الشعراء بدعا بين قومهم ، وإنما كانوا صورة منهم ، بل لعلهم كانوا صورة أكثر بروزا ، فعاشوا ، كما كانت قبائلهم تعيش ، حياة قبلية ، وخضعوا ، كما خضع قومهم ، للعصبيات القبلية ، وتركوها توجه حياتهم وفنهم الوجهة التى ترتاح لها قبائلهم ، واستطاعوا أن يستغلوا هذه الحياة القبلية ، ومانتطوى عليه من عصبيات فى شعرهم ؛ ليكونوا — كما كان آبائهم وأجدادهم من الشعراء فى العصر الجاهلى — الألسنة الناطقة لقبائلهم ، المعبرة عن حياتها الاجتماعية ، وعن علاقاتها بعضها ببعض .

وهكذا استرد الشعراء حريتهم الكاملة ، فى الضرب على أوتار التعصب القبلى الحساسة ، وعاودهم داء آبائهم ، داء العصبية القبلية اللعين .

فى ظل هذه البتجوحة التى أتاحتها سياسة الأمويين ، أخذت القبائل تتذكر ماكان بينها من خصومات ، أو ثارات فى الجاهلية ، وتحبى ذكر ماكان من أيام وانتصارات ، فتجددت الضغائن والعداوات ، وأدى هذا إلى إعادة إشعال نار الحروب

القبلية واستئناف الغارات للانتقام حيناً ، وللسلب والنهب حيناً ، تسيطر عليهم روح البداوة الجاهلية ، والعصبية القبلية ، لا يردعهم سلطان ، ولا يأبهون لدين ، بل قد يتجاهلون آصرة النسب .

ويصور القطامي ^(١) التغلبى هذه الردة الجاهلية ، في حياة القبائل العربية في العصر الأموي ، في قوله : ^(٢) .

فمن تكن الحضارة أعجبتُهُ فأَيُّ أناسٍ باديةٍ ترانا ؟
ومَنْ رَبطَ الجحاشَ فإنَ فينا قنّاً سلباً وأفراساً حساناً
وكُنْ إذا أغرَنَ على جنابٍ وأعوزهنَّ نَهَبٌ حيثَ كانا
أغرَنَ من الضُّبابِ على حُلُولٍ وضبّةٌ إنه منَ حانِ حانا
وأحياناً على بكرٍ أحنينا إذا مالمَ نَحْذِ إلا أخانا

فهذا الشاعر يتحدث بلسان قومه ، فيذكر أنهم كانوا يغيرون على الأحياء ، والقبائل النازلة حولهم ، حتى شتوهم وأفقروهم ، بالنهب مرة بعد مرة ، وأنهم لاعتيادهم الغارة ، لا يصبرون عنها ، فإذا لم يجدوا من يغيرون عليه من الأبعد ، أغاروا على الأقارب ، وهذه صورة تعيد إلى الأذهان صورة الحياة القبلية في العصر الجاهلي .

وقد أشرنا في مقدمة هذه الدراسة ، إلى أهم الظروف الاجتماعية التي أسهمت في تشجيع العصبية القبلية ، وكشف النقاب عن وجهها البشع القبيح ، الذي شوه الحياة الإسلامية ، وكان من عوامل تصدع وحدتها في هذا العصر .

ويطول بنا الحديث ، لو ذهبنا نتتبع الأسباب المباشرة ، وغير المباشرة ، التي أدت إلى خلق — أو بعث — الخصومة بين القبائل ، بعضها مع بعض ، أو بين الفروع المختلفة

(١) ابو سعيد عمير بن شبيب بن عمرو بن عباد من بني جشم بن بكر ، ثم من تغلب ، شاعر أموي فحل غزل والقطامي (بضم القاف وفتحها) لقب غلب عليه ، وكان نصرانياً ، ثم أسلم ، وهو أول من لقب صريع الغواني ، وله مديح في بعض عمال بني أمية ، وبخاصة في زفر بن الحارث الكلابي . انظر : الأغاني ٢٠ / ١١٨ والشعر والشعراء ٢٢٧ ومعاهد التنخيص ١ / ٦٤ والتذكرة السعدية ١٤٢ ومراجع ترجمته في هامشها وطبقات ابن سلام ٥٣٥ (المدني)

(٢) شرح ديوان الحماسة للرزوقي ١ / ٣٤٧ والكامل للمبرد ١ / ٤٦ . في البيت الأول يفضل أهل البادية على أهل الحضارة . الجحاش : جمع جحش ، وهو مهر الفرس ، قناسلباً : يعني طوالاً . جناب : يريد ما يجاورهم من القبائل . الضباب : مجموعة من القبائل . حلول : الحلات النازلة حولهم . من حان حان : يعني من قدر له الهلاك بغزونا فقد هلك .

للقبيلة الواحدة ^(١) ، ونكتفى بالإشارة إلى أهم العصبية القبلية الرئيسة في هذا العصر ، وهى : القيسية ، والتميمية ، والتغلبية ، والبكرية ، واليمينية .

— ٣ —

كانت قيس القاسم المشترك في الخصومة بين هذه القبائل جميعا ، فقد خاصمت تيمما (وهى مضرية مثلها) .

أولا : لاختلاف موقفهما السياسى من الدولة الأموية : حيث ناصرت قيس أعداء الأموية ، ووقفت غالبا في الصفوف المناهضة للأمويين ، وخاصة أيام ابن الزبير ، الذى انحازت قيس إلى جانبه ، ودعت إلى خلافته ، وحاربت من أجل نصرة دولته ، الأمويين واليمينية في مرج راهط ، بزعامة الضحاك القيسى ، وزفر بن الحارث الكلانى — كما مر — . بينما انحازت تميم إلى الأمويين أعداء قيس ، وأسهمت في الجيوش الأموية التى اشتبكت مع القيسية في العراق ، وكان لها بلاؤها معهم .

وثانيا : لأحداث وثارات قبلية وقعت بينهما ، أهمها : ماحدث من أن قتيبة بن مسلم الباهلى القيسى قتل جماعة من بنى تميم يعرفون ببني الأهتم ، فقتله بهم وكيع بن حسان بن قيس بن أبى سؤد اليربوعى التميمى ، كما قُتل عبد الله بن خازم السلمى القيسى أيضا ، على يد وكيع بن عُميرة القرئعى التميمى ، وبذلك استعرت العلوة بينهما .

وكان من نتائج هذه الخصومة ، أيام بين أحياء من القبيلين ، تبعها انتصار شعراء كل قبيل لقبيله ، كالخصومة بين بنى مجاشع التميميين ، وبنى جعفر بن كلاب القيسيين ، وفيها وقف الفرزدق فحل مجاشع يهجو الجعفرين ، بعد أن عرف مثالبهم من عمرو بن لجأ التميمى ، وكان شاعرا عارفا بأيام العرب ومفاخرها ومثالبها ، وقال قصيدته التى مطلعها :
عرفت بأعلى راس الفأو بعدما مضت سنة أيامها وشهورها
ونفض شاعر الجعفرين ذو الأهدام متوكل بن عياض الجعفرى الكلانى يهجو المجاشعيين التميميين ^(٢) ، فقامت للشعر جولة في هذا الميدان القبلى .

* * *

(١) للموقوف على أهم هذه الأسباب راجع : الأغاني ١١ / ٥٥ ومابعدها ، ١٧ / ١١ ومابعدها ، ٢٠ /

١٢ ومابعدها ، والعقد الفريد ٣ / ٣٠٣ ومابعدها (الجمالية) ، والعمدة ٢ / ١٥٩ ومابعدها ، وأيام العرب في الإسلام في مواضع متفرقة .

(٢) انظر نقائص جرير والفرزدق (أبو عبيدة) ٥١٢

وكانت لقيس خصومة مع تغلب أيضا (وهما عدنانيتان) :

أولا: لأسباب اقتصادية ، فقد نزلت قيس قُتْسرين بالجزيرة من العراق ، عقب موقعة مرج راهط ، واعتصم زعيمها زفر بن الحارث الكلابي — بعد مقتل الضحاك — بقرقيسياء ، وكانت الجزيرة موطن تغلب — حيث كانت منازلها بين الخابور والفرات ودجلة ^(١) — ، فلما جاورتها قيس ، رأت في هذا الجوار مزاحمة لها في ديارها ومراعيا ، ومصالحها الاقتصادية ، فغضبت ، وبخاصة بعد أن أساءت قيس جوارها ؛ بإغارة عُمير ابن الحُباب السُلَمي ومعه جماعة من بني حُرَيْش ، على قوم من بني تغلب ظلما وعدوانا ، فانتقمت تغلب لنفسها بقيادة شُعَيْث بن مُليك التغلبي ، بالإغارة على بني الحُرَيْش القيسيين ، وقوم من نُمَيْر ، فقتل فيهم التغلييون ، واستاقوا ذَوْدًا لامرأة منهم يقال لها أم الهيثم ، فمانعهم القيسيون فلم يقدروا على منعهم ، وفي ذلك يقول الأخطل :

فإن تسألونا بالحريش فإننا مُنينا بُنوكِ منهم وفُجُورُ
غداة تحامتنا الحريش كأنها كلاب بدت أنيابها لِهَرِيرِ
وجاءوا بجمع ناصري أم هيثم فما رجعوا من ذودها ببيعير

ولما استحكم الشر بين قيس وتغلب ، وعلى قيس عمير بن الحباب ، وعلى تغلب شعيث ، غزا عمير بني تغلب وجماعتهم بماكسين من الخابور فاقتتلوا قتالا شديدا ، وهي أول وقعة لهم ، فقتل من بني تغلب خمسمائة ، وقتل شعيث ، وكانت رجله قطعت ، فقاتل حتى قتل ، وهو يقول :

قد علمت قيس ونحن نعلمُ أن الفتى يقتل وهو أجْدَمُ ^(٢)

ثم تبودلت الأيام والغارات بين القبيلين ^(٣) ، واستحكمت الخصومة بينهما .

ثانيا : لدواع سياسية :

فقد انتهزت تغلب فرصة العداوة السياسية بين قيس والأمويين ، فانضمت إلى أعداء قيس ، نكاية فيهم .

(١) راجع ابن الأثير ٤ / ٣١٠ (بيروت)

(٢) راجع في هذه الأخبار ابن الأثير ٤ / ٣١٠

(٣) انظر خبر هذه الأيام والغارات ونتائجها في الأغاني ٢٠ / ٢١ ومابعدا ، وابن الأثير ٤ / ٣٠٩

ومابعدا (بيروت) .

وكانت هذه العداوة هي التي دفعت الأخطل — شاعر تغلب — إلى مهاجمة جرير ، الذى كان مواليا لقيس فى شعره — مع أنه تميمي — حتى عد شاعر قيس المناضل عنها ، فكانت المهاجمة بينهما فى كثير من جوانبها تأريخا للعداوة بين قيس وتغلب من ناحية ، والعلاقة بين كل منهما وبين الأمويين من ناحية أخرى ، كما أنها تفسر لنا انتصار الأخطل للفرزدق ضد جرير فى مهاجمتهما ، ودخوله بين هذين الفحلين التميميين ، ولأسيما أن عبد الملك بن مروان كان يقدم الأخطل ، ويعدده شاعر أمير المؤمنين ، لإشادته بفضل الأمويين ، ولموقف قومه تغلب معهم ضد القيسيين ، وإن كانت تغلب نفسها كانت ترى أن حلفها مع الأمويين يعود إلى صالحها ومنفعتها ؛ ولذا لما سعى بشر بن مروان — وكانت أمه قيسية — إلى إصلاح ما بين قيس وبنى أمية ، ونجح فى أن تتصل قيس بأخيه عبد الملك ، غضب الأخطل ، وتوعد الخليفة ، وحذره القيسية ، كل ذلك خشية أن تذلل تغلب بفقد حماة الأمويين ، أو تتعرض للإهمال أمام وحدة قيس وأمية ^(١) .

وهكذا تأثرت العداوة بين قيس وتغلب ، واندلعت نيران الحروب بين قيس بزعامة الجحاف بن حكيم وزفر بن الحارث الكلاني ، وبين تغلب ، وكثرت الأيام الشنيعة بينهما ، وغلت كل منهما فى التنكيل بالأخرى .

* * *

وأما الخصومة بين قيس وكتب واليمنية بعامه ، فترجع فى أصولها إلى أيام أن نزلت قبائل من قيس الشام أثناء الفتوح الإسلامية ، فزاحمت قبيلة كتب وأخواتها من القبائل اليمنية بالشام ، واشتد الصراع بين العصبيتين ، وحرصت كل منهما على أن تكون ذات سلطان نافذ فى هذا الإقليم ، حتى لقد أوشكت كلتاهما أن تظفر بالخلافة ^(٢) ، لولا تنازل كتب عن سلطانها للأمويين بزعامة مروان بن الحكم ، وتنازل قيس لابن الزبير بزعامة الضحاك بن قيس وزفر بن الحارث ؛ وذلك أيام الجابية ، وبخاصة موقعة مرج راهط

(١) انظر نقائض جرير والفرزدق ٤٠١ وديوان الأخطل ١٠ ، ١٠٥

(٢) انظر نقائض جرير والأخطل ١٠ ، ٧ ، ١٥

التي انتهت بهزيمة قيس وقتل زعيمها الضحاك ، وقتل معه أشراف من قيس (١) ، وفي ذلك يقول عمرو بن مخالة الكلبي (٢) :

بكى زفر القيسى من هلك قومه بعبرة عين ما يجف سؤجوها
يكي على قتلى أصيبت براهط تحاونه هام القفار وبومها

ومع أن هذه المعركة كانت تصور صراعا بين سياستين : الأموية ، والزيرية ، وأنها أدت إلى نتائج سياسة هامة ، ثبتت دعائم الحكم الأموي ، وكانت نصرا سياسيا حاسما للأمويين ، فقد أصلت العداوة بين قيس واليمنية ، وبخاصة كلب بالشام ، واستعر أوار هذه العداوة ، بسبب الثارات التي خلفتها هذه الحرب في الفريقين (٣) ، ولذا قام خلفاء الضحاك بغارات مفاجئة على قبائل اليمن ، ليثأروا في حرب قبلية ، لقتلى مرج راهط ، ورد عليهم اليمينيون بغارات لاتقل عنها هولاً وبشاعة ، وظل هذا العداء قويا بين القيسية واليمنية ، حتى بعد هذا العصر ، وانتقل مع فروعهما في البلدان الإسلامية الأخرى .

كانت هذه العصبية ، وغيرها من العوامل التي أدت إلى بث الفرقة بين الجماعة الإسلامية ، التي وصل بينها الإسلام ، فشعراء ربيعة يطيطون الأشعار التي تنال من المضرة وتهيج نفوسهم ، وتوجب الغضب في قلوبهم ، فيتصدى لهم شعراء مضر — وعلى رأسهم جرير التميمي — بألحان يفتخرون فيها بقبائلهم ، وشعراء المضرة ينددون باليمنية ، فيندفع شعراء اليمنية ليردوا عليهم ، وليثبتوا لهم ولقبيلهم الفضل والشرف والمجد (٤) .

وقامت للشعر في هذه الخصومات دولة ، فشعراء القبائل يتهاجون ، ويتفاخرون ، ويحسمون ، وقبائلهم من خلفهم تؤيدهم بانتصاراتها ، أو تمدهم بالاعتذار عن كبواتها ، والأمل في الانتقام ، والأخذ بثاراتها ...

(١) قيل بلغ عدة من قتل مع الضحاك بن قيس الفهري في هذا اليوم ثلاثة آلاف . انظر : العبر للذهبي /

(٢) الطبرى ٧ / ٤٢

(٣) تاريخ الشعوب الإسلامية ١ / ١٥٧

(٤) انظر في نماذج من أشعار هذه العصبية : وقعة صفين ١٨٠ — ١٨١ ، ٣١٠ — ٣١٣ ، ٤٥١

وفاز إقليم العراق بأوفر نصيب من شعر الخصومات القبلية وشعرائها ، فقد كان التقسيم القبلي واضحا في مدينتيه : البصرة والكوفة — كما أسلفنا — وعاشت القبائل في أقسامهما وخططهما محتفظة بكيانها ، وعصبياتها الجاهلية القديمة ، متخذة من سوق المرید — بالبصرة — والكناسة — بالكوفة — ميدانا للتهاجي والتفاخر .

وبذا جمع العراق بين أكثر نتائج السياسة الشعرى ، وأغلب نتائج العصبية الشعرى أيضا ، يقول الدكتور شوق ضيف : ^(١) « فالشعر الذى وجد في العراق لعصر بنى أمية ، إما شعر سياسى ، وإما شعر قبلى » حتى كاد العراق يستقل بأكثر ماجاءنا من شعر العصر الأموى .

ولنتقدم لدراسة بعض نماذج من الشعر القبلى القائم على هذه العصبيات التى ذكرنا ، وعلى ضوء دراستها وتحليلها ، يمكن أن ندرك قيمة هذا الشعر ، ومكانته من الشعر العربى فى مساره التاريخى من ناحية ، ثم طابعه العام وسماته الفنية التى تحدد حظه من التطور أو الجمود من ناحية أخرى .

— ٤ —

أ : بين قيس وتميم :

قال الفرزدق (وهو تميمى) بعد مقتل قتيبة بن مسلم الباهلى القيسى ، على يد وكيع بن حسان التميمى ، فى وقعة بينهما ، يفخر بتميم ، ويهجو قيسا ، ويعيرها ، ويسخر منها ؛ لانقيائها لقتيبة ، الذى كان شؤما عليها ^(٢) :

(١) التطور والتجديد ٤٥

(٢) ديوانه ٨٥٣ . الأهتام : بنو الأهم بن سنان بن خالد بن منقر التميمين ، كان قتيبة قد قتل جماعة منهم . أبانا بهم : قتلناهم . الحوامم : جمع حائم وهو العطشان . ابن خازم : عبد الله بن خازم السلمى ، قتله وكيع القرهيمى التميمى سنة ٧٢ هـ ، لم تدع لهم أنوفا : كناية عن الذل ، وكذا : عطست بأجدع راغم ، والأجدع : الأنف المقطوع . عضها بالأباهم : كناية عن الندم ، والأباهم : جمع إبهام . يوم الأرقام : هو يوم الحشاك — سنة ٧٠ هـ ، الذى كان تغلب على قيس ، يعمرهم الشاعر به ، والأرقام : جماعة هم : جشم ، ومالك ، وعمر بن ثعلبة ، ومعاوية والحارث بنو بكر بن حبيب بن غنم بن تغلب وائل . انظر : العمدة ٢ / ١٥٧

أتانى ورخلى بالمدينة وقعة
فدى لسيوف من تميم وفى بها
شفين حزازات النفوس ولم تدع
أبانا بهم قتلى ومافى دمائمهم
كأنك لم تسمع تميمًا إذا دعث
نبحت لقيس نبحة لم تدع لها
فإن تك قيس فى قتيبة أغضبث
وماكان إلا باهليًا مجدعًا
لقد شهدت قيس فما كان نصرها
فإن تقعدوا تقعدوا لئام أذلة
لآل تميم أقعدت كل قائم
ردائى وجلت عن وجوه الأهاتم
علينا مقالاً فى وفاء للائم
وفاء وهن الشافيات الحوام
تميم ولم تسمع يوم الأراقم
أنوفاً ومرت طيرها بالأشائم
فلا عطست إلا بأجدع راغم
طغى فسقيناها بكأس ابن خازم
قتيبة إلا عضها بالأباهم
وإن عدتُم عُدنا ببيض صوام

فالفردق يفخر بقومه بنى تميم ؛ لانتصارهم على قيس فى الوقعة التى كانت بينهما ، التى أذهلت الناس لخطرها ، وفيها تأرث تميم لبنى الأهم ، فاشتفت نفوسهم ، ومحت عنهم لوم القعود عن الثأر ، ماداموا قد ثأروا لقتلاهم بقتلى من قيس ، وإن كانت دماء قيس لا تشفى الغليل ، ولا تنفى بدماء قتلى تميم .

ثم يأخذ الفردق فى تعيير قيس بهزائمها على يد تميم وغيرها ، ويذكرها بيوم من الأيام التى ذاقت فيها عار الهزيمة على يد بنى تغلب .

وإذ كان قتيبة بن مسلم الباهلى ، هو الذى جر قيسا قومه إلى هذه الحرب ، التى أذلهم على يد تميم ، فقد كان بذلك شوماً على قومه ، فقد أثاروا غضب تميم ، التى أذاقتهم مرارة الذل ، وخزى العار ، ولم تكن تميم بذلك معتدية ، لأنها إنما قتلت قتيبة لطغيانه وعدوانه ، فلما انتصرت له قيس ، جرت على نفسها الحسرة والندامة ، وليس لقيس بعد هذه الهزيمة الدامغة إلا أن يتجنبوا القتال ، وهم صاغرون أذلة ، لأنهم إن فكروا فيه ، فسيجدون سيوف تميم البتارة تعمل فى رقابهم .

من هذا التحليل يتبين لنا أن الشاعر يفخر بعزة قومه ومنعتهم وسطوتهم ، وانتصاراتهم فى أيامهم مع قيس ، وأخذهم بثأر قتلاهم ، ويهجو أعداء قومه ، فيعيرهم بالهزيمة ، ويدمغهم باللؤم والذل والعار ، وماباعوا به من الندم .

وهذه المعانى كثيرة الدوران فى الشعر الجاهلى ، وبها ويمثلها كان الشاعر الجاهلى

يفخر بقبيلته ، ويهجو أعداءها (١) .

وعبارة الشاعر هنا عن معاناة شبيهة أيضا بعبارة الشعر الجاهلي ، ففيهما معا القوة والفخامة ، والخلو من التعقيد والتكلف ، ووضوح الطبع ، مع إثارة للفظ الذى يعلو في سماء الفصاحة درجات .

ونحن حين نقرأ هذه العبارات : « فدى لسيوف من تميم » و « شفين حزازات النفوس » و « أبأنا بهم قتلى » و « مافى دمائهم وفاء » و « كأنك لم تسمع تميما إذا دعت » و « لم تدع لها ألوفاً » و « عسقت بأجدع راغم » و « وإن عدتم عدنا بيض صوارم » ... ننسى أننا نقرأ في شعر شاعر إسلامي ، ونعيش معها مستشعرين نغمات جاهلية خالصة ، يعرفها شاعر جاهلي الفكر واللغة والإحساس ، لاشاعر إسلامي ، يعيش في ظل دولة يرفرف عليها علم الإسلام ، وتدين بقيم الإسلام ، التي ترفض هذه النعرة الجاهلية .

وقال الأصم بن الحجاج القيسي في ضمن أبيات يرثي بها قتيبة بن مسلم (٢) :

ألم يأن للأحياء أن يعرفوا لنا بلى نحن أولى الناس بالمجد والفخر
نقودُ تميما والموالى ومذحجاً وأزداً وعبد القيس والحى من بكر
نقتل من شئنا بعزة ملكننا ونجبر من شئنا على الحسيف والقسر

فهو يرى قومه القيسية المقدمين في المجد ، الفاخرين لايفخر عليهم مفاخر ، لأنهم سادة القبائل جميعا من يمنية وربيعة وغيرها ، ملكوا أمرها ، وقادوها فانقادت ، يحكمون في دماء من شاءوا ، ويحملون من شاءوا على الذل والهوان .

وكلها معان تفوح منها العنجهية الجاهلية ، وتصدر عن عصبية قبلية ، لانتليق في مقام رثاء هذا المجاهد الإسلامى قتيبة بن مسلم ، ولكن ماحيلة الشاعر ، وقد غدت العصبية في هذا العصر ، مقدمة في مجال الفخر ، رائجة في مقام الهجاء ، فقتيبة في نظر الشاعر قيسى قبل أن يكون مجاهداً ، وقائدا إسلاميا عظيما .

(١) انظر أمثال هذه المعاني في نماذج من الشعر الجاهلي في : شعر الحرب (د . على الجندي) ٢٠٣ —

(٢) الطبرى ٨ / ١١٢ ولم نثر على ترجمة لهذا الشاعر .

ب — بين قيس وربيعة : (١- قيس وبكر):

كان المَهْزِيرُ بن سلمى الحنفى (من بكر بن وائل) جمع جيشا للإغارة على بنى عقيل ، وبنى كلاب ، وسائر بطون بنى عامر بن صعصعة (من قيس عيلان) فالتقوا عند الفَلَج^(١) فهُزِمَ البكريون ، وقال القحيف العَقِيلِي^(٢) ، يعبر عن بلاء قومه في هذا اليوم ، ويفتخريهم ، ويصف نكابتهم^(٣) :

أَنَا بِالْعَقِيقِ صَرِيحُ كَعْبٍ	فَحَنَّ النَّبْعَ وَالْأَسْلُ النَّهَالُ
ثَلَاثًا ثُمَّ وَجَّهْنَا إِلَيْهِمْ	رَحِيًّا لِلْمَوْتِ لَيْسَ لَهَا ثِقَالُ
وَحَالَفْنَا السِّيَوفَ وَصَافِنَا	سَوَاءَ هُنَّ فِينَا وَالْعِيَالُ
بَنَاتُ بَنَاتِ أَعْوَجَ طَامِحَاتٍ	مَدَى الْأَبْصَارِ عَلَيَّهَا الْفَحَالُ
وَكُرِّدَسَتْ الْحَرِيشُ فَعَارِضُونَا	بَحِيلٍ فِي فَوَارِسِهَا اخْتِيَالُ
وَسَالَتْ مِنْ أَبَاطِحِهَا قَشِيرٌ	بِمَثَلِ أَتَى بَيْشَةَ حِينَ سَالُوا
نَقُودَ الْخَيْلِ كُلِّ أَشَقَّ نَهْدٍ	وَكُلَّ طِمْرَةٍ فِيهَا اعْتِدَالُ
تَكَادَ الْجَنُّ بِالْغَدَوَاتِ مَنَا	إِذَا اصْطَفَتْ كِتَابِنَا تُهَالُ
فَبَتْنَ عَلَى الْعُسَيْلَةِ مُمَسَكَاتٍ	لَهُنَّ غُدِيَّةٌ رَهَجٌ جُفَالُ

(١) الفلج : من منازل بنى عقيل ، وانظر خبر هذا اليوم الذى كان لبنى عامر على بنى حنيفة البكرين في :

الأغاني ٨ / ١٨٠ — ١٨١ ، ٢٠ / ١٤١ — ١٤٢

(٢) القحيف بن خمير بن سليم التَّدَى بن عوف من بنى خفاجة بن عمرو بن عقيل ، ثم من بنى عامر بن

صعصعة : ذكره ابن سلام في الطبقة العاشرة من فحول الشعراء الإسلاميين . وانظر : ابن سلام ٧٧٠ ، ٧٩١ ومعجم الشعراء ٣٣١ وانظر العمدة ٢ / ٣٩ وفيه « النحيف (تحريف) بن سليمان العقيلي .

(٣) ابن سلام ٢ / ٧٩٣ وما بعدها (المدنى) العقيق : وادٍ باليمامة لبنى عقيل . كعب : هو ابن ربيعة بن عامر بن

صعصعة . النبع : شجر تتخذ منه القسي . الأسل النبال : الرماح المتعطشة للدماء . ثلاثا : يعنى أنهم ساروا إلى بنى حنيفة صباح الليلة الثالثة . الثفال : جلد يمسح تحت الرحى ليقى الطحين من التراب ، يريد حرا شديدة . بنات أعوج : أى من نسل أعوج وهو في أساطير العرب : فرس عتيق منه أنجب خيول العرب ، يعنى أنها خيل عتاق نجيبات ، متمرسة للحروب ، لا يملؤها إلا كل فحل نجيب . كردست : جعلت خيلها ككتاب . الحريش وبنو قشير : بطون من بنى عامر . أتى بيشة : سيل ينحدر من وادى بيشة . أشق : طويل . نهد : جسيم . طمر : طويل القوائم خفيف متوثب الريح : الغبار . جفال : مجتمع كثيف . أبيض ذو حواش : يعنى الفجر . بين حرارة : بأجواف الخيل حرارة من طول الجرى . وبنا اعتلال : في صدورنا حقد وعداوة تلتب . جحدلت : صرعت . حنانهم : أراد رئيسهم الذى يلتفون به . أحوالوا : حال عليهم الحول . رجال : جمع رعييل : وهى القطعة المتقدمة من الخيل والجراد وسائر الطير ، يعنى مسرعات متقدمات .

فلما شقَّ أبيضُ ذو حواشٍ له حالٌ وللظَّلماءِ حال
صبحناهم نواصيهنَّ شُعْثًا بهنَّ حرارةٍ وبنّا اغتلال
فلما جُحدلت مائتان منهم وفرَّ حناهُم عنهم فزالوا
فصاروا بين مُمتنٍّ عليه ومنصوبٍ له جذع طُوال
تكفُّنُهُم حنيفةٌ بعد حولٍ وكيف يكفنون وقد أحالوا؟!
أمنكم يا حنيف !! نعم لعمري لِحَيٍّ مَخضوبةٍ و دَمٍ سجال
كَأَنَّ الخيلَ طالعةٌ عليهم بفرسان الصبح قطعاً رِعال

إن الشاعر هنا مشغول بحرب قبلية ، باعثها وموججها التعصب للقبيلة ، حيث تستجيب بطونها جميعا لاستغاثة بطن منها ، تماما كما قال الشاعر الجاهلي قُرَيْط بن أُنَيْف ، أحد شعراء بلعبر (١) :

قومٌ إذا الشَّرُّ أبدى ناجذيه لهم طاروا إليه زرافاتٍ ووحدانا
لايسألون أحاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا

ومن هنا لم يخرج الشاعر فيما حكاه من خبر هذه الحرب ، وما فتحز به من فعال قومه ، ونكايتهم في أعدائهم ، عما كان يتحدث به نظراؤه من شعراء القبائل في الجاهلية ، فالاستجابة للصراخ سريعة ، وعدة الحرب مكتملة ، وأبطال القبيلة يتحركون شوقا إلى نزال الأعداء ، مقبلين من كل منازلها ، ثم فخر بالنصر ، وتنكيل بالعدو ، وسخرية لاذعة مما أصابه على أيدي أبناء قبيلة الشاعر الشجعان .

٢- قيس وتغلب :

قال عُمر بن الحباب السُّلَمي القينسي (٢) ، وقد استبطأ القبائل القيسية ، حين تكاثرت عليه رجال تغلب ، فهزم في يوم يقال له «يوم الثُّرثار الأول» (٣) ، يتحدث عن خذلان

(١) شرح الحماسة للمرزوقي ١ / ٢٧ - ٢٩

(٢) عمر بن الحباب بن جعدة بن إياس ، من بني بهثة بن سُلَيم ، قتلته بنو تغلب يوم الحشاك (وهو تل قريب من الشريعة بالجزيرة) وذلك سنة ٧٠ هـ ، انظر ابن الأثير ٤ / ٣٩٧ - ٣٩٨ (بيروت) ومعجم الشعراء ٢٤٥ والموشح ١٣٨

(٣) الثُّرثار : نهر ينبع من شرق منجبار ، ويصب في دجلة ، وانظر خبر هذا اليوم في ابن الأثير ٤ / ٣١١ والأغاني ١١ / ٥٩

بعض القبائل القيسية ، ويفتخر بقومه بنى سليم^(١) :

أَنَادِيهِمْ وَقَدْ خَذَلْتُ كِلَابٌ وَحَوَّلِي مِنْ رِبْعَةٍ كَالْجِبَالِ
أَقَاتْلُهُمْ بِحَيِّ بَنِي سُلَيْمٍ وَأُعَصِّرُ كَالْمَصَاعِبِ النَّهْالِ
فِدَى لِفَوَارِسِ الثَّرَارِ قَوْمِي وَمَا جَمَعْتُ مِنْ أَهْلِي وَمَالِي
فَأَمَّا أُمْسِي قَدْ حَانَتْ وَفَاتِي فَقَدْ فَارَقْتُ أَعَصِرُ غَيْرَ قَالِ
أُبْعَدَ فَوَارِسِ الثَّرَارِ أَرْجُو ثَرَاءَ الْمَالِ أَوْ عَدَدَ الرِّجَالِ ؟!

فالشاعر غاضب على من خذله من القبائل القيسية مثل كلاب وأسد وتيم^(٢) المضرية ، معتر بقومه بنى سليم ، وبموقفهم الشجاع في هذه الموقعة ، يفديهم بأهله وماله ، وهو إذ يتنبأ بوفاته ، يعلن أنه يموت قرير العين ، فخورا بفارسان قومه ، الذين ضحوا بأرواحهم ، دفاعا عن شرف قبيلتهم وكرامتها ؛ لأن أمثال هؤلاء لاتحلو الحياة من بعدهم .
والأبيات — كما نرى — تدور حول خذلان الأعوان ، والتضحية في سبيل شرف القبيلة .

وقد عالج الشعر الجاهلي هذين المعنيين^(٣) ، ولو لم نعرف أن هذا الشعر قيل بعد الإسلام ، لما ترددنا في نسبته إلى العصر الجاهلي ، لأن الشاعر يتناول فيه معاني جاهلية ، بأسلوب جاهلي ، ويرسم خطأ الجاهليين من ذكر القبائل والأيام .

ولما قتل عمير بن الحباب يوم الحشاك (سنة ٧٠ هـ) انتقم له زفر بن الحارث الكلبي من بنى تغلب في يوم يدعى « يوم الكحيل »^(٤) حيث هزم جموع تغلب ، وقتل كثيرا منهم ، وغرق آخرون في دجلة فارين ، وبقر بطون نساء منهم ، وأسر مائتين قتلهم صبرا ، وقال في ذلك^(٥) :

(١) الأغاني ١١ / ٥٩ كلاب وسليم وأعصر قبائل قيسية . ربيعة : قبيلة كبرى إليها تنتسب تغلب .
مصاعيب : جمع مصعب : وهو الجمال الذي يترك للفحلة بغير عمل . غير قال : غير مبالغ .
(٢) في خبر هذا اليوم أن عميرا استنجد هذه القبائل فلم تنجده . انظر ابن الأثير ٤ / ٣١١ .
(٣) انظر : شعر الحرب ١٩٨ ، ٢٣٠ .
(٤) الكحيل : من أرض الموصل في جانب دجلة الغربية ، وفي يومه انظر ابن الأثير ٤ / ٣١٨ .
(٥) ابن الأثير ٤ / ٣١٨ .

ألا يا عين بكى بانسكاب وبكى عاصماً وابن الحباب
 فإن تلك تغلبت قتل عميراً ورهطاً من غنى في الحراب
 فقد أفتى بنى جشم بن بكر ونمرهم فوارس من كلاب
 قتلنا منهم مائتين صبراً وماعدلوا عمير بن الحباب
 وقال ابن صفار المحاربي في اليوم نفسه (١) :

ألم تر حرينا تركت حبيباً محالفها المذلة والصغار
 وقد كانوا أولى عزراً فأضحوا وليس لهم من الذل انتصار

فالشاعر الأول يتعزى عن قتل عمير بأن قومه الكلابيين القيسيين قد انتقموا له ،
 وأخذوا بثأره ، بإفناء بنى جشم ، وغيرهم ، وبمن قتل من تغلب صبراً ، مع أن هؤلاء
 جميعاً ليسوا كفئاً لدم عمير .

والشاعر الآخر يشير إلى جانب آخر من نكاية القيسيين في تغلب ، فقد دمغوا
 هذا القبيل منهم (بنو حبيب) بالمذلة والعار ، فلن تقوم لهم قائمة في ميادين الشرف بعد
 هذا اليوم .

وواضح أن الشعارين يتحدثان بمعان قبلية ، وأن شعرهم هذا ، ماهو إلا انتصار
 للعصية القبلية ، فدم قتلهم لإبعادله دم من قتل من أعدائهم ، مهما كثروا ، ومهما
 تنوعت صور قتلهم ، وانتصار قبيلهم ، ترك أعداءهم يتجرعون مذلة الهزيمة وعارها ،
 وحتى الأنفاظ والتراكيب ، مأخوذة من قاموس الشعر القبلي الجاهلي ، لا تخرج عنه ، ولا
 تضيف جديداً إليه .

والحق أن عصبية القيسية بزعامة عمير السلمى ، كانت شديدة الوطأة على
 تغلب ، فقد اشتط عمير في إغارته عليهم ، كما أوغل في الانتقام منهم ، وبخاصة في يوم
 « الثرثار الثاني » أو يوم « الخابور » (٢) ، الذى قتل فيه عدد كبير من رؤساء تغلب
 وأشرفهم .

(١) ابن الأثير ٤ / ٣١٩ حبيب : بطن من تغلب .

(٢) يوم لقيس على تغلب . انظر خبره في الأغاني ٢٠ / ١٢٧ وابن الأثير ٤ / ٣١٢ ، تحت عنوان « يوم الثرثار

وبلغ من شناعة هذا اليوم أن لام بعض القيسيين عميرا ، لوماً شديدا ، فكان من لاهم زفر بن الحارث الكلابي (من هوازن القيسية) ، فقال في ذلك (١) :

ألا من مبلغ عنّي عميراً رسالة عاتبٍ وعليك زارٍ
أترك حتى ذى كلجٍ وكلبٍ وتجعلُ حدَّ نابك في نزار
كمعمد على إحدى يديه فخانتُه بوهي وانكسار

وكانه يحثه على الاتجاه إلى حرب اليمنية ، أعداء القيسية التقليديين ، وأن لا يجعل همهم إذلال تغلب ؛ لأنها نزارية مثل قيس ، وفي إضعافها وإذلالها ، إضعاف للعرب النزارية .

وعن هذا الإدراك أيضا صدر القطامي الشاعر التغلبي ، في تحسره على ما كان من حروب قاسية مهلكة منهكة بين قيس وتغلب ؛ إذ هما أبناء أب واحد ، فكلتاهما من نزار بن معد بن عدنان . يقول القطامي (٢) :

ألم يحزنك أن حبال قيسٍ وتغلب قد تبايتا انقطاعا
أمور لو تدبرها حليمٌ إذا لنهى وهيبٌ ما استطاعا
ولكن الأديم إذا تفرى بلى وتعيناً غلب الصنّاعا
ومعصية الشفيق عليك مما يزيدك مرة منه استماعا
وخير الرأي ما استقبلت منه وليس بأن تبعه أتباعا

فالقطامي حزين على تقطع حبال القرابة والمودة بين قومه التغلبيين ، وأبناء العمومة القيسيين ؛ ولذا فهو يدعو القوم جميعا إلى الهوادة فيما بينهما ، والتدبر لعواقبه ، كما تدبر هو فحذر وخوف من سوء العاقبة ، ثم يدركه التشاؤم ، فيسلمه إلى اليأس من صلاح ما بين القوم ؛ وكأنه يرى أن الخرق قد اتسع على الراقع ، ومع ذلك فهو يسترسل في النصيح ، لأن الناصح الشفيق إن عصى مرة ، وقع لمن ينصحهم من سوء ما يجعلهم أكثر حرصا على استماع نصحه والعمل به مرة أخرى ، ثم إن العاقل هو الذي يستقبل الأمر بالتدبر والنظر ، فيقف على عواقبه ، وشر الرأي انتظار الأمر حتى يقع ، ثم ينظر في أدباره وأواخره .

(١) الأغاني ٢٠ / ١٢٨ وابن الأثير ٤ / ٣١٢

(٢) ابن سلام ٥٣٨ (المدنى) . تفرى : تشقق وتقطع . تعينت القرية : صار فيها دوائر رفيقة توشك أن تنتهك .

الصناع : الخاذق بالعمل .

ح : بين قيس واليمنية :

— أغار عُمير بن الحباب على كلب واليمنية فنهب وقتل ، فعبا ابن بَحْدَل الكلبى قومه وهزم عمير ، فى بنى ثُمَيْر وغيرهم من القيسية ، وتعرف هذه الواقعة بـ « يوم دُهمان » ، وقال فى ذلك الشاعر اليمنى مُنْذِرُ بن حَسَّان (١) :

وبادية الجَوَاعِرِ من ثُمَيْرِ تُنادى وهى سافرة النَّقَابِ
تُنادى بالجزيرة يَالْقَيْسِ وقيسٌ بشس فتیان الضَّرَابِ
قتلنا منهم مائتين صَبْرًا وألفاً بالتَّلَاعِ وبالرَّوَايِ
وأُفْلِتْنَا هَجِينُ بنى سُلَيمِ يُفَدِّى المُّهَرَّ من حب الإِيَابِ
فلولا الله والمُهرُ المُفَدِّى لَعُوذِرَ وهو غِرْبَالُ الإِهَابِ

يهجو الشاعر قيسا بالجبن والقعود عن نجدة بنى قومه ، ويفخر بما أصابه قومه من أعدائهم ، ويسجل على قائد القيسية عمير عار الفرار من المعركة ، وأنه ماكان ينجو لولا فراره .

وهذه الأبيات كسابقتها ، تتحدث عن معان جاهلية بأسلوب جاهلى ، ولن نخدع بذكر الله فى البيت الأخير ؛ فطالما تردد لفظ الجلالة فى أشعار الجاهليين ، من ذلك قول عبد يَغُوث بن الحارث فى يوم الكُلابِ الثانى ، وهو من أيام العرب فى الجاهلية (٢) :

جزى الله قومى بالكلاب ملامَةً صَرِيحَهُمُ والآخِرِينَ المَوَالِيَا

— كان حُمَيْد بن الحُرَيْث بن بَحْدَل الكلبى قد أوقع بفزارة القيسية ، وقتل منهم مائة ونيفا ، فقال سِنان بن جابر الجُهَنِيّ يفخر بما فعلت كلب بفزارة (٣) :

يأخُت قيسِ سَلَى عَنَا عَلَانِيَةً كى تُخْبِرَى من بيان العلم تَبْيَانَا
أنا ذُو حَسْبٍ ومال ومكرمة يوم الفَحَّارِ وخيرُ الناسِ فِرسانَا
منا ابنُ مُرَّةٍ عمرو قد سمعت به غيث الأرامِلِ لا يُرَدِّينَ ماكانَا

(١) الأغاني ٢٠ / ١٢٣ . بادية الجواعر : يعنى منازل ثَمير . هجين بنى سليم : يعنى عمير بن الحباب السلمى . غريال الإهاب كناية عن قتله وغزيق بدنه ، ومنذر بن حسان بن مالك بن بحدل الكلبى ، وأبوه خال يزيد بن معاوية وقد مرّ ذكره .

(٢) العقد الفريد ٣ / ٣٥٧ (الجمالية)

(٣) الأغاني ١٧ / ١١٤ ، جزر السباع : اللحم الذى تأكله .

والبَحْدَلِيُّ الذى أَرَدَتْ فوارسُهُ قيساً غداة اللوى من رَمْلِ عَدْنانا
 كائنُ تركنا غداةَ الفاءِ من جَزْرِ للطيرِ منهم ومن ثكلى وثكلانا
 ومن غَوَانِ ثُبَكَّى لاجيمٍ لها بالفاءِ ثُبَكِي بنى عمِّ وإخوانا
 فماذا فى الأبيات إلا الفخر بالحسب والشجاعة فى الحرب ، والنكاية فى الأعداء ،
 والاعتزاز بسادة القبيلة ؟

ونورد هنا أبياتا لعبيد بن الأبرص فى مثل هذه المعانى ؛ لنرى إلى أى حد ينسج
 هذا الشعر على منوال الشعر الجاهلى ، قال عبيد (٢) :

يأَيُّهَا السائلُ عن مجَدِّنا إنك عن مَسْعَاتنا جاهلُ
 إن كنتَ لم تأتِكْ أيأْمُننا فاسألْ تُنبَأُ أيُّها السائلُ
 قومى بنو دُوْدانَ أهلُ التَّهْيَ يوماً إذا أَلْقَحْتَ الحائِلُ
 كم فىهِم من سيدٍ أيِّدِ ذى نفحات قائلُ فاعلُ
 لاجرم السائلُ إن جاءه ولا يَفْى سِيَّه العاذلُ
 والطاعنُ الطعنة يوم الوغى يَذْهَلُ منها البطلُ الباسلُ

إلى آخر أبياته ، التى يتحدث فيها ، أيضاً عن نكاية قومه فى أعدائهم .

ولما دارت دائرة الحرب على قيس فى يوم المرج ، وقتل الضحاك بن قيس ، وقتل
 معه أشراف من قيس — كما مر — قال زفر بن الحارث الكلابى ، متحسراً على هذه
 النتيجة ، متوعداً كلباً بالثأر لقتلى قيس ، معلناً أنه لاهوادة فى الخصومة بعد هذه الموقعة ،
 بين قيس وكلب اليمنية ، محاولاً الاعتذار عن الفرار والهزيمة فى هذا اليوم (٢) :

أَتَذْهَبُ كَلْبٌ لم تَلْها رماحُنا وترك قَتْلَى رَاهِطٍ هِىَ ما هِيا
 لِعَمْرِى لَقَدْ أَبَقْتَ وَقِيعَةَ رَاهِطٍ لِحِسانِ صَدْعاً بَيْناً متائِيا
 فلم تُرْ مِنِّى نَبْوءَةٌ قَبْلَ هَذِهِ فَرارى وتركى صاحِبِى ورائِيا
 فلا صلحَ حَتَّى تُنْجِطَ الخَيْلُ بالقِنا وتُثَّارُ من نِسانِ كَلْبِ نِسانِيا
 ألا لَيْتَ شِعْرى هَلْ تُصِيبُ غارِقى تُنْوَخُا وَحِىً طِىًءٍ من شِفاثِيا

(١) ديوانه (طبعة لندن) ص ١٢٠ . يعفى : يحبس ويمنع . العاذل هنا : العدو .

(٢) ابن الأثير ٤ / ١٥٢ وأيام العرب فى الإسلام ٤٢٢ — ٤٢٦ والطبرى ٧ / ٤١ . حسان : هو حسان بن

مالك بن بحدل الكلبى ، زعيم الكلبية فى هذا اليوم . صاحِبِى : هما شابان من سليم ، جاءت خيل مروان تطلبهما فخافا
 وقالوا لزفر : انج بنفسك ، أما نحن فمقتولان لاجالة ، فمضى زفر وتركهما .

فأجابه عمرو بن المخلاة الكلبي ، قائلا (١) :

بكى زُفَرُ القيسى من هُلُكِ أهله بَعْبَرَةُ عَيْنٍ ما يَجِفُّ سَجُومُهَا
يُبَكِّى عَلَى قَتْلَى أَصِيبَتِ بَراهِطِ تَجَاوَرُهُ هَامُ القِفَارِ وَبُومُهَا
أَبْحَنَّا جِمَمِيَّيَ لِلْحَيِّ قَيْسَ بَراهِطِ وولتْ شِلَالاً واستَيْحَ حَرِيمُهَا
فَمَتَّ كَمَدًا أَوْ عَشَّ ذَلِيلًا مُهْضَمًا بحسرة نَفْسٍ لا تَنَامُ هُمُومُهَا
إِذَا خَطَرْتُ حَوْلَى قِضَاعَةٍ بِالْقَنَا تَحْطِطُ فِعْلُ المَصْعَبَاتِ قَرُومُهَا
خَبَطْتُ بِهِمْ مَنْ كَادَنِي مِنْ قَبِيلَةٍ فَمَنْ ذَا إِذَا عَزَّ الخُطُوبُ يَرومُهَا

فكل هم زفر بن الحارث ، ومناط حسرته ، أن قبيلته قد هزمت ، وأن أعداءها نجوا فلم تطلهم رماحها ، وهو باعتباره فارس القبيلة حزين آسف لاضطراره إلى الفرار ، والتخلي عن أصحابه نجاة بنفسه ، وعذره أن قومه تفرقوا من حوله ، والأعداء قد أخذوا عليه كل طريق ، وتركوه يعدو بفرسه في أعالي الجبال .

هذا هو شغله الشاغل ، أما قضية خلافة ابن الزبير ، ومأصباها من تصدع نتيجة لهذه الهزيمة ، مع أنها الغرض السياسى ، الذى من أجله كانت هذه الوقعة ، فليست ذات صدق فى نفس الشاعر ، ولم تشغل من فكره وهمه — بعد الهزيمة كثيرا ولا قليلا .

وهذا مما يؤكد أن هذه الحروب ، وإن قامت ترتدى زى السياسة ، فإنها قبلية فيما يحوطها من مشاعر ، وماتخلفه من مخازٍ أو مفاخر .

ومن هنا كان رد عمرو بن المخلاة قبليا خالصاً فى السخريّة والتهكم من أعداء قبيلته ، وفيه الاعتزاز ببطولة قومه ، وشدة نكايتهم فى الأعداء ، وفيه التعصب للقبيلة واستشعار الحماية فى ظلها ، فهى التى تدافع عنه ضد من يكيدون له ، وتحميه إذا دهمته الخطوب ، وماعلى غير هذا قامت العصبية القبلية فى العصر الجاهلى .

ومادامت العصبية القبلية هى الخور ، ونصرتها هى الغاية ، فلن تجد فى هذا الشعر وأمثاله ، إلا التردد للمعانى الجاهلية ، والتراكيب اللغوية الجاهلية ، والصور التى لاكها الجاهليون ، فى أشعارهم المعبرة عن العصبية القبلية .

(١) الطبرى ٧ / ٤٢ وابن الأثير ٤ / ١٥٣ (بيروت) .

د : بين بطون من قبيلة واحدة :

— لقد هاجت العصبية القبلية ، وتناطحت القبائل ، ووجدت من حياة هذا العصر الأموي السياسية والاجتماعية ما يشجعها ، ويصفق لها ، ويعيد لها مكانتها الأولى في العصر الجاهلي ، التي كانت تناط بها عزة القبائل وأمجادها ، وشرفها .

وأخذت العصبية القبلية في هذا العصر تضيق وتدنو حتى دخلت بين رجال العشيرة أو القبيلة الواحدة ، حيث ثور الإغارات والحروب بين الأحياء ، ويسقط القتل ، وتطلب الثارات ، حتى غدت الحياة الأموية حياة جاهلية إلى حد كبير ^(١) .

ونسوق هنا بعضا من شعر العصبية القبلية ، بين الحين من القبيلة الواحدة .

— هاجت الحرب بين بنى عامر ، وهم من بنى عذرة من قضاة ، رهط هذبة بن خشرم ^(٢) ، وبين بنى رقاش ، رهط زيادة بن زيد ^(٣) ، وهم من بنى عذرة من قضاة أيضا ، فقال زيادة مفتخراً بقومه ^(٤) :

أنا ابن رقاش وابن ثعلبة الذى	بنى هادياً يعلو الهوادي أعلياً
بنى العز بنينا لقومى فماصعوا	بأسيا فهم عنه فأصبح مُصعبا
فما إن ترى فى الناس أمّا كأمنّا	ولا كأيننا حين ننسبه أبا
ملكنا الملوك واستبحنا جماهم	وكنّا لهم فى الجاهلية موكبا
نَدَامى وأردافاً فلم تك سوقة	توازننا فاسأل إياداً وتغلياً

(١) تاريخ النقائص (الشايب) ص ١٩٠

(٢) ابو سليمان ، أو أبو عميرة هذبة بن خشرم العذرى القضاعى . شاعر فصيح متقدم ، روى عن الحطيئة ، وروى عنه جميل بن معمر العذرى ، كان يعيش في بادية الحجاز ، ولما قتل زيادة بن زيد العذرى القضاعى قتل به قودا أيام معاوية بن أبى سفيان ، فهو أول من أقيّد في الإسلام . انظر : الأغاني ٢١ / ١٦٩ ومعجم الشعراء ٤٨٣ وخزانة الأدب ٤ / ٨٤ ومجالس العلماء للزجاجي ٢٢٨ ومط اللآلى ١ / ٢٤٩ ، ٢ / ٦٣٩ وأمالى القالى ٢ / ٢٦ والاشتقاق ٥٤٧ .

(٣) زيادة بن زيد بن مالك بن عامر بن عبد الله العذرى القضاعى ، اصطحب هذبة مقبلين من الشام في ركب من قومهما ، فكانا يتعاقبان السوق بالإبل ومع هذبة أخته فاطمة ، فارتجز زيادة بفاطمة ، فتخاصما وتهاجيا ، وطلب هذبة غرة من زيادة فلما سنحت قتله ، وكان ذلك أيام عثمان بن عفان ، انظر : الأغاني ٢١ / ١٦٩ والشعر والشعراء ٢٤٩ والتذكرة السعدية ٣١٥ وخزانة الأدب ٤ / ٨٦ .

(٤) شعراء النصرانية ١ / ٩٨ هاديا : يعنى مجدا يعلو الأجناد . ماصعوا : جالدوا

إن روح الجاهلية تطل من هذه الأبيات قوية واضحة ، فما كان الفخر الجاهلى فى أكثر صورته إلا مؤسسا على الاعتزاز بالحسب ومجد الآباء ، وعلو الشرف والمكانة . وهذا الشاعر البدوى أسير هذه التقاليد الفنية لشعر الفخر الجاهلى ، سواء فى الشكل أو المضمون .

— وهناك أمثلة عديدة أخرى للهجاء والفخر القبليين بين حينين من أب واحد ، كالذى قام بين جرير وهو من بنى يربوع من تميم ، وبين غسان بن ذُهَيْل السَّليطى ، انتصارا لبنى جحيش بن جارية بن سَلِيط ، وكلا الحيين من يربوع ثم من تميم ، وكان بين الحيين نزاع وخصومة .

وهناك رجز لجرير يتناول فيه بنى السليط بالهجاء ، فيرميهم بالذلة ، ويلعن نساءهم ذوات الروائح النتنة ، والبطون العكنة الضخمة ، ويشبههن تشبيها قبيحا (١) :

إن سَلِيطاً فى الخسار إآة
أولاد قوم خُلِقُوا أَقْتة
لاتوعدونى يابنى الأصنة
إن لهن نُسيئةً لُعننة
سُوداً مَغَاليمَ إذا بَطْنُة
يفعلنن فعل الأثن المُسننة

وهكذا ينزلق الهجاء القبلى إلى الفحش وتناول الأعراس ، وإيراد الصور المخجلة القبيحة ، فيما يشبه السباب الخالص ، وهذه سفاهة وإسفاف ، لانجد لها نظيرا فى الهجاء القبلى الجاهلى .

وقد نضيف إلى هذا الاتجاه ، ظاهرة التبع والاستقصاء فى الهجاء ، الذى أورث فن الهجاء القبلى فى هذا العصر طول النفس ، واسترسال القصيدة . رأينا هذا فى قصيدة القُحيف العُقيلى فى هجاء بنى حنيفة البكرين ، ونراه أيضا فى هجاء جرير غسان وقومه بنى السليط .

(١) ديوانه ٥٩٨ . الأقة : جمع قن . المصنة : المنتنة الرجح . نسيئة : تصغير نساء . بطنة : من البطنة ، وهى

فحينئذ أخذ غسان يرد على جرير هجاءه ويفخر بنفسه ويقومه ، ويهجو جريرا وقومه ، ويصمهم بالجبن واللؤم والبخل وحماقة الأصل ، في أبياته التي يقول فيها : (١)
 لعمري لئن كانت بجيلة زانها جرير لقد أخزى كليباً جريرها
 عضه جرير بطويلة (٣٦ بيتا) مطلعها (٢) :

ألا بكرث سلمى فجذُّ بُكورها وشقَّ العصا بعد اجتماع أميرها

وبعد نسيب قصير ، يقول في غسان :

ألا ليت شعري عن سليطٍ ألم تجذ . سليطٌ سوى غسانَ جاراً يجيرها
 لقد ضمّمنا الأحسابَ صاحبَ سوءٍ يناجي بها نفساً لثيماً ضميرها

وبعد هجاء قبيح في غسان ، يتناول قومه ، قائلاً :

ألا ساء ما تبلي سليط إذا ربّت جواشئها وازداد عرّضاً ظهورها
 بأستاهها ترمى سليط وتثقى ويرمى نضالاً عن كليب جريرها
 ولما علاكم صلكُ بازٍ جنحتُم بأستاه خربانٍ تصرّ صقورها ...
 فما في سليط فارس ذو حفيظة ومغقلها يوم الهياج جُعوها ...
 إذا قيل ركبٌ من سليط فقُبِّحت ركاباً وركباناً لثيماً بشيرها ...
 ومابكم صبرٌ على مشرقيّة تعضُّ فراخ الهام أو تستطيرها

والقصيدة طويلة ، وكلها على هذا النحو من الهجاء ، الذي لا يعف عن الفحش ، إلى جانب الوصف بالهوان والدناءة ، والجبن والفرار ، وحقارة الشأن ، والتذكير بعار الهزيمة في أيام كانت عليهم ، علاهم فيها ، قيس عيلان ، وبكر بن وائل ، حتى كأنما يقص فيها تاريخ بني سليط ، ويسجل مخازيرهم ، وأيام عارهم ، في تتبع دقيق ، ونفس طويل .

* * *

(١) يوازن بين جرير الكلبي التيمي ، وجرير بن عبد الله البجلي الصحافي المشهور

(٢) القصيدة بنامها في ديوانه ٢٩٣ — ٢٩٦ . الجواشن : الصدور .

والعجب أن تقال هذه الأشعار ، التي تفوح منها ريح العصبية القبلية ، في بيئة إسلامية ، وعلى مسمع من حكام المسلمين الأمويين وعماهم !!

وقد يزول هذا العجب ، إذا ما تذكرنا أن روح الإسلام لم تكن قد تغلغلت في قلوب كثير ممن استظلوا بظله ، أو ساروا تحت لوائه ، وانتموا لملته ، وأغلب بنى أمية — دون شك — من هؤلاء الكثيرين ، فقد عرفنا أنهم كانوا يشجعون هذه النزعات العصبية ، ويقربون شعراءها ، الذين يخدمون سياستهم .

هذا إلى جانب ما نعلم من أن أكثر شعراء العصبية القبلية في العصر الأموي ، كانوا من عرب البوادي ، الذين لم يتعمق الإسلام قلوبهم ، فلم يعرفوا معنى الأخوة الإسلامية ، ولم يتخلقوا بخلق الإسلام .

وحتى فحول شعراء هذا العصر ، وعلى رأسهم جرير والفرزدق والأخطل ، قد ضربوا في شعر العصبية القبلية بسهم وافر ، مع أنهم تذوقوا نعمة الحضرة ، ولا عجب فالأخير منهم لم يزر الإسلام قلبه ، إلا بمقدار مازار قلب عمرو بن كلثوم ، أو طرفة ، وثانيهم ، كاد الإسلام يمس قلبه ، فقيد نفسه في بيته ، وآلى ألا يفك قيده حتى يجمع القرآن ، فلما جاءت نساء بنى مجاشع ، وقد فحش جرير بهن في شعره ، وقلن له قبح الله قيدك فقد هتك جرير عورات نساءك ، فلجيت شاعر قوم !! فأحفظنه ، وسرعان ما فك قيده ، ونزل إلى المعركة ، وشغل بذلك عن القرآن ، وقال (١) :

ألا استهزأت مني هُنيدةُ أن رأْتُ أسيراً يُداني خطوه حلقُ الجِجَلِ
لعمري لئن قيدتُ نفسي لطالما سعيْتُ وأوضعتُ المطية للجَهِلِ
ثلاثين عاماً ما أرى من عَمَايةٍ إذا برقَتْ إلا شددتُ لها رَحلي
أَتَتَنِي أَحاديثُ البَعيثِ ودونه زَرودُ فشاماتِ الشقيقِ إلى الرَّمْلِ
فقلتُ أَظُنُّ ابنَ الحَبِيثَةِ أننى شُغِلْتُ عن الرامى الكنانة بالثَّبَلِ
فإن يكُ قيدي كان نذراً نذرته فما بى عن أحسابِ قومي من شغلٍ .. الخ

(١) انظر ابن سلام ١ / ٣٢٧ ، ودويان الفرزدق ٢ / ١٥٢ — ١٥٣ (بيروت) البعث : شاعر من قوم الفرزدق بنى مجاشع ، وأحاديثه : يعنى أخبار هجاء جرير إياه ، وتناول أعراض قومه في هذا الهجاء . زرود : ماء لبنى مجاشع

على هذا النحو كانت الحياة القبلية ، وما يدور في فلكها من عصبية ، طوال العصر الأموى ، لم تهدأ نزعاتها ، ولم تنفصل عن الحياة الاجتماعية ، ولأعن الحياة السياسية .

ولم يقف بمعزل عن هذه الحياة ، فقد تجاوزت فيه أصدائها ، بل كان وقودا لها يلهمها ، ويضربها ، ويتصل بها اتصالا وثيقا ، ويتبادل وإياها التأثير والتأثر . وهكذا كانت الحياة القبلية مقوما أساسيا من مقومات الحياة في العصر الأموى ، كما كانت أصداء هذه الحياة القبلية مقوما أساسيا من مقومات الشعر في هذا العصر .

* * *

— ٥ —

تعقيب على شعر الخصومة القبلية في العصر الأموى :

يتضح من هذه الدراسة التى تناولت العصبية القبلية في العصر الأموى ، وما كان لها من تأثير في توجيه قدر كبير من شعر العصر نحو التعبير عنها ، وإحياء فنى الفخر والهجاء القبليين ، ومدهما بالقوة والذووع ، نقول : يتضح من هذا كله ومن دراسة نماذج من الشعر الذى تخلف عنها ، أن الشعر القبلى في العصر الأموى كان يحتذى نظيره في الشعر الجاهلى ، يحتذى تقاليده التى أرساها شعراء القبائل ، خلال تجاربهم الطويلة . ومعنى هذا أن الطابع العام ، الذى يبرز في الشعر القبلى في عصر بنى أمية ، هو الطابع الجاهلى ، وهو بهذا يعد امتدادا للتقاليد الأدبية الموروثة في شعر العصبية القبلية الجاهلية ، فشعراؤه يتخذون من هذا الشعر الجاهلى نموذجا يحتذونه ، يمدون أبصارهم إليه ، ويسيروا على ضوئه وهدهد ، في أغراضه ومعانيه ، ولغته أيضا .

أما الأغراض : فقد وضع الأمر فيها على ضوء تحليلنا السابق لنصوص من الشعر القبلى الأموى ، حيث رأينا كيف كان شعراء القبائل مشغولين بمناقب قبائلهم ، ومثالب أعدائهم ، لا يتحدثون عن أنفسهم بقدر ما يعبرون عن قضايا قومهم في صراعهم مع منافسيهم ، وهى تلخص في الهزائم والانتصارات ، والأيام ، والأحساب والأنساب ، وكل ما كان عنوانا للشرف والمجد القبليين في العصرين الجاهلى والأموى ، إيجابا في الفخر ، وسلبا في الهجاء .

وفى باب المعانى ، لم يخرج الشعر القبلى فى معانيه عن نطاق المعانى التى طرقها نظيره فى العصر الجاهلى ، وقد وضع هذا من المقارنات التى قدمناها بين نماذج من الشعر القبلى فى العصرين ^(١) ، فعلى ضوءها يبدو جليا أن المعانى الجاهلية ، والهجاء الجاهلى ، والحمية الجاهلية واضحة أجلى وضوح فى هذا الشعر القبلى الأموى ^(٢) .

وإن كان هناك من فارق فى مجال المعانى ، فيمكن حصر أهم مظاهره فيما أشرنا إليه من ميل الشعر القبلى الأموى إلى تتبع المعانى ، واستقصائها ، ولعل هذا الاستقصاء مع طول القصائد فى هذا العصر ، هو الذى أدى إلى تكرار المعانى ، فقصائد الهجاء والفخر طالت ، وكثرت ، والشاعر يستنفد المعانى ، بحيث تستغرقها قصيدة أو أبيات من قصيدة ، وبعدها تفرغ جعبته من المعانى ، فينشئ يكرر ماسبق عن أن عبر عنه ، من أيام ومفاخر ومثالب ، فى عبارات مختلفة ، ليس تحتها من جديد ، وليس فيها إلا المهارة اللغوية ، والقدرة على اصطيد التراكيب وتأليفها ، والأمثلة على هذا كثيرة ، وبخاصة فى شعر فحول شعراء القبائل فى هذا العصر .

ولنأخذ مثلاً قول الفرزدق مفتخراً بقومه :

ومأحدٌ إذا الأقوام عَدُّوا عروق الأكرمين إلى التراب
بمحتفظين إن فضلتمونا عليهم فى القديم ولاغضاب
ولو رفع السحاب إليه قوماً علونا فى السماء إلى السحاب

يفخر بآبائه وأجداده الكرام ، وبقديم قومه فى المجد ، وعلو منزلتهم فوق الناس جميعاً .

ويكرر هذه المعانى فى عبارات أخرى مخاطباً جريراً ^(٤) :

بأى أب يا ابن المراغة تبتغى رهانى إلى غايات عمى وخاليا
هلم أباً كابنى عِقالٍ تعده وواديهما يا ابن المراغة واديا

(١) انظر ص ٢٤٨ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ من هذه الدراسة

(٢) انظر : فجر الإسلام ١ / ٩٩

(٣) ديوانه ٩٨

(٤) ديوانه ٣٦١

تجد فرعہ عند السماء ودارم من المجد منه أترعت لي الجوايا
 بنى لي به الشيخان من آل دارم بناء يرى عند المجرة عاليا
 وفي هجاء جرير الأخطل ، يكرر معاني انتسابهم إلى الصليب ، ويناديهم بخنازير
 تغلب ، وأنهم شراب خمر ، كما يعيرهم بإذلال قيس إياهم في أكثر من قصيدة (١)
 فإذا أضفنا إلى هذا كثرة المعاني القبيحة المسفة ، كانت هذه النواحي معبرة عن
 تطور — قليل الخطر — أصابه الشعر القبلي ، واقترب فيه عن نظيره الجاهلي .

وأما لغة هذا الشعر القبلي في العصر الأموي ، فهي تلك اللغة الرصينة ، التي
 تتأرجح بين صلابة العبارة أحيانا ، والاحتفاظ بالمستوى الواضح الرصين أحيانا أخرى ،
 موصوفة بالجزالة غالبا ، شأنها في ذلك شأن لغة الشعر القبلي في العصر الجاهلي .

ويمكن ملاحظة هذه الجزالة ، إذا قرأنا في شعر السياسة في هذا العصر ، حيث نجد
 العبارة تتسم بالسهولة والوضوح ، وتقل فيها الجزالة التي نلاحظها في الشعر القبلي ، بل
 إننا نلاحظ اختلاف مستوى الجزالة في شعر الشاعر الواحد بين هذين الفنين ، فشعر
 الطرماح في السياسة ، أقل جزالة من شعره القبلي ، يقف على هذا كل من قرأ في ديوانه ،
 وأنعم النظر في لغة شعره في كل منهما ، وقل مثل ذلك في شعر الأخطل وجرير والفرزدق .

ولنقرأ مثلا قول الفرزدق : (٢)

حُلِّ الملوك لباسنا في أهلنا والسابغات إلى الوغى تتسرلُ
 أحلامنا تزن الجبال رزانة وتخالنا جنا إذا مانجهل
 فادفع بكفك إن أردت بناءنا نهلان ذا الهضبات هل يتحلحل؟
 وقول جرير (٣) :

وقد علم الأقوام أن سيوفنا عجمن حديد البيض حتى تصدعا
 الأرب جبار عليه مهابة سقيناه كأس الموت حتى تضلعا
 نقود جيادا لم تقدها مجاشع تكون من الأعداء مرأى ومسمعا..

(١) انظر ديوانه ٥٣ ، ٥٩ ، ١١١ ، ٢٦٢ ، ٤١٤ ومواضع أخرى عديدة .

(٢) ديوانه ١٥٧

(٣) ديوانه ٣٣٩

وهذه اللغة الرصينة أيضا هي الطابع العام لشعر الأخطل القبلي ، نأخذ مثلا قوله في هجاء قبائل قيس (١) :

وقد سَرَّني من قيس عَيْلانَ أننى رأيتُ بنى العَجْلان سادوا بنى بَدْرِ
وقد غيّر العجْلانَ حيناً إذا بكى على الزاد ألقته الوليدةُ في الكِسْرِ
فيصبحُ كالخفاش يدلك عينه فقَبَّح من وجهٍ لثيم ومن حَجَرٍ
وقوله (٢) :

إن السيوفَ غَدُوها ورواحها تركت هوازنَ مثلَ قرن الأعضب
وقوله :

إذا ما قُلْتُ قد صالحْتُ بكراً أبى البغضاء لا النسب البعيدُ
وأَياماً لنا ولهم طوالٌ يعضُّ الهامَ فيهنَّ الحديدُ
هما أخوان يصطليان ناراً رداء الموت بينهما جديداً
وغير ذلك كثير ، في شعره وشعر فحول عصره القبلي .

هذا ، ولئن كانت التقليدية قد غلبت على الشعر القبلي في العصر الأموي ، فإننا لانستطيع أن نتجاهل ما كان لهذا الشعر من فضل الحفاظ على كثير من فصاحة اللغة ، وتراكيبها القوية الجزلة ، التي تحاكي عصر العربية في عنفوان فصاحتها ، كما تتمثل في الشعر الجاهلي ، فضلا عما كان له من أثر فعال في إثراء الشعر ، وكثرة الشعراء في العصر الأموي .

* * *

(١) ابن سلام ١ / ٥١٣ (المدنى)

(٢) المصدر السابق ٤٧٧

الفصل الرابع

شعر الخصومة الفردية

أو
التقائض الأدبية

نعنى بالخصومة الفردية ، نوعاً من المنافسة الفنية ، تمخضت عنه الخصومات السياسية والقبلية فيما تمخضت عنه ، أغرى بعض الشعراء به ، ودفعهم إليه ، إقبال الجماهير المتحمسة للخصومة المتعددة الألوان فى العصر الأموى ، عصر الصراعات السياسية ، والقبلية ، على ضروب الشعر ، الذى يتخذ من هذه الخصومة ، أو تلك موضوعاً له ، حيث كانت الحلقات تعقد فى كل من البصرة والكوفة بالعراق ، وفى مجالس الخلفاء بدمشق ، وتروى فيها هذه الأشعار ، فتتنازع الأهواء الجمهور المستمع ، كما تنازعت من قبلهم قائلها من الشعراء ، والناس ما بين متحمس لهذا أو ذاك ، ساخط على ما يسمع من شعر أو راض ، والشعراء من خلال هذه كله ، تذيب أشعارهم ، وتناقلها الرواة ، وتستقر فى الذواكر ، وتلمع أسماء عديدة من الشعراء فى سماء الشهرة ، فيسمع بهم القاصى والدانى ، ومع الذبوع والشهرة ، تنشط القرائح وتبدع وتوثق ثمارها كل حين ، متنوعة الألوان والطعوم .

بيد أن الشعراء الذين قدر لهم ولشعرهم فى الخصومات السياسية والقبلية وغيرها ، التفوق والنبوغ ، سرعان ما وجدوا أنفسهم يدورون فى دائرة ، فسيحة ولكنها مغلقة ، من صور الهجاء والفخر والحماسة القبلية ، ومن صور المديح والتأييد والمعارضة السياسية .

وكأنما خشوا أن تستهلكهم هذه الصورة ، وتستفرغ عبقريتهم ، وتسلمهم إلى تكرار القوالب والمعانى والصور ، فتعطل مواهبهم ، ويتحول فنهم من جانب الإبداع ، إلى جانب المهارة فى الصناعة والصياغة ، فيفقد بريقه ولمعانه وجاذبيته ، ويفقد معها جماهيره المعجبة ، وطلاب فنه المتحمسين .

كان هذا وغيره مما أغرى طائفة من شعراء هذا العصر — وبخاصة الفحول منهم — إلى التعرّيج بشعرهم على ميدان آخر للتنافس ، فى فنى الهجاء والفخر ، لا يشغل الشاعر فيه شعره بالحزب ، ولابالقبيلة ، بقدر ما يشحذ فنه ، ويستلهم شياطين شعره ، ومواهب عبقريته للتفوق على منافسه ، أو منافسيه ، فى مجال الإبداع الشعرى ، والامتياز الفنى .

وهنا برز نوع من الخصومة بين طائفة من شعراء العصر ، لاهى بالخصومة السياسية ، ذات المقومات الحزبية التى عرفناها ، ولاهى بالخصومة القبلية الخالصة ، القائمة على مقتضيات العصبية القبلية ، وبواعثها وأهدافها المعروفة ، وإنما هى خصومة يتوارى فيها طابع العداوة الحادة ، والصراخ المحموم المتشنج ، والهوى المتعصب المندفع ، وغيرها من العواطف العنيفة التى تلاحظ فى الشعر السياسى والقبلى ، بكل ما يعبر عنه من عنف السياسة والتعصب فى هذا العصر .

هى إذن منافسة أكثر منها خصومة ، ومنافسة فى جودة الفن ، لافى هوى السياسة ، أو علو المجد ، وشرف الانتماء القبلى ، وهى منافسة تقوم بين أفراد من الشعراء بحكم طبيعتها وهدفها ؛ ولذا أسميناها خصومة فردية .

ومن أشهر ثمار هذه المنافسة الفردية الفنية الأدبية ، ما عرف فى تاريخ الشعر العربى بنقائض جرير والفرزدق ، ونقائض جرير والأخطل ، وهذه النقائض هى عماد دراستنا لما أسميناه هنا بشعر الخصومات الفردية أو الأدبية .

— ٢ —

ماالنقائض ؟

النقائض : جمع نقيضة ، وهى فى معجمات اللغة ، مأخوذة من النَّقْض فى البناء ، وهو الهدم ، وفى الحبل ، بمعنى حله ، وفى العهد ، بمعنى عدم إبرامه ، وقيل : النقض : ضد الإبرام ، ويكون فى البناء والحبل والعهد ، قالوا : والمناقضة فى القول : أن يتكلم بما يتناقض معناه ، أى يتخالف ، وناقضه فى الشئ مناقضة ونقاضا : خالفه ^(١) .

والنقيضة فى باب الشعر ، بمعناها الذى استقرت عليه ، وانتهت إليه ، تعنى أن يقول شاعر قصيدة يهجو فيها شاعراً آخر ، طاعنا فيه وفى قومه ، ويفخر فيها بنفسه وبقومه ، فيجيبه الشاعر الآخر بقصيدة ، ناقضا ما جاء به الأول — أو كثيرا مما جاء به —

(١) انظر : القاموس المحيط (نقض) ٢ / ٣٤٧

من معان وصور ، مضيفاً إليها من جانبه مزيداً من الفخر والهجاء ، كل ذلك بقصد « أن يفسد على الأول معانيه ، فيردها عليه ، إن كانت هجاء ، ويزيد عليها مما يعرفه أو يخترعه ، وإن كانت فخراً كذبه فيها ، أو فسرهما لصالحه هو ، أو وضع إزاءها مفاخر لنفسه وقومه » (١) .

وقد يتجاوز الشاعر الآخر الرد على أقوال الأول معنى معنى ، إلى الهجاء العام ، والفخر العام ، فيقوم النقض حينئذ على أساس المقابلة بين هجاء وهجاء ، وفخر وفخر . وفي كل حال لا تكتسب قصيدة الشاعر الآخر اسم النقيضة إلا إذا التزم في رده ، بالموضوع الذى عاجله الشاعر الأول ، وبالوزن الذى اختاره ، وبالقافية التى بنى عليها قصيدته ، وحينئذ تسمى قصيدته نقيضة بمعنى ، ناقضة ، وتسمى قصيدة الأول نقيضة ، بمعنى منقوضة ، أى أن الأولى — فى ترتيب القول — فعيلة بمعنى مفعولة ، والأخرى فعيلة ، بمعنى فاعلة .

وهنا نلاحظ اختلاف الموقف الإبداعي بين الشاعرين ، من حيث حرية اختيار الموضوع والوزن والقافية والمعاني ، والاحتشاد الانفعالي ، إذ يتوفر هذا كله للشاعر الأول ، بينما يجد الشاعر الآخر نفسه مضطراً إلى تقييد مواهبه بحدود الموضوع الذى فرض عليه ، وقدراته الفنية واللغوية ، بحدود الوزن والقافية ، اللذين عليه الالتزام بهما ، ولهذا كثيراً ما نجد الأول أطول نَسْماً ، وأجود معنى وأقوى أسلوباً ، بحكم ماحظى به من حرية الاختيار ، ومأكروه عليه الآخر من قيود ، جعلته أمام أمر واقع ، عليه أن يخوضه مكرهاً أو محرّجاً ، ومن ثم يقصر عن صاحبه .

ولاینبغى أن يفهم مما ذكرناه تفسيراً لمعنى النقيضة فى الشعر ، أن المناقضة تقتصر دائماً على شاعرين ، بمعنى أن طرفيها لابد أن يكونا شاعرين فقط ، فقد يشترك فى الموقف الواحد للمناقضة أكثر من شاعرين ، فيرد على قصيدة الأول أكثر من شاعر ، أو يرد على الراد راد آخر ، نرى هذا — مثلاً — فى نقائض جرير مع غيره من الشعراء (٢) ، ونقائض حسان بن ثابت مع شعراء المشركين فى العهد النبوى (٣) .

(١) تاريخ النقائض (الشايب) ص ٣

(٢) قيل : بلغ عدد من ناقض جريراً من الشعراء وناقضهم ستة عشر شاعراً . انظر : تاريخ النقائض ٢٠٩

— ٢١٠ وانظر : الفهرست لابن النديم ٢٢٥

(٣) انظر : تاريخ النقائض ١٦ — ١٧

نخلص من تحديد معنى النقيضة الشعرية ، وما يتصل بهذا المعنى ، إلى أن الأصول الفنية التى يقوم عليها فن النقائض الشعرى أربعة :

١ — نقض المعانى ، وهو مناط النقائض ، ومحورها الذى عليه تدور ، والأصل العام الذى يقوم عليه نقض المعانى هو ، أن يعنى الشاعر الآخر بإفساد ما يقرره الشاعر الأول ، فيكذب ما يدعى ، أو يضع إزاءه ما يقابله ، أو يقلل من شأنه وأهميته ، وهذا الأصل جامع لطرق المناقضة ، التى اعتمدها شعراء النقائض ، وهى : المخالفة فى التفسير ، كأن يتناول الشاعران حادثاً أو موقفاً واحداً ، كل يفسره بما يؤيد موقفه فى الفخر أو الهجاء .

فجيرير يفخر بقيس عيلان ، ويرأها جديرة بالثناء ، فعليها المعول فى النصرة ، والدفاع عن الحوزة ، والحفاظ على الأجداد ، كما يفخر بقومه بنى يربوع ، ويراهم حماة تميم ، فى قوله (١) :

وإِنِّى مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ تَعُدُّهُمْ تَمِيمٌ حُمَاةَ الْمَازِقِ الْمُتَلَحِّمِ
وقوله :

وقيسٌ هُمُ الْفَضْلُ الَّذِى نَسْتَعِدُّهُ لِفَضْلِ الْمَسَاعِى وَابْتِنَاءِ الْمَكَارِمِ
إِذَا حَدَّبَتْ قَيْسٌ عَلَى وَخِنْدِفٍ بَنَوْا لى عَادِيَا رَفِيعِ الدَّعَائِمِ
وقيس هم الكهف الذى نستعدُّهُ لِدَفْعِ الْأَعَادَى أَوْ لِحُمْلِ الْعِظَائِمِ

فيتصدى له الفرزدق مفسراً موقفه من قيس بأنه موقف الدعوى المرتزق ، الذى يتنكر لقومه ، فى سبيل نهزة يصيبها ، أو كسبٍ تافه يلقى إليه به ، فيفقد بذلك انتماءه لقومه ، ولا يلحق انتماء بالآخرين (٢) :

فَمَا أَنْتَ مِنْ قَيْسٍ فَتَنْبَحُ دُونَهَا وَلَا مِنْ تَمِيمٍ فِي الرِّئَوسِ الْأَعَاظِمِ
وَإِنَّكَ إِذْ تَهْجُو تَمِيمًا وَتَرْتَشَى تَبَائِينَ قَيْسٍ أَوْ سُحُوقَ الْعَمَائِمِ

(١) ديوانه ٥٥٥ ، ٥٦٢

(٢) ديوانه ٣١٣ / ٢ — ٣١٤ (بيروت) . التباين : سراويل قصيرة يلبسها النوتية ، واحدها : تباين . السُّحُوق : البالية ، مفردها : سحق ، وكذا الدرسان

كُمْهَرِيقُ مَاءٍ بِالْفَلَاةِ وَغَرُّهُ سَرَابٌ أَثَارَتُهُ رِيَا حُ السَّمَائِمِ
أَنَا ابْنُ تَمِيمٍ وَالْحَامِصِ وَرَاءَهَا إِذَا أَسْلَمَ الْجَانِي ذِمَارَ الْحَارِمِ
أَدْرِسَانَ قَيْسٍ لِأَبَالِكٍ تَشْتَرِي بِأَعْرَاضِ قَوْمٍ هُمْ بِنَاءُ الْمَكَارِمِ

ومن طرق مناقضة المعاني إظهار الادعاء والكذب فيها ، كالذي فعله العباس بن يزيد الكندي (١) ، حينما هجا جرير الراعي التميمي ، في قصيدته التي مطلعها (٢) :

أَقْلَى اللُّوْمِ عَاذِلٌ وَالْعِتَابِ سَا وَقَوْلِي إِنْ أَصَبْتُ لَقَدْ أَصَابَا
وَالَّتِي يَقُولُ فِيهَا :

إِذَا غَضِبْتَ عَلَيْكَ بَنُو تَمِيمٍ حَسِبْتَ النَّاسَ كُلَّهُمُ غَضَابَا
فَقَدْ رَدَّ عَلَيْهِ الْعَبَّاسُ ، مَكْذُوبًا هَذَا الْمَعْنَى ، قَائِلًا (٣) :

لَقَدْ رَغِمْتُ أَنْوْفُ بَنِي تَمِيمٍ فَسَاءَ التَّمَرُ أَنْ كَانُوا غَضَابَا
لَقَدْ غَضِبْتُ عَلَيْكَ بَنُو تَمِيمٍ فَمَا نَكَأْتُ بِغَضَبَتِهَا ذُبَابَا

ومن هذه الطرق أيضا مقابلة المعنى بنظيره ، كأن يفخر الشاعر الأول بموقف مشرف له أو لقومه ، فيأتي الآخر بموقف له أو لقومه يقابله في المجد والشرف ، وكثيرا ما يلجأ شعراء النقائض إلى هذا الأسلوب في المناقضة ، في مواطن الفخر أو الهجاء بالأيام ، فيورد الأول يوما لقومه علوا فيه أعداءهم ، فيرد الآخر بيوم لقومه مماثل في المجد والشرف ، أو العكس في مقام الهجاء (٤) .

وقد يعتمد الشاعر الناقض إلى قلب معاني صاحبه ، ويردها عليه ، بأن يقلب فخر خصمه هجاء ، وينسب الفخر لنفسه وقبيله ، فحين قتل وكيع بن حسان التميمي ، قتيبة بن مسلم الباهلي القيسي ، قال الفرزدق ، مفتخرا (٥) :

فَدَى لِسَيُوفٍ مِنْ تَمِيمٍ وَفَى بِهَا رِدَائِي وَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ الْأَهَامِ
شَقَقِينَ حَزَازَاتِ النَّفُوسِ وَلَمْ تَدْعُ عَلَيْنَا مَقَالَا فِي وِفَاءٍ لِلْإِهَامِ
أَبَانًا بِهِمْ قَتْلِي وَمَا فِي دِمَائِهِمْ وَفَاءً وَهْنُ الشَّافِيَاتِ الْحَوَامِ

(١) شاعر كندى هاجى جريرا منتصرا لبني نخير ، فشكاه جرير إلى قومه وأعذر ، فلم ينته ، حتى بحث جرير عن مثاله فهجاه بها فأسكنه . انظر : ديوان جرير ٦٠

(٢) ديوانه ٦٤ — ٨٠

(٣) الأغاني ٢٠ / ١٧٢ — ١٧٣

(٤) انظر أمثلة لهذا الأسلوب في : تاريخ النقائض ٢٤ — ٢٥

(٥) ديوانه ٢ / ٣١٠ (بيروت) وانظر ص ٢٠٠ من هذه الدراسة .

تصدى جرير لهذا الفخر ، فجرد الفرزدق من حق الافتخار بهذا المعنى ، لأن
وكيعاً ليس من بنى مجاشع ، قال : (١)

فغِيرِكَ أَدَّى لِلخليفة عَهْدُهُ وَغِيرِكَ جَلَّى عَنْ وَجْهِ الْأَهَاتِمِ
فَإِنَّ وَكِيْعاً حِينَ خَارَتْ مُجَاشِيعٌ كَفَى شَعْبَ صَدْعِ الْفِتْنَةِ الْمُتَفَاقِمِ
لَقَدْ كُنْتُ فِيهَا يَافِرْزْدُقُ تَابِعاً وَرِيْشُ الذُّنَابَى تَابِعٌ لِلْقَوَادِمِ

٢— وحدة الموضوع : فعلى الشاعر الناقض أن يعالج في نقيضته الموضوع
نفسه ، الذى عاجله خصمه ، بحيث يتفقان ، فخرا ، أو هجاء ، أوهما معا ، أو سياسة ،
أو نسيبا ، أو رثاء (٢) ؛ إذ كان الموضوع هو مجال المناقشة ، ومادة النقائص .

٣— وحدة الوزن الموسيقى (البحر العروضى) ؛ إذ هو الشكل الموسيقى ، الذى
يجمع بين النقيضتين ، ويجذب إليه الشاعر الناقض ، بعد أن يختاره الشاعر الأول ، ثم هو
إطار فنى ، ومظهر من مظاهر القدرة الشعرية ، على الشاعر الناقض ، أن يقبل المنافسة
فيه أيضا ، والناقض الفحل هو الذى يبدع من خلال هذا الإطار ، ويتفوق على صاحبه ،
على الرغم من أن الشكل الموسيقى مفروض عليه ، ليس مختارا فيه .

٤— وحدة القافية : باعتبارها من اللوازم الموسيقية المتكررة التى ارتضاها الشاعر
الأول ، واختارها نعمة موسيقية تظهر جانباً من براعته ، وقدرته الفنية ، فدخلت بذلك
مجال المنافسة بين الشعارين ، كتنمة للتنسيق الوزنى ، وجزء من النظام الموسيقى العام
للمناقضة .

هذه القواعد الفنية للمناقضة التزم بها جميعا شعراء النقائص في العصر الأموى ،
عن إدراك تام منهم لهذا الفن وقواعده ، يدل على هذا قول عقاب بن هاشم ، مناقضا ابن
ميادة ، فيما كان بين اليمن ومضر من ملاحاة ، أيام الوليد بن يزيد ، إذ قال ابن ميادة
الرمّاح بن أبرد (٣) :

(١) ديوانه ٥٦١

(٢) راجع في نماذج من نقائص هذه الفنون : تاريخ النقائص ١٢ — ١٥

(٣) الأغاني ٢ / ٨٦ والرمّاح من بنى ذبيان ، قيسى مضرى انظر ترجمته ص ٢٨٢ هامش (٨) من هذه
الدراسة ، بينها صاحبه من الجنة .

فَجَرْنَا يَنَابِيعَ الْكَلَامِ وَبَخَرَهُ
وَمَا الشَّعْرُ إِلَّا شَعْرُ قَيْسٍ وَخِنْدِفٍ
فَأَصْبَحَ فِيهِ ذُو الرُّوْيَةِ يَسْبُحُ
وَقَوْلُ سَوَاهِمِ كُلْفَةٍ وَتَمْلُحُ

فرد عليه عقاب قائلا :

أَلَا أُبْلَغُ الرِّمَاحَ نَقْضَ مَقَالَةٍ بِهَا خَطَلُ الرِّمَاحِ أَوْ كَانَ يَمَزُحُ
لَنْ كَانَ فِي قَيْسٍ وَخِنْدِفٍ أَلْسُنٌ طَوْلًا وَشَعْرٌ سَائِرٌ لَيْسَ يُقْدَحُ
لَقَدْ حَرَّقَ الْحَيُّ الْيَمَانُونَ قَبْلَهُمْ بِحَوْرِ الْكَلَامِ تُسْتَقَى وَهِيَ تَطْفَحُ

فقوله : « نقض مقالة » دليل وعى بهذا الفن وأصوله .

— ٣ —

متى نشأ هذا الفن وتطور ؟

النقائض بالمعنى الذى ذكرناه ، لا ترجع فى نشأتها وتطورها إلى العصر الأموى وحده ، فقد كانت فنا شعريا معروفا — إلى حد ما — فى العصر الجاهلى .

فقد اقتضى الخلاف بين القبائل فى الجاهلية ، أن يتعصب الشعراء لقبائلهم ، وكثيرا ما نجد شاعرا ينتصر لقومه ، أو أحلافهم ، فيرد عليه شاعر من القبيلة المعادية ، وينقض معانيه ، معتمدين على الفخر أو الهجاء ، أو عليه معا .

ولم تكن هذه الأشعار فى أول أمرها تأخذ صورة النقائض بكل أصولها وعناصرها ، وشرائطها الفنية ، فذلك ماتأباه سنة النشوء والتطور ، بل نجد منها ما يأخذ صورة الرد ، الذى لا يتقيد بأصول المناقضة . كقول امرئ القيس متوعدا بنى أسد ؛ لقتلهم أباه حُجْرًا^(١) :

وَاللَّهِ لَا يَذْهَبُ شَيْخِي بَاطِلًا حَتَّى أُبِيرَ مَالِكًا وَكَاهِلًا
الْقَاتِلِينَ الْمَلِكُ الْحُلَاحِلًا خَيْرٌ مَعَدُّ حَسْبًا وَنَائِلًا
يَالْهَفَ هَنِدٍ إِذْ خَطَّئْتُ كَاهِلًا نَحْنُ جَلْبِنَا الْقُرْحَ الْقَوَافِلًا
يَحْمِلُنَا وَالْأَسَلُ التَّوَاهِلًا مُسْتَفْرِمَاتُ بِالْحَصَى جَوَافِلًا
تَسْتَفِيرُ الْأَوَاخِرُ الْأَوَائِلًا فَصَرْتُ فِيهِمْ غَائِمًا وَقَاتِلًا

فرد عليه عبيد بن الأبرص شاعر بنى أسد : (١)

يَاذَا الْخَوْفْنَا بَقْتًا — لِي أَيْهِ إِذْلاًلاً وَحِينًا
أَزَعَمْتَ أَنْكَ قَدْ قَتَلْتَنَا سَرَاتِنَا كَذِبًا وَمِينًا
لَوْمًا عَلَى حُجْرٍ بِنِ أُمِّ قَطَامٍ تَبْكِي لَا عَلَيْنَا

فهذا رد ساذج ، ليس فيه من أصول فن المناقضة إلا إبطال بعض معاني الشاعر الأول .

ثم يتطور هذا الفن قليلا ، فتحقق فيه بعض قواعد المناقضة دون بعض : من ذلك ما كان بين عامر بن الطفيل ، وزيد الخيل ، فقد خرج رجل من طيء (قوم زيد) اسمه دؤاب إلى صهر له في هوازن ، فأصيب ، فأغار زيد على بنى عامر ، ثم رجع إلى قومه ، ولم يششف ، فقالوا : ما صنعت ؟ فقال : ما أصبتُ بشأَر دؤاب ، ولا ينوء به إلا عامر ابن مالك ملاعب الأسنة ، فأما ابن الطفيل فلا ييؤ به ، وأنشأ يقول (٢) :

لَأَرَى أَنْ بِالْقَتِيلِ قَتِيلًا — عَامِرًا يَفِي بِقَتْلِ دُؤَابٍ
عَامِرٌ لَيْسَ عَامِرَ بْنَ طُفَيْلٍ — لَكِنْ الْعُمَرُ رَأْسَ حَيٍّ كَلَابٍ
ذَاكَ إِنْ أَلَقَهُ أَنْالٌ بِهِ الْوُثْدَ — رَ وَقَرَّتْ بِهِ عَيُونَ الصُّحَابِ

فرد عليه عامر بقوله :

قُلْ لَزِيدٍ قَدْ كُنْتُ تَوَثِّرُ بِالْجَدِّ — إِذَا سَفَّهَتْ حُلُومُ الرِّجَالِ
لَيْسَ هَذَا الْقَتِيلُ مِنْ سَلَفِ الْحَيِّ — كُلاَءٍ وَيَحْصُبُ وَكُلَالِ
أَوْ بَنِي آكُلِ الْمَرَارِ وَلَا صِيْبَ — مِدْ بَنِي جَفْنَةِ الْمُلُوكِ الطُّوَالِ
إِنْ فِي قَتْلِ عَامِرِ بْنِ طُفَيْلٍ — لِبَوَاءٍ لَطِيئٍ الْأَجْسَالِ

فقد نقض عامر معاني زيد ، بالخط من شأن القتل ، وعظم نفسه ، بأن وضعها بإزاء طيء كلها ، والتزم وحدة الموضوع ، ووحدة الوزن (بحر الخفيف) وأهمل وحدة القافية .

(١) ديوانه ١٣٦ (الجلي)

(٢) الأغاني ١٦ / ٥٢

ولا ينقضى العصر الجاهلى حتى تصل النقائض إلى صورتها الكاملة ، وتستوفى كل القواعد والأصول الفنية اللازمة لفن المناقضة .

ونضرب مثلاً لهذه الصورة المتطورة ، ما كان بين طريف بن تميم العنبرى ، وبنى ربيعة بن ذهل بن شيبان البكرين :

فيروى أن طريفاً قتل أحد بنى ربيعة هؤلاء ، وكان الفرسان إذا كانت أيام عكاظ في الشهر الحرام وأمن بعضهم بعضاً تقنعوا كى لا يعرفوا ، أما طريف فكان لا يتقنع ، فمر به أحد بنى ربيعة في سوق عكاظ وأخذ يتفرسه ، ففطن له طريف ، وقال (١) :

أَوْ كَلَّمَا وَرَدْتُ عَكاظَ قَبِيلَةٍ بعثوا إلى عريفهم يتوسم
فتوسمونى إننى أنا ذلكم شاكي سلاحى فى الحوادث مُعَلِّم
تحتى الأعغر وفوق جلدى نثرة زغف ترد السيف وهو مُثَلَّم
حولى أسيدهم والهيجم ومازن وإذا حللت فحول بيتى خضَّم

ثم التقى الفريقان فى يوم مبايض ، وكان للبكرين على التميمين ، وفيه قتل طريف قتله حمصيصة الشيباني ، ورد قوله السابق قائلاً :

ولقد دعوت طريف دعوة جاهل سفهاً وأنت بمعلمٍ قد تعلم
وأنت حيّاً فى الحروب محلهم والجيش باسم أبيهم يستقدم
فوجدت قوماً يمنعون ذمارهم بُسلاً إذا هاب الفوارس أقدموا
وإذا دعوت بنى ربيعة شمروا بكتائب دون السماء تلمم
حشدوا عليك وعجلوا بقراهم وحموا ذمار أبيهم أن يُشتموا

فقد سخر من تحدى طريف الأبطال ، ورد على فخره بقومه ، بفخر مقابل بنى ربيعة ، وراعى فى هذا الرد كل الأصول الفنية للمناقضة ، من وحدة الموضوع (الفخر) ونقض المعانى ، ووحدة الوزن (بحر الكامل) ووحدة القافية .

وعلى ضوء هذه النماذج ، وغيرها ، مما هو مبثوث فى ثنايا المصادر ، التى تتحدث عن أيام العرب فى الجاهلية ، وأخبارها وأشعارها ، نستطيع أن نقف على الملامح الفنية لمرحلة نشأة النقائض الشعرية ، وتطورها فى العصر الجاهلى :

١— قامت أولا على نقض المعانى ، دون وحدة الوزن والقافية ، ثم تطورت فقامت على الاتحاد الموضوعى والمعنوى والموسيقى ، فتمت بذلك قواعدها المعروفة .

٢— أهم فنونها الفخر والهجاء ، ومادتها تدور حول مقومات الحياة الجاهلية ، كالأيام ، والأنساب ، والأحساب ، والاعتراف بالظلم والعدوان ، والفضائل الاجتماعية ، التى أقرتها هذه الحياة ، كالفخر بالكرم ، والشجاعة ، والنجدة ، وكثرة العدد ، والسيادة ، والمروءة ، والهجاء بضد ذلك ، كل ذلك فى إطار العصبية القبلية ، وفى سبيل القبيلة ؛ ولذا لم تختلف فنيا عن غيرها من الشعر القبلى ، إلا من حيث أخذها بالأصول المقررة لفن المناقضات .

٣— بعدها عن الإسفاف والفحش ، وتناول الأعراض فى الهجاء ، فهى تقف ، غالبا ، عند صفات الجبن ، والبخل ، والفرار ، وتعف عن ذكر العورات ، والكلمات النابية المكشوفة .

٤— لم يشغل الجاهليون كثيرا بهذا اللون من الشكل الشعرى ، ولم يلتزموه فى منازعاتهم الشعرية القبلية ، بل كانوا يقبلون عليه من حين إلى آخر ، وفى الفترة بعد الفترة ، فلم يكن التباعد بين القبائل والشعراء ليتيح الفرصة لانتظام هذا الفن بين شعرائهم .

ومن هنا لانعثر بهذا اللون من الشعر إلا قليلا ، وعقب الأيام والحروب « فوراء كل يوم ، وكل حرب ، نجد قطعاً متبادلة (قصيرة غالبا) بين الفئتين المتقاتلتين ، ثم تزم الألسنة ، كما تزم السيوف ، وكأن شيئا لم يحدث (١) » .

وجاء الإسلام ، فوجد هذا الفن كاملاً الأداة ، فاعتمد عليه شعراؤه ، وبخاصة فيما حدث من نزاع بين شعراء المدينة ، وشعر مكة ، أو شعراء المعسكرين الدينين فى عهد النبى ﷺ .

وعلى الرغم من أن النقائض أيام الرسول تعد امتداداً للنقائض الجاهلية (٢) ، فإن تغيراً غير يسير قد أصابها فى عهد النبوة ، على ألسنة شعراء المسلمين ، بخاصة من حيث الغاية والأسلوب ، وبعض المعانى والألفاظ أيضا .

(١) التطور والتجديد ١٧٨ .

(٢) انظر تعليق ذلك فى كتابنا : الأدب فى عصر النبوة والراشدين ٢٧٤

فمن حيث الغاية : كانت النقائص الإسلامية ، من جانب شعراء المسلمين ، دفاعاً عن عقيدة عامة ، ومبادئ إنسانية ونهضة شاملة ، بعد أن كانت تعبيراً عن أغراض قبلية ، ضيقة الأفق في الشعر الجاهلي .

ومن حيث المعنى والعبارة عنه ، تسربت بعض المعاني والألفاظ الإسلامية إلى نماذج منها ، تدور حول الكفر والإسلام ، والهدى والضلال ، والبعث ، والثواب ، والجنة والنار ... وغيرها ، وأكثر مانقفاً على هذه المعاني والألفاظ في نقائض عبد الله بن رواحة ، وكعب بن مالك ^(١) ، أما شعراء المشركين فنقائضهم لا تفرق عن النقائض الجاهلية في معانيها ولغتها ، وإن اختلفت عنها في الغاية ، من حيث أنها كانت دفاعاً عن نظام حياة عامة ، لآعن قبيلة بعينها ، كما خلت نقائض الفريقين — تقريباً — من الفحش والإسفاف .

ومن حيث الأسلوب : لم تكن النقائص الإسلامية على مستوى واحد من الجودة في الأساليب ، فمنها ما يتمتع بأسلوب قوى جزل ، يحكى أسلوب الشعر الجاهلي في اللفظ والعبارة والتركيب ، ومنها ما يتسم أسلوبه بالضعف والاضطراب ؛ إذ كانت الشاعرية القرشية حديثة ^(٢) ، كما أن شعراء الفريقين كانوا يقتحمون ميداناً جديداً من القول ، بالانتصار لدعوة جديدة ، أو مناهضتها ، مما يحوجهم إلى دربة ومران طويلين ^(٣) .

ونكتفي هنا بنموذج من النقائص الإسلامية ، ليكون بمثابة شاهد بمدى التقارب بينها وبين النقائص الجاهلية ، موضوعاً ومعنى من جهة ، وتأثر بعضها بعناصر إسلامية من جهة أخرى .

قال عبد الله بن الزُّبَيْرِ يثني على قريش وأحلافها يوم الخندق ^(٤) :

(١) انظر : المصدر السابق ٢٨١ ، ٢٨٥

(٢) انظر في أسباب ذلك المصدر السابق ٢٣٨ ، ٢٥٠ — ٢٥١

(٣) انظر دراسة مفصلة للنقائض الإسلامية في المصدر السابق ٢٧٤ وما بعدها

(٤) السيرة النبوية (سيرة ابن هشام) ٢ / ٢٥٧ وانظر تعليقنا على قول ابن الزبيري في : الأدب في عهد

حَيَّ الدِّيارَ مَحًا مَعارِفَ رَسْمِها
فَكَأْتَمَّا كَتَبَ اليَهُودُ رَسومِها
قَفَرًا كَأَنَّكَ لَمْ تَكُنْ تَلْهُو بِها
فاتَرَكَ تَذَكُّرَ مامُضَى مِنْ عِيشَةٍ
واذْكَرَ بِلَإٍ مَعاشِرٍ واشْكَرَهم
أَنْصابَ مَكَّةَ عَامِدينَ لِيَثْرَبَ
حَتَّى إِذا وَرَدُوا المَدِينَةَ وارْتَدُوا
شَهْرًا وشَهْرًا قاهِرِينَ مُحَمَّدًا
نادَوْا بِرَحْلَتِهِمْ صَبِيحَةَ قَلْتَمَ
لَوْلا الخَنادِقُ غادَرُوا مِنْ جَمْعِهِمْ
طُولُ البَلَى وتَراوَحُ الأَحْسابِ
إِلا الكَنيفَ ومَعْقَدَ الأَطْنابِ
فِي نَعْمَةٍ بأَوانِسَ أَتْرابِ
وَمَحَلَّةٍ خَلَقَ المُقَامَ يَبابِ
سارَوْا بِأَجْمَعِهِمْ مِنَ الأَنْصابِ
فِي ذِي غياطِلٍ جَحْفِلٍ جَبْجَبِ ...
لِلْمَوْتِ كُلِّ مَجْرَبٍ قَضابِ
وَصِحابُهُ فِي الحَرْبِ خَيْرُ صَحابِ
كَدنا نَكُونُ بِها مَعَ الحُيَّابِ
قَتَلِي لَطِيْرٍ سَعْبٍ وَذُنابِ

فابن الزبير يقص خروج قريش وأحلافها من مكة ، في جيش كثيف على رأسه قائدان عظيمان : عيينة بن حصن الفزاري على الأحلاف ، وأبو سفيان بن حرب القائد الأعلى للأحزاب ، وكيف حاصرت الأحزاب المدينة أربعين يوما ، وأنزلت الرعب في قلوب أهلها ، وأنه لولا الخندق لألحقوا الهزيمة النكراء بالمسلمين .

ونض حسان بن ثابت للرد عليه بقصيدة ، منها قوله : (١)

هَلْ رَسَمَ دارِسةَ المُقَامِ يَبابِ
مَتَكَلَّمْ لِمُحاورٍ بِجوابِ
قَفَرِ عَفارِهِمُ السَّحابِ رَسومِهِ
وَهَبُوبُ كُلِّ مُطَلَّةٍ مِرْبابِ
وَلَقَدْ رَأَيْتَ بِها الحُلُولَ يَزِينُهُمْ
بِيبْضِ الوَجْوهِ ثَواقِبِ الأَحْسابِ
فَدَعَ الدِّيارَ وَذَكَرَ كُلَّ خَرِيدَةٍ
بِيبْضاءِ آيَسَةِ الحَدِيثِ كَعابِ
واشْكُ الهُمومِ إِلى الإِلهِ وَماتَرى
مِنْ مَعشَرٍ ظَلَمُوا الرِّسولَ غِضابِ
سارَوْا بِأَجْمَعِهِمْ إِليه وَالْبُؤا
أَهْلَ القُرى وَبِوَادى الأَعْرابِ
جيشٌ عُيَيْنَةُ وابْنَ حَرْبٍ فِهِمْ
مُتَخَمَطِينَ بِحَلِيَةِ الأَحْزابِ

حتى إذا وردوا المدينة وأرتجوا قتل النبی ومَغْنَم الأسلاب
وَعَدُوا علينا قادرين بأيديهم رُدُّوا بغیظهم على الأعقاب
فكفى الإله المؤمنين قتالهم وأثابهم في الأجر خير ثواب

وحسبان ينظر في البيتين الأخيرين إلى بعض آى القرآن الكريم ، ومنها قوله تعالى في
سورة الأحزاب (١) : « ورد الله الذين كفروا بغیظهم لم ينالوا خيرا ، وكفى الله المؤمنين
القتال » ، ومع ذلك فهو جاهلى المطلاع ، كما هو واضح .

ثم يأتي العصر الأموى ، فيصيب فن النقائص الشعرية حظا وافرا من التطور
والازدهار والذیوع ، يصل به إلى قمة النضج ، فقد وفرت له ظروف العصر السياسية
والاجتماعية بيئة مهيأة لتقبله ، والإقبال عليه ، والإكثار منه ، والفنون ، بعامه ، إنما تجود
وتنضج وتزدهر إذا وفرت لها البيئة دواعيها ، واقتضها ظروفها وتقبلتها أذواقها ، وقد تها هذا
كله لفن النقائص الشعرية في العصر الأموى .

فلقد ظلل الصراع السياسى سماء هذا العصر ، وتضاربت أهواء الأحزاب
السياسية ، واتخذت من الشعر لسان دعاية ، فتوزع الشعراء على الأحزاب ، وتنافسوا في
خدمتها ، والتعبير عن أغراضها ، مخلصين حيناً ، أو طامعين أحيانا ، وقد رأينا كيف كان
شعراء بنى أمية خاصة ، يتنافسون في اكتساب الخطوة عند حكاهم ، ويتتزون الفرصة
في التقرب إليهم ، طامعين في عطاياهم ، متحاسدين على هباتهم .

كما تجاوزت القبائل وشعراؤها في المدن الإسلامية ، وبخاصة في البصرة والكوفة
بالعراق ، واصطف شعراء القبائل متواجهين ، يتبارون في الزود عن عصبياتهم القبلية ،
وأهلب تقارب الشعراء ، أو مواجهة بعضهم بعضا ، حماسهم ، وحماس الجماهير المؤيدة
لهم ، فانطلق الشعر من عقالة ، وعارود الشعراء شياطينهم ، فكثر الشعر ، وتشعبت
ميادينه .

هذا فضلا عما كان يتمتع به الشعراء في هذا العصر ، من حرية مطلقة في التعبير
عن العصبية القبلية ، التي عملت سياسة بنى أمية ، إزاء القبائل ، على إحيائها ، وإذكاء
نارها .

كان لذلك ولغيره ، مما سبقت الإشارة إليه في مقدمة هذه الدراسة ^(١) ، أكبر الفضل في إغراء كثير من شعراء هذا العصر بالانغماس في معارضة بعضهم بعضا ، في فنّي الهجاء والفخر .

وكان للنجاح الذى أحرزته كل من جرير والفرزدق والأخطل ، والشهرة التى نالوها ، بفضل فهم فى النقائض ، وتطلع جماهير العصر إلى المزيد من هذا الفن ، كان له أثره فى محاكاة غيرهم من الشعراء لأسلوبهم الشعرى القائم على المناقضة ، ففشا الصراع الأدبى ، أو المنافسة الفنية ، بين الشعراء ، على نحو لم يكن مألوفاً من قبل .

ولن نتعرض هنا لما كان من النقائض دائراً فى فلك السياسة الخالصة ، أو راتعا بين أحضان العصبية القبلية ، منبعثا عنهما ، خادما لأغراضهما ، قاصراً جهوده عليهما . ذلك أن الخصومة فى النقائض الأولى سياسية ، مدارها الحزب ، وفى الأخرى قبلية محورهما القبيلة ، والشاعر فيهما مشغول عن نفسه بالحزب أو القبيلة ، فهما من قبيل مامر من الشعر السياسى والقبلى ، لا تفترق عنه إلا فى التزامها بأصول فن المناقضة ، وهذا الالتزام لا يمنحها تمايزا يذكر عن خصائص الشعر السياسى ، أو القبلى .

إنما نهتم هنا بذلك النوع من النقائض ، الذى يلتفت الشاعر فيه — أولاً وقبل كل اعتبار آخر — إلى نفسه ، ويهتم بفنه ، وفن منافسه من الشعراء ، وقد يأتى فيه ذكر القبيلة ، بمثابة تأكيد لفخر الشاعر بنفسه ، أو للإمعان فى الخط من قدر منافسه ؛ لأن هذا هو الفن الذى اشتهر فى العصر الأموى ، وتعاوره كثير من شعرائه ، وكانت قمة اكتماله ونضجه على يد فحول هذا العصر ، وفى مقدمتهم الثلاثة الفحول : جرير والفرزدق والأخطل .

— ٤ —

ماموقف شعراء العصر من هذا الأسلوب الشعرى ؟

قلنا إن الحياة فى العصر الأموى ساعدت على تهيئة كثير من بواعث شعر الخصومات المتعددة ، وإن الكثرة الغالبة من شعراء هذا العصر كانت لهم مشاركات فى

ميادين هذا الصراع ، فقلما نجد شاعراً عاش في العصر الأموى ، ولم يسهم بشعره — إن قليلاً أو كثيراً — في جبهة أو أكثر من جبهات الخصومة ، فشبت حرب كلامية ، بين الشعراء لاتقل حماساً واندفاعاً عن الحروب الدموية بين الأبطال والفرسان والأعوان في ميادين القتال ، تطايرت فيها سهام الشعر من كل جانب ، وشغل الناس بهذه الحرب الكلامية ، كما شغلوا بالحرب القتالية ، وشجعوا الشعراء في ميدان القريض ، كما شجعوا الأبطال والفرسان في ميادين القتال ، وبذا كثر الشعر ، وغزرت مادته ، وتنوعت .

وآثرت طائفة من الشعراء أن تصب نشاطها الشعرى ، في مختلف هذه الاتجاهات في قوالب خاصة ، هى التى عرفت بالنقائض الشعرية .

غير أن شعراء هذا العصر لم يكونوا سواء في إقبالهم على هذا الأسلوب الشعرى ، إذ لايعنى كثرة نماذجه ، وكثرة الشعراء الذين اصطنعوه ، أن كل شاعر عبر فيه قد أكثر منه ، أو التزمه في أكثر شعره ، أو في كثير منه ، وإنما يرجع كثرة ماخلفه شعراء العصر من هذا الأسلوب الشعرى ، إلى كثرة الشعراء ، لا إلى إكثار كل هؤلاء الشعراء من النظم فيه .

ويمكن القول بأن شعراء العصر الأموى بالنسبة لإقبالهم على فن النقائض فريقان :

(١) فريق انحرف في مناقضات ارتبطت بمناسبات قليلة مرت بحياتهم ، متناثرة بين أحداث هذه الحياة ، ولكنهم لم يقفوا عندها طويلاً ، ولم يلتزموا أسلوبها كثيراً ، ومن ثم لم يشتهروا بهذا الأسلوب ، ولم يفرغوا أكثر شعرهم فيه ، وإنما جرت المناقضة على ألسنتهم من حين لآخر ، دون أن يتخذوها قالباً شعرياً غالباً لشعرهم ، ومناقضات هذا الصنف من شعراء العصر الأموى ، هى التى يمكن أن نطلق عليها المناقضات العامة ، التى لم يشتهر بها شاعر دون آخر .

وهناك أسماء عديدة لشعراء هذا النوع من النقائض ، بحيث يتعذر حصرهم ، لصعوبة تتبع نتائجهم في هذا المجال ، وتناثره بين طبقات المصادر العربية القديمة ، وندرة من عرف له ديوان شعر منهم .

من هؤلاء : هذبة بن خشرم العذرى القضاعى ، مع زيادة بن زيد الرقاشى العذرى

القضاعي^(١)، وحارثه بن بدر اليربوعي، مع أنس بن زُئيم اللبشي^(٢)، والمغيرة بن حبناء مع أخيه صخر^(٣)، وهما تميميان —، وأرطاة بن سهية المري الغطفاني^(٤) مع زُمَيْل بن أبير^(٥) الفزاري، وسَلَمَانُ الْعَجَلِي، مع الأيبرد الرياحي اليربوعي^(٦)، وخالد بن علقمة الدارمي، مع سويد بن كراع الْعُكَلِي^(٧)... وغيرهم.

ونكتفى ببعض نماذج من نقائض هذا الفريق من الشعراء :

هاج الشرّ بين ابن ميادة المري^(٨)، والحكم بن معمر^(٩) الخضري^(١٠)، وكان

(١) قتل هذبة زيادة بن زيد فحبسه الخليفة عثمان، حتى أدرك المسور بن زيادة، وأصر على القود من هذبة، فقتله المسور صبراً أيام الخليفة معاوية. انظر: سمط اللآلئ ١ / ٢٤٩ / ٢، ٦٣٩، وفي المناقضة بينهما انظر: الأغاني ٢١ / ١٧١ — ١٧٢

(٢) انظر الأغاني ٢١ / ١٥ — ١٦

(٣) الأغاني ١١ / ١٦٢

(٤) أبو الوليد أرطاة بن سهية، نسب لأمه، وهو شاعر إسلامي عاش في صدر الإسلام، وأدرك خلافة عبد الملك بن مروان، وقال له عبد الملك: هل تقول اليوم شعراً؟ فقال: كيف أقول وأنا لأشرب ولأطرب ولأغضب، وإنما يكون الشعر بواحدة من هذه، وكان شريفاً في قومه جواداً. انظر: الأغاني ١١ / ١٣٤ والشعر والشعراء ٢٠٥ وألقاب الشعراء ٣٨ والأشتقاق ٢٩٠

(٥) هو من بني مازن بن فزارة، شاعر من مخضرمي الجاهلية والإسلام، قتل سالم بن دارة في خلافة عثمان، وأخباره وأشعاره قليلة. انظر: خزانة الأدب ١ / ٢٩٣ وسمط اللآلئ ٢ / ٦٨٨، ٧٨٩، وأسماء القتالين، لابن حبيب ١٥٦ — ١٥٧، والمناقضة بينهما في الأغاني ١١ / ١٣٧

(٦) الأيبرد الرياحي اليربوعي التميمي، شاعر بدوي فصيح مقل من مخضرمي الجاهلية والإسلام، قيل: عاش مائة وعشرين سنة. انظر: المعمر ٧٥ والأغاني ١٢ / ٩ والأشتقاق ٢٢١ والمناقضة في الأغاني ١٢ / ١٠

(٧) شاعر جاهلي إسلامي، كان هجاً قومه فاستعدوا عليه الخليفة عثمان فتورعه إن عاد. انظر الأغاني ١١ / ١٢١ والشعر والشعراء ٢٤١

(٨) أبو حرملة الرماح بن أبرد من بني مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان، وميادة أمه، شاعر محسن متأخر من مخضرمي الدولتين انظر: الأغاني ٢ / ٨٥ وسمط اللآلئ ١ / ٦٠ والشعر والشعراء ٢٩٨ ومعجم الشعراء ٣١٩ وله شعر في التذكرة السعدية ٢٦

(٩) الحكم بن معمر الخضري، خضر محارب — بن قنبر. قال الأصمعي: ختم الشعر بابن ميادة وحكم الخضري وابن هرمة، وطفيل الكنانى ومكين العذري، انظر ترجمته وأخباره في: الأغاني ٢ / ٨٧ وسمط اللآلئ ٢ / ١٦ ومعجم الأدباء ٤ / ١٢٨ وله شعر في التذكرة السعدية ٤٦١

(١٠) بنو الخضر من محارب، سمو بذلك لسوادهم، وكانوا يفخرون به، والسود عند العرب الخضر (رسائل الجاحظ ١ / ٢٠٧)

سبب ذلك أن الحكم وقف ينشد بمصلى المدينة (موضع في عقيق المدينة) قصيدته في وصف الغيث ، فمر به ابن ميادة ، فوقف عليه يسمع ، حتى انتهى إلى قوله :
يا صاحبي ألم تشيما عارضاً نُصيح الصُّرَادُ به فهضْبُ المنَحْرِ
ركب البلاد وظل ينهض مصعداً نهَضَ المقيَّد في الدَّهاسِ الموقر
فحسده ابن ميادة فقال : أدهشت وأوقرت ، لألم لك ، فمن أنت ؟ قال : أنا الحكم الخضرى قال : والله ماأنت في بيت نسبٍ ولا أرومة شعر ، قال الحكم : قد قلت ماقلت ، فمن أنت ؟ قال ابن ميادة ، قال قبح الله والدين خيرهما ميادة ، لوكان في أيك خير ماانتسبت إلى أملك ... فتهاجيا على إثر ذلك ^(١) .

ومن أهاجيهما ، قول الحكم ، يسخر من ابن ميادة وقومه بنى مرة بن عوف : ^(٢)
فيأمرُ قد أخزأك في كل موطن من اللؤم خلأت يزدن على عشر
فمنهن أن العبد حامى ذماركم وبئس المحامى العبد عن حوزة الثغر
ومنهن أن لم تمسحوا وجهه سابق جوادٍ ولم تأتوا حصاناً على طُهر
ومنهن أن الميت يدفن منكم فيفسؤوا على دفانه وهو في القبر
ومنهن أن الجار يسكنُ وسطكم بريثاً فيلقى بالخيانة والغدر
ومنهن أن الشيخ يوجد منكم يدبُ إلى الجارات محدودب الظهر
فناقضه ابن ميادة ، راداً على ماسبه وسب قومه به ، مقابلاً ماذكر من خصال السوء
لبنى مرة ، بخصال سوء تناظرها لبنى محارب ، قال :

لقد سبقت بالخرجات محارب وفازت بخلاتٍ على قومها عشر
فمنهن أن لم تعقروا ذات ذروة لحق إذا مااحتيج يوماً إلى العقر
ومنهن أن كانت شيوخ محارب كما قد علمتم لا ترش ولا تبرى
ومنهن أن الضأن كانت نساؤكم ^(٣) إذا اخضر أطراف الثمام من القطر
ومنهن أن لو كان في البحر بعضكم لخبث ضاحي جلده حومة البحر

(١) الموشح ١ / ٢٢ . نصح : يقال : نصح المطر البلد : سقاه . الصراد : موضع

(٢) الأغاني ٢ / ١٠٠

(٣) ذكر الجاحظ أن بنى كليب قوم جرير كانوا يرمون بإتيان الضأن ، وأن بنى الأعرج ، وسليم ،

وأشجع ، ترمى بإتيان الممّز (انظر : رسائل الجاحظ ١ / ١٨٩) .

فالهجاء هنا قائم على سلب بعض الفضائل التي يعتز بها العربى ، كالكرم ،
والمروءة ، وحماية الذمار ، والشجاعة ، والوفاء ، والعفة ... وغيرها ، وهو من هذه الناحية
كالهجاء الجاهلى ، غير أن كلا من الشاعرين لم يقف عند هذا الحد من الهجاء ، بل انزلق
إلى الفحش والتعريض بالأعراض ، والاعتماد فى ذلك على العبارات المسفة البذيئة ، والمعانى
المكشوفة ، التى يُستحى من ذكرها ، وقد أعرضنا عن بعضها فلم نورد .

وهذا النموذج يعكس لونين من تطور النقائص ، لم يعرفهما فن الهجاء النقائضى
قبل هذا العصر .

أحدهما : هذا الإفحاش فى الهجاء ، والإسفاف فيه ، والبذاءة فى العبارة .

والآخر : طابع السخرية والتهكم الذى يثير الضحك ، وهو ظاهر فيما قصد إليه
كل من الشاعرين ، من رسم صور هزلية (كاريكاتورية) ، نعتقد أنه ما قصد بها إلا إلى
إثارة ضحك الجماهير المستمعة ، وإعجابهم ، كهذا الميت الذى يفسو على دفانه فى
القبر ، والشيخ العجوز الفانى الذى يدب إلى الجارات ، وهذا التن الذى لو لامس ظاهر
جلده ماء البحر ، لصار البحر كله تننا ، خبيث الرائحة .

وكان الأبيد الرياحى اليربوعى التميمى قد أفسد امرأة من بنى عجل على زوجها ،
وكان بنو عجل قد أصابتهم السنة ، فنزلوا فى جوار بنى يربوع ، فلامه قومه لأنه أساء
الجوار ، ولكنه لم ينته ، فهجاه شاعر من عجل يقال له سلمان ، وعرض بقومه ،
قائلاً (١) :

لعمرك إننى وبنى رياح	لكالعادى فصادف سهم رام
يسوقون ابنَ وجرةَ مزبراً	ليحميهم وليس لهم بِحام
وكم من شاعر لبنى تميم	قصير الباع من بقرِ نيام
وإن يُذكر طعامهمُ بشرٌ	فإن طعامهمُ شرّ الطعام
وسوداءُ المغابن من رياح	على الكُردوس كالفأس الكهام

(١) الأغاني ١٤ / ٩ . مزبر : يقال : ازبأ الرجل للشر : تهبأ . المغابن جمع مَغْبٍ ، وهو الإبط والرفع .
الكُردوس : كل عظمين التقيا فى مفصل ، وكل عظم عظمت نخضته . الكهام هنا : الضعيفة الكليلة . الأطلال : جمع
إطل : الخاصرة . قطرته : صرعه .

ومدار الهجاء في هذا الشعر على ضعف الحماية ، ولؤم شعراء بنى رياح وخستهم ،
وفقر الرياحيين ونخلهم ، وقذارة نسائهم ، وهزالهن .

وهب الأبيد للمناقضة ، فقابل هجاء العجلى بهجاء مثله ، وزاد فافتحز بنفسه
وقومه ، قائلا :

عَوَى سَلْمَانٌ مِنْ جَوِّ فَلَاقٍ أَخُو أَهْلِ الْيَمَامَةِ سَهْمَ رَامٍ
بَنُو عَجَلٍ أَذُلُّ مِنَ الْمَطَايَا وَمِنْ لَحْمِ الْجَزُورِ عَلَى الثَّمَامِ
إِذَا عَجَلِيَّةٌ وَلَدَتْ غَلَامًا إِلَى عَجَلٍ فَقَبَّحَ مِنْ غَلَامٍ
خَبِيثِ الرِّيحِ يُنْشَأُ بِالْمَخَازِي لَتَيْمٍ بَيْنَ أَبْنَاءِ لُئَامِ
أَنَا ابْنُ الْأَكْرَمِينَ بَنُو تَمِيمٍ ذَوِي الْآطَالِ وَالْهَمَمِ الْعِظَامِ
وَكَائِنٌ مِنْ رُئَيْسِ قَطْرَتِهِ عَوَامُلُنَا وَمَنْ مَلِكِ هَمَامِ ...

هجا بنى عجل بالذل ، ولؤم الأصل ودناءته ، والتتن والقذارة ، وافتحز بكرم
قومه ، ومجدهم ، وشجاعتهم .

وهذه المعاني كثيرة الدوران في الهجاء والفخر الجاهليين ، غير أن الشاعر العجلى
جنح في هجائه إلى التعرض لنساء بنى رياح ، ووصفهم بالتتن والقذارة ، فكان هجاؤه
أقرب من هجاء صاحبه إلى طابع الهجاء في النقائض الأموية .

وهناك مناقضة قصيرة جرت بين حكيم بن عيَّاش الكلبي ، والكُميت بن زيد
الأسدي ، تعكس لنا لمحة من تطور فن النقائض في العصر الأموي ، سنهاها أسلوبا قويا
بارزا في نقائض الفحول ، وبخاصة نقائض جرير والفرزدق ، نغني بها النقض القائم على
المنطقية الفكرية ، والذي هو أثر من آثار الجدل والمناظرة ، اللذين شاعا في مجالس
المتكلمين في هذا العصر ، ويقدم لنا هذه اللمحة الكميّة الفقيه المعلم المتكلم ، كما
عرفناه من قبل .

قال حكيم ^(١) :

ماسرّني أن أُمّي من بني أسدٍ وأن ربّي نجّاني من النارِ
وأنهم زوجوني من بناتهم وأن لي كلّ يوم ألف دينارٍ
ورَدَّ عليه الكميّة قائلا :

ياكلُبُ مالك أمّ من بني أسدٍ معروفةٌ فاحترق ياكلُبُ بالنار
لكن أمك من قومٍ شئتَ بهم قد قَتَعوك قنّاع الخزى والعار

فابن عياش يرفض أن يكون من أهل الجنة ، إذا كان هذا يقتضى أن تكون أمه من بني أسد ، قوم الكميّة ، ويأى أن يتقاضى ألف دينار يوميا ، على شريطة أن يتزوج أسدية .

فينبى له الكميّة ناقضا معناه منطقيا ؛ حيث يقرر أن أمه ليست من بني أسد ، ويرتب على ذلك النتيجة المنطقية التى فضلها الشاعر الأول ، وهى أن لاينجيه الله من النار ، فليحترق إذن بنار جهنم التى يفضلها ، ثم يعود فيقابل هجاء نساء بني أسد بهجاء أم حكيم ، التى تنتمى إلى قوم ذوى ضعة ، مما أكسب ابنها الخزى والعار ؛ لكون أمه من قوم هذه صفتهم .

(٢) هذه النقائض وأمثالها مما جرى على ألسنة كثير من شعراء عصر بني أمية ، الحين بعد الحين ، لم تبلغ من الجودة ، وطول النفس ، ودقة التريص ، ونضج الفن وذويع الشهرة ، مابلغته نقائض أمراء هذا الفن فى العصر الأموى ، ونعنى بهم أولئك الفحول ، الذين شغلوا بالنقائض ، وشغلوا بها جمهور عصرهم ، وحكامه ، وشعراءه ، ونقادته ، وعلماءه ، وعلى رأسهم ، جرير والفرزدق والأخطل ، ثم الراعى النميرى ، والبعيث المجاشعى .

— ٥ —

نقائض جرير والفرزدق :

من المسلم به أن المناقضة بين هؤلاء الفحول ، لم تنشأ عن باعث المنافسة الأدبية ، وإثبات التفوق الفنى فى عبقرية الشعر ، إذ من المعروف أنها تدين فى أصل نشأتها لعوامل سياسية ، أو قبلية ، أو بواعث هى مزيج من النعرات السياسية والقبلية معا .

وهذا أمر طبيعي مادام هؤلاء الفحول لم يكونوا بمنأى عن ميادين الصراع السياسى والقبلى فى عصرهم ، فقد انغمسوا فى هذه الميادين ، حتى عدوا فى مقدمة شعراء العصر السياسيين والقبليين .

على ضوء هذا نستطيع أن نلتمس جذور المناقضة التى شبت بين جرير والفرزدق .

نعرف من تسلسل نسب الشاعرين أن كلا منهما يعلو نسبه حتى يتصل بقبيلة تميم ، ولكن مسار النسب إليها يختلف بينهما ، فالفرزدق من بنى مجاشع ، وجرير من بنى كليب بن يربوع ، ولم تكن بين الحيين (مجاشع ويربوع) عصبية تقتضى المواجهة بين فحلى تميم ، إلى أن حدث نزاع بين رهطين من بنى يربوع ^(١) ، هما بنو الخطفى رهط جرير ، وبنو جحيش بن سيف بن جارية بن سليط ، فكان بنو الخطفى يهجونهم ، ولم يكن فى بنى جحيش شعر ، فلاذوا بغسان بن ذهيل بن البراء بن سليط ، فهجأ بنى الخطفى دفاعا عن أبناء عمومته بنى سيف ، ووقف جرير على هذا الهجاء ، فركب إلى بنى سليط وهجأهم فى رجز قبيح أوردناه فى الشعر القبلى ^(٢) ، ثم لجَّ بينهما الهجاء ، واتخذ أسلوب المناقضة ، فقال غسان أبياته التى يقول فيها ^(٣) :

لعمري لئن كانت بجيلة زانها جرير لقد أخزى كليباً جريرها
وناقضه جرير بقصيدته التى مطلعها :

ألا بكرت سلمى فجداً بكورها وشقَّ العصا بعد اجتماع أميرها
فأوجعه وأخزاه ، وأخزى قومه ^(٤) .

ثم ورد البيث المجاشعى ^(٥) على بنى ذهيل (قوم غسان) ، وكانت بينهما قرابة من

(١) هو نزاع اقتصادى تحول إلى قبل انظر فيه : تاريخ النقائض ١٧٨ — ٢١٣

(٢) راجع ص ٢٥٨ من هذه الدراسة

(٣) النقائض لأبى عبيدة ص ٦

(٤) سبقت دراسة هذه المهاجة . راجع ص ٢٥٩ من هذه الدراسة

(٥) أبو يزيد خدّاش بن بشر بن خالد ، من بنى مجاشع بن دارم من تميم ، والبيث لقب له ، بدأ جريراً بالهجاء فغلبه جرير ، قال ابن رشيّ : وكان مغلباً فى الشعر غلباً فى الخطب — (العمدة ١ / ٦٨) ومع ذلك نال من جرير أحياناً ، قيل لبنى كليب : ما أشد ما هجيتهم به ؟ قالوا : قول البيث :

ألست كلييباً إذا سم خطّة أقر كإقرار الخليفة للبل

وكل كلييبى صحيفة وجهه أذل لأقدام الرجال من النعل

(العمدة ٢ / ١٤٢) وتوفى البيث سنة ١٣٤ هـ ، انظر : الأغاني ٧ / ٤١ وسمط الآلى ١ / ٢٩٦ والتذكرة السعدية ٥١٧

جهة امرأة تدعى التوار من بنى مجاشع ، كانت في بنى ذهيل ، فشكوا إليه قهر جرير غساناً ، فقال البيث (١) :

كُليب لئام الناس قد يعلمونه وأنت إذا عُدت كليباً لئيمها
أترجو كليباً أن يجيءَ حديثُها بخير وقد أعيا كليباً قديمها ...
فناقضه جرير وأفحش ، في قوله من (٢) طويلة :

فما ناصفتنا في الحفاظ مجاشعٌ ولا قايسثُ بالمجد إلا نَضِيمُها
ثم يفخر بانتصارات يربوع وأبجاد تميم ، ويقصد إلى البيث ، فيهجوه ، ويتناول أمه بحديث غاية في الفحش والإسفاف ، أهونه قوله :

له أم سوءٍ ساء ماقدمت له إذا فارطُ الأحساب عُدَّ قديمها
بنى مالك إن البغال مجاشعاً مباحٌ بحمراء العجان حريمها
ثم يسخر من بنى مجاشع لاعتمادهم على البيث في الدفاع عنهم :

لئن راهنت عَدُوّاً عليك مجاشعٌ لقد لقيت نقصاً وطاشت حلومها
فأبقوا عليكم واتقوا نابَ حَيَّةٍ أصاب ابن حمراء العجان شكيمها...
أتشتم يربوعاً لأشتم مالكاً وغيرك مولى مالكٍ وصميمها

ومعلوم أن مالكا الأب الأكبر لمجاشع ودارم ، وهو يشير بهذا إلى أن الفرزدق أحق من البيث بالدود عن بنى مالك ، والتحدث باسمهم .

وبالفعل استغاث البيث بفحل مجاشع الفرزدق ، ووجه إليه الدعوة للدخول في المعركة بينه وبين جرير ، وكان الفرزدق بعيداً عن الميدان بالبصرة ، مقيداً نفسه ، عاكفاً على قراءة القرآن أو حفظه ، حالفاً أن يهجر الشعر (٣) ، قائلاً للفرزدق (٤) :

لعمري لئن أُلْهِى الفرزدق قيده ودُرْجُ نَوَارٍ ذو الدَّهَانِ وذو الغَسَلِ
ليبتعنن منى عُدَاةُ مجاشعٍ بديهة لاوَانِي الجِرَاءِ ولاوَعْلِ

(١) ابن سلام ٣٢٧ ، ٣٨٦ (المدني)

(٢) ديوانه ٥٤٧ — ٥٥٠ ابن حمراء العجان : سب كان يجري على ألسنتهم ، والعجان : ما بين القبل والدير بين الرجلين ، يعني أنها أمة مستخدمة متهنة في العمل ، فيعرق ذلك المكان منها ، فيتسلخ ويحمر .

(٣) انظر : ابن سلام ٣٨٦ ومعاهد التنصيص ١٧ / ١ والأغاني ١٩ / ٦

(٤) ابن سلام ٣٨٧ (المدني) .

وسرعان ما فلك الفرزدق وثاقه ، وزحف إلى المعركة ، ملبياً دعوة البعيث بقوله ^(١) :
 دعاني ابنُ حمراء العجان ولم يجدْ له إذ دعا مستأخراً عن دُعائيا
 فنفست عن أنفيهِ حتى تنفساً وقلتُ له لاتخشَ شيئاً ورائيا

ولم يكن البعيث هو المستغيث وحده ، وإنما نساء بنى مجاشع أيضاً ، فقد جئن إلى الفرزدق ، ولمنه على ترك جرير يهتك عوراتهن ، ويأكل البعيث ^(٢) .

والذي يبدو أن الفرزدق لم يكن راغباً في هذه الملاحاة مع قرنه فحل يربوع ، وأنه اضطر إليها اضطراراً ، مما أحققه على البعيث ، الذي جره إلى أمر لا يروقه ، يدل على هذا قوله ^(٣) :

فإن يدعني باسمي البعيثُ فلم يجدْ ليئماً كفي في الحرب ما كان جانيا
 ومأنت منّا غير أنك تدعى إلى آل قُرطٍ بعد ماشبت عانيا
 تكون مع الأذنى إذا كنت آمنا وأدعى إلى غمّ الغناء التراقيا

على أية حال نهض الفرزدق إلى مناقضة جرير ، دفاعاً عن أحساب قومه :
 فقلت أظن ابن الخبيثة أنسى شغلت عن الرامي الكنانة بالنبل
 فإن يك قيدي كان نذراً نذرتي فما يبى عن أحساب قومى من شغل...

ثم تناول جريراً وقومه ، وعلا عليه وعليهم ، وسقط البعيث بين الفحلين منذ أن التحما ، وانصرفا عنه ، وانعدم أو ندر التحامه بأحدهما « ولا سيما أنه قد ، شاخ فصار ذكره في النقائض ذكراً ، أو مثلاً للعدو المهزوم » ^(٤) .

هذه الوقائع ناطقة بأن النقائض بين جرير والفرزدق نشأت نشأة قبلية خالصة ، ومدفوعة بعصبية كل منهما لقومه ، يجمع بينهما الفخر بتميم ، قبيلتهما الكبرى ، وتفرقهما العصبية الخاصة ، عصبية الفرزدق لبنى مجاشع ، وعصبية جرير لبنى يربوع .

(١) ابن سلام ٣٨٨ وليس في ديوانه . نفست عن أنفيه : كناية عن التفرج عنه بالتصدي للجرير .

(٢) انظر ديوانه ٢ / ١٥٢ (بيروت) والنقائض ١٦٦

(٣) ديوانه ٢ / ٣٦١ (بيروت) .

(٤) تاريخ النقائض ٢٨٠

ومع ذلك نجد من الباحثين المحدثين من يذهب إلى القول بأن الخصومة السياسية بين قيس الزبيرية الهوى ، المعادية لبنى أمية ، وتميم الموالية للأمويين ، وأن اختلاف هذا المنزع السياسى كان «من الأسباب الكبرى التى حركت نيران التهاجى بين الشعاعين»^(١) . ويستند هذا رأى على أن الفرزدق كان لسان تميم المحامى عنها ، فهو فى مواقفه السياسية محكوم بسياسة قبيلته ومصالحها^(٢) ، وأن جريرا كان محكوما هو الآخر بسياسة قومه بنى يربوع الذين شاءت الظروف أن يقفوا موقف قيس من الأمويين^(٣) ، حين سارعت إلى الانضمام إلى جبهة ابن الزبير ، مخالفة بذلك موقف القبيلة الكبرى ، فوجد جرير نفسه مدفوعا إلى مناصرة قيس والوقوف فى صفها ، حتى عد لسان قيس المحامى عنها .

وفى الحق أننا نجد صدى هذين الموقفين بارزا فيما كان بين الشعاعين من مناقضة ، فالفرزدق يهجو جريرا ويهجو القيسيين معه ، وجرير يرد عليه معتزا بولائه للقيسية^(٤) .

والذى نراه أن عامل السياسة لم يكن له هذه الأهمية فى بدء المناقضة بين جرير والفرزدق :

أولا : لأن بدء المهاجاة بينهما يحدد تاريخياً بسنة ٦٧ هـ ، تقريبا^(٥) ، أى بعد قيام دولة ابن الزبير بسنوات (أعلن ابن الزبير خليفة ٦٣ هـ) فلماذا لم يصطدم الشعاعان خلال دولة ابن الزبير حتى هذا التاريخ ؟ مع أن الخلاف فى النزعة السياسية بين تميم وقيس كان عنيفا وواضحا حتى قبل أيام ابن الزبير ، وأن العداء القبلى بينهما قديم يضرب بجذوره إلى العصر الجاهلى^(٦) .

(١) الشعر الأموى (د . فتوح أحمد) ١٣٤

(٢) المصدر السابق ١٤١

(٣) المصدر السابق ١٤٧

(٤) انظر ديوان الفرزدق ١٦١ - ١٦٨ ، ٢٩١ ، ٣١٠ - ٣١٧ (بيروت) وديوان جرير ٢٦٧ ، ٥٥٥ ، ٥٦٢ ومواقع أخرى .

(٥) انظر تاريخ القلائض ٢٨٢

(٦) راجع فى الأيام التى كانت بين قيس وتميم فى الجاهلية : العقد الفريد ٣ / ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٢٨ ،

وثانيا : لو كان الأمر أمر ولاء سياسى ، لارتبط الفرزدق بالأمويين ، تبعا لارتباط ولاء قبيلته بهم ، ولرأينا للفرزدق من الخطوة عند بنى أمية ، ما كان للأخطل التغلبى فى بلاطهم ، حتى عدوه شاعرهم ؛ إذ كان مرتبطا بسياسة قومه الموالية لبنى أمية ، ولظهر هوى الفرزدق السياسى فى بنى أمية مقترنا بهوى قومه فيهم .

والذى نعلمه أن العلاقة بين الفرزدق والأمويين لم تكن على المستوى الوثيق الذى كان بين تميم وبنى أمية ، فقد ظل بعيدا عن بلاط الأميين سنوات عديدة حتى أيام سليمان بن عبد الملك (ولى الخلافة سنة ٩٦ هـ) ، بل كانت له مواقف عدائية مع بعض الأمويين ، منها موقفه من معاوية حين ظلم أحد بنى مجاشع فرد ميراثه إلى بيت المال ، إذ قال فيه ^(١) مفاخرها مهددا :

أتأكل ميراث الحُتاتِ ظلامَةً وميراث حربٍ جامد لك ذائبه
أبوك وعمى يامعاوى أورثا ثراثاً فيحتارُ التراثُ أقاربه
وكم من أبٍ لى يامعاوى لم يكن أبوك الذى من عبد شمس يقاربه
ولو كان هذا الأمر فى غير ملككم لأدّيته أو غَصَّ بالماء شاربه
ولو كان إذ كنّا وللکفِّ بسطةً لصممَ غَضْبٌ فيك ماضٍ مضاربه

كما طارده زياد بن أبيه وشرده ، حتى قصد سعيد بن العاص والى المدينة واستجاره ، وقال فى ذلك : ^(٢)

ألا من مبلغ عنى زيادا بأنى قد لجأتُ إلى سعيد
وأنى قد فررت إليه منكم إلى ذى المجد والحسب التليد
فراراً من شتيم الوجه ورِدٍ يُفِرُّ الأسدُ خوفاً بالوعيد

بل إن له شعرا فى الديوان يصف فيه بنى أمية بالجور ، ويهددهم بقطع ما بين قومه وبينهم ^(٣) :

إن تنصفونا يال مروان نقترب إليكم وإلاّ فأذنوا ببعادٍ

(١) ديوانه ١ / ٤٥ ، ٥٣

(٢) ديوانه ١ / ١٤٦ (بيروت)

(٣) المصدر نفسه ١ / ١٦٠

فإن لنا عنكم مراحاً ومذهباً بعيسٍ إلى ربح الفلاة صَوَادِي
وفي الأرض عن ذى الجور منأى ومذهبٌ وكل بلاد أوطنتك بلادى
وماذا عسى الحجاج يبلغ جَهْدُهُ إذا نحن خَلَفْنَا حفير زياد

بل إنه هجا هشام بن عبد الملك ، لما حفر خالد بن عبد الله القسرى واليه على
العراق النهر ، الذى سماه المبارك ، وذلك بقوله : (١) :

أَهْلَكَتْ مَالَ اللَّهِ فِي غَيْرِ حَقِّهِ عَلَى نَهْرِكَ الْمَشْتُومِ غَيْرِ الْمُبَارَكِ
إِنْ تَفَاقَ مَالُ اللَّهِ فِي غَيْرِ كُنْهٍ وَمَنْعاً لِحَقِّ الْمُرْمَلَاتِ الضَّرَائِكِ
فَأَرْسَلَ خَالِدٌ إِلَى مَالِكِ بْنِ الْمُنْذَرِ بْنِ الْجَارُودِ ، أَمِيرِ شَرْطَةِ الْبَصْرَةِ ، أَنْ أَحْبِسَ
الْفَرَزْدَقَ فَإِنَّهُ هَجَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَحَبَسَهُ ، فَشَفَعَ لَهُ جَرِيرٌ عِنْدَ هِشَامٍ حَتَّى أَطْلَقَهُ .
وهل أدل على عزوف الفرزدق عن الأمويين ، وإيثاره تجنب بلاطهم ، من قوله
لسليمان بن عبد الملك (٢) :

فَلَوْ كَانَ لِي بِالشَّامِ مِثْلُ الَّذِي جَبَّتْ ثَقِيفٌ بِأَمْصَارِ الْعِرَاقِ وَأَكْثَرِ
فَقِيلَ إِنَّهُ لَمْ آتِهِ الدَّهْرُ مَادَعَا حَمَامٌ عَلَى سَائِي هَدِيلاً فَقَرَّقَا
تَرَكْتُ بَنِي حَرْبٍ وَكَانُوا أَثَمَةً وَمُرَوَّانَ لَا آتِيهِ وَالْمُتَخَيِّرَا
أَبَاكَ وَقَدْ كَانَ الْوَلِيدُ أَرَادَنِي لِيَفْعَلَ خَيْرًا أَوْ لِيُؤْمِنَ أَوْجِرَا
فَمَا كُنْتُ عَنْ نَفْسِي لِأَرْحَلَ طَائِعاً إِلَى الشَّامِ حَتَّى كُنْتُ أَنْتَ الْمُؤَمَّرَا

معنى هذا كله أن الفرزدق غلبت عليه القبلية وحركته ، حتى خاصم في
سبيلها الخلفاء والولاة كلما تعرضوا لمصالح تميم ، ونفى جريرا عن تميم لدفاعه عن
القيسيين أعدائها ، وساعد الأخطل على هجاء يربوع ، رهط جرير ، لما فضل
الأخطل دارماً على بنى كليب بن يربوع ، وتيما على قيس .

وأغلب الظن أن مافي نقائضه من مادة ذات صبغة سياسية ، إنما كان أكثره
من قبيل إغاضه جرير من ناحية ، والانتصار لعصبية القبيلة من ناحية أخرى .

(١) ديوانه ٢ / ٥٩ (بيروت) وابن سلام ٣٤٧ (المدني)

(٢) ديوانه ١ / ١٩٧ . الأوجر : الخائف

فلنطمئن إذن إلى أن المناقضة بين شاعري تميم قامت أساساً انتصاراً ، للعصبية القبلية .

ثم لما اتصلت بينهما الأهاجي والنقائض ، نسي كل منهما ، أو تناسى ، باعثها الأصلي ، وتحولت على أيديهما إلى ما يشبه أن يكون مهنة أو حرفة ، تأخذ شكل مساجلات أدبية .

و لعل هذا هو الذى دفع جريرا إلى أن يترك ديار قومه باليمامة ، ويأتى إلى البصرة مقيما ؛ ليكون فى مواجهة الفرزدق ، وليكون لنفسه جمهورا بالمريد ، الذى أخذ يختلف إليه ليلقى قصائده فيه على مرأى ومسمع من الجماهير المحتشدة ، المتعطشة لسماع هذا الفن ، ونعتقد أنه لو ظلت النقائض بينهما قبلية الباعث ، لبقى جرير باليمامة يرسل الفرزدق بالهجاء من هناك ، كما ظل بها وهو يهاجى البعith ، ويظهر هذا من قول الفرزدق (١):

أتانى أحاديث البعith ودونه زرود فشامات الشقيق إلى الرمل

أى أته شكوى البعith من هجاء جرير فيه وفى قومه بنى مجاشع ، والفرزدق بالبصرة وقومه بهذه الأماكن التى أشار إليها .

وربما استشعر البعith هذا التحول إلى المجد الأدنى بين الشاعرين ، فأكلته الحسرة على حظه منه الذى ضاع بتدخل الفرزدق ، مع أنه هو الذى استغاث به ، وقد عبر عن هذه الحسرة فى قوله للفرزدق (٢) :

أشاركتنى فى ثعلبٍ قد أكلته فلم يبق إلا رأسه وأكارعه ...

عاش الشاعران بالبصرة ، فكانا يقصدان المريد ، وينشدان الناس أهاجيها ، ويستثيران أثناء ذلك حماس الجماهير ، وكل منهما يبذل غاية جهده فى إلهاب حماس الناس لفنه ، وفى التفوق على صاحبه .

لهذا نرى أن فن النقائض بين جرير والفرزدق تحول بعد نشأته القبلية إلى خصومة

(١) ديوانه ٢ / ١٥٣ (بيروت)

(٢) ابن سلام ٣٨٩

أدبية ، ترمى إلى الاستثثار بإعجاب الجماهير ، التى تتحلق حول كل منهما فى مريد البصرة ، ولم يعد كل هم جرير أو الفرزدق أن يرضى قبيلته ، بل لعله لم يعد يفكر فيها إلا باعتبارها مصدر فخار لنفسه ، وجزءا من الجماهير المحيطة به ، المعجبة بفنه .

ولسنا ننكر أن جانبا كبيرا من مادة هذه النقائض يتحدث عن القبيلة ، ومفاخرها ، وأمجادها ، وأحسابها ، ومثالب أعدائها ، ولكننا نرى أن هذه المادة القبلية ، لم تكن غاية أى منهما من الهجاء والفخر ، إنما كانت الغاية الفوز برضا الجمهور المعجب بهذا الفن ، وإثبات التفوق الفنى على الخصم ، وأنه أرسخ منه قدما فى هذا الفن ، ومن ثم حرص كل منهما « على إبراز مهارته الفنية وبراعته فى إفحام خصمه ، برد معانيه وصوره ، وقوافيه وأوزانه ... [وإظهار] مقدرته على السخرية من صاحبه وتحقيره ، بتصويره فى صورة (كاريكاتورية) تبالغ فى تجسيم العيوب الحسية والنفسية ، فيستثير بذلك منابع التفكه فى وجدان الجماهير ، ويشركهم معه فى الهزؤ بصاحبه والتهكم به أو بآبائه » (١) .

ومن دلائل هذا إلحاح الفرزدق على ذم عطية الخطفَى والد جرير ، والإكثار من تقديمه فى صور ساخرة تثير الضحك ، من مثل قوله فيه : (٢)

إِنَّا لَنَضْرِبُ رَأْسَ كُلِّ قَبِيلَةٍ وَأَبُوكَ خَلْفَ أَتَانِهِ يَتَقَمَّلُ

وقوله (٣) :

هُمُ أَيُّهُوَا نِي إِذْ عَطِيَّةٌ قَائِمٌ لِيَنْهَقَ خَلْفَ الْجَامِحاتِ الصَّلَامِ

فعطية هكذا دائما يجرى وراء الحمير ، أو يرمى الغنم ، ويقيم هو وزوجه لها

الخطاير : (٤)

قال ابن صانعة الذروب لقومه لأستطيع رواسى الأعلام
قالت تجاوبه المراغة أمه قد رمت ويل أليك كل مرام
فاسكت فإنك قد غلبت فلم تجد للقاصعاء مآثر الأيام

(١) الشعر الأموى (فتوح) ١٣٢

(٢) ديوانه ٢ / ١٥٨ (بيروت) ينقل : ينزع القمل من جسمه .

(٣) المصدر السابق ٢ / ٢٤٤ أيهوى : نادوى

(٤) المصدر السابق ٢ / ٣٠٥

وفى عطية أيضا يقول (١) :

وترى عطية ضارياً بفنائـه ربقين بين حظائر الأغنام
متقلداً لأبيه كانت عنده أرياق صاحب ثلّة وبهّام
مامسٌ مُذْ وَلَدَتْ عطية أمه كفّا عطية من عَنانِ الحَمامِ

وهذه الصورة التي تصرع الخليّ من الضحك (٢) :

تركنا جريرا وهو في السوق حابسٌ عطية هل يلقى به مَنْ يبادلـه
فقالوا له رُدِّ الحمار فإنه أبوك لئيم رأسه وجحافلـه

كما يكثر جرير من تصوير الفرزدق بأنه قَيْنٌ وابن قَيْنٍ ؛ لأن جده صمصمه كان يقتنى بعض القيون في الجاهلية ، ويلح جرير على هذه الصورة ، حتى لكأنما لم يعد للفرزدق من سمة غيرها ، فيهبج بذلك سخرية الجماهير به .

وهذا الطابع الشخصي في الهجاء — ومثله في الفخر كما سنرى — إلى جانب الميل إلى السخرية ، هو الذي أضفى على نقائض جرير والفرزدق — بعد فترة النشأة القبلية — نزعة الخصومة الفردية ، أو ما أسميناه بالمنافسة الأدبية .

وقد نرانا بحاجة إلى ما يؤكد تحول الخصومة بين الشعارين من النزعة القبلية ، إلى تنافس أدبي ، يتغيا التفوق في مضمائر الفخر والهجاء .

حكى أبو عبيدة معمر بن المثنى أن جريرا والفرزدق خرجا إلى الرصافة مرتدين على ناقة ، قاصدين هشام بن عبد الملك ، وفي الطريق نزل جرير لقضاء حاجته ، فضجرت الناقة وأخذت تلوى عنقها يمينا وشمالا ، ف ضربها الفرزدق ، وقال (٣) :

إلامَ تَلْفَتينِ وأنتِ تحتى وخير الناس كلهم أمامى
متى تَرِدِى الرصافة تستريحى من التهجير والدُّبر الدَّوامى

وقال في نفسه ، الآن يجيء جرير فأنشده البيتين ، فيقول :

(١) نفسه ٢ / ٣٠٦

(٢) ديوانه ٢ / ١٧٣

(٣) وفیات الأعيان ١ / ١٢٨ وديوانه ٢ / ٢٩٢ (بيروت) والأُمالي للقالى ٢ / ٢٣٩ وانظر بدائع البدائة ١ / ٢١

تَلَفْتُ إِنِّهَا تَحْتَ ابْنِ قَيْنٍ إِلَى الْكَيْرِينَ وَالْفَاسِ الْكِهَامِ
مَتَى تَرِدُ الرِّصَافَةَ تَحْزَنَ فِيهَا كَخَزِيكَ فِي الْمَوَاسِمِ كُلِّ عَامٍ

فجاء جرير ورأى الفرزدق يضحك ، فقال : ما يضحكك يأبأ فراس ؟ فأنشده
بيته الأولين ، فرد جرير بالبيتين الآخرين ، فقال الفرزدق : والله قد قلت هذا ، فقال
جرير : « أما علمت أن شيطاننا واحد » .

فهذا الخبر وسياقه يدلان دلالة قاطعة على انتفاء أية عداوة حقيقية بين
الشاعرين .

ويروى ابن سلام ^(١) أن الفرزدق لقي عمرو بن عطية أخا جرير — وجرير حينئذ
يهاجي عمرو بن كَبْأ — فقال له : ويلك ، قل لأخيك — ثكلتك أمك — إيتِ التيمي
من علِّ كما أصنع بك أنا ، وكان الفرزدق قد حمى وأنف لجرير أن يتعلق به التيمي .

وهل كان الفرزدق يحمى ويأنف لجرير لو كانا عدوين ، متباغضين حقا ؟!
وقد رأينا منذ قليل كيف دافع جرير عن الفرزدق عند هشام بن عبد الملك ، لما
حبسه خالد بن عبد الله القسري ، وشفع له حتى أطلقه .

لقد آل الأمر بين جرير والفرزدق إلى نوع من التعاطف ، والبراءة من الضغائن
والتحاسد ، والأحقاد ، فأصبحت المناقضة بينهما « ضربا من الحوار النظمي ، وميدانا
للمباراة الأدبية ، مع احترام كل صاحبه ، وعرفانه قدره وبراعته في باب النقائض ، وتفردهما
فيه بالمكانة الممتازة » ^(٢) .

وهذا التعاطف هو الذى جعل جريرا يحزن أشد الحزن لوفاة الفرزدق ، ويبكيه
قائلا : أما والله إنى لأعلم أنى قليل البقاء بعده ، ثم يرثيه رثاء حارا صادقا ، بقوله من
قصيدة ، ناسبا إليه فيها كل ما ينسب إلى السيد العربى الجليل ، واصفا خسارة قبيلتهما
بفقد هذا الشاعر الفذ ^(٣) :

(١) طبقاته ٤٣٣

(٢) تاريخ النقائض ١٨٠

(٣) ديوانه ٤٠٧

لعمري لقد أشجى تيمماً وهدها على نكبات الدهر موثُ الفرزدق
لقد غادروا في اللحد مَنْ كان ينتمى إلى كل نجم في السماء محلّق
لتبك عليه الإنس والجن إذ ثوى فتى مُضر في كل غرب ومشرق ...
كما يبكي فيه رجال لن تأتى النساء بمثله ، حاميا للذمار ، مصلحا لما فسد من أمر
قومه ، ساعيا لهم بالخير عند الحكام (١) :

فلا ولدتْ بعد الفرزدق حاملٌ ولا ذاتُ حملٍ من نفاسٍ تعلت
هو الوافد المأمونُ والرأتق الثأى إذا النعلُ يوماً بالعشيرة زَلَّتْ
وعن هذه الروح صدر جرير في قوله لابنه عكرمة ، وقد سأله عن أشعر الناس في
الإسلام : « الفرزدق نبعة الشعر في يده » (٢) .

فالصلة بين الشاعرين لم تكن منبته ، بل كانت صلة مودة ، فلا ينبغي أن نخدع
بما في تهاجيها من عنف وتجريح ، وسخرية لاذعة ، فما كان هذا عن بغض وتحاسد
وعداوة ، وإنما هي المنافسة الأدبية ، التى التقت فيها روح الشاعرين ، وتشابه فيها
شيطاناهما « ولم يجدا لهما نِداً يقف مواقفهما ، فكانت مناقضاتهما مظاهر
امتيازهما » (٣) .

نعم ، كانا يقومان بهذه المناقضة بقصد المنافسة الأدبية ، لا بقصد التخاصم ،
وكان مَنْ حولهما يعرفون ذلك ، ففى حديث لجرير مع أبى جندل الراعى التميمى مايدل
على أنه وصاحبه الفرزدق ، كانا يرميان إلى غاية فنية ، فهو يعتب على الراعى تفضيله
الفرزدق عليه ، ويقول له : كان يكفيك ، إذا ذكرنا ، أن تقول كلاهما شاعر كريم ،
ولا تحتمل منى ولامنه لائمة (٤) ، فمناط العتاب ، كما نرى ، هو حرص جرير على أن
لا يفضل عليه الفرزدق فى الشاعرية ، لافى العصبية القبلية ، ولا فى الانتفاء السياسى .

(١) دوانه ٨٨ وابن سلام ٤١٧ (المدنى) والأغانى ٧ / ٧٢ ، ١٩ / ٤٥ ومعاهد التنصيص ١ / ١٩ ، ٢٣١ .
تعلت : سلمت وصحت . الثأى : الفساد .

(٢) العمدة ١ / ٦١ وفى أمالى القالى ٢ / ١٨١ أن الذى سأل جريرا بعض خلفاء بنى أمية ، فقال : « بيده نبعة
الشعر قابضا عليها » .

(٣) تاريخ النقائض ١٧٩

(٤) معاهد التنصيص ١ / ٢٢٩ وانظر : الأغاني ٧ / ٤٣ ، ٤٦

حتى ولاية العراق كانوا على إدراك لهذه الحقيقة في العلاقة بين الشعارين ، دليل ذلك أن الحجاج بن يوسف الثقفي ، وإلى العراق ، يطلب إليهما أن يمثلًا بين يديه تمثيلية الهجاء والفخر (المناقضة) على أن يلبس كل منهما ملابس آبائه في الجاهلية ، فيأتى الفرزدق ، وقد لبس الديباج والخز ، وقعد في قبة ، وشاور جرير دهاة بنى يربوع ، فقالوا له : ما لباس آبائنا إلا الحديد ، فلبس جرير درعا ، وتقلد سيفاً ، وأخذ رمحاً ، وركب فرساً ، وأقبل في أربعين فارساً من بنى يربوع ، وجاء الفرزدق في هيئته التي ذكرنا ، وبدأ الفرزدق هذه الملهاة بقوله (١) :

وإن كُلياً إذ أتتني بعبدِها كمن غرّة حتى رأى الموتَ باطله
رَجَوْا أن يردّوا عن جرير بدرعه نوافذ ماأرمى وما أنا قائله
عجبتُ لراعى الضّان في حُطيمية وفي الدرع عبدٌ قد أُصيّبت مقاتله
وهل تلبس الحبل السّلاحَ وبطنها إذا انتطقت عبءٌ عليها تعادله ؟

فأجابه جرير بنفس الروح الساخرة ، قائلا (٢) :

ليست أداني والفرزدق لعبةً عليه وشاحاً كُرّج وجلاجله
أعِدُّوا مع الحلي المَلابَ فإنما جريرٌ لكم بعلٌ وأنتم حلائله
وأعطوا كما أعطت عَوانٌ حليلها أقرتُ لبعلٍ بعد بعلٍ ترأسله
أمن سَفِه الأَحلام جاءوا بقردهم إلى وما قردٌ لِقَرَمٍ يُصاوله ؟

ففي هذه المناقضة هجاء وفخر هزليّ مضحك ، وفيما تركنا من قصيدي الشعارين فحش وإسفاف وسباب ، وتصريح بما يقبح ذكره ، ومع ذلك فالموقف أشبه بتمثيلية هزلية — كما نرى .

وعلى هذا النحو طلب منهما بشر بن مروان أن يتفاخرا في مجلسه ، بما لم يسبق

(١) ديوانه ١٧٣ / ٢ (بيروت) الدرع الحطمية : المنسوبة إلى حطمة بن محارب بن عمر بن وديعة بن بكير بن عبد القيس بن أفصى ، وقال ابن الكلبي : هي منسوبة إلى حطم ، وهو أحد بنى عمرو بن مرثد من بنى قيس بن ثعلبة ، وقال الأصمعي : لأعلم ما تنسب إليه . العمدة ١٨٠ / ٢

(٢) ديوانه ٤٨٢ والأغاني ٦٧ / ٧ ومسالك الأبصار ١ / ٢٤٨ وبدائع البداة ٦٧ / ٢

لهما أن تفاخرا به ، ففعلا ، فحكم بشر جرير ، بالغبلة ، وأحسن جائزتهما ^(١) .
ونورد نموذجا للمناقضة بين الفحلين ؛ لنكون على بينة من عناصر هذا الفن ،
وكيف تطورت على يديهما .

للفرزدق طويلة (٩٢ بيتا) يفخر فيها على جرير بالانتاء إلى أكرم قبيلة (تميم) ،
ويفضل قومه بني مجاشع على بني كليب قوم جرير ، ويهجو جريرا وقومه هجاء
قبيلها ^(٢) ...

ويمكن تقسيم هذه النقيضة إلى العناصر التالية :

(١) — الفخر بتميم وذكر مآثرها .

(٢) — فخر قبلي بقومه بني مجاشع ودارم .

(٣) — هجاء قبلي (٤) فخر شخصي (٥) هجاء شخصي

يبدأ الفرزدق بالفخر بقبيلته الكبرى تميم ، وكأنه لا يرى صاحبه جديراً بالانتساب
إليها ، ومن ثم يتجاهل نسب جرير في تميم ، فهو وحده الأحق بشرف الانتساب إلى هذه
القبيلة الماجدة ، بحماية حماها ، وشجاعة أبنائها ، ورعايتهم لحق الجار :

لاقومَ أكرمُ من تميم إذ غدتْ عوذُ النساءِ يُسَقْنَ كالأجال
الضاربون إذا القبيلة أحجمتْ والنازلون غداة كل نزال
والضامنون على المنيّة جارهم والمطعمون غداة كل شمال

ولانجد في رد جرير على هذه النقيضة ^(٣) (عدته ٧٣ بيتا) مايقابل هذا الفخر ،
وهذا طبيعي ، فهو من تميم ، مهما تجاهل الفرزدق هذا النسب ، أو دفعه ، وكل فخر
بتميم فخر لجرير ، ولذا فهو يسلم له به .

ويطيل الفرزدق مادة الفخر بقومه بني مجاشع وبني دارم ، ويشغل به مايقرب من
نصف القصيدة (٤١ بيتا) .

(١) بدائع البدائة ١ / ١٥

(٢) القصيدة في ديوانه ٢ / ١٦١ — ١٦٨ (بيروت)

(٣) قصيدة جرير في ديوانه ٤٦٥ — ٤٧٢

وينوع في هذا الفخر ، فتارة يدفع أن يوازن بنو كليب بنى مجاشع في المجد :
أبنو كليب مثل آل مجاشع أم هل أبوك مُدْعِدَعًا كِعَقَالٍ ؟!

وتارة يمجّد فعالمهم ، فينسب إليهم من الخصال كل ما كان يتصف به السادة
الأشراف ذوى المروءة ، من الإسراع في فك الأسرى ، وعلو الشرف وعظيم المنزلة عند
الملوك ، ويتناول مغاليا في هذا الفخر فيقول :

إن السماء لنا عليك نجومُها والشمسُ مشرقةٌ وكل هلال

ولقومه راحة العقول في مواقف الرضا ، وبطشهم شديد عند الغضب ،
ويتحدى بهم قوم جرير ، داعيا إياهم إلى المنافرة في سوق عكاظ ، وسؤال الحجيج عن
مجدهم ، فكلهم يعرفه ، وكلهم يشهد لدارم بكثرة العدد ، ووفرة المكارم .

ويذكر جرير بفضل مجاشع على كليب يوم أن دافعوا عنهم ، وخلصوا نساءهم من
السبي ، وهو يوم كان بنو يربوع قد هزموا فيه على يد البكرين ، ثم انتصر لهم بنو مالك
التميميين ، أصل دارم ومجاشع ، وهو المعروف بيوم الغبيط ^(١) :

لو تعلمون غداة يُطرد سبيكم بالسفح بين مليمة وطحال
والخوفزان ^(٢) مسوم أفراسه والمحصنات يُجلن كل مجال
حتى تداركها فوارس مالك ركضا بكل طويلة وطوال

ثم يتحدث عن شجاعة فرسان بنى مالك ، إلى أن يقول :
بأولاك تَمْنَعُ أَنْ تُنْفَقَ بعد ما قَصَّعَتْ بين حُرُونَةٍ ورمال

كما يفاخر بيوم آخر من أيام قومه المجيدة ، وهو يوم الكلاب ^(٣) ، ويصف
فروسيّتهم وأفراسهم الأضيلة ، المدربة على الحروب .

ويأتى جرير فيقابل هذا الفخر القبلي بمجاشع ودارم ، بفخر بقومه بنى كليب .
فهم المسارعون للحرب إذا ما قعد بنو القيون يصطلون إلى جوار الكير ، وبنوه بفرسان ،
قومه ، ولا يرى لهم مثيلا في مجاشع ، إذ يحمون نساءهم من امتهان السبي ، وأحسابهم

(١) انظر فيه : العقد الفريد ٣ / ٣٣٨

(٢) هو الحارث بن شريك من بنى شيبان ثم من بكر .

(٣) انظر خبره في العقد الفريد ٣ / ٣٥٣

تفوق أحساب الفرزدق وهم بهذه البطولة والأحساب يحمون حماهم ، ويذودون عن ديارهم ^(١) :

نحن الولاة لكل حرب تُتقى إذ أنت محتضِر لكيرك صالى
من مثل فارس ذى الخمار وقعنِب والحتَنَفِين لليلة البَلْبَالِ
الذائدون إذا النساء تُبذَلَت شهباء ذات قوانسٍ ورعال
قوم هُم غموا أباك وفيهم حسبٌ يفوتُ بنى قُفيرةِ عالى
تمضى أَسنتنا وتعلم مالك أن قد منعتُ حزونتى ورمالى

ويقابل فخر الفرزدق بأيام قومه ، بمثله :

فاسأل بذى نجبِ فوارس عامرٍ واسأل عُينة يوم جزع طلال

وهو يوم تميم على عامر ^(٢) ، ويتحدث عن أيام الوقِيط ^(٣) والغبيط ^(٤) ، ويوم جزع طلال ^(٥) إلى أن يقول :

تلك المكارم يافرزدق فاعترف لاسوقُ بكرِك يوم جَوْف أبالِ

فيعبره بهذا اليوم الذى كان لبكر على بنى دارم .

أبنى قُفيرةَ ^(٦) من يروُع وزدنا أم يقود لشدة الأحمال

والمادة القبلية تكاد تتعادل فى التقيضتين ، أيام مقابل أيام ، وخصال حميدة ، يقابلها مثلها ، وتعير بالهزيمة ، يقابله تعير بمثلها ...

ويتخلل هذا الفخر القبلى ، فخر كل من الشاعرين بنفسه ، والفرزدق يستند فيه إلى مجد بنى مجاشع ، فهم بيت عزيز ، مفاخره كثيرة ، ولذا كانت مادة الفخر وفيرة لدى الفرزدق ، فهو يحتاج من معين ثر ، بخلاف جرير الذى كان ينتمى إلى بيت واهى

(١) فارس ذى الخمار : مالك بن نويرة ، والحتنقان : ابنا أوس .

(٢) انظره فى النقائض ٣٠٢ والعمدة ١٦٦ / ٢

(٣) انظره فى : العمدة ١٦٧ / ٢

(٤) المصدر نفسه ١٦٦ / ٢

(٥) المصدر نفسه ١٦٧ / ٢

(٦) قفيرة : هى أم صعصعة بن ناجية بن عقال جد الفرزدق ، وهى بذلك جدة قوم الفرزدق .

البنيان ، ولعل هذا هو الذى جعل الفرزدق يفوق جريرا فى الفخر ، كما لاحظ قدامى النقاد ^(١) .

يقول الفرزدق :

إني بنى لى دارم عاديةً فى المجد ليس أرومها بمزال
وأنى الذى ورَدَ الكلابَ مُسوِّماً والخيلُ تحت عجاجها المنجال

أما جرير فيضع بإزاء هذا الفخر ، فخراً بشاعريته القوية ، وشعره الذى يطير على ألسنة الرواة :

رُفِعَ المطيُّ بما وسمتُ مُجاشعاً والزَّئْبَرِيُّ يعوم ذو الأجلال
فى ليلتين إذا حدوثُ قصيدةً بلغت عُمانَ وطىءَ الأجيال

ويقابل فخر الفرزدق بأعمامه وأخواله ضبة فى ميادين البطولة والمجد ، بفخر بأخواله من بنى الأشد وبنى النزال ، ويتحداه جرير أن يذكر أخوالا كأخواله :
مالسيِّد حين نذبت خالك منهم كبنى الأشد ولا بنى النزال
خالى الذى اعتسر الهديل وخيله فى ضيق معترك لها ومجال
جئنى بخالك يا فرزدق واعلمن أن ليس خالك بالغا أخوالى
وهكذا نرى الشاعرين يكثران من الاعتماد على المادة القبلية فى الفخر ؛ ليعلو بها كل على صاحبه .

ويعرج الفرزدق فى هذه النقيضة على الهجاء القبلى ، ويرى بنى كليب لتماماً ، يكسبون أبناء بناتهم اللؤم ، ويجردونهم مما يعتز به :

إن ابن أخت بنى كليب خاله يوم التفاضل الأم الأخوال
بعل الغريبة من كليب ممسك منها بلا حسب ولا بجمال

ويعيرهم بالفقر ، وأنهم أصحاب حمير ، لاختير لهم بالأفراس ، حتى فى مجال السباق ، يتراهنون على سباق الحمير ، ويرسم لهم صورة ساخرة فى هذا السباق ، فيقول :

يَتَّبِعُهُمْ سَلْفًا عَلَى حُمْرَاتِهِمْ أَعْدَاءُ بَطْنِ شُعَيْبَةَ الْأَوْشَالِ
وَيَظِلُّ مِنْ وَهَجِ الْهَجِيَّةِ عَائِدًا بِالظِّلِّ حَيْثُ يَزُولُ كُلُّ مَزَالٍ
وَيَمْنَعُ فِي هَجَاءِ بَنِي كَلِيبٍ ، فَيَرَاهُمْ أَوْعَفُ مِنْ أَنْ يَمْنَعُوا نِسَاءَهُمْ ، مِنْ كُلِّ مَنْ
يَنْهَكَ أَعْرَاضَهُنَّ :

لَا يَمْنَعُونَ لَهُمْ حَرَامَ حَلِيلَةٍ بِمَهَابَةِ مِنْهُمْ وَلَا بَقْتَالِ
إِنْ الْحَجَارَةُ لَوْ تَكَلَّمَتْ خَبَّرَتْ عَنْكُمْ بِالْأَمِّ دَقَّةً وَسِفَالِ
وَيُرْمِيهِمْ بِالْمَذَلَةِ وَالْهَوَانِ ، وَالْجَبْنِ ، وَعَدَمِ الْفَنَاءِ فِي الْحُرُوبِ .

ويلوذ جرير في هجاء قوم الفرزدق بهذه الصورة التي يرددها كثيرا في نقائضه مع
الفرزدق ، وهي أنهم قيون أبناء قيون ، محاولا الخط من شأنهم ، وإثارة السخرية بهم ،
ولجرير العذر ، فبنو مجاشع بيت رفيع العماد ، قليل المثالب ، يُعْنَى مِنْ يَحَاوِلُ هَجَاءَهُ ،
بالبحث عن ثغرة ينفذ منها إليهم .

ولعل هذا هو مادفع جريرا إلى أن يلجأ إلى السباب والشتم ، والإمعان في
الفحش ، والحديث عن الأمهات والزوجات في أهاجيه مع الفرزدق ، ولعل هذا أيضا
ماقدمه على صاحبه في مجال الهجاء — كما قدمنا .

يقول جرير :

صار القيون كساقية الأقيال
واللؤوم مُعْتَقِلٌ قِيُونَ عِقَالِ

ومن تناوله نساء بني مجاشع قوله :

قبح الإله بني خضاف ونسوةً بات الخزير لهنَّ كالأحقال
من كل آفة المَوَاحِرِ تَنْقَى
ودت سكينه أن مسجد قومها كانت سواريه

وهذا الإسفاف والبذاءة في الهجاء ، ليس نادرا ولا قليلا في أهاجي جرير ، وأكثره
مما يستحي من روايته .

وطابع النقائض الفردية ، يظهر أيضا في مجال الهجاء الشخصي ، حيث يجهد كل
من الشعاعين نفسه في اصطلياد الصور الخزية ، أو الساخرة المضحكة ؛ ليجعلها إطارا

لشخصية صاحبه ، ويتفوق جرير في هذا المجال من الهجاء أيضا ، بما يقدمه من صور فاحشة للفرزدق وأمه ، وأخته جعثن ، أما الفرزدق فعماذ مادته هنا عطية والد جرير ، وصورته القميئة مع حميره ، وجماعات غنمه ، ومنظره الزرى ، فإذا ماتجاوز عطيه ، تناول أم جرير في صور تبديها أقرب إلى البلاهة ، وتضعها في إطار مضحك ، مثير للاشمئزاز والسخرية :

وحسبت حرى وهى تخطر بالقنا حلب الحمامة يابن أم رعال
تبكى المراغة بالرغام على ابنها والناهقات ينحن بالإعوال
أما أبو جرير عطية ، فقد مرت بنا صور من هجاء الفرزدق إياه ، ونضيف هنا قوله :

وترى عطية والأتان أمامه عجلاً يمر على الأمثال
ويظل يتبعهن وهو مقرمذ من خلفهن كأنه بشكال
وترى على كنفى عطية مائلاً أرباقه عدلت له بسخال
تبع الحمار مكلماً فأصابه بنهيقه من خلفه بنكال ...

ونحن إذا تخيلنا صورة عطية هذه ، لانستطيع أن نمسك أنفسنا عن الضحك من هذا الرجل الملازم للخلفية حميره يحجل وراءها ، وهى ترفسه فتترك كلوما بجسمه ، وعلى أكتافه حبال لقيد هذه الأتان أو لسوقها ، يلاحقه نهيق حميره فى غدوه ورواحه ، وكأنه وحميره جوقة من الأصوات الناشذة .

ويرد جرير بتجريح عرض الفرزدق ، ووصف زوجه بالفجور ، فى معان مكشوفة قبيحة ، وعبارة بذينة يندى لها وجه الفضيلة :

وتقول جعثن إذ رأتك مُنْقَباً قَبَحَتْ من أسدٍ ألى أشبال
وتقول جعثن وابن مرة جانح
.....

مابال أمك إذ تسربل درعها ومن الحديد مفاضة سربالى
حَمَمَتْ وجهك فوق كيرك قائما وسقيت أمك فضلة الجريال
شابت قُفَيْرَة وهى فائرة النساء فى الشَّوْل بَوَّ أُصِيرَة وفصال

بكرث معجّلةً قتب ألحّ أَرْبَ ثَفَالٍ

ويعود إلى تعبيره بأنه حداد ليس له من الآثار إلا آلات الحداد :

فانفخ بكيرك يافرزدق وانتظر في كرنباء هديّة القفّال
فضح الكتبية يوم يضطّر قائما سلّح النعامة شبةً بنُ عِقَال

هذه الصورة من الهجاء عند كل من الشاعرين لاتعكس موقفا جادا ، أو خصومة حقيقية ، وإنما هي صور وظفت في هذا الفن ، لاستثارة الناس ، وإمتاعهم واستخفافهم ؛ ليغلبوا أحد الشاعرين على صاحبه ، ومن هنا قلنا : إن النقائض انحرفت على أيديهما ، بعد نشأتها القبلية ، إلى مضمار المنافسة الأدبية .

من دراسة هاتين النقيضتين يمكن الوقوف على بعض الملاحظات الفنية التي تعد من سمات تطور فن المناقضة في العصر الأموي .

أولاً : طول النقيضة : فقصيدة الفرزدق بلغت اثنين وتسعين بيتا ، ونقيضة جرير عدتها ثلاثة وسبعون بيتا ، ولكل منهما في المناقضة ما يربو على ماله هنا ، وإطالة قصائد الفخر والهجاء إلى هذا القدر ، لانجد له نظيرا في نماذج النقائض في العصرين السابقين ، العصر الجاهلي ، وعصر صدر الإسلام ، إذ كان طول النفس جانب من جوانب المفاضلة بين النقيضتين عند نقدة الشعر وقضائه في هذا العصر ، وبخاصة إذا جمعت مع ذلك جودة المضمون والأداء .

ولعلنا قد لاحظنا كذلك أن نقيضة جرير أقصر من نقيضة صاحبه ، وهذا يصدق ماسبق أن أشرنا إليه ، من أن الناقض لا يتمتع بالفرص المتاحة للباديء ؛ إذ لا يختار موضوع المناقضة ولا قالبها الموسيقى ، مما قد يؤدي إلى إجادة الباديء وطول نفسه فيما اختار أكثر من الناقض .

ثانيا : غلبة المادة القبلية : فالمعاني القبلية التي افتخر بها الشعراء ، أو تهاجيا تسليخ من قصيدة كل منهما أكثر من نصف أبياتها .

لايعنى هذا أن تعد النقيضتان من الشعر القبلي ، لما سبق أن ذكرنا من أن المادة القبلية في النقائض وسيلة لا غاية ، إذ الغاية هو الفوز بالسبق الفني ، وفي مثل هذه البيئة

العربية التي كانت تغمض عنها عن المقاييس التي جاء بها الإسلام في المفاضلة بين المسلمين ، وترتد بمقاييسها في المفاضلة إلى العصر الجاهلي ، حيث يشتد التصاق العربى بقبيلته ، فتربط بها شخصيته ، ولأمناس من أن يستمد مقومات شخصية ومايزينها ، أو يشينها من قبيلته ، فإذا أدركنا هذا ، استطعنا أن نفهم سرّ هذا الإلحاح على أجداد القبيلة ومفاخرها ، أو مثالبها ونقائصها ، في فنى الهجاء والفخر ، سواء صيغا في قالب المناقضة أو في غيره ، وأغلب ظننا أن جمهورا كبيرا من أبناء هذا العصر لم يكن يستطيع أن يتصور سمو شخص ، أو انحطاطه إلا في ظل تاريخ قبيلته الماضى والحاضر .

فالمادة القبلية كانت مفروضة على الشعاعين ، ولانقصد أن قبيلتهما كانت تلزمهما بهذه المعانى القبلية ، وإغما نعى الفرض الفنى ، فلن يكون فهما مقبولا في ظل الوضع الاجتماعى الذى ذكرنا ، إلا إذا كان كل منهما متكئا على قبيلته ، وقبيلة خصمه في حاضرهما وماضيها .

هذه المناقضة إذن فردية على الرغم من غلبة المادة القبلية عليها ، نفهم هذا من حرص كل من الشعاعين على ربط المعانى القبيلة بشخصة إبحاء بامتيازها ، وعلو شأنه ، على صاحبه .

فجيرى بعد أن يسرد مفاخر قومه ، يحرص على ربطها بشخصه ، فيقول مخاطبا الفرزدق :

إنى ندبت فوارسى وفَعَالهم وندبتَ شَرَّ فوارسٍ وفَعَال

وحتى يوم انتصار القبيلة يجعل منه يوم مجدله ، ويوم خذلان قبيلة صاحبه منقصة لخصمه ، يقول جري :

أحسبت يومك بالوقيط كيومنا يوم الغبيط بقلة الأدحال

ويشيد بأخواله ، ثم يقول للفرزدق :

جئنى بخالك يا فرزدق واعلمنْ أنْ ليس خالك بالغا أخوالى

وبالمثل يعدد الفرزدق أجداد مجاشع ودارم ، وأيامهما الغراء في تاريخ المفاخر ،

ويجعل من ذلك بناء له ، ومجداله ، ومفخرة يعلو بها على صاحبه ، ويمتاز :

أنى بنى لى دارمُ عادِيَةً فى المجد ليس أرومُها بمُزال

ثالثا: اعتماد السخرية أسلوبا في الهجاء ، سواء في المعاني أو الصور ، وفي نقائص كل من جرير والفرزدق أمثلة عديدة لهذا الأسلوب ، وعلى الأخص حينما يعرج جرير ، على صورة القيون ، التي ألح عليها في هجاء الفرزدق ، أو يلح الفرزدق على صورة عطية والد جرير ، وهو خلف أثنه ، وفي بصحبتهما . وفي تحليل النقيضتين السابقتين من هاتين الصورتين مايؤيد هذا الاتجاه ، وفي مهاجتهما بين يدي الحجاج مايؤيده أيضا .

رابعا: بالنقيضتين ، معان فاحشة ، تتناول أعراض النساء ، بعبارة تؤثر التصريح على التلميح ، والمباشرة على الكناية ، فجعتن وفقيرة وسكنية وغيرهن من الزوجات والأخوات والأمهات عرضهن مضغة في فم جرير ، يصورهن في أقبح الصور ، وأبعدها عن الحياء والذوق ، وأم جرير كالأباح للفرزدق يصورها كما يشاء له ذوقه النائي ، وخلقه الذي لايعف عن المحارم ، والفراغ الذي تركناه في ثنايا الأبيات خير شاهد على مدى إسفاف الشعاعين في تناول الأعراض ، وإن فاق جرير صاحبه في هذه الرذيلة .

وهذه البذاءة لم تقتصر على تناول النساء ، فلكل منهما صور في صاحبه لاتقل سفاهة وعدوانا على الفضيلة من صور النساء ^(١) .

ويحسن أن نورد نموذجا ثالثا للمناقضة بين هذين الشعاعين الكبيرين ، يضيف إلى ماتقدم من ملامح تطور فن النقائص على أيديهما في النموذجين السابقين ، ملمحا آخر يكشف عن تأثير ثقافة العصر في هذا الفن ، بحيث أوشك أن يكون صورة للمناظرات والحوار المعقد ، الذي يتتبع فيه الخصم دعاوى خصمه ، ويعمل فيها نقضا وهدما ، في جهد عقلي غير قليل ؛ ولذا يرى بعض الباحثين أن جريرا والفرزدق والأخطل كانوا متأثرين في نقائضهم ، وأسلوبها ، وطرائقها ، بأسلوب وطرائق علماء عصرهم ، في مناظراتهم ومناقشاتهم ومحاوراتهم ، الدينية والعقلية والفقهيّة ، أى أن نقائضهم كانت صدى لهذه المناظرات ، التي مست كل شيء في الحياة العقلية والدينية ^(٢) .

للفرزدق منقوضة طويلة (١٤٩ بيتا) أنشدتها وهو بالمدينة المنورة ، يذكر فيها قتل

(١) انظر — مثلا — ديوان الفرزدق ٢ / ١٦١ (بيروت) وديوان جرير ٤٤٥ ، ٥٦٠

(٢) التطور والتجديد ١٨٦

قتيبة بن مسلم على يد وكيع بن حسان التميمي ، ويمدح الخليفة سليمان بن عبد الملك ، ويهجو جريرا والقيسين ، يقول فيها : (١)

تَحْنُ بَزُورَاءِ الْمَدِينَةِ نَاقِئِي حَنِينَ عَجُولٍ تَبْتَغِي الْبَوَّ رَائِمِ
وَيَالَيْتَ زُورَاءِ الْمَدِينَةِ أَصْبَحْتُ بِأَحْفَارِ فَلَجٍ أَوْ بِسَيْفِ الْكُوَاظِمِ
وَكَمْ نَامَ عَنِّي بِالْمَدِينَةِ لَمْ يُبْلُ إِلَى اِطْلَاعِ النَّفْسِ دُونَ الْحِيَازِمِ
إِذَا جَشَأَتْ نَفْسِي أَقُولُ لَهَا ارْجِعِي وَرَاءَكَ وَاسْتَحْيِي بِيَاضَ اللَّهَازِمِ
فَإِنَّ التِّي ضَرَّكَ لَوْ ذُقْتَ طَعْمَهَا عَلَيْكَ مِنَ الْأَعْبَاءِ يَوْمَ التَّخَاصِمِ
وَلَسْتُ بِمَأْخُودٍ بَلْغُو تَقُولُهُ إِذَا لَمْ تَعْمُدْ عَاقِدَاتِ الْعِزَائِمِ
وَلَا أَبُوءُ إِلَّا الرِّحِيلَ وَأَعْلَقُوا عُرَى فِي بُرَى مَخْشُوشَةٍ بِالْخِزَائِمِ
وَرَاكُوا بِجَنَائِي وَأَمْسَكَ قَلْبُهُ حَشَاشَتُهُ بَيْنَ الْمُصَلَّى وَوَقَامِ

وهنا يمسك جرير بتلاييه ، يناقشه ، ويبطل مادعاة لنفسه ، ويكشف عن كذبه ، في قصيدته التي مطلعها :

أَلَا حَيُّ رُبَّعِ الْمَنْزِلِ الْمُتَقَادِمِ وَمَا حَلَّ مَذْ حَلَّتْ بِهِ أُمُّ سَالِمِ

فقد لاحظ أن الفرزدق يصطنع في البيتين الرابع والخامس التقوى والوقار ، فأنكر عليه التقوى المزعومة ، والوقار المصطنع ، وكذبه وفضحه ، بقوله : (٢)

لَقَدْ وَلِدْتُ أُمُّ الْفَرَزْدَقِ فَاجِرًا وَجَاءَتْ بِزُورَاٍ قَصِيرِ الْقَوَائِمِ

فأفسد على الفرزدق معناه ، من ادعاء الرزاة والوقار والتقوى ، وجعله فاجرا طائشا .

وشبيه بهذا المعنى في نقض دعوى التقوى ، قول جرير من قصيدة أخرى ، يسخر

(١) القصيدة في ديوانه ٢ / ٣٠٧ — ٣١٧ (بيروت) أحفار فلج وسيف الكواظم : من ديار قومه . المصل : موضع في عقيق المدينة . اللهازم : أصول اللحيين — جشأت : ارتفعت وتطلعت . واقم : يريد حرة واقم بالمدينة المنورة ، يوم التخاصم : يوم القيامة .

(٢) قصيدة جرير التي نختار منها هنا ، في ديوانه ٥٥٩ — ٥٦٥ وعدتها أربعة وثمانون بيتا . الوزواز : الطائش الكثير الحركة . ليأمن قردا : يرميه بالزنا والفجور ، والعرب تقول : « أزنى من قرد » .

من تقواه المدعاة : (١)

إن الفرزدق إذ تَحَنَّفَ كارهاً أَضْحَى لتغلب والصليب خدينا
فالفرزدق حين يدعى التقوى والتدين ، يأخذ تدينه شكلاً وسلوكاً غير
إسلاميين .

ولما زعم الفرزدق أن الشيب ينهائى عن ارتكاب المحرمات ، والتطلع إلى مالا يحل ،
وقف له جرير بالمرصاد ، ونقض عليه هذا المعنى في قوله :

وما كان جاراً للفرزدق مسلماً لِيَأْمَنَ قِرداً ليله غير نائم
يوصلُ حَبْلِيه إذا جنَّ ليله ليرق إلى جاراته بالسَّلام
أتيت حدود الله مُذ أنت يافعٌ وشبتَ فما ينهاك شيبُ اللهازم

وهذه سخريه مرة ، من دعوى الفرزدق ؛ فقد شب على الفسق ، ومن شب على
شيء شاب عليه ، وهذه قاعدة معروفة للعرب استغلها جرير في نقض معنى صاحبه ،
فمن قبل قال زهير بن أبى سلمى (٢) :

وإن سِفاه الشيخ لاحلَم بعده وإن الفتى بعد السَّفاهة يَحْلُم

ومن بعد قال صالح بن عبد القدوس (٣) :

والشيخ لا يترك أخلاقه حتى يُوارى في ثرى رَمْسِه

ولما قال الفرزدق بيته السابق:

نواهضِ يحملنَ الهموم التي جفَتْ بنا عن حشايا المحصنات الكرائم

يتحدث عن رحلته من المدينة على النوق ، مدعياً أنه مشغول بعظائم الأمور ، ومن
ثم فهو يعفّ حتى عما أُحِلَّ له من النساء المحصنات الكرائم ، نقض جرير عليه دعوى
العفة هذه ، مستغلاً اعترافاً سابقاً من الفرزدق بالزنا وانتهاك المحارم ، في إحدى قصائده ،

(١) ليس البيت في ديوانه ، ولجرير قصيدة على هذا الوزن والقافية في هجاء الأخطل بديوانه ٥٧٧ ، والبيت في
الكامل للمبرد ٢ / ٨٩ (الأزهرية)

(٢) من أبيات له في الحكمة ختمت بها معلقته ، والبيت في ضمن ثلاثة أبيات ملحقة بالمعلقة في بعض نسخ
الديوان ، انظر : ديوان زهير ٣٢ وشعراء النصرانية ٥٢٤

(٣) سبط اللآل ١ / ١٠٥ وانظر ترجمة صالح بن عبد القدوس في هامشة .

إذ يتحدث عن قصر لامرأة ناعسة الطرف ، منعمة ، ذات زوج شيخ يرعاها ، ويغدق عليها ، احتال الفرزدق حتى صعد إليها مستعينا بحبال نصبتها إليه في آخر الليل ، واجتمع بها ، فنقع غليل النفس إليها ، كما يقول ، ولما أوشك الصباح اشتركت هي وامرأة أخرى في مساعدته على النزول ، قال (١) :

فجاءتْ بأَسْبَابِ طِوَالٍ وأشرفتْ قسيمةٌ ذى زُورٍ مخوفٍ ثرائره
أخذتْ بأطرافِ الحبالِ وإنما على الله من عوضِ الأمورِ مياسره

(يسأل الله التيسير لما هو فيه !!)

فقلت اقعدا إن القيامَ مَزَلَّةٌ وشُدًّا معاً بالحبلِ إنِّي مخاطرُه
فلما استوتُ رجلايَ في الأرضِ نادتا أحيى يُرجى أم قتيل نُحاذره ؟
فقلت ارفعا الأسبابَ لايشعروا بنا ووليت في أعجازٍ ليلِ أبادرُه
هُما دَلَّتاني من ثمانينِ قامَةً كما انقضَّ بازٍ أقممُ الرِّيشِ كاسِرُه
ويقول عن زوجها :

ويحسبُها باتت حَصَاناً وقد جَرَّتْ لنا بُرَّتَها بالذى أنا شاكره

فهذا اعتراف صريح جرى عن لسان الفرزدق باتباع الغواية ، وارتكاب المحرم ، والفسق ، وقد لامته سكينه بنت الحسين بن علي حين قدم المدينة مرة أخرى ، بعد أن أنشدته هذه الأبيات : قائلة : مادعاك إلى إفشاء سرك ، أفلا سترت على نفسك وعليها؟! (٢) .

وسجل جرير على الفرزدق هذا الاعتراف ، ناقضابه مادعاها في بيته السابق من صلاح وعفة ، نرى هذا في قوله :

تَتَّبِعُ في الماخورِ كُلَّ مُرِيبةٍ ولست بأهلِ المحصناتِ الكرائمِ
تَدَلَّيتُ تَزْنِي من ثمانينِ قامَةً وقصَّرتُ عن باعِ العُلا والمكارمِ
ويلاحظ أن جريرا ينقض معنى الفرزدق بالفاظه . كقوله : « فما ينهاك شيب

(١) ديوانه ١ / ٢١٢ (بيروت) القسيمة : أرادها ضرثها . الزور : الزيادة . الترائر : الشدائد . الأسباب :

الحبال .

(٢) الموشح ١٦٧ ومصارع العشاق ٢٣٧ وابن خلكان ٢ / ٢٦٢

للهازم « وقوله : « ولست بأهل المحصنات الكرائم » .

ولما ادعى الفرزدق في أبياته السابقة ، أن خروجه من المدينة كان بقصد الرحلة ، التي ترك لها قلبه وهواه ، أى أنه آثر الرحلة من تلقاء نفسه ، طارده جرير في هذا المعنى أيضاً ، وأفسده عليه ، بأن جعل خروجه من المدينة قهراً ، وأنه طرد منها طرداً^(١) ، تطهيراً للمدينة من رجسه ، وذلك قول جرير :

هو الرّجسُ يأهل المدينة فاحذروا مُدَاخِلَ رَجْسٍ بالخبيثات عالم

لقد كان إخراجُ الفرزدق عنكم طهوراً لما بين المُصَلَّى ووَاقِم

هذه الدقة في التبع والتربص ، وما يتطلبان من جهد وإعمال عقل ، إنما هي لمحة تطور لفن النقائض على يد هذين الشاعرين الفحلين ، استفادها من ثقافة العصر ، كما ذكرنا من قبل .

بقى أن نتلمس العناصر الدينية في المناقضة ، لافى نقائض جرير والفرزدق فقط ، وإنما فيها ، وفي نقائض جرير والأخطل أيضاً ؛ لنرى إلى أى حد أثرت الثقافة الدينية الإسلامية في نقائض هذا العصر .

يتضح للقارئ في نقائض العصر الأموي بعمامة ، ونقائض الفحول بخاصة ، أن المادة الإسلامية ظاهرة في بعض الألفاظ والمعاني التي تترد في نماذج من نقائض الفحول ، وإن كانت هذه المادة ، مع ذلك ، أقل بكثير مما في نقائض شعراء الخوارج والشيعة السياسية ؛ إذ من المعروف أن جريراً والفرزدق كانا يعيشان عيشة بدوية ، تقرب من الحياة الجاهلية ، فيها شراب ، وتعصب قبلي ، وتفاجر بالأنساب ، وإن كانا قد اختلطتا بالحياة الدينية والعقلية في البصرة^(٢) .

وكان الأخطل نصرانيا فلم تكن العناصر الإسلامية مهياة له ؛ ولذا كان

(١) يقال : إن الفرزدق كان قد راود امرأة من أهل المدينة عن نفسها فأبت ، وبلغ الخبر عمر بن عبد العزيز ، وكان والياً على المدينة من قبل الوليد بن عبد الملك (تولى عمر المدينة ٨٧ هـ) فأمر بإخراجه منها . انظر : معاهد التنصيص ١ / ١٧ ، وقيل إن الذي نفاه من المدينة مروان بن الحكم في عهد يزيد بن معاوية : انظر : المصدر السابق والأغاني ١٩ / ٢١ وفي شعر جرير أن عمر بن عبد العزيز هو الذي نفاه ، انظر : ديوانه ١٢٨

(٢) انظر : العقد الفريد ٣ / ١٦٩ (بولاق)

جرير يحاول أن يتصدى له من هذه الناحية كثيرا ، ناحية اعتقاده بالمسيحية ، ويشد على خناقه منها ، وقد اعترف جرير باستغلال هذا الجانب في نقائضه مع الأخطل .

قالوا : سأل نوح بن جرير أباه : أيما أشعر ، أنت أم الأخطل ؟ فقال : إني أعنت عليه بتولية سنه ، وكفر من دينه ^(١) .

ومن قوله في ذلك للأخطل ^(٢) :

ولقد جرّعت إلى النصرى بعدما لقي الصليب من العذاب مهينا
هل تشهدون من المشاعر مشعراً أو تسمعون من الأذان أذينا؟!

وقد يشتد عليه جرير في ذلك ، ويخرجه أشد الإحراج ، حين يتعرض لعقيدته ، يسخر منها ، ويلعن رهبانها ، ويسفه طقوسها ، ومع ذلك لا يستطيع الأخطل أن يرد بتهجم مقابل لدين جرير ، لأن مغبة الرد حينئذ وخيمة ، لأن دين جرير دين الدولة ، ودين خلفائها الذين يقرّبونه في بلاطهم .

من ذلك قول جرير ^(٣) :

لعن الإله من الصليب إلهه والذابحين إذا تقارب فصحهم
والذابحين إذا تقارب فصحهم من كل ساجي الطرف أعصل نأبه
تغشى الملائكة الكرام وفائنا يعطى كتاب حسابه بشماله
أتصدقون بماسرجس وابنه مافي ديار مقام تغلب مسجد
واللابسين برانس الرهبان شهب الجلود خسيصة الأثمان
في كل قائمة له ظلفان والتغلبى جنازة الشيطان
وكتائبنا بأكفنا الأيمان وتكذبون محمد الفرقان ١؟
وترى مكاسير حثم وديان

وواضح أن جريرا ينظر في البيت الخامس إلى قوله تعالى ^(٤) : « فأما من أوتى كتابه يمينه ، فيقول هاءم اقرعوا كتابيه ، إني ظننت أنى ملاقي حسايه ، فهو في عيشة

(١) الأغاني ٧ / ١٦٣ ، وابن سلام ٤٨٧ (المدني) والموشح ١٣

(٢) البيت الثاني مع خلاف يسير في الرواية في ديوانه ٥٧٩ والبيتان معا في الكامل للمبرد ٢ / ٨٩ (الأزهرية)

(٣) ديوانه ٥٧٦ شهب الجلود ... الخ يعنى الخنازير .

(٤) سورة الحاقة ٦٩ / ١٩ — ٢٥

راضية وأما من أوتى كتابه بشماله ، فيقول ياليتنى لم أوت كتابيه » .
ومن هذا القبيل أيضا قوله (١) :

قَبَحَ الْإِلَهِ وَجْوهَ تَغْلَبَ إِنَّهَا هَانَتْ عَلَى مَرَاثِنَا وَسَيَّالَا
قَبَحَ الْإِلَهِ وَجْوهَ تَغْلَبَ كَلِمَا شَبَّحَ الْحَجِيجُ وَكَبَّرُوا إِهْلَالَا
عَبَدُوا الصَّلِيبَ وَكَذَّبُوا بِمُحَمَّدَ وَبِجُرَيْسِلَ وَكَذَّبُوا مِيكَالَا
ولا تكاد تخلو نقيضة لجريير في الأخطل من بعض هذه المعاني .

ولجريير أيضا بعض المعاني الإسلامية في نقائضه مع الفرزدق ، تدل على ثقافة إسلامية ، وبصر ببعض المعاني القرآنية .
من ذلك قوله في الفرزدق (٢) :

وشبهت نفسك أَشَقَى ثَمُودَ فَقَالُوا ضَلَلْتَ وَلَمْ تَهْتِدِ
فهو يشير إلى قول الله تعالى (٣) : « كَذَبْتَ ثَمُودَ بِطُغَاوَاهَا ، إِذَا انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ،
فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ، فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ
فَسَوَّاهَا » .

ومنه قوله (٤) :

أَلَا قَبَحَ اللَّهُ الْفِرْزَدَقَ كَلِمَا أَهْلَ مُصَلٍّ لِلصَّلَاةِ وَكَبَّرَا
فَلَا يَقْرِنَنَّ الْمُرُوثِينَ وَلَا الصَّفَا وَلَا مَسْجِدَ اللَّهِ الْحَرَامَ الْمُطَهَّرَا
فَإِنَّكَ لَوَتَعَطَى الْفِرْزَدَقَ دَرَهْمًا عَلَى دِينِ نَصْرَانِيَةٍ لَتَنْصُرَا
فهذا اتهام صريح بركة الدِّين ، وإهمال الطاعات ، والفرائض الدينية .

والمادة الإسلامية قليلة في نقائض الفرزدق ، وهي على قلتها ذات دلالة على وعيه بالثقافة الإسلامية ، وبآراء الفقهاء ، وقد أشرنا في مقدمة هذه الدراسة إلى بعض دلائل هذا الوعي (٥) في شعر الفرزدق بعامة ، ونورد هنا نماذج منه في نقائضه مع جريير بخاصة .

(١) ديوان جبر ٤٥٠ المراسن : الأنوف . السبال : اللحى . شبح الحجيج : رفعوا أيديهم في الدعاء . الإهلال : رفع الصوت بالتلبية في الحج .

(٢) ديوانه ١٢٨

(٣) سورة الشمس ٩١ / ١١ — ١٤

(٤) دوانه ٢٤٨

(٥) راجع ص ٧٦ من هذه الدراسة .

من ذلك قوله السابق في نقيضته التي قالها وهو بالمدينة:

فَلَسْتُ بِمَأْخُودٍ بَلْغَوِ تَقُولُهُ إِذَا لَمْ تَعْمَدْ عَاقِدَاتُ الْعِزَائِمِ
فهذا المعنى مستمد من قول الله تعالى (١): « لَايُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ ،
وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ » .

وقوله في القصيدة نفسها (٢):

كَمَا بَعَثَ اللَّهُ النَّبِيَّ مُحَمَّدًا عَلَى فِتْرَةٍ وَالنَّاسُ مِثْلُ الْبِهَائِمِ
ينظر فيه إلى قوله الله تعالى (٣): « يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى
فِتْرَةٍ مِنَ الرِّسَالِ » .

وله مخاطباً جرير (٤):

فَإِنَّكَ مِنْ هِجَاءِ بَنِي ثُمَيْرٍ كَأَهْلِ النَّارِ إِذْ وَجَدُوا الْعَذَابَ
رَجَوْا مِنْ حَرِّهَا أَنْ يَسْتَرْيَحُوا وَقَدْ كَانَ الصَّدِيدُ لَهُمْ شَرَابًا
وفي جزاء الظالمين ، يقول الحق تبارك وتعالى (٥): « إِنَّا عَتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا ، أَحَاطَ
بِهِمْ سُرَادِقُهَا ، وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يَغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ » ، فهذا أصل معنى الفرزدق ، فالثقافة
القرآنية واضحة في هذه المعاني ، وأمثالها في نقائض كل من جرير والفرزدق ، ولانشك في
أنهما كانا يستمدان من القرآن ، فالفرزدق يصرح بما يدل على هذا الاستمداد ؛ في
لاميته الشهيرة ، التي مطلعها (٦):

إِنَّ الَّذِي سَمَكَ السَّمَاءَ بَنَى لَنَا بَيْتًا دَعَائِمُهُ أَعَزُّ وَأَطْوَلُ
حيث يقارن بين عِزِّ بيته ، وهوان بيت جرير وضعفه ، ويشبهه في هذا المقام بيت
جرير ببيت العنكبوت ، الذي تحدث عنه القرآن ، في قوله تعالى (٧): « وَإِنَّ أَوْهَنَ
الْبُيُوتِ لَبِيتُ الْعَنْكَبُوتِ ، لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ » .

(١) سورة المائدة ٥ / ٨٩

(٢) ديوانه ٢ / ٣٩ والناس مثل البهائم : أى في ضلال وضعف عقل .

(٣) سورة المائدة ٥ / ١٩

(٤) ديوانه ١ / ١٠٢

(٥) سورة الكهف ١٨ / ٢٩ ومن معاني المهل : الفحيح وصديد الميت . انظر القاموس المحيط (مهل) ٤ /

(٦) ديوانه ٢ / ١٥٥

(٧) سورة العنكبوت ٢٩ / ٤١

قال جرير :

ضربت عليك العنكبوت بنسجها وقضى عليك به الكتاب المنزل

يضاف إلى هذه المصطلحات الإسلامية الكثيرة ، الواردة في النقائض ، وبخاصة نقائض جرير ، الذى كان أكثر تأثرا بروح الإسلام فى سلوكه وشعره ، من الفرزدق . قال ابو عبيدة معمر بن المثنى : كان جرير ديناً عفيفاً ، وكان الفرزدق يقول : مأحوج جرير مع عفاه إلى صلابة شعرى ، وأحوجنى مع شهواتى إلى رقة شعره ، والتقى يوماً فى موسم الحج بمنى ، فقال الفرزدق لجرير :

فإنك لاقى بالمنازل من منى فخاراً فخبّرني بمن أنت فاجر
فقال جرير : ليك اللهم ليك ^(١) .

ويكفى ماأوردنا دليلاً على أن الثقافة الدينية الإسلامية ، لم تغب — تماماً — عن مادة فن المناقضة بين جرير والفرزدق من جهة ، ونقائض جرير مع الأخطل من جهة أخرى .

ولقد امتدت نقائض جرير والفرزدق فترة طويلة من الزمن بلغت نيفاً وأربعين سنة ، ويحددها بعض الباحثين بثلاث وأربعين سنة ^(٢) ، لم يغلب واحد منهما على صاحبه ، ولم يتهاج شاعران فى الجاهلية ، ولا فى الإسلام بمثل ماتهاجيا به ^(٣) ، وأتاح لها هذا الدهر الطويل أن تكون أكثر عدداً ^(٤) ، وأكمل فنا وأتم صنفاً ، من نقائض جرير والأخطل ، التى شغلت فترة أقصر ، قيل : ثلاث وعشرين سنة ^(٥) تقريباً .

— ٦ —

نقائض جرير والأخطل :

إذا كانت المناقضة بين جرير والفرزدق قد بدأت بداية قبلية ، ودانت فى نشأتها

(١) معاهد التصيص ١ / ٢٣٠ والأغانى ٧ / ٣٦ ، ٣٩ ، ٤٨ وديوانه ١ / ٣٥١

(٢) هو الأستاذ الشايب فى كتابه : تاريخ النقائض ٢٨٢ وقيل ٤٥ سنة انظره ٣٥٢

(٣) ابن سلام ٣٢٩ (دار المعارف ١٩٥٢ م)

(٤) مجموع نقائض جرير والفرزدق مائة نقيضة ، لجرير منها ثنتان وستون وللفرزدق ثمانية وثلاثون انظر : تاريخ

النقائض ٢٧٠ ومجموع نقائض جرير والأخطل عشرون نقيضة . انظر المصدر نفسه ٣١٥

(٥) المصدر نفسه ٣٥٢

للتعصب القبلى ، ثم أعانتها ، وساعدت على حدوثها ظروف السياسة ، التى اقتضت أن يكون جرير لسان قيس المعادية للسياسة الأموية ، وأن يقف هو وقومه بنو يربوع فى اتجاه سياسى مضاد للولاء السياسى لقبيلته الكبرى تميم الأموية الهوى ، إذا كان الأمر كذلك بالنسبة لنشأة المناقضة بين جرير والفرزدق ، فإن ظروف التحزب السياسى كانت من وراء المناقضة لثى استطارت بين جرير والأخطل ؛ إذ من المعلوم أن تغلب كانت فى تناقض سياسى مستمر مع قيس ، وانعكس هذا التناقض على الشاعرين ، فجرير يتحدث باسم قيس ، وهو لسانها المدافع عنها فى المريد ، وشاعرها ، الذى تلتف حوله ، وتنصره لينصرها ، ولذا ما إن أخذ الحجاج بن يوسف جريراً ، وأراد قتله — لموقفه مع قيس ضد الأمويين — حتى مشت إليه قيس ، وكلموه فيه قائلين : أصلح الله الأمير هو لسان مضر وشاعرها ، هبه لنا ، فوهبه لهم ، وأطلقه ^(١) .

كان هذا موقف جرير السياسى ، أما الأخطل فكان لسان تغلب ، وشاعرها فى بلاط الأمويين ، كما كان لسان السياسة الحزبية الأموية ، وشاعر الخلافة الأموية ، كما صرح بذلك عبد الملك بن مروان ^(٢) ؛ لإشادته بفضل بيته الأموى ، ولموقف قومه تغلب المؤيد للأمويين ضد القيسية ؛ إذ كانت تغلب قد بقيت على نصرانيتها ، وكان تحاول أن تحافظ على كيانها المادى والأدبى بين عواصف السياسة الإسلامية فى هذا العصر ، ووجدت أن الضمان الوحيد لذلك هو موالاة السياسة الحاكمة ، ونهض شاعرها الأخطل سفيراً لها فى قصور الخلافة الأموية ، وحرص السفير التغلبى على أن تظل الهوة واسعة بين السياسة الأموية ، والأهواء القيسية ؛ ولذا نراه غاضباً أشد الغضب لما اتصلت القيسية بعبد الملك ابن مروان ، وأخرجه غضبه عن طوره ، فتجاوز حده مع عبد الملك ، وتوعده بغضب تغلب ، وحذره من القيسية « كل ذلك خشية أن تذلل تغلب بفقدتها حماية القصر ، أو أمام وحدة قيس وأمية » ^(٣) .

فصلة الأخطل بالأمويين صلة سياسية فى المقام الأول ، وإذ كان جرير هو المعبر

(١) مروح الذهب ٢ / ١٤٩ (البهية) .

(٢) راجع ص ٢٤٤ من هذه الدراسة .

(٣) انظر : ديوان الأخطل ٣٦٢ والأغاني ٧ / ١٧٥ .

عن السياسة المعادية لهم ، فقد رأى الأخطل أن من واجبه ، الذى يفرضه ولاؤه السياسى ، أن يتصدى لجرير .

وهكذا قامت النزعات السياسية بدورها فى تأريث الخصومة بين جرير والأخطل ، ولا أدل على ذلك مما حكاه ابن سلام^(١) من أنه لما بلغ الأخطل تهاجى جرير والفرزدق ، قال لابنه مالك : انحدر إلى العراق حتى تسمع منهما ، وتأتينى بخبرهما ، فلقيهما ثم استمع ، فأق أباه فقال : جرير يغرف من بحر ، والفرزدق ينحت من صخر ، فقال الأخطل : فجرير أشعرهما ، ثم قال :

إِنِّى قَضَيْتُ قَضَاءً غَيْرَ ذِى جَنْفٍ لَمَّا سَمِعْتُ لَمَّا جَاءَنِى الْخَبْرُ
أَنَّ الْفَرَزْدَقَ قَدْ شَالَتْ نَعَامَتَهُ وَعِضَّةُ حَيَّةٍ مِنْ قَوْمِهِ ذَكَرُ

ومعنى هذا أن الأخطل فضل جريرا على الفرزدق من خلال نظرة فنية خالصة ، وعلى ضوء ملاحظة فنية خالصة أبداها ابنه ، بعد أن استمع إلى الشاعرين فى العراق ، وعاد ليحدث أباه بما سمع .

ولكن السياسة الأموية ماكان ليرضيها هذا الحكم الفنى ، فكان لابد للأخطل من أن يتحول موقفه لصالح هذه السياسة ، فما قرَّبه الأمويون لينصر شاعر أعدائهم ، على الفرزدق شاعر تميم الموالية لهم .

ويتولى بشر بن مروان مهمة هذا التحول ، كما تولى من قبل استمالة الراعى الثميرى القيسى ليناظر الفرزدق ضد جرير ، فأجابه الراعى إلى ذلك ، وهجا جريرا ، مع أن جريرا طلب إلى الراعى أن ينضم إليه ، لأنه ينافع عن قومه القيسيين^(٢) فحين قدم الأخطل الكوفة عليه ، أوعز إلى شبة بن عقال المجاشعى أن يصل الأخطل ، طالبا منه أن يفضل شاعر مجاشع الفرزدق على جرير ، وأن يسبه ، وسرعان ماتحول الأخطل عن حكمه السابق ، ليملىء السياسة الأموية ، قائلا^(٢) :

(١) طبقاته ٤٥١ — ٤٥٣ ، ٤٧٥ .

(٢) النفااض ٤٢٨ حصرم : جبيل فى ديار بنى أسد أبان : جبل ضخيم . عفواته : صفو وأكثه الأعطان :

مبارك الإبل يعنى ينالون خير الماء وخير المبارك .

أخسأ كليبُ إليك : إن مجاشعا
 قوم إذا خطرت إليك قرومهم
 وإذا وضعت أباك في ميزانهم
 ولقد تقايستهم إلى أحسابكم
 فإذا كليب لايساوى دارمأ
 وإذا وردت الماء كان لدارم
 وأبا الفوراس نهشلا أخوان
 جعلوك بين كلاكلي وجبران
 رجحوا وشال أبوك في الميزان
 وجعلتم حكماً من الصلتان (١)
 حتى يساوى خصمُ بأبان
 عفوائه وسهولة الأعطان

فالأخطل والصلتان العبدى اجتماعاً على تفضيل جرير في فن الشعر ، وتأخير في النسب ، وثبت الصلتان على موقفه ، فلم يغيره ، أما الأخطل فعدل عن حكمه ، ولم يثبت على تأييد الشاعر الذي أعجبه فنه ، فما الذي دعاه إلى هذا ؟ إنها السياسة ودواعيها؟!.

كان من الطبيعي ، وقد حول الأخطل موقفه إلى جانب الفرزدق أن يغضب جرير ، وأن يتهم على الأخطل ، والأخطل تغلب ، فليهج معه قومه تغلب ، ولذا رد حكم الأخطل هذا بقوله (٢) :

ياذا القباءة إن بشرأ قد قضى
 فدعو الحكومة لستهم من أهلها
 أن لاتجوز حكومة النشوان
 إن الحكومة في بنى شيان

(١) هو قثم بن حبة من بنى محارب بن عمرو ثم من عبد القيس ، والصلتان لقب له ، وهو الذي حكم بين جرير والفرزدق — قبل حكومة الأخطل هذه — فقال في قصيدة له :

أنا الصلتاني الذي قد علمتم
 متى ما يحكم فهو بالحق صاعد
 أرى الخطفى بذ الفرزدق شعره
 ولكن خيرا من كليب مجاشع
 فيا شاعراً لا شاعر اليوم مثله
 جرير ولكن في كليب تواضع
 ألا إنما تحظى كليب بشعرها
 وبالجد تحظى نهشل والأقارع

انظر : أمالي القالي ٢ / ١٤٣ ومعاهد التنصيص ١ / ٢٨ ومسقط الآلى ١ / ٥٣١ ، ٢ / ٧٦٦ والمؤتلف ١٤٥ ، ومعجم الشعراء ٢٢٩ والتذكرة السعدية ١٩٧ ومراجع ترجمته في هامشها .

(٢) ابن سلام ٤٧٤ وديوانه ٥٧٣ . ياذا العباءة ، غيره بأنه وقع أسيراً وعليه عباءة دنسه ، فلم يعرف وظنوه عبداً من العبيد ، فهو يهجوهم بذلك ، ويسخر منه ، وانظر : الأغاني ١٠ / ٣ (وفيه : ياذا الغباوة) وأيضاً ٧ / ٤١ ، ١٧٦ . الخزر : ضيق في العين ، وهو مذموم عند العرب ؛ لأنه صفة العجم ، فكانه نسبهم إليهم وأخرجهم عن العرب وهذا من الهجاء المقذع في عرف العربي (انظر ابن خلكان ١ / ١٢٩) . الهجان : الكريم الأبيض ، والعرب تجعل البياض كرماً وسيادة .

قتلوا كُتَيْبَكُمْ بِلِقْحَةٍ جَارِهِمْ يَأْخُزَرُ تَغْلِبَ لِسْتُمْ بِهِجَانِ
كذب الأخطلُ إن قَوْمِي فِيهِمْ تَأْجُ المُلُوكِ وَرَايَةَ التُّعْمَانِ

وجلى أن جريرا يفخر هنا بتميم قبيلته الكبرى ، في مقابل هجاء تغلب قبيلة الأخطل ، مما يؤذن بانبعاث العصبية القبلية عنصرا مساعداً لهذه الخصومة السياسية . ثم استطار الهجاء بين الشاعرين ، فرد الأخطل هاجيا جريرا وبنى كليب بن يربوع قومه ، وقيس عيلان أعداء تغلب سياسيا وقبليا ، وبذا تعقدت هذه الخصومة ، ونهضت نقائض جرير والأخطل سجلا لكل عناصر الخصومة بينهما ، من سياسية وقبلية .

ومن الطريف أن ابن سلام يورد رواية ^(١) يفهم منها أن الشاعرين تهاجيا بهذا الشعر وكل منهما لم ير الآخر بعد ، فيذكر أن جريرا خرج إلى الشام ، فنزل منزلا لبنى تغلب ، فخرج مثلما عليه ثياب سفر ، فلقى رجلا لا يعرفه ، فقال لجرير ، ممن الرجل ؟ قال : من بنى تميم ، قال : أما سمعتَ ما قلتُ لغاوى بنى تميم ؟ وأنشده هجاء فيه ، فقال جرير : أما سمعتَ ما قال لك غاوى بنى تميم ؟ وأنشده ، ثم عاد الأخطل وعاد جرير في نقضه ، حتى كثر ذلك بينهما ، فقال الأخطل : من أنت ؟ لآخياك الله ، والله لكأنتك جرير ، قال : فأنا جرير ، قال : وأنا الأخطل .

وسواء تهاجى الشاعران عن بعد ، أم تواجها في مجلس بشر بن مراوان ، الذى أغرى الأخطل بجرير ، وألح عليه أن يحكم بينه وبين الفرزدق فى الحكومة السابقة — كما يذكر ابن سلام فى رواية أخرى ^(٢) ، نقول : سواء أصبح هذا أو ذاك ، فإنه لا يقدح فى منشأ الخصومة بينهما ، وأنها بدأت لدواعى سياسية ، ثم تدخلت فيها أسباب العصبية القبلية بين قيس وتغلب ^(٣) .

الذى يهنا هنا أن هذه الخصومة السياسية القبلية لم تنفرد غرضا للنقائض بين الشاعرين طوال أعوامها التى أربت على العشرين ، بل زحزحتها وتقدمت عليها — بعد فترة النشأة — خصومة أخرى ملاحظ فيها جانب الفن الشعرى ، والقصد إلى التفوق فيه ،

(١) طبقاته ٤٨٨

(٢) طبقاته ٤٧٤

(٣) فصلنا أسباب هذه الخصومة ص ٢٥٠ — ٢٥٣ من هذه الدراسة .

فخلال الفترة ما بين سنة ٧٢ هـ ، وهى السنة التى بدأت فيها المهاجاء بين جرير والأخطل ^(١) ، وسنة ٩٥ هـ ، وهى تاريخ وفاة الأخطل ، كان يتبارى فى ميدان المناقضة الفحول الثلاثة ، جرير والفرزدق والأخطل ، يتعاون الأخيران ضد الأول منهما .

ونحسب أن أيام عبد الملك بن مروان (٦٥ — ٨٦ هـ) كانت ذروة هذه المناطحة الفنية ، وخاصة فيما يتصل بموضوعنا هنا ، وهو المناقضة بين جرير والفرزدق والأخطل ، ففى هذه الأيام اشتد لهيب الصراع السياسى ، واحتدم تنافس العصبيات ، والأهم من ذلك أن الأدب صار مشغلة الناس فى مجالسهم العامة والخاصة ، وفى مجالس الخليفة الأديب الناقد عبد الملك ، فحمى وطيس النقائض ، وشغل نقاد العصر بتداولها ، والنظر فيها ، ودراستها ، والحكم عن مبدعيها ، بل شغل الفحول أنفسهم بآراء هؤلاء النقاد فيهم ، واهتموا بهذه الآراء ، ولانبعد إذا قلنا : إن حركة النقد حول النقائض كانت من العوامل المقدمة فى إلهاب هذا الصراع الفنى بين الفحول .

فالفرزدق يعتز بشعره ، ويعلو بشاعريته على صاحبه ، ويجعل الفخر بهذه الشاعرية عنصرا بارزا فى مناقضته مع جرير ، ويستفرغ فى ذلك إحدى عشر بيتا ^(٢) من نقيضته التى مطلعها :

إن الذى سمك السماء بنى لنا بيتا دعائمه أعزرو وأطول

يعدد فيها فحول الشعراء الجاهليين الذين ورث عنهم الشعر .

ويتحدى جريرا أن يأتى بمثل أبيات له فى نقائضه معه ، لقبها بألقاب مأخوذة من بعض معانيها ، فيقول ^(٣) :

غلبتك بالمُفَقِّيء والمُعَنَّى وبيت المُحْتَبَى والخافقات

ولجرير مثل هذا الاعتزاز بشعره ، ومثل هذا الاهتمام برأى النقاد فيه ، وقد مر بنا قوله ^(٤) :

(١) انظر : تاريخ النقائض ٣٥٢

(٢) انظرها فى ديوانه ٢ / ١٥٩ — ١٦٠

(٣) ديوانه ١ / ١١٠

(٤) راجع ٣٠٢ من هذه الدراسة

في ليلتين إذا حدوث قصيدة بلغت عمان وطىء الأجال
ومثل هذه الدعوى ادعاها الفرزدق لشعره أيضا (١) .

وينظر جرير إلى شعره وشعر صاحبيه ، ويهتم بالحكم الفنى على هذا الشعر ،
ويفضل نفسه ، قائلا : نبعة الشعر الفرزدق ، والأخطل يجيد صفة الملوك ، ويصيب نعت
الخمير ، وأنا نحرت الشعر نحرا (٢) . ويرد جرير على سائل سأله : هل تعلم اليوم أحدا يرمى
معلك ؟ قائلا : لا ، والله ما أعرف نابجا إلا وقد استكان ، ولاناهشا إلا وقد انبحر ،
إلا جريرا (٣) .

وقال جرير لرجل من طهية : أيما أشعر ، أنا أم الفرزدق ؟ فقال له : أنت عند
العامة ، والفرزدق عند العلماء ، فصاح جرير : أنا أبو حزة !! غلبته ورب الكعبة ، والله
ما في كل مائة رجل عالم واحد .

هذه الروايات ناطقة بمدى حرص هؤلاء الفحول على رواج شعرهم عند جمهور
الناس ، وإلا ماصاح جرير هذه الصيحة الجزلة ، عندما أخبره هذا الطهوي بأن شعره
مقدم على شعر صاحبه عند العامة .

وهاهو ذا الأخطل جذلان فرحا حين فتح جرير له باب القول ، أملا في الغلبة ،
وأن يحكم له بأنه تفوق على صاحبه جرير .

يروى أن جريرا لما قال للأخطل (٤) :

إذا أخذت قيس عليك وخندف بأقطارها لم تذر من أين تسرح ؟

(١) انظر ديوانه ١ / ١١٠

(٢) الأغاني ٧ / ١٦٤ والعمدة ١ / ٦١ وابن سلام ٦٥ (المدني)

(٣) الأغاني ٧ / ١٦٥

(٤) ابن سلام ٤٨٦ — ٤٨٧ (المدني)

فلما أنشدته الأخطل قال : لامن أين !! سدّ والله على الدنيا !! حتى أنشد قوله :
 فمالك في نجد حصاة تعدّها ومالك في غوري تهامة أبطح
 فقال الأخطل : لأبالي والله أن لا يكون ، ففتح ، والصليب ، لى القول ، ثم قال :
 ولكن لنا بر العراق وبحره وحيث يرى القرقور في الماء يسبح
 وجريز جذلان أيضا بتفوقه على الأخطل ، لأنه ناقضه ، وقد كبرت سنة ، أو على
 حد قوله : « أدركته وله ناب واحد ، ولو أدركت له ناين لأكلنى » (١) .

والروايات عديدة في الدلالة على إدراك هؤلاء الفحول مكانتهم الفنية ،
 وحرصهم ، فيما بينهم ، على المناقضة ، وعلى المنافسة فيها ، وسعادة كل منهم حين يذكر
 متفوقا في معنى ، أو في صورة أو في مناحي الكلام على صاحبه ، وهذا ما يؤكد فردية
 هذه الخصومة ، وأنها كانت في أوج احتدامها منافسة أدبية ، قبل أن تكون خصومة
 سياسية ، أو قبلية .

وأول ما يلاحظ على نقائض جريز والأخطل طولها ، وهى في هذا تتفق مع نقائض
 جريز والفرزدق .

ويمثل طول النقائض على أيدي هؤلاء الفحول تطورا جديداً لفنى الفخر والهجاء
 في العصر الأموي ؛ إذ كان الغالب عليهما قبل هذا العصر ، وعند كثيرين من شعرائه ،
 أن يكونا مقطعات ، أو قصائد قصيرة .

كما أن هذين الفنين لم يعودا يتسمان بالعجلة والعفوية والبساطة ، بل صارا فنين
 معقدين يقومان على البحث والدرس ، وبخاصة في تاريخ القبائل وأنسائها وأيامها .

وملاحظ آخر يقف عليه من يقرأ في نقائض جريز والأخطل ، يتمثل في غلبة المادة
 القبلية على ماعداها من العناصر السياسية ، أو الشخصية ، وبخاصة في نقائض جريز ،
 التي كان يجمع فيها بين بنى كليب ، وقيس ، وتيم في مقام الفخر ، ولكل هؤلاء أيام
 وأنساب ، وأجماد ، وبين بنى تغلب وبنى مجاشع في مقام الهجاء ، إذ كان كثيرا ما يتصدى
 في نقائضه مع الأخطل إلى الفرزدق أيضا ، باعتبارهما ، حليفين ضده .

والذى قلناه فى تفسير هذه المادة القبلية فى نقائض جرير والفرزدق ، وأنها لا تقدر فى فردية هذه النقائض ، وهدفها الأدبى ، يمكن أن نقوله هنا فى الغرض نفسه ^(١) .

ونلاحظ أيضا على نقائض جرير والأخطل ، قرب الشبه بينهما وبين نقائض جرير والفرزدق ، من حيث الطابع الأسلوبى لكل منهما .

فظاهرة التبع لمعانى الشاعر الأول ، والنظر فيها ، ومحاولة هدمها ، والدقة فى هذا التبع ، نلمحها أيضا فى نقائض جرير والأخطل ، حتى فى الأمور الشخصية الدقيقة ، وسنلاحظ هذا فيما سنقدمه من دراسة لفتنهما فى النقض على ضوء نماذج من نقائضهما ، ونسوق هنا مثلا لدقة هذا التبع ، وحرص كل منهما على الوقوف على دقائق حياة صاحبه ، ليستعين بها فى موقفه منه .

لما أغار الجَحَافُ بن حَكيم السُّلَمى القيسى على البِشْرِ ، وهى منازل تغلب ، وأسرف فى القتل فيهم ، استخذى الأخطل وقال ^(٢) :

لقد أوقع الجَحَافُ بالبِشْرِ وقعةً إلى الله منها المُشْتَكى والمعولُ
فوثب عليه جرير ، ونقض ما قال ، وكان من قوله فى هذا :

بكى دَوْبَلٌ لا يرقىءُ الله دَمْعَه ألا إنما ييكى من الذلِّ دَوْبَلُ

فلما سمع الأخطل هذا البيت قال : « والله ماسمتنى أُمى دَوْبَلًا إلا يوما واحدا ، فمن أين سقط إلى الخبيث !! ^(٣) » .

والميل إلى الإقذاع والفحش والإسفاف فى الهجاء ، ومحاولة السخرية ، اتجه يجمع بين نقائض الفحول جميعا ، الغرض منه ، إرضاء هوى الجماهير إلى السخرية والضحك ، وإسقاط قدر الخصم وقبيله عندها ، بما يلبسهما كل منهم من الخزى والعار .

ولكننا نبادر إلى القول بأن الأخطل كان أقل إفحاشا فى هجائه من زميله ، ومن جرير خاصة ، ذلك أن الأخطل ضمَّن بعض نقائضه مع جرير مديحا لبعض خلفاء بنى

(١) راجع ص ٣٠٥ — ٣٠٦ من هذه الدراسة .

(٢) ابن سلام ٤٧٩ — ٤٨١ (المدنى)

(٣) المصدر السابق ٤٨١

أمية ، ولم يكن من اللائق به — وهو شاعر البلاط الأموي — أن يخلط ذلك بكثير من المعاني الفاحشة ، ثم إن الأخطل نصراني ، وهو لنصرانيته لا يجد الحرية في تناول أعراض المسلمين في هجائه ، وإلا أخرج الخلفاء أمام الرعية المسلمة ، وقد نستطيع أن نضيف إلى ذلك عاملاً يرجع إلى شخصية الأخطل ، فقد كان معروفاً بالوقار والتعقل — ولعل ذلك لكبر سنه — فلم يكن له في باب البذاءة باع طويل .

ومع ذلك فإن الأخطل لم يبتعد كثيراً عن نزعة السخرية والتهكم بحريز وأمه وأبيه ، رداً على تناول جرير لأم الأخطل ونساء قومه بفاحش القول ، كلما هيئت له الفرصة لذلك ؛ حتى لا يخلى المجال لجرير في هذا الميدان — على الأقل .

ولكل منهما من الصور الساخرة بصاحبه وقومه ، ماطر شهرته في العالم العربي قديماً وحديثاً .

من ذلك قول الأخطل في هجاء بني كليب بن يربوع قوم جرير ^(١) :

قوم إذا استَبَحَ الأضيافُ كلبَهُم قالوا لأُمَّهُم بولى على النار
فتمسكُ البولُ بُخلًا لا تجود به ولا تبولُ لهم إلا بمقدار

ولعل من أقوى ما علق به على هذا البيت وأجمعه وأدقه ، قول ابن رشيق : ^(٢) قد جمع ضرباً من الهجاء ، فنسبهم إلى البخل بوقود النار ؛ لثلاث يهتدى بها الضيفان ، ثم البخل بإيقادها إلى السائرين والسابلة ، ورماهم بالبخل بالحطب ، وأخبر عن قلة النار وأن بولة تطفئها ، وجعلها بولة عجوز ، وهى أقل من بولة الشابة ، ووصفهم بامتهان أمهم ، وابتذالها في هذا الحال يدل على العقوق والاستخفاف ، وعلى أنه لاختدام لهم ، وأخبر في أضعاف ذلك ببخلهم بالماء .

ولم يكتف الأخطل بهذه الصورة الموغلة في السخرية ، بل سب هذه الأم سباً قبيحاً في بيت بعد هذين البيتين .

ورد جرير بنقيض هذا المعنى ، فافتخر بقومه ، وبنيرانهم ، وسب أم الأخطل ،

(١) ديوانه ٢٢٥ والعمدة ١٤٢/٢ وانظر : ديوان المعاني ١/١٧٥ وبعد هذين البيتين بيت يتضمن صورة

غاية في الفحش .

(٢) العمدة ١٤٢/٢ .

وسخر منها سخرية مرة : (١) :

قومي تميم هم القوم الذين هم ينفون تغلب عن بُحْبُوحَة الدار
والحي قيس بأعلى المجد منزلة فاستكروا من فروع زَنْدَها وارى
قومي فأصلهم أصلى وفرعهم فرعى وعقدهم عَقْدَى وإمرارى
ما أوقد الناس من نيران مكرمة إلا اصْطَلَيْنَا وَكُنَّا موقدى النار

فالنقض فى الآيات الثلاثة الأولى مبنى على اختلاف التفسير لمعنى القوم ،
فالأخطل قصد بقوله : « قوم » بنى كليب بن يربوع رهط جرير خاصة ، فجاء جرير ،
وأبان أن قومه تميم وقيس ، ومثلهما لايرمى بالبخل بالنار ، والخوف من طوارق الضيفان ،
أما فى البيت الأخير فالتنقض بضد المعنى .

وكان جرير يحرص من جانبه على أن يصب على الأخطل وقومه أقذع الهجاء ،
وأشده لذعا وتهكما ، فقد تعمد — غالبا — أن يتناول نساء تغلب ، والفا فى أعراضهن ،
بنسبتن إلى أنواع الفحش ، فإذا عدل عن ذلك فإلى دين الأخطل وقومه ، وإلى أخلاقهم
وخصائصهم ، ومن ذلك صورته المشهورة فى بنى تغلب (٢) :

لاتطلين خُثُولَةً فى تغلب فالزَّنجُ أكرم منهمُ أخوالا
والتغلبى إذا تنحج للقرى حَكُّ اسْتَهْ وتمثل الأمثالا

قالوا : لم يبق سقاء ولا أمة إلا رواه ، شهد بهذا الأخطل نفسه ، قال (٣) : قلت
بيتا ما أعلم أحداً قال أهجى منه ، وهو : قوم إذا استنجح ... (البيت) فلم يروه إلا
حكماء أهل الشعر ، وقال جرير : والتغلبى إذا تنحج ... (البيت) فلم يبق سفلة
ولا أمثالها إلا روه .

وكان جرير فخورا بهذه الصورة التى وسم بها بنى تغلب ؛ إذ قال بعد أن أنشد
البيت الثانى : « لو أن الأفاعى نهشت أستاذهم ماحكوها » (٤) . وقال : « قد قلت بيتا

(١) المصدر السابق ٤٨١ .

(٢) ديوانه ٢٢٥ والعمدة ١٤٢/٢ وانظر : ديوان المعانى ١/١٧٥ وبعد هذين البيتين بيت يتضمن صورة
غاية فى الفحش .

(٣) العمدة ١٤٢ / ٢ .

(٤) ديوانه ٣١١ — ٣١٣ .

فيهم لو طعن أحد — منهم — في استه لم يحكها ^(١) .

وحق لجريز أن يهتز طرباً ، إذ الصورة قبيحة ، لاتقل قبحاً عن صورة الأخطل في بيته السابق ، ولكنها مع ذلك مضحكة ، تحمل كل ماأراد جريز بصاحبه وبقيبلته ، وهذه الصورة وأمثالها إنما كان يراد بها اجتذاب الجماهير ، وتهليلها للشاعر .

ومن طريف مايروى في التعليق على قول جريز هذا في تغلب ، أن شاعراً زنجياً يدعى رياح بن سنيح — وكان فصيحاً — سمع مذكروه جريز ، في مقام السخرية ، عن الزنج ، فغضب ، وأخذ يعدد أكثر من ولدته الزنج من أشرف العرب في قصيدة ، يقول فيها مخاطباً جريزاً ^(٢) :

وَالزَّنْجُ لو لاقيتهم في صفِّهم لاقيتَ ثمَّ جَحَاجِحاً أبطالاً
مابال كلبِ بنى كليب سبَّهم أن لم يوازن حاجباً وعِقالاً
إن أمراءاً جعل المراغة وابنها مثل الفرزدق حائرٌ قد فالاً

وكا قابل جريز سخرية الأخطل بمثلها ، قابل معانيه الفاحشة ، بمعانٍ أفحش منها ، وأوغل في الإسفاف والبذاءة .

وله في أم الأخطل ونساء تغلب صور ، بعضها لا يروى ، فمما قال في أمه ، وهو أهون ما قال فيها ^(٣) :

أيفخرُ عبدٌ أمةً تغليبةً قد اخضر من أكل الخنانيص نابها
غليظة جلد المنخرين مُصِنَّةً على أنف خنزيرٍ يُشدُّ نقابها
وله في نساء بنى تغلب : ^(٤)

(١) ديوان المعاني ١ / ١٧١

(٢) الكامل للمبرد ٢ / ٢٢٦ (الأزهرية) وانظر : نقائض جريز والأخطل ٨٨ وسائل الجاحظ ١ / ١٩٠ وفيه أن الشعر لسنيح بن رياح . وقوله « حاجبا وعقالا » يريد : حاجب بن زرارة من بنى عبد الله بن دارم ، وعقال جد الفرزدق ، واسمه همام بن غالب بن صعصعة بن ناجية بن عقال ، من بنى مجاشع بن دارم ، الجحاجح : جمع جحجج وهو : السيد السريع إلى المكارم ، المراغة : أنثى الحمار : وكان مناقضو جريز يطلقون هذا الوصف على أم جريز وأكثر منه الفرزدق في نقائضه معه . قال : أخطأ وضعف رأيي

(٣) ديوانه ٥٣ الخنانيص : جمع خنوص : ولد الخنزير

(٤) ديوانه ١٥٧

ألم تر أن التغلبية لم تبث حصاناً ولا جذلان من يستفيدها
وقوله (١) :

والتغلبية في ثني عباءتها ... وفي باع ابنها قصر
من كل مخضرة الأنياب قعرها لحم الخنازير يجرى فوقه السكر
ويرمى بنى تغلب بأنهم إذا سكروا نزوا على بناتهم (٢) ، ولا نستقصى هنا ، فلقد
يخيل إلينا أن جريرا استوفى هذا الباب من السفاهة في معانيه وصوره ، التي اسبغها على
نساء تغلب (٣)

وما كان للأخطل أن يبارى جريرا في مضمار السفاهة ، فهو المجلى فيه — على
حسن إسلامه — فقد هاجاه من الشعراء أكثر مما اجتمع على غيره منهم ، من قبله ، وفي
زمانه ، ومن بعده ، ونالوا منه ، وعيروه بقره ، وهوان حسبه ، وضعة والده ، وقلة جوده ،
مما ضره بالهجاء ، ودفعه إلى الإكثار منه ، والافتنان فيه ، فثارت نفسه ، وأخذ ينشر
مخازي خصومه ، فإن لم يجد اختلقها اختلاقا ، في صور ساخرة ، أو بذئية ، انتقاما
لنفسه ، وتنفيسا عن كوامن غيظه ، واستجابة لمركب النقص الذي أصابه ، فالفحش في
هجائه مسألة فنية اضطر إليها دون أن يكون في سلوكه فاجرا أو متفحشا أو فاسقا وغلب
عليه هذا اللون ، وبه اشتهر ، فلم ينافسه فيه منافس .

وكان جرير بلاء على من صُبَّ عليه ، كما يقول الأخطل (٤) ، ولذا كان الفرزدق
يتصور ويجزع إذا أنشد لجرير ، خوفا من هجائه (٥) .

أما الفرزدق فقد ذهب بالفخر ، لماهيء له من طبع قوى ، وحسب ضخم ،
يشتق منه المعاني ، وغنى عريض ، ومفاخر شتى ، استمد منها عتادا مكينا وأسلوبا جزلا ،
كان سمته في النقائص ، نقرأ في فخره — مثلا مخاطبا جريرا ، ماثلا فمه بالفخر (٦) :

(١) ديوان ٢٦٢ قعرها : عظم جوفها . السكر : يريد الخمر .

(٢) ديوانه ٤٥٠

(٣) راجع مثلا ديوانه ٥٧٧ ، ٥٧٨

(٤) ابن سلام ٣٧٥ (المدني)

(٥) المصدر السابق ٣٧٧

(٦) ديوانه ٢ / ٣٥٥ — ٣٠٦ القمقام : البحر العظيم .

وحسبت بحر بنى كليب مُصِدِّرا
 في حَوْمَةٍ غمرت أباك بحورها
 فاسأل بنا وبكم إذا لاقيتُم
 جُشَمَ الأرقام أو بنى هَمَام
 منا الذى جمع الملوك وبينهم
 حربٌ يُشَبَّ سعيها بضرام
 وأنى ابن صَعَصَعَةَ بن لَيْلَى غَالِبٌ
 غَلَبَ الملوك ورهطه أعمامى ...

ولهذا قال مروان بن أُنَى حفصه ^(١) ، موازنا بين الفرزدق وجرير ^(٢) :

ذهب الفرزدق بالفخار وإنما
 حُلُو الكلام ومُرَّه الجريـر
 ولقد هجا فأمض أخطل تغلب
 وحَوَى اللّهُى بمدحـه المشهور

وأما الأخطل ، فلم يكن مثلهما لافى هجاء ، ولا فى فخر ^(٣) وإنما كان يجيد نعت
 الملوك ، ويصيب صفة الحَمَر ^(٤) ، أما الأولى فلكونه شاعر البلاط الأموى ، وأما الأخرى
 فلأن الخمر كانت شرابه ، وشراب قومه النصارى .

أضف إلى ذلك أن الأخطل كان مضيقا عليه فى هجاء جرير ، فجرير شاعر
 مضرى ومضر أصل قريش ، قبيلة النبوة ، ومنها بيت الخلافة ، الذى يحمى الأخطل
 وقومه ، فلم يستطع الأخطل أن يهجو جريرا من هذين الجانبين ، فى حين فخر عليه
 جرير بمضريته ، وبالنبوة ، والخلافة ، وهجاه بنصرانيته ، وحرمان قومه مكارم السلطان
 والإسلام .

فإذا تركنا باب السفاهة فى نقائض جرير والأخطل جانبا ، وانتقلنا إلى الهجاء
 الجاد ، الذى يدور حول سلب المكارم ، والفضائل ، وجدنا المعانى تتشابه عند كل من
 الشعاعين ، نأخذ مثلا قول الأخطل فى بنى كليب ^(٥) :

(١) شاعر عباس من الموالى ، كان مروان بن الحكم والى المدينة قدا اعتق أباه فصار مولى له ، وهو محافظ
 المذهب ، تعصب للعباسية ضد العلوية ، كما تعصب الكميت للهاشمية ضد الأموية . انظر ترجمته فى : الأغانى ٩ / ٣٤
 والشعر والشعراء ٢٩٥

(٢) ابن سلام ٣٧٨ (المدنى)

(٣) المصدر السابق ٤٥٦

(٤) المصدر نفسه ٤٨٨ والعمدة ١ / ٦١

(٥) نقائض جرير والأخطل ١٤٨

أما كليبُ بن يربوع فليس لهم عند التفارط إيراد ولا صدر
مُخلَّفون ويقضى الناس أمرهم وهم بغيب وفي عمياء ما شعروا
مُلطمون بأعقار الحياض فما ينفكُّ من دارمى فيهم أثرُ
على العياراتِ هذاجون قد بلغت نجرانَ أو بلغت سوءاًتهم هَجَرُ
الآكلون خبيث الزاد وحدهم والسائلون بظهر الغيب ما الخير ؟

إنها صورة لقوم بلغوا من المذلة ، وهوان الشان ، بحيث يتولى الناس عنهم تدبير
أمرهم ، لا يشاركون في شيء ، ولا يتدبون لشيء ، فتخطاهم بذلك مقياس الشرف ، في
العرف العربى القديم ، المعبر عنه فى قول شاعرهم :

إذا أنت لم تنفع فضرر فائما يُرجى الفتى كيما يضُر وينفعُ

فهم صاغرون لذل بنى دارم ، أخساء يدبون بالليل على ظهور الحمير للسرقة ، أو
لانتهاك الأعراض ، عرفوا بذلك فى كل الآفاق ، طعامهم خبيث ، وكلهم بخيل ،
لا ذكر لهم ، ولا حضور فى مجالس القوم ونواديهم .

وهذا الهجاء مؤلم موجه ، فما كان عربى ، أو قوم من العرب ، ليطبقوا أن يكونوا
على هذه الصورة .

وجاء جرير فقلب معانى الأخطل هجاء عليه وعلى قومه ، وقابل الهجاء بهجاء ،
حتى ليأخذ ألفاظ الأخطل كما هى ، ويغير فقط جهة الهجاء ، فإذا قال الأخطل :
« والسائلون بظهر الغيب ما الخير » ، قال جرير فى بنى تغلب (١) :

الظاعنون على العمياء إن ظعنوا والسائلون بظهر الغيب ما الخير

كما يأخذ بيت الأخطل الأخير بنصه ويحور فيه ليرده عليه ، فيقول :

والآكلون خبيث الزاد وحدهم والنازلون إذا وارا هم الخمر

ثم يسك بخناق الأخطل من جهة دينه — وقلما خلت نقيضه له فى الأخطل من
هذا — فهو وقومه أهل رجس ، صلاتهم بقرع النواقيس لا بالأذان ، ولا يعرفون شيئاً عن
القرآن :

رجس يكون إذا صلوا أذانهم قرع النواقيس لايدرون ماالسور

ويقابل هجاءه بالأيام بهجاء بأيام كانت على تغلب ، وبخاصة لقيس وتميم ،
ونقائضهما من هذه الجهة أيضا تشبه نقائض جرير والفرزدق .

وقل مثل هذا في باب الفخر ، وإن ضيق على الأخطل فيه ، بينما كان جرير
يتحرك في ساحة واسعة ، سعة أمجاد قيس وتميم .

وربما كان الجديد في نقائض جرير والأخطل هو عنصر الهجاء بالدين من جانب
جرير ، وهو عنصر أكثر منه جرير وألح عليه في نقائضه معه ، وفيه تردد معاني الكفر
بالإسلام ، وتكذيب النبي ، وعبادة الصليب ، وأكل الخنزير ، وقرع النواقيس ، وشرب
الخمر ، ودفع الجزية ، وقد قدمنا له أبياتا تتضمن بعض هذه المعاني ، والتي منها :

عبدوا الصليب وكذبوا بمحمد وبجبرئيل وكذبوا ميكالا

ونضيف هنا قوله (١) :

تَلَقَى الْأَخِيطَلُ فِي رَكْبٍ مَطَارُفُهُمْ	بُرَّقَ الْعَبَاءُ مَاحِجُوا وَمَا اعْتَمَرُوا
الضاحكين إلى الخنزير شهوته	ياقُبَحَتِ تِلْكَ أَفْوَاحُهَا إِذَا اكْتَشَرُوا
والمُفَرِّعِينَ عَلَى الْخَنْزِيرِ مِيسَرَهُمْ	بِئْسَ الْجَزُورُ وَبِئْسَ الْقَوْمُ إِذْ يَسْرُوا
ماكان يُرْضَى رَسُولُ اللَّهِ دِينَهُمْ	وَالطَّيِّبَانِ أَبُو بَكْرٍ وَلَا عُمَرُ
جاء الرسول بدين الحق فانتكثوا	وَهَلْ يَضِيرُ رَسُولُ اللَّهِ أَنْ كَفَرُوا ؟!

وناحية الدين هذه في هجاء الأخطل وبنى تغلب ، كانت توقع الأخطل في
الخرج ، فلجرير أن يقول في دينه ماشاء ، أما هو فلا بد أن يقف مكتوف الأيدي ،
عاجزا عن دفع مايقول جرير ، محظورا عليه أن يقابل قول خصمه في دينه ، بقول في دين
خصمه ، لأنه إن فعل جرّ على نفسه وعلى قومه النصارى مالا يحمدون له عقبى .

— ٧ —

تعقيب

أ : ملامح التجديد في النقائض الأموية .

ب : أهميتها التاريخية واللغوية والأدبية .

— أ —

تبرز الدراسة السابقة لفن المناقضة بين شعراء العصر الأموي ، تتقدمهم العبقریات الثلاث : جرير والفرزدق والأحطل ، ألوانا من التطور والتجديد ، حظى بها هذا الفن على أيديهم :

١ — فقد طولت قصائده — وبخاصة في نقائض الفحول — بعد أن كانت مقطّعات ، أو قصائد قصيرة غالبا ، وأصبحت تلقى على مسامع الجماهير ، بصفة دائمة ، وعلى أسلوب منظم ، فيقف الشاعر في المرید ليلقى قصيدته ، أو يرسلها إليها ؛ لتتشد فيه ، والناس من حوله ، أو من حول المنشد ، يهللون ويصفقون ، ثم يتحركون إلى الآخر .

وهكذا يشتد التنافس ، ومع التنافس ينضج الفن ويُجَوّد ، فلأول مرة ، ، في هذا العصر ، يتخذ الهجاء والفخر وسيلتين للتسلية ، وإمتاع عامة الناس وخاصتهم ، ولم يكن الحال كذلك قبل العصر الأموي .

فالشاعر الجاهلي لم يكن يهجو أو يفخر ليضحك جمهورا ، أو ليقطع له وقت فراغة بمتعة فنية ، ولم يكن يفعل ذلك أمام خصمه مباشرة ، أو على مقربة من سامعه ، كما أن هذا الفن لم يتخذ حرفة ، أو كالحرفة ، يوما على هذا النحو الذي ظهر في هذا العصر .

٢ — كان هذا الفن بريئا — غالبا — من الفحش والسباب والبذاءة ، وانتهاك الأعراض على ألسنة الجاهليين ، وشعراء المناقضة في صدر الإسلام ، بينما خاض في ذلك كله بألسنة الأمويين بعامة ، وجرير والفرزدق بخاصة ^(١) .

(١) قالوا : كان الأحطل خبيث الهجاء ، ولكنه كان يعف عن الفحش ، وكان يقول : ماهجوت أحدا قط بما تستحي العذراء أن تتشده أباهما (الأغاني ٧ / ١٧٠) وقد بان لنا — مما مر — أن هذا القول ليس على إطلاقه .

وقد يبدو لنا جرير أو الفرزدق أحيانا ، وقد استحال شخصا من سفلة الناس ، وقف على قارعة الطريق ، وأطلق لسانه بالسباب ، دون أن يستشعر حرجا ، أو يراعى ذوقا !!

وهل نجد في الهجاء الجاهلى مثل قول الفرزدق — مثلا — لجرير ، على مابينهما من تعاطف :

تصاغت بابن الكلب لما رأيته مع الشمس في صعبٍ عزيزٍ معاقله ^(١)
أو هذا القول المزدحم بنباح الكلاب ^(٢) :

فإنك كلب من كليبٍ لكلبةٍ غذك كليب في خبيث المطاعم
أو نظيره الذى يصور صاحبه حمارا من سلالة الحمير ^(٣) :

ياابن الحمارة للحمار وإنما تلد الحمارة والحمار حمارا

ويتجاوز الأمر السباب إلى بذى اللفظ ، وفاحش المعنى ، لا يستحى الشاعر فيه من التصريح بما يخذش الحياء ، ويهتك الذوق العام ، على عكس النقائص الجاهلية ، التى لم تكن الحرة العفيفة لتخلج من روايتها ، أو الاشتراك فيها ^(٤) ، والتى كانت ترى الإقذاع فى الهجاء لايغنى أكثر من تفضيل شخص على آخر ، أو قبيل على قبيل .

بذلك كانت السفاهة فى النقائص الأموية أوغل فى الإسفاف ، وأجراً على الغلو فى هتك الأعراض ^(٥) ، والتشنيع بالخازى ، حقاً ، أو تخيلاً ، أو اختراعاً ، حتى لتعد النقائص من هذه الوجهة خطوة جريئة ، وأمرأ غريباً ، فى ظل الإسلام ، لم تر الجاهلية مثله .

وقد يقال : كيف تسامح الخلق العربى المعروف بالغيرة الشديدة على العرض ، فى

(١) ديوانه ٢ / ١٧٢

(٢) المصدر نفسه ٢ / ٣٢١

(٣) ديوان الفرزدق ١ / ٣٥٢

(٤) انظر : تاريخ النقائص ١١٢

(٥) لجرير صورة فى أخت الفرزدق جعثن ليس فوقها فوق فى انحطاط الهجاء ، واطراح الحياء فى ديوانه ٨٥ —

٨٦ ، وأخرى فى البعث مع أمه ، ألفاظها فى غاية البذاءة ٢٨٢ ومثلها فى الفرزدق مع أمه ٣٧

مثل هذه الصور من الهجاء التى تنتهك عليه حَرَمَ محافظته ، دون أن يثور عليها ، ويعمل السيوف فى رقاب مدعيها ؟

الإجابة عند أهل العصر أنفسهم ، الذين أدركوا تمام الإدراك أن الأمر أمر منافسة أدبية ، لاتأخذ هذه المعانى مأخذ الجد ، وفهموا كما فهم المتناقضون أنفسهم أن الأعراض بريئة من هذه الدعاوى المتخيلة ، وإلا لكان أقل القليل من ذلك كافيا لإراقة الدماء ، وفى مقدمتها دماء هؤلاء الشعراء .

وفى هذا يقول الناقد المعاصر الدكتور عبد القادر القط ^(١) : « كان الأمر يبدو كأنه مباراة شعبية فى الفكاهة والسخرية ، على الطريقة التى كنا نشهدها منذ سنين ، بين بعض من عرفوا بالقدرة على ابتكار الدعابة ، وصياغتها ، معتمدين فى ذلك على بعض معان أساسية ، تتصل بالجنس فى كثير من الأحيان ، دون أن يحس أحد منهم بأدنى حرج أو إهانة ، أو يكون لذلك أدنى أثر فى علاقة المتبارين ، وماقد يكون بينهما من صداقة » ، واستدل على صواب رأيه هذا بما سبق أن ذكرناه من علاقة التعاطف بين جرير والفرزدق ^(٢) ، الذى ظهر فى رثاء جرير إياه ، بقوله :

لعمري لقد أشجى تميما وهذها على نكبات الدهر موت الفرزدق

ولعل هذا الميل إلى السخرية والإفحاش فى النقائض الأموية ، هو الذى وجه شعراء هذا الفن إلى اصطناع المبالغة أسلوبا فى النقض ، وهذا الأسلوب حرك خيال الشاعر منهم لابتكار الصور ، واختراع المعانى ، والوقائع ، والحوادث ، دون أن يأبه بما يرتكبه فى سبيل ذلك من كذب وبهتان .

٣ — وتمتاز نقائض الفحول الأمويين — بخاصة — بالتأثر بأسلوب المناظرة والملاحاة فى المعانى ، والعناية بالاحتجاج لتأييد وجهة النظر ، وقلب فخر الخصم هجاء ، ولاشك أن هذا راجع لاختلاط شعرائها ، بأوساط العلماء والمتكلمين فى العراق ، وفى مجالس الخلفاء بالشام ، وفى دراستنا السابقة نماذج من نقائضهم مايبرز هذه الظاهرة ويؤكددها .

(١) فى الشعر الإسلامى والأموى ٣٥٢ .

(٢) راجع ص ٢٩٦ — ٢٩٧ من هذه الدراسة .

ومع أن النقائض الجاهلية ، والإسلامية الأولى ، لم تخل من الملاحاة والجدل ؛ إذ كان هذا أصلاً من أصول المناقضة ، كما عرفنا في تفسير معنى المناقضة ، فإنه لم يبلغ فيها من الدقة والتتبع والتربص مبلغه في هذه النقائض الأموية ، للرق العقلى والتأثر الثقافى ، ولعنف التنافس ، وعناية النقاد ، والعلماء بالشعر ، وجمهور الناس بهذا الفن ، وارتقائهم الفائز فيه ، فقد كان هؤلاء الفحول يشغلون الحياة الأموية ، بما يطيطرون من مفاخر وأهاج ، والعالم من حولهم يستمع إليهم ما بين معجب مصفق مشجع ، وساخط ناقم مزور ، وراض بمتعة هذا الفن ، متأمل عبقرية الشعر فيه ، والأمر كله متأثر بهذه النزعات ، والقبائل محتفية بما يصفى عليها فن هؤلاء من بعد الصيت ، أو ناقمة لما ألصقه بها من ضعة وهوان شأن ، والنقائض في خضم هذا كله مدرسة للنقد ، وصحف للعصر ، تدفعها الحياة الأدبية ، وتياراتها النقدية ، ومقاييسها الفنية ، إلى التجويد والافتتان ، واستغلال كل معطيات الثقافة العصرية المتاحة ، للبلوغ إلى مالم تصل إليه نظائرهم في العصرين السابقين .

— ب —

وقبل أن نختتم دراسة فن المناقضة في العصر الأموى ، يحسن أن ننبه إلى قيمة النقائض التى خلفها شعراؤه ، من النواحي التاريخية ، واللغوية ، والأدبية .

الدلالة التاريخية :

لايسعنا أن ندعى أن كل ماتضمنته مادة النقائض الأموية ، من أحداث تاريخية ووقائع وأيام ، وإشارات لعصبيات ، ومواقف للرجال ... وغيرها ، صالح لأن يعد واقعا تاريخيا دقيقا يعتمد عليه المؤرخ المعاصر للحياة السياسية والقبلية ، والعلاقات الاجتماعية بين القبائل ، في العصر الأموى ، وماقبله ؛ لأن هذا كله إنما خضع على يد شعراء المناقضة إلى أهوائهم ، ورؤيا كل منهم للحدث من زاوية موقفه السياسى ، أو القبلى ، أو منظوره الفنى .

ولسنا بهذا ننكر على النقائض قيمتها التاريخية ، ونزجها تماما من مجال البحث العلمى المؤرخ لهذا العصر .

فهناك مادة تاريخية ضخمة مبثوثة في ثنايا نقائض العصر الأموي ، وبخاصة نقائض الفحول ، لا يتطرق إليها الشك ، ولا مجال لتدخل الأهواء والمنازع ووجهات النظر في تزييفها ، أو التلاعب بها ، وطمس الحقائق التي تسجلها .

فإذا نحناجا نبا الأحداث المختلقة للتشنيع ، أو للمفاخرة ، كحادث جمعن أخت الفرزدق الذي انطلق من شائعة ، ضخمها جرير ، وأضاف إليها من عنده ، ليصورها عرضا منتها ، يخزي به الفرزدق وقومه ، وكذلك تفسير الشعراء للأيام التي كانت لقبائلهم مع خصومها على نحو يجعلها إضافة للمجد ، أو شامة للعار ، نقول : إذا استبعدنا أمثال هذه الأحداث من دائرة الاهتمام التاريخي ، ونظرنا في النقائض ، خرجنا بثقافة تاريخية واسعة ، تؤكد مصادرها التاريخ المروي عن ثقات المؤرخين القدامى لعصر بني أمية .

وبين أيدينا كتب أيام العرب في الجاهلية والإسلام ، وفيها أخبار يوم الحشاك الذي كان لتغلب على قيس ، وقد روي خبره ومادار حوله من العصبية بين قيس وتغلب ، وماتضمنه من مقتل عمير بن الحباب السلمي ، وقد تحدث عنه الأخطل في إحدى نقائضه مع جرير ، وافتخر به فقال :

وقد نصرت أمير المؤمنين بنا لما أتاك يبطن الغوطة الخبر
يعرفونك رأس ابن الحباب وقد أضحى ولل سيف في خيشومه أثر
أمت على جانب الحشاك جيفته ورأسه دونه اليموم والصور

وما يخبر به الأخطل هنا هو مانقرؤه في المصادر التاريخية الموثوق بها ^(١) ، والدلالة التاريخية هنا أن تغلبا كانت تحاصم قيسا ، وأنهما التحما في هذا اليوم ، وأن النصر كان لتغلب على قيس ، التي قتل قائدها عمير بن الحباب ، وهذه الدلالة لا يمارى فيها أحد .
وماسقنا هذا اليوم إلا مثلا لأيام عديدة سجلها شعراء النقائض ، وتحدثوا عن أطرافها ونتائجها ، ثم جاءت المصادر التاريخية مصداقا لما قالوا .

ونورد هنا شعرا للفرزدق في إحدى نقائضه مع جرير ، يعيره في مقام الهجاء بأيام كانت لتغلب على بني يربوع قوم جرير .

(١) انظر مثلا : ابن الأثير ٤ / ٣١٥ - ٣١٧

يا ابن المراغة إن تغلب وائل
 كان الهذيل يقود كل طمرة
 وكان رايات الهذيل إذا بدت
 وردوا أراب بحجفل من وائل
 لولا أناتهم وفضل حلومهم
 واسأل بتغلب كيف كان قديمها
 قوم هم قتلوا ابن هند عنوة
 لولا فوارس تغلب ابنة وائل
 حبسوا ابن قيصر وابتنوا برماحهم
 إن الأراقم لن ينال قديمها
 رفعوا عناني فوق كل عنان
 دهماء مقرية وكل حصان
 فوق الخميس كواسر العقبان
 لجب العشي ضبارك الأركان
 باغو أباك بأوكس الأثمان
 وقديم قومك أول الأزمان
 عمراً وهم قسطوا على النعمان
 نزل العدو عليك كل مكان
 يوم الكلاب كأكرم البنيان
 كلب عوى متهتم الأسنان ...

فخبر يوم أراب حقيقة تاريخية ، سجلها — كما هنا — مؤرخو أيام العرب
 القدامى ، وهو فيما سجلوا يوم لتغلب على بنى يربوع قوم جرير^(١) ، والحديث عن
 الهذيل بن حسان التغلبي مروى أيضاً في خبر هذا اليوم على النحو الذى ذكره الفرزدق ،
 إذا استثنينا هذا التصوير البطولى المبالغ فيه ، والذى عبر عنه الفرزدق في أبيات تركناها .
 والإشارة التاريخية إلى مقتل عمرو بن هند (٤٥٥ — ٤٧٩ م) على يد عمرو بن
 كلثوم واقع تاريخى معروف .

ويوم الكلاب الأول الذى يشير إليه الفرزدق ، وهو يوم من أيام العرب في
 الجاهلية ، كان لتغلب وأحلافها ، على يربوع وأحلافهم من بكر ، وبهذا تحدث كتب
 الأيام^(٢) .

ويشير جرير إلى مجموعة القبائل التى تعرف بالأراقم — وقد تحدثنا عنهم من قبل —
 وفي النقائص أمثال لهذه الطوائف من القبائل ، الملقبة باللقاب خاصة ، كالبراجم في قول
 الفرزدق :^(٣)

وإذا البراجم بالقروم تخاطروا
 حولى بأغلب عزه لاينزل

(١) انظر : العقد الفريد ٣ / ٣٦٢

(٢) انظر : العقد الفريد ٣ / ٣٥٣ والعمدة ٢ / ١٦٣

(٣) ديوانه ٢ / ١٥٦ . والبراجم منهم غالب بن صعصعة ، قوم الفرزدق . انظر : تاريخ النقائص ٤٠٢

والربائع ، وهم ثلاثة : ربيعة الكبرى ، والوسطى ، والصغرى ، ذكرهم الفرزدق في قوله (١) :

وإذا الربائع جاءني دُفاعها موجاً كأنهم الجراد المرسلُ

والأحمال ، وهم من بنى يربوع ، ذكرهم جرير ، مفتخراً على الفرزدق ، في قوله : (٢)

أبني قُفيرة مَنْ يروُّعِ وِردنا أم مَنْ يقوم لشدة الأحمال

ثم هناك أنساب القبائل ، وأسماء بيوت العرب ، وحشد من الأعلام من عظماء العرب وساداتهم ، وقوادهم ، وكلها أنساب ، وبيوت وأسماء تاريخية ، لاجرافية ، ولا وهمية ، وفي نقائض العصر شيء كثير من هذا ، لاتكاد تخلو منه نقيضة بين جرير والفرزدق ، أو بين جرير والأخطل .

وتشير النقائض إلى أحداث سياسية هامة ، تسجلها كما حدثت ، في صدق تاريخي لاجمال للشك فيه .

فالتاريخ الإسلامي يحكى مقتل الزبير بن العوام ، عقب انصرافه من موقعة الجمل ، غدرًا على يد عمرو بن جُرموز الجاشعبي ، بعد أن استجار الزبير بأحد بني جاشع ، ونخله الأحنف بن قيس زعيم تميم فلم ينهض لحمايته (٣) .

وقد استغل جرير هذا الحادث ، وعير به كثيرا الفرزدق وقومه ، وراهم بالغدر ، وشهر بهم ، ولم يستطع الفرزدق أن يحير جوابا ، لأن ماقاله جرير حقيقة تاريخية لا يمارى فيها .

ومن قول جرير في هذا (٤) :

(١) المصدر نفسه

(٢) ديوانه ٤٦٨ والأحمال هم : سليط وصُبَيْر وتعلبة وعمرو ، وكلهم من يربوع .

(٣) انظر هذا الخبر في : مروج الذهب ٢ / ١٠ (البيهة)

(٤) ديوانه ١٣١ جيشان : وادى السباع الذى قتل الزبير فيه . وانظر نماذج أخرى في ديوانه ١٩٨ ، ٢٢٧ ،

٢٢٨ ، ٢٤٤ ، ٥٦١ ، ٥٧١

فإننا أناسٌ نجب الوفاءَ جذارَ الأحاديثِ في المشهد
ولانحسبى عند عقد الجوار بغير السيوف ولا نرتدى
شددتُم حُباكم على عُذرةٍ بجيشانٍ والسيف لم يُغمد
فبعداً لِقوم أجاروا الزبير وأما الزبير فلا يُععد

والمادة التاريخية في مقتل قتبية بن مسلم الباهلى في نقائض جرير والفرزدق على يد بنى تميم — كما سبق في الشعر القبلى — كثيرة ، وعلى الرغم من اختلاف الشاعرين في استغلالها وتفسيرها كل لصالح قومه ، وموقفه من صاحبه ، في مقام الفخر من جانب الفرزدق ، ومقام الهجاء من جانب جرير ، فإن حقائق هذا الحادث ، لم تغير في نقائضها . ولانطيل بذكر أشعارهما حول هذا الحادث .

وناهيك بالعصبيات القبلية التى تتحدث عنها النقائض ، والتى تكشف جانباً هاماً ، من جوانب العلاقات القبلية في العصر الأموى ، وهى التى كانت موضوع دراستنا في الشعر القبلى .

فقد عرفنا أن الهجاء القبلى والفخر القبلى ، كان لهما نصيب وافر من مادة نقائض الفحول ، وقد أخذ كل منهم يتتبع تاريخ القبائل التى يعاديهما ، أو ينتصر لها ، ويبحث وينقب في تاريخ العصبيات القبلية ؛ ليستمد منه المفاخر أو المثالب ، وليحدد موقفه من خصمه ، أو موقف خصمه منه ، كل ذلك بغية العلو على صاحبه ، أو الخط من شأنه ، بالنيل من قومه . وقد تحدثنا عن هذه الناحية خلال دراستنا للنقائض بين جرير والفرزدق ^(١) ، فلا داعى لإعادة هذا الحديث هنا .

آية هذا كله أن النقائض غنية بالدلالات التاريخية ، التى تجعل منها أحد المصادر الهامة ، في كل ماذكرنا ، وما تركنا مادتها ذات القيمة في تاريخ الحياة العربية في العصر الأموى .

الدلالة اللغوية :

للنقائض الأموية أهمية بالغة من الناحية اللغوية ، يعرفها كل متصل بعلم العربية ، مهمتهم بتتبع تاريخ صيغها وتراكيبها ، ومراحل تطورها ، ومناحي فصاحتها .

ويكفى أن نتصفح أمهات المعاجم العربية الكبرى ، لنقف على مدى أهمية شعر النقائض في الحفاظ على سلامة اللغة ، وصيانتها من الهجنة ، والحفاظ على تراكيبها من الرخاوة ، فالاستشهاد بشعر الفحول في نقائضهم على فصاحة اللغة مستفيض في هذه المعاجم .

والحق أن شعراء النقائض حفظوا اللغة العربية صافية ، كما كانت في الجاهلية ، حفظوا العدد الأوفر من ألفاظها ، حتى قيل : « لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث لغة العرب »^(١) .

وإذا كان هذا شأن شعر الفرزدق ، فلا شك أن شعر جرير والأخطل قد أسهم في الحفاظ على ثروة أخرى من لغة العرب .

وجاءت التراكيب في هذه النقائض قوية محكمة ، لتعيد إلى الأذهان تراكيب العربية المتينة ، وألفاظها الجزلة .

يضاف إلى هذا حرص الفحول على استعمال اللغة في معانيها التي استعملها فيها العرب الجاهليون ؛ ولذا كثر فيها الغريب ، واهتم بها طلابه ورواته .

حوت النقائض إذن ثروة لغوية هائلة ، تمثلت في قوافيها الغزيرة المنوعة ، وألفاظها الجزلة الفخمة في مقام الفخر والمدح ، الصاخبة الهادرة في باب الهجاء ، وفي هذا تمثل جلال العربية الفصحى ، وثراؤها ، فكانت النقائض روافد ثرة لمعاجم اللغة ، كما كانت مقصدا المؤرخي الأنساب والقبائل .

الدلالة الأدبية :

أشرنا إلى نواح فنية في أساليب المناقضة ، هي التي تمثلت فيها مظاهر تطور هذا الفن الأدبي ، وما حظي به من تجديد ، وكان نصيب فني الفخر والهجاء من النقائض أوفى نصيب ، وتنافس فيهما الشعراء ، فأدت المنافسة إلى التجويد في المعاني والتراكيب والألفاظ ، والصور ، والأساليب ، ولأول مرة نرى هذين الفنين يسلخان من القصائد الطويلة أكثر أبياتها ، أو ينفردان بقصائد ، لا يشاركما فيها موضوع آخر .

وكانت تقاليد الشعر الجاهلي مازالت هي التراث المرموق ، الذي يغرى بالمتابعة ،

ويناسب الحياة الاجتماعية القبلية ، التى كان يعيشها شعراء النقائص ، وما قامت عليه من اعتزاز بالعصبية القبلية ، ومادار حولها من فخر وهجاء .

والشعر الجاهلى قد عبد الطريق لهذين الفنين ، وكثرت تجارب شعرائه فيهما ، وتأصلت تقاليد تعبيرية وفنية ومعنوية فى شعرهما .

من أجل هذا أقبل فحول المناقضة على الشعر الجاهلى ، الذى كان تراثا متاحا حاضرا بين أيديهم ، أقبلوا عليه يحتذونه فى بناء القصيدة ، وصورها ، وكثير من معجم لغته ، وهل أدل على احتذاء هؤلاء الشعراء لغة الشعر الجاهلى ، من أن الرواة والدارسين المعاصرين لهم ، أو الذين جاءوا بعدهم قريبا من عصرهم ، شغلوا بشرح مافى نقائضهم من غريب اللغة ، وكأنهم يفسرون لغة شعراء قدامى ، لا يعيشون معهم ، ولا يشاركونهم معجمهم اللغوى .

ولننظر فى قول الفرزدق فى نقيضة له : (١)

ترى جارنا فينا يجير وإن جنى	فلا هو مما ينطف الجار ينطف
ويمنع مولانا وإن كان نائيا	بنا جاره مما يخاف ويأنف
وقد علم الجيران أن قدورنا	ضوامن للأرزاق والريح زفر
نعجل للضيفان فى المَحَلِّ بالقرى	قدورا بمعبوط ثمد وتعرف
تفرغ فى شيزى كأن جفانها	حياض جبي منها ملاء ونصف
ترى حولهن المعتفين كأنهم	على صنم فى الجاهلية عكف
قعودا وخلف القاعدين سطورهم	جنوح وأيديهم جموس ونطف
وما قام منا قائم فى ندينا	فينطق إلا بالتي هى أعرف

هل هناك فرق بين هذا الفخر فى موضوعه ، ومعانيه وألفاظه ، وأمثال له فى الشعر الجاهلى ؟ هل فيه من هذا كله ما يشير أدنى إشارة إلى أن قائله المفتخر شاعر إسلامى يعيش فى حضر البصرة فى العصر الأموى ؟

الذى تنصوره أن الفرزدق وصاحبيه كانوا ينثرون بين أيديهم خزانة الشعر الجاهلى فى الفخر والهجاء ، ويروحون يتأملونه ويستوعبون صوره ، ويتحفظون معانيه وأساليبه ، ثم ينقلبون ينظمون على غراره .

ولم نذهب إلى التصور ، والفرزدق نفسه يدلنا على مصادر شعره من التراث الجاهلي ؟! فهو يحدد لنا معالم هذا التراث ، بتحديد الشعراء الجاهليين الذين ورث عنهم الشعر ، ووضعوه بين يديه ، تركة موصى بها إليه ، وذلك في قوله (١) :

وهب القصائدلى النوابع إذ مضوا وأبو يزيد وذو القروح وجرول
والفحل علقمة الذى كانت له حُلل الملوك كلامه لاينحل
وأخو بنى قيس وهنّ قتلنه ومهلل الشعراء ذاك الأول
والأعشىان كلاهما ومُرْقَشٌ وأخو قضاة قوله يُتمثل
وأخو بنى أسدٍ عبيدٍ إذ مضى وأبو دؤادٍ قوله يُتنحل
وابنا أبى سلمى زهير وابنه وابن الفرعة حين جد المِقُول

ويضيف إلى هؤلاء لبيد بن ربيعة ، وبشر بن أبى خازم ، وأوس بن حجر ، والنجاشي ثم يقول :

دفعوا إلى كتابهنّ وصيةً فورثتهنّ كأنهنّ الجنـدل

وليس الفرزدق وحده ، الذى كان يضع خطوه في نقائضه على خطو الجاهليين ، يترسمه ، ويتجه حيث اتجه ، ويسير حيث سار ، فالأخطل يدلنا هو الآخر على معاهد القدوة والمثل في شعره من الشعراء الجاهليين ، وبخاصة نابغة بنى ذبيان ، وحتى لانتلقى الكلام على عواهنه ، نورد هنا أبياتا للأخطل في غير الهجاء والفخر ، ولكنها ذات دلالة واضحة على أنه كان ينظر هو الآخر إلى الشعر الجاهلي ، ويختار من بين شعرائه من يتخذه هاديا ونبراسا في أسلوب شعره ، يقول الأخطل (٢) :

لقد نزلتُ بعبد الله منزلةً فيها عن الفقر منجاةً ومُنْتَفِدُ
كأنه مزبدٌ ريانٌ منتجع يعلو الجزائر في حافاته الرُّبْد
حتى ترى كلَّ مُزَوَّرٍ أَضْرِبَهُ كأنما الشجر البالى به بُجْد
تظل فيه بناتُ الماء أنجيةً وفي جوانبه البنبوت والحَصْدُ
سهلُ الشرائع تُروى الحائِثات به إذا العِطَاشُ رأوا أَوْضاحه وردوا

(١) ديوانه ٢ / ١٥٩ — ١٦٠

(٢) ديوانه ٢١٧

ونضع بإزاء شعر الأخطل هذا شعرا للنابعة الذيباني ، يعالج الموضوع نفسه — وهو المدح — يقول فيه ^(١) :

وما الفرات إذا هبَّ الرياح له ترمى أواديه العبرين بالزَّريد
يمدُّه كلُّ وادٍ مُتَرَعَجٍ لَجَبٍ فيه ركام من الينبوت والخَضِيدِ
يظل من خوفه المَلَأُحُ معتصِماً بالخيزرانة بعد الأيْن والتَّجْدِ
يوماً بأجودَ منه سَيْبَ نافلة ولايحول عطاء اليوم دون غَدِ

فالمحاكاة — ولانقول السرق — واضحة في الموضوع والمعاني ، والصيغ والأسلوب ، حتى الوزن والقافية استعارهما الأخطل من أبيات النابعة ، وتوظيف صورة النهر في إبراز ، المدح بالكرم ، هذا فيه حذوه .

وأسلوب جرير في المدح المستعطف ، القائم على المبالغة والضرعة ، وإعلاء مقام الممدوح على أنقاض كرامة المادح ، يعكس هو الآخر ملامح أسلوب الأعشى في هذه المناحي .

نخلص من هذا إلى أن شعراء النقائض ، بالتصاقهم بتقاليد الشعر الجاهلي ، وحرصهم على ترسمها ، حكوا لنا أساليب هذا الشعر الجاهلي ، مثلاً في فحوله ، الذين أعجبوا بهم ، واتخذوهم أئمة وهداة ، يحتذون أشعارهم ، ويحاكون خصائصهم ، ولقد لفتت هذه المحاكاة نظر النقدة القدامى ، يقول أبو عبيدة معمر بن المثنى ^(٢) : « كان أبو عمرو الشيباني يشبه جريراً بالأعشى ، والفرزدق بزهير ، والأخطل بالنابعة » .

من أجل هذا كانت النقائض الأموية مدرسة للشعر المحافظ القوى ، رسخت تقاليده ، وأحييت قيمه ، وأقامت عمدته ، وغدا أسلوبها الشعري ، بما عرف به من رصانة ، وجزالة ، ونبرة عالية ، وعراقة في التقاليد ، نمطاً للفحول المحافظين من شعراء العربية في العصور التالية .

(١) ديوانه ٣٦

(٢) الأغاني ٧ / ٣٦ وانظر : ابن سلام ٦٦ (المدنى)

الفصل الخامس

القول في عصر الحجاز

نعنى بحضر الحجاز مدنه الكبرى فى العصر الأموى ، وهى : مكة والمدينة والطائف . وقد درج الباحثون — عادة — على أن يميزوا الغزل ، الذى عرف فى بيئة حضر الحجاز ، فى عهد بنى أمية ، بطابع حسى فى التعبير عن عواطف الحب ، تفرقه بينه وبين ضرب آخر من الغزل فى هذا العصر ، شاع فى البادية أكثر ماشاع ، وهو الغزل العذرى . وبعض هؤلاء يطلق عليه « الغزل الحسى » واصلا بينه وبين نظير له فى العصر الجاهلى ^(١) .

ويفسر الدكتور طه حسين هذه التسمية ، ويعللها بقوله ، فى معرض الحديث عن غزل عمر بن أبى ربيعة : ^(٢) « وقد رأينا أن عمر لم يكن عذريا ، ولم يكن يريد أن يذهب مذهب العذريين ، وإنما كان عمليا محققا ، يلتمس الحب فى الأرض ، لا فى السماء » . فهذا الغزل عنده محققٌ ، وشعراؤه محققون ؛ لأنهم يسلكون سلوكا عمليا إيجابيا فى تحقيق الوصل مع المرأة التى يعشقونها ، ويشدهم إليها جمالها الجسدى ، ورغبتهم العارمة فى الاستمتاع بهذا الجمال الجسدى .

وينحو هذا المنحى الدكتور شكرى فيصل ، ويرى أن هذا الغزل حسى ، يعبر عن حب ذى ميول حسية ، تتعلق بمظاهر الفتنة والجمال الشكلى فى المرأة ، ولانصيب لغزل عمر وأصحابه من شعراء الغزل فى حضر الحجاز الأموى ، من الصفاء النفسى ، أو التسامى العاطفى ، ويقول ^(٣) : « إنه هذا الحب الحسى ، الذى تكون المرأة ، من حيث هى تخلق ، مبدأه ، وتكون كذلك غايته ، أماما وراء ذلك مما يحققه الحب من معنى التصفية النفسية ، ويقود إليه من التجرد عن المادة ، وأما الآفاق البعيدة التى تطلقها هذه الهزة الداخلية ، فشئ لم يشأ عمر أن يقف عنده ، إن اللبانة والحاجة ، وما إلى ذلك ، مما يتصل بالشهوة ، هى أكثر الكلمات دورانا فى هذا الشعر ، وأبرزها فيه » .

(١) الشعر بين الجمود والتطور (د . الكفرأوى) ٥٦ — ٥٨

(٢) حديث الأربعاء ١ / ٣٠٨ وانظره أيضا فى ١ / ٣٢٤

(٣) تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام ٣٣٧

وجلى أنه يرى أن هذا الغزل الحجازى يفسر الحب ، أو فلنقل : يترجم الحب ترجمة مادية ، وأن شعراءه إنما تحركهم غرائزهم الشهوانية ، فهو حب مادية خالص ، ودوافعه مادية خالصة .

وأغلب الظن أن هؤلاء الباحثين وغيرهم ، ممن وسعوا غزل حضر الحجاز فى العصر الأموى بالحسية الخالصة ، إنما كانوا حريصين على التفرقة بينه وبين الغزل العذرى من ناحية ، وعلى أن يستحضروا ، وهم يحكمون على هذا الغزل ، صور الحياة ، التى تروى عن سلوك شعرائه فى حياتهم العاطفية ، من جرى وراء النساء ، وتنقل بهوهم ، أو هوهم ، من امرأة إلى غيرها ، من ناحية أخرى ، ثم مزجوا بين سلوكهم وأشعارهم الغزلية ، فرأوا هذا الغزل تفسيراً واقعياً ، أو حكاية فعلية لواقع حياتهم وسلوكهم ، واستقر عندهم هذا المزج بين السلوك والفن ، والحياة الواقعية والشعر ، واطمأنوا إلى ما رتأوا حينما لاحظوا اتجاهها إلى وصف مفاتن المرأة الجسدية فى بعض نماذج من شعر عمر بن أبى ربيعة وأصحابه ، وتصويراً لبعض المغامرات الجريئة ، التى يدعون أنهم قاموا بها لإرضاء نزعاتهم الحسية فى الحب ، ولم يجد هؤلاء الباحثون لدى العذريين نظيراً لهذا الاتجاه ، ولا لهذا التصوير ، ومن ثم صح عندهم أن هذين اللونين من الغزل على طرفى نقيض ، فقابلوا بينهما ، وتمخضت المقابلة عن تجريد الغزل الحضري من كل ملمح من ملامح المعاناة العاطفية ، والإحساس بالصفاء والطهارة فى الحب ، ومن هنا ارتضوا تسميته بالغزل الحسى .

أما نحن فنميل إلى أن نطلق على الغزل الذى عرف وشاع فى بيئة حضر الحجاز ، فى العصر الأموى تسمية « الغزل الحسى المتطور اللاهى » ونرى هذه التسمية أدق من تسميته بالغزل الحسى فقط ؛ لأن هذا الأخير — كما استقر فى الأذهان — تغلب عليه النزعة المادية ، التى تخرج بين عواطف الحب ، والميول الشهوانية ، والاستمتاع بالمرأة استمتاعاً جسدياً حيوانياً ، ولم تكن المادية ، والاستمتاع الجسدى ، من الخصائص البارزة فى شعر شعراء الغزل ، الذى عرف فى حضر الحجاز فى هذا العصر ؛ إذ كان حظه من الجانب النفسى التحليلى المعنوى أكثر من الغزل الحسى الجاهلى ^(١) ؛ لعناية الشاعر

(١) لأستاذنا الدكتور أحمد الحوفى فصل واف متم فى الغزل الحسى (أو المكشوف) عند الجاهليين فى كتابه : الغزل فى العصر الجاهلى ٢١٨ وما بعدها ، فليراجعه من شاء .

فيه بحكاية خواطره ومشاعره ، وخواطر المرأة التى يتعشقها ومشاعرها ، أكثر من عنايته بوصف هذه المعشوقة وصفا جسدياً^(١) كما سنرى .

فعمر بن أبى ربيعة ورفاقة فى هذا الغزل ، لم يكونوا مجرد طالبى متعة حسية ، يترجمون مغامراتهم إلى شعر « بل كانوا رجالاً يريدون أن يحيوا حياة عاطفية ، لاهى خيالية مجردة ، كما يعيشها العذريون ، ولاهى حسية مغرقة فى المادية ، كما يراها كثير من الدارسين »^(٢) ، وإنما حياة ترتقى وتتطور ، فتتمايز عن هذا وذاك .

ولسنا بهذا نتغاضى عن نصيب هذا الغزل من المادية فى الحب ونوازعه ، وإنما نرى أن تجارب شعرائه التى تصور هذه المادية — على قلتها — لاتصور نزعة شهوانية حقيقية عندهم ، بقدر ماتعبر عن اتجاه فنى عام ، حتى عند العذريين حين يبدو لهم أن يصفوا مظاهر الحسن والجمال فيمن يحبون — كما سنرى — كما أن هذه التجارب ، على أكثر التقدير ، لاتعدو التعبير عن الإعجاب الناشئ عن استعمال الحواس المختلفة ، ثم التحدث عما التقطته هذه الحواس من صفات المرأة الجسدية ، كسواد عينيها ، ودقة خصرها ، وليونه عودها ، وغزارة شعرها ... وما إلى ذلك ، مما كانوا يعجبون به من جمال المرأة ؛ وملاحظة لهذه التجارب ، لذا أسمينا هذا الغزل حسياً أيضاً .

— ٢ —

إن القضية الكبرى التى يهتم بها عادة مؤرخ الغزل الحجازى المتطور ، تدور حول التساؤل التالى :

هل فى هذا الغزل ما يعد إضافة جديدة لفن الغزل ، الذى جرى على ألسنة الجاهليين ، وصوروا فيه تجاربهم الحسية فى الحب ، أو فى علاقتهم العاطفية بالمرأة ؟؟
لعله مما يزيد من صعوبة الإجابة عن هذا التساؤل ، ما يلاحظ من اختلاف مؤرخى الأدب المحدثين ، حول قضية الجمود والتطور ، أو التقليد والتجديد ، فى هذا الغزل الأموى بالحجاز .

(٢) ذهب إلى هذا رأى الدكتور محمد هدار فى كتابه : اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى ٥٠٠

(١) فى الشعر الإسلامى والأموى ١٨٥

فقد ذهب بعضهم إلى تجريده من كل مظهر من مظاهر التطور والتجديد ، مدعياً أنه صورة من الغزل الحسى الجاهلى بكل اهتماماته ، ونواذعه ، وأهداف تجاربه ^(١) . ومال آخرون إلى أنه غزل عربى خالص لم يوجد إلا فى عصر بنى أمية ، ولم يكن له وجود مستقل بارز قبل هذا العصر ، وأن ماكان من غزل الجاهليين ، إنما هو وسيلة إلى ماكانوا يذهبون فيه من مذاهبهم الشعرية المختلفة ، من مدح ، وهجاء ، وفخر ، وحماسة ، ووصف ... وغيرها ^(٢) .

على أن منهم من اعتدل قليلا ، فذهب إلى أن هذا الغزل يجرى على عرف الجاهليين الحسينيين فى غزلهم ، غاية الأمر أن غزل حضر الحجاز فصل مالم يفصلوا ، وضخم مالم يضحّموا ^(٣) ، أى أن مظهر التطور الوحيد الذى يعكسه هذا الغزل ، هو تفصيل التجارب الغزلة وتضخيمها ، ليس إلا .

ونحن نؤثر أن نحتكم إلى شعر مشاهير الشعراء الغزلين فى حضر الحجاز ، فنتقدم إلى دراسة طائفة من نماذج تجاربه ، ونحللها ، ونستنتقها ، وبعد هذا الدرس ، لاقبله ، نستطيع أن نقف إلى جانب رأى من هذه الآراء ، أو نخالفها جميعا ، أو نتفق معها فى وجوه ، ونفارقها فى أخرى .

ويحسن ، قبل معالجة هذه النماذج ، أن نعهد لها بمحدث موجز عن بيئة هذا الغزل يذكرنا بما سبق أن أوردناه ، عن الحياة فى حضر الحجاز فى العصر الأموى ^(٤) ، ويضيف إليه مايلقى الضوء على بعض جوانب هذه الدراسة .

— ٣ —

كان حضر الحجاز فى العصر الأموى يتطور ويتحضر ، تحت تأثير بعض العوامل ، التى أخذت تشكل حياته اجتماعيا وحضاريا .

(١) انظر مثلا : الشعر العربى بين الجمود والتطور ٥٦ ومابعدا .

(٢) انظر : مقالا للدكتور طه حسين بجريدة السياسة بتاريخ ١٠ ديسمبر ١٩٢٤ العدد (١٧) والتطور والتجديد

٢٤٦ — ٢٦٤ وتاريخ الشعر العربى (د . البهتّى) ١٤٣ — ١٦٠ واتجاهات الشعر العربى (د.هدارة) ٥٠٠ — ٥٠ .

(٣) انظر : الغزل فى العصر الجاهلى (د . الحوفى) ٢٥٣

(٤) راجع ص ٥٧ — ٦٢ من هذه الدراسة .

ويأتى فى مقدمة هذه العوامل ، كثرة العناصر البشرية الأجنبية ، التى تدفقت على حضر الحجاز ، خلال الفتوح الإسلامية ، ومن بعدها فى عصر بنى أمية ، بحيث امتلأت منازل أهله — وبخاصة منازل الأشراف والسادة وذوى الثراء منهم — بالجوارى الروميات والفارسيات ، وكثرة استيلاء هؤلاء الإماء ، مما نتج عنه اختلاط الدماء فى البيت العربى غالبا ، بحيث لم يعد هذا البيت عربيا خالصا ، كما كان ، بل غدا بيتا مختلطا ، ورب البيت هو العربى الخالص ، وربما كان هو الآخر من أبناء المولدات .

ولانشك فى أن هؤلاء الإماء المولدات غرسن فى أولادهن ، عادات وأساليب سلوك ، ومظاهر حياة ، أكثر حضارة ، جئن بها من حضارة أجناسهن ، الفارسية ، أو الرومية ، أو السورية ، أو المصرية ، وهى حضارات متفوقة على الحضارة العربية ^(١) .

وكان من بين هؤلاء الإماء عدد غير قليل من ذوات الجمال الفاتن ، الذى يشد إليه العيون التى تتذوق الجمال ، من شباب حضر الحجاز الفارغين المترفين ، والأمة — كما هو معروف — لاتتحرى الصون والعفة والاحتشام — غالبا — وإنما هى ، كما يقول الجاحظ ^(٢) : « لاتكاد تحالض فى عشقها ، ولا تناصح فى ودّها ؛ لأنها مكتسبة ومجبولة على نصب الحباله والشرك فإذا شاهدها المشاهد ، رامته باللحظ ، وداعبته بالتبسم ، وغازلته فى أشعار الغناء ، ولهجت باقتراحاته ، ونشطت للشرب عند شربه ، وأظهرت الشوق إلى طول مكثه ، والصبابة لسرعة عودته » .

كما أن الأمة ، بحكم تبذله ، وقيامها على أمر سادتها ، وتختلف مكانتها الاجتماعية ، عرضة لما يفتنها عن نفسها ، ويخدعها فى شرفها ، فتتقلب مع طول التجارب ، مفتونة فاتنة ، مخدوعة خادعة ، فاسدة العفة ، مفسدة للأخلاق ، وفى هذا يقول الجاحظ ^(٣) : « وكيف تسلم القينة من الفتنة ، أو يمكنها أن تكون عفيفة ، وإنما تُكْتَسَبُ الأهواء ، وتُعَلَّمُ الألسنُ والأخلاق بالمنشأ ، وهى تنشأ .. [على ما] يصد عن ذكر الله ، من لهُو الحديث ، وصنوف اللعب والأخانيث ، وبين الخلاء ، والجمان ، ومن لا يُسْمَعُ منه كلمة جِدّ ، ولا يُرْجَعُ منه إلى ثقة ولادين ، ولاصيانة مُروّة » .

(١) للاستزادة . انظر: فجر الإسلام ١ / ١٠٨ ومابعدها

(٢) رسائل الجاحظ ٢ / ١٧١

(٣) المصدر السابق ٢ / ١٧٦

وإلى جانب ما كان يتمتع به هؤلاء الإماماء في حضر الحجاز من فتنة الجمال ، كان من بين هؤلاء الجميلات ، من هنَّ على دراية واسعة بفنِّ الغناء والموسيقى ، مما أهلهنَّ للأخذ بيد هذين الفنانين في هذه البيئة ، وإشاعة لون من المرح واللهو فيها .

حقا كان في مكة والمدينة ، قيان وغناء وموسيقى منذ العصر الجاهلي ^(١) ، ولكن هذا الفن كان ما يزال يحبو في صورة عربية ساذجة ، وحتى حينما عُرِفَ الغناء الفارسي والرومي في البيئة العربية في العصر الجاهلي ، كانت هذه المعرفة سطحية محدودة الأثر ^(٢) ؛ إذ كان القيان الأجنيبيات يغنين بلغتهن غالبا ، ويطرب الناس بالنغم والألحان ، مما لا يتيح لهن التأثير الواضح في الغناء العربي ، ولذا ظل هذا الغناء ساذجا ، يذكر أبو الفرج الأصفهاني ^(٣) : أن الغناء العربي لم يكن معروفا في زمان عمر بن الخطاب ، إلا ما كانت العرب تستعمله من النَّصَب (وهو ضرب من الحداء) والحداء ، وذلك جارٍ مجرى الإنشاد ، إلا أنه يقع بتطريب وترجيع ، ورفع للصوت ، كما أنه يذهب إلى أن أول من نقل الغناء الفارسي إلى غناء العرب ، سعيد بن مسجح ، أو ابن مُحَرَز ، أو سائب خاثر ، أو نُشَيْط ، أو طُويس ^(٤) ، وكلهم من موالى العصر الأموي .

وأبو الفرج لا يجهل وجود قيان فارسيات وروميات في البيئة العربية في العصر الجاهلي ؛ ولذا نرجح أنه إنما أراد أن هؤلاء الذين ذكرهم كان لهم فضل ربط الغناء الأجنيبي بالغناء العربي ، وتعريبه على نطاق أوسع وأشمل ، مما كان عليه الحال في العصر الجاهلي .

ولم تكن العناصر البشرية الأجنبية التي تدفقت على إقليم الحجاز قاصرة على الإماماء الجميلات والمغنيات والموسيقيات ، فألى جانب هؤلاء وفد كثير من الموالى المغنين والموسيقين على هذه البيئة ، وكان لهذا أثره القوي في إشاعة الاهتمام بهذين الفنانين ، اللذين صاروا من أهم وسائل اللهو والمتعة حينئذ ، وأقبلت عليهما الجماعة الثرية المترفة من أبناء حضر الحجاز ؛ لتقطع أوقات فراغها بشيء تجد فيه طوها ومتعتها ، بعد أن نفضت أيديها من شئون السياسة ، التي حال بينهم وبينها بنو أمية ، وأرادوا لهم أن يشغلوا عنها ، بما توفر

(١) انظر في هذا : تيارات ثقافية بين العرب والفرس ٦٤ - ٦٦ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٧٥ ، ١٢٠

(٢) المصدر السابق ١٢٠

(٣) الأغاني ٨ / ١٤٤

(٤) المصدر السابق ٣ / ٨١ ، ١ / ١٤٦ وانظر : تيارات ثقافية ٧٥

لهم من وسائل اللهو ، ومازادوهم به منها ، حتى يأمنوا جانبهم ، فقد كان الأمويون « يخشون من أبناء الرؤساء في الحجاز ، أن ينصرفوا عن حياة الفراغ ، إلى حياة الجد والطموح ، فليس في جدهم وطموحهم أمان للدولة ... وإنما الأمان لها كل الأمان أن يلعبوا ويرتعدوا ، ويجتمعوا على اللغو والفضول ، ويثارت الدعة والرخاء ، فاستأنفت الحواضر الحجازية تاريخنا قديما طويلا في اللهو والمجون ^(١) » .

وما الذي يحول بين الراغبين منهم في التسلل باللهو ، وبين هذه الحياة ؟ فالمال ينساب في حجورهم انسيابا ، وشتون حياتهم وعيشهم مكفية بمن يقوم على خدمتهم من العبيد والجواري .

واستتبع هذا شيوع نوع من الحرية في حياة الرجل الحضري ، والمرأة الحضرية ؛ لتعلقهما بسماع الغناء والموسيقى ، والجلوس إلى المغنين والمغنيات ، وكان هؤلاء يملكون ، فكانوا يغنون دائما ، حسب إرادة ساداتهم وسيداتهم ؛ إذ كانوا رهن إشارتهم .

بذلك تحولت مدن الحجاز « إلى ما يشبه المسرح الكبير ، فالمغنون والمغنيات ، مايزالون يضربون في الصباح والمساء على أوتارهم ، وهذا الشباب المتعطل من حولهم ، فتيات وفتيانا ، يجتمع بهم ، ويستمتع إليهم ، يستمتع في بعض المنازل حيناً ، ويستمتع في بعض المتنزهات بالضواحي ^(٢) » ، فقد علمهم هذا الرقيق الفارسي — فيما علمهم — صورة مجالس الغناء ، والاجتماع لسماعه ^(٣) .

وبذا تخلصت مدن الحجاز من الطابع البدوي ، إلى حد كبير ، وغدت تتمتع بطابع حضارى بارز ، من أوضح مظاهره ، الانعماس في مباحج الحياة ومتارفها .

فالأول مرة نجد من بين أثرياء مكة ، من يبتنى قاعة فسيحة ، ويخصها للهو وللقرأة معا ، يجد فيها الرواد الشطرنج وغيره ، من ألعاب الرُّقع ، كما يجدون الكتب للقرأة سواء بسواء ^(٤) .

(١) جميل بنية (العقاد) ص ١١

(٢) التطور والتجديد ٢٤١

(٣) فجر الإسلام ١ / ١٤٤

(٤) تاريخ الشعوب الإسلامية (بروكلمان) ١ / ١٤٠

وينبغي أن ننبه هنا إلى أن هذا المجتمع الذى تحضر ، لم يكن ماجنا منحلا ، إلى الحد الذى يصوره بعض الرواة ، حينما قرعوا مثل قول العرجى ^(١) ، عن بعض ما كان يقابلهن فى موسم الحج ^(٢) :

أماطت رداء الخُرَّ عن خُرِّ وجهها وأدنت على الخدين بُردا مهلهلا
من اللاءِ لم يَخْجُجْنَ يَغِين حِسْبَةُ ولكنَّ لَيَقْتُلْنَ البرىء المَغْفَلَا
ففرق بين أن يكون المجتمع حرا ، وأن يكون منحلا ماجنا .

نعم ، نالت المرأة الحجازية الحضرية قسطا غير هين من الحرية فى العصر الأموى ، لم تحظ بمثله جدتها أو أمها ، وكان لمنافسة الجوارى لها فى رجلها من الأثر ماجعها تتخلص من بعض حجابها القديم ، إن كان قد وجد أصلا ، فعند الجاحظ أن نساء العرب لم يكن يحتجبن عن الرجال ، ولا كنَّ يرضين مع سقوط الحجاب الفلته ، ولا لحظة الخُلْسَة ^(٣) .

كما أنها لم تجد بأسا من مجالسة الرجل ومحادثته ، والتسامح فى الحديث معه ، فتطريه ، أو يطريها ، أو ترغب فى غزله ؛ إذ كان يسرها أن يشيب بها شاعر — سيما إذا كان مشهورا — « وإن كانت لاترجو التزوج به ، ولكن يسرها ما فى التشيب من الإعجاب ... بجمالها ، سواء فى ذلك الأميرة والحقيرة ^(٤) » .

روى أن أم محمد بنت مروان بن الحكم قدمت على عمر بن أبى ربيعة فى الموسم ، وطلبت إليه أن يشهرها بشعره ، وبعثت إليه بألف دينار ، فأبى أن يأخذ على التشيب أجرا ، واشترى بالجائزة حللا وطييا ، وأهداه إليها ^(٥) .
فهل كان من المعقول أن يخرج عمر بن أبى ربيعة فى هذا التشيب عن العفة

(١) أبو عمر عبد الله بن عمر بن عبد الله بن عمر بن عثمان بن عفان ، لقب بالعرجى ؛ لأنه كان يسكن عرج الطائف ، أو لأنه ولد به ، أو كان له مال فيه ، فكان يكثر الاختلاف إليه ، فشهروه ، وهو شاعر قرشى مليح الشعر ، وقف شعره على الغزل ، ونحاه فيه منحى عمر بن أبى ربيعة فأجاد ، حبسه محمد به هشام بن اسماعيل المخزومي ؛ لأنه شيب بأمة نكاهة فيه ، وضربه حتى مات فى السجن . وأخباره طويلة . انظرها فى : الأغاني ١ / ١٤٧ وسمط اللاتى ١ / ٤٢٢ ومعجم البلدان (عرج) ومعاهد التنصيص ٢ / ٥٥ والشعر والشعراء ٢٢٤

(٢) ديوانه ٧٤ والتذكرة السعدية ٥٣٦

(٣) رسائل الجاحظ ٢ / ١٤٨ ، وانظره أيضا ٢ / ٤٩

(٤) تاريخ آداب اللغة (زبدان) ١ / ٢٢٧

(٥) الأغاني ١ / ٦٨

والاعتدال مع هذه الشريفة ، وغيرها من شريفات قریش اللائى لم يدع منهن واحدة إلا شبب بها ؟ كما يقول الدكتور طه حسين ^(١) .

ويذكر أبو الفرج أن سكينه بنت الحسين ، ومعها نساء من شريفات المدينة أرسلن إلى عمر بن ربيعة ، وقد تشوقن إلى لقائه ، بعد أن تذاكرن حلاوة شعره ، وحسن ظرفه ، أن يوافيهن في مكان وموعد محددين ، ففضى بينهن وقتا طويلا من الليل ، ينشدن ، ويحادثهن ، ثم عاد إلى مكة ، وقال ^(٢) :

قالت سكينه والدموع ذوارفٌ منها على الخدين والجلباب
ليت المغيرى الذى لم يجزه فيما أطال تصيُدى وطلابى
كانت تردّ لنا المنى أيامه إذ لانلام على هوى وتصابى

وهذا الذى حكاه عمر في هذا الشعر ، ضرب من التخيل الفنى ، الذى كان يرضى زهو عمر بنفسه ، كما سنبين فيما بعد ، وهو مع ذلك لم يغضب سكينه حين رُوي لها هذا الشعر ؛ لأنها وغيرها من الشريفات اللائى شبب بهن عمر ، وغير عمر من شعراء حضر الحجاز الغزلين ، كن يفهمن مثل هذا الشعر على أنه زاد فنى ، يجدن فيه متعة بريئة ، كما يجد فيه أهل بيتهن الحجازية الحضرية ، من أصحاب المقامات والمنزلة مثل هذه المتعة .

ونحن نعرف أن سكينه وأمثالها من شريفات النساء ، وذوات العراقة في الحسب والنسب ، والبصر بالشعر وثقافته ، كن يفسحن في مجالسهن للشعراء وأهل الغناء ، ويستمتعن بسماع الشعر والغناء ، ويشاركن في نقده والتعليق عليه ، مما يدل على ماكن يتمتعن به من ذوق حضرى ، ومزاج فنى رفيع .

الأمر إذن ليس تحللا ولا خلاعة ، ولا استهتارا بقيم الصون والعفاف ، فهؤلاء الشريفات وغيرهن لا يُسمح لهن ، ولا يسمح لأنفسهن بشيء من هذا ، وإنما رغبت تلك الطائفة من النساء ، ذوات المكانة والذوق والثقافة في أن يحققن لأنفسهن شيئا من

(١) حديث الأربعاء / ١ / ٣١٤

(٢) الأغاني / ١ / ١٢٠ والشعر والشعراء ٢١٦

الشهرة الاجتماعية ، في نطاق مايسمح به مجتمعهم ، ولم يكن هناك ما هو أفعلى في تحقيق هذه الغاية من أن يربطن أسبابهن بأسباب شعراء البيئة الغزلين المشهورين ، الذين يلهج الناس بأشعارهم ، ويتغنى بها المغنون .

دلالة هذا كله أن المرأة الحجازية فيما كانت تتمتع به من حرية في لقاء الرجل ، لم تنزل في مهاوى المحون والانحلال الخلقي ، كما تصور بعض الرواة ^(١) ، ومن جاراتهم ، وخدع برواياتهم من الباحثين .

ونحن نلتصق صورة المرأة التي تحدث عنها هؤلاء الرواة عند الشعراء الغزلين في حضر الحجاز ، فلا نجد مصداقاً لما ذهبوا إليه ، وإنما نجد امرأة أترف ذوقها ، فطلعت إلى المشاركة في تذوق الحياة الفنية المتاحة في عصرها ، امرأة تنفق حياتها في الدعة والنعمة ، وتقيم صلتها بالرجل على نوع من الحرية ، يحوطه سياج من العفة والطهر ، الذي يليق بنبالتها ، وعريق أصلها ، ومكين شرفها ، ولا يخلو مع ذلك من اللهو البريء ، والدعابة الطريفة ، والظرف المحب ^(٢) .

وإنما أوقع هؤلاء الرواة في هذا الوهم ، أنهم تصوروا شعر الشعراء الغزلين بالحجاز يحكى كله واقعا ، عبر عنه الشعراء ، وفهموا أن كل ما قالوه إنما هو انعكاس حقيقي لسلوك في حياتهم ، ولم يفتنوا إلى أن الشعراء كانوا يستوحون الخيال ، ويعبرون عن تجارب متخيلة ، أكثر مما يعبرون عن تجارب واقعة .

يشهد لهذا قول نصيب بن رباح الشاعر : « جميل أصدقنا شعرا ، وكثيراً أبكنا على الظعن ، وابن ربيعة أكذبنا ... »

فهذا الشاعر يعرف أن تجارب عمر بن ربيعة التي عبر عنها ، لم تكن كلها مستمدة من واقع حياته وسلوكه .

ولأدل على هذا من خبر عمر مع عائشة بنت طلحة بن الزبير ، فقد أقبل عليها وهي

(١) انظر مثلاً : الأغاني ١ / ٣٥ وما بعدها

(٢) ذهب إلى هذا الدكتور طه حسين في مقاله بمجريدة السياسة عدد ١٠ ديسمبر ١٩٢٤ م

جالسة بفناء الكعبة ، فقال لها ^(١) : ألا أنشدك ماقلت في موسمنا هذا (موسم الحج) ،
قالت : بلى ، فأنشدها :

ياربة البغلة الشهباء هل لك في أن تنشري عمراً لا ترهقي حرجا
قالت بدائلك مت أو عيش تعالجه فما نرى لك فيما عندنا فرجا
قد كنت حملتنا ثِقْلاً نعالجه فإن تُقَدِّنا فقد عَنَيْتِنا حِجْجا
فقالت عائشة : لا ورب هذه البنية يابأ الخطاب ماعينتنا قط طرفة عين .

في مثل هذا المجتمع المتحضر المترف ، تشيع أحاديث الصبابة والغزل ، حتى
ليخيل لمن يقرأ في غزل هذه الفترة ، أن حضر الحجاز غدا أشبه بدوحة وارفة الظلال ،
باسقة الأغصان ، وعلى كل غصن ، وتحت كل ورقة منها ، وقف عصفوران يتناجيان ، أو
بلبل يغرد ، أو كروان يشدو ، وفي جوانب من هذه الدوحة وقف عمر بن أبى ربيعة ،
والعرجي ، وابن قيس الرقيات ، والحارث بن خالد المخزومي ^(٢) ، وأبو ذهَبَل
الجُمَحِي ^(٣) ، والأحوص بن محمد ، وعبد الرحمن بن حسان ، ينشدون أناشيد الهوى ،
ووقف وراءهم المغنون والمغنيات ، والملحنون معازفهم على صدورهم ، يحيلون تلك
الأشعار إلى أغان عذبة ، وألحان شجية ، وجمهور أهل الحضر من حولهم سعيد مفتون
بنتاج هؤلاء وأولئك ، مشغول بمغامراتهم ، متتبع أخبارهم .

وليس من المبالغة في شيء أن نقول : إن جمهور أهل الحضر في الحجاز ،

(١) أمالى القالى ٢ / ٣١٨ والشعر دون الخبر في رسائل الجاحظ ٢ / ٣٦١ وانظر أمثلة أخرى في أمالى

الزجاجي ١٠٦ ، ١٢٢ — ١٢٣

(٢) في سبط اللآلى ٢ / ٦٤٥ والموضح ٢٠٩ الحارث بن خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة المخزومي ، وهو
أحد شعراء قريش المحدودين ، وكان ذا قدر فيهم ، قيل : كانت العرب تفضل قريشا في كل شيء إلا في الشعر ، حتى
كان فيهم عمر والحارث والعرجي وأبو ذهبل وابن قيس الرقيات ، فأقر العرب لها بالشعر أيضا ، وقد سار الحارث على
مذهب عمر المخزومي أيضا في الغزل ولم يتجاوز به إلى مدح أو هجاء ، وتولى الحارث إمارة مكة لعبد الملك بن مروان .
وانظر : الأغاني ٣ / ٩٧ ، ٨ / ١٣٢ وخزانة الأدب ١ / ٢١٧ وشرح الحماسة للمرزوقي ٣ / ١٢٨٢ .

(٣) وهب بن زعبة بن أسيد بن أحيحة من أشرف بني جهم من قريش ، نبغ في الشعر في أواخر عهد
الراشدين ، وله مدائح في ابن الزبير ، الذي ولاه بعض أعمال اليمن ، ولكنه كان مشتغلا بالغزل عن الالتفات إلى عمله ،
وقد شبب بعاتكة بنت معاوية بن أبى سفيان في خبر مروى . انظر : الأغاني ٦ / ١٤٩ والشعر والشعراء ٣٥
والاشتقاق ١٢٩ ومصارع العشاق ٨٧ .

كانوا يشاركون هؤلاء الشعراء عواطفهم وأحاسيسهم ، ويتعشقون الجمال ، كما تعشقوه ،
ويطربون لأحاديثه ، كما طربوا ، ومن حرم منهم موهبة الشعر قنع بالتصفيق للشعراء ، وترديد
أناشيدهم ، حتى الزهاد والعلماء والعباد من أهل الحضر ، اقتحم هذا التيار الغزل ، على
كثير منهم مساجدهم ، وحلقات دروسهم ، وخلواتهم .

فهذا عُروة بن أذينة ^(١) ، الفقيه المدني ، والناسك المحدث ، أسره سلطان الحب ،
فانطلق لسانه بأناشيد الهوى والغرام ^(٢) ، وهو القائل ^(٣) :

إذا وجدتُ أوارَ الحبِّ في كبدي أقبلتُ نحو سِقَاءِ القومِ أبتردُ

وناسك فقيه آخر ، هو عبيد الله بن عبد الله التابعي ، أحد الفقهاء السبعة ،
الذين انتهى إليهم العلم بالمدينة المنورة ، جرى الشعر على لسانه ليعبر عن رقة قلبه للغزل ،
وهو القائل : ^(٤)

كتمتُ الهوى حتى أضربك الكتمُ ولأمك أقوام ولومهم ظلمُ

وعبد الرحمن بن عمار الجشمي الملقب بالقسّ — على تقواه وورعه — أحب

(١) أبو عامر مالك بن الحارث ، فقيه ناسك محدث ثقة ، روى عن مالك وعبد الله بن عمر وغيرهما ، وكان
أيضا شاعرا غزلا من مقدمي شعراء الغزل بالمدينة ، ومع تغزله كان يوصف بالعفة ، توفي سنة ١٣٠ هـ .
انظر : الشعر والشعراء ٢٢٥ والأغاني ٢١ / ١٥٠ والمؤتلف ٥٤ وحامسة الظرفاء ١ / ٢٠٨ وفوات الوفيات ٢ / ٣٥ وله شعر
كثير انظر منه في أمالي القالي ٢ / ١١٢ ، ١٧٤ والذيل ١٣٦ وأمالي المرتضى ١ / ٤١٣ ، ٤١٤ .

(٢) الأغاني ٢١ / ١٠٧

(٣) سبط اللآلئ ١ / ١٣٦

(٤) هو عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، وعتبة هو أخو عبد الله بن مسعود الصحابي المعروف ،
هذه الأبيات والألم (سبط اللآلئ ٢ / ٧٨١) قال البكري : وهو أشعر الفقهاء ، وكان سعيد بن المسيب إذا لقيه قال له :
أنت الفقيه الشاعر ؟ فيقول : لا بد للمصدر أن ينفث ، وهو أستاذ محمد بن شهاب الزهري ، وعمر بن عبد العزيز
الأموي (سبط اللآلئ ٢ / ٦٥٥) توفي سنة ٩٨ هـ ، قيل : إن ابن شهاب الزهري سمع شعرا له فقال : مثلك يرحمك
الله مع نسكك وفضلك وفهمك بقول الشعر !! فقال : إن المصدر إذا نفث برىء (أمالي المرتضى ١ / ٣٩٩) وانظر :
الإمتاع والمؤانسة ١ / ٢٦ ، والفقهاء السبعة هم : أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وقاسم بن محمد بن أبي
بكر الصديق ، وعروة بن الزبير بن العوام ، وسعيد بن المسيب ، وسليمان بن يسار ، وخارجة بن زيد بن ثابت ، وعبيد
الله هذا ، قال ابن رشيقي « وهم فقهاء المدينة ، وأصحاب الرأي ، الذين هم عليهم المدار » (العمدة ١ / ١٨) . وانظر
في أخباره أيضا : التذكرة السعدية ومراجعتها في الهامش ٤٦٨ ، وله أشعار مروية انظرها في : أمالي القالي ٢ / ٢٦١
والنواذر للقالي ٢٢٣ ومصارع العشاق ٢١١ والعقد الفريد ٣ / ٣٩١

سَلَامَةُ الْمَغْنِيَةِ ، وَبَكَى بَيْنَ يَدَيْهَا ، وَمِنْ شَعْرِهِ فِيهَا قَوْلُهُ ، يَرِدُ عَلَى مَنْ لَامَهُ فِي هَوَاهَا : ^(١) :

وَإِنِّي إِذَا مَا الْمَوْتُ حَلَّ بِنَفْسِهَا يُزَالُ بِنَفْسِي قَبْلَ ذَاكَ فَأَقْبَرُ
أَرَى هَجَرَهَا وَالْقَتْلَ مِثْلَيْنِ فَاقْصِرُوا مَلَامَكُمْ فَالْقَتْلَ أَغْفَى وَأَنْسِرُ

قال ابن سيرين : وهؤلاء العلماء كانوا يعشقون بلا ريبة ^(٢) .

وفيما يروى أن عبد الله بن عباس ، الفقيه ، المفسر ، المحدث ، الورع ، استقبل عمر بن أبي ربيعة ^(٣) في المسجد ، وعنده جماعة من أهل العراق ، يسألونه في أمور الدين ، فيهم نافع بن الأزرق ، واستنشد به بعض شعره في الغزل ، الذي يروى مغامرات الحب ^(٤) ، فأنشده رائيته التي مطلعها :

أَمِنْ آلِ نَعِيمٍ أَنْتَ غَادٍ فَمُبْكِرُ غَدَاةِ غَدٍ أَمْ رَائِحٍ فَمُهْجَرُ

حتى أتمها ثمانين بيتا ، فقال له ابن الأزرق : لله أنت يا ابن عباس ، أنضرب إليك أكباد الإبل ، نسألك عن الدين فتعرض ، ويأتيك غلام من قريش ، فينشدك سفهاً فتسمعه !! فقال ابن عباس : تالله ما سمعت سفهاً ، فقال ابن الأزرق : أما أنشدك :

رَأَيْتُ رَجُلًا أَمَّا إِذَا الشَّمْسُ عَارَضَتْ فَيَخْزِي وَأَمَّا بِالْعَشَى فَيُخْسِرُ ؟

فقال ابن عباس : ما هكذا قال ، إنما قال : « فيضحى وأما بالعشى فيخسر »

(١) الموشح ٢٢٥

(٢) تزيين الأسواق ص ٧

(٣) أبو الخطاب عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة وكان أبوه عبد الله يدعى بجيرا فسماه الرسول (ص) عبد الله واستعمله عمر بن الخطاب على الجند باليمن واستمر واليا إلى أن جاء لنصرة عثمان فمات قرب مكة ، وعمر أمير الغزل في العصر الأموي ، ولد في الليلة التي مات فيها عمر بن الخطاب سنة ٢٣ هـ ، ونفاه عمر بن عبد العزيز إلى ذَهْلَك ، من قرى اليمن على ساحل البحر ، لما شاع غزله ، وتعرضه للنساء ، ومنهن سكينه بنت الحسين ، وفاطمة بنت عبد الملك بن مروان وعائشة بنت طلحة وغيرهن ، ثم غزا في البحر ، فأحرقت السفينة التي كان بها فاحترق سنة ٩٣ هـ . وأخباره مستفيضة . انظر : الأغاني ١ / ٢٨ ، ٢ / ١٦ والشعر والشعراء ٢١٦ والحامسة لأبي تمام (طبعة الرياض) ٢ / ٢٤ وآداب الشافعي ومنابعه ٢٦٣

(٤) الأغاني ١ / ٣٢ — ٣٣ وانظر : ذيل أمالي القالي ١٤٣ وتزيين الأسواق ٣٥

قال : أو تحفظ ما قال ؟ قال : والله ماسمعتها إلا ساعتى هذه ، ولو شئت أن أردّها لرددتها ، قال : فارددها ، فأنشده إياها ^(١) .

ولعلنا بعد ذلك الذى ذكرناه عن طبيعة هذا الغزل الحضري الحجازى ، وتجارب شعرائه لانغضب لابن عباس ، كما غضب منه ابن الأزرقي ، فما رأى هذا الشريف الورع العالم فى شعر عمر بن أبى ربيعة إلا مآرأته الشريفة النسبية سكيمة بنت الحسين ، وفاطمة بنت عبد الملك ، وعائشة بنت طلحة ، وجماعة العلماء والزهاد ، الذى تحدثنا عن بعضهم ، وكلهم — ومعهم ابن عباس — ينظرون إلى هذا الشعر على أنه زادنى ، وخیال شعري ، ولهو برىء ، فهذا الخبر لا يسمي لابن عباس ، ولا يمس مكانته الدينية ، ولا نزاهة نفسه ، عند من لا يعميهم التعصب ، ولا تقعد بهم مشاعرهم الغليظة عن تذوق الفن البرىء .

وهناك وفرة من الروايات ، التى تدل على تذوق أهل حضرا الحجاز لهذا النوع من الغزل ، وقصة الحب التى يعبر عنها ، والأغاني التى تتخذها مادة لها ^(٢) ، نقرأ فيها كيف كان شباب الحجاز ، وكثير من أهل المكانة والكرامة والعلم والحسب فيه ، يطرحون الوقار عند سماع أشعار الغزليين ، وغناء المغنين فيها ، أو تستروح عيونهم لمجالى الجمال ، أو يُسفرون بين الشاعر وصاحبته ، أو تتسع صدورهم لسماع الشعر والغناء .

وكأنما كان العلماء وأهل الورع من الحجازيين يرون فى إدراك الجمال على هذا النحو ، معنى من إدراك جمال الله — عز وجل — والتفات إلى تأمل إتقان صنعه ، فى بدائع صنعته ، وأن هذا لا يتعارض مع الدين أى تعارض ، كما يرون فى الاستماع إلى شعر الغزل والجمال استرواحا للنفس « فكللام العشاق ومنادمتهم تزيد فى العقول ، وتحرك النفوس ، وتطرب الأرواح ، وتجلب الأفرح » ، كما يقول ابن أبى حجلة المغربي ^(٣) .

(١) الكامل للمبرد ٣ / ١٣٥ والأغاني ١ / ٣٢ . عارضت : قابلت ، يعنى ارتفعت فى السماء . يضحى : يظهر للشمس . يحد : يحد . والسفه الذى يعنيه نافع ابن الأزرقي هو الترف ، حيث يصف رجلا مترفا لنا ، ليس بشديد ولا جلد ، والجلد يصف نفسه بالضحاء والبروز للشمس ، وقلة الاستغلال (سمط الآلى ٢ / ٦٧٣) .
(٢) انظر مثلا : الأغاني ١ / ٨٥ ، ٤ / ٥٥ ، ١٥٢ ، ٦ / ٨٨ وانظر كذلك : تاريخ الشعر العربى (البهيتى)

١٢١ — ١٢٣ ، ١٢٧ — ١٢٨

(٣) ديوان الصبابة (على هامش تزيين الأسواق) ٢٣

فى ظل هذا الحصب النفسى فى تذوق الحياة ، والمرح ، والفن ، وما يصاحب ذلك من خفة الروح والظرف المعروف عن أهل الحجاز ^(١) ، نما الغزل الحجازى فى الحضر وازدهر نتاجا لكل العوامل التى ذكرنا .

وإذ فرغنا من هذا التمهيد ، الذى لم يكن منه بدّ ، لتصور الجو العام ، الذى كان يتحرك فيه الشعراء الغزلون ، وينشدون أشعارهم ، فقد آن لنا أن نأخذ فى دراسة طائفة من ألوان هذا الشعر وصوره ؛ لنخلص إلى تحديد موقفنا من القضية الكبرى ، التى تشغل المؤرخ لهذا الفن ، والتى أشرنا إليها فى صدر هذا الفصل .

— ٤ —

أولا : صورة المرأة فى الغزل الحجازى :

أبرز ملامح هذه الصورة :

١ —

الترف والتنعيم والتحضر ، من صفات المرأة الموصوفة فى غزل الحجاز الحضرى ، وشعراؤه يلحون على هذا الجانب من صورتها ، ويبرزونه فى مظاهر مختلفة . منها : نعمة البشرة ، من أثر الترف والنعمة ، يقول عمر بن أبى ربيعة فى صاحبتة ^(٢) :

لو دبّ ذرٌّ رُوَيْدًا فوق قَرَقَرِها لأثر الذر فوق الثوب فى البشر

فهذه المرأة قد بلغت من رقة البشرة وحساسيتها ، من أثر النعيم والترف ، أن لو مشى صغار التمل ، مشيا ويبدأ فوق ثوبها ، دون أن يلامس بشرتها لترك أثرا واضحا على ظاهر جلدها !!

(١) حكى المزياني قال : سئل أبو نوفل : هل سلم أحد من العشق ؟ فقال : نعم ، الجلف الجافى الذى ليس له فضل ، ولا عنده فهم ، فأما من فى طبعه أدنى ظرف ، أو معه دماثة أهل الحجاز ، فلا يسلم منه . (ديوان الصباية ٢٣) وانظر فيما عرف به أهل الحجاز من ظرف ودماثة وتسامح فى اللهو والغناء : فجر الإسلام ١ / ٢٠٩ .
(٢) ديوانه ١١٧ الذر : صغار التمل . القرقر : ثياب المرأة . البشر : الجلد .

ويبالغ عمر في هذا المعنى ، فترك الذر ليلامس البشرة في مشيه الوثيد ، فإذا بجلد هذه المرأة المترفة المنعمة قد ظهرت عليه آثار هذا السير ، جروحاً ملتتهبة ^(١) :
لو دبّ ذرٌ فوق ضاحي جلدِها لأبان من آثارهن حُذور
أرأينا ، كيف بلغ من حساسية بشرة صاحبتها ، أن لو اتصل الثمل الصغير بظاهر جسمها ، لترك فيه من آثار سيره كلوما وأوراما !!

ومنها : لين الحياة وترفها وتحضرها ، وبهذا يصور الأحوص ^(٢) صاحبتها ^(٣) :
ولها مَرَبَعٌ بِبُرْقَةٍ خَاجٍ ومصيفٌ بالقصر قصر قُبَاء
فهذه ليست صورة امرأة بدوية ، تعيش عيشاً خشناً ، بل صورة امرأة متحضرة مترفة ، تقضى الربيع بين الخضرة والأزاهير ، وتصطاف في قصر لها ، بضواحي مدينتها ، فما أشبهها بغانية أيامنا هذه !!

ومنها : ألوان الزينة والطيب ، وفي غزلهم شعر كثير يصف ملابس المرأة التي تحضرت ، وما كانت تفرق نفسها فيه من صنوف الحلى ، وأنواع الطيب .
نأخذ — مثلاً — قول الأحوص ^(٤) :

يَزِينُ لَبَّتْهَا دُرٌّ تَكْنَفُهُ نُظَامُهُ فَأَجَادُوا السَّرْدَ إِذْ سَرَدُوا
دُرٌّ وَشَدَّرَ وَيَاقُوتَ يَفْصُلُهُ كَأَنَّهُ إِذْ بَدَا جَمْرُ الْغُضَا يَقْدُ

إنها تزين بعقد ثمين ، متقن الصنعة ، نظمته يدُ صناع ماهرة ، وجمعت فيه ألواناً من المعدن والأحجار الكريمة ، ففيه الدر ، وقطع الذهب الصغيرة ، والياقوت ، نظمت

(١) ديوانه ١٢٥ الحدود : الأورام

(٢) أبو عاصم عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عاصم (حَيَّي الدُّبُرَ) الأوسى ، شاعر إسلامي أموي من شعراء المدينة ، مقدم في النسيب والفخر والمدح ، نفاه عمر بن عبد العزيز إلى دهلك ، كابن أبي ربيعة ، ولأسباب نفسها تقريباً ، ورده يزيد بن عبد الملك ، وقدم دمشق فمات بها ١٠٥ هـ ولقب بالأحوص لضيق في مُؤَخَّر عينيه . انظر : الأغانى ٤ / ٤٠ ، ٧ / ٣٩ ومعاهد التنصيص ١ / ٢٢٩ والموشح ١٨٨ والشعر والشعراء ٢٠٤ وابن سلام ٦٥٥ (المدنى) وسمط اللآلى ١ / ٧٣ ، ٢ / ٧٨٦ وخزانة الأدب ١ / ٢٣٢ والعمدة ١ / ٤٢ والتذكرة السعدية ٩٤ ومراجعها في الهامش .

(٣) ديوانه ٧٢ برقة خاخ : موضع بين مكة والمدينة به روضة . قباء : محلة قرب المدينة .

(٤) ديوانه ٩٣ اللبة : موضع القلادة من الصدر . تكنفه : عكف عليه . الشذر : قطع صغيرة من الذهب .

الغضا: شجر خشبه من أجود الوقود .

وبمثل هذا يصور العرجى صاحبه (١) :

وعلى الباب ذى الشفيقة سَعْدَى لا أرى مثلها من الخُدام
كلما صَفَقَتْ وثَبَّنَ إليها كقيام الشرطى عند الإمام

فهى محوطة بالخدامات ، وهن رهن إشارتها ، كلما طلبتهن ، أسرعن إليها ملبيات .

والآن ، ما الجديد فى هذه الصورة ؟

يلاحظ القارئ فى الشعر الجاهلى ، أن بعض مظاهر هذه الصورة ، هى من الصفات التى خلعتها غير واحد من الشعراء الجاهليين ، على المرأة المتغزل فيها .

فنعومة جسم المرأة ، وملاسه بشرتها ، وتزينها بمختلف صنوف الحلى ، وتضمخها بألوان من العطر ، كلها من المعانى ، التى طرقها الشعراء قبل العصر الأموى .

فنحوا من هذا وصف امرؤ القيس بعض من تغزل بهن ، فهو يقول مثلاً — فى صاحبه نُعم (٢) :

منعمَةٌ فَضَلْتُ صَوْرَةَ من الحىِّ فى مَنْصِبٍ قد كَمَل

ويقول فى أخرى ، واصفا إياها بالتنعم (٣) :

من القاصرات الطرف لودب مُحَوِّلٌ من الذَّرِّ فوق الإثب منها لَأَثَرَا

ويقول حسَّان بن ثابت فى صاحبه (٤) :

لو يدبُّ الحولى من ولد الذَّرِّ عليها لأندبتهَا الكلوم
همُّها العطر والفراشُ ويعلوها لُجَيْنٌ ولؤلؤ منظوم

فصورة الذر الذى يؤثر فى البشرة ، ويترك بها جراحا عند امرئ القيس وحسان

(١) ديوانه ١٢٢ الشفيقة : الخادمة .

(٢) ديوانه ٢٩٧ . المنصب : النسب الشريف .

(٣) ديوانه ١٠٥ والموشح ٦٣

(٤) ديوانه ٩٩ الحولى هنا : صغار النمل ، قال الجاحظ فى الحيوان (٤ / ٥) : هو كما قال الشاعر :

تلقت حولى الحصى فى منازل من الحىِّ أمست بالحبيبين بلقما

قال : وحولى الحصى : صغارها ، فشبهه بالحولى من ذوات الأربع .

هى الصورة نفسها التى رأيناها عند عمر بن أبى ربيعة ، وألوان الزينة والعطر متقاربة هنا وهناك .

ويقول طرفه بن العبد ، عن صاحبه المترفة ، المتلقة صحة ونضارة ^(١) :
لاتلمنى لأنها من نسوة رُقْد الصيف مقاليت نُزُر
وهذه المعانى من جملة ما عبر عنه عمر بن أبى ربيعة ومعاصروه ، فى تصوير ترف الحبيبة وتنعمها .

وإذا كان الجاهليون قد تحدثوا عن ترف الحبيبة ، فقد تحدثوا عنها أيضا واصفين زينتها ، وماتتلى به من كريم الجواهر .

يقول لبيد بن ربيعة العامرى ^(٢) :
وعالين مضعوفاً وفرذاً سُمُوطه جمانٌ ومرجانٌ يشدُّ المفاصلا
فالعقود التى تتحلى بها هؤلاء النسوة متنوعة ، منها المضاعف ، ومنها المفرد ، وفى كل منها أحجار كريمة من الجمان والمرجان .

وللمثقب العبدى فى مثل هؤلاء الحسان ^(٣) :
أرىن محاسناً وكئنْ أخرى من الأجناد والبشر المصون
ومن ذهب يلوح على تريب كلون العاج ليس بذى غضون
أما صواحب المرقش الأصغر ، فقد أثقلن بصنوف من الجواهر ^(٤) :
تحمّلن ياقوتاً وشذراً وصيغَةً وجزعاً ظفاريّاً ودُرّاً توائما
أى لبسن الحلى المكون من ياقوت ، وقطع من اللؤلؤ ، أو من الذهب الصغار ، وما صيغ من الحلى ، والخرز اليماني النفيس ، ودر نظم اثنين اثنين .

وهناك مظهر آخر من مظاهر الترف والنعمة ، تحدث عنه الجاهليون ، فقد صوروا الحسان يتعطرن بألوان شتى من العطور :

(١) ديوانه ٧٣ رقد الصيف : يمين وقت القيلولة ، يعنى أنها لاتعمل فى الخدمة . مقاليت : جمع مقلاة ، وهى التى لاتلد ، فإن ولدت لايعيش ولدها ، وهذا أكمل لجسمها ، وأحفظ لصحتها .

(٢) ديوانه ٢٢ . مضعوفاً : عقدا مزدوج السط .

(٣) المفضليات ٢ / ١٩

(٤) المصدر السابق ٢ / ٤٥

فها هو ذا امرؤ القيس يتحدث عن صاحبتين له ، تضمختا بالمسك ، حتى تركتا أثر هذا الطيب في الفراش ، يقول (١) :

إذا قامتا تَضَوِّع المسك منهما نسيم الصَّبَا جاءت بِرَيَّا القَرْنُفْل
وتَضُحِّي فَيَّت المسك فوق فراشها نثوم الضحى لم تنتطق عن تفضُّل
وهن مع هذا فارغات ، يُخدمن ، ولا يَخُدُّ من .

ويقول حسان بن ثابت ، جامعا لصاحبتيه ، ألوانا من العطر والزينة :
هَمْهَا العطر والفراش ويعلمو هَالَجَيْنَ وَلَوْلُو منظوم
ويقول قيس بن الخطيم (٢) :

كَأَنَّ القَرْنُفْل والزنجبيل وذاكى العبير بجلباها ...

وهكذا عبر الجاهليون عن ترف المرأة المعشوقة ، وزينتها ، وعطرها ، كما عبر شعراء الغزل الأميون ، وغاية ما بينهما من فرق ، إنما هو في التعبير عن هذه الصورة المترفة ؛ حيث مال الأسلوب عند شعراء الحجاز إلى السهولة والركة ، مع إضافات ، تضيفى على هذه الصورة لونا أكثر تحضرا ، وترفا ونعمة .

٢- ومن الملاحظ الهامة في صورة المرأة الحجازية في غزل الحضر ، صلة المرأة المحبوبة ، بالرجل الذى يتعشقها ، وهى صلة رأيناها تقوم على نوع من الجراة المهدبة ، في الإقبال على الرجل ، ومجالسته ، والاستمتاع بحديثه ، في غير تكلف ، أو تصنع للحشمة ، وفي غير تبذل ، واستهتار أيضا .

وفي مجتمع أخذ طريقه إلى التحضر والتطور كحضر الحجاز في العصر الأموى ، ينشأ عادة طبقة من الرجال والنساء على مستوى من التهذب الحضري ، والثقافة الحضرية ، والمكانة الاجتماعية ، والثروة .

ومثل هذه الطبقة يكون من اهتماماتها التطلع إلى أن تحيا حياتها ، كما ينبغي أن يعيش المرء في مجتمع متحضر .

(١) ديوانه ١٣

(٢) ديوانه ٢٣

وقد هيأت الحياة في حضر الحجاز وسائل التمتع بمثل هذه الحياة ، بحيث يستطيع الرجل أن يجتد ، وأن يلهو ، وأن يزواج بين الدين والدنيا ، وأن لا يجد حرجا في هذه المزاوجة ؛ لأن هذا هو النمط الطبيعي للحياة المتحضرة .

أما المرأة فقد كانت تخطو خطواتها الأولى في مضمار السعى إلى حياة التطور والتحضر ، والمألوف حينئذ أن لا تتخلى المرأة مرة واحدة ، أو بسرعة عن رواسب تقاليد المجتمعات الشديدة المحافظة ، كالمجتمعات البدوية ، وأن تحصر مع هذا على تثبيت خطواتها في دنيا الحضارة الجديدة ، وبالنسبة للمرأة الحجازية ، فإنها أقبلت على حياتها الجديدة برصيد طيب من الصون والعفة ، ورعاية القيم الاجتماعية والدينية ، وأخذت مع ذلك بالمتاح من مظاهر التحضر في مجتمعه ، ورأت أنها يمكن أن تحقق وجودها الاجتماعي ، ورضاها العاطفي ، عن طريق الاتصال بالحياة الثقافية والفنية في مجتمعه ، وبعض هذه الحياة تتمثل في النشاط الشعري ، الذي كان رائجا حينئذ ، والذي استطاع أن يجتذب إليه قطاعا عريضا من أهل الحضر ، فلا بأس إذن من أن تخرج المرأة الحضرية الحجازية للقاء الشعراء ، والجلوس إليهم ، وتناشد الأشعار معهم .

وطبيعي وقد سقطت الحواجز بين الشعراء والنساء ، على هذه الصورة المهذبة ، أن يتخذ الشعراء من هؤلاء النسوة المتحضرات ، المثقفات ، ذوات المكانة العالية في المجتمع الحضري موضوعا للغزل ، وأن يسبح خيال الشعراء ، فلا يقف عند حد هذه الصلة المحددة ، فيروح الشاعر منهم يخترع المواقف ، ويتصور التجارب ، لامن فراغ تام ، وتخيل خالص ، بل على أساس مما يرى ويسمع ، ويشعر ، خلال لقائه بهؤلاء النسوة ، وهو أساس لا يتصادم مع قواعد الفضيلة ، والعفة ، والمحافظة ، ولكن على خيال الشاعر ، وفنه أن يتولى هذا الأساس ، فيرفعه وينميّه ، ويضيف إليه اللمسات ، التي تصنع منه التجارب ، التي دار حولها الشعر الغزل في حضر الحجاز .

واستوى في هذه الصلة بين الشعراء والمرأة ، والإقبال عليها ، والرغبة فيها ، جميلات الحجاز الشريقات ، وغيرهن من جميلات وشريفات البيئات الأخرى المتحضرة في العراق والشام ، حتى جميلات البيت الأموي الحاكم ، شاركن نظائرهن من الحجازيات القرشيات ، وغير القرشيات ، في الإقبال على شعراء الحجاز ، والإيعاز إليهم أن

يذكروهن في شعرهم الغزل بأسمائهن أحيانا ، أو بالكناية عنهن أحيانا أخرى .

ولعل مما يصور مدى حرص هؤلاء النسوة على الاتصال بعالم الشعر الغزل في الحجاز ، وربط أسبابهن بأسباب شعرائه ، مايروى من أن الخلفاء الأمويين كانوا يتوعدون الشعراء إن أقدموا على التشبيب بينات البيت الأموى ، وأن شيئا من هذا حدث مع عمر بن أبى ربيعة ، فلما قدمت فاطمة بنت عبد الملك مكة ، أخذ عمر يحوم حولها ، ويشيب بها دون أن يصرح باسمها خوفا من وعيد بنى أمية ^(١) ، ولكن فاطمة احتالت على لقاء عمر في قصة طريفة مروية ، ^(٢) حتى ظفرت بلقائه ، ومحادثته ، وتناشد الأشعار معه ، والاستماع إلى أشعاره في الغزل ، ولعلها سمحت له أن يشيب بها ، ولعلها لإحدى النسوة اللاتى شب بهن تحت أسماء مستعارة .

ويعكس شعر عمر بن أبى ربيعة هذه الصلة التى قامت بين الرجل والمرأة في المجتمع الحجازى الحضري في صور عديدة ، تعبر عن لقاءات بين الشاعر وصاحبته منفردين ، أو مع جماعة ، نرى من خلالها مصداق ما ذكرنا :

من ذلك قوله ، يتحدث عن لقائه بصاحبة له ، دعاها زينب ، على انفراد ، في ليلة مقمرة ^(٣) :

فلست بناس ليلة الدار مجلساً لزينب حتى يعلو الرأس رأس
خلاء بدت قمرأوه وتمخضت دُجَّتْهُ وغاب مَنْ هو حارس
فما نلتُ منها مَحْرَماً غير أننا كلانا من الشوب المورّد لابس
نجين نقضى اللهو في غير مائمه ولو رغمتُ ملكاً شحين المعاطسُ

فعمر ينفرد بصاحبته في هذا الجو الشاعرى ، يتبادلان حديث الهوى في صوت خافت ، وحسبهما هذا الحديث ، وما يتخلله من لمسات برئية لاهية ، لاتغريهما صورة هذا اللقاء ، ولا غياب الحارس ، والبعد عن الرقباء ، بارتكاب الإثم .

(١) انظر : الأغاني ١ / ١٤٢

(٢) راجع المصدر نفسه ١ / ١٣٨

(٣) ديوانه ٣٩٥ والأغاني ١ / ٤٣ تمخضت دجنته : انكشف ظلامه الشديد . الراس : الدفان ، والمراد حتى

ومما يدل على حظ مثل هذا الشعر من التهذب ، وبراءة القصد ، ويؤكد ماسبق أن ذكرناه منذ قليل عن طابع التجارب في هذا الغزل ، مايروى من أن ابن أبي عتيق^(١) سمع وهو بالمدينة قول عمر :

فما نلت منها محرما غير أننا كلانا من الثوب المورد لابس

فقال : أبنا يلعب ابن أبي ربيعة ، فأى محرم بغى ؟! ثم ركب بغلته متوجها إلى مكة ، وتعجل فلم يطف طواف القدوم ، حتى أقبل على عمر ، فقال : أما زعمت أنك لم ترتكب حراماً قط ؟ قال : بلى ، قال : فما قولك : « كلانا من الثوب المورد لابس » ؟ فقال عمر : إذن أخبرك ، خرجت بعلة المسجد (أى بدعوى الذهاب إليه) فصرنا إلى بعض الشباب ، فأخذتنا السماء ، فأمرت بِمَطْرُفِي ، فسترنا الغلمان به ، لئلا يروا بها بِلَّة ، فيقولوا : هلا استترت بسقائف المسجد ؟ فقال له ابن أبي عتيق : يا عاهر !! هذا البيت يحتاج إلى حاضنة !!^(٢).

فهل كان ابن أبي عتيق ينزعج إلى هذا الحد ، الذى يهمل معه واجب تحية بيت الله ، لو كان يعرف كما يعرف غيره أن مثل هذه المعانى إنما هى ترجمة واقعية لسلوك هذا الشاعر وأصحابه من شعراء بيئته الغزليين ؟

إنما أزعج هذا الناسك مايوحى به ظاهر التعبير في البيت من معنى فاضح ، مع علمه وعلم غيره من أبناء مجتمعه ، أن هؤلاء الشعراء يقولون مالا يفعلون ، فخشى أن يكون هذا تطورا وانحرافا في سلوك عمر ، مع علمه بطهارته ، وإلا لاكتفى باستمطار اللعنات على الشاعر الفاسق ، دون أن يكلف نفسه عناء الرحلة من المدينة إلى مكة ، ومواجهة الشاعر ، والاستفسار منه عما عنى .

وهذا الإقبال الذى يتميز باللهو البريء ، قد يأخذ صورة حضرية جذابة ، حيث تصطحب الحبيبة أترابها ، إلى روضة مزهرة خارج المدينة ، ويجتمعن بالشاعر

(١) هو عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق ، قرشى ناسك ، من ظرفاء قريش ، كان صديقا لعمر بن أبي ربيعة ، وكثيرا ماسفر بينه وبين صواحيبه . انظر : سمط اللآلئ ٢ / ٦٤٤ والموضح ٢٠٩ وشاعر الغزل للعقاد

وصحبته ، ويقطعن الوقت في هو معهم ، وتناشد الأشعار ، وتبادل عبارات الهوى .
في مثل هذا اللقاء يقول عمر بن أبى ربيعة^(١) :

وقد أرى سرياً به حسناً مثل الجاذر أتياباً وأبكارة
فبين هند وهند لاشبيه لها ممن أقام من الجيران أو سارا
يَمْنَنَ مورقة الأفنان دانية وفي الخلاء فما يؤنس ديارا
قالت : لو أن أبا الخطاب وافقنا فلهوا اليوم أو تُنشَد اشعارا
فلم يُرْعِهَنَّ إلا العيس طالعة يحملن بالتّعف ركابا وأكوارا
قلن : انزلوا نعمت داريقركم أهلا وسهلاً بكم من زائر زارا
فقلت : من ذا المحيى وانتبهت له أم من محدثنا هذا الذى زارا؟
قالت : محب رماه الحب آونة وهيجه دواعى الحب إذ حارا

فمثل هذه اللقاءات لا تزيد على كونها لهواً اجتماعياً ، تريد به هؤلاء النسوة أن يلقين هذا الشاعر المشهور ، الذى يتحدث عنه الناس في مجتمعهم ، وأن يخلقن صلة بينهن وبينه ؛ ليتحدث عنهن في أشعاره ، فهن سعيدات بهذا اللقاء ، والشاعر سعيد أيضاً به ، يتحدث عنه في شعره ، مُدلاً على أقرانه من الشباب ، الذين لايتاح لهم مايتيح له .
وقد تمضى التجربة على هذا النحو ، منتهية بهذه النهاية ، إذ ينفض المجلس ، ويعود عمر وصحبته من طريق ، وتعود هند وأترابها من طريق ، ويخرجن من هذا اللقاء بمتعة اللقاء ، وبأمل في مثله ، قد يتحقق أولاً يتحقق ، ويخرج الشاعر منه بهذه التجربة الفنية ، يرضى بها هوى الفن ، ويرضى عنها أهل بيئته حين يسمعونها إنشادا ، أو يستمعون إليها غناء .

وقد يضيفى الشاعر على تجربته بعداً آخر ، واقعا أو متخيلا ، نرى من خلاله أتراب صاحبته ، وقد استشعرون رغبة الحبيين في لقاء منفرد ، لفترة موجزة ، ولكن على مقربة منهن ، رعاية لحق الهوى من ناحية ، ومراعاة لقيم المجتمع المتحضر المحافظ معا ، من ناحية أخرى ، فيدعين حاجتهن إلى التجول فى السهل القريب ، وتظهر صاحبتهم تمنعها على هذا الاحتيال الذى دبرته فى مكر ظريف ، إرضاء للشاعر المحب^(٢) :

(١) ديوانه ١٢٠ سرب به : أى بالربع ، والسرب الجماعة : « يقال سرب من قفا ، وسرب من نساء ، وسرب من ظباء » (الموشح ٣٢٩) . ديار : أحد . أبو الخطاب : كنية عمر .
(٢) ديوان عمر ٢٩٤ ذى التبل هنا : سقيم الفؤاد .

فسلمتُ واستأنستُ خيفة أن يَرى
فقلت وأرخت جانب الستر إنما
فقلت لها : ماى لهم من ترقب
فلما اقتصرنا دونهن حديثنا
عرفن الذى تهوى فقلن لها : ائذنى
فقلت : فلا تلبثن ، قلن : تحدثى
فقمئن وقد أفهمن ذا اللب إنما
عدو مكاني أو يرى كاشح فغلى
معى فتحدثت غير ذى رقة أهلى
ولكن سرى ليس يحملنه مثلى
وهن طبيبات بحاجة ذى التَّبل
تطف ساعة فى طيب ليل وفى سهل
أثيناك ، وانسبن انسياب مَها الرمل
فعلن الذى يفعلن من ذاك ، من أجلى

وهكذا كان المجتمع النسائي يطل على مجتمع الرجال فى هذه البيئة التى تحضرت ،
من خلال هذا الشاعر وأمثاله ، وكان النساء يلقينه مجتمعات أحيانا ، ليسمرن معا ، أو
محتفيات به أحيانا أخرى ، ثم يخلين بينه وبين صاحبتة بعد حين ، وهما على مرأى منهن ،
دفعاً للريبة ، وتقديراً للعواقب .

ودفعاً لمظنة انفراد عمر بهذه التجارب من دون شعراء عصره وبيئته ، وأن ذلك كان
اتجاها فنيا خاصاً به وحده ، نلتفت إلى شاعر آخر من أصحاب عمر ، ومن عبروا عن
هذا الغزل الحضرى ، كما عبر عمر ، وتحيلوا تجاربه ، أو حققوها ، كما تخيلها عمر أو
حققها ، إنه العرجى الشاب المكى القرشى الوسيم ، يجتمع فى هذا مع عمر ، كما يتفق
معه فى الفراغ والثراء ، وعراقبة النسب .

نقف على صورة غزلة من صور العرجى ، فتراها تحكى لنا نفس الملامح التى
حكاهها عمر للمجتمع الحجازى المتحضر ، وتبرز نفس الصلة ، التى كانت بين الرجل
والمرأة فى هذا المجتمع .

هى صورة لقاء له مع صاحبتة ، دبرته مع صديقاتها ، وأرسلن إليه أن يوافين
ليلا ، وليحذر العيون المراقبة ، ويقبل الشاعر متلصصا ، ويدنو منهن حذرا ، ويقضى الليل
فى سمر معهن ، مكاشفاً ، صاحبتة بهواه ، وتقبل منه هذه المكاشفة ، ثم يمضى عنها
وعنهن ، فيودعنه والدموع تتحير فى أعينهن : ^(١)

حورٌ بعثن رسولا في ملاطفة
إلى أن اثنا هذءاً إذا غفلت
فجئت أمشى على هول أجشمه
أمشى كما حركت ربح يمانية
وهن في مجلس خالٍ وليس له
حتى جلست إزاء الباب مكتما
أبدن لي أعينا نجلا كما نظرت
قالت كلابة : من هذا ؟ فقلت لها :
أنا أمرؤ جدى حب فأحرضنى
لاتكلىنى إلى قوم لوائهم
وأنعمى نعمة تُجزى بأحسنها
هذى يمينى رهن بالوفاء لكم
قالت : رضى ولكن جئت في قمر
فبت أسقى بأكواس أعلى بها

ثَقِفاً إذا عَقَلَ النساءُ الوهمُ
أحراسنا وافضحنا إن هم علموا
تجشم المرء هولاً في الهوى كرمُ
غصنا من البان رطباً طله الدائمُ
عين عليهن أخشاهما ولا ندم
وطالب الحاج تحت الليل مكتمُ
أدُم هجان أتاها مصعب قَطْمُ
أنا الذى أنت من أعدائه زعموا
حتى بليتٌ وحتى شفى السقم
من بغضنا أطعموا لحمى إذن طعموا
فطالما مسنى من أهلك النعم
فارضى بها ولأنف الكاشع الرغم
هلا تلبث حتى تدخل الظلمُ
من بارد طاب منها الطعم والنسم...

هذه الصورة تشبه كثيرا صورة عمر في اللقاء مع النساء ، فكلاهما يشترك فيه أكثر من امرأة ، وكلاهما يأخذ صورة السمر مع الفتى الشاعر الوسيم المعروف ، يسمعن منه ، ويتوقعن أن يعلو شأنهن إذا ذكرهن في بعض شعره ، ثم ينتهى اللقاء وليس فيه من المتع الحسية شيء ، أو شيء يسير ، يودى به واجب التقليد الفنى في وصف الجمال ، وفى لقاء عمر نجد نفس اللوعة المشتركة بين الشاعر وصاحباته للفراق .

وهذا التشابه فى التجارب الغزلة بين شعراء البيئة الواحدة ، له دلالة على تشابه أنماط الحياة الاجتماعية وظروفها ، التى كان يتحرك فى إطارها هؤلاء الشعراء .

وعند عمر بن أبى ربيعة كالذى عند غيره من شعراء الحضر الغزلين ، من صورة تبادل الشوق بين المحب والمحجوب .

فقد يستبد به الشوق ، فيذهب إلى صاحبتة ، وينادى فيها فى غير حرج ، فتلبى النداء ، وتوافيه مع جماعة (أيضا) من أترابها ، يزدهيها الجمال ، ويحرسها الخفر

والصون ، يعبر عن ذلك عمر قائلا ^(١) :

مَنْ رَسُولٍ إِلَى الثَّرَا بَأْتَى ضَقَّتْ ذَرْعاً بِهَجْرِهَا وَالْكِتَابِ
سَلَبْتَنِي مُجَاجَةً الْمَسْكَ عَقْلِي فَسَلَوْهَا بِمَا تُحَلُّ اغْتِصَابِي
أَرْهَقْتُ أَمْ تُؤَفِّلُ إِذْ دَعَتْهَا مَهْجَتِي مَالِقَاتِلِي مِنْ مَتَابِ
حِينَ قَالَتْ لَهَا : أَجِيبِي ، فَقَالَتْ : مَنْ دَعَانِي ؟ قَالَتْ أَبُو الْخَطَّابِ
فَاسْتَجَابَتْ عِنْدَ الدَّعَاءِ كَمَا لَبَّيْ رَجَالٌ يَرْجُونَ حَسْنَ الثَّوَابِ
أَبْرَزُوهَا مِثْلَ الْمَهَاةِ تَهَادَى بَيْنَ خَمْسٍ كَوَاعِبِ أَتْرَابِ
وَهِيَ مَكْنُونَةٌ تَحْيَّرُ مِنْهَا فِي أَدِيمِ الْخَدَّيْنِ مَاءُ الشَّبَابِ
ثُمَّ قَالُوا : تَحِبُّهَا ؟ قُلْتُ : بَهْرًا عَدَدَ النِّجْمِ وَالْحَصَى وَالتَّرَابِ

وقد تشناق هي إلى لقاء الشاعر ، ومحادثته ، والاستماع إليه ، وقد تغيب عنها فترة ، فلا تجد بأساً من إرسال رسول إليه ، تستحثه على القدوم ، متوددة عاتبة ، ذلك قول عمر ^(٢) :

إِنَّ هِنْدًا قَدْ أَرْسَلَتْ وَأَخُو الشُّوقِ مَرْسَلُ
أَرْسَلْتُ تَسْتَحْتَنِي وَتُقَدِّدِي وَتَعْدُلُ

وهذه ظاهرة حضارية ، أو فلنقل تطور حضارى لللمحة ، أخذت شكل الظاهرة في هذا الغزل ، فأغلب الظن أن أم هذه الفتاة ، أو جدتها ، ماكانت تجرؤ مثلها على

(١) الكامل للمبرد ٢ / ١٨٥ وأمالى المرتضى ١ / ٣٤٦ وانظر : ديوان المعاني ١ / ٢٣٢ في التعليق على البيت السابع حيث يعده أبو هلال من أحسن ما قيل في اللون . المجاجة : الرقيق ترميه من فيك ، شبهه بالمسك لأنه رقيق الحبيب ، وقوله : « بَهْرًا » قال فيه الأصمعي : أى تعسا ، دعاعلهم ، إذ جهلوا من حبه لها مالا يجهل مثله ، وقال ثعلب قال ابن الأعرابي : أى بهركم الله ، أتظنون أنى ليس كذا ، وقال غيره : عجباً لكم كيف تظنون غير هذا . وقيل معناها : نعم ، حبا بهرتى بهرا ، قال أبو عمرو بن العلاء : ويكون بهرا بمعنى حبا ظاهرا من قولهم : قمر باهر . انظر : الموشح ٢٠١ — ٢٠٢ وأمالى المرتضى ١ / ٣٤٥ — ٣٤٦ . والثيا هي ابنة على بن عبد الله من بنى أمية الأصغر بن عبد شمس ، وكانت ذات جمال وكال ، ويقال : إن ابن أبى عتيق لما سمع قول عمر « من رسول إلى الثيا » قال : إياى أراد ، وبى نوه ، لاجرم !! والله لا أذوق أكلا حتى أشخص إليه ؛ لأصلح بينهما ، فخرج من المدينة إلى مكة ، لهذا الغرض ، في خبر طويل ، يراجع من شاء في : أمالى المرتضى ١ / ٣٤٧ . تحير ماء الشباب : تم .

إرسال الرسل إلى صاحبها ، خاطبة وده ، طالبة لقاءه ، ولكنها روح العصر ، وسمّة البيئة المتحضرة .

وقد تأخذ المراسلة صورة أخرى ، نرى فيها الفتاة راغبة في لقاء صاحبها ، ولكنها مشفقة أن يلحق به أذى من قومها المترصين به ، ويغلب الشوق فتبعث إليه أن لا يجبن عن لقائها ، ولكن عليه بالحذر ، داعية له بالسلامة ^(١) :

دَسْتُ إِلَى رَسُولَا لَا تَكُنْ فَرِقَاً وَاحْذَرْ وَوَقِيتْ — وَأَمْرُ الْحَازِمِ الْحَذَرُ
إِنِّي سَمِعْتُ رَجَالًا مِنْ ذَوِي رَحْمِي هُمُ الْعَدُوُّ بَظَهَرِ الْغَيْبِ قَدْ نَذَرُوا
أَنْ يَقْتُلُوكَ — وَقَاكَ الْقَتْلُ قَادَرُهُ — وَاللَّهِ جَارُكَ مِمَّا أَجْمَعَ النَّفَرُ

أو تلومه لأنه لم يرسل إليها رسولا ، قبل الزيارة ، يعلمها بموعد اللقاء ، وأنه تعجل فزارها قبل أن يغيب القمر ، يحكى هذا عمر على لسانها ^(٢) .

هَلَّا دَسَسْتُ رَسُولًا مِنْكَ يَعْلَمُنِي وَلَمْ تَعْجَلْ إِلَى أَنْ يَسْقُطَ الْقَمَرُ
تَمَامًا كَمَا عَاتَبْتَ الْعَرَجِي صَاحِبَتَهُ ، عَلَى مِثْلِ هَذَا .

وعمر — كالعرجي وغيره — تياه بهذه المراسلة يحكيها ، ويردها في شعره ، ويمعن في تيهه ، فيذكر أن ثلاثة من الكواعب الحسان أرسلن إليه ، ومعهن صاحبتة ، التي تفوقهن حسنا ، يضرين له موعد لقاء ، وأنه حين ألقى عليهن السلام ، أسفرن عن وجوه باهرة الجمال ، ثم تدللن عليه ، ولم يلبس حتى مددن إليه أسباب الهوى ، فتلقفها ، كلما تحركن نحوه بعواطفن إصبعا ، وثبت عواطفه نحوهن ذراعا ، وإذن فتية عمر هنا ، ليس إعجابا بنفسه ، فهن وإن سبقنه في إبداء شعورهن نحوه ، ورغبتن في لقائه ، فإنه صرح بأن استجابته كانت أقوى ، وشوقه كان أكثر ^(٣) :

أَتَانَا رَسُولٌ مِنْ ثَلَاثِ كَوَاعِبَ وَرَائِقَةٌ تَسْتَجْمَعُ الْحَسْنَ أَجْمَعَا
فَلَمَّا تَوَاقَفْنَا وَسَلِمْتَ أَقْبَلْتَ وَجُوهَ زَهَاهَا الْحَسَنِ أَنْ تَتَقَنَّعَا

(١) ديوانه ١١٣

(٢) ديوانه ١١٥

(٣) ديوانه ٢٢٨ باغ : يعنى إبلا ضالة فهو يتعب بعينه بالسير السريع ليدركها . وانظر فيما دار حول هذه

الآيات : أمالي القالي ٢ / ٥٢ — ٥٣ وتزيين الأسواق ٣٣ وديوان المعاني ١ / ٢٣٠

وقلن : امرؤ باغ أكْل وأوضعا
 يقيس ذراعاً كلما قسَن إصبعا
 أخفت علينا أن نُعَر ونخدعا ؟
 إليك وبيننا له الشأن أجمعاً
 على ملأ منا خرجنا له معاً
 دميثَ الرُّبَى سهل المَحِلَّة مُمرِعا
 فحقَّ له في اليوم أن يتمتعا

تبألَهَنَ بالعرفان لما عرفتنى
 وقرين أسباب الهوى لمتيم
 فلما تنازعنا الأحاديث قلن لى
 فبالأُمس أرسلنا بذلك خالدا
 فما جئنا إلا على وفق موعِد
 رأينا خلأً من عيون ومجلسا
 وقلنا: كريم نال وصل كرائم

ويجب أن نلاحظ ناحيتين معا ، إحداهما : هى الرغبة الواضحة ، بل السعى
 الحثيث من النساء إلى اللقاء ، والأخرى : هذا المعنى المتكرر فى نماذج الغزل ، والذى
 يشير دائماً إلى الحذر من الرقباء ، فالناحية الأولى تعبر عن النزعة الحضارية ، التى تحدثنا
 عنها فى وصف خطوات المرأة الحجازية إلى الفوز بنصيب من الحياة الاجتماعية
 المتحضرة ، أما الأخرى — مع كون اللقاء يتم غالباً فى جماعة — هى التى أشرنا إليها على
 أنها من رواسب المجتمع البدوى المحافظ ، ومن هنا تأخذ هذه اللقاءات صورة مغامرة
 اجتماعية حضرية لطيفة ، لتؤكد بعد هذا المجتمع الذى تحضر عن الانحلال والمجون ،
 والاستهتار بالقيم الأخلاقية ، إذ يلاحظ فى شعر عمر وفى شعر زملائه الغزلين أن المرأة
 موضوع الغزل لاتنفرد — غالباً — بالرجل ، بل تسهم فى الإعداد للقاء مع غيرها ، أو
 تشارك فى مجلسه حين يتم اللقاء ، نساء أخريات من صديقات تلك التى جاء الشاعر
 لزيارتها ، أو دعته هى إليها .

ونحن لانجهل أن هناك نصوصاً من الشعر الجاهلى ، تدل على أن من النساء
 الجاهليات مَنْ كن يرأسن الرجال ، طلباً للقاء ، حين يستبد الشوق ببعضهن ^(١) ، غير
 أن هذا كان قليلاً ، إن لم يكن فى حكم النادر ، فى ظل التقاليد البدوية الحادة الصارمة ،
 الغالبة على الحياة الجاهلية ، وإنما كان المحبون هم الذين يحتالون بالمراسلة ، إذا لم يجدوا من
 وسيلة سواها .

(١) انظر فى ذلك : أخبار النساء ٨٥

٣ — وهذا ملمح آخر هام من صورة المرأة في الغزل الحجازى ، يتصل بالعناية بمشاعر المرأة وعواطفها ، ونزعاتها النفسية ، والميل إلى تصوير عالمها الشعورى حين تحب .

فمن قبل هذا العصر كانت الحواجز الحاسمة تفصل بين المرأة والرجل الذى يهواها ، فاللقاء نادر ، والوصل ضنين ، وحتى لو سعدا باللقاء ، فإنما يكون نُهْزَةً ، قصير الأجل ، فلم يكن بد من أن يكتفيا بالنظرة العجلى ، أو بالمشاهدة بين ربوع الحى ، وبين الأهل ، ومن هنا ما كان الشاعر ليعرف عن صاحبتة — غالبا — إلا ما شد عينيه إليها من ملامح الجمال ، وخصائص الحسن ، فيظل مستحضرا هذا المظهر الشكى للجمال أمام عينيه ، يتأمله ، ويطيل تأمله ، ثم ينقلب فينحت له بخياله صورا ونماذج تجسمه ، وتبرز مثاليته ، كما يتصورها ، ومن هنا أيضا غلبت النزعة الحسية للجمال الجسدى فى الشعر الجاهلى ، ولم يتجه شعراؤه إلى غير هذا من المرأة ، أما مشاعرها ، وخلجات نفسها ، ونبضات قلبها ، فكل ذلك عالم مغلق ، لم تتح الفرصة الكافية لكى يدلف إليه الشاعر الجاهلى ، ويتحسسها ، ويكتسب الخبرة به .

وفى العصر الأموى حيث نالت المرأة قسطا من الحرية فى لقاء الرجل ، وإسماعه ، والاستماع منه ، وحيث فرص اللقاء فى مجالس الغناء ، وفى غيرها مهياة لكل منهما ، فإن عالم المرأة المحبة ، لم يعد سراً مغلقا — إلى حد ما — أمام إدراك الرجل ، وبخاصة إذا كان شاعرا ، وعلى الأخص إذا كان هذا الشاعر عمر بن أبى ربيعة ، بكل مأمدته به بيتته العامة والخاصة من خبرة بالنساء وأحوالهن ، ونوازعهن إذا أحبين .

هذه النزعة التحليلية لمشاعر الحب عند المرأة ، يمتاز بها الغزل الحضرى الحجازى ، فيما يمتاز به ، ويزيد من قيمتها وجاذبيتها ماتصطنعه كثيرا من أسلوب يأخذ طابع القص والحوار .

وقد مرت بنا لمحة منه فى الحوار القصير الذى دار بين العرجى وصاحبتة :
 قالت كلابة : مَنْ هذا ، فقلت لها : أنا الذى أنت من أعدائه زعموا...
 قالت : رضيت ولكن جئت فى قمر هلا تلبثت حتى تدخل الظلم
 ونستطيع أن نلتقط مثل هذه اللمحة فى غزل الأحوص ، وابن قيس الرقيات ، وغيرهما من الغزلين فى حضر الحجاز .

غير أن هذا الأسلوب يبرز حقاً ، وتتلاحم فيه عناصر القص والمحاور والحكاية وتآزر ، لتحقيق الكل الفنى وإحكام وحدته ، فى غزل عمر بن أبى ربيعة ، أستاذ هذا الفن ، ففى شعره تكثر الجمل الحوارية ، التى يستقل كل منها بيت أحياناً ، أو التى تقصر وتتوالى فى البيت الواحد ، وفى كل حال ، تؤدى وظيفتها الفنية ، فى نقل القارىء أو السامع إلى جو الحكاية ، فيعين أطرافها ، وكأنه أمام مشهد واقعى فى الحياة .

وأسلوب القص والحوار فى شعر عمر بن أبى ربيعة ، ليس مجرد حلية كلامية ، أو فلتة أسلوبية ، أو وسيلة من وسائل تزيين العبارة ، وإنما هو أداة للتعبير مقصودة ، ومحسوبة بدقة ، وموظفة بعناية لخدمة التجربة ، وإبراز الموقف العاطفى . كما سنرى .

فى هذا الأسلوب فاق عمر سابقيه ومعاصريه من الشعراء الغزلين ، فهو الذى استطاع بحق أن ينفذ من خلال هذا الأسلوب إلى تصوير عواطف المرأة التى تحضرت فى عصره ، حين تحب ، وما يكون بينها وبين أخواتها ، أو جوارها ، من أحاديث عن حبها ، وعن معاناتها من هذا الحب ، وعن صاحبها ، وكلفه بغيرها ، وكلفها به ، ولانجد من بين شعراء الغزل من وفق توفيق عمر بن أبى ربيعة ، فى رسم نفسية المرأة من خلال أسلوب القص والحوار ، إذ كان هذا الأسلوب يلوح فى الشعر الجاهلى — وبخاصة فى شعرا مرء القيس — عرضاً ، أو على ندرة ، وجاء عمر فافتن فيه وتوسع ، بحيث أصبح ظاهرة متميزة فى شعره ، بل من أهم الظواهر المميزة لهذا الشعر .

وأهمية هذا الأسلوب ندركها أيضاً ، إذا تأملنا تجارب عمر الغزلية ، التى اعتمدها طريقة للأداء ، فقد خلص هذه التجارب من البث المباشر ، الذى يعتمد على طرح المشاعر بطريقة تقريرية صريحة ، أو فى صور جزئية مجسمة ، كما هو الحال عند سابقيه من شعراء الغزل ، وتحول بها إلى موقف فيه أحداث وشخصيات ، وحوار ، وذروة تنفرج عنها هذه الأحداث ، أو تكون نهاية لها .

بهذا أمدنا عمر بصور حية لإحساسات النساء والفتيات ، ومشاعرهن فى عصره ، وماقد يعترين من هواجس ووساوس ، وما يداعب خيالهن من أفكار ، أو أوهام .

وليس من شك فى أن خيال عمر الخصب ، قد قام بدور هام فى هذا التحليل

النفسي ، تعينه خبرة بأحوال النساء ، وما يدور في مجالسهن وأحاديثهن ، وهي خبرة اكتسبها من نشأته في حجر أمه ، أصغر ولديها ، يتيما ، منعما ، مدللا ، لا يكاد يفارق أمه في مجالسها مع النساء ، يراهن ، ويقف على أحوالهن ، ويراقب انفعالاتهن ، ويسمع ما يدور — عادة — في مجتمع النساء الخاص ، حينما ينطلقن على سجيتهن ، في ذكر أحوالهن والكشف عن عواطفهن ، أو محاولة مداراتهن ، واختزن عمر هذا كله في ذاكرته ووعاه ، ثم انقلب ، فيما بعد ، يتخيل ثم يقص ما تخيل ، متدسسا في نفسية المرأة ، لامسا مشاعرها .

وهاهي ذى إحدى تجاربه ، في تصوير جانب من جوانب عالم المرأة النفسي ، وقد نبض قلبها بالحب ^(١) :

قالت على رقبتي يوماً لجارتها	: ما تأمرين ؟ فإن القلب قد شغلا
وهل لي اليوم من أختٍ مؤاخية	منكن أشكو إليها بعض ما فعلا ؟
فراجعتها حصاناً غير فاحشة	برجع قول وأمر لم يكن خطلا
أقنني حياءك في ستر وفي كرم	فلمست أول أنثى علقت رجلا
لا نظهري حبة حتى أراجعه	إني سأكفيكه إن لم أمث عَجلا
صدت بعداً وقالت للتي معها:	بالله لوميه في بعض الذي فعلا
وحدثيه بما حدثت وامتعمي	ماذا يقول ولا تَعْنِي به جدلا
حتى يرى أن ما قال الوُشاة له	فيما لديه إلينا كله نقلا
وعرّ فيه بهم كاهزل واحتفظي	في غير معتبة أن تغضبي الرجال
فإن عهدي به — والله يحفظه —	وإن أتى الذنب يكره العَدلاً

فعمر يأخذنا إلى عالم امرأة مهمومة ، مشغولة القلب ، لجفوة صاحبها إياها ، وهي تشكو إلى صاحباتها ، وتلتمس منهن المشورة ؛ لأنها تحبه ، ولانطلاق فراقه ، فتنصحها إحداهن بإخفاء عواطفها ، وتتطوع بأن تكون رسولها إليه ؛ لتقف على حقيقة مشاعره نحوها .

(١) ديوانه ٢٥٨ والأغاني ١ / ٥٩ حصان : عفيفة . خطل : خاطيء . اقنى حياءك : الزميه . علقت :

أحببت .

وهنا تنبرى المحبة الواهية ، تسألها أن تلومه على الهجر ، وتخبره بما حدث الوشاة عنه ، وليكن لومها رقيقا حتى لاتغضبه ؛ لأنها لاتحب له أن يغضب ، ولا تلح عليه في العتاب ؛ لأنها خبيرة بطبعه ، فهو يكره العتاب ، حتى وإن كان مخطئا .

من خلال هذا الحوار الجذاب ، يصور عمر مشاعر هذه المرأة ، في قلقها ، وحيرتها ، وحنينها إلى صاحبها ، ولهفتها عليه ، ورغبتها في إرضائه ، وخشيتها من غضبه ... إلى آخر ماصور عمر فأبدع .

والصورة كلها ، بعد هذا ، صورة موقف ، لم يسرده عمر سردا ، ولكنه أداره حوارا ، ربط به بين أطراف الصورة ، بين شخصياتها وعواطفها ، فأبرز الوحدة الفنية في الموقف ، فكل شخصية ، وكل عاطفة ، وكل جملة حوارية ، تؤدي وظيفتها في بناء هذه الوحدة الفنية .

ويقدم لنا عمر بن أبي ربيعة أيضا صورة دقيقة واقعية ، لعواطف المرأة ، وأحوالها النفسية ، في موقف آخر ، موقف الغيرة تأكل قلبها ، وهي تعلم أن صاحبها قد سلاها ، وتزوج بغيرها ، فتتظاهر بعدم المبالاة ، وتكظم غيظها ، مخفية ما بها عمن تخاف منهم السماتة بها ، كاشفة حقيقة حالها ، لمن تثق في صدق ودهن ، ولا تخفى دونهن سرا من صديقاتها .

والواقعية هنا ، ليس بالضرورة واقعية ترتبط بحياة الشاعر وسلوكه ، بمعنى أنه ليس من الضروري أن يكون عمر هو بطل الموقف ، فقد تكون واقعية متصورة ، مستمدة من تجارب الآخرين وواقع حياتهم ، ودور عمر فيها هو دور الوسيط الفنان ، الذي ينقل خبرته بهذا الواقع إلى الناس ، في صورة تعكس صدقه وواقعيته .
يحكى عمر : (١)

تُ فَظَلْتُ تُكْتَمُ الْغَيْظُ سِرًّا	خَبَرُوهَا بِأَنْنَى قَدْ تَزَوَّجْتُ
جَزَعًا لَيْتَهُ تَزَوَّجَ عَشْرًا	ثُمَّ قَالَتْ لِأَخْتِهَا وَلِأَخِي
مَاتَرَى دُونَهُ لِلْسُرِّ سَتْرًا	وَأَشَارَتْ إِلَى نِسَاءِ لَدِيهَا
وَعِظَامِي أَخَالُ فِيهِنَّ قَتْرًا	مَا لِقَلْبِي كَأَنَّهُ لَيْسَ مِنِّي
خِلْتُ فِي الْقَلْبِ مِنْ تَلْظِيهِ جَمْرًا	مَنْ حَدِيثُ نُمَى إِلَيَّ فَظِيع

(١) شرح ديوان الحماسة للمرزوق ٤ / ١٨٤٤ وسمط اللآلئ ٢ / ٨٠١ وأمالى الغالى ٢ / ١٨٥ . قترا : ليونة

لعمري !! إن هذه حال لا يقف عليها ، ولا يصور واقعيتها النفسية على هذا النحو الدقيق ، إلا خبير بعواطف المرأة ، عليم بدفائن قلبها .

وإذا كان شوقى فى عصرنا الحديث ، قد عبر عن جانب من طبيعته الأنثى بعامة ، والفتاة الشابة بخاصة ، هو حبها للثناء على جمالها ، وانتشائها بالحديث عنه ، وعلى الأخص من الرجل ، الذى ربما يخذعها عن نفسها بهذا الحديث ، فى قوله (١) :

خدعوها بقولهم حسناء والغواني يغرنّ الثناء

فاتقوا الله فى قلوب العذارى فالعذارى قلوبهنّ هواء

فإن عمر بن أبى ربيعة يطلعنا على صورة أخرى للأنثى الحذرة ، التى لاتنخدع بمعسول الحديث ، لخبرتها بأسلوب بعض الرجال فى خداع النساء ، فهى ترفض أن تنيل من كان هذا شأنه مراده ؛ لأنها ليست ساذجة يستهويها حلو القول ، وتستميلها الملاطفة ، ولأنها تخشى أن يهجرها بعد أن ينال منها وطرا : (٢)

بعثت وليدتي سحرًا وقلت لها : حذى حذرًا

وقولى فى ملاطفة لزينب نولي عمرك

فإن داويت ذا سقم فأخزى الله من كفرك

فهرت رأسها عجبًا وقالت : من بدا أمرك

أهذا سحرك ؟! النسوة ن قد خبرننى خبرك

وقلن : إذا قضى وطرا وأدرك حاجة هجرك

والحديث عن فن عمر بن أبى ربيعة فى هذا الجانب من صورة المرأة يطول ، ونكتفى بما قدمنا ، ونموذج آخر يصور لونا من أحاديث النساء ، فى مجالسهن الخاصة ، فيه التيه والدلال ، والزهو بالجمال ، وتقدير المحب له ، وإشادته به ، وفيه أيضا الغيرة تنهش قلوب النساء ، حين يتعرض الرجل لأنثى يصف جمالها ويطره ، ويصل حديثه إلى مسامع صديقاتها أو أترابها ، فيزرع بذلك الحقد والغيرة فى قلوبهن ، ويتفلسن عليها ماتوصف به من حسن وقتنة وجهال :

يصور هذا قول عمر (٣) :

(١) الشوقيات ٢ / ١١٢ .

(٢) الأغاني ١ / ٦٠ وسمط اللآلى ٢ / ٦٩٢ وأمالى القالى ٢ / ٣١٤ .

(٣) ديوانه ٣٢٠ والتذكرة السعدية ٥١٣ وديوان المعانى ١ / ٢٢٨ وفيه « ونعرت يوم حر » .

ليت هندا أنجزتنا مائِعِدْ وشفّت أنفسنا مما نَجِدْ
واستبدت مرة واحدةً إنما العاجز مَنْ لا يستبد
زعموها سألت جاراتها وتعرّت ذات يوم تبرد
أكما ينعتني تبصرنني عَمَّرُكِنَّ الله أم لايقصد ؟
فتضاحكن وقد قلن لها حسن في كل عين مَنْ تود
حسدٌ حُمَلْنَه من حسنها وقديما كان في الناس الحسد

ولبراعة عمر في هذا الضرب من الغزل ، عُذ من الشعراء الذين طَوَّروا الشعر العربي ^(١) .

٤ — هناك اتجاه آخر يعكس صورة للمرأة ، ينفرد بها الغزل في العصر الأموي ، وفي بيئة الحضر الحجازي خاصة ، بل ينفرد بها غزل ابن أبي ربيعة على الأخص ، وهي صورة تبدو غريبة ، تنقض تقاليد الغزل المعروفة قبل عصره ، وعند غيره من معاصريه .

ففي غزل عمر تطالعنا نماذج عديدة ، يتحدث فيها الشاعر عن نفسه مزهوا بأنه متعلّق أنظار النساء ، وهو يتحدث بهذا حديثا مباشرا حيناً ، كما يبدو في قوله :
وكنّ إذا أبصرنني سعين فرقعن الكويّ بالمحاجر

أو على لسان النساء حيناً آخر ، وفي هذا الحديث أو ذاك لايعبر عن حبه ، بل عن حب الجميلات إياه ، ولهفتن عليه ، واعتراضهن سبيله ، طالبات وُدّه ، ولايصف وقع حب صاحبتة في نفسه ، وإنما يصف وقع حبه في قلب صاحبتة ، ومن خلال ذلك نستطيع أن ندرك إحساس عمر بالزهو والفخر ، « ولعل من مظاهر هذا الفخر أن ينطق به صواحبه في أقوالهن ، وأن يعبر عنه بذلك في أفعالهن ، فهن اللواتي يرسلن إليه الرسل ، وهن اللواتي يخرجن إليه ويغامرن من أجله ، ويستعطفه ، ويدعونه باكيات بين يديه ، ويدعون على أنفسهن من أجله ، ويدعون له بأن يحفظه الله ، وأن يجيره حاضرا ومسافرا ، وأن يرده إليهن ، وما أكثر ماأشدن بحمالة ، وأعجبين بشبابه ، وتمنين موافقته في ساعة صفاء ^(٢) » .

وهذا الحديث عن النفس قد لفت نظر الباحثين في شعر عمر ، لعدم إلفه في تقاليد الغزل ، ولما قد يوحى به من شذوذ في تكوين عمر النفسي ، يدفعه إلى أن ينزع في

(١) انظر : مقدمة ديوان بشار بن برد للشيخ محمد الطاهر بن عاشور ٣٧ ، وانظر أيضا : تاريخ الشعر العربي

(د. البيهقي) ٣٥٠ ومقدمة ديوان عمر بن أبي ربيعة ٦٨ وفي الشعر الإسلامي والأموي (د . القط) ٢٧١

(٢) تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام ٣٨٩

غزله هذا المنزع الغريب ، الذى يجعل منه موضوعا للغزل ، ويجعل من المرأة الطرف المتغزل ، فيتبادل وإياها الموقف الغزلى ، فى وضع معكوس ، وعاطفة معكوسة .
 هكذا لاحظ الدكتور شكرى فيصل فى النص الذى نقلناه عنه قبل هذه الأسطر ، وهكذا لاحظ الدكتور طه حسين من قبله ، معللا هذا الاتجاه فى غزل ابن أبى ربيعة بما يشبه أن يكون إعجابا بالنفس ، أو افتتانا بالذات (نرجسية) فيقول (١) :
 « وقد فتن عمر النساء وتيمهن ، فأخذن يطربنه ، ويتهاكن عليه ، حتى فتن بنفسه ، فلم يتغن بحبه إياهن ، كما تغنى بحبهن إياه » .

ورأى الأستاذ العقاد رأيا آخر فى تفسير هذا الجانب من صورة المرأة فى غزل ابن أبى ربيعة ، حيث أرجعه إلى « جانب أنثوى فى طبعه ، يظهر للقارىء من أبياته الكثيرة ، التى تنم عن ولع بكلمات النساء ، واستمتاع بروايتها ، والإبداء والإعادة فيها ، مما لا يستمرئه الرجل الصارم الرجولة ، ولأدل من ولعه بكلمات النساء على الجانب الأنثوى فى طبعه ، أنه كان يُشبههنّ فى تدليل نفسه ، وإظهار التمتع لطالباته ولعل جانب الأنوثة فيه لا يظهر من شئ كما يظهر فى تدليل اسمه ، بين تلقيب ، وكناية ، وتسمية ، كما يعهد فى أحاديث النساء ، فهو تارة أبو الخطاب ، وتارة المغيرى ، وتارة عمر الذى لا يخفى كما لا يخفى القمر ، وأشباه هذه الأنثويات التى يقارب بها المرأة فى المزاج ، ويسايرها فى الحديث ، ومن قبيل هذه الأنثويات ، أنه كان يقول :

لقد كنت وأنا شاب أعشق ولأعشق ... وهذا حديث من هو عاشق لنفسه ، قبل أن يكون معشوقا لغيره ، ففية خليقة المرأة ، أن تشعر بجنسها مطلوبة ، ولا تشعر بجنسها طالبة » (٢) .

وإلى قريب مما ذهب إليه الدكتور طه حسين من الافتتان بالنفس ، والإعجاب بالذات ، ذهب الدكتور شوق ضيف (٣) ، مع رعاية منه لأثر بيئة ابن أبى ربيعة العامة والخاصة فى هذا الاتجاه الغزل .

فهو يقرر هذه الظاهرة كما تبدو من واقع شعر عمر ، بقوله : « عمر فى ديوانه

(١) حديث الأربعاء ١ / ٣١٤ .

(٢) شاعر الغزل ٤٠ — ٤٢ .

(٣) التطور والتجديد ٢٥٠ .

وغزله قد حول الغزل من الرجل إلى المرأة ، فالصورة العامة في غزله أنه معشوق لاعاشق ، وعمر في ذلك يعبر عن تطور جديد في الحياة العربية ، فقبله لم تكن نعرف شاعرا يصبح شخصه موضوع الغزل في غزله ، إنما شخص المرأة هو الموضوع المعروف للغزل ، وبعبارة أخرى ، كانت المرأة قبل غزل ابن أبى ربيعة هى المعشوقة ، أما في غزله ، فقد تحولت إلى عاشقة ، كما تحول عمر نفسه من عاشق إلى معشوق .

وفى رأى الدكتور شوق ضيف أن عمر بذلك يعد شخصية فريدة في عالم شعراء الغزل « لأن عمر نفسه ليس من السهل أن يوجد مارا ، إذ لابد للشاعر أن يكون له ثراء عمر ، وأن تكون له أمه ، التى عاشت له ، وعاشت تعشقه ، وأيضا لابد أن يوجد مجتمع مكة ، ومافيه من نساء أصبن شيئا من الحرية فكثرت الاختلاط بينهن وبين الرجال ، على نحو ماكثر بين نساء مكة وابن أبى ربيعة » ثم ينتهى إلى القول بأن العاطفة قد انعكست عند عمر ، وشذت هذا الشذوذ الذى حوله من عاشق إلى معشوق .

ولانرانا نخالف هؤلاء الباحثين فيما وصفوا به هذا الاتجاه في غزل ابن أبى ربيعة ، الذى جعل منه معشوقا للنساء ، لأننا لانملك هذه المخالفة ، إزاء نصوص شعره ، التى تصور النساء يطاردنه ، ويتمنين لقاءه ، ويتصدى ليه ، ويتوددن إليه بالنظرة وبالحركة ...

من مثل قوله : (١)

وَجَبَّ الشوق يديه النظر	وفرغن الشوق في مقلتها
لو أتانا اليوم في سرِّ عمر	قلن يسترضينها : مُنِيتنا
دون قيد العيل يعدو بى الأغر	بينما يذكرننى أبصرننى
قالت الوسطى : نعم ، هذا عمر	قالت الكبرى : أتعرفن الفتى
قد عرفناه ، وهل يخفى القمر ؟!	قالت الصغرى — وقد تيمَّتها
ساقه الحين إلينا والقدر	ذا حبيب لم يعرِّج دوننا
جَمَلُ الليل عليه واسْبَطَرَّ	فأتانا حين ألقى بركه
مرَّمر الماء عليه فنضِر	ورضاب المسك من أثوابه

(١) ديوانه ١٥١ والأغاني ١ / ٥١ والعمدة ٢ / ٩٩ . حباب الشوق : أقصاه . دون قيد الميل : يعنى على مسافة

أقل من الميل . الأغر : فارس عمر

فهذه المرأة تشتاق رؤية عمر ، حتى ليبدو شوقها في عينها ، فيفيض سرها عند صاحباتها ، وما إن يطل عمر على جماعة النسوة حتى تتيم به أخرى هي صغراهن ، وتبوح بحبه ، وتعجب به الوسطى ، وكانت الكبرى تعرفه من قبل ، أى أنهن جميعا أظهرن تأثيوه فيهن ، وعبرن عنه ، وهل يكون الغزل شيئا غير هذا ؟!

ويكفى في التعليق على هذه الأبيات قول رفيق عمر وصاحبه ابن أبى عتيق - وكان ذا بصر بالشعر - : « أنت لم تنسب بها ، وإنما نسبت بنفسك ، كان ينبغي أن تقول : قلت لها ، فقالت لى ، فوضعت خدى ، فوطئت عليه » (١) .

وهذه النظرة النقدية من ابن أبى عتيق ، تنبى عن خروج عمر عن المألوف في الغزل ، وتنبيه إلى القاعدة ، التى ساز عليها الشعراء من قبله ، والثى جعلها ابن رشيق من مقاصد القول ، وعبر عنها بقوله « فإن نسب ذل وخضع » (٢) .

وهذه أخرى تتمنى أن لا يفارقها عمر ، وتدعو له أن يحفظه الله بعنايته فى حله وترحاله (٣) :

وقولها لفتاة غير فاحشة أرائحٌ ممسياً أم باكرٌ عمر ؟
الله جار له إما أقام بنا وفى الرحيل إذا ماضمه السقر

وأخرى تشكو صدوده ، وتحار فى تعليله ، وأخشى ماتخشاه أن يكون قد علّق أخرى (٤) :

فلست بناس يوم قالت لأربع نواعم غرٌ كلهن لها ترُبُ
ألا ليت شعرى فيم كان صدوده أعلّق أخرى أم على به عتب
وأعجب من هذا قوله (٥) :

أبصرتها ليلةً ونسوتها يمشين بين المقام والحجر

(١) الأغاني ١ / ٥١ والموشح ٢٠٤ والعمدة ٢ / ٩٩

(٢) العمدة ١ / ١٣٣

(٣) ديوانه ١١٤

(٤) أمالى القالى ٢ / ٤٢

(٥) ديوانه ١٤٥ والأغاني ١ / ٦٩ والموشح ١٦٣

قالت لترب لها ملاطفة: لتُفسدَنَّ الطواف في عمر
 قومي تصدئ له ليعرفنا ثم اغمزيه يأخت في خضر
 قالت لها : قد غمزته فأبى ثم اسبطرت تشدد في أثرى

ولهذه الصورة دلالة خاصة ، لأنها لاتعبر — كسابقاتها — عن هيام هذه المرأة
 بحب عمر ، بقدر ماتدل على معاينة النساء له ، ورغبتين في لفت نظره إليهن ، ليعرفهن ،
 والمأمول بعد ذلك أن يتحدث عنهن في غزله ، وهذا مايرضيهن منه ، حتى لو أدت هذه
 المعاينة إلى إفساد طوافهن .

وملاحظ آخر ، هو أن هذه المعاينة كانت من جماعة ، لامن واحدة منفردة ، وهى كذلك
 غالبا في غزله ، مما يؤيد ماسبق أن قلناه ، من أن الأمر في غزل عمر ليس أمر حب
 وعشق ، بقدر ماهو تعبير عن رغبة المرأة الحضرية في الأخذ بنصيها من النقلة الحضارية
 الجديدة ، وممارسة الحرية التى أتاحت لها في الاتصال بعالم الرجال ، عن طريق الحياة
 الفنية في هذا العصر ، مع الاحتفاظ كذلك بتقاليدها في الصون والعفة والمحافظة .

وكان ابن أبى ربيعة أسبق من بعض معاصريه في فهم هذه الروح الجديدة عند
 نساء الطبقة الممتازة ، اللاتى يدور غزله حولهن ، لایتجاوزهن ، وهى طبقة جمعت من
 عراقه الأصل ، وثراء المال ، ورقة الذوق ، وترف الحياة ، مثل ماجمع عمر ، من أمثال
 سُكينة بنت الحسين ، وعائشة بنت طلحة ، والثريا بنت عبد الله من بنى أمية الأصغر ،
 وفاطمة بنت عبد الملك بن مروان ، وزينت بنت موسى الجمحية ، وهند بنت الحارث
 المُرئية ، وابنة لمروان بن الحكم ... وغيرهن من المنتسبات إلى كبار البيوتات ، اللاتى
 تطلعن إلى إبراز مكانتهن في مجتمعهن بالاتصال بالحركة الفنية فيه ، عن طريق أعلامها
 من الشعراء والمغنين والموسيقين ، دون خوف من اتهامهن بريية ، وهن يتمين إلى هذه
 البيوتات ، ويعطين حق العفة والدين ، ويعطين مع ذلك حق النعمة والحضارة والجمال .

لم يفهم بعض معاصرى عمر هذا ، فأخذوا عليه انحراف غزله ، عن مألوف الغزل
 كذا فعل ابن أبى عتيق ، في تعليقه على الصورة التى يقول فيها عمر :

قالت الصغرى وقد تيمتها قد عرفناه وهل يخفى القمر ...

وكذا فعل كثيرٌ عزة الشاعر حين وقف على الصورة الغزلية التى نتحدث عنها ،

فقد قال لعمر في مجلس ضمهما : يأخا قريش ، والله لقد قلت فأحسنيت في كثير من شعرك ، ولكنك تخطيء الطريق ، تشيب بالمرأة ، ثم تدعها ، وتشيب بنفسك ، والله لو وصفت بهذا هرة أهلك ، كنت قد أسأت صفتها ، أهكذا يقال للمرأة؟! إنما توصف بالخنفر ، وأنها مطلوبة ممتعة ^(١) .

فكثيرٌ يرى في قول عمر هذا خروجاً على طريقة العرب في النسب ، « والعادة عند العرب أن الشاعر هو المتغزل المتماوت ، وعادة العجم أن يجعلوا المرأة هي الطالبة ، والراغبة المخاطبة » ^(٢) ، فهذا أنسب لما هو معروف عند العرب من استقامة الطبع ، وغيرتهم على الحرم ، أما هذا الذى يفعله عمر في غزله ، فليس على سنن العرب ، بل أشبه بفعل العجم مع نسائهم .

وهذه صورة أخرى فيها لون آخر من كلف النساء بعمر ، فيها الإعراب عن الود الخالص ، وفيها التصدى بالإشارة ، والسلام ، وفيها مافى سابقتها من الدلالة على الرغبة في إثارة انتباهه ، ولفت نظره ، نراها في قوله ^(٣) :

تصابى القلبُ واذكرا صباه ولم يكن ظهراً
لزينب إذ تُجدُّ لنا صفاء لم يكن كدراً
أليسْتُ بالتى قالت لمولاة لها ظُهُـرا
أشيري بالسلام له إذا هو نخونا نظرا

وهاهى ذى صاحبة أخرى تقسم ليلة الرحيل ، وتردد القسم ، على أنها تحبه أكثر مما يحبها ، وأنها لو خُيرت ما اختارت دونه أحداً من الناس خلا وجيبيا ، يحكى هذا عمر في قوله ^(٤) :

ألمنم بزینب إن البین قد أفدا
قد حلفت ليلة الصورين جاهدة
قلّ الثواء لئن كان الرحيل غدا
وما على المرء إلا الحلف مجتهدا

(١) الموشح ١٦٣ وانظر العمدة ٢ / ١٠٠

(٢) العمدة ٢ / ١٠٠

(٣) ديوانه ٤٩٢

(٤) ديوانه ١ / ٤٥

لأختها ولأخرى من مناصفها لقد وجذت به فوق الذى وجدا
لو جمع الناس ثم اختير صفوهم شخصاً من الناس لم أعدل به أحدا
فأين عمر فى كل هذه الصور ؟ وما مشاعره نحو هؤلاء النسوة ، اللاتى يهمن به
وجدا ، مابين باكية ، وشاكية ، ومشتاقة ، وعاتبة ، ومراسلة ، وغامزة ، ومسلمة ؟
لايعنيه فى كل ذلك أن نعرف عواطفه نحوهن ، بل ربما كان يعينه أن يوحى بأنه
لايالى بهن ، وحسبه أن يؤدى ، من خلال هذه الصور جميعاً أن النساء كن به كلفات ،
متيمات ، قد أقرح الحب قلوبهن ، يتابعنه بالسلام والغمز والإشارات ، وهو يدل عليهن .
وهذا مما لفت أنظار النقاد فى عصره ، ومن بعد عصره ، فاختلفوا فيه ، مابين
معجب بركة نسييه ، وحلاوة كلامه كجميل بثينه ، الذى يقول عن قول عمر :
فلما تلاقينا عرفت الذى بها كمثل الذى بى حذوك النعل بالنعل
فقلت وأرخت جانب الستر إنما معى فتكلم غير ذى رقة أهلى
فقلت لها ماى لهم من ترقب ولكن سرى ليس يحمله مثلى
« هذا والله الذى أرادته الشعراء فأخطأته ، وتعللت بوصف الديار ^(١) » .

وعاتب زار عليه ، لانحرافه بالغزل عن أصوله وقواعده عند العرب ، فكان المفضل
الضبى يعيب شعره من أجل هذا ، ويقول : « إنه لم يرق كما رق الشعراء ، لأنه ماشكا قط
من حبيب هجراً ، ولا تألم لصد ، وأكثر أوصافه لنفسه ، وتشبيبه بها ، وأن أحبابه يجدون
به ، أكثر مما يجد بهم ، ويتحسرون عليه ، أكثر مما يتحسر عليهم » .

اتضح هذا الاتجاه إذن فى غزل ابن أبى ربيعة ، وبدا فيه عمر — كما يقول الدكتور
شوق ضيف ^(٢) — هو المتبوع لا التابع ، وهو المطلوب لا الطالب ، وهو المعشوق لا
العاشق ، فالنساء يفتن به ، ويتصدى لهن ، وينتهزن كل فرصة للقاءه ، ويشرن له باليد
حيناً ، وبالعين حيناً ، وهو فى كل ذلك لايعنى ، ولايلتفت ، دلاً وتيهاً ، وإعجاباً بنفسه
وجماله ... » .

(١) الشعر والشعراء ٢١٧

(٢) التطور والتجديد ٢٥٠

وكل هذه حقائق في شعر عمر لاسييل إلى إنكارها ، يؤيدها ما قدمناه من شعره ، وكثير غيره يضمه ديوانه .

وأما أن عمر كان معجبا بنفسه ، فنعم .

ولم لا يعجب بنفسه ، وهو الشاب الوسيم ، الموصوف بين شباب بنى مخزوم بأنه أفرعهم طولا ، وأجهرهم جمالا ، وأبهرهم شارة ، وعارضة ، وبيانا ، وأنقهم زيا ومظهرا ؟ كان إذا فرغ من المناسك في موسم الحج يخرج من إحرامه ، فيلبس الخلل ، ويركب النجائب ، الخضوبة بالحناء ، عليها الطنافس والديباج ، ويسبل لثته ، ثم يخرج ، عارضا وسامته وأبهته على النساء من حجازيات وغير حجازيات .

وهو فوق ذلك وافر الثراء ، يعينه يساره على التفرغ للهو ، والتصدى للحسن ، وملاحقتن ، والتشبيب بهن ، بينما كان الشعراء الغزليين من طبقته ، لهم ما يشغلهم عن التفرغ للغزل ، فقد كان الحارث بن خالد واليا لمكة ، وكان العرجى يخرج للجهاد في أرض الروم ، وابن قيس الرقيات ، مهتما بالسياسة .

وفوق هذا وذاك ، هو الشاعر المرموق ، الذائع الصيت ، يجرى شعره على كل لسان ، وفي كل مجلس ، حتى ليقترح على الزهاد والعلماء مساجدهم ، وحلقات دروسهم — كما رأينا — ويتهافت المغنون والمغنيات على طلب شعره ، ليحيلوه إلى ألحان ، يرددونها صباح مساء .

بهذا وغيره غدا عمر بن أبي ربيعة نجما متألقا في سماء مجتمعه ، وطارت شهرته إلى أقاليم الدولة الإسلامية ، في العراق والشام وغيرها ، وعرف عنه في كل هذه البيئات ، أنه شاعر « يلهو ما يلهو ، ويتغزل ما يتغزل ، ثم لا ينسى أن يعلن مع هذا جاهدا أنه لا يستبيح محرما ، ولا يأتي برية ، ولا يزال على سنة الشعراء الذين يقولون مالا يفعلون » (١) .

وكان طبيعيا أن تقبل عليه ظريفات المجالس ، اللائى يدور الحديث عليهن ومنهن في عصره ، وكلهن من بنات الطبقة الاجتماعية المنعمة اللاهية بمجالس السمر ، ومساجلات الغزل ، وكلهن من الراغبات في إظهار الفخر بجمالهن ، وأن يعرف الناس

أنهنَّ جميلات ، شأن النساء عادة ، وعمر وشعر عمر أقرب وسائلهن المتاحة للإعلان عن هذا الجمال والفوز بالشهرة في دنيا الملاحة ، ثم إنها وسيلة مأمونة العاقبة ، فعمر شاعر يقول ولا يحقق ، ويعرف لبنات طبقة حقهن من الصون ، وعدم التعرض لألسنة السوء .

كثرت النساء حول عمر ، وكل منهن حريصة على التودد إليه ، واحتلال مكان بارز من شعره الغزل ، ويخيل إلينا أن كثيرا من هؤلاء كن يتصددين له عن عمد ، ويشجعنه على التعزل بهن ، إرضاءً لغروهن ، وتنويها بجمالهن ، وحبا للتحدث بأخبارهن ، فمما يذكر أن عمر لما شبب بفاطمة بنت عبد الملك بن مروان ، في قوله (١) :

افعللى بالأسير إحدى ثلاثٍ وافهمهم ثم رُدِّي جوائى
اقتليه قتلا سريحا مريحا لا تكونى عليه سوط عذاب
أو أقيدى فأئما النفس بالنف حس قضاء مفصلاً فى الكتاب
أوصليه وصلاً تقرُّ به العي ن وشر الوصال وصل الكذاب

أعطت الذى جاءها بالأبيات لكل بيت عشرة دنانير .

ولم يقتصر الأمر على حسناوات الحجاز ، بل كان من بين القادِمات فى موسم الحج من خارج الحجاز ، من يفعلن هذا أيضا ، إذ كان يرضيهن أن يرجعن إلى بلادهن ، بأبيات يرويهن الركبان ، ويفهم منها الأتراب المنافسات أنهن ذهبن إلى الحجاز ، فخلبن ألباب رجاله ، وأطلقن ألسنة شعرائه ، وصرفنهم عن الغزل بحسانه ، وقل فى الحسان من ليست تغتر بمثل هذا الغرور فى زمان عمر ، وفى كل زمان (٢) .

حق لعمر إذن أن يعجب بنفسه ، ولكنه ليس الإعجاب الشاذ ، المنبى عن اختلال فى تكوينه النفسى ، أو المؤدى إلى التركيز على الذات ، والهيام بها (الترجسية) ، فما عرف عنه هذا الشذوذ فى سلوكه ، ولا تحدث أحد من معاصريه ، ممن أعجب بغزله وشخصيته ، أو ممن ازور به وبها بما يفيد اختلالا فى تكوينه النفسى ، ولا ينهض شعره أيضا ليدل على شىء من هذا ، فكل شاعر يُتاح له ما يُتيح لعمر من شهرة ، وحظ فى عالم

(١) الشعر والشعراء ٢١٧

(٢) شاعر الغزل (العقاد) ٥٠

النساء ، لن يجد بأساً من أن يتحدث عن نفسه ، ويزهو بكثرة علاقاته ، ويحطونه عند المرأة ، كما تحدث عمر ، وقد يصطنع المبالغة والتحويل والاختراع في كل هذا ، كما اصطنع عمر ، ولايتهم مع ذلك بالشذوذ النفسى أو العاطفى ، وهل كانت مشيخة قريش تعجب بشعره ، ولا تعدل به شعرا قط ، وهى تعرف أن هذا الشعر ثمرة شذوذ واختلال ؟

وشاعر هذا شأنه من الطبيعى أن يكون من بين النساء المزدحمات حوله من تحبه حقاً ، فالمرأة لا تختلف عن الرجل في الميول ، وبخاصة في شئون الحب ، وقد تكون البائدة فيه ، وإن تلكأت أحيانا في إظهاره ، ومن هنا ، فكما كان عمر ينشد الجمال ويسعى إلى المرأة ، كانت هناك — ولاشك — نساء يحببته قبل أن يعرف بأمرهن ، بل كان منهن من تسعى إلى الاتصال به ، وتظهر الرغبة في التحدث إليه ، والتمتع بمجلسه ، فكن بهذا أسبق منه في الشعور بهذه العاطفة ، وأحيانا في إظهارها ، وكان هذا من أسباب حديثه عن نفسه ، والتغزل بها ، ولكنه صرح من ناحية أخرى حين سمع أن بعضهن يتشوقن للقاءه ، ويرغبن في التحدث إليه ، أنه كان أكثر منهن شوقاً ورغبة فقال بيته السابق :

وقرن أسباب الهوى لمتيم يقيس ذراعاً كلما قسن إصبعا

من هذا نستطيع أن نفهم أن عمر لم يكن شاذاً في هذه الصورة التى قدمها للمرأة عاشقة كما ظن بعض الباحثين ، الذين تتفق معهم في وصف هذه الصورة في شعره ، ونخالفهم في تحليلها ، فقد كان من بين نساء عصره من أحببته حقاً ، ومن أعجب به حقاً ومن توددن إليه كثيراً .

على أن صورة المرأة العاشقة في غزل عمر ، لم تكن دائماً خالية من المشاركة العاطفية بينه وبين المرأة التى تهواه ، فما هذه الصورة — مهما كثرت نماذجها — إلا جانب من جوانب شعره الغزل ، وفي بعض نماذجه الأخرى ما يدل على أنه كان يتشوق للمرأة ويتودد إليها ، ويشكو أحيانا من صدها ، وسنعالج هذا الشعر عند دراسة صورة الرجل في غزل حضر الحجاز .

كما أن في بعض نماذجه ، التى يتحدث فيها عن فتنة النساء به ، ما يدل على أن الحب عنده عاطفة مشتركة ، وإعجاب متبادل ، فكلماً أفصحت له صاحبتة عن حبها ، أفصح هو عن حب لا يقل حرارة وإخلاصاً .

من ذلك قوله (١) :

بنفسى من اشتكى حبه ومن إن تسخط أعتبه
ومن لا أبالى رضا غيره ومن لا يطيع بنا أهله
ومن لا يطيع بنا أهله ومن قد عصيت له أقربى ...
وقوله : (٢) :

بنفسى من شفى حبه ومن حبه باطن ظاهر
ومن لست أصبر عن ذكره ولا هو عن ذكرنا صابر
ومن إذ ذكرنا جرى دمه ودمنى لذكرى له مائر
ومن أعرف الود فى وجهه ويعرف ودى له الناظر

حتى فى موقف العتاب ، الذى يتحدث فيه عن نفسه ، على لسان المرأة العاتبة ،
سرعان مايكشف عن وجده بها ، كما تجد به (٣) :

أرسلت هند إلينا رسولا عاتبا أن مالنا لانراكا ؟
فيم قد أجمعت عنا صدودا أردت الصرم أم ماعداكا ؟
إن تكن حاولت غيظى بهجرى فلقد أدركت ماقد كفاكا
قلت : مهما تجدى بى فإنى أظهر الود لكم فوق ذاك

وهكذا نرى عمر مثالا لغيره من الشباب الذين همىء لهم ماهىء له ، والذين
يجبون حبا صادقا أحيانا ، ويلهون بالحب ، لهوا بريئا أحيانا أخرى ، ثم يتحدثون عن ذلك
كله فيما بينهم ، أو يصورونه شعرا إذا كانوا شعراء كعمر ، ممثلين بهذا طبيعة الحياة فى
مجتمع حضرى .

بقيت تهمة الأنثوية التى فسر بها الأستاذ العقاد صورة المرأة العاشقة فى غزل

(١) ديوانه ٦٢ . أعتبه : أزال سبب عتابه ، وكذ يُعتب .

(٢) ديوانه ١٣٨ . مائر : غزير جار .

(٣) ديوانه ٢٨٣

عمر ؛ لأنه حكى لغة الأنثى فى هذه الصورة ، وذهب مذهب النساء فى معانيه وأسلوبه .

والحق أن عمر برىء من هذه الوصمة ، براءته من دعوى الشذوذ النفسى والعاطفى ، فليس به أنوثة ولاخنوثة ، ولكنه شاعر فنان ، يعرى حق الفن فيما يختار من أساليب الأداء ، ومادام قد أجرى الشعر على لسان النساء ، وأعارهن موهبته فى التعبير الفنى عن المشاعر ، ليكشفن عن مكنون صدورهن ، فمقتضى الإخلاص الفنى أن تكون لغة هذا الشعر لغة أنثوية ، لينة رقيقة ، تمتاح من القاموس اللغوى لمجتمع النساء ، وإنه ليعاب لوأنطق النساء بلغة الرجال الصارمة ، التى يلاحظ الأستاذ العقاد خلوه هذا الشعر منها .

آية هذا كله أننا ينبغي أن لانتهم عمر فى صحته النفسية ، ومزاجه العاطفى ، واستواء رجولته ، إذا مادعته دواعى الفن ، ووجهته خبرته الشخصية ، إلى تصوير بعض نساء عصره عاشقات ، هو موضوع عشقهن ، وإلا لاتهمنا تلميذه العرجى بمثل ذلك ، وهو الرجل الذى أسهم بجهاده فى الدفاع عن ثغور الدولة الإسلامية .

ففى بعض شعره مايشبه هذا الاتجاه عند أستاذه ، حيث يصوره عاشقا معشوقا ، من خلال الأسلوب الذى استخدمه عمر ، أسلوب الحوار .

من ذلك قوله (١) :

وماأنس مِلاَشيءَ لَأُنْسَ مَوْقِفاً لَنَاوِلَهَا بِالسَّفْحِ دُونَ ثَبِيرٍ
وَلَا قَوْلَهَا — وَهَنَاءَ — وَقَدْ بَلَ جَبِيهَا سَوَابِقُ دَمْعٍ لَا يَجِفُ غَزِيرٍ
أَأَنْتِ الذِّى خَبِرْتِ أَنَّكَ بَاكِرٌ غَدَاةُ غَدٍ أَوْ رَا حَلٌّ بِهِجِيرٍ
فَقُلْتُ : يَسِيرٌ بَعْضُ شَهْرِ أَغْيِيهِ وَمَا بَعْضُ يَوْمٍ غَبْتُهُ بَيْسِيرٍ

وبعد ، فمن أجل هذا الغزل الرقيق الحضرى فى شعر عمر بن أبى ربيعة ، كان أكثر القدماء ، من الشعراء والنقاد والعلماء بالشعر مجمعين ، أو كالمجمعين ، على إكبار عمر

بن أنى ربيعة ، وتقديمه ^(١) يقول ابن أبى عتيق : « فلشعر عمر لوطّة في القلب ، وعلق بالنفس ، ودرك للحاجة مالميس لشعر غيره ^(٢) » .

٥ — ولايهمل الغزل الحضرى الحجازى الجانب الحسى من صورة المرأة ، ولا نعنى بالحسية هنا ماهو مقابل للعواطف المجردة ، والتوحيد — نعنى الاقتصار على امرأة واحدة في غزل الشاعر — عند العذريين ، وإلا كان غزل حضر الحجاز في العصر الأموى حسيا خالصا كله ، إذ ليس فيه هذا التجريد في العاطفة والتسامى بها ، ولا اقتصار الشاعر على حب امرأة واحدة والتغزل فيها .

وإنما نعنى بالحسية ، الوصف المفصل للجمال الجسدى للمرأة ، مقتربا بإظهار الرغبة — أو الإيحاء بها — في الاستمتاع به .

والصورة الحسية بهذا المعنى هيئة الخطر في غزل حضر الحجاز ؛ إذ لم يتجاوز الشعراء فيها — على قلة عنايتهم به — الصفات الجسدية لثموج الجمال المثالى لمفاتن جسد المرأة ، التى خلعتها الشعراء الجاهليون من قبلهم على المرأة التى تغزلوا بها .

ولذا نجد هذه الصورة تكاد تتحد في وصف النساء جميعا عند هؤلاء الشعراء ، فمقاييس جمال الفم ، وريقه ، والشعر ولونه وبريقه ، والقَدّ وليونته واعتداله ، والخصر وضموه ، والردين وامتلائهما واستدارتهما ، والعيون واتساعها وفتورها إلى غير ذلك من مكونات الجمال في المرأة ، كلها واحدة ، أو متشابهة ، مما يخيل إلينا أن الشعراء ، كانوا يستعيرون عيون آبائهم وأجدادهم من الشعراء الجاهليين ، ولا ينظر الواحد منهم بعينه إلى صاحبة بعينها ، ليدرك ملامح جمالها المتفرد ، ويرسم له التشابه والصور المناسبة له .

فكل امرأة في هذا الغزل تسفر عن وجه كالقمر ، أو الشمس ، أو الصبح ، وتطل بعينى المها أو الجؤذر ، وكل فم حلو الرضاب كالشهد المذاب ، وكل عجيذة كالكتيب المهيل ، وكل قد كالغض ... إلى آخر هذه التشبيهات المعهودة في غزل سابقهم .

(١) جريدة السياسة العدد (١٧) ديسمبر سنة ١٩٢٤ م (مقال الدكتور طه حسين)

(٢) الموشح ٢١٠

وكأنما كان هذا الوصف تقليدا فنيا ، على الشاعر ألا يهمله ، أو جزءا متما لبناء القصيدة الفنى .

فلننظر — مثلا — فى قول العرجى يصف جمال عينى صاحبتة ، ووجهها ، وساقها ، ولون بشرتها ، ولين جسمها ، واعتدال عودها ، وطراوته وتثنية : ^(١)
 فيهن حوراء لها صورة كالبدر قد قارن بالأسعد
 ممكورة الساقين رعبوبة كالغصن قد مال ولم يُخضد

فعيناها واسعتان سوداوان ، ووجهها مستدير ، استدارة البدر يوم تمامه ، وساقها ممتلئتان ، وبشرتها بيضاء ، وعودها طرى طراوة الغصن المعتدل الغض ، الذى إذا انثنى لا ينكسر لليونته .

ولانجدنا بحاجة إلى وضع نماذج من غزل الجاهليين ، بإزاء هذا النموذج للمقارنة ، ولإثبات أن الآخر يتعقب الأول فى هذه الأوصاف ، حدوك النعل بالنعل ، كما يقولون .

وأبو دهل الجمحى يذهب هذا المذهب التقليدى أيضا فى وصف بعض مظاهر الجمال الجسدى لصاحبتة ، فيقول : ^(٢)

وهى زهراء مثل لؤلؤة العواص ميمرت من جوهر مسنون
 تجعل المسك واللينجوج والنّد صلاء على الكانون

فتشبيه بياض بشره بلون اللؤلؤ المستخرج حديثا من صدفه ، ووصف ماتتطيب به من أنواع الطيب ، منقول نقلا من الشعر الجاهلى .

وحتى عمر الشاعر المستحدث ، حينما التفت — وقلمها فعل — إلى جمال جسد صاحبتة ، أراح ملكته ، فلم يتمتع من بثر عبقريته ، وإنما اغترف من بحر الشعر الجاهلى . ونكتفى من هذا بقوله : ^(٣)

(١) ديوانه ١٢ . الأسعد : الين . ممكورة : ممتلئة . رعبوبة : بيضاء . يخضد : يكسر

(٢) الأغاني ٦ / ١٥٧

(٣) ديوانه ١٢٨ . الوحف : الشعر الأسود الغزير . الوذيلة : المرأة .

قطوف ألوف غيرة وثيرة ماتحت اعتقاد المؤزر
سبته بوخف في العقاص مرجل أثيث كفنوالنخلة المتكور
ونخد أسيل كالوذيلة ناعم متى يره راء يهل ويسخر
وعينى مهاة فى الخميلة مطفل مكحلة تبغى مراداً لجوذر
وتبسم عن غر شتيت بنانه له أشر كالأقحوان المنور... الخ

وأغلب الظن أن عمر فى هذا الوصف قد وضع ديوان امرىء القيس بين يديه ،
ينظر فى غزله الوصفى وينظم ، ولو رويانا من غزل امرىء القيس مايؤيد هذا لأطلنا ،
وأمللنا ، وفى الإحالة معنى (١) .

ويطول بنا القول لو استرسلنا فى الاستشهاد لهذه الصورة الحسية فى غزل شعراء
حضر الحجاز فى العصر الأموى ، وماتعكسه من وصف تقليدى لمحاسن المرأة ، ويكفى
أن نعلم أنهم فى هذه الصورة كانوا عالة على الشعر الجاهلى من ناحية ، مستوفين لتقليد
فنى من ناحية أخرى .

— ٥ —

ثانيا : صورة الرجل فى الغزل الحجازى :

الطابع الغالب على هذه الصورة ، أن يأخذ الشاعر فى تصوير عواطفه نحو المرأة ،
التي يعشقها ، أو يلهو بها ، محلاً من خلال ذلك هذه العواطف ، إذ لم يعد الوصف
الحسى لمفاتن المرأة ، على النحو الذى كان مألوفاً عند الشاعر الجاهلى ، هو مايشغل
كثيرا المحب الغزل فى حضر الحجاز ، فقد أخذ يتجه إلى داخله — إن صح هذا
التعبير — متحدثا عن مشاعر الحب والصبابة ، مصورا معاناته فى حبه وصبابه .

ولا يقدح فى هذا الحب ، وتلك الصبابة مانلاحظه من عدم اقتصار الشاعر على
نموذج نسائى واحد فى كل غزله ، حيث نراه موزع النفس بين عدد من النساء ، لا يكاد
يستقر قلبه على إحداهن ، إلا ريثما تزاحمها فيه من هى أجمل منها ، أو أكثر ظرفا ، أو أملح
دلالا ، أو أطيب حديثا ، أو أرق أحساسا ، فيقضى عمره متنقلا بهواه بين الحسان ،

(١) نجيل على كتابنا : أمراء الشعر فى العصر الجاهلى ١٥٤ — ١٦١

كالفراشة الهائمة بين أزاهير الرياض ، أو كالنحلة المنتقلة بين المروج ، ترتشف من هذه الزهرة وتلك ، باحثا عن ألوان الجمال ، متذوقا صنوفه ، يتصدى لكل ذات حسن وملاحة ؛ ليمتع حاسة الجمال فيه ، إن وجد عندها ما ليس عند غيرها ، أو ليعرف قدر الجمال في صاحبه ، التي ارتضاها قلبه ، أكثر من غيرها وراقت في عينه ، لامتيازها على سواها ، تماما كما فعل عمر بن أبى ربيعة ، وحكاه في قوله : (١) :

خرجتُ غداة التَّحَرُّ أَعْتَرَضُ الدُّمَى فلم أرأحلى منك في العين والقلب
فو الله ماأدرى أحسنأ رُزِقْتِه أم الحب أعمى مثل ما قيل في الحب

وينبغي أن نتأمل قول عمر « أعترض الدمى » لنذكر أن الشاعر إنما يعشق الجمال ، فالنساء عنده ما هن إلا معارض لهذا الجمال ، وحب الجمال لا يمكن أن يقف عند تجربة واحدة ، لأن هذا من سمة الحب ، الذى يسعى إلى تحقيق ذاته مع من يحب ، فلا يبقى له بعد هذا مطلب أو هدف ، وما هكذا عاشق الجمال ، الباحث دائما عن زاد متجدد لتجاربه الفنية في دنيا الجمال ، لا يكاد يسكن إلى واحدة إلا ريثما يقع على غيرها ، وما يمنعه مادامت الفرص متاحة ، وظروف البيئة مساعدة ، ومواسم الحج تأتى إلى مدن الحجاز بالمليحات من كل حذب وصوب فيهن حسان الشام ، وجميلات العراق ، من ذوات البيوتات والشرف ، والصيت الذائع في عالم الملاحة ، ومجالس الغناء ، ومجالى اللهو ، تجتذب النساء كما تجتذب الرجال ، وتفسح لهن مكانا ، كما تفسح للرجال آخر ، والكل آمن فى الأخذ بهذه المتع الفنية المباحة « ومن ثم لم تعد للعلاقات العاطفية هذه الهالة الرومانسية القديمة ، وانفسح الطريق أمام الصلات العابرة ، والمغامرات الطارئة ، التى لا تدوم إلا ريثما يستنفد الشاعر تجارب عمله الفنى (٢) » .

والشاعر المغرم بالجمال يستطيع أن يرضى حسه به ، دون أن يتقيد بأخلاق الوفاء وآداب الحب ، وخصال التضحية والصبر ، والتعذيب النفسى الذى لاعمى له ، عند من يجلس اليوم إلى المرأة ، أو نساء كثيرات مجتمعات ، ويجلس غدا إلى أخرى ، أو إلى كثيرات أخريات .

(١) ديوان المعانى ١ / ٢٢٨ والتذكرة السعدية ٥١٤

(٢) الشعر الأموى (د. فوح) ١٩٢

ولم تكن تجارب شعراء الغزل في حضر الحجاز على ذلك كاذبة دائما ، أو متكلفة ، يعوزها الصدق الفني ، لأننا قد نتشكك في صدق هذه التجارب من الناحية الأخلاقية ، أى من حيث ارتباطها بواقع أخلاقي ، أو عدم ارتباطها ، وقد نرتاب في صدقها التاريخي ، ونعنى به وقوع الأخبار والأحداث التي تحدث بها الشعراء في تجاربهم ، غير أن هذا الشك يغدو فضولا لا موجب له ، إذا كنا نبحث في تجارب هؤلاء الشعراء ، عن صدق الشعور الذي يعبرون عنه ، وصدور ذلك الشعور عن مزاج أصيل ، لا تكلف فيه ، ولا اختلاق ؛ لأن الصدق الشعوري ثابت لهم من ثبوت مزاجهم وفطرتهم ، التي جبلوا عليها ، وهي الفطرة التي جعلتهم يغرمون بالنساء ، والتحدث إليهن ، والتحدث عنهن ، وتمثيل ذلك في تجاربهم الفنية .

وشئ آخر يمكن أن نعلل به الصدق في تجارب الغزل عند شاعر الحجاز الحضري ، هو أنه لم يكن يحب بقله أو بقلبه فقط ، وإنما كان يحب بحسه أيضا ، فما إن يرتوى حسه من لون من ألوان الجمال في المرأة ، حتى يتعلق بغيره ، أو كما يقول الدكتور طه حسين : « لم يكن حسه يطيع قلبه ، فيرى الجمال في عشيقته ، ويميل إليها ، وإنما كان قلبه طوع حسه » ^(١) ، أو هو كما يقول عمر بن أبى ربيعة ^(٢) :

إني امرؤ مولعٌ بالحسن أتبعُه لاحظْ لي فيه إلا لذة النظر

فليس حبه بالحب العذري ، الذي يفرض على صاحبه التعلق بواحدة لا يعدوها إلى غيرها .

أهم ملامح هذه الصورة :

١- بث الأشواق وشكوى الهجر :

كثيرا ما يتجه الشاعر الغزل في حضر الحجاز إلى إبداء عواطفه نحو صاحبتة ، محللا هذه العواطف في بث يكاد يقرب من تجارب العذريين في شكوى الحرمان ، والمعاناة من الوجد ، فتشيع نغمة حزينة بين ثنايا نماذجهم في هذا الضرب من الغزل ، تكاد

(١) جريدة السياسة . العدد (١٧) . ديسمبر ١٩٢٤ م (مقال الدكتور طه حسين) .

(٢) الأغاني ١ / ٦٣

نخدعنا عن طبيعة هذه التجارب ، وتوهمنا أنها لشاعر لايشد من وراء تجربة الحب ، إلا الشعور بلذة أنه يحب ، وأنه مقيم على هذه العواطف والأحاسيس لايتغير ، ولايتحول .

ولنقرأ قول الأحوص فيمن دعاها عبلة (١) :

ألا يا عبلة قد طال اشتياق إليك وشفّنى خوف الفراق
وبت مخامرا أشكو بلائى لما قد غالنى ولما ألاق
كأنى من هواك أخو فراش تَجَلَّجَلُ نفسه بين التراق
حلفت لك الغداة فصدقينى برب البيت والسبع الطباق
لأنت إلى الفؤاد أشدَّ حُبًّا من الصادى إلى الكأس الدهاق

إن الأحوص هنا يرتدى ثوب المحب المخلص ، وإخلاصه ووفائه لصاحبه ، يدفعانه إلى تحمل معاناة هذا الشوق الطويل ، والقلق الممض من خوف الرحيل ، الذى أسقم نفسه وجسمه ، فغدا كالعليل لسكرات الموت ، وهو يتوسل إليها أن تثق بحبه ، وبإخلاصه ووفائه فيه . فهل هو حقا كما يقول ؟

نقرأ قوله فى الوجد بأخرى دعاها أم جعفر لرى : (٢)

وإنى ليدعونى هوى أم جعفر وجاراتها من ساعة فأجيب
هيبنى امرأ إما بريئاً ظلمته وإما مسيئاً مذنباً فيتوب
فلا تتركى نفسى شعاعاً فإنها من الحزن قد كادت إليك تذوب
لك الله إنى واصل ماوصلتنى ومُثْنِ بما أوليتنى ومثيب

هنا يكشف الأحوص عن طبيعة تجربته العاطفية ، وغايتها ، إنها تجربة حسية لاهية فى فلسفتها ، وفى غايتها ، فالهوى ليس وقفا على أم جعفر ، وإنما هو لها ولجاراتها ، والعاطفة تجول فى ميدان الأخذ والعطاء ، إن وصلته صاحبه وصلها وأثنى على هذا الوصال ، وإن أعرضت أعرض ، فهذا هو الاحتمال المقابل وإن لم يذكره ، من باب حذف مايعلم ، فلا نخدع إذن بهذا الاستعطاف الحار فى البيت الثانى ، ولا بهذا الذوبان

(١) الموشح ٢٣١ .

(٢) ديوانه ٧٨ .

من الشوق في البيت الثالث ، بل هما موحيان بالغاية منهما ، وهى تجديد الوصل ، وبه يكون النوال والاستمتاع ، الذى يحرص الشاعر على الإشارة إليه فى قوله بعد هذه الأبيات :

وَأَخَذَ مَا عَاطَيْتِ عَفْوَاً

وفى أم جعفر هذه يقول الأحوص أيضاً (١) :

لَقَدْ مَنَعْتَ مَعْرُوفَهَا أُمُّ جَعْفَرٍ وَإِنِّ لِمَعْرُوفَهَا لِفَقِيرٍ
وَقَدْ أَنْكَرُوا عِنْدَ اعْتِرَافِ زِيَارَتِي وَقَدْ وَغَرْتُ فِيهَا عَلَى صَدُورِ
أَزُورٍ وَلَوْلَا أَن أَرَى أُمَّ جَعْفَرٍ بِأَبْيَاتِكُمْ مَادَرْتَ حَيْثُ أَدُورِ
أَزُورِ عَلَى أَن لَيْسَ يَنْفُكَ كَلِمَا أَتَيْتِ عَدُوَّ بِالْبَنَانِ يَشِيرُ
وَمَا كُنْتُ زَوَّاراً وَلَكِنْ ذَا الْهُوَى إِذَا لَمْ يَزِرْ لَابِدَ أَن سِيْزُرُوْ

إنه يقرب من سمات العذرين فى البيت الثالث ، الذى يوهم بأنه مكتف بمجرد رؤيا صاحبه ، ولو عن بعد ، بل قد تكفية رؤيا ديارها ، ولذا فهو يدور حولها ، لأنها ديارها ، ولأنه قد تسنح له فرصة رؤياها ، والأمر كله أنه محتاج لمعروف أم جعفر ، هذه هى الغاية ، التى من أجلها يدور حول الديار ، مغامراً مهدداً من الأعداء الذى يشيرون إليه كلما زار ديارها ، فالمغامرة هنا محسوبة بحيث تفضى إلى إدراك الغاية منها ، وهى تحصيل مطعم ، أو إشباع رغبة ، وإلا فهى مغامرة خاسرة ، قد يعدل عنها الشاعر ، الذى لا يصبر على هذا الأسلوب ، ولا يكتفى به ، فهو ليس من غواة الزيارة ، والدوران حول الديار ، ولكنه ذو هوى ومأرب يدفعه إلى الزيارة غداً إن لم يزر اليوم ، كما يصرح فى البيت الأخير .

أما إن استيأس من بلوغ مأربه ، فإنه لن يصبر على الحرمان ، وفى التحول إلى غيرها مستراح ومغنم .

بهذا يهدد الأحوص فى قوله : (٢)

(١) الموشح ١٦٣ .

(٢) المصدر نفسه .

فإن تصلى أصلك وإن تبينى بصُرمك قبل وصلك لأبألى
وإنى للمودة ذو حفاظ أوأصل من يَهْشُ إلى وصالى
وأقطع حبل كل ذى ملق كذوب سريع فى الخطوب إلى انتقال

أردنا بهذا الإبانة عن أن ذهاب الشاعر الحضرى الحجازى إلى بث العواطف ، وتحليل المشاعر ، وإكسابها سمة المعاناة من الحرمان ، والشكوى من الهجر ، لايسلك تجاربه الغزلة فى نظام التجارب العذرية ، كما ارتأى بعض الباحثين المحدثين ^(١) .

وهذا رأى استقيناها من تجاربه التى قدمناها ، وغيرها مما يضمه شعره ، غير متأثرين بسيرة الأحوص ، وما قيل فيها من نسبته إلى الفجور ، والتهاك على اللذات ، والاستهتار بقيم الدين والمروءة ^(٢) ، فنحن لانتظر فى تجاربه بمقياس أخلاقى ، ولانستنطقها للاستدلال على خلقه ودينه ، فهذا الصدق الأخلاقى لايشغلنا هنا ، وإنما مجال الدراسة ومقامها الصدق الفنى ، وقد أثبتناه للأحوص وأصحابه الغزلين الحضريين الحجازيين فى صدر هذا البحث .

وماقلناه عن تجارب الأحوص ، المصورة لجانب من صورة الرجل العاشق فى هذا الغزل ، من حيث إبرازه شاكيا ، ملتاعا ، يعانى من الهجر ، ويتوسل فى طلب الوصل ، ومن حيث ميل هذه الصورة إلى تحليل العواطف ، وصبغ قصة الحب بطابع غير سعيد ، كل هذا نراه فى نماذج من غزل زملائه ، شعراء حضر الحجاز .

فعمر بن أبى ربيعة الذى رأيناه مزهوا بحظوته لدى النساء ، مصورا نفسه فى صورة المعشوق ، نراه هنا عاشقا ، يشكو حرقة الجوى ، ولوعة الفراق ، وجراح القلب ، يفرح باللقاء ، ويشقى بالهجر ، لايفتأ متوسلا إلى صاحبتة أن تجود عليه بالوصال ، بحيث تأخذ تجاربه طابعا من البث العاطفى الحار ، يقرها هى الأخرى من تجارب العذريين ، وتكاد تختلط بها .

من ذلك قوله : ^(٣)

(١) هو الدكتور عبد القادر القط فى كتابه : فى الشعر الإسلامى والأموى ٢٦ — ٢١١

(٢) راجع تفصيل هذه السيرة فى : حديث الأربعاء ١ / ٢٦٦ — ٢٧٠

(٣) ديوانه ١٥٨

ألا ياهند قد زودت قلبي جوى حزنٍ تضمنه الضمير
إذا ماغبت كاد إليك قلبي فدتك النفس من شوق يطير
يطول اليوم فيه لأراكم ويومى عند رؤيتكم قصير
وقد أقرحت بالهجران قلبي وهجرُك فاعلمى أمرٌ كبير
فديتك أطلقى حبلى وجودى فإن الله ذو عفوٍ غفور

هذه الآلام التى يكتمها عمر من هجر هند ، وقلبه الذى يكاد يطير شوقاً إليها ،
أو الذى أثخن بجراح هجرها ، وهذا التوسل الحار ، والاستعطاف الذليل ، هو من
سمات المحب العذرى ، الذى يقصر عواطفه على واحدة ، لا يرى للأيام ، ولا للحياة معنى
إلا فى قربها .

وقد عرفنا من قبل أن عمر وزملاءه كانوا يتطلعون إلى حياة عاطفية ، لا تتجرد فيها
عواطفهم تجرد العذرين ، ولا تلتصق بالمادية الحسية ، التصادق الحسيين من شعراء الغزل
الجاهليين ، وأنهم يلهون بالحب أحيانا ، ولكنهم قد يكتوون بناره أحيانا أخرى ، إذ لا يجب
أن ننسى أنهم كانوا يعيشون فى بيئة تحرص على تقاليد الصون من ناحية ، وتأخذ بالمباح
من متع الحضارة من ناحية أخرى ، وفى مثل هذه البيئة الوسط ، قد توجد صور من
الانفصالية بين مجتمع المرأة ، ومجتمع الرجل ، وقد يعلق قلب الشاعر بواحدة ممن لا تزال
هذه الانفصالية متحكمة فى تقاليد أسرتها ، فيعانى مثل هذه المعاناة التى تصورها
التجارب السابقة ، ويكون الفارق بين شعراء الغزل الحجازى ، والعذرين ، مرجعه قدرة
الأولين على التحول بعواطفهم من امرأة صعبة المنال ، إلى أخرى وصلها أيسر وأهون ،
وهنا تقدم لهم البيئة العديد من نماذج هذه المرأة .

هذا التفسير يصلح أن يكون أحد وسائلنا فى تفسير مانجد من صورة العاشق
الحضرى الحجازى ، التى تقرب من صورة العاشق العذرى .

نستطيع أن نفسر مانجده فيها من وجد يباعد ما بين جفنيه ، فيقضى الليالى فى
سهل مهموم ، وبكاء موصول ، فالحبيب هاجر ، والقلب عالق ، والعذل لا يفيد ، وما من
سبيل له إلى التسلى إلا أن يبكى ، ويستبكى .

وهذه حال من أحوال عمر بن ربيعة ، يثبها فى قوله ^(١) :

(١) الكامل للمبرد ٢ / ١٨٠ . التعريس : نزول المسافرين فى آخر الليل للراحة . استقلوا : ارتحلوا .

عتيق : هو بن أبى عتيق صديقه .

ليت شعري هل أقولنّ لركب طالما عرّسْتُم فاستقلّوا
 بفلانة هم لديها هجوع حان من نجم الثريا طلوع
 إن همي قد نفى النوم عنى وحديث النفس شيء ولوع
 قال فيها عتيق مقالا فجرث مما يقول الدموع
 قال لى : ودّع سليمى ودّعها فأجاب القلب لأستطيع
 لاتلمنى فى اشتياق إليها وابك لى مما تحن الضلوع

فتمرد القلب على السلوى ، هو من أخص خصائص الحب العذرى ، والقطعة كلها كما نرى ، صورة من الهوى العذرى ، ومن التصريح بالعجز واليأس المعروفين فى غزل العذريين ، غير أننا على يقين من أن عمر قد تسلى عن هذه اللوعة ، حينما تحول بهواه إلى أخرى غير سُلّيمى هذه .

ونستكمل هذه الصورة الملتاعة فى شعر عمر ، بهذا النموذج الأخير ، الذى يمكن أن نعدّه أقرب نماذجه فى الباب اقتربا من روح العذريين ^(١) :

أعبدة ماينسى مودتك القلب ولاهو يسليه رخاء ولا كرب
 ولاقول واش كاشح ذى عداوة ولابعد دار إن نأيت ولاقرب
 وماذاك من نغمى لديك أصابها ولكن حباً مايقاربه حب
 فإن تقبلى ياعبد توبة تائب يتب ثم لايجاد له أبدا ذنب
 أذل لكم ياعبد فيما هويتم وإنى إذا مارامنى غيركم صعب
 وأعدّل نفسى فى الهوى فتعقنى ويأصرنى قلب بكم كلف صب
 وفى الصبر عمن لا يواتيك راحة ولكنه لأصبر عندى ولا لب

إن عمر فى هذه الأبيات يفوق بعض العذريين فى إظهار الوجد ، ولذعة الجوى ، والعجز اليأس عن الصبر ، فهل معنى هذا أن عمر كان عذرى الهوى ؟ ما إلى هذا قصدنا ، ولا على هذا نستدل بهذه الصورة من شعره ، وإلا تناقضنا مع أنفسنا بين ما هنا ، وما رأيناه من غزله المعبر عن ميله إلى التنقل بهواه ، وكل ما عنيناه أن عمر شاعر فنان مخلص لفنه ، ولذا فهو يعكس فى شعره هنا وهناك صورة متكاملة لمجتمعه ، الذى كان يعيش نقلة حضارية خطيرة ، تجمع بين صرامة البداوة ، وتسامح الحضارة ، وهى نقلة

(١) ديوانه ٦٤ . بأصرنى : يعطفنى .

أحدثت نوعاً من التذبذب والحيرة بين مقتضيات الماضي ، ونوازع الحاضر .

ومن أبرز ما يعكس هذا الجانب الصارم من وجه الحياة الحجازية في حضر الحجاز الأموى ، نموذج للأحوص ، يصور تجربة تحكمت فيها التقاليد الحادة للحياة العربية في طورها آنذاك .

فهو يهوى أختاً لزوجته ، ولكنه مضطر إلى أن يكتم هذا الهوى ، ويحذر الحذر كله من أن يبدو ما يكشف سره ، فلا هو بمستطيع أن يكشفها بما يجد من هذا الحب ، ولا هو بمستطيع صبراً على هذه الحال .

ولكنه شاعر والشاعر يجد في القريض متنفساً لهواه ، فلينسب بها ، دون تصريح باسمها ، وليكن عنه بما شاء من الأسماء ، وحدث أن تزوجت حبيبته الغافلة ، فصعد زواجها قلبه ، وتخلّى عن حذره ، وكاد يدفعه اليأس من وصلها إلى الجنون ، فبكى الحرمان والهجر ، وتغنى بلذعة الشوق ، وصرعة الذكرى ، ثم أعلنها ثورة ناقمة حاكمة على الزوج المحظوظ ، وعلى الأهل الذين سمحوا بزواجها منه ، داعياً عليه وعليهم ، صارخاً ببطلان هذا الزواج ، مهدداً الزوج بالويل والثبور إن لم يطلق حبيبته : (١)

أَنَّ نَادَى هَدِيلاً ذَاتَ فَلَجٍ	مَعَ الْإِشْرَاقِ فِي فَنَنِ حَمَامٍ
ظَلَلْتُ كَأَنَّ دَمْعَكَ دُرٌّ سِلْكٍ	هَوَى نَسَقاً وَأَسْلَمَهُ النِّظَامُ
تَمَوْتُ مِنْ تَذَكُّرِ أُمِّ حَفْصٍ	وَجَلَّ وَصَالَهَا خَلَقَ رِمَامٍ
صَرِيحُ مُدَامَةٍ غَلَبَتْ عَلَيْهِ	تَمَوْتُ لَهَا الْمَفَاصِلَ وَالْعِظَامُ
وَأَتَى مِنْ دِيَارِكَ أُمِّ حَفْصٍ	سَقَى بِلْدًا تَحُلُّ بِهِ الْغَمَامُ
أَحْلُ النَّعْفَ مِنْ أَحَدٍ وَأَدْنَى	مَسَاكِنِ الشَّيْبَةِ أَوْ سِنَامٍ

(١) ابن سلام ٦٦٦ - ٦٦٨ وتزين الأسواق . ٣٠ وأمالى الزجاجى ٨٠ . الهدىل : تزعم العرب أنه فرخ كان على عهد نوح عليه السلام فمات ضيعة وعطشا ، فما من حمامة إلا وهى تبكى عليه وتناديه . مستهام : استهلكه الهيام ، فذهب على وجهه عشقا ووجدأ . خلق : بال . رمام : متقطع ، جمع رمة ، وأصلها مابقى من الحبل بعد تقطعه . النعف : ما ارتفع عن مجرى السيل فى الوادى . الشبيكة : من منازل حاج البصرة . سنم : جبل بين البصرة والإمامة . مطر : اسم زوج حبيبة الشاعر .

سلام الله يامطرٌ عليها وليس عليك يامطرُ السلام
ولاغفر الإله لمنكحها ذنوبهم وإن صلوا وصاموا
فإن يكن النكاح أحلَّ شيء فإن نكاحها مطرٌ حرام
فطلّقها فليست لها بكفٍ ولاشق مفـرقك الحسام

هذه النعمة الحزينة الشاكية ، نجدها أيضا في شعر عبد الرحمن بن حسان بن ثابت ، الذى يكاد قلبه يذوب وجدا وصباة ، ويضطرب اضطرابا شديدا ، كلما تذكر صاحبه التى فارقته ، ويملك الهم عليه أقطار نفسه ، يضيق بالدنيا ، وتضيق الدنيا في وجهه (١) :

كأن فؤادى في مغالب طائر إذا ذكرتكَ النفسُ شدَّ بها قبضا
كأن فجاج الأرض حلقة خاتم علىّ فما تزداد طولا ولا عرضا

ويطول الليل على ألى ذهبل الجمحى ، وبجا فيه الكرى ، ففى قلبه نار مضطربة ، تحرمه الرقاد ، وقد سعى الوشاة بينه وبين صاحبه (عَمْرَة) حتى أغضبوها عليه ، مع أنهم كانوا ممن يخلص لهم الود ، ويأتمنهم على السرّ ، ولكنهم لم يرعوا للسر حرمة ، ولم يستشعروا حرجا في إذاعته ، ومن ثم فهو يقطع الليل فى هم وقلق ، تنتابه الوساس ، متقلبا بين اليأس والرجاء ، فإذا ما استبدبه اليأس انخرط فى بكاء حار ، يقطع نياط القلب (٢) :

تطاول هذا الليل مايتبلج وأعيت غواشى عبّرتى ماتفرجُ
وبت كئيباً ماأنام كأنما خلّال ضلوعى جمرة تنوهجُ
فطورا أمنى النفسى من عمرة المنى وطورا إذا مالجّ بى الحزن أنشجُ
لقد قطع الواشون ماكان بيننا ونحن إلى أن يوصل الحبل أحوج
رأوا عورة فاستقبلوها بألبهم فراحوا على مالا نحبّ وأدلجوا
وكانوا أناساً كنت آمن غيبهم فلم ينهم جِلْم ولم يتحرجوا

(١) ديوانه ٢٩

(٢) الأغاني ٦ / ٥١ وعيون الأخبار ٢ / ٢٢ وأمالى المرتضى ١ / ١١٩ أعيت : استعصت . ماتفرج : لا تنكشف . أنشج : أبكى بصوت مرتفع . بألبهم : بجمعهم . تخرج (بكسر اللام وضمها) : تضطرب ، يعنى ماتذكره العامة (يعنى يترف) . المفلج : الدليل ، الذاهب القلب خوفا . الصرم : الهجر .

همُ منعونا مانحِب وأوقدوا علينا وشبوا نار صَرَم تأجج
ولو تركونا — لاهدى الله سعيهم — ولم يلحموا قولاً من الشرِّ يُنسجُ
لأوشك صرف الدهر يَفُرق بيننا وهل يستقيم الدهر والدهر أعوج!!
وقلت لعبادٍ وجاء كتابها لهذا ورئى كانت العين تُخلج
وخططت في ظهر الحصير كأنسى أسيرٌ يخاف القتل ولها مُلفجُ
فلما التقينا لجلجت في حديثها ومن آية الصَرَم الحديثُ المُلججُ
ورأى لمحبوبٍ عشية زرتها وكنت إذا ماجتتها لأعرجُ
وأعيا على القول والقول واسعٌ وفي القول مُستنٌ كثير ومُخرجُ

هذه الأبيات من رائع ما قيل في تصوير العاشق المضطرب القلب ، القلق النفس ،
في موقف الصد والهجران ، لأنها عامرة بحرارة العاطفة ، دقيقة في تصوير الحيرة والقلق ،
والحزن المذهل (وخططت في ظهر الحصير) والأمل الخائب

وأبو دهب قد أجاد تحليل كل هذه العواطف ، حتى لنستطيع أن نعايشه فيها ،
فقد ظل في حيرة من الهجر المفاجيء ، يقلب الأمر ، فلا يدرك للهجر علة ، ولا يجد له
عند عمرة جرماً ، وبينما هو على هذه الحال ، بين هم وقلق ، وأرق ودموع ، جاء رسو لها
عباد بكتاب منها ، تعبت عليه كشف سرهما ، وتنذره القطيعة ، فيذهل الشاعر ، ويطير
قلبه شعاعاً ، ويتقل عليه ماقابلته به من إغراض وصدود ، ويحاول أن يعتذر إليها ، فيقف
لسانه في حلقة لايريم ، دهشة وهلعا وألماً .

٢- صور من الضراعة والتوسل :

وهي صنو الصور السابقة ، وإنما أفردناها تحت هذا العنوان ، لأنها
لا تنزع منزع سابقاتها — غالباً — في الجنوح إلى التحليل العاطفى ، والعناية بالث
المتنوع الأحاسيس ، وإنما تغلب عليها أساليب المبالغة في التوسل والضراعة ، وتقدير
العاطفة أكثر من تحليلها ، وهى على أية حال أقل درواناً في أشعار الغزلين الحجازيين ، من
الصور السابقة .

من ذلك قول الحارث بن خالد المخزومي ، معبرا عن حب مكين لصاحبه في قلبه ، يهديه إلى ديارها ؛ مهما ضاعت معالمها : ^(١)

إني وما نَحْرُوا غَدَاةَ مِنِّي عند الجمار تَوُودُهَا الْعُقْلُ
لو بُدِّلَتْ أَعْلَا مَنَازِلُهَا سُفْلًا وَأَصْبَحَ سُفْلُهَا يعلو
فيكاد يعرفها الخبير بها فيرَدُّه الإقواءُ والمَخْلُ
لَعَرَفْتُ مَغْنَاهَا بما ضَمِنْتُ مني الضلوع لأهلها قبلُ

فقد أوقعته المبالغة في تصوير مدى حبه لصاحبه ، فيما يشبه أن يكون دعاء على ديارها بالخراب ، أو على الأقل ، فيما يتشائم به من ردىء الصور ، وقد عبر عن سوء هذا المعنى ، وقبح المبالغة فيه ، ابن أبي عتيق بقوله ^(٢) : « أما تطيرَ عليها حين قلب رَعَّعَهَا ، فجعل عاليه سافله ؟! ما بقى إلا أن يسأل الله حجارة من سجيل !! » .

أما العرجي فيكتفى بالتوسل والضراعة إلى صاحبه ، أن تكون أكثر جودا بالوصل ، وأن تلبى نداء قلبه ، فتعرج عليه في طريقها من مِنِّي ، بعد أداء نسك المبيت بها ثلاث ليال ، فهذه هي الفرصة الوحيدة السانحة للقاء ، حيث يفترقان إلى الحول ^(٣) :

عُوجِي عَلَى وَسَلْمَى جَبْرُ فِيمَ الصَّدُودِ وَأَنْتُمْ سَفَرُ
مَانَلْتَقَى إِلَّا ثَلَاثَ مِنِّي حَتَّى يَفْرُقَ بَيْنَنَا النَّفَرُ
فَالشَّهْرُ ثُمَّ الْحَوْلُ يَتْبَعُهُ مَا الدَّهْرُ إِلَّا الْحَوْلُ وَالشَّهْرُ

ويرينا ابن قيس الرقيات ، كيف يكون التهالك والخضوع أمام المرأة المعشوقة ، ويظهرنا على أساليب من الاستعطاف ، وألوان من معاني التوسل إلى صاحبه رقية ، وكأنما أغلق قلبه على حبا ، فلم يعد ينبض بحب سواها ، أو يستطيع التحول إلى غيرها ^(٤) .

(١) الموشح ٢١٠ ومصارع العشاق ٧٧ وأمالى القالى ٢ / ١٧ . العقل : شد وظيف الذبيحة إلى ذراعها توطئه للنخها .

(٢) المصادر السابقة

(٣) الموشح ٢١٢

(٤) ديوانه ١٣٧ . امطينا : من المظل وهو عدم انجاز الوعد مرة بعد أخرى .

رُقِيَّ بِعَمْرِكُمْ لَا تَهْجُرُونَا وَمُنِينَا الْمُنَى ثُمَّ امْطَلِينَا
عِدِينَا فِي غِدٍ مَا شِئْتَ إِنَّا نَحِبُ وَلَوْ مَطَلَتْ الْوَاعِدِينَا
أُغْرِكْ أُنْسِي لِأَصْبِرْ عِنْدِي عَلَى هَجْرٍ وَأَنْتَ تَصْبِرُونَا
فَإِمَّا تَنْجِزِي عِدَّتِي وَإِمَّا نَعِيشُ بِمَا نُوْءِلُ مِنْكَ حِينَا
تَقِنَنَّ اللَّهُ فَيَرْقِيَّ وَآخِشِي عَقُوبَةَ أَمْرِنَا لَا تَقْتُلِينَا

إنه يرضى من صاحبه بمجرد التلويح بالأمل في الوصل ، من حين لآخر ؛ لأنه يعيش على هذا الأمل ، وكل ما يتمناه أن لا تقطع أمله بالإصرار على الهجر ، فإن ذلك يؤدي بنفسه ، ويسلبه روحه ، وإذن فلتلق الله فيه ، ولا تحرمه من أمل الوصال .

وأخيرا يعطينا الحارث بن خالد المخزومي صورة للعاشق حين يفقد الأمل في الوصل ، فيستسلم استسلام المغلوب على أمره ، ولكنه يقرب فيما يعبر عنه ، من طبيعة التجربة الغالبة في غزل الحضريين ، حين يللم جراح قلبه ، ويزجره عن هذا العشق ، الذي لا يكون من مثله .

نرى هذا في قوله ، وقد تزوج مصعب بن الزبير بعائشة بنت طلحة ، ورحل بها إلى العراق ، وكان الشاعر يهواها ^(١) :

ظَعَنَ الْأَمِيرُ بِأَحْسَنِ الْخَلْقِ وَغَدَا بِلِسْبِكَ مَطْلَعُ الشَّرْقِ
فَظَلِمْتُ كَالْمَقْهُورِ مُهْجَتُهُ هَذَا الْجَنُونُ وَلَيْسَ بِالْعَشَقِ

* * *

على أن غزل شعراء حضر الحجاز ، لا يأخذ دائما هذا الطابع التحليلي لمشاعر الحب ، والذي تغلب عليه سمة الإحفاق في العشق ، والشكوى والأنين من الهجر والاستعطاف والتوسل واليأس والخضوع ؛ لأن هذا يعكس سلبية تشبه سلوك الحب العذري — كما رأينا — ولا تلائم كثيرا طابع الغزل الحمسي اللاهني ، الذي يصدق عليه القول المأثور « لذة الهوى في التنقل » .

ولايُنْبَغِي أن نطمئن كثيرا إلى هذه التجارب الشاكية الباكية ، في غزل هؤلاء الشعراء ، فنعتقد أنهم عفوا في حُبهم ، وتساموا به ، مكتفين من لذة الحب بالنجوى والشكوى وبث الأشواق ، والتعبير عن الحنين إلى المرأة .. وما إلى ذلك من التوازع التي يصدر عنها العذريون في غزلهم ؛ لأنهم كانوا في غنى عن هذا كله ، لما أتاحته لهم ، ظروف بيئتهم وحياتهم من فرص الوصل ، التي حكيناها .

ومن ناحية أخرى فإن هذه التجارب ، وإن كثرت نماذجها ، تعد قليلة بالنسبة لما خلفوه من تجارب تعبر عن الاتجاه الغالب ، نعني الاتجاه الحسى اللاهوى المتطور ، أى أنها لاتعد ظاهرة ، أو مذهبا غالبا في غزلهم ، فضلا عن أن بعضها وليد ظروف خاصة ، لاتتكرر كثيرا في حياتهم ، كظروف العلاقة بين الحارث بن خالد وعائشة بنت طلحة ، التي تزوجها مصعب بن الزبير ، ورحل بها إلى العراق ، بعيدا عن الشاعر ، مع ماها من مكانة توجب على الشاعر مراعاة الاعتدال ، والتعفف في التشبيب بها ، أو التغزل فيها ، وكذلك العلاقة بين الأحوص وأخت زوجها ، فطبيعة هذه العلاقة تحرم الوصل ، وتوجب عدم التلهى بها ، أو البوح بسرهما ، ولذا جاء غزله فيها ، تعبيرا عن برحاء الكتمان ، مع أن شعاره ، الذى صرح به شعر له ، التهالك على اللذة ، واقتناص الفرصة للفوز بالمتعة ، فهو القائل ^(١) :

ألا لاتلمه اليوم أن يتيلدا فقد غلب الحزون أن يتجلدا
إذا كنتَ عزهاة عن اللهو والصبا فكن حجراً من يابس الصخر جلدا
وما العيش إلا ماتلذ وتشتبى وإن لام فيه ذو الشَّنَّان وفندا
وكثرة مادة الغزل في شعر هؤلاء الحضريين ، تدور حول الصورة التالية :

٣- صورة العاشق المغامر :

الظاهرة الشائعة في غزل حضر الحجاز ، هي التي نرى فيها صورة الحب ، تتخذ طابعا إيجابيا عمليا ، في السلوك الذى يهجه هذا الحب للفوز بالوصل ، والاستمتاع بهوى الحبيب .

(١) أمالى الزجاجي ٧٥ والتذكرة السعدية ٥٤٢ ومروج الذهب ٢ / ١٧٥ (البهية) ومصارع العشاق ٧٥ العزهاة : الذى لايجب لغلظ في طبعه . الشَّنَّان : العداوة .

هنا نجد الشعراء يتحدثون عن مغامراتهم العاطفية ، وزوراتهم الليلية ، حين يدبون إلى لقاء صواحبهم ، بالدار حيناً ، وخارج الدار حيناً آخر ، منتهزين غفلة الحراس ، أو متغفلين أعين الرقباء ، يتسترون بثياب الظلام ، ويتقافزون خلف السواتر ، فيقضى كل منهم حاجات الهوى ، ونزوات الشباب ، في خلوات سعيدة يقبل فيها على صاحبتة ، وتقبل عليه ، ويحادثها وتحادثه ، ويعاتبها وتعاتبه ، ثم ينتهون إلى صفاء ، وقد يتعابثون في هوى برىء أو غير برىء ، ثم ينقلب الشاعر فيحكى ذلك كله في أسلوب من القص طريف ، مستعينا بمخيلة القصاص ، في استعادة الذكريات العذبة ، والإضافة إليها ^(١) ، مفصلاً حيناً ، وموجزًا حيناً آخر .

فهذه زورة ليلية يحدثنا عنها عمر بن أبى ربيعة ، قصد فيها إلى صاحبتة وفاجأها بها مفاجأة أذهلتها ، فلطمت خديها جزعا من أن يفتضح الأمر ، وأيقظت رفيقة كانت تشاظرها المنام ، وعاتبَت صاحبها على جرأته ، ولكنه يعتذر إليها ، بأن قلبه لايطاوعه على البعد عنها ، لشدة شوقه إليها .

ثم لاثبت أن يغلبها الهوى ، فتستجيب لنزوته ، وتمضى الليل معه في قبل وعناق ، حتى إذا انبثق نور الفجر نبهته بصوت جميل ، إلى أنه قد آن له أن يرحل عنها ، وودعته سائرة بجانبه ، نشوى بخمر الوصال ، حريصة على أن تسحب هى وصاحبته ذبول الثياب على أثره ، كى لايعرف الرقباء أنه زارها : ^(٢)

فجئت أمشى ولم يغف الأولى سَمَرُوا	وصاحبى هُنْدُوأْنَى به أَثَر
فلم يَرُعْهَا وقد نَضَّتْ مَجَاسِدَهَا	إلا سوادَّ وراء البيت يستتر
فلطَمَتْ وجهها واستنبت معها	بيضاء أنسَةً من شأنها الخفسر
ماباله حين يأتى — أُنْحُتْ — منزلنا	وقد رأى كثرة الأعداء إذ حضروا
قالت: أردتْ بذا عمداً فضيحتنا	وصَرَّمْ جلى وتحقيق الذى ذكروا ؟!
هلا دسست رسولا منك يعلمنى	ولم تعجّل إلى أن يسقط القمر

(١) راجع ٣٥٤ ، ٣٧٦ من هذه الدراسة .

(٢) ديوانه ١١٥ أثر السيف : بريقه . مجاسدها : جمع مجسد ، وهو القميص . الخصر : شدة البرد . زمرا : يعنى

بصوت حسن .

فقلت : داع دعا قلبى فأرقه ولا يتابعنى فيكم فينزجر
فبت ألثمها طوراً ويمنعى — إذا تمايل — عنه البرد والخصر
حتى إذا الليل ولّى قالتا زَمراً قوما بعيشكما قد نورّ السحر
فقمْتُ أمشى وقامت وهى فاترة كشارب الخمر بطى مشيه السكر
يسحبُ خلفى ذيول الخَزْ آونة وناعم العصب كيلا يُعرف الأثر

ولعلنا لاحظنا أن عمر يسترسل في قص أحداث هذه المغامرة ، ووصف الحركة المادية والنفسية للزائر العاشق ، والمزورة المضطربة بين الحب والارتياح ، أكثر مما يتحدث عن ثمره هذه المغامرة ، التى يوجزها في بيت واحد ، وفي إشارة سريعة ، لا تتكافأ مع مايدل من جهد واحتيال لتحقيق هذا اللقاء .

وفي رائيته المشهورة :

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر غداة غدٍ أم رائح فمهجرج

يقص أحداث مغامرة له في أربعة وثلاثين بيتا ، واصفا ماتجشمه في سبيل الوصول إلى صاحبتة ، وكيف قابلته ، وماذا قال ، ويكتفى في ذكر مأسفرت عنه هذه الزيارة بإشارة في بيت واحد ، يقول فيه :

فبت قرير العين أعطيت حاجتى أقبل فاها في الخلاء فأكثر

وهذه المتعة الحسية لاتتناسب مع ماتكبده الشاعر من جهد قبل اللقاء ، ومن أجله ، وكأنما كان هدفه تصوير هذا الجهد ، وذلك الاحتيال بكل مايحملانه من لحظات نفسية ، فإذا انتهى إلى اللقاء ، فحسبه من الحديث عن نتيجته مجرد الإشارة أو الرمز .

من أجل هذا قلنا في صدر هذا الفصل : إن حظ هذا الغزل من الجانب النفسى المعنوى ، أكثر من المتعة الحسية ، ^(١) ومن أجل هذا أيضا فرقنا بينه وبين الغزل الحسى الجاهلى في التسمية ، فأطلقنا عليه « الغزل الحسى اللاهى المتطور » .

ولسنا هنا في مقام مناقشة هذه المتعة الموجزة من الناحية الأخلاقية ، من حيث منافاتها للفضيلة والخلق ، وإنما نريد أن نبرز أن هذا الغزل لم يكن مترديا في حماة الحسية ،

(١) راجع ٣٤٦ من هذه الدراسة .

التي تعنى بتصوير المتع والشهوات تصويراً فيه كثير من العناية بالتجسيم والتفصيل والاسترسال .

ولانجد عمر في كل شعره الذى يحكى مثل هذه المغامرات ، يتجاوز هذا المنهج فى الإشارة إلى المتع الحسية ، إشارة موجزة خاطفة .

ولنأخذ أيضاً قوله ، بعد حديث طويل فى التمهيد للقاء ، فى حكاية زورة قام بها ^(١) :

فنتجهمت لما رأتنى داخلا بتلهـف من قولها وتهدد
ثم ارعوت شيئاً وخفّض جأشها بعد الطموح تهجدى وتوددى
فى ذاك ماقد قلت : إنى ماكثٌ عشراً فقالت : ما بدا لك فاقعد
حتى إذا ما العشرُ جنَّ ظلامها قالت : ألاحان التفرق فاعهد
واذكر لنا ماشئت مما تشتهى والله لانعصيك أخرى المسند
فيكتفى باللمح والإشارة إلى المتعة الحسية فى هذا اللقاء .

والعرجى تلميذ عمر بن أبى ربيعة ، أقرب شعراء الغزل الحضرى إلى منهج عمر ، وطبيعة تجربته فى تصوير العاشق المغامر ، غير أنه أكثر احتفالا بالأسلوب وصقله وتماسكه من أستاذه ، وأقل جنوحاً إلى محاكاة الحوار النسائى ، الذى يمتاز به الأسلوب العمرى ، ولا يضحى باستيفاء الصورة الشعرية — كما يفعل أستاذه — من أجل إجراء هذا الحوار ، بل يؤثر استقصاء الصورة والعناية بها ، وإن ضحى فى سبيل ذلك بجاذبية الحوار .

ومع ذلك فتجربة المغامرة فى غزل العرجى لاتخرج فى إطارها العام عن تجارب عمر فى هذا الضرب من الغزل .

فهو مثله يقوم بزوراته لصاحباته ليلاً ، مدفوعاً بشوق ملح ، أو مستجيباً لرسالة منها ، وهو مثله يصور مشاعر الحذر والخوف ، ويتحدث عن وسائل الاحتيال للوصول بالزورة إلى غايتها ، وهو مثله فى التعبير عما ينتاب صاحبتة من روع من هول المفاجأة

(١) ديوانه ١٦ أخرى المسند : آخر الدهر ، يعنى لانعصى لك حاجة أبداً .

بالزيارة ، وعما ينتهى إليه الأمر من بث الطمأنينة فى نفسها واقتلاع الروع من قلبها ، حتى تسمح وتلين وتفرح باللقاء ، الذى ينتهى بوداع مشابه للوداع فى مغامرات عمر .

وربما اختلف منهج العرجى عن أستاذه ، بالإضافة إلى ماسبق ، من الإقلال من الحوار ، والاهتمام بالصورة — فى ميله إلى الاقتصاد فى القص ، والتركيز فى الوقائع والأحداث .

يظهر هذا فى إحدى مغامراته للقاء صاحبة له ، يذكر فيها أنها تأوى إلى قصر عالٍ ، قد أسدلت الستور على نوافذه ، وقام الحراس على أبوابه ؛ لتمنع العيون المتلصصة ، والزيارات المحرمة .

غير أن الشاعر يحتال للوصول إليها ، فيغافل الحارس ، وينصب الحبال ، ثم يتسلقها ، وتكفل جهوده بالنجح ، فيسعد باللقاء ، وتثيبه صاحبتة على ماتجشم فى سبيل وصلها ثوابا حسنا ، إذ تبادلته عناقا بعناق ، فى خوف وحذر ، خشية مدهامة الرقباء ^(١) :

لم أُحِلْ عنك ماحييت بُودى	أبدأ أو يحول لون الغراب
دونها الحارس الشفيق عليها	قد تولى مفاتِح الأبواب
بِمُنِيفٍ كأنه ركن طَوْدٍ	ذى أواسٍ مُطمِـرٍ المحراب
وترقُّنِيْتُ بالحبال إليها	بعد هَذِيٍّ وغفلة البواب
فجزتني بما عملت ثواباً	حسنا كنتُ أهل ذاك الثواب
اعتناقاً على مخافة عين	قد رُمِقْنَا بها وقوم غضاب

والمتعة الحسية هنا أيضا لا تحظى من هذه الصورة إلا بلمحة سريعة فى البيت قبل الأخير ، وبعبارة صريحة فى جزء من البيت الأخير .

وقد تكون هذه المغامرة ، أو الزيارة ، استجابة لرسالة من صاحبة الشاعر ، تضرب له موعداً بعد هدأة من الليل ، وتوصى بالحذر ، وتحذر من أعين الحراس والرقباء ، فيخف الشاعر للقيام بهذه الزورة ، مسترشداً بما نصحت ، مجتهداً فى البعد عن

(١) ديوانه ١١٦ . المنيف : القصر المرتفع . مطمر : مرض الستور . المحراب هنا : صدر البيت .

المخاوف ، ويسترسل في قص هذا كله في شيء من التفصيل ، مشيراً في النهاية إلى متعة هينة أصابها ، موجزاً في التعبير عنها .

ومن التجارب التي تصور هذا في تركيز وإحكام تعبير وتصوير ، لايتوفر في تجارب ابن أبي ربيعة ، قول العرجي : (١)

حورٌ بعث رسولاً في ملاطفةٍ
إليّ أن ائتنا هذءاً إذا غفلت
فجئت أمشي على هولٍ أجشمه
إذا تخوفت من شيء أقول له
أمشي كما حركت ريح يمانيه
في حلةٍ من طراز السوس مشربة
وهن في مجلسٍ خالٍ وليس له
حتى جلستُ إزاء الباب مكتتماً
أيدنين لي أعينا نُجلاً كما نظرتُ
قالت كلابةٌ : مَنْ هذا ؟ فقلت لها
أنا امرؤٌ جدّ لي حب فأحرضني
لاتكليسي إلى قوم لو أنّهم
وأنعمي نعمة تُجزى بأحسنها
هذا يميني رهن بالوفاء لكم
قالت : رضيت ولكن جئت في قمرٍ
فبتُ أسقى بأكواسٍ أُغلّ بها
حتى بدا ساطع للفجر نخسبه
ودعّتهن ولا شيء يراجعنسي
إذا أردن كلامي عنده اعترضتُ
تكاد إذ رُمن نهضاً للقيام معي

ثَقِفَا إذا عقل النساء الوهمُ
أحراسنا وافترضنا إن هم علموا
تجشّم المرء هولاً في الهوى كرمُ
قد جف - فامض - بشيء قدّر القلم
غصناً من البان رطباً طلل الدّيمُ
تعفو بهذّابها ما أثّرت قدمُ
عين عليهن أخشاها ولاندم
وطالب الحاج تحت الليل مكتتمُ
أدم هجان أتاها مصعب قَطَم
أنا الذي أنت من أعدائه زعموا
حتى بليت وحتى شفني السقم
من بغضنا أطعموا لحمي إذن طعموا
فظالما مسني من أهلك النعمُ
فارضني بها ولأنف الكاشع الرّغمُ
هلا تلبّثت حتى تدخل الظلم !!
من باردٍ طاب منها الطعم والنّسمُ
سنا حريق بليل حين يضطرم
إلا البنان وإلا الأعين السّجُم
من دونه عبرات فائثنى الظلم
أعجازهن من الأنصاف تنقسمُ

ونلتفت هنا إلى ماسبق أن التفتنا إليه في التماذج السابقة ، من حرص الشاعر أولاً وقبل كل شيء على تصوير الأحاسيس التي تغلف محاولة الوصول إلى صاحبتة ، وعلى ماينتهى إليه اللقاء من سمر ، أكثر من حرصه على التعبير عن اللذة الحسية ، فليس في هذه الصورة — المطولة نوعاً — إلا إشارات قليلة إلى الرغبة والاشتهاء ، كالتى عبر فيها عن العيون النجل : « أبدين لى أعينا نجلا » وعن الفم العذب المذاق ، الطيب الرائحة : « من بارد طاب منها الطعم والنسم » وعن الأرداف الثقيلة والخصور النحيلة : « أعجازهن من الأنصاف تنفسن » ، ومع ذلك ، فهى إشارات باهتة ، تكاد تحتفى وسط هذا الحشد من الوصف النفسى ، مما يضعف حظ الحسية من صورة العاشق المغامر .

— ٦ —

أهم الملامح الفنية في الغزل الحضرى الحجازى :

بعد هذه الدراسة التى حاولت أن تبرز الملامح الهامة لهذا الفن الغزلى ، الذى لهجت به البيئة الحضرية الحجازية ، فى العصر الأموى ، نعتقد أنه قد اتضحت لنا بعض السمات ، التى يمكن أن تعد ملامح أصالة ، أو تطور ، يمتاز بها هذا الغزل .

١ — يكاد يخلو الغزل الحجازى اللاهى من المجاهرة بالفحش ، والإلحاح على المعانى المكشوفة ، والانحراف إلى العبارات الفاضحة ، وما كان شعرائه أن يجرعوا على هذه المجاهدة أو الكشف ، فأقليمهم منبع الدعوة الإسلامية ، وموطنها الأول ، الذى حملها على اكتاف رجاله ، إلى أنحاء الجزيرة العربية ، ومنها إلى سائر أقطار الأرض ، وفى مدنه — وبخاصة مكة والمدينة — قامت حلقات الدروس الدينية ، تبصر الناس بأمور دينهم ، وتشرح لهم كتابه العظيم ، وتروى أحاديث الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، وتستنبط منها ومن القرآن أحكام الشريعة ، وترشد المسلمين إلى خيرى الدنيا والآخرة . وفى الحجاز عاشت طائفة كبيرة من بقايا الصحابة ، وكبار التابعين من أبناء المهاجرين والأنصار ، تُضرب إليهم أكبداً للإبل لمعرفة الحلال والحرام .

فإذا أضفنا إلى هذا ماأشرنا إليه مراراً من حرص أهل الحجاز ، وبخاصة الأشراف والسادة — وماأكثرهم فى مدن الحجاز — على قيم الفضيلة ، وأخلاق الدين ، أدركنا مدى ما فرضته بيئة حضر الحجاز على شعرائها الغزلين من رعاية حق الفضيلة

والدين ، وإن تسامحت معهم في بعض ما يعد من ظرف الكلام ، وتهاويل الشعراء ، وأخذت بعضهم أحيانا بالشدّة ، لمّا رأت في غزله ما يعد خروجاً واضحاً على تقاليد الصون والحفاظ على الأعراض والأخلاق من هجر الكلام .

بهذه الظاهره امتاز غزل الحجاز الحضري على الغزل الحسي الجاهلي ، الذي يكثر أن يصرح فيه الشاعر بما لا ينبغي الجهر به في عرف الأخلاق ، من صلة بين الرجل والمرأة ، وقد مرت بنا نماذج كثيرة ، تكشف عن طابع هذه الصلة في الغزل الحجازي ، ليس من بينها ما يشبه قول امرئ القيس مثلاً في معلقته المشهورة ^(١) :

فمثلك حبل قد طرقتُ ومرضِع فألهيته عن ذى تنائم مُحول

وقوله المغرق في الحسية المادية ، الموغل في النزعة الجسدية الشهوانية ^(٢) :

ومثلك بيضاء العوارض طفلةً لعوب تنسني إذا ما قمت سريالي

إذا ما الضجيع ابتزها من ثيابها تميل عليه هونةً غير مجبال

فلما تنازعنا الحديث وأسمحت هصرت بغصن ذى شماريح ميال

وصرنا إلى الحسنى ورق كلامنا ورضتُ فذلت صعبةً أيّ إذلال

فأصبحت معشوقاً وأصبح بعلها عليه القتائم سيء الظنّ والبال

فأين من هذا الفحش الصريح ، والجسدية العارية ، ماسقناه من مغامرات عمر ابن أبي ربيعة ، والعرجي ، وغيرهما من شعراء حضر الحجاز ؟!

ويكفي أن نلتفت فقط إلى قول امرئ القيس « فلما تنازعنا الحديث » ، فهو مشغول بالمتع الحسية ، وبشبووية الشهوة عن حكاية هذا الحديث الذي تنازعا ، أما عمر وزملاء مدرسته ، فإن هذه الأحاديث ، وما يغلفها من مشاعر وأحاسيس همهم الأكبر وشغلهم الشاغل .

إن كل بيت ، وكل عبارة في تجربة امرئ القيس تنضح بالتهتك ، وتفوح برائحة الجنس ، وليس من هذا شيء يذكر في تجارب الغزلين الحسيين في حضر الحجاز .

(١) ديوانه ٥٨

(٢) ديوانه ٣٠ — ٣٢ وانظر كتابنا : أمراء الشعر في العصر الجاهلي ١٥٤ — ١٧٢

ولم يقتصر الميل إلى الحسية والكشف على امرئ القيس ، وتجاريه الغزلة ، فها هو ذا عبد بنى الحسحاس ^(١) ، يتلذذ برسم صورة فاضحة ، لمغامرة جنسية مع صاحبتة التى انقادت معه إلى الفحش ^(٢) :

وبتنا وسآذانا إلى عُلْجانَةٍ وَحَقِيفٍ تهاداه الرياح تهاديا
توسدُنِي كَفًّا وتثنى بمعصِمٍ عَلَيَّ وتحوى رجلها من ورائيا
وهبت شمال آخر الليل قَرَّةً ولاثوبَ إلا درعُها وردائيا
فمازال بردى طَيِّباً من ثيابها إلى الحول حتى أنهج الثوب باليا

وبمثل هذه المعانى الفاحشة توحى تجربه المنخل الشكري ^(٣) ، المعبر عنها فى آياته المشهورة ^(٤) :

ولقد دخلتُ على الفتا عِ الخِدر فى اليوم المطيرِ
الكاعب الحسناء تَرُ فُلُّ فى الدِّمْقَسِ وفى الحريرِ
فدفعتها فتدافعت مَشَى القطاة إلى الغديرِ
ولثمتها فتفقت كتنفُسِ الظُّبى البَهِيرِ
فدنت وقالت يا مُنْخَلُّ ما يجسمك من حُرُورِ
ماشف جسمى غير حُبِّكَ فاهدنى عنى وسيرى
وأحبها وتجنبنى ويحبُّ ناقتها بعيـرى

(١) هو سُحَيْمٌ أو حية ، كان مولى الجنندل بن معبد ، من بنى الحسحاس ، ثم من بنى مالك بن ثعلبة بن دودان بن أسد ، وهو حبشي أعجم اللسان ، يشد الشعر ثم يقول : أَهْسَلْتُكَ ؟ يريد : أحسنت ؟! وكان عبد الله بن أبى ربيعة والد عمر اشتراه ، وكتب إلى عثمان بن عفان (قبل خلافته) : إني قد ابتعت لك غلاما حبشيا شاعرا ، فكتب إليه عثمان : لأحاجة لى به ، فإنما قصارى أهل العبد إن شيع أن يشب بنسائهم ، وإن جاع أن يهجوهم ، فرده عبد الله فاشتراه معبد ، فكان كما قال عثمان يشب بينته عميرة ، وفحش فشهريها . قال ابن سلام : ١٧١ — ١٨٧ ومط اللآلى ٢ / ٧٢١ .

(٢) ديوانه ١٩ وابن سلام ١٨٧ (المندى) وتزين الأسواق ١٤١ ومط اللآلى ٢ / ٧٢١ . علجانة : نوع من الشجر . الحقف : الكتيب من الرمل . تهاداه الرياح : تنقله من مكان إلى آخر ، أنهج الثوب : بلى وخلق .

(٣) شاعر جاهلي قديم كان يشب بهند أم عمرو بن هند أحد ملوك اللخميين ، كما اتهم بالمتجردة زوج النعمان بن المنذر ، وعاصر النابغة فى بلاط هذا الملك . انظر : الشعراء والشعراء ١٥٠ والأغاني ١٨ / ١٥٢ .

(٤) الأغاني ١٨ / ١٥٥ وشرح الحماسة للمرزوقي ٢ / ٥٢٧ — ٥٢٩ . البهير : العالى النفس من التعب .

وقد لانعدم بعض هذه الميول في الغزل اللاهى الحجازى ، كقول عمر بن أبى ربيعة :

فلثمت فاهها آخذاً بقرونها شرب الزيف يبرد ماء الحشرج

فهذه صورة حسية شهوانية خالصة ، تمثل الشاعر مستغرقا فى التقبيل ، حتى يمتزج الريقان ، وكأنه محموم من شدة العطش ، قد جف لسانه ، فأقبل على الماء البارد ، من كوز رقيق صنع بالحيرة ، فى نهم شديد .

وكقول عبد الرحمن بن حسان بن ثابت : (١)

وإن مال الضجيع بها فِدْعَصُ من الكتبان ملتبد مهيلُ

غير أن أمثال هذه المعانى فى غزل حضر الحجاز قليلة ، تأخذ كثيرا طابع الإشارة السريعة ، ولايتولاها الشاعر بالتفصيل ، على خلاف مارأينا فى الشعر الجاهلى ، من إغراق فى الجسدية ، وانعماس فى الغزائر الحيوانية ، وتصوير لأخطر هذه الغرائز .

٢— العناية بالتحليل النفسى ، وتصوير الأشواق ؛ إذ لم تكن الصلة بين الشاعر وصاحبتة ، فى هذا الغزل قائمة أساسا على الناحية الجنسية المادية ، بقدر ماهى ممثلة فى تبادل العواطف والأحاسيس ، والتغنى بمكانة المرأة فى قلب الرجل ، وتأثيرها فى حياته العاطفية ، على نحو مارأينا فى صور كل من الرجل والمرأة فى هذا الغزل ، وبخاصة فى غزل عمر بن أبى ربيعة ، الذى يمثل غزله بكل سماته الفنية ، مجمل خصائص الاتجاه الغزل فى حضر الحجاز كله ، وأثر التقليد أو التطور ، أو الأصالة فيه ، والذى لولاه لحرم الغزل الحجازى من كثير من ملامح التطور والتجديد .

وليس كذلك الغزل الحسى الجاهلى فى أكثر تجاربه وصوره ؛ إذ كان فيها منبعثا عن شهوة جسدية ، قلما يفىق منها العاشق ، إلى تحليل العواطف والمشاعر ، وتصوير لذعة الشوق ، أو حرقة الفراق والهجر (٢) .

(١) ديوانه ٨٣ .

(٢) انظر فى هذه النزعة الجسدية فى الشعر الجاهلى ، وتعليقها : الغزل فى العصر الجاهلى (د. الحوق) ٢٤٨

ومابعدها وراجع ماكتبناه فى تعليقها ٣٠١ — ٣٠٢ من هذه الدراسة .

وفيما قدمناه من نماذج صورة المرأة والرجل في الغزل الحجازى ما يغنى عن الإطالة بإعادتها هنا .

٣— اعتماد الغزل الحجازى بعامة ، على المكابدة للحب ، والإحساس الصادق بالجمال ، لأعلى التقليد والمحاكاة — اللهم إلا إذا جنح شعراؤه إلى وصف مظاهر الجمال فى المرأة ، كما مرينا — على عكس ما يلاحظ فى كثير من نماذج الغزل الجاهلى ، وبخاصة تلك التى تصدر بها القصائد ، فى الأغراض المختلفة ؛ إذ يغلب عليها تكلف العاطفة ، وافتعال المواقف .

وليس معنى ذلك أن الشاعر الجاهلى لم يعرف الحب ، أو أنه لم يتذوقه ، ويعايشه ، فلا جدال فى أنه قد مر فى الجاهلية ، فى كل أزميتها من الشعراء من قال فى الغزل استجابة لعاطفة أخذت بنفسه ، ولكن الشعر الجاهلى لم يصل إلينا كله ، وإنما جاءنا أقله ، وهذا الذى جاءنا من غزله فى مقدمات القصائد بخاصة ، يغلب عليه التقليد الصرف ، ويكفى أن نتأمل تلك المقدمات الطللية فى قصائد النابغة الذبياني وذى الإصبع العدواني ، وبعض نماذجها فى قصائد زهير بن أبى سلمى ، وغيرهم من الشعراء الحكماء ، أو المشغولين بالتكسب وشئون القبيلة كالنابغة ، لنرى مصداق ما ذكرنا .

أما شعراء الغزل الحجازى الحضري ، فيشهد شعرهم الذى قدمناه ، أو كثير منه ، بأنهم عرفوا الحب ، وأدركوا سر الجمال فى عالم المرأة ، إدراك المنفعل ، لإدراك المقلد المحاكى ، فهم يصفون حركاتها ، ومجالسها وأحاديثها ، مع رفيقاتها ، أو مع جواربها ، كما يصفون نزعاتها ، التى تضطرب فى نفسها ، وتدفعها إلى فعل ماتفعل ، أو قول ماتقول ، وبذا جاءت صورتها حية أمام مدارك القارئ لغزلهم ، وأحاسيسه .

٤— ظهور أسلوب القص والحوار ، وبروزه فى كثير من نماذج هذا الغزل ، وبلوغه صورة من النضج ، جعلت منه ظاهرة أسلوبية فى غزل ابن أبى ربيعة خاصة ، حيث يأخذ الشاعر فى استحضار مادار بينه وبين صاحبتة ، وحكاية ما قال وما قالت ، وما فعل وما فعلت ، فى أسلوب طريف جذاب ، تطل منه روح المرأة المتحضرة ، الآخذة بقسط من الحرية الاجتماعية فى علاقتها بالرجل ، ومن ثم ، فهى لاتجد حرجا فى إجراء حوار عاطفى مع صاحبها ، فى خلوة ، أو أمام أترابها وصاحباتها ، بل كثيرا ماتجرى هذا الحوار

بينها وبينهن في مجالسهن ، تودع فيه ذَوْبَ نفسها ، وتكشف عن مكنون قلبها ، وهن متجاوبات معها ، أو غياري منها .

وقد استطاع هذا الأسلوب أن يؤدي وظيفته في بناء العمل الشعري ، وربط أحداثه وأشخاصه ، وأداء الدفعات الشعرية بين طرفيه أو أطرافه ، وتحليل الموقف الغزلي ، وإثماء عناصره .

ونستطيع أن نذكر هذا الأسلوب في النواحي السابقة على ضوء قول عمر بن أبي ربيعة ، أستاذ هذا الأسلوب :

قلت : من أنت ؟ فقالت : أنا مَنْ شَفَّه الوجد وأبلاه الكمْد
نحن أهل الخيف من أهل منى مالمقتول قتلناه قودُ
قلت : أهلاً ، أنتمُ بغيتنا فَتَسَمَّينَ ، فقالت : أنا هند

حوار جذاب بسيط ، أدى موقفا متكاملا ، جعل منه وحدة فنية متماسكة العناصر ، بحيث لو أسقطنا جملة حوارية واحدة لاختل الموقف الغزلي ، وانهار الموقف كله ، أو تصدعت أركانه .

ونحن لاننكر أن أسلوب الحوار والقص ، ممثل في نماذج من الشعر الجاهلي ، وبخاصة في غزل امرئ القيس ، أمير هذا الفن في العصر الجاهلي :

من ذلك قوله : (١)

فقلت : سباك الله ، إنك فاضحي أَلَسْتَ ترى السُّمَّارَ والناسَ أحوال ؟
فقلت : يُمين الله أبرحُ قاعداً ولوقطعوا رأسي لذيك وأوصالي

فامرؤ القيس يبرز قطاعا واحدا من الموقف الغزلي ، هو قطاع التنازع والمعارضة والمساومة ، ليوحى بأن صاحبه كانت متمنعة ، ولكنه سهلها ، وأسلس قيادها ، وليؤكد بطولته في ميدان الإغواء .

ومع ذلك فهذه اللمحة الحوارية ، وأمثالها في شعر امرئ القيس وفي شعر غيره من

أبناء عصره^(١)، لانتعكس ظاهرة أسلوبية، أو عنصراً أساسياً من عناصر الأداء في التجربة الغزلية الجاهلية، كما أنه لم يبلغ عند الجاهليين من الكثرة والافتتان، ما بلغه على أيدي شعراء الغزل الحجازي الحضري، وعلى الأخص ابن أبي ربيعة، الذي غلافه بعض الباحثين المحدثين فعده مبتكراً له^(٢)، واعتدل آخرون فعده صاحب طريقته^(٣).

أما طابع القصص، فيكاد ينفرد به ابن أبي ربيعة بين الشعراء الغزليين من أبناء بيئته، حيث ضمن وفرة من قصائده الغزلة، ما يقرب مما نعرفه الآن بالقصة القصيرة، بما وفره لها من إطار نفسي وأحداث مادية، وشخصيات أساسية، وحوار بين الشخصيات، وصراع بين العواطف.

ونحن لاندعى أن هذا كله قد اكتمل في كل قصائده التي اعتمد فيها أسلوب القص، وتعد قصيدته الرائية المشهورة «أمن آل نعم» نموذجاً بارزاً في هذا الأسلوب، فالشاعر يحدث نفسه ويناجيها، أين خباء صاحبته؟ وكيف يتعرفه في ظلمة الليل؟ فيدله قلبه عليه، ويقوده هواه، ولكنه ينتظر متحينا الفرصة، منتظراً خلود القوم إلى النوم، وانقطاع الأصوات، وغياب القمر... ثم يقص كيف احتال للوصول إلى غايته تتصارع في نفسه الرغبة والرغبة... وكيف روع صاحبته برؤيته المفاجئة في فراشها، وكيف هدا من روعها، حتى اطمأنت إليه، وفرحت به، وبادلته حواراً عاطفياً، أسعده، وكيف قضيا معاً وقتاً طيباً استغرق مابقي من الليل، حتى إذا آذن الليل بمغيب، وآذنت ساعة الرحيل، قامت تودعه، وتُعفى بأذيال ثوبها على آثار أقدامه في الرمال.

فهذه القصيدة يتحقق فيها كثير من عناصر القصة القصيرة، وبهذا تعد هذه القصيدة وقصيدته الرائية الأخرى:

راح صحبى ولم أحيّ الثَّوارا وقليل لو عرجوا أن تُزارا
وعينية له مطلعها:

ألم تسأل الأطلال والمتربعا بيطن حليّات دوارس بلقعا

(١) راجع بعض نماذج من أسلوب الحوار الجاهلي في: الغزل في العصر الجاهلي (د. الحوفي) ٢٤٥ وما بعدها.

(٢) انظر: مقدمة ديوان بشار للشاعر الطاهر بن عاشور ٣٧

(٣) انظر: تاريخ الشعر العربي (البيهتي) ٣٥٠

إضافة جديده لبناء القصيدة في العصر الأموي .

وفوق هذا فقد اقتضى هذا الطابع القصصى في غزل ابن أبى ربيعة ، إضافات تجديدية أسلوبية أخرى ، كتطويع الألفاظ ووسائل الأداء الأخرى ، للأسلوب القصصى ، لكى تلائم سرد الأحداث ، وإدارة الحوار ، والتعبير عن لمسات أنثوية تقتضى الاقتراب من لغة الأداء في الحياة .

وكان عمر بارعا في هذا التطويع ، الذى مكّنه من المزاجية بين اللحظات النفسية والمادية ، وإبراز الصراع النفسى ، وإدارة حوار طويل ، وخلق حركة درامية ، على نحو يمكن أن يعد إضافة جديدة أخرى للقصيدة العربية .

٥- استقلال التجارب الغزلية بالبناء الفنى للعمل الشعرى (القصيدة أو المقطعة) ، وظهور التخصص فى هذه التجارب ، بينما لم يكن لفن الغزل وجود مستقل قبل هذا العصر فى الأعم الأغلب ، فبالنسبة لماوصل إلينا من غزل الجاهليين ، لم نقف إلا على عدد قليل جدا من القصائد ، التى أفردت للغزل ، ولم يعالج قائلوها فيها إلا الغزل وحده ^(١) ، وحتى هذه القصائد الغزلية المستقلة فى الشعر الجاهلى ، لا تضاهى فى طول النفس مانراه فى بعض قصائد الغزل الحجازى فى العصر الأموى .

كما أننا لانعرف شاعرا جاهليا ، قصر حياته الفنية ، ونتاجه الشعرى على الغزل وحده ، ولم يطرق فى شعره غرضا آخر من أغراض الشعر ، أما فى العصر الأموى فنحن نعرف غير واحد من شعراء حضر الحجاز الغزلين ، قصرُوا فهم الشعرى كله — تقريبا — على الغزل .

وبين أيدينا ديوان ضخم لعمر بن أبى ربيعة ، وديوان العرجى ، وشعر الحارث بن خالد المخزومى ، وليس فى هذا كله إلا الغزل غالبا ، فكان عمر أول شاعر عربى يختص ديوانه لهذا الفن ، ويتفرغ للقول فيه حياته ، قال يونس بن حبيب ^(٢) : « وكان عمر

(١) راجع مقال الدكتور طه حسين فى جريدة السياسة . العدد ١٧ بتاريخ ١٠ ديسمبر ١٩٢٤ م .

(٢) ابن سلام ٦٤٨

يصرح بالغزل ولا يهجو ولا يمدح » ، وتابعه في هذا تلميذه العرجي ، ومعاصره الخارث المخزومي .

٦- دقة الحس اللغوى فى اختيار اللفظ والعبارة ، وتحرى سهولتهما ، فهذا الشعر يجمع بين البصر الدقيق بالعربية ، والذوق الرقيق فى الاختيار والاستعمال ، وطبيعى أن يكون هذا الشعر الذى قيل ليغنى فيه ، متأثرا بما يقتضيه فن الغناء ، من سهولة اللغة ، وجاذبية الأساليب وبساطتها ، ولنتذكر - مثلا - قول عمر السابق :

ليت هذا أنجزتنا ماتعد	وشفت أنفسنا مما تجد
واستبدت مرة واحدة	إنما العاجز من لا يستبد
زعموها قالت لجارت لها	وتعرت يوم حرّ تبترد
أكما ينعتنى تبصرننى	عمركن الله أم لا يقتصد
فتضاحكن وقد قلن لها:	حسن فى كل عين من تود

فهذه القطعة مثال فى اللفظ السهل الرشيق ، والتركيب البسيط اليسر ، الملائم للتعبير عن هذه المعانى الرقيقة المنتزعة من الحياة ، حياة المرأة ، وميوها العاطفية الناعمة ، ويظهر الحس اللغوى الدقيق أيضا فى هذه السخرية الواضحة فى البيت الأخير ، حيث نم عنها الشاعر من خلال كلمات اختيرت بعناية من قاموس الحياة .

وننظر فى قوله السابق أيضا:

قلت : من أنت ؟ فقالت : أنا من	شفه الوجد وأبلاه الكمذ
نحن أهل الخيف من أهل منى	مالقتول قتلناه قود
قلت : أهلا ، أنتم بغيتنا	فتسمين ، فقالت : أنا هند

إن هذه اللغة من السهولة بحيث تقرب من لغة الحياة العادية فى موقف التعارف بين شخصين (من أنت ؟ أنا هند: ممن؟ من أهل الخيف من منى ، أهلا بك ..)

بذا راج هذا الشعر بين أهل العصر ، وأقبل عليه الملحنون والمغنون ، وتهافتوا عليه ، وأحالوه إلى أغان عذبة ، شدت بها القيان فى مجالس الغناء ، وردتها الألسن بعد ذلك ، لا فى بيئة الحجاز وحدها ، بل عبرتها إلى بيئات الغناء فى العراق والشام أيضا .

والأنخبار مروية فى إلحاح الملحنين على شعراء الغزل بالحجاز ليمدوهم بشعرهم

ليغنى فيه ، ومن الشعراء من كان يبذل للملحنين والمغنين جوائز سنوية ، ليحولوا شعره إلى ألحان ، ترددها المغنيات (١) .

ولعل في هذا مايفسر ميل الشعر الغزل في حضر الحجاز إلى الإكثار من المَقْطَعَات ، لَمَّا كان هذا القلب القصير أنسب للتلحين والغناء ، وأسهل على الملحنين والمغنين والمغنيات من القصائد الطوال .

ونحب أن نختم هذه الدراسة للغزل الحضري الحجازي ، بقول جرير الشاعر الغزل ، وقد قال له رجل من أهل المدينة : يَا أَبَا حُرْزَةَ ، إِنْ شَعْرَكَ (يعنى في الغزل) رفع إلى المدينة ، وَأَنَا أَحَبُّ أَنْ تَسْمَعَنِي مِنْهُ شَيْئًا ، فَأَجَابَهُ جرير : « إِنْكُمْ يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَعْجَبُكُمْ النِّسِيبُ ، وَإِنْ أَنْسَبَ النَّاسَ الْخَزْرُومِيُّ » (٢) .

فقد تخرج جرير ، وهو من هو مكانة في الغزل ، أن ينشد غزلا في عقر بيئة أمير هذا الفن عمر بن أبي ربيعة .

وبعد : فنحن لانستطيع ، بعد هذه الدراسة ، أن نطمئن إلى القول بأن غزل الحجاز الحضري كان صورة من غزل الجاهليين الحسى ، ولانترضى أن نذهب فيه ، إلى حد القول بأنه في كل خصائصه كان فنا جديدا كل الجدة في العصر الأموي ، كما أننا لانراه جاريا على عرف الجاهليين ، وغاية ماينه ويين الغزل الجاهلي من فرق ، أنه فصل مالم يفصله الجاهليون ، وضخم مالم يضخموه .

ومعنى هذا ، أننا لانتفق مع هذه الآراء ، التي أشرنا إلى أصحابها في مقدمة هذا الفصل .

وإنما نرى أن فن الغزل في بيئة الحجاز الحضرية ، قد أصاب ألوانا من التطور ، واستحدث بعض الملاح التي لم يعرفها شعر الغزل من قبل ، هي التي أبرزناها في دراسة نصوصه ، وفي جوانب من الحديث عن خصائصه .

★ ★ ★

(١) انظر في هذا : التطور والتجديد ٢٦٠ وتاريخ الشعر العربي (البهيتي) ١٤٥ — ١٤٧ .

(٢) الأغاني ١ / ٧٢

الفصل السادس

الغزل الغدري في بادية
الحجاز

تقديم :

الغزل العذرى ضرب من الغزل مشبوب العاطفة ، لا ينبعث عن مجرد الشعور بالعاطف والحب بين رجل وامرأة ، وإنما يقوم أساسا على نوع من العشق ^(١) عفيف . والعشق كما يقولون : ملك قاهر ، مسالكة لطيفة ، ومذاهبة غامضة ، وأحكامه جائرة ، ملك الأبدان وأرواحها ، والقلوب وخواطرها ، والعيون ونواظرها ، والعقول وآراؤها ، وأعطى عنان طاعتها ، وقوى تصرفها ^(٢) .

وهو بهذا أشبه بقوى خفية ، لا يوقف على كنهه ، ويدق على العقول إدراكه ، هو كما يقول الشاعر ^(٣) :

ونار الهوى تخفى وفى القلب فعلها كفعل الذى جادت به كف قاذح
وإنما يعرف العشق بآثاره ؛ حيث يعظم سلطانه على القلب ، ثم يتغشى على سائر الأعضاء ، فيبدى الرعدة فى الأطراف ، والصفرة فى الأبدان ، واللجلجة فى الكلام ، والضعف فى الرأى .

والعفيف منه ينحل الجسم ، ويسقم النفس ، وقد يفضى إلى ذهاب العقل ، يجذده مرور الزمن ، ولا تفسده ولا تغيره إساءة المحبوب على الدوام .

وفى آثار هذا الضرب من العشق ، يقول قيس بن ذريح ^(٤) :
وللحب آيات تبين للفتى شحوب وتبرى من يديه الأشجاعُ
ويقول مجنون ليلى ^(٥) :

إنى جننت فهاتوا من جننت به إن كان ينفى جنونى لاتلومونى

(١) قيل : الحب أول الألفة ، والعشق : إفراط فى الحب ، عن عفة أو دعة ، أخذ من العشقة : وهى شجرة تعلق ، وتلتصق بما يليها ، وهى شجرة اللبلاب . انظر : أساس البلاغة (عشق) وتزيين الأسواق ١٥ وللاستزادة انظر : رسائل الجاحظ ٢ / ١٦٦

(٢) ديوان الصبابة (على هامش تزيين الأسواق) ١٢

(٣) أمالى القالى ٢ / ١٢٧ ومصارع العشاق ٣

(٤) تزيين الأسواق ٥١ وأمالى القالى ٢ / ٣٢١

(٥) ديوان الصبابة ١٢

والعشق بعامة يختلف باختلاف الأمزجة ، وتباين الطباع ، منه ماهو سريع التعلق والزوال ، ومنه بطيء التعلق والزوال ، ومنه سريع التعلق بطيء الزوال ، ومنه ماهو على العكس ، وهو على كل حال ليس موكولا إلى رأى فيملكه ، ولا إلى عقل فيدركه ، على حدّ قول عُليّة بنت المهدي (١) :

ليس خطب الهوى بخطب يسير لا يُنبئُكَ عنه مثل خبير
ليس أمر الهوى يُدبّر بالرأى ولا بالقياس والتفكير
إنما الأمر في الهوى خطرات مُحدثات الأمور بعد الأمور

فالعاشق مغلوب على أمره ، مسلوب الإرادة في هواه وفعله ، وكَم من العاشقين حاولوا أن يصرفوا قلوبهم عن عشقها ، وحملها على السلوان ؛ ليتخلصوا من عذابات الوجد ، ومرارة الحرمان ، ولكن هيهات !! فقد فقدوا سيطرة عقولهم وإرادتهم على قلوبهم .

حاول هذا مجنون ليلي فأخفق ، قيل : اجتمع إليه نساء أشفقن عليه مما به ، وقلن له : أما آن لك أن تصرف عنك هوى ليلي ؛ لئلاّ إليك عقلك ؟ فإنها امرأة من النساء ، وفينا عنها كفاية ، فاختر إحداها ، فقال : لو ملكت لفعلت ، ولكنى مغلوب (٢) .

والعشق العفيف — وهو أصل الغزل العذرى وباعثه — تشتغل ناره ، ويرتفع أواره ويتمكن أشد التمكن ، مع الفراغ ، وكثرة محاولات التردد إلى المعشوق ، والعجز عن الوصول إليه .

وأكثر ما يتوفر هذا لأهل البادية ؛ ولذا شاع فيهم هذا النوع من العشق ، واشتهروا به ، وكثر موتاهم منه ، يقول عروة بن حزام (٣) :

وماعجبي موت المحبين في الهوى ولكن بقاء العاشقين عجيب

من أجل هذا طار غزلهم المعبر عن هذا العشق ، موسوما بالغزل العفيف تارة ، وبالغزل العذرى تارة أخرى .

(١) تزيين الأسواق ١١

(٢) تزيين الأسواق ٦١

(٣) المصدر السابق ٧٠

والذى يعنيننا هنا ، ليس كل شعر عبر فيه قائله عن عاطفة حب عفيف ، أيا كانت دوافعه ، وأيا كان موطنه ، فدرا ستنا تنصب أساسا على الاتجاه الغزل المعبر عنه بالحركة العذرية ، التى تتمثل فى شعر طائفة من الشعراء ، عاشوا جميعا فى عصر واحد هو العصر الأموى وزمن واحد ، وتنقلوا فى بيئات واحدة ، أو متقاربة ، فى وديان البادية الخصبة بالحجاز ، أو المتداخلة مع بوادى نجد القريبة منها ، وهم الذين ستحدث عنهم بعد .

هؤلاء الشعراء عرف بعضهم بعضا ، وتناشد بعضهم أشعار بعض ، وانصرفوا انصرافا يكاد يكون تاما عما كان المجتمع العربى يضطرب به من أحداث كبرى ، وصراعات عنيفة فى ميدان السياسة ، أو غير ميدان السياسة ، كما انصرفوا — غالبا — عما اعتاد غيرهم من الشعراء أن يلتفتوا إليه من تجارب فى الوصف ، أو الرحلة ، أو المدح ، أو الرثاء ، وداروا جميعا فى فلك تجارب واحدة تقريبا ، هى تجارب العشق المقترن باللوعة والإحفاق والحرمان ، فتشابهت تجاربهم فى إطارها العام ، مع بعض الاختلاف اليسير فى التفاصيل والبدايات والنهايات .

فقصة العشق فى هذا الغزل نمط مألوف فى حياة هؤلاء العشاق العذريين ، فالشاعر يعشق صاحبتة ، وقد تكون ابنة عم له ، أو من ذى قرابته ، أو من فتيات الحى ، أو بعض الأحياء المجاورة ، وهذا العشق يضرب بجذوره — غالبا — إلى أيام الصبا ، ويحاول الشاعر تحقيق الوصل باللقاء ، أو بالزواج ، فيعرف أمره ، ويحال بينه وبين بغيته ، فالبينة ترى فى علائق العشق عارا ، وفى الشعر المعبر عن هذه العلائق عارا أكبر ، يحرم على الشاعر الزواج بمن تعشقها وتغزل فيها ، وحينئذ ليس للشاعر من حيلة إلا أن يتحول بطاقته العاطفية إلى الشعر ، يث فيه لواعج الشوق ، ولذعات الحرمان ، متأرجحا بين الرضا والسخط ، واليأس والأمل ، محاولا من حين إلى آخر أن يرى صاحبتة لحظات عابرة ، فى غفلة من الأهل ، وبعيدا عن عيون الرقباء والواشين ، تكون مددا جديدا لموهبته ، ومعينا لمزيد من الصور والمعانى والأحاسيس ، وقد تتزوج صاحبتة من غيره ، فتزداد لوعته اتقادا ، ويزداد الفراق حدة ، ويصبح العشق مجرد شعور مطلق يلف كيانه ، وذكرى مجردة يترجمها إلى صور فنية ونفسية فى شعره ^(١) .

هذا الإطار العام لقصة العشق في حياة الشعراء العذريين ، الذين نهتم بهم هنا ، هو الذى فصل تجاربهم الشعرية ، وميزها ، عن تجارب الشعراء الغزلين من غيرهم ، الذين يصدرون في غزلهم ، عن بواعث غير بواعثهم ، ويسيرون في درب غير دربهم ، وينقادون لتقاليد في التعبير والتصوير ألّفها الشعر الغزل من قبلهم في الجاهلية ، غير تقاليد العذريين الجديدة في التعبير ، وفي اللغة ، ورسم الصورة الشعرية .

وبالجملة ، فإن مؤرخى الأدب يفرقون عادة بين هذا الاتجاه من الغزل ، والاتجاه السابق ، الذى أسميناه بالحسنى اللاهية ، بأن الغزل العذرى ضرب من الشعر يتحدث فيه الشاعر عن مشاعر العشق العفيفة ، التى تنشأ بين رجل وامرأة ، وتطغى فيه نوازع الروح على نوازع الجوع الجسدى فتطمسه ^(١) ؛ لتعلقه أساسا بالروح ؛ إذ كانت ألطف من البدن ، فهذا العشق يشاكلها ^(٢) .

وينسب الغزل العذرى إلى بنى عذرة ، وهى إحدى القبائل اليمنية ، التى هاجرت قديما إلى شمال الجزيرة العربية ، واشتهرت بالعشق العذرى ، والغزل المنبعث عنه ، فنسبها إليها ، حتى قالوا : « ليس حتى أصدق في الحب من بنى عذرة ، ولا تضرب الأمثال فيه إلا بهم ^(٣) » .

ومن بنى عذرة زعيم العذريين ، وأمير شعرائهم جميل بن معمر ^(٤) ، وصاحبته

(١) لمزيد من التفصيل راجع : الغزل في العصر الجاهلى (د . الجوفى) ١٤٥ وتاريخ الشعر العربى (البهيتى)

(٢) تزيين اسواق ١٢

(٣) المصدر السابق ٨ وانظر : ديوان الصبابة ١٩٢ والنوادر للقالى ٢١٣

(٤) جميل بن معمر ، وقيل : بن عبد الله بن معمر ، من بنى عذرة ، يتصل نسبه بقضاعة ، شاعر فصيح صادق الصبابة عفيف ، نشأ في قومه بنى ربيعة العذريين بوادى القرى بين المدينة ومكة ، علق بشينة بنت يحيى بن ثعلب ، من قومه ، صغيرين ، فلما شبا خطبها فرد ؛ لأن العرب كانت تستهجن أن تزوج من جرى بينهما عشق ، فكان يأتيها سرا فيتحادثان ، ويقال في سبب العشق بينهما : أنه سرح إبله يوما بوادى البغيض وانسطح ، فأنت بشينة مع جوار يملأن الماء ، فعبثت بفصيل له ، فتسابا ، وإلى هذا يشير جميل :

وأول ما قಾದ المودة بيننا بوادى بغيض يابثين سباب

وقلت لها قولا فجاءت بمثلها لكل كلام يابثين جواب

(تزيين الأسواق ٣٢) .

ويقال : دخلت بشينة على عبد الملك بن مروان ، فرآها امرأة أدماء طويلة ، يُعلم أنها كانت جميلة ، فقال لها عبد الملك : ويحك !! مارجا منك جميل ؟! قالت : الذى رجعت منك الأمة حين ولتكم أمرها (الإمتاع والموانسة ٣ / ١٦٨ وتزيين الأسواق ٣٣ وديوان الصبابة ١٩٢ وما بعدها) وتوفى جميل سنة ٨٢ هـ بمصر قبل بشينة . انظر : مصارع العشاق ٢٥٧ والأغاني ٧ / ٧٢ وما بعدها وابن سلام ٦٤٨ ، ٦٦٩ وما بعدها (المدنى) .

بشنية ، ويروى الرواة أخبار طريفة حول شهرة هذه القبيلة بهذا اللون من العشق والغزل ، منها : ما يحكى عن عروة بن الزبير بن العوام — أحد فقهاء المدينة السبعة ^(١) — أنه قال لعذرى : إنكم أرق الناس قلوبا (يريد أصباهم إلى العشق) ؟! فقال : والله ، لقد تركت ثلاثين شابا خامرهم السل (يعنى مهزولين) وما بهم داء إلا الحب ^(٢) .

ومنها : أنه قيل لأعرابي من العذريين : « ما بال قلوبكم كأنها قلوب طير تهاث ، كما يهاث الملح في الماء ؟! أما تجلّدون ؟ فقال : إننا ننظر إلى محاجر أعين لا تنتظرون إليها » ^(٣) .

ومنها : أن سعيد بن عقبة الهمداني سأل أعرابيا : ممّن الرجل ؟ فقال : من قوم إذا عشقوا ماتوا ، فقال سعيد : عذرى ورب الكعبة ، ثم سأله عن علة ذلك ، فقال : لأن في نسائنا صباحة ، وفي فتياننا عفة ^(٤) .

وقد فات هذا الأعرابي أن يذكر أن في نسائهم عفة أيضا ، فهذا هو ذا جميل يختل ببشنية ، فيقول لها ، بعد أن شكّا شغفه بها : هل لك في طيء ماى بما يفعل المتحابان ؟ فقالت : قد كنت عندي بعيداً من هذا ، ولو عدت إليه لن ترى وجهى أبداً ، فضحك جميل ، ثم قال : والله ما قتله إلا اختبارا ، ولو أجبت إليه لضربتك بسيفى هذا ، إن استطعت ، وإلا هجرتك ^(٥) .

ولعل هذا ، نعى العفة ، كان خلقا متوارثا فيهم ، رجالا ونساء ، يتواصون به ، ويحرصون عليه ، وثبته ظروف بيئتهم البدوية في أخلاقهم ، كما سيأتى .

ويفهم من الروايات السابقة ، أن التسمية بالعذرية في العشق والغزل قد عرفت في العصر الأموى ، وأيضاً يدل على هذا ما صرح به جميل ، في خبر له مع رجل استضافه

(١) راجع هامش ص ٣٥٦

(٢) ديوان الصباية ١٩٣ وتزيين الأسواق ٨ ومصارع العساق ٢٠

(٣) عيون الأخبار ٢ / ١٣١

(٤) تزيين الأسواق ٨ وديوان الصباية ١٩٣ وقيل : إن جارية هى التى قالت : عذرى ورب الكعبة ، حينما

سمعت هذا الأعرابي يقول ما قال (عيون الأخبار ٢ / ١٣١) .

(٥) تزيين الأسواق ٣٢ وانظر : رسائل الجاحظ ٢ / ١٤٨

يدعى جعفرا ، صنع له خبزة ، فجعل الرجل يأكل ، ويحدث جميلا عن بنت عم له يحبها ، حتى أتى على الخبزة ، فقال جميل ^(١) :

وقد رابنى من جعفر أن جعفرا ألحَّ على قرصى وبكى على جُمْل
فلو كنت عذرىَّ العلاقة لم تكن بطيناً ونساک الهوى كثرة الأكل

وهذه العلاقة العذرية ، أو الهوى العذرى ، هو ما نطلق على نتاجه الشعري ، الغزل العذرى .

— ٢ —

حول نشأة الغزل العفيف :

يميل الدكتور طه حسين إلى أن الغزل العفيف — المسمى في العصر الأموى بالغزل العذرى — أموى النشأة ، لم يألفه الجاهليون ، أو على الأقل ، لم يحسنوا فهمه ، ولا العناية به ^(٢) .

ويذهب الدكتور شكرى فيصل إلى أبعد من هذا ، فيرى أنه لم يكن من الممكن أن يظهر هذا الغزل ، بقدر سيته وطهارته ، قبل عصر بنى أمية ^(٣) .

ومحور هذه الدعوى أن الغزل العذرى كان ثمرة للقيم الأخلاقية والروحية ، التى بنها الإسلام فى البادية العربية ، والتى صَفَّتْ نفوس الشعراء العذريين ، وأحالت العشق فيها إلى البراءة والطهر والعفة ، وفى هذا يقول الدكتور شكرى فيصل ، مؤيدا مذهبه الذى ذكرنا :

«... فالغزل العذرى تعبير عن وضع طائفة من المسلمين ، كانت تتخرج ، وتذهب مذهب التقى ، وتؤثر السلامة والعافية على المغامرة والمخاطرة ، وترى أن النفس أمانة بالسوء ... وأن النار قد حفت بالشهوات ، على حد تعبير الحديث الشريف ، وأنه

(١) ديوانه ١٨٢ وتزيين الأسواق ٣٤ والنوادر للقالى ٢١٣

(٢) حديث الأرباء ١ / ١٨٥ ، ٢ / ١٥ — ١٨

(٣) تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام ٢٣٤

من الخير لها أن تصبر) مع الذين يدعون رهم بالغداة والعشي ، يريدون وجهه ، ولاتعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ، ولاتطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا ، واتبع هواه ، وكان أمره فُرطاً) (١)، وأن تلتزم ماأمر الله به أن يُلتزم (وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله) (٢) ، ولذلك أثرت هذه الطائفة أن تعدل عن شهواتها ، فكانت مثلاً واضحة للتربية الإسلامية ، في سموها وتعاليتها ... ومن العفة التي كان يواكبها الدين ، ومن الحب الذي كانت تواكبه الغريزة ، من هذا كله كان هذا الحب العذرى ...» (٣) .

ولسنا نذهب هذا المذهب ، بمعنى أننا لانرى أن العامل الدينى ، ومايرتّب عليه من عفة وتقى ، هو الباعث الأساسى والوحيد للغزل العذرى العفيف ، لأمر أهمها : أولاً: لانستطيع أية دراسة علمية للغزل العفيف فى الأدب العربى القديم أن تنكر أن الغزل الجاهلى عرف العفة فى كثير من نماذجه ، التى عبر شعراؤها عن أشواق الروح ، أكثر مما عبروا عن الرغبة فى المتعة الجسدية ، فما الذى صَفَّى نفوس هؤلاء الشعراء الجاهليين ، ووجه عواطفهم إلى التسامى ، وغرس فيها الاتجاه بها إلى العفة والطهر ، ولم يكن الإسلام قد أشرقت شمسُه على الجزيرة العربية بعد ؟

وبين أيدينا دراسة علمية محققة لهذا الاتجاه فى غزل الجاهليين ، من نتائجها أن غزل الجاهليين والإسلاميين العذرى ، لايكاد يختلف ، من حيث أنه غزل روحى ، لاأثر للنزوع الجسدى فيه ، غالباً (٤) .

ولو كان عامل التدين والتقى ، هو العامل الوحيد فى نشأة الغزل العذرى ، لكان النزوع إلى الجسدية فى غزل الإسلاميين ، أكثر ندرة منه عند العذريين الجاهليين ، وهذا غير صحيح على إطلاقه (٥) ، كما سنرى .

ثانياً : أن من أبرز سمات الغزل العذرى القصد إلى وصف العواطف الحارة

(١) ما بين القوسين اقتباس من سورة الكهف الآية ٢٨

(٢) اقتباس آخر من سورة النور آية ٣٣

(٣) تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام — ٢٣٢

(٤) انظر : الغزل فى العصر الجاهلى (د . الحوفى) ١٩٠ ومابعدها .

(٥) انظر تفصيل ذلك ونماذج على صوابه فى المصدر السابق ١٩٩ ومابعدها .

الصداقة ، التى تعذب صاحبها وتعنيه ، دون أن تتيح له لذة مادية ، وإنما اللذة الوحيدة ، التى يجدها هى لذة الألم بأنه يحب ، ويحب من لاسبيل إلى وصله ؛ ومن ثم فهو يسمو بعواطفه فوق نوازع الجسد — غالباً —

وهذه النزعة بعينها ، لم يخل منها الغزل فى الجاهلية ، وصدر الإسلام ، فنحن واجدون لها نماذج فى شعر عنترة ، وعبد الله بن عجلان النهدي ، والمرقشان ، الأكبر والأصغر ، وكلهم جاهليون ، وفى شعر عروة بن حزام ، وعبد الله بن علقمة العامري ، وهما من المخضرمين .

ويكفى أن نسوق نماذج قليلة من غزل هؤلاء الشعراء ، تفيض بالوجد ، وتعمر بالأحاسيس ، وتفصح عن الآلام ، وتعرب عن الوفاء ، والمعاناة الشديدة للحب ، والعفة فيه .

يقول المرقش الأكبر (١) :

أغالبك القلب اللجوج صبايةً وشوقاً إلى أسماء أم أنت غالبه
يهيمُ ولا يعيا بأسماء قلبه كذاك الهوى إمراره وعواقبه
أيلحى امرؤ في حبِّ أسماء قدناى بغمٍّ من الواشين وازورَّ جانبه
وأسماء همُّ النفس إن كنت عالماً ويادى أحاديث الفؤاد وغائبه
إذا ذكرتها النفس ظلَّتْ كأننى يُزعزعى قفقافُ ورْدٍ وصالبه

فالمرقش حيران فى أمره بين قلبه ، ونزوع نفسه ، أيتغلب قلبه فيظل على عشقه ، أم يتغلب نزوعه فينسى ؟ ولكنه يائس من ردع قلبه ، لأنه هائم بأسماء ، فلا محل للوم اللانم ؛ إذ لاجدوى من لومه ، لأنه مصر على عشقه ، معلق القلب بمعشوقته ، على الرغم

(١) الأغاني ٥ / ١٨٣ قفقاف : ارتعاد . ورد : اسم للحمى . صالب : حمى فيها رعدة . والمرقش الأكبر يسمى عمر أو عوف بن سعد بن مالك ، يتصل نسبه بيكر بن وائل . شاعر جاهلي قديم ، عاصر المهلهل بن ربيعة ، وشهد حرب البسوس بين بكر وتغلب ، وهو أحد عشاق العرب المشهورين ، كان يهوى ابنة عمه أسماء بنت عوف ابن مالك . انظر : الأغاني ٥ / ١٧٩ والشعر والشعراء ٥٤ والمؤتلف ١٨٤ ومعجم الشعراء ٢٠١ ومعاهد التنصيص ١ / ١٦٣ وتزوين الأسواق ٨٤ والمرقش الأصغر ابن أخيه ويدعى عمرو بن حرمة ، أو ربيعة بن سفيان ، وصاحبته فاطمة بنت المنذر ، وأخباره فى الشعر والشعراء ٥٦ ، ومصارع العشاق ١٤٧ فى ضمن أخبار عمه .

مما أصابه من غمٍ لسعى الوشاة بينه وبينها ، وكيف يستمتع لمن يلومه ، وهذا العشق هو طَلَبَةُ نفسه ، التي رضخت لأوامر قلبه ، بل هو حديث هذا القلب ، مظهر منه وما استتر ، ولا يكاد ذكرها يخطر في نفسه حتى يهتز كيانه كله ، وكأنما قد أصابته حمى .
فالحديث عن الوشاة ، وفقد السيطرة على القلب ، واعتلال النفس والبدن ، كلها من ملاح الغزل العفيف ، الناشئ عن العشق العفيف ، كما عرفناها في مقدمة هذا الفصل ، والتي سنراها أيضا عند العذريين الأمويين .

ويقول عبد الله بن العجلان ^(١) :

فارت هندا طائعا فندمت عند فراقها
فالعين تدرى دمة كالدّر من آماقها
متحلباً فوق الرّدا ء يجول من رقراقها
خود رداح طفلة ما الفحش من أخلاقها ...

فهو يبكي ندما على فراق هند ، التي كانت زوجه ، فأرغمه أبوه على تطليقها ، والرواية تحكى أنه ظل يشيب بها حتى مات كمدأ ، وهذا يشهد له بالوفاء في العشق ، والإخلاص لصاحبه ، وهذه بعض سمات الغزل العفيف .

وهل أدل على عفته من شهادة الشاعر نفسه ، بأن هنداً لم تكن تعرف الفحش ، وإنما كان يلذ له حديثها وعناقها قبل أن يطلقها ، ومن كانت كذلك لن يكون التغزل فيها إلا عفاً ، بريئاً من الفحش .

وعبد الله بن علقمة العامري ^(٢) ، عشق هو الآخر فعف ، وقتل على يد خالد بن

(١) هو أبو عمرة عبد الله بن العجلان النهدي القضاعي ، شاعر جاهلي مفلح ، أقل العشاق أياما ، عاش يكابد العشق ثلاثين سنة ، فهو أحد المتيمين من الشعراء ، ومن قتله العشق منهم ، وضرب به المثل في العشق كما ضرب المثل بعروة بن حزام ، قال قيس بن ذريح فيهما :

وفي عروة العذرى إن مت أسوة وعمرو بن عجلان الذى قتلت هند

(تزين الأسواق ٤٩) وهند هذه كانت امرأة ابن العجلان ثم طلقها فقدم ، ومات أسفا عليها ، قيل : قبل عام القيل بأربعة أعوام . انظر : الأغاني ١٩ / ١٠٢ وشرح الحماسة للمزروع ٣ / ١٢٥٩ وتزين الأسواق ٧٥ ، ٧٧ وسمط اللآلئ ٢ / ٦٥٤

(٢) أحد بني عامر بن عبد مناة بن كنانة ، أدرك الإسلام ، ولم يسلم ، وقتله خالد بن الوليد ، وكان على رأس سرية وجهها الرسول ﷺ يوم فتح مكة ، إلى بني عامر ، وصاحبه حبيشة بنت حبيش عامرية أيضا . وقصتها مروية في : الأغاني ٧ / ٢٣ وما بعدها وتزين الأسواق ٨١ — ٨٢ ومصارع العشاق ٢٠٧

الوليد في الإسلام ، فلما قدم للقتل قال ^(١) :

فإن يقتلوني يا حبيش فلم يدع هواك لهم منى سوى غلة الصدر
وأنت التي أخليت لحمي من دمي وعظمي وأسبلت الدموع على نحري
فردت عليه حبيشة : ^(٢)

ونحن بكينا من فراقك مرة وأخرى وآسيناك في العسر والبسر
وأنت فلا تبعد فتعم فني الهوى جميل العفاف في المودة والستر

فضلا عما في غزله من ملامح غزل العذرين الأمويين ، من دلائل حرقة الهوى ، وأثر العشق في اصفرار البشرة ، واعتلال الجسم ونحوه ، فهناك شهادة صاحبه الصريحة بأنه عف الهوى ، جميل العفاف .

ثم يأتي عروة بن حزام ^(٣) ، فيلم في شعره الذى يحكى قصته مع ابنة عمه عفراء ، بأكثر ملامح شعر العذرين الأمويين ، فشعره يتميز بكل السمات الاجتماعية والنفسية والخلقية والفنية التى نجدها من بعده في شعر سائر العذرين ، كما أن قصة عشقة تعكس الإطار العام ، الذى دارت فيه قصص العذرين الأمويين ، فقد أحب عفراء منذ كانا صغيرين ، وخطبها من عمه فلم يجبه لفقره ، فرحل إلى ابن عم آخر له موسر ليعينه على صداق عفراء ، وعاد بمائة من الإبل : ولكن عمه كان قد طمع فزوجها من رجل ثرى ، رحل بها إلى موطنه في الشام ، ويدعى العم لعروة حين عاد أن عفراء ماتت ، ولكنه يكشف الحقيقة بعد فترة ، فيأخذ في الهيام المعروف عند العذرين ، ويفجر الفقد ينابيع الشعر فيه ، فتفيض بشعر حافل بالآلام والأنات ، والذكريات ، واللوعة ، ثم لا يلبث أن ينال العشق من روحه وبدنه فيفارق الحياة ، وشفاته تردد بعض شعره في عفراء .

(١) تزيين الأسواق ٨١ ومصارع العشاق ٢٠٨ والأغاني ٧ / ٢٥ .

(٢) الأغاني ٧ / ٢٦ ومصارع العشاق ٢٠٨ .

(٣) من بنى ضبة العذرين ، شاعر مخضرم — عاش أيام عثمان — فتمكن في العشق ، وهو أول عاشق في الإسلام مات عشقا ، ولا يعرف له شعر إلا في ابنة عمه عفراء ، وهى بنت هصر أخى حزام ، كلاهما ابنا مالك ، بطن من بنى عذرة ، ولشدة معاناته في العشق ضرب به المثل بين العرب والمولدين توفي سنة ٣٠ وقيل : ٢٨ هـ . انظر : الأغاني ٢٠ / ١٥٢ ومصارع العشاق ٢٠٩ وفوات الوفيات لابن شاکر ٢ / ٣٣ وتزيين الأسواق ٧٠ ، ٧٢ ، ٧٣ .

ومن شعره الذى يعكس الملامح العذرية ^(١) :

تحملت من عفراء مالميس لى به ولا للجبال الراسيات يدان
 فيارب أنت المستعان على الذى تحملت من عفراء منذ زمان
 كأن قطاة علقت بجناحها على كبدى من شدة الخفقان
 جعلت لعراف الحمامة حكمه وعراف نجد إن هما شفيانى
 فما تركا من رقية يعلمانها ولا سلسوة إلا وقد سقيانى
 فقالا: شفاك الله ، والله مالنا بما حملت منك الضلوع يدان

فهذا شعر يعبر عن عاطفة حارة صادقة ملتاعة ، وعن معاناة فى الحب يغذيها الحرمان ، وفيه هذا الأسلوب الذى طالما رده الشعراء العذريون الأمويون ، أسلوب النداء (فيارب) .

وفى شعره أيضا تلك الرعدة التى تصيب العاشقين ، وحبسة اللسان عند لقاء الصاحبة ، وتمرد القلب على السلوى ... الى آخر ما عرفنا من صفات العشق العذرى فى التقديم .

من ذلك قوله المشهور ^(٢) :

وإني لتعروني لذكرك هزة لها بين جلدى والعظام دبيب
 وماهو إلا أن أراها فجاءة فأبْهَتْ حتى ماأكاد أجيب
 وأصدف عن رأيى الذى كنت أرئى وأنسى الذى أزمعتُ حين تغيب
 ويظهر قلبى عذرها ويعينها على فمالي فى الفؤاد نصيب ...

وسنرى الشعراء العذريين الأمويين يكثرّون من وصف نحول أجسامهم من ضنى العشق ، وما هو ذا عروة يتكر صورة شخصية أصيلة ؛ لتصوير هذا النحول ، فيقول مخاطبا واشيين لا يكفان عن تعقبه ^(٣) :

أغرِكَا منى قميص لبسته جديد وُردًا يمنة زهيان

(١) الأغاني ١٥٥/٢٠ ومصارع العشاق ١٣ ، ٢١٠ والنوادر للقالى ١٥٩ عراف الحمامة : كاهن يقال له :

رياح ابن راشد ، وكنيته أبو كحلاء ، مولى لبنى يشكر ، ويقال : كان له قرين من الجن .

(٢) الأغاني ٢٠ / ١٥٥ وأمالى المرتضى ١ / ٤٥٩ والشعر والشعراء ٢٣٨

(٣) الأغاني ٢٠ / ١٥٤

متى ترفعا عنى القميص تبينا بى الضر من عفراء يافتيان
وتعترفا لحماً قليلاً وأعظما رفاقاً وقلبا دأماً الخفقاتان
على كبدي من حب عفراء قرحة وعيناي من وجد بها تكفان
وروعة هذه الصورة في أنها لاتتحدث عن هذا له كأنه حقيقة ملموسة ، يراها
الناس ، بل ترسم مفارقة بين ماقد يظنه الناس فيه من عافية ، إذ ينظرون إليه في قميصه
الجديد ، ويرديه اليمنيين المشرقين ، وما ينطوى عليه من ضنى تجاوز الجسد إلى صميم
الوجدان .

وقد قصدنا بالإكثار من إيراد هذه النماذج من أشعار الجاهليين والمخضرمين العفة ،
أن نبرز مافيه من ملامح سنراها من الملامح الأساسية في غزل العذريين الأمويين ، من حرقة
الهوى ، ولذعات الشوق ، ومرارة الحرمان ، وندرة القرب ، وصعوبة الوصل ، وليس من
بينهم إلا شاعر واحد اعتنق الإسلام ، ومع ذلك فلا نراه إلا كزملائه أسير تقاليد البيئة
البدوية الاجتماعية القاسية ، التى تجعل من اتصال الرجل بالمرأة ، اتصال حب وهوى
وصمة عار ، تحرم على الشاعر الزواج بمن تحدث عن هواها في شعره ، أو عرف بحبها .
إنه مجتمع شديد المحافظة ، تجرى فيه حياة العاشقين وفق تقاليد مرعية ، فما ينبغى
لمن يعشق أن يذيع أمره بين الناس ، ولا أن يقول شعرا في صاحبتة يشيع بينهم ، وإلا كان
قد ألحق العار بصاحبتة وأهلها وقبيلتها جميعا ، وحق عليه أن يحرم منها إلى الأبد ، وأن
يستباح دمه إذا هو تعرض لها بعد معرفة أهلها علاقته بها .

فالقيم الأخلاقية التى يمثلها الغزل العذرى هى بنت البادية ، التى عاش فيها
العذريون فى الجاهلية والإسلام ، وإلى هذا يشير الأستاذ العقاد ، فى قوله (١) : « البادية
تتقيد ببعض القيود ، التى تستدعيها معيشة البدو ، ولاتستدعيها معيشة الحضريين ؛ لأن
المنفعة ضرورة من ضرورات الحياة بين أهل البادية ، ولانماص من الاشتهار بمناعة الحوزة
بين الأعداء والنظراء ، وإلا طمع فيهم كل طامع وأول حوزة يحميها الرجل هى
المرأة ، فمن شرف البدوى أن تكون فئاته منيعة الحمى ، يتقاصر عنها لسان المتغزل ، كما
يتقاصر عنها سيف المغير » .

وإذن : فالمنعة أوجدت الحرمان ، والحرمان اقتضى هذا الحب العفيف ، والغزل العفيف ، يقول أبو عبيدة البكري : « الظفر بالمعشوقة يسقط شطر عشقيها (الحب) وأن النكاح يسقط الحب » (١) .

يعنى حرارة العاطفة وعفتها ، كذلك يرى الجاحظ أن الوصل يضعف العشق (٢) .

ثالثا : لو أن العامل الدينى هو العامل الأساسى الوحيد فى نشأة الغزل العفيف ، لما انحرف الشعراء العذريون الأمويون عن العفة والتقوى ، باحتياهم على دخول بيوت لأزواج صاحباتهم ، والانفراد بهن ساعة من ليل أو نهار ، أو مراسلتهم ، وقد يضيق الزوج ، أو الأهل ذرعا بالعاشق الذى لا يجدى معه تهديد ، ولاتثنية قوة ، فلا يجدون مناصا من الشكوى إلى السلطان ، فيهدر السلطان دمه ، إن هو جاء بعد ذلك إلى ديار الأهل أو الزوج ، حدث هذا من جميل (٣) ، كما حدث مع توبة (٤) ، ومع مجنون ليلي ، الذى يعبر عن هذا فى قوله (٥) :

ألا حُجبت ليلي وآلى أميرها على يميناً جاهداً لا أزورها
وأوعدنى فيها رجال أبرهم أنى وأبوها حُشِنَتْ لى صدورها

كذلك أهدر معاوية دم قيس بن ذريح ، لكثرة تردده على ديار لبنى بعد أن طلقها ، وشكوى أهلها من ذلك (٦) .

وليس لهذا معنى إلا أن هؤلاء العذريين ، لم يكونوا أعفة ولاتقاة بالمعنى الكامل ، حقيقة أنهم كانوا يعفون ، وهذه العفة هى التى تفسر ما فى شعرهم من الزهد البالغ ، والرضا بمن يعشقون بأقل القليل ، بل بمجرد التلويح بالأمل الذى لا يتحقق . كقول جميل ، مثلاً :

(١) سبط اللآلى ٢ / ٦٩٣

(٢) رسائل الجاحظ ٢ / ١٨٧

(٣) الأغاني ٧ / ٨٠ ، ٨١

(٤) المصدر نفسه ١٠ / ٦٣

(٥) ديوانه ١٤٦

(٦) الأغاني ٨ / ١١٧

وإني لأرضى من بشية بالذى لَوَانِصِرُو الواشي لقرت بَلَابْلُهُ
بلا وبأ لأستطيع وبالمنى وبالأمل المرجو قد خاب آمله

ولكن هذه العفة لا تكفى وحدها دليلا على التقوى ، مع ما في سلوكهم من صور
لا تتفق كثيرا مع الالتزام الذى يعرف به المتقون ، كما أنها لا تكفى وحدها فى تعليل نشأة
الغزل العذرى ، ونسبة هذه النشأة إلى العصر الأموى .

لابد إذن من هذا العامل الاجتماعى الذى أرجعناه إلى تقاليد البيئة البدوية ، وهو
الحرمان ، فيه يستقيم فهم ما عرفوا به من عفة من ناحية ، وما عرف عن سلوكهم الخاص
من ناحية أخرى .

كما أنه يفسر وجود هذا الضرب من الغزل العفيف فى الشعر الجاهلى ، ويدل على
أن نشأته لم تكن أموية خالصة ، كما ذكر الدكتور طه حسين ومن جاراته من الباحثين .
ومع ذلك فلا يسعنا إلا أن نؤكد أن الحياة الإسلامية كانت مشجعة على عفة
العشق وعذرية الغزل ، حتى فى البادية ، فقد سئل أعرابى ماذا كان يصنع لو ظفر
بصاحبتة ، ولا يراها غير الله ؟ فقال : إذن لأجعله أهون الناظرين ، ولكنى أفعل بها
ما أفعله بحضرة أهلها ، شكوى ، وحديث عذب ، وإعراض عما يسخط الرب ، ويقطع
الحب ^(١) .

وقيل لأعرابى آخر ليلة تزويج صاحبتة : أيسرك أن تظفر بها ؟ قال : نعم ، قيل :
فما كنت تصنع بها ؟ قال : أطيع الحب فى لثمها ، وأعصى الشيطان فى إثمها ^(٢) .
وروى الأصمعى : قيل لأعرابى : ماتصنع إن ظفرت بمحبوبتك ؟ قال : أمتع عيني
من وجهها ، وسمعى من حديثها ، وأستر منها ما يحرم كشفه ، إلا عند حله ^(٣) .

ذلك أن الإسلام خلق مجتمعا يخضع لقوانين وشرائع واضحة محددة ، تقوم على
تنفيذها حكومة منظمة ، وتتطلب من الفرد التنازل عن كثير من حريته الفردية السابقة

(١) سبط اللاتى ٢ / ٦٩٣ وديوان الصبابة ١٩٣

(٢) تزيين الأسواق ٨ وديوان الصبابة ١٩٤

(٣) تزيين الأسواق ٨

على الإسلام ، كما أنه نظم علاقة الرجل والمرأة على أساس من الرباط المقدس ، رباط الزواج ، وحظر الاندفاع وراء الغريزة الجنسية ، إلا من طريق هذا الرباط ، كما حرم البغاء ، وقذف الأعراض ، فسمما بالأخلاق إلى أجواز الفضيلة والظهر .

غير أن هذه القواعد الإسلامية ، لم تكن قاصرة على البادية دون الحضر ، بل إن المعروف عن البدو أنهم أقل تأثراً بالحياة الدينية من أهل الحضر ، والقرآن الكريم يشهد بذلك في قوله تعالى (١) : « الأعراب أشد كفرا ونفاقا ، وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله » .

ولهذا كان العامل الدينى وحده ، نغنى التأثير بالإسلام ، وما يطالب به المؤمن من تقوى الله ، هو الباعث الوحيد لمن عف في عشقه من أهل الحضر ، وبخاصة من العلماء المؤمنين ، المشهورين بزهدهم وتقواهم ، من مثل : عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أحد الفقهاء السبعة بالمدينة في العصر الأموي ، الذي يصرح في غزله بأنه تجنب إتيان الحبيب تأمناً (٢) .

كذلك كانت التقوى وراء عفة عروة بن أذينة ، أحد فقهاء المدينة وعبادها في شعره الغزل (٣) ، وكانوا يردون على من يلومهم في الحديث عن الهوى العفيف في شعرهم ، بأنه لا بد لهم من أن ينفثوا ما في صدورهم .

وعبد الرحمن بن عمار الجشمي الملقب بالقسّ لشدة تقواه وورعه ، لما شغف بسلامة الجارية المغنية ، عبر عن شغفه في شعر غزل عفيف ، وما كانت عفته إلا بنت تقواه ، لابنت الحرمان ، أو حيلولة التقاليد الاجتماعية بينه وبين وصلها ، وقضاء حق الهوى معها ، ولأدل على ذلك مما يرويه صاحب الأغاني ، من أن سلامة قالت له يوماً : أنا والله أحبك !! فقال : وأنا والله أحبك !! قالت : وأحب أن أضع فمي على فمك ، قال : وأنا والله أحب ذاك ، قالت : فما يمنعك ؟ فوالله إن الموضع لحال ، قال : أني سمعت الله عز وجل

(١) سورة التوبة ٩ / ٧٩

(٢) انظر هذا الغزل في : العقد الفريد ٣ / ٣٩١

(٣) المصدر السابق

يقول : « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين » . وأنا أكره أن تكون خلة ما بيني وبينك تؤول إلى عداوة ، ثم قام وانصرف ، وعاد إلى ما كان عليه من نسك ^(١) .

ولا ينبغي أن يفهم مما ذكرنا أننا ننكر تأثير الإسلام في نفوس الشعراء البدو العذريين في العصر الأموي وأشعارهم ، فما إلى هذا قصدنا ، وإنما غرضنا أن نرد على من ذهبوا إلى أن العامل الديني كان سببا في نشأة فن جديد من الغزل في البادية في العصر الأموي ، هو هذا الغزل العذري .

على أن تأثير الإسلام في نفوس العذريين قضية لا يعلم إلا الله مدى حظهم منها ، ولانملك إلا أن نتلمس مظاهر هذا التأثير في سلوكهم وأشعارهم ، أما سلوكهم فقد تحدثنا عن طرف منه رأيناه لابلانم التقوى الكاملة ، وأما أشعارهم فإن تأثير الإسلام فيها يعرب عن نفسه من حين لآخر ، في بعض الصور والأفكار والمعاني ، والأساليب الجزئية وفي بعض الألفاظ أيضا ، تكثر هذه الملامح في شعر بعض شعرائهم ، وتختفى أو تكاد عند آخرين ، وهذا أمر طبيعي ، فالنفوس تختلف في استشعارها لروحانية الدين ، وفي مدى تقبلها للمواءمة بين اعتقادها وسلوكها ، كما تختلف في مدى صفائها الروحي ، وحساسيتها للتأثر ، وفطنتها لما ينفعها في حياتها الأولى والآخرة ، وقد يتفق كل هذا لبدوي ، ولا يتفق لحضري ، وقد يرزق به من يستجيب لفطرته السليمة ، أكثر ممن يفقه الدين بعقله وعلمه ، والله يهدي من يشاء .

وفي شعر مجنون ليلى نلمح بعض مظاهر التأثير الديني ، في قوله ^(٢) :

أما والذي يُبلى السرائر كلها ويعلم ماتبدى به وتغيب
لقد كنت مما تصطفى النفس خلة لها دون خلان الصفاء حجوب

فالشاعر متأثر ببعض المعاني والألفاظ المستمدة من القرآن العظيم ، فقله : « يبلو السرائر » مستمد من قوله تعالى : « يوم تُبلى السرائر ^(٣) » وقوله : « ويعلم ماتبدى به وتغيب » مستمد من قوله تعالى : « والله يعلم ماتبدون وماتكتمون ^(٤) »

(١) الأغاني ٨ / ٦

(٢) ديوانه ٥١

(٣) الطارق ٨٦ / ٩

(٤) النور ٢٤ / ٢٩

وفى قوله (١) :

وتزعم لئلى أنسى لأحبهـا بلى واللىالى العشر والشفع والوتر
وواضح أن الشطر الثانى من البيت يستمد معناه ونص عبارته تقريبا ، من قوله
تعالى : « والفجر ، وليالى عشر ، والشفع والوتر » (٢) .

وفى قوله (٣) :

أحبك حتى يبعث الله خلقه ولى منك فى يوم الحساب حسيب
فالبعث والحساب معان إسلامية .

ويقول أبو صخر الهذلى (٤) :

أما والذى أبكى وأضحك والذى أمات وأحيا والذى أمره الأمر
وهذا قسم بمعان إسلامية قرآنية ، تتردد فى القرآن العظيم .

ويقول كثير عزة (٥) :

خليل هذا رّبع عزة فاعقلا قلوبيكما ثم ابكيا حيث حلت
ولا تياسا أن يمحو الله عنكما ذنوبا إذا صلتما حيث صلت
فالله هو الذى يمحو الذنوب ، وهو معنى قرآنى ، ولفظ الصلاة هنا ومعناها
مأخوذ من معنى الصلاة الإصلاحى الشرعى .

هذا فضلا عن أساليب الدعاء ، والتضرع إلى الله ، والتوجه بالشكوى إليه
وغير ذلك مما يصدر عن النفوس المسلمة المعتقدة ، ويظهر فى شعر العذريين
الأمويين ، الذى سنعالجه بالدراسة فيما سياتى .

ومع ذلك فإن هذه التماذج وأشباهاها ، إن دلت على تأثر الغزل العذرى ، بوصفه
فنا شعريا ، بالدين والقرآن ، فإنها لاتدل بالضرورة على تأثر عاطفة العشق نفسها بالدين
والقرآن .

* * *

(١) ديوانه ١٦٣

(٢) الفجر ٨٩ / ١ - ٣

(٣) ديوانه ٥٥

(٤) عيون الأخبار ٤ / ١٣٨

(٥) ديوانه ٩٥

نخلص من هذه الدراسة إلى نتيجتين هامتين :

أولاهما: أن الغزل العفيف ليس فنا إسلاميا جديدا ، أضافه الشعراء العذريون الأمويون إلى فنون الشعر العري ، ولم يكن معروفا لسابقيهم من الشعراء ، فقد عرفه طائفة من الشعراء الجاهليين والمخضرمين ، وقالوا فيه نماذج من أشعارهم ، كما كان في جملة تجاربهم الشعرية ، التي حددت لهذا الفن إطاره العام ، وكثيرا من خصائصه النفسية ، ومعالمه الفنية ، على النحو الذي رأيناه ، على ضوء دراستنا لبعض نماذجهم في الغزل العفيف .

كذلك لم يكن فن الغزل العفيف مزدهرا في العصر الأموي ، ذاويا ، قليل الشأن في الجاهلية وصدر الإسلام ، وإنما كان رأينا مشمرا في هذه العصور جميعا ، حتى هذا القصص العذري ، الذي اشتهر في العصر الأموي ، نجد له شبيها في العصر الجاهلي ، ففي التراث الشعبي قصة عربية جاهلية ، تعبر عن العشق العفيف في أروع مظاهره ، ولاتقل في عناصرها ، وحياة أبطالها ، والإطار العام لأحداثها ، عن قصص العشق العذري في عصر بني أمية .

نعرف منها قصة قديمة ، ضاربة في القدم ، هي قصة مُضاض بن عمرو الجرهمي^(١) مع ابنة عمه « مَيَّ » بنت مُهَلِيل بن عامر^(٢) ، فهي شبيهة بقصة مجنون ليلى في العصر الأموي ، ففيهما معا يعشق الشاعر ابنة عمه ، ويحرم منها ، ويموت لفراقها ، وكل من الشاعرين ضرب مثلا في زمانه للإخلاص في العشق ، وإتلاف نفسه في سبيله .

ومما قيل في مضاض الجرهمي ، قول رجل من أهل الطائف^(٣) :

أموت إذا جدَّ الفراق يثيرُ
كما مات من حرِّ الفراق مُضاضُ

غاية الأمر أن العذريين الأمويين كانوا أنضج تجاربا ، وأرق أسلوبا ، وأكثر شفافية في غزلهم العذري ، فقاموسهم اللغوي يحوى من الألفاظ والعبارات والأساليب ، ما يميزون به عن سابقيهم ، كما تميزوا بمعان وألفاظ إسلامية ، لم يعرفها سابقوهم كما سنرى .

(١) مضاض بن عمرو بن الحارث الجرهمي ، عاشق جاهلي قديم ، يقال : إن ابنة جدّه (رجلة) تزوجت نبي

الله إسماعيل ، عليه السلام ، انظر : الأغاني ١٣ / ١٠٣

(٢) انظر تفصيل هذه القصة في : كتاب التيجان في ملوك حمير (أبو محمد بن هشام) ١١٨

(٣) المصدر السابق .

أما من حيث الكم الشعرى ، فلا نستطيع أن نتخذ منه دليلاً على قلة اهتمام الجاهليين بهذا الفن ، أو قلة عنايتهم به ، على حد تعبير الدكتور طه حسين ، فر بما كان عند الجاهليين من شعراء الغزل العفيف قصص كثير ، وشعر عفيف كثير ، ضل طريقه إلينا ، في جملة ماضع من أشعار الجاهليين في أغراضهم المختلفة ، يقول أبو عمرو بن العلاء : « ما انتهى إليكم مما قالت العرب (يعنى فى الجاهلية) إلا أقله ، ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير » ^(١) ، وفى رواية لابن سيرين عن عمر بن الخطاب (ض) أن ما حفظ من الشعر الجاهلى هو أقله ، وماضع أكثره ، ويعلل هذا بتعليل حسن معقول ^(٢) .

أما قصص العشق العذرى ، وما دار حولها من غزل عذرى فى العصر الأموى ، فقد وصل إلينا أكثر ذلك ، لما عرف فى هذا العصر ، من الاهتمام بالرواية الأدبية ، والاتجاه إلى التدوين .

أما النتيجة الأخرى : فهى أن أثر الإسلام فى الغزل العذرى الأموى لا يتعدى — فيما نرى — أمرين :

١ — زيادة فرص الحرمان ، الذى كان السبب الرئيسى فى نشأة العشق والغزل العذريين فى البادية العربية ، بما جاء به الإسلام من قواعد صارمة فى تحديد فرص الاتصال بين الرجل والمرأة ، وتنظيم العلاقة الحسية بينهما ، على أساس من الطهر ، فى ظل رباط مقدس ، ومع ازدياد فرص الحرمان ، يكثر التسامى بعاطفة العشق ، والعفة فيه .

ولاعنى هذا أن الحرمان وحده هو باعث هذا الغزل ومؤججه ، فى نفوس الغزلين العذريين فى العصر الأموى ، فقد نفذ الإسلام إلى قلوب هؤلاء الشعراء العذريين ، ووجداناتهم — أو بعضهم على الأقل — ونمت عن هذه الروح الدينية التقية بعض أشعارهم الغزلة ، فمما يسلم به أن الإسلام كان له أثر بعيد فى سيطرة هذا الجليل من الشعراء على غرائزه ، وتساميه بها ، واستمساكه ، قدر الطاقة ، بالعفة والتقوى ، وخبر جميل مع بشية ، وماتضمنه من امتناعها عما دعاها إليه — مختبراً — من قضاء حق

(١) ابن سلام ٢٥ (المدنى) .

(٢) المصدر السابق ٢٤ — ٢٥ .

الهوى ، مروى فيما مر بنا ، وهو شاهد صدق على ما ذكره هنا .

واحترام العلاقة الزوجية ، ورعاية حقها ، الذى أكده الإسلام ، وأحاطه بسياج من الحقوق والواجبات ، من دوافع ليلي الأخيلية فى ردها على صاحبها توبة بن الحُمير ، وكان قد عرض لها بحق الهوى : (١)

وذى حاجة قلنا له لا تبغ بها فليس إليها ماحيت سبيل
لنا صاحب لا ينبغي أن نخونه وأنت لأخرى صاحب وحليل

٢- التأثر الفنى ببعض الصور والأفكار ، والمعانى والألفاظ ، المستمدة من آداب الإسلام وقيمه وتعاليمه بعامة ، ومن ألفاظ القرآن ومعانيه بخاصة .

— ٣ —

أشهر الشعراء العذريين الأمويين :

هذا ، وشعراء الغزل العذرى ، فى بادية الحجاز ، فى العصر الأموى كثيرون ، منهم من اقترن اسمه باسم صاحبتة ، فاشتهر بذلك ، فيقال : مجنون ليلي ، وكثير عزة (٢) ، وقيس لبنى ، وجميل بثينة ، وهو أنسب الأربعة (٣) .

ومنهم من اشتهر باسمه مجردا من الارتباط باسم صاحبتة ، من هؤلاء : توبة بن الحُمير — وصاحبتة هى ليلي الأخيلية — ونصيب بن رباح — تعلق بامرأة تدعى أم بكر (٤) — وأبو صخر الهذلى — تعشق امرأة من قضاة تدعى أم حكيم — والصمة بن عبد الله القشيري — وصاحبتة تدعى ربا ... وغيرهم .

(١) ديوانها ٩٥ وأمالى القالى ١ / ٨٩ ، وانظر تفسير الحاجة فى البيت الأول ، فى ديوانها ، فى الموضع المذكور .

(٢) هى عزة ابنة أبى بصرة الغفارى حميد بن وقاص المحدث ، من بنى ضمرة بن بكر بن عبد مناف (وفى تزيين

الأسواق ٣٩ عزة بنت جميل بن حفص بن إياس بن عبد العزى من بنى ضمرة) ، يقال : كانت حلوة حمراء ، نظيفة ،

بارعة الحديث ، دخلت على عبد الملك بن مروان ، فقال لها : أنت عزة كثير ؟ فقالت : أنا عزة بنت حميد (وفى أمالى

القالى ١٠٩ / ٢ : « أنا أم بكر الضمرية ») قال : فما الذى أعجب كثير منك — وكانت إذ ذاك مسنة — قالت : كلا

يا أمير المؤمنين ، فوالله لقد كنت فى عهده أحسن من النار فى الليلة القرة ، وكانت بالمدينة ، ثم نزلت مصر ، فقصدها

كثير ، فوافاهما توفيت والناس منصرون عن جنازتها ، فوقف على قبرها وقال :

أقول ونضوى واقف عند قبرها عليك سلام الله والعين تسفح

وقد كنت أبكى من فراقك حية فأنت لعمري الآن أنأى وأنزح

انظر : أمالى القالى ١٠٩ / ٢ والأغانى ٨ / ٢٦ ومعاهد التنصيص ١ / ١٨٣ وعيون الأخبار ١ / ١٤٧

(٣) تزيين الأسواق ٣١

(٤) كذا قيل فى أمالى الزجاجى ٢٠ وذكرها فى بعض شعره .

هؤلاء هم المشهورون في تاريخ الحركة العذرية الأدبية ، في العصر الأموي ، ونتاجهم الشعري هو أكثر ماوصل إلينا ، من الغزل العذري ، في هذا العصر .

ويعد جميل بن معمر أمير هؤلاء العذرين جميعا ، وإمامهم في هذا الضرب من الغزل ، بهذا شهد النقاد ، والعلماء بالشعر ، من القدماء والمحدثين ، وأقوالهم في هذا كثيرة .

من ذلك ، ما ذكره أبو الفرج الأصفهاني ، رواية عن ابن سلام من أن جميلا مقدم على أصحاب النسيب ^(١) ، في الإسلام ، ومن القدماء من قدمه على العذرين في الجاهلية والإسلام ، وقال : « والله ما لأحد منهم مثل هجائه ولا نسييه » ^(٢) .

وكان كثيرٌ يقدمه على نفسه ، ويتخذه إماماً في هذا الفن ، ويقول ، إذا سئل عنه : « وهل — علم الله عز وجل — ماتسمعون إلا منه » ^(٣) ، ويقول : « هل وطأ لنا النسيب إلا جميل » ^(٤) .

كذلك كان نُصيب يشهد لجميل بالتفوق في النسيب ، ويصرح بالأخذ عنه ، « قائلا : ذاك إمام المحبين ، وهل هدى الله — عز وجل — لما ترى إلا بجميل » ^(٥) .

ولا يشكك في صدق شهادة هذين الشاعرين كونهما تلميذين لجميل ؛ ذلك أن جميلا كان ينتمى إلى مدرسة شعرية عرفت بمجودة الفن ، وعلو الكعب فيه ، فقد كان رواية هُذبة بن خشرم العذري ، وهُذبة كان رواية الخطيئة ، والخطيئة رواية زهير بن أبي سلمى وابنه كعب ^(٦) ، وزهير أحد ثلاثة هم أشعر أهل الجاهلية .

ويمثل هذا قال المحدثون عن جميل ، حيث عدوه أستاذاً للمدرسة العذرية كلها في الإسلام ^(٧) .

(١) ابن سلام ٥٤٥ (المدي) والأغاني ٧ / ٧٥

(٢) الأغاني ٧ / ٧٥

(٣) المصدر السابق ٧ / ٧٣

(٤) نفسه ٧ / ٧٦

(٥) نفسه ٧ / ٧٦

(٦) نفسه ٨ / ٧٣

(٧) انظر : تاريخ آداب اللغة (زيدان) ٢٢٥/١ ، ٢٢٧ ، وتاريخ الشعر العرفي (البهيتي) ١٦٥

— ٤ —

أهم اتجاهات الغزل العذرى في العصر الأموى :

أبرز ما يعالجه الغزل العذرى في العصر الأموى ، ويعبر عنه مايلي :

١- شكوى الحرمان مع غلبة الهوى :

ليس من شك في أن كل شاعر من هؤلاء العذريين كان يطمح أن تبلغ علاقته بصاحبته غايتها المشروعة التي يقرها الدين والمجتمع ، غير أنه لسبب أو لآخر يقف المجتمع في وجه هذه العلاقة ، فيفرش طريقها بالشوك ، ويقيم فيه الحواجز والسدود ، ويغدو الشاعر العاشق طريد الأهل أو الزوج ، مهددا منهم ، أو من السلطة الحاكمة معهم ، محجوزا عن رؤية صاحبته ، مترئصاً به إن حاول .

ولم يكن الشاعر — عادة — ليرزجر بالتهديد ، أو يعترف بما أقامه المجتمع في طريقه من موانع وعقبات اجتماعية شديدة الصرامة ؛ ذلك أنه ليس عاشقا فقط ، ولكنه شاعر أيضا ، يرى في علاقته الغرامية مصدر وحى وإلهام لشاعريته ، فلا يقعد عن محاولة الاتصال بملهمته ، وكلما أخفق أمده الحرمان بوقود متجدد لعواطفه ، فتلتهب وتتلظى ، ومن هنا تقوم بين العاشق والمجتمع خصومة ، تدور على المواجهة والتحدى ، يسلك فيها المجتمع سبيل التهديد بالقوة ، أو بالسلطة ، أو بهما معا ، ويختفى فيها الشاعر بالشعر ، يث فيه حرقة الوجد ، وشقاء الحرمان ، وشبوبة الهوى .

وقد يتجه الشاعر بشكواه إلى صاحبته ، فيضع بين يديها أمر سعادته وشقائه ، ويشكو إليها بته وحزنه ، عليها تعينه على ما ابتلى به من عشق ، فتجود بالوصل .

كذا فعل جميل ، ولكن بثينة ضئيلة بوصالها ، مما أسقم جسمه ، وأثار شفقة العدو والصديق عليه ، حين يراه على هذه الحال ، بل إنه ليثير شفقة الحمام فيبكي لبكائه ، ومع ذلك لايزيده الحرمان من وصلها ، والبعد عنها إلا وجدا بها ، وشوقا إلى رؤيتها ، وهو يتحسر على أيام عمره التي تمضى ، وقد تفاجئته المنية ، قبل أن ينعم بقربها ^(١) :

(١) ديوانه ٢٢٠ والأغاني ٧ / ٩ وتنسب للمجنون في ديوانه ٢٩٥ وتزين الأسواق ٦٩

وَأَنْتِ الَّتِي إِنْ شِئْتَ كَدَّرْتَ عَيْشَتِي وَإِنْ شِئْتَ بَعْدَ اللَّهِ أَنْعَمْتَ بَالِيَا
وَأَنْتِ الَّتِي مَامِنْ صَدِيقٍ وَلَا عِدًّا يَرَى نِضْوً مَا أَبْقَيْتَ إِلَّا رُثَى لِيَا
وَمَا زِلْتُمْ يَابِئُشُنْ حَتَّى لَوْ أَنَّنِي مِنَ الشَّوْقِ أَسْتَبْكِي الْحَمَامَ بِكِي لِيَا
وَمَا زَادَنِي النَّأَى الْمَفْرَقُ بَعْدَكُمْ سُلُوءًا وَلَا طَوْلُ التَّلَاقِ تَقَالِيَا
أَلَمْ تَعْلَمِي يَا عَذْبَةَ الرِّيقِ أَنَّنِي أَظْلُ إِذَا لَمْ أَلْقُ وَجْهَكَ صَادِيَا
وَقَدْ خَفْتُ أَنْ أَلْقَى الْمَنِيَّةَ بَغْتَةً وَفِي النَّفْسِ حَاجَاتٌ إِلَيْكَ كَمَا هِيَ

ونلاحظ هذه الإشارات السريعة ، التي تجعل من عفة هذا الغزل موضع نظر ، لما شابها جميل من رغبة تنم عنها هذه الإشارات : « يا عذبة الريق » و « في النفس حاجات » .

كما نلاحظ المعنى الدينى فى البيت الأول « إِنْ شِئْتَ بَعْدَ اللَّهِ » ، وهذا التكرار الذى يؤكد إحساس الشاعر بالوفاء والدوام على العشق ، والذى يعتمد على تكرار ضمير المخاطبة (أَنْتِ) فى بداية البيتين الأولين .

وقد يبلغ ضيق العاشق بوطأة الحرمان الناشئ عن صرامة المواجهة الاجتماعية ، أن يتمنى أمنيات هى — على قسوتها وشذوذ بعضها — نوع من الهروب بالوهم من قسوة الواقع المحروم ، الذى يصعب احتماله .

من هذا قول جميل ^(١) :

أَلَا لَيْتَنِي أَعْمَى أَصَمُّ تَقْوَدُنِي بِشِينَةٍ لَا يَخْفَى عَلَيَّ كَلَامُهَا

فهو يتمنى من قَرُطِ الإحساس بالحرمان ، لو كانت به هاتان العاهتان ، على أن تقوده بشينة ، اكتفاء بلذة الصحبة ، والشعور بأنها تحادثه ، وإن لم يسمع حديثها .

وهذا المعنى من عجيب ماعبر عنه فى مقام الدلالة على قسوة الحرمان ، واليأس من النوال ، ولعل هذا ماجعل سكينه بنت الحسين تقول لجميل : أفرضيت من نعيم الدنيا وزهرتها ، أن تكون أعمى أصم ، إلا أنه لا يخفى عليك كلام بشينة ؟!

والرضا من المعشوقة بالقليل ، بل بأقل القليل ، ظاهرة واضحة فى أشعار العذريين

ففى ظل الحرمان يقنع جميل بكل ماتجود به بثينة ، مهما كان هينا ، مثيرا لشماته
 الوشاة ، فهو يقنع منها بالرفض الصريح للوصال ، وبالرفض المقنع ، وبالوعد الكاذب ،
 وبالنظرة الخاطفة ، وبالعام ينقضى لا يرى فيه وجهها ، هو قانع بعشقها على كل حال ،
 وحسبه لذة الألم فى هذا العشق ، فهى التى تستمد منها موهبته الفنية زادها : (١) :
 وإنى لأرضى من بثينة بالذى لَوَ أبصره الواشى لقرت بلبله
 بلا ، وبأن لأستطيع ، وبالمنى وبالأمل المرجو قد خاب آمله
 وبالنظرة العجلى وبالحول تنقضى أواخره لانتقى وأوائله
 بل هو قانع بما هو دون ذلك بكثير ، أن يلتقى طرفه وطرفها فى نظرة إلى
 السماء (٢) :

أقلب طرفى فى السماء لعلها يوافق طرفى طرفها حين تنظر

بمثل هذه المعانى استقر فى نفوس الناس الإحساس بعفة هذا الغزل ، بالمعنى
 المحدود للعفة ودلالاتها على تجنب ما حرمه الدين فى العشق ، كما أن لها دلالة أخرى على
 ما هو من خصائص هذا الغزل العفيف ، وهى أن هذا العشق لا يفسده ولا يغيره الحرمان
 الدائم .

هكذا فعل الحرمان بجميل ، فلننظر ماذا فعل بإخوانه العاشقين العذرين ؟

أما كثير فإن الحرمان يقنعه بأدنى صور الوصل ، بمجرد أن تمر به عزة من بعيد ،
 دون أن تحادثه ، أو ترد على حديثه ، وهو مكتف بهذا ، قرير العين به ، فالذى يرضيها من
 هذا الوصل البخيل يرضيه ، إبقاء على مودتها ، وخوفا من أن تقطع ما بينهما بالهجر
 التام : (٣)

يقر بعينى ما يقر بعينها وأحسن شئ مابه العين قررت
 كأنى أنادى صخرة حين أعرضت من الصم لو تمشى بها العضم زلت
 صفوحاً فما تلقاك إلا بخيلة فمّن ملّ منها ذلك الوصل ملت

(١) ديوانه ٦٨ والتذكرة السعدية ٥٤٨ . البلايل : الهواجس والوساوس .

(٢) ديوان المعانى ١ / ٢٦٧

(٣) الموشح ١٥٩ وخرانة الأدب ٢ / ٣٨٢ (بولاق) .

وتوبة بن الحمير^(١) كسابقه ، لاينال الحرمان من تمسكه بعشق ليلي الأحيلى ، على الرغم مما أثاره هذا العشق من عداء قومها ، وكثرة الوشاة بينهما ، بل على الرغم من أنه حرم حتى من مجرد الاستماع إلى حديثها العذب ، فهو قانع بلذة المعانة التى تثير بكاءه وشعره^(٢) :

تَمَسَّكَ بِجَبَلِ الْأَحْيَلِيَّةِ وَاطَّارَحَ عدا الناس فيها والوشاة الأدانيَا
فإن تمنعوا ليلي وحسن حديثها فلن تمنعوا منى البكا والقوافيا
ويلاحظ أن توبة هنا يتحدث عن الوشاة ، كما تحدث جميل عنهم من قبل (لو ابصره الواشى) والحديث عن الوشاة والرقباء مستفيض فى غزل العذريين ، والشكوى من تعقبهم للعشاق فى كل مكان ، إنما هى صورة من موقف المجتمع الصارم من علاقتهم غير المشروعة بصاحباتهم .

والمعانة من هذا الحرمان ، عنصر من عناصر التجربة العذرية فى الغزل ، يحاول العذريون مداراتها عن الناس حيناً ، ويبتونها فى أشعارهم حيناً آخر .
فهذا توبة بن الحمير يغلبه الوجد ، ويرح به الألم ، حتى تظهر دلائل السقم على وجهه فى ذبول عينيه ، واعتلال بدنه ، ولكنه مع ذلك يحاول جاهداً أن يخفى ما به ، إذا ما سأله سائل عن حاله ، بإظهار طيب الحياة ؛ ذلك أنه محسود على مجرد صلته بليلاه ، وإن جهل الناس أنه لم يفز يوماً بوصلها ، ومع ذلك فهو راض قانع بمجرد أن يُذكر بها^(٣) :

إذا الناس قالوا : كيف أنت وقد بدا ضمير الذى بى قلت : صالحُ
وأغبطُ من ليلي بما لا أناله ألا كل ماقرت به العين طائع

(١) هو من بنى خفاجة ، وهم بطن من بنى عُقيل بن كعب ، ثم من بنى عامر بن صعصعة ، كان شريفاً كثير الغارة ، ورعوا أنه كان لصاً ، ونفت عنه ليل صاحبه هذه التهمة فى شعر لها بدوياتها (ص ٩٧) ، وشعر بحب ليلي الأحيلى ، وشهرت به ، عاش أيام الراشدين ، لكنه لم يعرف بالغزل إلا فى العصر الأموى ، وقتل فى صراع قبلى ، فى خلافة معاوية ، على يد بنى عوف بن عامر بن عقيل سنة ٧٠ أو ٧١ هـ ، ومات ليلة سنة ١٠١ هـ فى طريقها إلى قتيبة ابن مسلم الباهلى ودفنت بقومس ، وقيل بجلوان . انظر : الأملال ١ / ٩٠ وأمالى الزجاجى ٥٠ والشعر والشعراء ١٦٩ والأغانى ١٠ / ٦٣ ومخط اللآلى ١ / ١٢٠ ، ٢ / ٢٥٧ وتزوين الأسواق ٩٦ والاشتقاق ٢٩٩

(٢) ديوانه ٥١

(٣) ديوانه ٤٩ وتزوين الأسواق ٩٨ ومصارع العشاق ١٨٦

ومن هذا الباب قوله (١) :

وإن من هوى ليلي هوى لو أثبته ولو كان أعذى الناس لي كان ينصح
هوى لم تغيره الحروب ولم يزل على عهد ليلي أو يزيد فيربح

إنه مقيم على عهدها ، شديدة المعاناة من وجده بها ، بحيث لو بث هذا الوجد إلى
عدو لرق لحاله ، ونصح له بمحاولة السلوان ، ولكن هيهات !! فالحروب الكثيرة التي
خاض غمارها ، لم تستطع — على أهوالها — أن تنقص من هذا الوجد ، وإنما هو يزداد
مع الأيام رسوخا ، وهكذا العشق ، كما حددناه من قبل ، يزداد جذّة بمرور الزمن ، وتوالى
الحرمان .

ألم يقل أبو صخر الهذلي هو الآخر : (٢) :

فلم أر مثلي أياست بعد علمها بودى ولا مثلي على اليأس يطلب

ويستبد إحساس ألى صخر بالحرمان ، الذى طال ، وقسوة الهجر ، وقد بلغ
المدى ، حينما يرى أليفين من الوحش مصطحبان لايفترقان ، فهما يرحان آمنين ، وهو
مع هذا الإحساس ، وعلى الرغم من هذه المعاناة ، التى أسلمته إلى اليأس من الوصل ،
لا يريد لعشق ليلي (وهى بنت سعد وتكنى أم حكيم) أن يخبو شعاعه ، فليزدد هذا العشق
فى قلبه يوما بعد يوم ، وليلة إثر أخرى ، حتى يلقاها يوم الحشر على عشقه المكين (٣) :

أما والذى أبكى وأضحك والذى أمات وأحيا والذى أمره الأمر

لقد تركتني أحسد الوحش أن أرى أليفين منها لا يروعهما الذعر

فيا هجر ليلي قد بلغت بى المدى وزدت على مالم يكن بلغ الهجر

ويأحبها زدنى جوى كل ليلة ويأسلوة الأيام موعداك الحشر

ولانحسب أبا صخر ، وهو يحسد الوحش ، إلا متمنيا أن لو كان مثله ، ليهرب
بصاحبه من الواقع الأليم ، وهى أمنية ، تواكب أمنية جميل السابقة أن يكون أعمى أصم
تقوده بئنه ، وللسبب نفسه الذى ذكرناه هناك .

(١) ديوانه ٥٦

(٢) الأغاني ٢١ / ٩٧

(٣) عيون الأخبار ٤ / ١٣٨ وأمال المرتضى ١ / ١٤٩ والتذكرة السعدية ٤٣٨

وأسلوب النداء المتكرر هنا ، كأسلوب تكرار الضمير (أَنْتِ) في شعر جميل السابق ، من حيث دلالتهما على الإحساس العميق بالمعاناة ، مع الإصرار على الوفاء ، ودوام العشق . وإذا كانت هذه الرغبة في الهروب من مواجهة المجتمع ومعاناة الحرمان ، مقبولة — على قسوتها — إلى حد ما — فإن أمنية كثير أبعد قسوة ، وأشد شذوذاً ، وأمعن في الدلالة على المعاناة :

ألا ليتنا ياعرُ كُنا لِيذِي غِنَى بعِزِّين نرعى في الخلاء ونعزُبُ
كلانا به عُرُ فمن يرنا يقل: على حسنِها جَرَّاءُ تُعدى وأجرب
إذا ماوردنا مَنهلاً صاح أهله علينا فما ننفك نُرمى ونُضربُ

وهل أدل على وطأة الحرمان ، وشدة الإحساس به ، وبالضيق من عالم الرقباء والوشاة ، وترصد الأهل ، من هذه الصورة ، التي يرفض فيها الشاعر كل صورة من صور الحياة في المجتمع الإنساني ، ويفضل أن يكون بعيراً أجرب ، وصاحبه ناقة جرباء ، يفر الناس منهما ، ويزجرانها بعيداً عنهم ، فيظل وإياها منفردين في عالم الحيوان ، أنسين به ، بعيداً عن عالم الإنسان !!

وعند قيس بن ذُرَيْج ^(١) ماعند أصحابه السابقين ، فهو يعاني معاناتهم من الحرمان ، وهو راض بهذه المعاناة ، قانع بالحرمان ، وإذا كان جميل يكفيه أن تصادف

(١) قيس بن ذُرَيْج الكناني ، من بني ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة ، أخو الحسين بن علي (ض) من الرضاع ، أرضعت أمه الحسين ، وكانت منازل قومه بظاهر المدينة ، وبها توفي سنة ٨٦ ، ولبنى صاحبه بنت الحباب ، من بني كعب بن خزاعة ، وكانت تحته ثم طلقها بأمر أبيه ، أو أمه ، ثم ندم ، وقال :
وفارقت لبنى ضلة فكأننى قُرِنتُ إلى العيسوق ثم هَوَيْتُ
فياليت أُنَى مت قبل فراقها وهل يُرجعن قولَ المقرط ليث ...
واختلف في آخر أمرها ، فقليل — وهو الأكثر — ماتا على افتراقهما ، وقد سبقته إلى الموت ، فبكاهما على قبرها في شعره ، ثم أغمى عليه ، فمات بعد ثلاث ، ودفن إلى جنبها ، وقيل : إن ابن أُنَى عتيق توسط عند زوجها فطلقها ، وتزوجها قيس . فذلك قوله :

جزى الرحمن أفضل مايجازى على الإحسان خيراً من صديق
فقد جربت إخواني جميعاً فما ألفت كابين أُنَى عتيق
سعى في جمع شملى بعد صدع ورأى جُرْتُ فيه عن طريق ...

فقال له ابن أُنَى عتيق : أمسك عن هذا ، فما يسمعه أحد إلا ظننى قواداً !!

انظر : تزيين الأسواق ٤٩ وسمط اللآلئ ٢ / ٧١١ ، ١ / ٣٧٩ والأغاني ٨ / ١٠٧ وجمالس ثعلب ٢٨٥ والشعر

والشعراء ٢٣٩ والمؤتلف ١٢٠

نظرته إلى السماء نظرة بشية إليها ، فالتقتى طَرَفَاهما في الكون الفسيح ، بعيدا عن الأعين ، فإن قيس بن ذريح ، يرضيه مأرضى جميل ، بل أقل مما أَرْضَى جميل ، أن يضمه ولبنى الكون الفسيح ، ليلا ونهارا ، فهما يستظلان بسماء واحدة ، ويلفهما ليل واحد ، ويرقبان معا ضوء فجر واحد ، ويتنسمان معا هواء واحداً ، ويشاهدان شمساً واحدة ساعة الغروب ، وهكذا تتسع تجربة الشاعر ، وترحب مشاعره ، وينفصح خياله ، اتساع الكون كله ورحابته وانفساحه ، بأرضه وسمائه : (١)

أليسْتُ لُبْنَى تحت سَقْفٍ يُكْتَهَى وإيأى ، هذا إن نَأَتْ لى نافع
وَلَبَسْنَا الليلَ البهيمَ إذا دجا ونصر ضوء الفجر والفجر ساطع
تطأُ تحت رجليها بساطاً وبعضه أَطَاهُ برجلي ليس يطويه مانع
ويقول: (٢)

وإن تكُ لُبْنَى قد أتى دون قربها حجابٌ منيع مألٍه سِيْلُ
فإنَّ نَسِيمَ الجوّ يجمع بيننا ونبصرُ قرنَ الشمس حين تنزل
وتجمعنا الأرضُ القرار وفوقنا سماء نرى فيها النجوم تجول
ويأتى نُصيب بن رباح ، فيضيف إلى تجربة الحرمان بعداً آخر يؤكد به ، ثبات هؤلاء العذريين على عشقهم ، وإخلاصهم فيه ، حتى وإن أساءت المعشوقة ، وملت ، وهجرت ، وتعللت باختلاق الذنب ، وبالغت في كل ذلك ، حتى كأنما صارت حرباً على صاحبها (٣):

بزئب أَلِيمٌ قبل أن يرحل الركبُ وقل إن تملّينا فما مَلَكَ القلبُ
وَقُلْ إن قَرَبَ الدار يطلبه العَدَى قديماً ونأى الدار يطلبه القربُ
وَقُلْ إن أنل بالحلب منك مودةً فما فوق مالاقيت من حيكَم حُبٍ
وَقُلْ في تجنيها لك الذَّنْبُ إنما عتابُك من عاتبت فيما له ذنب
وَقُلْ لها يَأُمُّ عثمان تُحَلَّتْ عسى أسلّم لنا في حبنا أنتِ أم حرب؟! *

(١) سمط اللآلئ ١ / ٦١٨ وأمالى القالى ٢ / ٣١٩ بساطاً : عنى به الأرض .

(٢) تزوين الأسواق ٤٧

(٣) الموشح ١٦٤ وأمالى القالى ٢ / ١٩٩

وهكذا تتشابه تجارب الحرمان في شعر هؤلاء العذريين جميعا ، فكلهم مكتوب بناره ، وكلهم راض من صاحبتة بأقل القليل ، أو بلا شيء ، وكلهم ثابت على عشقه ، لا يهدد بمقابلة الهجر بمثله ، كما رأينا في بعض شعر الحسين .

كما تتشابه أساليبهم ، المعبرة عن هذا كله ، حتى في ظاهرة التكرار لبعض الكلمات في أوائل الأبيات ، كتكرار فعل الأمر (قل) في شعر نُصَيْب السابق ، وتكرار ضمير المخاطب (أنتِ) عند جميل ، وأداة النداء (يا) عند أبي صخر الهذلي ، وهذا مما جعل الرواة يخلطون في نسبة أشعار بعضهم إلى بعض ، فينسب شعر جميل للمجنون ، أو شعر المجنون لجميل ، ويروى في ديوانيهما ، وكذا يخلطون بين شعر المجنون وشعر قيس بن ذريح ، وأمثال هذا كثير في المصادر التي روت أشعار هؤلاء العذريين .

٢- تمرد القلب على محاولة السُّلُو :

من الطبيعي أن تحدث الشاعر العذرى نفسه بمحاولة الخلاص من ألم العشق المحروم ، العنيف ، الحار ، الذى لا يبرده وصل ، أو أمل فى وصل ، وربما نزعته إرادته العاقلة إلى الرغبة فى السُّلُو ؛ إراحة لقلبه المعذب ، وتخلصا من لدغة الحرمان ، ولكنه ما إن يشاور قلبه حتى يتمرد هذا القلب عليه ، ويخرج عن طوع عقله وإرادته ، ويحيل أملهما فى النسيان والسلوى إلى سراب ، فإذا بالشاعر قد فقد سلطانه على قلبه ، وإذا بهذا القلب يندفع فى تيار العشق ، غير مستجيب لنزوع إرادة ، أو منطق عقل .

شاع هذا فى دنيا العشاق ، وغدا معلما من معالم العشق فى غزلهم العفيف ، وفى هذا يقول الخليفة هارون الرشيد : ^(١) « قلب العاشق عليه مع معشوقه » ، ويقول عروة بن حزام ^(٢) :

ويُضمر قلبى عُذْرَهَا وَيُعِينَهَا عَلَى فَمَالَى فى الفؤاد نصيب
ويقدم جميل صورة من نزوع نفسه إلى التعزى ، وقد يئس من تحسس الطريق إلى قلب بشتية ، أو فلنقل : أمضه الحرمان ، فتطلعت نفسه إلى السلوى ، والتفت إلى قلبه فى مناجاة متوسلة ، ومناقشة يستعين فيها بالعقل والمنطق ، محاولا صرفه عن عشق صاحبتة ،

(١) ديوان المعانى ١ / ٢٨١

(٢) أمالى المرتضى ١ / ٤٥٩

ولكن يبدو أن التفاهم بين عقله وقلبه كان معدوماً ، وسلطان فكره على وجدانه كان مفقوداً ، فلم يُجده منطق ، ولم ينفعه تعقل^(١) :

ألا مَنْ لقلبٍ لايمُلُ فيذهَلُ أفقٌ فالتعزَّى عن بثينة أجمل
سلا كلُّ ذى وُدٍّ علمتُ مكانه وأنت بها حتى الممات مُوَكَّل
فيا قلب دُعِ ذكرى بثينة إنها وإن كنت تهواها تفضُّ وتبخل
وقد أياستُ من نيلها وتجهمت وللأيسُ إن لم يُقدَّرَ النِيلُ أمثل
وكيف ترجى وصلها بعد بُعدها وقد جُدَّ حبلُ الوصلِ ممن تؤمل
وإن التى أحببت قد حيل دونها فكن حازماً والحازم المتحوِّل
هينى بريئاً نلتَه بُظلامه عفاها لكم أو مُذنباً يتنصَّل

وهكذا يمضى جميل فى معالجة قلبه ؛ ليبرأ من هذا العشق اليائس ، ولكنه لايجد فى النهاية أية استجابة من قلبه ، لما يريد حملة عليه ، فهو لايطاوعه ، ولاينقاد لإرادته ، فليس له ، والحال هذه ، من سبيل إلا العودة إلى ثبينة يستعطفها ، ويتوسل إليها ، علّها ترحم هذا القلب المعذب ، والنفس المغلوبة على أمرها .

ولقد بهم جميل بالسلوى ، ويعقد العزم على النسيان ، ويحشد إرادته للمضى فى هذه السبيل ، فما إن يضع قدمه على الطريق حتى يرده قلبه ، ويثنيه عن عزمه ، ويوهى عزيمته^(٢) :

أهَمَّ بسلوى عنك ثم تردُّنى وتُثْنينى عليك العواطفُ
ويصرخ قيس بن ذُرَيْج على قلبه : ويحك !! تماسك ، واصطبر ، فقد رحلت لُبْنى ، وما من سبيل إلى وصلها ، مهما علا وجيئك ، وطالما عشت بالقرب منها ، لكن لم يكن من الفراق بدّ ، فهذه سنة الحياة ، لا تجمع إلا لتفترق ، وكَم فرقت بين قلوب قبلنا^(٣) :
كَأَنّى والهِ بفراق لُبْنى تهيم بفقد واحدِها تُكْوِلُ
ألا ياقلبُ ويحك كن جليداً فقد رحلت وفات بها الذَّمِيلُ

(١) ديوانه ١٥٩

(٢) ديوانه ١٣٢

(٣) الأغاني ٨ / ١١١ . الذميل : السير اللين .

فإنك لاتطيق رجوعَ لبني إذا رحلت وإن كثر العويل
وكم قد عشتَ كمّ بالقرب منها ولكنّ الفراق هو السيل
فصبراً كلُّ مؤتلفين يوماً من الأيام عيشهما يزول
وله في ذلك (١) :

إذا أمرتني العاذلات بهجرها أبت كبد من قولهنّ صديع
وكيف أطيع العاذلات وحبّها يؤرقني والعاذلات هجوع

لقد تشابه قلب قيس وقلب جميل في التمرد على إرادة التسلي ، والتحول عن عشقهما المورق ، فتشابهت معانيهما ، في المناجاة ، ومحاولة إقناع القلب بالانقياد لنزوع النفس والإرادة ، كما تشابه أسلوبهما في التعبير والأداء ، من حيث الاعتماد على أساليب : النداء (فيا قلب — ياقلب) والاستفهام : (ألا من لقلب — وكيف ترجى — وكيف أطيع — وكم قد عشت) والأمر : (أفق — دع — كن حازماً — كن جليداً — فصبراً) . ولكثيرٌ مثل هذه التجارب مع قلبه ، الذي لم يكن أقل تمرداً على السلوان من قلب جميل أو قلب قيس بن ذريح ، فقدنا زعته نفسه مثلهما إلى السلوى ، ووقف قلبه عقبة في سبيلها ؛ لأن عشق عزة قد تمكن في قلبه ، وعلق به ، وقاد زمامه ، فوقع في أسره ، وهيهات الفكاك ، والنتيجة : الحرمان من نعمة الصبر والسلوان (٢) :

ولقد أردتُ الصبرَ عنك فعاقتني علقٌ بقلبي من هواك قديمٌ

وهو كزيميله السابقين طالما حاول حمل قلبه على هجر عزة ؛ لأنها لم توف له يوماً بوعده ، ولم تجد أبداً بوصل ، فياأى عليه قلبه ، ويرى الموت دون هذا الهجر : (٣)
قضى كلُّ ذى ذين فوفى غريمه وعزةٌ ممطولٌ مُعنى غريمها
إذا سمّت نفسي هجرها واجتنابها رأث غمرات الموت فيما أسومها
ولانرى كثيراً يختلف عن إخوانه العاشقين العذريين ، فيما عبر عنه ، في المبحث

(١) سبط اللآلى ١ / ١٣٣ وديوان المعاني ١ / ٢٧٤

(٢) ديوانه ٢٦ وديوان الصبابة ١٧

(٣) ديوانه ١٤٣ وانظر : التذكرة السعدية ٥٣٦ . ممطول : يقابل بالتسويق . معنى : معذب . غمرات

الموت : شدته .

السابق ، من لواجع الشوق ، وعذاب الحرمان ، والصبر عليه ، وتمنى الهروب بعزة من وجه المجتمع ، الذى يتحدى علاقتهما ، ويحاربها ، فالمعانى متشابهة ، وأسلوب المعالجة متشابه ، وكذا نراه هنا ، وفى كل باب طرقه معبرا عن قصته مع صاحبه ، لا يكاد يختلف فى كل ذلك ، ولا يخرج بتجاربه عن أطر تجاربهم .

ومع هذا يشكك القدماء فى صدق تجارب كثير ، ويرمونه بالافتعال ، وقد ينسبون إليه شعرا يؤيدون به ذلك الشك ، وهذا الافتعال ، فيرون له : ^(١)

هل وصل عزّة إلا وصل غانية في وصل غانية من وصلها خلف

ويشفعون هذا بروايات تتهمة بالكذب والإدعاء فى العشق ، فيذكرون أن عبد الملك بن مروان قال له : احلف لتصدقنى فيما أسألك عنه ، ففعل ، فقال : اختر بين أن أزوجك عزة ، أو أعطيك ألف دينار ، قال كثير : بل الألف دينار ^(٢) .

ويبدو أن هذا الطعن على صدق صباية كثير قد ذاع ، وتأثر به الرواة والنقاد بعد عصره ، فأقروا سابقهم على ما رآوا فيه ، فأبو هلال العسكري يقرر « كان جميل يصدق فى حبه ، وكثير يكذب ^(٣) » .

ومن قبله عقد أبو الفرج الأصفهاني فى كتابه الأغاني فصلا عنوانه : « من ذكر أن كثيرا كان يكذب فى عشقه ^(٤) » ، جمع فيه ماقاله سابقوه ، وما روه فى الحكم على التجربة الغزلية عند كثير ، فليراجعه من شاء .

ونحن لانملك إلا أن نتوقف أمام هذه الروايات والأخبار ، التى روى بعضها عن معاصرين لكثير ، ولكننا نشير إلى روايات أخرى ، قد تلقى بعض الضوء على مدى صواب هذه الأخبار والروايات الطاعنة على كثير .

من ذلك مايرويه أبو الفرج نفسه وابن سلام أن أهل الحجاز يقدمونه ^(٥) ،

(١) عيون الأخبار ٢ / ٢٩ ومصارع العشاق ٥٤

(٢) سبط اللآلى ١ / ١٣٧ ومصارع العشاق ٥٤

(٣) دويوان المعانى ١ / ٢٦٨

(٤) ٨ / ٣٨ وانظر ابن سلام ٥٤٥ (المدنى)

(٥) الأغاني ٨ / ٣٨ وابن سلام ٥٣٤ ، ٥٤٠

وما يذكره ابن سلام من أنه شاعر فحل ، ولكنه منقوص* حظه بالعراق^(١) ، والملاحظ أن أكثر الروايات والأخبار التي تقول بكذبه في العشق عراقية !!

وروى يونس بن حبيب عن ابن أبي اسحاق قوله : « كان كثير أشعر أهل الإسلام »^(٢) .

وقد نضيف إلى ذلك ، أن كثيرا كان على مذهب الشيعة الكيسانية ، الذين يغفلون في محمد بن الحنفية — كما مر — فرما كان لمذهبه أثر في طعن من طعن في صدق نسبه .

فإذا احتكمنا إلى تجاربه الغزلية ، التي بين أيدينا ، فكما قلنا ، لانجد فيها بعامه ، ما يجعلنا ننساق لهذه الأخبار والروايات ، فهي ، من الناحية الفنية ، تدور في فلك تجارب غيره ، من شعراء الغزل العذري ، في بيئة وعصره ، وتعبّر عن معان هي من جملة معانيهم غالبا ، وتصطنع أساليب في الأداء ، لا تختلف كثيرا عن أساليبهم المتشابهة في أشعارهم .

ولجنون ليلى^(٣) عتاب على قلبه ، يدعوه إلى ترك الهيام بليلي ، والاعتصام بالإفاقة واليأس ، ففي اليأس راحة ، وإلا فلن يجد هذا القلب من يواسيه ؛ حيث قد سلا العشاق ، وقد آن له بعد هذا الأمد الطويل من عذاب العشق أن يتسلى ، ويسلو^(٤) :
 ألا أيها القلب الذي لج هائماً بليلي وليدا لم تُقَطَّع توائمه
 أفق ، قد أفاق العاشقون ، وقد أبى لما بك أن تلقى طيباً ثلاثمه
 فما لك مسلوب العزاء كأنما ترى نأى ليلى مغرماً أنت غارمه

(١) ابن سلام ٥٤٠ (المدنى) .

(٢) المصدر السابق

(٣) اختلف في اسمه واسم أبيه على أقوال كثيرة ، قيل : والصواب أنه عامر بن الملوّح (معاذ) بن مزاحم من كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة ، فهو عامر بن النسب ؛ ولذا عرف بجنون بنى عامر ، شاعر متمم ، سقط شهيد العشق ، بعد أن أصيب بالهزال ، وتغير اللون والجنون ، قال أبو عبيدة : تزايد الأمر به حتى فقد عقله ، وكان لا يقر في موضع ، ولا يأنس برجل ، ولا يعلوه ثوب إلا مزقه ، وصار لا يفهم شيئا مما يكلم به ، إلا أن تذكر له ليلى ، فإذا ذكرت ألقى بالبداية ، ورجع عقله (مصارع العشاق ٢٣٧) ، ووجد بين أحجار بالبادية ميتا . وصاحبه ليلى بنت مهدي بن سعد ، يتصل نسبهما في كعب بن ربيعة ، فهي عامرية أيضا ، وكنيتها أم مالك ، قيل توفيت قبله . وحياته وقصة حبه وشعره موضع خلاف كثير ، قيل : توفي سنة ٧٠ هـ ، انظر : الأغاني ١ / ١٦١ ، ٢ / ٢ ، وسمط اللآل ١ / ٣٥٠ ، وتزيين الأسواق ٥٢ ومصارع العشاق ٢٣٦ ، ٢٥٩ .

(٤) تزيين الأسواق ٥٧

أَجَدُّكَ لَا يَنْسِيكَ لَيْلَى مُلَمَّةٌ تُلِمُّ ، وَلَا يَنْسِيكَ عَهْدًا تَقَادُمُهُ ؟!

ونلتفت إلى قوله : « ألا أيها القلب » وقوله : « أفق » والاستفهام في البيت الأخير ، لنذكر المشابهة بينه وبين زملائه العذريين في هذه الأساليب ، التي أبرزناها عند غيره ، أما معانيه ، فهي تدور حول النزوع إلى السلوان ، والعجز عنه ، لأن العشق مكين ، والقلب متمرد ، لا يستجيب لعقل أو إرادة ، وهي المعاني التي رأيناها عند سابقيه ، ونراها عند الآخرين .

ومادام قلب المجنون لم يطاوعه ، فقد غدا على يقين من أمر هذا القلب ، ولم يعد يحاول حتى مجرد التفكير في صرفه عن ليلاه ، لعقم هذه المحاولة ، مادام عشقها ناشبا في قلبه ، شديد التمكن منه ، مهما زجر عنه ، فلن ينزجر ^(١) :

وقالوا : لوتشاء سلوت عنها فقلت لهم : فإني لأشياء
وكيف وحبها علق بقلبي كما علق بأرشيّة دلاء
لها حب تنشأ في فؤادي فليس له — وإن زجر — انتهاء
وعاذلة تقطعني ملاماً وفي زجر العواذل لي بلاء

فقد اجتمع عليه بلاء العشق ، وبلاء العذل ، والشكوى من العذل والوشاة والرقباء ، من الظواهر المميزة في غزل العذريين ، وقد لاحظناها في نماذج سابقة لغير المجنون .

وتوبة بن الحمير يصرح كذلك بأن قلبه عصاه حين أراد صرفه عن حب ليلي الأخيلىة ، ويتمنى لو كان أطاعه ، إذن لاستراح من عذاب الهوى ، ولوم اللائمين ^(٢) :
يلومك فيها اللائمون نصيحة فليت الهوى باللائمين مكانيا
لو أن الهوى عن حب ليلي أطاعني أطعت ولكن الهوى قد عصانيا

ويشارك أبو صخر الهذلي في هذا الاتجاه الغزل في شعر العذريين ، فمن تجاربه أنه كثيرا ما حاول أن يفك أسار قلبه من رقة الهوى ، فيمضى إلى صاحبه ليعلنها بأنه اعزم

(١) ديوانه ٤٢ . الأرشية : جمع رشاء ، وهو الخيل .

(٢) ديوانه ٥٣

هجرها ، وسلّ هواها من بين أضلعه ، فما إن يراها حتى يخر قلبه صريع العشق ، وتنتابه أعراضه ، فيهتز كيانه كله بجذبة الوجد ، ويهت ، فينسى ما كان قد اعتزم من الصرم ، ولا ييادها بلوم ، أو عتاب ، خشية أن تحرمه رؤياها ، وتقطع واهى حبل وصالها ، ولئن فعلت ، فيالسوء العاقبة : (١)

لقد كنتُ آتيها وفي النفس هجرها بتاتاً لأخرى الدهر ماطلع الفجر
فما هو إلا أن أراها فجاءة فأبتهت لا أعرفُ لدى ولا نُكر
وأُنسى الذي قد كنتُ فيه هجرتها كما قد تُنسى لُبُّ شارها الخمرُ
وَيَمْنَعُنِي من بعض إنكار ظلمها إذا ظلمت يوماً وإن كان لي عُذر
مخافةً أني قد علمت لئن بدا ليّ الهجر فيها ما على هجرها صبر
ولئنّي لأدري إذا النفس أشرفت على هجرها ما يبلغنّ بيّ الهجر

هذا هو النمط العام في تجارب هؤلاء الشعراء العذريين ، يبدأ باتجاه إرادة الشاعر ، ونزوع نفسه إلى السلوى ، أملاً في الخلاص من بلاء الحرمان ، وينتهي بتأبى قلبه ، وانسياقه في هواه ، وبين البداية والنهاية ، تتلون معاني هؤلاء الشعراء ، وتختلف بعض صورها ، ولكنها تظل — عادة — دائرة في فلك هذا الإطار ، لاتكاد تتجاوزه .

غير أن قيس بن ذريح يحاول الخروج من رتابة التجربة ، بإحداث بعض التحوير في إطارها العام ، فقلبه هو الذي يبدى الصبر والتجلىد ، موهما صاحبه بالقدرة على السلوان ، حتى إذا ما انتقادت نفسه لهذا الوهم ، بان له أن هذا القلب قد خدعه وغواه وعاد فانهار لوعة وصباية ، يذيق قيساً مرارة الوجد والحرمان ، فينحو عليه الشاعر باللائمة ، وينذره بالموت كمدأ ، أو العيش مُعْنًى ، لأنه لن يطيق وطأة الحرمان (٢) :

أحدثنني يا قلب أنك صابر على الهجر من لبي فسوف تذوق؟!
أطعتُ وشاةً لم يكن لك فيهمُ خليلٌ ولا دان عليك شفيق
فمت كمدأ أو عيش مُعْنًى فإنما تحملني مالا أراك تطيق

(١) أمالي القالي ١ / ١٤٩ وانظر : تزيين الأسواق ٩

(٢) النذكرة السعدية ٥٢٤ والبيت الأول والثالث مرويان لمضرس بن الحارث المزني في ضمن قصيدة طويلة ، في

ومع ذلك فقلب الشاعر في النهاية هو المتمرد على السلوى ، والشاعر يلقي عليه مسئولية هذا التمرد ، فعاد الشاعر بذلك ليشترك لإخوانه العذريين في هذا الاتجاه .

٣- صدق الصباية في العشق :

لايفتأ الشعراء العذريون يرددون التعبير عن صبايتهم ووجدهم بمن يتعشقونهم ، يقبلون فيه المعاني ، ويفتون في الصور ، ثم يتعاورونها ، فتصير حقلا مشاعا بينهم ، تعينهم على ذلك المعاصرة ، أو قرب الزمن ، كما يساعدهم عليه ماعرف من رواية بعضهم لبعض ، أو تناشدهم أشعارهم فيما بينهم .

وهذا يفسر مانجده أحيانا ، من تكرار المعنى الواحد بعبارة تقريبا ، في شعر الشاعر الواحد أو في أشعار غير واحد منهم ، التي تصور صبايتهم ووجدهم في العشق ، كالذى نراه في قولهم :

- فإن يمنعوا عينيّ منها فمنّ لهم بقلبٍ له بين الضّلوع وجيب !!
 - فلن يمنعوا عينيّ من دائم البُكا ولن يخرجوا ماقد أجنّ ضميري
 - فإن تمنعوا لئلي وحسن حديثها فلن تمنعوا عنيّ البُكا والقوافيا
 - فما هو إلّا أن أراها فجاءةً فأبتهّ حتى ماأكاد أُجيب
 - فما هو إلّا أن أراها فجاءةً فأبتهّ لاعرفُ لدى ولا نُكرُ
 - وإني لتعروني لذكرارك هزة لها بين جسمي والعظام ديب
 - وإني لتعروني لذكرارك هزة كما انتفض العصفور بلله القطر
- وغير ذلك كثير في تجارب صبايتهم .

وهذا التعاور للمعاني كان من العوامل التي جعلت أشعارهم تتشابه ، ويتداخل بعضها في بعض ، حتى ليصعب أحيانا تحقيق نسبة بعض الأشعار إلى من قالها منهم ، هذا فضلا عن تشابه تجاربهم ، وأساليب التعبير عنها ، على النحو الذي ذكرناه من قبل .

ويشعر القارئ لصور تجارب العذريين في الصباية أنه بإزاء شعر تشيع فيه حرارة العاطفة ، وتشع منه الأشواق ، وتتجلى فيه خلجات النفس ، من فرحة باللقاء ، إلى ألم للفرق ، ومن أمل في الوصل ، إلى يأس من النوال ، ومن إظهار التجلد والصبر ، إلى الخضوع التام ، والتسليم الحزين ... وهكذا .

ومن هنا طبعت أشعارهم بطابع حزين ، فهم لا يتحدثون عن تجارب سعيدة في العشق ، كما كان يفعل شعراء الغزل الحسى غالباً ، بل يتحدثون عما يحرق قلوبهم من لواعج الشوق ، وما قدر عليهم من حرمان ، وما بيعته الحرمان من آلام وأحزان ، والحرمان يرسب العواطف ، ويمكن جذورها من النفس ، فتصدر هذه العواطف أكثر عمقا ، وأعنف انفعالا .

فلنقف مع جميل في تجربة من تجاربه في الصبابة ^(١) :

وما ذكرتك النفسُ يابئُ مرةً من الدهر إلا كادت النفسُ تثلُفُ
وإلا عَرَّتْني عبْرٌ واستكانةٌ وفاض لها جارٍ من الدمع يذرفُ
وما استطرقت نفسي حديثاً لخليةٍ أُسرُّ به إلا حديثك أطرفُ
لعمرك لا ينفك حبك فاعلمي جوى لازمي مادامت العين تطرفُ

فالقراءة المتذوقة لهذا الشعر تهدي إلى مافيه من عمق العاطفة ، وصدق الصبابة ، إن مجرد ذكر بثنية يستدر دمع جميل ، بل يكاد يخنقه بهذا الدمع ، ولننظر كيف تستكين نفسه ، وتستسلم للبكاء كلما ذكرها؟! وكيف تُجمل العاطفة الصادقة كل ما يتصل بالحبيب؟! فحديث بثنية عند جميل أشهى من كل حديث ، أما وفاؤه لها ، وهيامه في عشقها فلن يتخلى عنهما إلا بالموت .

ودلائل هذا الإخلاص والوفاء والهيام كثيرة عند جميل ، منها ما يقسم عليه ، من أن جلده لم يمس غير جلدها دون حائل!! ولا صافحت بشرته بشرة لغيرها ، ويدعو على نفسه بالعمى إن كان كاذباً — كما تمنى العمى والصمم من قبل — وكيف يكذب ، وهو الذي إن مات ورُقِيَ بكلامها لدبت فيه الحياة ^(٢) :

حلفتُ يمينا يابئينة صادقاً فإن كنت فيها كاذباً فعميتُ
إذا كان جلدٌ غير جلدك مسني وباشرتني دون الشعار شريتُ
ولو أن راقى الموت يرقى جنازتي بمنطقها في الناطقين حييتُ
وهو القائل ^(٣) :

(١) ديوانه ١٣٢ . الخلة : الصداقة .

(٢) الموشح ١٥٩ والتذكرة السعدية ٥٠٣

(٣) المصدران السابقان

خليلِي هل فيما عشتُما هل رأيُتما قتيلاً بكى من حب قاتله قبلِي ؟!
وإن قريتْ لانيقع القرب عندها وإن بُعدتْ زادتكْ خَبْلاً على خَبِلٍ
وتوافر دلائل الصبابة عند جميل في تجارب عديدة من أشعاره .

وإذا كنا قد رأينا جميلاً يهيجه ذكر بثينة ، فإن أبا صخر الهذلي يحرك ذكر
صاحبته أيضاً كوامن العشق والصبابة في قلبه ، ولكنه لاتعتريه الاستكانة التي تعترى
جميل ، بل ينتفض جسمه كله وجدا وصبابة ، كانتفاض العصفور إذا بلّله القطر : (١)
وإني لتعروني لذكراك هزة كما انتفض العصفور بلّله القطرُ
صدقت ، أنا الصبُّ المصاب الذي به تباريح حب خامر القلب أو سيخر
هل الوجد إلا أن قلبي لودنا من الجمر قيد الرمح لاحترق الجمر ؟!
وهنا يستبطن أبو صخر إحساسه بالعشق ، ويقترّب من حقيقته ، التي عناها
المفسرون لفلسفة العشق وكنهه ، بقولهم : إنه أشبه بقوى خفية ، فيراها أبو صخر في
صورة من صور القوى الخفية ، صورة السحر .

ويحتاج أسلوب الاستفهام عند أبي صخر (هل الوجد ...) وعند جميل (هل فيما
عشتما هل رأيتما) وفي صور تجارب غيرهما ، إلى وقفة تفسر سرّ هذا الأسلوب المتكرر في
أشعار العذريين .

والذي نراه ، أن التجربة العاطفية عند الشعراء العذريين ، لما كانت تجربة استبطانية
داخلية في المقام الأول ، وكان التجاوب بينهم وبين عالم الناس من حولهم يكاد يكون
معدوماً ، فإنهم يلجأون إلى التساؤل ، الذي قد يوجهه الشاعر منهم لنفسه أحياناً ، أو إلى
من يتخيله — تجريداً — من الصحاب أو إلى صاحبته ، أحياناً أخرى ، دون أن ينتظر
منهم جواباً ، وإنما يُتبع الشاعر سؤاله بجواب من عنده ، أو تقرير ، يمثل الحركة النفسية
الداخلية المنطوية على الحيرة والدهشة والقلق (٢) .

وإذا كان جميل أيضاً قد رأى في بعض صوره أن الموت وحده هو الذي ينهى
هيامه ببثينة ، فإن الأمر ليس كذلك عند توبة بن الحمير ، الذي يصرح بأن الموت لن

(١) الأغاني ٢١ / ٩٧ وعيون الأخبار ٤ / ١٣٩ وأمالى القالى ١ / ١٥٠

(٢) في الشعر الإسلامي والأموي ١٦٢

ينسبه كلفه وهيامه بليلى ، دليل هذا أنها لو خاطبت جسده المسجى فى القبر بعد الموت ،
لدبت فيه الحياة ، وأسرع يلبى النداء ، ويرد التحية ، على الرغم مما يحول بينه وبينها من
حجارة القبر ، وصخوره العريضة : (١)

ولو أن ليلى الأخيلىة سلّمت علىّ ودونى جَنْدَلْ وصفائح
لسلّمت تسلّم البشاشة أو زَقَا إليها صدى من جانب القبر صائح

وهذا المعنى ، على ما فيه من مبالغة ، مصيب فى إيجائه بعمق المشاعر التى يكتنفها
الشاعر لليلة ، كما أنه يشعرنا بمدى الحرمان ، الذى كان يعانى به توبة وأصحابه العذريون ،
ذلك الحرمان ، الذى جعل من مجرد سماع صوت الحبيبة أمنية لها تأثير بالغ فى قلوبهم .

ولعل هذا هو سر تردد هذا المعنى فى أشعارهم ، نجده هنا عند توبة ، ورأيناه من
قبل عند جميل :

ولو أن راقى الموت يرق جنازتى بمنطقها فى الناطقين حيث
ونرى قريباً منه عند أبى صخر الهذلى فى قوله : (٢)

ولو تلتقى أصدائنا بعد موتنا ومن دون رَمْسِنَا من الأرض سَبَسَبُ
لظل صدى رَمْسَى ولو كنت رِمَّةً لصوت صدى ليل يَهَشُّ ويطرب

وهذا الذى يذكره أبو صخر (أو المجنون إذ تنسب الأبيات إليه فى بعض المصادر)
أقوى مما ذهب إليه توبة ؛ لأن تلاقى رُوحَيْ مَيِّتَيْنِ أعظم فى جانب المبالغة من تلاقى حى
وميت ، وهذا ما يختاره الحكماء أيضاً ، فهم يقولون : إن استلذاذ الأرواح وإدراكها ، بعد
مفارقة الهياكل الجسمية ، أشد وأقوى (٣) .

ونجده عند قيس بن ذريح أيضاً ، غير أن قيساً ، يضيف إلى المعنى ما يجعله أدخل
فى باب التصور ، منه فى باب الافتراض ، كما يفهم من لفظة (لو) فى شعر جميل وشعر
أبى صخر .

(١) ديوانه ٤٨ . زقا : صاح .

(٢) الأغاني ٢١ / ٩٧ وتزيين الأسواق ٦٥ وينسب أيضاً لمجنون ليلى ، فكل منهما تدعى صاحبه ليلى .

(٣) تزيين الأسواق ٦٥

فروح قيس ولبنى قد تآلفتا في عالم الأرواح قبل أن يولدا ، ثم وهما بعد نطفة ، ثم في مهد الطفولة ، ونما هذا التآلف بنموهما ، ومن ثم ، فلن يضيع بموتهما ، بل سيتآلفان أيضا بعد الموت : (١)

تعلّق روحى روحها قبل خَلْقنا ومن بعد ماكنّا نطفاً وفي المَهْد
فزاد كما زدنا فأصبح نامياً فليس وإن متنا بمنفصم العهد
ولكنّه باقٍ على كل حادثٍ وزائرنا في ظلمة القبر واللّحد

وإذا كان هذا هو إحساس قيس بن ذريح بالصباة ، ومدى وثاقه علاقته بلبناه ، فلا يمكن إلا أن يكون صادقا وهو يحكى تجاربه في الوجد والصباة بصاحبته .

فهو يسقط صريع هوى لبنى ، وتعوده العائدات ، يسألته ما به ؟ وليس به من داء إلا عشقها ، والعشق داء شديد عند أمثاله ، ولادواء له إلا وصل المعشوق ، ويظل قيس مترقبا رؤيا لبنى بين العائدات ، ففى رؤياها شفاؤه ، وإنه ليتمنى أن تحقّق هذه الأمنية ، ثم يموت ، ولكنها لاترق لحاله ، فيا ويح عقله ، لقد خُبل ، ووارحمته لقلبه ، الذى هدّه العشق (٢) :

عيدٌ قيسٌ من حبِّ لبنى ، ولبنى داءٌ قيس والحُب داءٌ شديد
وإذا عادنى العوائدُ يوما قالت العين لأرى مَنْ أريد
ليت لبنى تعودنى ثم أقضى إنها لاتعود فيمن يعودُ
ويح قيسٍ لقد تضمّن منها داءٌ خُبل فالقلب منها عميد

وهو الذى أغلق عينيه عن كل مرأى سواها ، وقلبه دون كل عشق عدا عشقها ، وأذنه عن كل صوت إلا حديثها : (٣)

كأنى أرى الناس الحبين بعدها عصارة ماء الحنظل المتفلّق
فتنكر عينى بعدها كل منظرٍ ويكره سمعى بعدها كل منطق

(١) عيون الأخبار ٢ / ١٤٥ وتزيين الأسواق ٤٦

(٢) الأغاني ٨ / ١١٥ وتزيين الأسواق ٤٦ . عيد قيس : مرض فعادته العائدات ، أى الزائرات . داء خبل : أى

اضطراب فى العقل . عميد : يعنى هدّه العشق .

(٣) الأغاني ٨ / ١١٠ وتزيين الأسواق ٤٥

وليس هذا بغريب مادامت روحه فد تآلفت مع روح لبنى ، منذ أن كانتا في عالم الأرواح ، كما حكى من قبل .

ونصيبُ بن رباح له تجاربه أيضا في الصباية والوجد بأم بكر ^(١) ، كابد من العشق مثل مالقى فيه إخوانه السابقون ، وشقى به مثل شقائهم ، وعف كما عفوا :
وئى كرم عن الفحشاء ناء كبعد الأرض عن جو السماء
ويث القريض أشجانه كما بثوا ^(٢) :

أرقُّ المُحبِّ وعاده سُهْدُ لطوارق الهمِّ التى تَرِدُهُ
وذكرت من رقت له كبدى وأبى فليس ترقِّ لى كبْدُهُ
ووجدتُ وجداً لم يكن أحداً من أجله بصباية يجْدُهُ
إلا ابن عجلان الذى تَبَلَّتْ هندُ ففاتت بنفسه كمدُهُ

فمجرد الذكر يهيج عليه الصباية ، ويحرك الأشجان ، فيجأ بالشكوى مما يجد ،
تماما كما رأينا عند جميل وأبى صخر الهذلى ، ومن قبلهما عروة بن حزام ، فى قوله :
وإئنى لتعرونى للذكراك هرة لها بين جسمى والعظام ديبُ
وينمى المجنون تجربة الصباية والوجد ، فيشرك فيها عناصر الطبيعة ، ويتخذ منها
مثيرا لبث مايلقى من شقاء العشق .

فهو يرى فى الظباء شبا بليلى ، ولذا سرعان مايفيض عليها من حبه وحنانه ، حتى
يرى صيدها حراما : ^(٣)

راحوا يصيدون الظباء وإننى لأرى تصيْدَها على حراما
ويناجيها ، ويثبها أشواقه إلى شبيها : ^(٤)
أيا شبه لئلى لاثرأعى فإئننى لك اليوم من بين الوحوش صديقُ

(١) تدعى زينب بنت صفوان بن غازى من بنى كنانة ، وكان نصيب يلهج بعشقتها ، ويكى من حرقه الوجد بها ، إذ لا سبيل إلى وصلها لضعة نسبته عند العرب وقيل : بل تزوجها : فماتت عنده . انظر : الأغاني ١ / ١٢٥ وسمط اللآلى ١ / ٢٩١

(٢) الأغاني ١ / ١٣٨

(٣) تزيين الأسواق ٤٠

(٤) سمط اللآلى ١ / ٣٨٠

ويأشبهه ليل لو تُقِيمَنَّ ساعةً لعل فؤادي من جَوَاهِ يُفِيقُ
فديتُك من أُسْرِ دهاك لحبا فأنت لليلي ماحييتُ طليق
وقد تستجيب لمشاعره عناصر الطبيعة ، فتشاركه إياها ، وتناجيه كما يناجيه ،
ويسألها فتد الجواب ، وترق له ، كما رق لها : (١)

وأجهشتُ للتَوْبَادِ حين رأيته وكبرَ للرحمان حين رآني
وأذريتُ دمع العين لما عرفته ونادى بأعلى صوته فدعاني
فقلت له : قد كان حولك جيرةٌ وعهدى بذاك الصُّرْمِ منذ زمان
وقلت له : أين الذين عهدتهم بقربك في حفظِ وطيب أمان ؟
فقال : مضوا واستودعوني ديارهم ومَنْ ذا الذي يبقى على الحدثنان ؟

وما أكثر تجارب المجنون في الصبابة ، وكلها حار ملتهب بالشوق ، مفعم
بالإخلاص والوفاء ، شديد الإيحاء بهما وبالحنن الصادق ، تتعاقب فيها المعاني والألفاظ
والصور لتحكي صدق المعاناة :

فالويل له كل الويل إذا ماجنه الليل ، حيث يفرد بنفسه ، بعد أن ولّى النهار ،
وولت معه الأماني ، وما كان يسلى به نفسه ، من الحديث مع الصُّحَاب ، وأصبح هو
والهمم حليفين ، وليت النوم يوافيه ، ولكن هيهات أن يهنا له المضجع ، والحنين إلى ليلي
يؤرقه ، وهو حنين دائم ، يؤججه عشق راسخ في القلب ، لا يفصم عنه : (٢)

نهارى نهارُ الناس حتى إذا بدا لى الليل هزّنتى إليك المضاجع
أقضى نهارى بالحديث وبالمُنَى ويجمعنى والهمم بالليل جامع
لقد ثبتت في القلب منك مودةً كما ثبتت في راحتين الأصابعُ

والملاحظ أن شعراء الغزل العذرى ، لا يكادون يلتفتون إلى الطبيعة ، باعتبارها
خلفية للتجربة العاطفية ، أو كإطار للصورة الشعرية ، هم حقا يشركون عناصر من

(١) أمالي المرتضى ٢ / ٣١٠ وتزيين الأسواق ٥٩ . التوباد : جبل بموطن المجنون كان يرعى الغنم مع ليلي عنده

صغيرين .

(٢) ديوانه ١٨٥ والبيتان الأولان لقيس بن ذريح في تزيين الأسواق ٥١ ، قيل : كان المجنون يتمثل بهما (انظر :

تزيين الأسواق ٥٣) وهما للمجنون في مصارع العشاق ٤٢٠ والثلاثة لقيس بن ذريح في أمالي القالي ٢ / ٣٢٠

الطبيعة في بعض صور تجاربهم ، كجبل التوباد في شعر الجنون ، والظباء عنده أيضا ، والليل أو الشمس ، أو القمر ، أو الأماكن ، عنده وعند غيره ، ولكنهم يربطون هذه العناصر ربطا سريعا بالتجربة العاطفية ، دون أية محاولة للتفنن في استقصاء الصورة الفنية للطبيعة ، فهي عندهم مجرد مثيرات تفجر عواطفهم ، فالليل هنا عند الجنون — مثلا — مجرد مثير لكوا من الأشجان ، التي غطى عليها سعى الشاعر بين الناس نهارا ، واشتغاله معهم بالحديث ، أو بما يشغلون به أنفسهم ، من شواغل حياتهم ، كما أن القمر والنجوم والرياح مجرد رموز سريعة للجمال ، أو الهم الطويل ، أو الشوق المبرح ، ولانكاد نستثنى من تلك العجلة في الإلمام بمظاهر الطبيعة إلا حديثهم عن الورق والحمام ، وما يشبهه بكائها في نفوسهم من أشواق وأشجان ^(١) .

ثم هل عرفت أيها القارئ صنوف العشق ؟ بل هل علمت للعشق صنوفا ؟ لقد كابد قيس بن ذريح من عشق لبنى أصنافا ، لا يعرفها غيره من الناس ، راح يعدد طائفة منها ، ويعرفنا بها تعريف خبير بها ، عانى من آثارها ، واكتوى بلظاها: ^(٢)

أحبك أصنافا من الحب لم أجِدْ	لها مثلا في سائر الناس يوصفُ
فمنهن حبٌ للحبيب ورحمةٌ	ومعرفةٌ منى بما يتكَلَّفُ
ومنهنَّ أن لا يعرض الدهر ذكرها	على القلب إلا كادت النفس تتلفُ
وحبٌ بدا بالجسم واللون ظاهرٌ	وحبٌ لدى نفسى من الروح ألطفُ
وحبٌ هو الداء العياء بعينه	له ذكرٌ تغدو على فادئفُ
فلا أنا منه مستريحٌ فميّت	ولا هو منى ماحيت مخففُ

فقلبه يجمع للبنى كل هذه الألوان من الحب ، منها : حب الرحمة ، وحب الشوق والحنين ، وحب النفس والروح ، وحب الضنى والسقم ، وأخيرا هذا الحب ، الذى هو الداء العياء !؟

٤ — أثر الحب في اعتلال الجسد :

تحدثنا في صدر هذا الفصل عن العشق وسلطانه على القلب ، وهيمته على سائر

(١) للاستزادة انظر : في الشعر الإسلامى والأموى ١٣٤

(٢) التذكرة السعدية ٥٥٧ وانظر : ديوانه ١٢٤ والأغانى ٨ / ١٢٧ وانظر في التعليق عليها : القيم الروحية و

الأعضاء ، وآثاره فيها ، من رِعدة في الأطراف ، وصفرة في الأبدان ، ولجلجة في اللسان ، وضعف في الرأي .

وقلنا أيضاً: أن العفيف منه ينحل البدن ، ويسقم النفس ، وقد يفضى إلى خبل في العقل (١) .

ومرت بنا روايات مأثورة فيما أصاب العشاق الأعفة من علل في الجسم والعقل ، أودت بأرواح بعضهم ، نذكر منها ما تحدّث به سعيد بن عقبة الهمداني ، من أنه سأل أعرابيا من بنى عذرة : ممن الرجل ؟ فقال : من قوم إذا عشقوا ماتوا ، فقال سعيد : عذري ورب الكعبة !!

وما حدّث به عروة بن الزبير ، من قوله لعذري : إنكم أرق الناس قلوبا ؟! فقال : والله ، لقد تركت ثلاثين شابا خامرهم السل ، وما بهم داء إلا الحب (٢) .

وأيا ما كان نصيب هاتين الروائتين وأمثالهما من الصحة والواقعية ، فإن شعر العذريين نفسه خير شاهد على ماتشير إليه ، من كون العاشق العذري مبتلى في صحته ، مصاباً في بدنه ، مسقماً في نفسه .

وهذا أمر طبيعي تقرره قواعد الصحة النفسية والبدنية ، فالهَمّ ، وشدة الوجد ، والقلق ، والتأرجح بين اليأس والرجاء ، والاضطراب والحيرة والتردد فيما ينبغي أن يفعلوا ، وما لا ينبغي ، خشية فقد رضا الصواحب ، على النحو الذي نراه في قول أحدهم (٣) :
شكوت ، فقالت : كل هذا تبرم بحبي أراح الله قلبك من حبي
فلما كتمت الحب ، قالت : لشد ما صبرت ، وما هذا بفعل شجي القلب
وأذنو فتعصيني فأبعد طالبا رضاها فتعتد التباعد من ذنبي
فشكواي تؤذيها وصبري يسوءها وتجزع من بعدى وتنفر من قرى
فيا قوم ، هل من حيلة تعرفونها أشيروا بها واستوجبوا الشكر من ربي

ويصور جانباً من هذا الهم والقلق ، والاضطراب قول نصيب (٤) :

(١) راجع ص ٤٢٥ من هذه الدراسة

(٢) راجع ص ٤٢٩ من هذه الدراسة

(٣) ديوان الصباية ١٤٣

(٤) تزيين الأسواق ٨٤ وانظر شرح الحماسة للمرزوق ٣ / ١٣٣٩

ومافى الأرض أشقى من محب وإن وجد الهوى حلو المذاق
 تراه باكيا أبداً حزينا محافة فرقة أو لاشتياق
 فيبكي إن نأوا شوقاً إليهم ويبكى إن دنوا خوف الفراق
 فتسخن عينه عند التئاني وتسخن عينه عند التلاق

فما ظننا بمثل هذا الباكي على الدوام؟! وعلى أى حال تكون صحة نفسه
 ويدنه؟! وليست هذه حال خاصة بنصيب ، فالصمة القُشَيْرِيّ (١) ، يصور حاله مع
 رَيا صاحبه قائلا: (٢)

إذا نأث لم تفارقنى علاقتها وإن دنت فصدود العاتب الزارى
 فحال غينى من يوميك واحدة تبكى لفرط صدود أو نوى دارٍ

هذه الأشعار لانتشكك فى صواب ماتنقله وتصوره — إن تشككنا فى الروايات
 الماثورة — مما يتلى به العشاق من قلق وحيرة واضطراب وهم دائم ، وبكاء متواصل ، وكل
 هذا وغيره يشكل صدمات عاطفية ، وآلام نفسية ، هى معاول هدم ، تعمل فى النفس
 والجسم معا .

ليس غريبا ، إذن ، أن يكثر المجانين بين العذرين ، وأن يكثرُوا أيضا من شكوى
 العلل الجسمية ، والأسقام النفسية ، التى لا براء منها .

وقد مر بنا قول جميل :

وأنتِ التى مامن صديق ولا عدى رأى نضو ماى إلا رنى ليا

(١) الصمة بن عبد الله بن الطفيل بن قرة بن هبيرة — وقرة هذا وفد على النسي عليه السلام — من بنى قشير ،
 ثم من بنى عامر بن صعصعة ، شاعر بدوى غزل غفيف مقل ، من شعراء الدولة الأموية عالم بأيام العرب ووقائعها
 ومواضعها ، وكثيرا مايسند إليه الرواية الأصمعى وابن دريد ، وهو أحد من قتلهم العشق ، خرج إلى الشام ، فالتحق
 بالفرسان ، ثم خرج فى غزوة إلى بلد الديلم ، فمات بطبرستان سنة ٩٥ هـ ، تقريبا ، وصاحبه : رَيا بنت غُطَيْف بن
 حبيب بن قرة بن هبيرة العامرية ، خطبها الصمة فاشتط عليه أبوها فى المهر ، ولم يعاونه أبوه ، فخرج إلى الشام غاضبا ،
 وقالت رَيا عندئذ : تالله ما رأيت كالسيوم رجلا باعته عشيرته بأبيرة وطال مقامه بعيدا عن صاحبه فاشتاقها ، وندم على
 تسرعه فى البعد عنها . انظر : الأغاني ٥ / ١٢٤ وشرح الحماسة للمرزوقى ٣ / ١٢١٥ ، والمؤتلف ١٤٤ ومعاهد
 التنصيص ٢ / ٨٧ وتزوين الأسواق ٨٧ ، والتذكرة السعدية ٣١٤ .

(٢) الأغاني ٥ / ١٢٦

فلم يُبق منه العشق إلا جسداً نحيلاً مهزولاً .

وقوله لضعيفه الذى ادّعى الهوى العذرى :

فلو كنت عُذرىّ العلاقة لم تكن بطينا ونَسَاكَ الهوى كثرةً الأكل

هذا حق ، فالأكل شهوة يصد عنها الهم والقلق ، واضطراب النفس ، ولاشك في أن الإنسان الذى لايقبل على الطعام عن رغبة فيه ، يقل زاده ، ويهزل جسمه .

ومر بنا أيضا قول عروة بن حزام — قبل جميل وعصره :

متى ترفعا عنى القميص تبينا بى الضّر من عفراء يافتيان
وتعترفا لحماً قليلاً وأعظماً رِقاقاً وقلباً دائماً الخفقة ان
على كبدي من حب عفراء قرحةً وعيناي من وجدي بها تكفان

أما مجنون ليل فيفعل العشق فعله في بدنه ، فإذا هو نحيل أشد النحول ، بارز الضلوع ، يكاد يظهر ماتحت أضلعه للعيان ، وكأنه زجاجة تشف عما بداخلها : (١)

وَأَنْتِ الَّتِي صَبَّرْتَ جِسْمِي زُجَاجَةً تَبْشُرُ عَلَى مَا تَحْتَوِيهِ الْأَضَالَعُ

ولم يبق العشق منه إلا جلداً على عظام ، ولو استمر حاله على ما هو عليه ، سوف ينسحق جلده وعظمه ، كما يقول ، وليس لهذا صورة إلا بالموت (٢) :

ولم يبق إلا الجلد والعظم عارياً ولاعظم لى إن دام ماى ولا جلد

ويقلّب صورة القارورة ، فيخلّيها من محتواها ، ويصور بها عظامه التى أتى الهم على مُحْهَا فأخلاها منه (٣) :

سلبت عظامي لَحْمَهَا فتركنتها معرقةً تضحى إليك وتُخَصَّرُ

وأخلّيتها من مُحْهَا فكأنها قوارير فى أجوافها الريح تصفّرُ

والجنون آفة من الآفات التى يرزأها العذريون ، وجنونهم أشد وأنكى من جنون مرضى العقول ، فهؤلاء إنما تعاودهم نوبات الجنون بين الحين والحين ، أما مجانين العشق ،

(١) ديوانه ١٨٥

(٢) تزيين الأسواق ٦٠

(٣) أمالى القالى ١ / ١٦٣ ومصارع العشاق ١٥٣

فَعَقُولُهُمْ ذَاهِبَةٌ فِي كُلِّ حَالٍ ، هَذِهِ رُؤْيَا مَجْنُونِ بَنِي عَامِرٍ : (١)

قَالَتْ: جُنْتَنِي عَلَى (أَيْشٍ) فَقُلْتُ لَهَا الْحُبُّ أَعْظَمُ مِمَّا بِالْمَجَانِينِ
الْحُبُّ لَيْسَ يَفِيْقُ الدَّهْرَ صَاحِبُهُ وَإِنَّمَا يُصْرَعُ الْمَجْنُونُ فِي الْحَيْنِ
إِنِّي جُنْتُ فَهَاتُوا مِنْ جُنْتِي بِهِ إِنْ كَانَ يَنْفِي جُنُونِي ، لَا تَلُومُونِي
وَمِنْ إِفْرَاطِهِ فِي تَصْوِيرِ سَقَمِ بَدَنِهِ ، وَشِدَّةِ نَحْوِهِ ، مِنْ مَعَانَاةِ الْعَشْقِ ، قَوْلُهُ : (٢)
أَلَا إِنَّمَا غَادَرْتِ يَا أُمُّ مَالِكٍ صَدْدِي أَيْنَمَا تَذْهَبُ بِهِ الرِّيحُ يَذْهَبُ
وَقَوْلُهُ (٣) :

فَلَوْ أَنَّ مَا أَبْقَيْتَ مِنِّي مَعْلُقٌ بَعُودُ ثَمَامٍ مَا تَأَوَّدَ عَوْدُهَا
أَمَا قَيْسُ بْنُ ذَرِيحٍ ، فَقَدْ أَصَابَ الْعَشْقُ وَالْهَجْرَ عَقْلَهُ وَقَلْبَهُ وَجَسَمَهُ جَمِيعًا ، أَمَا
عَقْلُهُ فَهُوَ مَدْخُولٌ مَخْتَلٌ فَاسِدٌ ، وَأَمَا قَلْبُهُ فَقَدْ أَصَابَتْهُ تَبَارِيحُ الْهَوَى بِالْدَاءِ ، وَأَمَا جَسَمُهُ
فَمِنْهُوَ الْقَوَى ، ضَعِيفٌ هَزِيلٌ ، كَالْمَصَابِ بِدَاءِ السَّلِّ : (٤)

بَانَتْ لُبِّيْنِي فَأَنْتَ الْيَوْمَ مَتَبُولٌ وَإِنَّكَ الْيَوْمَ بَعْدَ الْحَزْمِ مَخْبُولٌ
فَصُرْتُ مِنْ حُبِّ لُبْنِي حِينَ أَذْكَرُهَا الْقَلْبُ مُرْتَهَنٌ وَالْعَقْلُ مَدْخُولٌ
وَالْجَسْمُ مِنْ مَتَبُولٍ لَفُرْقَتِهَا يَبْرِيهِ طَوْلُ سَقَامٍ فَهُوَ مَنْحُولٌ
كَأَنَّيَ يَوْمٌ وَلْتُ مَا تَكَلَّمَنِي أَخُو هَيْامٍ مَصَابُ الْقَلْبِ مَسْلُوكٌ

وَمِنْذُ صَادَتْ لُبْنِي قَلْبَ قَيْسِ بْنِ ذَرِيحٍ بِسَهَامٍ لِحَظْهَا ، لَمْ يَبْرَأْ مِنَ السَّقَمِ
وَالسَّهْدِ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَسْلُهَا أَبَدًا ، حَتَّى غَدَا طَرِيحُ الْفَرَّاشِ ، كَوْمَةٌ مِنْ جِلْدٍ وَعَظْمٍ ، لَيْسَ فِيهِ
مِنْ مَظَاهِرِ الْحَيَاةِ إِلَّا نَفْسٌ يَتَرَدَّدُ ، تَظُنُّهُ بَعْضُ الْعَائِدَاتِ مَيِّتًا ، وَبَعْضُهُنَّ رَهِينِ
مَوْتٍ (٥) :

(١) بِسَطِّ الْمَسَامِرِ فِي أَخْبَارِ مَجْنُونِ بَنِي عَامِرٍ لِلدَّمَشْقِيِّ ١ / ٢٦٦ وَدِيَوَانِ الصَّبَاةِ ١٢ وَفِيهِ « قَالُوا جُنْتُ عَنْ
تَهْوَى فَقُلْتُ لَهُمْ » .

وَفِي تَزْيِينِ الْأَسْوَاقِ ٥٨ وَمَصَارِعِ الْعَشْقِ ٧٩ « قَالَتْ جُنْتُ عَلَى رَأْسِي » وَلَعَلَّهُ تَحْرِيفُ (أَيْشٍ) .

(٢) الْكَامِلُ لِلْمَبْرَدِ ١ / ٢٦ وَسَمْتُ اللَّالِئِ ١ / ١٨١

(٣) الْكَامِلُ لِلْمَبْرَدِ ١ / ٢٠٧ وَيَنْسَبُ لِابْنِ الدِّمِينَةِ فِي سَمْتُ اللَّالِئِ ١ / ١٨١ وَلَيْسَ فِي دِيَوَانِهِ . الثَّامُ : نَبْتِ

ضَعِيفٌ . تَأَوَّدَ : اِهْتَرَى وَتَمَائِلٌ .

(٤) دِيَوَانُهُ ١٣٨ وَالْأَغَانِي ٨ / ١١٣ . مَتَبُولٌ : ذَاهِبٌ . مَدْخُولٌ : مُعِيبٌ . أَخُو هَيْامٍ : الْمَعْنَى مَجْنُونٌ مِنَ الْعَشْقِ .

(٥) الْأَغَانِي ٨ / ١٢٤ . يَمِيدُ : يَتَحَرَّكُ ، يَرِيدُ : أَنْ يَهْ دَوَارًا كَدَوَارِ السُّكْرَانِ ، الْحَشَاشَةِ : بَقِيَّةُ الشَّيْءِ ، يَرِيدُ : بَقِيَّةُ

مِنْ حَيَاةٍ ضَعِيفَةٍ .

رمتي لُبْنَى في الفؤاد بسهما وسهم لُبْنَى للفؤاد صيود
 كَأَنِّي من لبني سليم مسهد يظل على أبدى الرجال يعمد
 وقائلة : قد مات ، أو هو ميت وللنفس متى أن تفيض رصيد
 أعالج من نفسي بقايا حشاشة على رَمَقِ والعائدات تعود

وسقم العشق ليس له دواء ، إلا الموت ، بهذا يحدث قيس أيضا فيقول (١) :
 تُبَاكِرُ أم تروح غدا رواحا ولن يَسْطِيعَ مُرْتَهَنُ براحا
 سقيم لا يُصاب له دواء أصاب الحب مقتلته فباحا
 وعذبه الهوى حتى براه كَبْرَى القَيْنِ بالسَّقْنِ القداحا
 وكان يذيقه جُرْعَ المنايا ولو سَقَاه ذلك لاستراحا

وهاهو ذا أحد العذرين يدخل على معاوية بن أبي سفيان ، ويشكو مابه من وجد
 بآبنة عم له ، فيجمع صنوفا من العلل والآلام ، تعاور العشاق العذرين (٢) :

في القلب مئى نأر والنار فيها شنار
 وفي فؤادى جمر والجمر فيه شرار
 والجسم منى نجيل واللون فيه اصفرار
 والعين تبكي بشجو فدمعها مدرار
 والحب داء عسير فيه الطَّبيب يحار
 فليس لَيْلَى لَيْلَا ولا نهارى نهار

وهذه صورة من الصور ، التى تجمع كثيرا مما تفرق فى أشعار العذرين الآخرين ،
 مما يصور آثار العشق المدمرة فى صحتهم النفسية والبدنية .

٥- الشُّكْوَى مِنْ صَدِّ الْحَبِيْبَةِ :

أكثر العذريون من شكوى صَدِّ الحبيبة وإعراضها ، أو ندرة استجابتها للهوى ،
 وعدم إنصافها فى المودة .

(١) أمالى القالى ١ / ١٦٤

(٢) مصارع العشاق ٢٢٤ .

والحق أنهم يتجنّون عليها بهذه الدعاوى ، ويتغافلون عما هي مكبلةٌ به ، من قيود التقاليد الصارمة في البادية ، فما كانت هذه البدوية ممتعة بما تمتعت به أختها الحضرية ، من حرية أتاحت لها الاتصال بالعاشق ومجالسته ومحادثته ، فضلا عن التعرض له — أحيانا — ومغازلته ، على نحو مارأينا في الغزل الحضري .

يضاف إلى هذا أن كثيرات من صواحب العذريين قد تزوجن بغير من تعشقهن ، والزواج قيد آخر ، فوق قيود المنعة البدوية ، التي أشرنا إليها في صدر هذا الفصل ^(١) .

ويأتى عامل الدين ، الذى فرضَ على المسلمة واجبات تقتضيها مبادئ الفضيلة ، وسلامة المجتمع الإسلامى من مباءات الفساد ، وغوايات الإغراء ، كما يتطلبها صون أعراض المسلمين ، وإحاطتها بسياج من الطهر والنقاء ، بغية تحقيق النموذج الصالح للمرأة ، لتنهض برسالتها أمماً وزوجة ، نقول : يأتى عامل الدين ليدعم قيود العفة البدوية ، ويضيف إليها قيوداً أخر .

وقيود المنعة والعفة ، ورعاية الحقوق والواجبات هذه ، هى التى تعبر عنها ليلى الأخيلية ، حينما عرّض لها توبة صاحبها باقتضاء مارآه حقاً للهوى ، بقولها ، السابق :

وذى حاجة قلنا له : لاثبّع بها فليس إليها ماحييت سبيل
لنا صاحب لاينبغى أن نخونه وأنت لأخرى صاحب وحليل
تخالك تهوى غيرها فكأنها لها من تظنّها عليك دليل

ومادامت ليلى الأخيلية قد نبهت توبة إلى هذا الحق والواجب ، وارتضى توبه منها مايفرضانه من حرمان ، فليس من بأس عليها — فى رأيها — أن تبدى له من عواطفها مايعزّيه عن حاجته ، التى عرّض بها ، ويرضى بعض هوى نفسه ، بعيدا عن هذه الحاجة ، التى لاسبيل إليها .

ويتولى توبة التعبير عما باحت به إليه ، فيقول ^(٢) :

قالت مخافة بيّنا وكث له فالبين مبعوث على المتخوف

(١) راجع ماكتبناه عنها ص ٤٣٦ من هذه الدراسة .

(٢) أمالى القالى ١ / ١٦٨

لو مات شيءٌ من مخافةِ فرقةٍ لأمانتى للـبين طولُ تخوُّفٍ
ملاً الهوى قلبى فضقتُ بحمله حتى نطقْتُ به بغير تكلف

ومع أن ظروف حياة المرأة البدوية ، لم تكن مجهولة للعاشقين ، فإن كثيرا منهم لم يقدروا هذه الظروف ، ولم يلتفتوا إليها بدافع من شبوبة عواطفهم ، التى دفعت بهم إلى الدخول فى صراع مع المجتمع ، الذى يأخذهم بصرامة قيمه وتقاليده ، ويتمادى بعضهم فى تغافله وتحديه ، حينما يتجه إلى صاحبتة باللوم ؛ لأنها لاتظهر له حالها ، كما يظهر حاله ، ولاتبثه عواطفها ، كما يبدى عواطفه لها ، فيطالبها بما لا تستطيعه من البوح ، حتى لو أرادته .

وأمعن من هذا فى التغافل أن يتخذ الواحد منهم التزام صاحبتة بقواعد الصون فى مجتمعها دليلا على انعدام الإخلاص والوفاء له .

وأعجب من هذا وذاك أن يأخذ العاشق ما يبدو على صاحبتة من صحة فى البدن ، واتزان فى الرأى والسلوك شاهدا على خلو بالها ، وبرأتها من العشق .

كذا فعل كثير ، فهو يعتب على عزة أن قلبها لا يكن له من الود والإخلاص ، مثل مايعمر به قلبه من عشقها والوفاء لها ، وآية هذا — فى نظره — أنها صحيحة البدن ، بينما سكن الداء جسمه من الوجد بها ، ولاينسى أن يرميها بعدم الإنصاف فى الودّ ، ويمتن عليها بأنه يقابل كل هذا منها بالحلم والصفح.

وكأنما كان يريد منها أن تتحدى كل القيم مثله ، وأن تنادى بأعلى صوتها بمجاهرة بعشقه ، أو تقول فيه شعرا ، كما يقول فيها !!

ولو أنصف لما انتظر من عزة أن تفعل شيئا من هذا أو أقل منه ، وكيف لها أن تبدى صفحتها ، وهى البدوية المتزوجة من غيره ، الحريصة على سمعتها ، وحقوق زوجها عليها ، يقول كثير : (١)

أفى الدّين هذا؟ إن قلبك سالمٌ صحيح وقلبي من هواك سقيم

وإن يحوفى منك داءٌ مُخامِراً وجوفك مما بى عليك سليم
لعمرك ما أنصفتنى فى مودتى ولكننى ياعزُّ عنك حلیم
ثم يتجنى عليها مرة أخرى ، ويمتن بوفائه وإخلاصه ، والامتناع على غيرها من
أجلها ، فيقول (١):

ويعذب لى من غيرها فأعافها مشارب فيها مَفْنَعٌ لو أريدها
وأمنحها أقصى هواى وإننى على ثقة من أن حظى صدودها
وربما كانت نغمة الامتنان هذه فى شعر كثير ، هى التى التفت إليها بعض قدامى
النقاد والشعراء ، وعنوها عندما اتهموا كثيراً بالكذب فى العشق (٢) .

ويتشكك الصمة القشيري فى صدق عواطف رثيا صاحبه ، كما تشكك كثير
فى إخلاص عزة ، إذ يرى أنها لاتحن إليه ، بقدر ما يحن إليها ، وإلا كان حالها كحالها ، ولو
فعلت ماكفكف دمعها ، وجدأ دائماً بها (٣):

أما وجلال الله لو تذكرينى كذكرك ماكفكفت للعين مَدَمَعَا
فقلت : بلى والله ذكراً لوأثُّهُ يُصَبُّ على صُمِّ الصَّفا لتصدعا

ويعلق الصمة على ما أجابت به ، قائلاً : « لا والله ما صدقت فيما قالت » .

أما المجنون فهو عنيف بطبعه ، حتى فى عتابه ليلاه ، فهو يلومها لوماً شديداً ؛
لأنها لم تف بوعودها له ، حتى شمت به من كانوا يلومونه فى عشقها ، وهى بذلك قد
جعلته غرضة للناس ، يسخرون منه ، ويهزءون بجنونه ، بينما نجت هى من كل لوم (٤):

وأنت التى أخلفتينى ما وعدتيني وأشمت بى مَنْ كان فيك يلومُ

وأبرزتنى للناس ثم تركتنى لهم غرضاً أرمنى وأنت سليمُ

وما كان أغناه عن هذه الآلام ، لو كان يملك أمر قلبه ، ولكن أئى له ذلك ، فهو
مغلوب على أمره ، كما ذكرنا من قبل .

(١) سبط اللآل ١ / ١٤٠

(٢) راجع أقوالهم فى هذا ص ٤٥٦ من هذه الدراسة .

(٣) الأغاني ٥ / ١٢٦ وتزيين الأسواق ٨٨

(٤) ديوانه ٢٤٧

ويقسو أيضا جميل على بثينه في عتابه ولومه ، فيقابل بين حاله في الإخلاص لها والاستمسك بجليلها ، وحالها في صدها وهجرها ، وكأنما لاتبالى إن قتله الهجر (١) :
ألا قم فانظرن أخاك رهناً لبثنة في حبائلها الصراح
أريد صلاحها وتريد قتلى فشتى بين قتلى والصلاح

أما قيس بن ذريح فيستسلم لإعراض لبنى عنه ، عندما تعرض لها في موسم الحج ، ويرى في الاستسلام واليأس راحة ؛ إذ لاسبيل إلى نيل المرام (٢) :
ويوم منى أعرضت عنى فلم أقل بحاجة نفسى عند لبنى مقالها
وفي اليأس للنفس المريضة راحة إذا النفس رامت حطة لاتنالها

وفي ظننا أن قيس بن ذريح ماكان ليستسلم ويأس ، لولا أن الموقف لايسمح بمجرد عرض حاجته عليها في موسم أداء شعائر الحج ، فالاستسلام هنا موقفى لأكثر ، وإلا لشكى هو الآخر ، وأرسل القريض لائما ، أو عاتبا على الأقل ، فالبخل بالوصل ، والمجاهمة بالصد كثيرا ماأثارا أعصاب العاشقين العذريين ، فانهلوا ، يلومون ويعتبون ، في لين حيناً ، وفي عنف حيناً آخر ، كما عُنِفَ المجنون في لوم ليلاه ، وقسا جميل في عتاب بثينه ، وقد يضرع بعضهم إلى الله طالبا القصاص ممن صدته وهجرته ، وينسبها إلى طبع بخيل شحيح فيها .

من ذلك قول قيس بن ذريح (٣) :

أيا باعث الموق أقذنى من التى بها نهلت نفسى سقاماً وعلت
لقد بخلت لوانى سألتها قذى العين من سافى التراب لضئت
فإن منعت فالبخل منها سجية وإن بذلت أعطت قليلا ومننت

ومع هذا فلم تكن الحبيبة دائما كما صورها هؤلاء العذريون ، صادة ، معرضة ، سلبية تماما إزاء عواطف صاحبها ، والذي يبدو أن بعضهم كان لايكفيه ، ولايرضيه ،

(١) أمالى القالى ١ / ٢٢٠ ومط اللالى ١ / ١٣٨

(٢) ديوانه ١٤١

(٣) الأغاني ٨ / ١١٥

ماطالب به الصمة القشيري رثا صاحبه من مجرد أن تذكره كما يذكرها:
أما وجلال الله لو تذكريني كذكرك ما فكفت للعين مدمعا
وإنما كان يطلب منها أكثر مما تستطيع أن تمنحه ، فترفض ، فيتهمها بالصد
والخل ، ويصب عليها لومه وتأنيبه .

وهاهي ذى بشينة تصرح لجميل بأنها تهواه كما يهواها ، بل أكثر مما يهواها ، ومع
ذلك لايقنع ، ويطالبها بحق الهوى ، الذى تكابد منه مثل مايكابد ، وحينئذ تنكر عليه
مايطلب ، وتصده ؛ إذ لا تملك إلا الصدود ، فينصرف عنها غير راض : (١)

إذا قلت: ماني يابثينة قاتلى من الحب قالت : ثابت ويزيد
وإن قلت: ردى بعض عقلى أعش به مع الناس قالت: ذاك منك بعيد
إذا فكرت قالت: قد أدركت ودّه وماضرتى بخلى فكيف أجود ؟

نعم ، كيف تجود ؟! وتقاليذ الصون والمنعة فى البادية كالسيف المصلت ، دون
جودها بالوصل ، وجود أخواتها البدويات .

ولسنا ندرى كيف تصور هؤلاء العذريون الشاكون أن تتجاهل المرأة البدوية
تقاليذ بيتها ، وتخرج على عرف العفاف وصيانة العرض ، وحسن السمعة فيها ؟!

أبدأ ، ماكان لها أن تفعل هذا ، وإلا كان أهون ماتلاقيه من رد فعل مجتمعها ، أن
تلوك الألسنة سمعتها ، فتكون سبة وعارا لأهلها ، فإذا كانت زوجة — كما هو حال
كثيرات من صواحب العذريين الأمويين — كان أمرها فى ضرورة الحفاظ على سمعتها
وعرض زوجها آكد ، والتهاون فى شىء من هذا أكثر عارا ، وأسوأ عاقبة ، فللزوجة إطار من
الأدب والحشمة وصيانة شرف زوجها بين قومه ، قد حددته الأعراف ، وتشددت فيه
التقاليد ، وأذاعه شعراء البدو ، وأشادوا به ، وامتدحوا نساءهم لحرصهم عليه .

كان هذا واضحا محددًا فى البيئة البدوية منذ عصورها الجاهلية القديمة ،
فالشنفرى (٢) الشاعر الجاهلى القديم ، يثنى على زوجه ، ويعدد الصفات التى ينبغى أن

(١) الأغاني ٧ / ٧٩ وأمالى القائل ٢ / ٣٣

(٢) شاعر جاهلى قديم من الأوس بن الحجر بن الأزد ، وهو أحد الفتاك ، والصعاليك العدائين المشهورين ،
يقال : قتل من بنى سلامان — وكان مولى لهم — تسعة وتسعين رجلا ، وهو صاحب لامية العرب المشهورة . انظر :
أسماء المغتالين ٢٣١ وشرح المفضليات ١٩٥ والأغاني ٢١ / ٨٧

تحرص عليها الزوجة في بيئته ، فيقول : (١)

لقد أعجبتني لاسْقُوطاً قناعُها إذا مامشتُ ولا بذات تَلَفُتِ
تَحُلُّ بمنجاةٍ من اللوم بيئها إذا ما بيوت بالمذمة حُلَّتِ
كَأَنَّ لها في الأرض نسيّاً تقصّة على أمّها وإن تكلمك ثَبَلَّتِ
أُميمةٌ لا يُخزى نثاها حليلها إذا ذُكر النِّسوانُ عَفَّتْ وجَلَّتِ
إذا هو أُمسى آب قُرّة عينه مآب السعيد لم يَسَلْ أين ظلتِ

هذا هو نموذج الزوجة البدوية ، التي كانت بيئتها تفخر به ، وتذيعه ، ليكون قدوة ومثلاً ، ومنه ندرك ، لماذا كانت صورة المرأة البدوية المعشوقة على هذا النحو الذى صورته الشعراء البدو العذريون .

* * * * *

— ٥ —

تعقيب

لنا بعد هذه الدراسة ملاحظات على هذا الغزل العذرى بعامة ، أكثرها شركة بين الجاهلى منه والإسلامى ، وقليل منها خاص بهذا الغزل العذرى الأموى :

١ — نمو هذا الضرب من الغزل ، وكثرة النتائج الشعرى الذى قيل فيه ، وكثرة الشعراء الذين عاجلوه فى البادية فى العصر الأموى ، وهذه الملاحظة قائمة على أساس ماوصل إلينا من نماذجه فى هذا العصر وسابقه ، مع مراعاة ماسبق أن أشرنا إليه فى مقدمة هذا الفصل ، من ضياع كثير من أشعار الجاهليين ، وربما كان فى ضمن ما فقد منها قدر من نتاج الغزل العفيف فى العصر الجاهلى .

هذا فضلاً عن ازدهار هذا الفن فى بوادى الحجاز وما صاقبها ، أكثر من الحضر ، لأسباب سبق ذكرها ، كما اشتهر عدد من شعرائه ، لفتوا إليهم أنظار التاريخ الأدبى ،

(١) شرح المفضليات ١٩٥ — ٢٠٠ . النسي : الشيء المفقود . تقصه : تتبعه وتبحث عنه ، أى أنها تلقى بصرها إلى الأرض حياء واستقامة . أمها : قصدها الذى تريده . ثبلت : توجز فى كلامها . النثا : ما يتحدث به عن الإنسان من حسن أو سوء .

وحظوا باهتمام العلماء بالشعر ونقاده من القدماء والمحدثين ؛ وبذا احتل غزل العذريين الأمويين مكانا بارزا بين فنون الشعر التي راجت في العصر الأموي

٢- قضى كل محب عذرى حياته ، أو أكثر حياته ، وقلبه معلق بحبيبة واحدة لايعدها ، ولايتسع لغيرها ، ولايرى وجودا لسواها ، أو شبيها لها ينبض بعشقها قلبه ، وتحمل في هذا العشق آلاما وأهوالا ، أسقمته ، وأذهلته ، أو قتلتة .

وذهاب بعض الشعراء ضحية العشق والهوى سمة العذريين في الجاهلية والإسلام ، فقد قتل العشق عبد الله بن العجلان وهو جاهلي ، كإمات عروة بن حزام عشقا ، وهو من المخضرمين ، الذين لم يدركوا عصر بنى أمية .

وتشير بعض أشعار العذريين الأمويين إلى ظاهرة الاختصار على عشق امرأة واحدة ، وقصر كل منهم غزله عليها .

وفي هذا يقول قيس بن ذريح :

تعلق روحى روحها قبل خلقنا ومن بعد ما كنا نطافا وفي المهد
فزاد كما زدنا فأصبح ناميا فليس وإن متنا بمنفصم العهد
ولكنه باق على كل حادث وزائرنا في ظلمة القبر والحد

فقد ربط التآلف الروحي بين قيس وصاحبه ، لا في حياتهما فقط ، وإنما من قبلها ، وسيظل بعد وفاتهما .

ويذكر نصيب بن رباح ، أن عينه لا ترى سوى صاحبه ، ونفسه لا تتطلع لغيرها ، ولا تقنع إلا بها ^(١) :

فلا النفس ملئتها ولا العين تنتهى إليها سوى فى الطرف عنها فترجع
رأىها فما ترد عنها سامة ترى بدلا منها به النفس تقنع

ويقول جميل ، مخاطبا قلبه : ^(٢)

سلا كل ذى وُدٍّ علمت مكانه وأنت بها حتى الممات موكل

(١) الأغاني ١ / ١٤٠

(٢) المصدر السابق ٧ / ٩٢

وصاحبة جميل هي بثينة ، وقلبه هائم بها ، لن يتحول إلى سواها حتى آخر عمره .
ومن دلائل هذا الكلف بامرأة واحدة عند العذريين ، ماروى من محاولات الأهل
والأصدقاء لصرف قلب الشاعر عن عشق من أشقاه عشقها ، دون جدوى ، كالذى
ذكرناه من شأن مجنون ليلي مع النسوة اللاتي عرضن عليه أن يختار إحداهن ، ليصرف
قلبه إليها بدلا من ليلاه ، وردة عليهن بقوله : « لو ملكت لفعلت ، ولكنى مغلوب » (١) .
وما يروى من أن بعض النسوة حاولن صرف جميل عن بثينة ؛ ليخلو قلبه لهواهن ،
ولكنه صدهن ، معلنا أنه قد أحب ، ولن يزول حب من هواها من قلبه ، لأنه وقف على
حبها (٢) .

ومن قوله في ذلك أيضا : (٣)
ضمنتُ لها أن لأهيم بغيرها وقد وثقت منى بغير ضمان
ويقول كثيرٌ مخاطبا عزة (٤) :
وأقسم ما استبدلت بعدك حُلَّةً ولالك عندى فى الفواد قسيم
فهو يقسم لصاحبه أنه لن يتخذ صاحبة غيرها ، ولن يشاركها فى قلبه أخرى .
٣ — من العذريين الأمويين خاصة من قصر كل نتاجه الشعري ، أو كاد — على التغزل
فى صاحبه ، يدير حولها هذا الشعر .

منهم جميل ، الذى لانجد له فى ديوانه شعرا فى غير الغزل ، اللهم إلا مُقطَّعات
قليلة فى المدح والهجاء والفخر ، وبعضها شديد الاتصال بغزله ، إذ كان هو السبب
فيها ، والباعث عليها (٥) .

ومنهم ، قيس بن ذريح ، وبين أيدينا ديوانه المجموع ، وليس فيه بيت واحد فى غير
الغزل ، ولم يرو أحد من رواة أخباره أنه قال شعرا فى غرض آخر ، ومعنى هذا ، أنه وقف
موهبة على هذا الفن ، فلم يعده .

(١) راجع ص ٤٢٦ من هذه الدراسة .

(٢) الأغاني ٧ / ٧٧

(٣) تزيين الأسواق ٣٨

(٤) يقال : إن كثيرا لم يبر بقسمه هذا لعزة ، وإنه هوى بعدها امرأة من قومه ، يقال لها أم الحويث (عيون

الأخبار ١ / ١٤٨) . وانظر ديوانه ١٢٩ .

(٥) انظر : مقدمة ديوانه ١٢

وماقلناه عن ديوان قيس بن ذريح ، ينطبق تماما على ديوان مجنون ليلي ، فشعره المجموع فيه ، يخلو من غير الغزل ومايتصل به .

وهذا التخصص في الغزل العذرى شبيه بما رأيناه ، من تخصص في الغزل الحضري الحسى ، وكلاهما تطور جديد ، يمتاز به الغزل الحجازى فى البادية والحضر ، فى العصر الأموى ؛ إذ لا نعلم شاعراً جاهلياً قصر شعره كله ، أو كثرته ، على القول فى الغزل ، وكل مانعلمه أن قلة من الشعراء الجاهليين ، أفردوا قصائد لهذا الفن ، ولم يجمعوا إليه فناً آخر ، فى هذه القصائد ^(١) .

٤ — تشابه أشعار العذريين بعامة ، فقد كان لدوران قصة العشق عندهم داخل إطار محدد ، وعلى نمط مألوف فى حياة هؤلاء العشاق ^(٢) ، أثره فى تشابه معانيهم ، وعناصر تجاربهم ، مما أدى إلى اختلاط غير قليل من أشعارهم بعضها ببعض ، فنرى أبياتاً لشاعر قد أقحمت على قصيدة لشاعر آخر ، ونرى ماينسب إلى أحدهم فى مصدر ينسب إلى غيره ، فى مصدر آخر .

من ذلك هذان البيتان :

وَأَنْتِ التِّى إِنْ شِئْتُ كَدَرْتَ عَيْشَتِي وَإِنْ شِئْتُ بَعْدَ اللَّهِ أَنْعَمْتَ بَالِيَا
وَأَنْتِ التِّى مَامِنْ صَدِيقٍ وَلَا عِدَاً يَرَى نَضْوَ مَا أَبْقَيْتِ إِلَّا رَثِي لِيَا

إذ ينسبان الجميل فى الأغاني ^(٣) ، وهما فى ديوانه فى جملة أبيات له ، وينسبان للمجنون ، فى تزيين الأسواق ^(٤) فى ضمن أبيات له ، وهما أيضاً فى ديوانه المجموع .

ومنه أيضاً ، هذه الأبيات :

نَهَارِي نَهَارِ النَّاسِ حَتَّى إِذَا بَدَا لَيْلَ اللَّيْلِ هَزَّتْنِي إِلَيْكَ الْمَضَاجِعُ
أَقْضَى نَهَارِي بِالْحَدِيثِ وَالْمُنَى وَبِجَمْعِنِي وَاهُمٍ بِاللَّيْلِ جَامِعُ

(١) انظر : الغزل فى العصر الجاهلى (د . الحوفى) .

(٢) راجع هذا المخطوط ٤٢٧ ، ٤٥٩ من هذه الدراسة .

(٣) ٩٠ / ٧

(٤) ٦٩

لقد ثبتت في القلب منك مودة كما ثبتت في راحتين الأصابع
 فهي تنسب لمجنون ليلي في مصارع العشاق ^(١) ، وهي في ديوانه ، وينسب الأولان
 منها لقيس بن ذريح في تزيين الأسواق ^(٢) ، والأبيات الثلاثة لقيس بن ذريح في الأمل
 للقالى ^(٣) .

وفي ديوان قيس بن ذريح ، وكذا في التذكرة السعدية ^(٤) ، هذه الأبيات له :
 أحدثتني يا قلب أنك صابر على الهجر من لبنى فسوف تذوق
 أطعت وشاة لم يكن لك فيهم خليل ولادان عليك شفيق
 فمت كمداً أو عش مُعْنَى فإنيما تحملننى مالا أراك تطيق
 وينسب البيتان الأول والثالث منها ، لمضرّس بن الحارث المزني في ضمن قصيدة
 طويلة له ، في الأمل للقالى ^(٥) .

والأمثلة على هذا الخلط بين أشعار العذريين الأمويين كثيرة ^(٦) ، وفيما ذكرناه
 ما يكفي للتدليل على صواب ذلك .

ولم يقتصر الأمر على هذا ، فقد أدى تشابه تجاربهم ، وكثير من وسائل تعبيرهم
 عنها ^(٧) ، وفقر هذه التجارب ، من حيث تنوع المواقف ، التي تتصل بالتجربة ،
 العاطفية ، كمواقف الوداع ، أو اللقاء ، والأحداث ، أدى هذا كله إلى سهولة الوضع
 والتزيد في أشعارهم على مدى العصور ، فالإطار العام لتجاربهم محدود كما ذكرنا ،
 وروحهم العاطفية ، وأحاسيسهم العذرية ، كالحرمان ، والشكوى ، والوفاء ، وتحدى
 المجتمع ، والرغبة في الهروب ... وغير ذلك ، شائع في تجاربهم ، مشترك بينهم ، كما أن
 تقاليدهم الفنية في الأداء متشابهة ، فأساليب النداء ، والندبة ، والاستفهام ، وتكرار
 ألفاظ بعينها ، أو عبارات بذاتها ، ظاهرة بارزة في أشعارهم جميعاً تقريباً ، مما سهل الوضع

(١) ٤٢٠ (٢) ٥١

(٣) ٣٢٠ / ٢ (٤) ٥٢٤

(٥) ٦٣ / ٢

(٦) انظر مثلاً : الشعر والشعراء ٢٢٠

(٧) نهبنا كثيراً إلى هذا التشابه خلال دراسة نماذجهم في الاتجاهات المختلفة . راجع ٤٥٠ ، ٤٥١ ، ٤٥٣ ،

عليهم ، والتزيد في أشعارهم للرواة ، وجامعى شعرهم ، يقول ابن قتيبة في مقام الحديث عن مجنون ليلى ^(١) : « على أنهم قد نخلوه شعرا كثيرا رقيقا يشبه شعره » .

٥ — القارئ المتذوق في أشعار العذريين بعامة يحس أنه بإزاء تجارب تتميز بالمعاناة الصادقة ، حيث تشيع فيها حرارة العاطفة ، وتشع منها الأشواق ، وتتجلى فيها خلجات النفس ، مما طبع هذا الغزل بطابع عاطفى حزين ، إذ كانوا يعبرون فيه — غالبا — عن حرقه القلوب ، وتباريح آلام الهوى ، ولذعات الحرمان ، ومعلوم أن الأحران والآلام والحرمان كلها تجارب ، ترسب العواطف ، وتغلغل جذورها في النفس ، فتصدر هذه العواطف أكثر حرارة ، وأبعد عمقا ، وأعنف انفعالا .

لهذا كان لشعر العذريين علق شديد بالقلوب ، وصدى قوى في المشاعر ، فهو حديث القلب للقلب ، وقديما قالوا : « أحسن الشعر ما دخل القلب بلا إذن ^(٢) » وهؤلاء مامنهم من أحد إلا عشق ، واصطلى بنار العشق ، واحتمل في عشقه مبرح الآلام ، وصور بشعره خلجات قلبه ، وماتجيش به أعماق نفسه .

لقد عرف الشعراء العذريون العشق إخلاصا ، وتغانيا ، ومكابدة مهلكة ، تتفرح عيونهم من البكاء الشديد ، وتتفتت أكبادهم من الحزن العميق ، والألم المتواصل والسقم المضنى ، حتى ليخرج الشاعر منهم أحيانا عن طوره ، ويفقد توازن نفسه ، فيجن جنونه ، أو يتمنى الموت ، لأنه أرحم من حياة قاسية ، تحكم بينه وبين الحبيب بالتباعد والشتات .

يقول ابن ذريع : ^(٣)

لقد عذبتنى يا حب لبنى ففَعَّ إما بموتٍ أو حياة
فإن الموت أروح من حياة تدوم على التباعد والشتات
والعذريون في هذا وغيره — كما رأينا — على شاكلة واحدة تقريبا ، في الوجد والمعاناة ، فالعشق عندهم ، كما تكشف عنه أشعارهم السابقة ، معاناة قاسية ، تؤدي

(١) الشعر والشعراء ٢٢٠

(٢) مصارع العشاق ٢٢٢

(٣) الأغاني ٨ / ١٢٢

بصاحبها إلى الهزال ، والاصفرار ، والنحول ، ثم الموت .

والعاشق العذرى رقيق حساس ، صادق فى عشقه حتى الموت ... أما داؤه فهو الحبيب المعبود ، ودون الوصول إليه أهوال .

هكذا كان العذريون جميعا ، وكان شعرهم فى كل هذا معبرا عن ذواتهم تعبيرا صادقا ، مازال يهزنا إلى اليوم ، بمافيه من حرارة العاطفة ، وصدق الشعور ، ولاحتماله لأكثر من مستوى للتلقى والتذوق .

٦ - الأصل فى الغزل العذرى أن يكون عفيفا ، بحكم ظروف بيئته ، التى عرفناها وبحكم طبيعة تكوين شغرائه النفسى ، ومارزقوا من ميول طبيعية ، أو تهذيبية ، هيأتهم لتقبل هذا النوع من العشق ، وتحمل تبعاته ، والصبر على مكارهه .

وقد كان غزل العذريين عفيفا غالبا ، فكثيرا ماتحدثوا عن عفتهم فى العشق ، وبراءتهم من الفحش ، كما أشاد بعضهم بعفة صاحبتهم ، وأثنى على طهارة خلقها وسلوكها .

يقول مضر بن المزني : (١)

أذودُ سوامَ الطَّرْفِ عنك وماله إلى أحدٍ إلّا إليك طريق
تتوقُ إليك النفس ثم أردّها حياءً ومثلى بالحياء حقيق

ويقول جميل : (٢)

وإني لأغضي الطَّرْفَ عنها تسترّاً ولّى نَظْرٌ لولا الحياء شديدُ

ويقول نصيب بن رباح : (٣)

ولّى كرم عن الفحشاء ناءٍ كبُعد الأرض عن جوِّ السماء
فأخلاقه الكريمة تباعد بينه وبين فاحش القول والسلوك ، بعد الأرض عن

(١) مضر بن قرطبة بن الحارث ، أحد بنى صباح بن عوف ، من مزينة ، شاعر محسن مقل ، كان يعف فى غزله ، انظر المؤتلف ١٩١ وأمالى القالى ٢ / ٢٦٢ والتذكرة السعدية ٥٤٠ .

(٢) ديوان المعاني ١ / ٢٢٨ .

(٣) الأغاني ١ / ١٣٦ .

السماء ؛ ولذا فإن الحياء يمنعه من رفع بصره طويلاً إلى صاحبتة ، فما هو إلا أن تقع عينه عليها حتى يرتد طرفه سريعاً ، حياءً وتحشماً ، مع شدة وجده بها : (١)

فلا النفس ملّتها ولا العين تنتهى إليها سوى في الطرف عنها فترجع ويتحدى توبة بن الحمير زوج ليلي الأخيلى ، أن يرى في علاقته بها مايشين ، فما تمثلت هذه العلاقة يوماً في غير زيارتها ؛ لإلقاء السلام عليها ، وإنه ليقسم على ذلك : (٢)
على دماء البُذُن إن كان زوجها يرى لى ذنباً غير أنى أزورها
وأنى إذا مازرتها قلت: يا اسلمى فهل كان فى قولى: اسلمى ما يضرها!!
وشهدت ليلي صاحبتة له بهذه العفة ، وتمام الحياء (٣) :

فتى كان أحيا من فتاة خريدة

وكثيرٌ يحدد علاقته بعزة بأنها تقوم على المودة الصافية ، والبعد عن الفحش : (٤)
وقال خليل : ما لها إذ لقيتها غداة السنّا فيها عليك وجومُ
فقلت له : إن المودة بيننا على غير فحش والصفاء قديم

ومع هذه العفة البادية في أشعار العذريين ، فإن نفوسهم كانت تنازعهم إلى ماكانت تصبو إليه نفوس غيرهم ، ولكنهم ، وقد حيل بينهم وبين مايشتهون ، اكتفوا بتجربة العشق نفسها ، ففعل قلبهم ولسانهم ، إلا قليلاً .

فقد نجد في بعض تجاربهم مايدل على أن رغباتهم الحسية لم تُكبت تماماً ، وأنها كانت تطفو إلى سطح خيالهم ، فتداعبه من حين لآخر .

كانت لتوبة حاجة في ليلي ، نزعت نفسه إليها ، فأسر بها لصاحبتة ، ولكنها سرعان ماوردته إلى ماينبغي لمثله من العفة قائلة :

وذى حاجة قلنا له لاتبح بها فليس إليها ما حيت سيل

(١) الأغاني ١ / ١٤٠

(٢) ديوانه ٣٨

(٣) ديوان المعاني ١ / ٤٤ ، وديوانها ٨٠ وفيه : « وتوبة أحيا من فتاة حبيبة .. » .

(٤) الأغاني ١١ / ٥١

وتمنى جميل أن يذوق عذوبة ريق بثينة ، وكان يخشى أن تفاجئه المنية ، وفي نفسه حاجات لم يقضها من صاحبته :

ألم تعلمي يا عذبة الريق أنني أظل إذا لم ألق وجهك صاديا
وقد خفتُ أن ألقى المنية بغتةً وفي النفس حاجات إليك كإهيا
فأى حاجات كان جميل يأمل أن ينالها قبل أن يموت ، إن لم تكن شيئاً من المتع الحسية ،
التي يتطلع إليها الرجال من النساء !?

وقد صرح ببعض هذه المتع في شعر آخر يقول فيه^(١) :

فياليت شعري هل أبيتن ليلةً كليتنا حتى يُرى ساطع الفجر
تجود علينا بالحديث وتارة تجود علينا بالرضاب من الثَّغر
فلا تقتليني يابثين ولم أُصَبْ من الأمر مافيه يحل لكم قتل
وجميل بهذه المعاني أقرب إلى الحسين منه إلى العذريين !!
وهو حسي خالص في قوله الآخر :

وبيض غريرات تشنى خصوصها إذا قمن ، أعجاز ثقال وأسوق
غرائر لم يعرفن بؤس معيشة يُجنُّ بهنّ الناظر المتسوق

ولكن هذا قليل في شعره ، ولعل مرده إلى نزعة تقليد غزلية ، كانت تراود الغزلين
العذريين بصفة عامة ، إذا بداهم أحياناً أن يصفوا محاسن من يتعشقون .

حتى المجنون نازعته نفسه إلى اللهو مع ليلي ، ولو ساعة ، تعدل الدنيا كلها :^(٢)
وساعة منك ألهوها ولو قصرت أشهى إلّى من الدنيا وما فيها
وأراد حملها على أن تبادله القبلات ، فصدته في غضب وإباء شديدين^(٣) :
إذا سمّتها التقبيل صدّت وأعرضت صدودَ شُموس الخيل صلّ لجامها
وفي أحباره أنه مرّ يوماً بزوج ليلي ، وهو جالس يصطلي ، في يومٍ شاتٍ ، فوقف عليه ، ثم
قال^(٤) :

(١) ديوانه ١٠٣ ومط اللآلى ٢ / ٦٦٠

(٢) تزيين الأسواق ٦١

(٣) ديوانه ٢٤٩ . صل : صوت

(٤) بسط المسامر في أخبار مجنون بنى عامر ٣٦ والأغانى ١ / ١٦٩ وتزيين الأسواق ٦٣

برئك هل ضَمَمْتَ إليك ليلي قُبيل الصبح أو قَبْلَتْ فاها
وهل رَفَّتْ عليك قرون ليلي رَفِيفَ الأَقْحُوَانَةِ في نداها

فقال : اللهم ، إِذْ حَلَفْتَنِي ، فنعم ، فقبض المجنون بكلتا يديه قبضتين من
الجر ، فما فارقهما حتى خرمغشيا عليه ، فسقط الجر مع لحم راحتيه .

وقد يكون هذا من الأخبار ، التي وضعت للسمر ، أو لتفسير هذا الشعر ، وأيا
ما كان حظ مثل هذا الخبر من الواقع والحقيقة ، فإن واضعه - على فرض وضعه - كان
على دارية بوجود مثل هذه التوازع الحسية عند المجنون وغيره من العذريين ، وأن من كان
يُسمر لهم به ، كانوا يدركون ما يدركه ، وإلا لما قبلوا منه مثل هذا الخبر ، ورووه عنه .

ومما يروى في هذا الباب ، أن أم البنين زوج الوليد بن عبد الملك - أو سكينه بنت
الحسين أو عائشة بنت طلحة - قالت لعزة ، صاحبة كثير : أخبريني عن قول كثير :
قضى كل ذي دين فوقى غريمه وعزة ممطولة معني غريمها
أخبريني ما ذلك الدين ؟ قالت : وعدته قبله ، فتخرجت منها^(١) .

ثم ألا يدل ما عبروا عنه من أوصاف جسدية لصواحبهم ، على عدم براءة نوازع
العشق عندهم من الرغبات الحسية ؟ وإلا فماذا نفسر قول جميل السابق - وإن كان
تقليديا - وقول قيس بن ذريح ، يصف محاسن لُبْنَى^(٢) :

إذا مامشت شبرا من الأرض أرجفت من البهر حتى ماتريد على شبر
لها كَفَلَّ يرتج منها إذا مشت ومتن كفصن البان منضم الحضر
وقول المجنون يصف جمال لُيْلَى^(٣) :

بيضاء خالصة البياض كأنها قمر توسط جناح ليل مبرد
موسومة بالحسن ذات حواسد إن الجمال مظنة للحسد
وترى مدامعها تفرق مقلدة سوداء تعرب عن سواد الإثمد
هذه الأشعار وأمثال لها قاطعة الدلالة ، على أن الحب العذري لم تبرأ دوافعه تمام

(١) وفيات الأعيان ١ / ٥٤٨ ومصارع العشاق ٢٧٥ وخزانة الأدب ٢ / ٣٨٢ والشعر والشعراء ٢٣

(٢) تزيين الأسواق ٤٦ .

(٣) تزيين الأسواق ٦١

البراءة من الرغبة في المتعة الجسدية بمن يعشقها ، وإن كانت هذه الرغبات ظلت حبيسة خياله الشعري ، لم تتجاوزه إلى دنيا الواقع والحقيقة ؛ إذ لم يكن في استطاعة البدوية المعشوقة أن تمنح صاحبها شيئا من هذه المتعة ، حتى لو أرادت .

٧ — قلة اعتماد الغزل العذري على أسلوب الحوار ، وهذا راجع إلى الصد ، الذى كان يلاقيه العذريون من صواحبه ، وماترتب عليه من ندرة اللقاء والوصل ، كما أن العذريين في العصر الأموي كانوا يعيشون في ظل قيم بيئية تشبه إلى حد كبير - فيما عدا التأثير الدينى - قيم البيئة التى كانت تحكم المجتمع الجاهلى ، والتى أدت بدورها إلى ضعف هذا الأسلوب في أشعارهم الغزلية ، إذا استثنينا بعض نماذج منه واضحة في شعر امرئ القيس ؛ إذ كان أميرا وابن ملك ، وأتيح له مالم يتح لغيره من الاتصال ببعض النساء ، فضلا عما عرف به من الجرأة ، والمغامرة ، فكان بذلك فاتح باب الشعر القصصى ، المرتكز على الحوار ، وممهّد سبيله لكل من سلكه من بعده ، كعمر بن أبى ربيعة^(١) وغيره .

وجميل أكثر زملائه التفاتا لهذا الأسلوب في أدائه الشعري ، إذ حاول أن يرسم بعض المواقف الحوارية بينه وبين بثينة ، من مثل قوله السابق :

إذا قلت : ماى يابثينة قتالى من الحب قالت : ثابت ويزيد
وإن قلت : ردى بعض عقلى أعش به مع الناس قالت : ذاك منك بعيد

وأحيانا يمتد الحوار في بعض تجارب جميل الغزلية ، فيأخذ صورة أقل سداجة من حوار السابق ، الذى يقوم على القول وردّه ، في سرعة وإيجاز شديدين ، من ذلك قوله^(٢) :

معارف أطلال لبثنة أصبحت	معارفها قفراً من الحى بلقعا
معارف للخود الذى قلت : أجمل	إلينا فقد أصفيت بالودّ أجمعا
فقلت : أفق ماعدنا لك حاجة	وقد كنت عنا ذا عزاء مشيعا
فقلت لها : لو كنت أعطيت عنكم	عزاء لأقللت الغداة التضرعا
فقلت : أكل الناس أصبحت مانحا	لسانك كيما أن تغرّ وتخدعا

(١) راجع ماكتبناه عن هذا الأسلوب في غزل امرئ القيس ، في كتابنا : أمراء الشعر في العصر الجاهلى

١٦٥ ، ١٧٠ — ١٧٢

(٢) ديوانه ١٢٤ . بلقع : خال من الأنيس . أجمل : ابذل الجميل . مشيع : ذو أنصار .

غير أن هذا الحوار لا يمثل عنصراً فعالاً في بناء العمل الفني وإيمائه عند العذريين ؛ لضعف عنصر الحدث ، وقلة الشخصيات في تجاربهم ، إذ يقتصر الحوار على شخصين ، وغالبا مايكونان الشاعر وصاحبته .

وأين هذا الحوار الساذج ، من أسلوب الحوار القصصى الجذاب ، الذى ينهض بتحليل الموقف الغزلى وإيماء عناصره ، فى غزل الحضريين ، من أمثال عمر بن أبى ربيعة والعرجى ... وغيرهما .

٨ — يقترب الغزل العذرى من الغزل الحضري الحسى ، من حيث البناء الفنى للعمل الشعري ، حيث تحققت لكل منهما وحدة الموضوع ، التى تفتقدها كثير من القصائد فى الشعر الجاهلى والإسلامى ، عند غير شعراء الغزل الحجازى بنوعيه .

فبالنسبة للغزل العذرى الأموى ، نجد القصيدة العذرية تصور عواطف مجردة فى العشق ، تعبر عن حالات شعورية متجانسة ، أو متقاربة ، من الحرمان ، والشوق ، وتصوير الآلام ، والذكريات الحزينة المحرومة ، وجذبات الوجد ونحوها ، مما يضيف على القصيدة أو المقطعة العذرية نوعا من الانسجام الشعورى ، تترابط فيه هذه المشاعر ، وتتعانق ؛ لتحقيق لها وحدة فنية واضحة فى جوها العام .

هذه النظرة عامة ، لاتستقصى كل نماذج الغزل عند العذريين ، بمعنى أن هذه النماذج قد تفاوتت بالنسبة لحظها من وحدة البناء الفنى ، من حيث ترتيب أجزائها وتماسكها ، فبرزت هذه الوحدة وتتضح فى بعضها ، ويقل حظها من التماسك فى نماذج أخرى ، بل قد تختلف من شعر شاعر إلى آخر ، كما تختلف فى القصائد الطوال عنها فى القصائد الأقل طولاً .

وبصفة عامة ، كلما طالت القصيدة العذرية ، قل تماسكها ، واختل ترتيب أجزائها ، وأصبحت كيانا يضم جزئيات شعورية متناثرة ، لايربط بينها إلا طبيعة التجربة العاطفية العامة ، بحيث يمكن المخالفة فى ترتيب عناصرها ، أو إسقاط بعضها دون أن يلاحظ هذا النقص فيها .

أما المقطعات العذرية ، فهى أقوى نماذج الغزل العذرى تحقيقاً للوحدة الشعورية والفنية وأوفرها حظاً منها ، وأكثرها استقصاء للحظة الشعور ، أو الصورة الشعرية ، لأنها

تعالج في الغالب خاطرة واحدة ، أو حالة نفسية متميزة إلى حد ما ، حتى يمكن في كثير من الأحيان أن نلخصها ، أو نلخص طبيعة تجربتها في عبارة ، نجعل منها عنوانا لها ، ولعل هذا مايسّر لبعض محققى دواوين العذرين ، أن يقدموا مقطعات غزلهم تحت عناوين ، في عصرنا هذا ، وليس هذا شيئا جديدا كل الجدة على الشعر العربى القديم ، لكنه لما مثل ظاهرة تكاد تطرد في المقطعات أو القصائد القصيرة العذرية ، عُدَّ مخالفة جديدة ، أو كالجديدة لطبيعة القصيدة العربية القديمة بشكل عام .

ومن نماذج اكتمال الوحدة الموضوعية والفنية في المقطعات العذرية ، هذه المقطعة أو القصيدة القصيرة الجميل ، التى تعالج معنى الشوق الملهوف ، والوفاء الصادق ^(١) :

ألا هل إلى إمامة أن أُلْمَها بثينة يوماً فى الحياة سبيل ؟
على حين يسلو الناسُ عن طلب الصَّبَا وينسى أتباع الوصل منك خليل
فإن هى قالت : لاسبيل ، فقل لها : عناء على العذرى منك طويل
ألا لأبألى جفوة الناس إن بدا لنا منك رأى يابثين جميل
ومالم تطيعى كاشحاً أو تَبَدَّلَى بنا بدلاً أو كان منك ذهول
وإن صباباتى بكم لكثيرة بئين ، ونسيانكمُ لقليل
يقيقك جميل كل سوء أَمَالُهُ لديك حديث أو إليك رسول ؟
وقد قلت فى حبي لكم وصباتى محاسن شعر ذكرهن يطول
فإن لم يكن قولى رضاك فعلمى هبوب الصَّبَا يابثُنْ - كيف أقول ؟
فما غاب عن عيني خيالك لخطه ولا زال عنها والخيال يزول

إنها نعمة مناسبة تبدأ بالتطلع والمنى ، وتتوسط بالتحنان والتلطف ، وتنتهى بالتسليم والثبات على العشق ، والإعراب عن الإخلاص فيه ، ومن هنا جاءت كُلاًّ متماسك الأجزاء ، أى عبث بجزء منه ، أو الإخلال بوضعه وترتيبه ، يفسده ويقوض أركانه .

وقد تكون مقطعة الصَّمة القشيرية فى الحنين إلى ربّا وتذكرها ، من النماذج التى تعكس الوحدة الفنية الشعورية المتكاملة ، القائمة على تصوير حركات النفس ، من اللوم

والحزن اليأس ، والحنين الجارف ، والحسرة المحرقة^(١) :

أَمِنْ ذِكْرِ دَارِ بِالرُّقَاشِينَ أَصْبَحَتْ بِهَا عَاصِفَاتُ الصَّيْفِ بَدْءاً وَرُجْعاً
حَنَنْتُ إِلَى رِيّاً وَنَفْسِكَ بَاعَدْتُ مَزَارِكَ مِنْ رِيّاً وَسَعِيَاكُمَا مَعَا
فَمَاحَسَنٌ أَنْ تَأْتِيَ الْأَمَرَ طَائِعاً وَتَجْزَعُ أَنْ دَاعَى الصَّبَابَةِ أَسْمَعَا
كَأَنَّكَ لَمْ تَشْهَدْ وَدَاعَ مَفَارِقِ وَلَمْ تَرَّ شَعْبِي صَاحِبِينَ تَقْطَعَا
بَكَتْ عَيْنِي الْيَسْرَى فَلَمَّا زَجَرْتَهَا عَنْ الْجَهْلِ بَعْدَ الْحُلُمِ أُسْبَلْتَا مَعَا
تَلَفْتُ نَحْوَ الْحَيِّ حَتَّى وَجَدْتَنِي رَجَعْتَ مِنَ الْإِصْغَاءِ أَلْوَى وَأَجْزَعَا
وَأَذْكَرَ أَيَّامِ الْجَمَى ثُمَّ انْثَنَى عَلَى كَبْدِي مِنْ خَشْيَةٍ أَنْ تَصْدَعَا
فَلَيْسَتْ عَشِيَّاتُ الْحَمَى بِرَوَاجِعِ عَلَيْكَ وَلَكِنْ خَلَّ عَيْنِكَ تَدْمَعَا

ولما كانت التجربة العذرية قائمة في الغالب ، على هذا التعبير الشعوري ذى الطابع الحزين ، توافر حفظها من الانسجام والترابط بين أجزائها ، بحكم هذا الإطار الشعوري الغالب .

٩ - نهض شعر العذرين بعامة ، والأمويين بخاصة ، بتطوير المعجم الشعري ؛ إذ كانت تجاربهم العاطفية المباشرة تقتضيهم الاعتماد على الألفاظ ذات الدلالات الشعورية القوية ، والطاقة الانفعالية الواضحة ، كما تتطلب منهم الجنوح إلى العبارات البسيطة الجلية ، التي تعكس بساطة تجاربهم ووضوحها .

ومن خلال دراستنا السابقة لأشعار العذرين لاحظنا مرارا ، أن تجاربهم واضحة محدودة المعالم والأبعاد ، لانكاد تختلف كثيرا من شاعر إلى آخر ، كما أنها وليدة جيشان عاطفي متصل ، يمضي - غالبا - في تيار واحد ، يخلو من المفارقة والتركيب والتلوين ، مما جعل شعرهم أشبه بالشعر التلقائي ، الذي يعبر فيه الشاعر تعبيرا مباشرا عما يجده ، ويحس به ، لا يتكلف أو يتعسف في المعنى أو اللفظ ، وأنسب لغة لهذا الشعر التلقائي ، هي الألفاظ المألوفة المشتركة بين الناس ، التي اكتسبت من الحياة والممارسة قدرة على التأثير ، والإيحاء في مجال التعبير العاطفي .

(١) شرح الحماسة للمرزوق ٣ / ١٣١٥ والأغاني ٥ / ١٢٧ وأمالى القالى ١ / ١٩٣

ويصاحب تلك البساطة ، وهذا الوضوح في اللغة ، بساطة ووضوح في الصورة الشعرية ، وما حاجة الشاعر العذرى إلى التركيب والقصد إلى الاقتنان في هذه الصورة ؟ وهو إنما يعتمد في شعره التلقائى على إحياء الألفاظ ، وحرارة العاطفة ، يقول الدكتور شكرى فيصل ، بعد أن عرض نماذج من شعر جميل ^(١) : « ونحن لانحس لدن قراءة هذه القطع أننا أمام فنان يعمل عقله في شعره ، وإنما نحس أننا أمام شاعر يتحدث بنفسه عما يجيش بنفسه ، ومن هنا لم نشهد عند جميل ما كنا شهدناه عند الشعراء الجاهليين من كثرة التشايبه والصور .. تمضى القطعة كلها ، وليس فيها أية صورة أو استعارة ، وتنساب على أنها حديث عادى ، وحكاية حال يقصها الشاعر ، ولكنها يقصها في أسى وزفرة ، ويعرضها ، ولكنها يعرض معها قلبه وانفعالاته ، فإذا هذه الانفعالات ، وما يصحبها من مشاهدة الحياة الداخلية وتقلقلها ، والتأثرات التى تكسوها ، تعوض عن الصورة التى تعود الشعراء أن ينشروها في قطعهم بين البيت والبيت ، والشطر والشطر ، ومن هنا لم تكن البراعة الفنية عند جميل ، وعند أمثاله ، من الشعراء العذريين في أساليبهم البيانية ، وإنما كانت قبل كل شئ ، وأكثر كل شئ ، في تعرفهم لسرائر النفوس ، وفي عرضهم لها عرضاً يسيراً » .

ونستطيع أن نضيف إلى ما ذكره الدكتور شكرى فيصل ماسبق أن أشرنا إليه ، من اعتماد العذريين على الألفاظ العاطفية ، القوية الإيحاء ، الانفعالية ، الشديدة التأثير ، فقد دفعوا إلى ميدانهم الشعرى بحشد من هذه الألفاظ ، على نحو غير مألوف من قبل ونظموا منها عباراتهم الشعرية ، فأكسبت شعرهم مذاقاً خاصاً ، وأعطته قيمة فنية ولغوية ميزته عن شعر سابقهم ومعاصريهم .

ولنتأمل هذين البيتين :

ولى كبد مقروحة من يبيعنى بها كبدًا ليست بذات قروح
أئن من الشوق الذى فى جوانبى أنين غصيص بالشراب جريح

فالكبد المقروحة ، والأنين ، وهذه الصورة البسيطة لجريح يغص بالشراب ، تعبير مباشر صريح واضح ، لا يتحرج الشاعر فيه من أن يكشف ما يعتلج في داخله من حرقه ، أو يثقلها من ألم ويأس .

ويقال مثل هذا ، فيما اختاروا من صيغ ذات دلالة عاطفية مباشرة قوية ، تتردد كثيرا في تجارهم الشعرية ، وقد أشرنا إلى بعضها خلال دراستنا لبعض تجارهم ، ولاحظنا تكرارها في نماذجهم ، كصيغ الندبة ، والنداء ، والاستفهام ، والأمر ، والتمنى ، وتكرارهم لهذه الصيغ إنما هو محاولة منهم للاستعاضة بها عن الصور التشبيهية والمجازية ، في إبراز أحاسيسهم ، وتقوية الإحساس بها .

ولا ستفاد هذا الأسلوب ، أو هذا الاتجاه التعبيري في شعر العذريين ، وفيما أوردناه من نماذج ، نضرب عن التمثيل له هنا ، اكتفاء بما مر ، فقط ، نسوق نموذجا واحدا للتذكير بقيمة هذا الاتجاه ، ويتمثل في صيغة التمنى ، في قول جميل السابق :

فياليت شعري هل أبيتن ليلة كليتنا حتى نرى ساطع الفجر
فياليت رى قد قضى ذاك مرة فيعلم رى عند ذلك ماشكرى !!

★ ★ ★

أخيرا ، فإن التلقائية التي امتاز بها الغزل العذري ، وما صاحبها من وضوح وسهولة في اللغة ، والعبارة والصورة ، وما واكبها من توافر التنعيم الموسيقي ، تعد ظاهرة أكثر وضوحا وتطورا في شعر الأمويين ، منها في شعر الجاهليين .

ولسهولة هذا الغزل العذري الأموي ، وما يتسم به من تلقائية عذبة ، أقبل الملحنون والمغنون عليه ، كما أقبلوا على قسيمه الغزل الحضري الأموي ، إقبالا ملحوظا ، حتى بلغت الأصوات التي غنيت في شعر جميل تسعة وعشرين صوتا ^(١) ، كما أخذ المغنون عدة ألحان من شعر قيس بن ذريح ^(٢) ، وغيره من العذريين الأمويين .

★ ★ ★

والحمد لله أولا وآخرا

(١) انظر مقدمة ديوانه ١٧

(٢) انظر مقدمة ديوانه ٥١

فهرس المصادر والمراجع

- ١ — القرآن الكريم
- ٢ — آداب الشافعى ومناقبه : أبو محمد عبد الرحمن بن أبى حاتم الرازى — حلب ١٩٥٣ م
- ٣ — اقتباهات الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى : د . محمد مصطفى هدارة — دار المعارف بمصر ١٩٦٣ م
- ٤ — أخبار النساء : ابن القيم الجوزية : طبعة التقدم ١٣١٩ هـ
- ٥ — أدب السياسة فى العصر الأموى : د . أحمد الحوفى — الطبعة الثالثة ١٩٦٩ م
- ٦ — أدب الخوارج : د . سهير القلماوى : لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٥ م
- ٧ — الأدب فى عصر النبوة والراشدين : د . صلاح الدين الهادى — الطبعة الثانية ١٩٨٠ م
- ٨ — أساس البلاغة : أبو القاسم الزمخشى : دار الكتب المصرية ١٩٥٣ م
- ٩ — أسماء القتالين والأشراف : محمد بن حبيب (نواذر المخطوطات)
- ١٠ — الاشتقاق : أبو بكر بن دريد : طبعة الخانجى ١٩٥٨ م
- ١١ — أصل الشيعة وأصولها : آل كاشف الغطاء الطبعة العاشرة ١٩٥٨ م
- ١٢ — الأعلام : خير الدين الزركلى : مطبعة كوستا — القاهرة ١٩٥٤ م
- ١٣ — الأغانى : أبو الفرج الأصبهانى : السامى ، وطبعة دار الكتب .
- ١٤ — ألقاب الشعراء : محمد بن حبيب (نواذر المخطوطات) ١٩٥٤ م
- ١٥ — الأمالى : أبو على القالى — طبعة بولاق ١٣٢٤ هـ
- ١٦ — أمالى الزجاجى : أبو القاسم الزجاجى — طبعة السعادة ١٣٢٤ هـ وطبعة المدنى ١٩٦٣ م
- ١٧ — أمالى المرتضى : الشريف على بن الحسين الموسوى : طبعة الخلبى ١٩٥٤ م
- ١٨ — الإمتاع والمؤانسة : أبو حيان التوحيدى : طبعة مكتبة الحياة — بيروت
- ١٩ — أمراء الشعر فى العصر الجاهلى : د . صلاح الدين الهادى — القاهرة ١٩٧٥ م
- ٢٠ — أنساب الأشراف : البلاذرى (الجزء الرابع) الطبعة الأوربية .
- ٢١ — أيام العرب فى الإسلام : أبو الفضل إبراهيم وعلى البجاوى — الطبعة الثالثة — الخلبى ١٩٦٨ م
- ٢٢ — بدائع البدائى : على بن ظافر الأزدى (على هامش معاهد التنصيص) .
- ٢٣ — البداية والنهاية : ابن كثير — طبعة السعادة ١٩٣٢ م
- ٢٤ — بسط المسامر فى أخبار مجنون بنى عامر : أبو عبد الله محمد بن على الدمشقى — القاهرة ١٩٦٤ م

- ٢٥ — بلاغات النساء : أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر — القاهرة ١٩٠٨ م
- ٢٦ — البيان والتبيين : أبو عثمان الجاحظ — طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٨ م
- ٢٧ — تاريخ آداب اللغة العربية : جورجى زيدان — الطبعة الثالثة ١٩٣٦ م
- ٢٨ — تاريخ الإسلام السياسى : د حسن إبراهيم — الطبعة الرابعة ١٩٥٧ م
- ٢٩ — تاريخ الأمم الإسلامية : الشيخ محمد الخضرى — الطبعة السادسة ١٣٧٠ هـ
- ٣٠ — تاريخ الشعر السياسى : أحمد الشايب — مطبعة النهضة المصرية ١٩٥٣ م
- ٣١ — تاريخ الشعر العربى حتى أواخر القرن الثالث الهجرى : د . محمد نجيب البهيتى — دار الكتب ١٩٥٠ م
- ٣٢ — تاريخ الشعوب الإسلامية : كارل بروكلمان (مترجم) بيروت ١٩٤٨ م
- ٣٣ — تاريخ الطبرى : محمد بن جرير الطبرى — طبعة الحسينية ، دون تاريخ
- ٣٤ — تاريخ العراق فى ظل الحكم الأموى : د . على حسن الخربوطلى — دار المعارف بمصر ١٩٥٩ م
- ٣٥ — تاريخ الفلسفة فى الإسلام : ت . ج . دى بور (مترجم) القاهرة ١٣٩٨ هـ
- ٣٦ — تاريخ النقائض فى الشعر العربى : أحمد الشايب — طبعة الاعتماد ١٩٤٦ م
- ٣٧ — تحفة الأحوزى بشرح جامع الترمذى : الحافظ أبو العلى المباركفورى — دار الفكر ١٩٧٩ م
- ٣٨ — التذكرة السعدية فى الأشعار العربية : محمد بن عبد الرحمن العبيدى — طبعة النجف ١٩٧٢ م
- ٣٩ — تزيين الأسواق : داود الأنطاكى — دار الطباعة ١٢٩١ هـ
- ٤٠ — تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام : د . شكرى فيصل
- ٤١ — التطور والتجديد فى الشعر الأموى : د . شوق ضيف — الطبعة الثانية ١٩٥٩ م
- ٤٢ — تفسير الطبرى (جامع البيان فى تفسير القرآن) : ابن جرير الطبرى — طبعة بولاق ١٣٢٥ هـ
- ٤٣ — تيارات ثقافية بين العرب والفرس : د . أحمد الحوفى — الطبعة الثالثة ١٩٧٨ م
- ٤٤ — جريدة السياسة : العدد ١٧ بتاريخ ١٠ ديسمبر ١٩٢٤ م
- ٤٥ — جميل بثينة : عباس محمود العقاد — دار المعارف بمصر ١٩٥٤ م
- ٤٦ — حديث الأربعاء : د . طه حسين — دار المعارف بمصر ١٩٥٩ م

- ٤٧ — حلية الأولياء : أبو نعيم الأصبهاني ١٩٣٥ م
- ٤٨ — الحماسة : أبو تمام — بتحقيق الدكتور عبد الله عسيان — الرياض (١٩٨١ م)
- ٤٩ — حماسة الظرفاء : أبو محمد العبدلكاني — دار الحرية للطباعة — بغداد ١٩٧١ م
- ٥٠ — حياة الشعر في الكوفة : د . يوسف خليف — دار الكاتب العربي ١٩٦٨ م
- ٥١ — الحيوان : أبو عثمان الجاحظ — طبعة السعادة ١٣٢٥ هـ
- ٥٢ — خزنة الأدب : عبد القادر البغدادي — طبعة بولاق ١٢٩٩ هـ
- وطبعة السلفية ١٣٥١ هـ
- ٥٣ — الخوارج والشيعة : يوليوس فلهوزن (مترجم) القاهرة ١٩٥٨ م
- ٥٤ — دراسات في الشعر الجاهلي : د . محمد أبو الأنوار — القاهرة ١٩٧٥ م
- ٥٥ — دولة الأمويين : د . علي حبيبة — القاهرة ١٩٧٨ م
- ٥٦ — ديوان الأحوص (شعر الأحوص الأنصاري) بعناية عادل سليمان — القاهرة ١٩٧٠ م
- ٥٧ — ديوان الأخطل (شعر الأخطل) طبعة الكاثوليكية — بيروت ١٨٩١ م
- ٥٨ — ديوان أبو الأسود الدؤلي : بعناية محمد حسن آل ياسين — بيروت ١٩٧٤ م
- ٥٩ — ديوان امرئ القيس — طبعة دار المعارف بمصر ١٩٦٥ م
- ٦٠ — ديوان بشار بن برد : بتحقيق الشيخ محمد الطاهر بن عاشور — القاهرة ١٩٥٠ م
- ١٩٥٧ م
- ٦١ — ديوان توبة بن الحُمير — مطبعة الإرشاد — بغداد ١٩٦٨ م
- ٦٢ — ديوان جرير : نشرة الصاوي .
- ٦٣ — ديوان جميل بثينة : بتحقيق الدكتور حسين نصار — الطبعة الثانية ١٩٦٧ م
- ٦٤ — ديوان حسان بن ثابت : بعناية البرقوق — طبعة السعادة ، دون تاريخ
- ٦٥ — ديوان زهير بن أبي سلمى : بعناية الدكتور أحمد طلعت — بيروت ١٩٦٨ م
- ٦٦ — ديوان سُحَيْم عبد بنى الحسحاس — دار الكتب المصرية ١٩٥٠ م
- ٦٧ — ديوان سراقبة البارقي : بعناية الدكتور حسين نصار .

- ٦٨ - ديوان الشماخ بن ضرار الديباني : بتحقيق الدكتور صلاح الدين الهادي — دار المعارف بمصر ١٩٦٨ م
- ٦٩ - ديوان الصبابة : ابن أنى جحلة المغربي (على هامش تزيين الأسواق) .
- ٧٠ - ديوان طرفة بن العبد : بعناية الدكتور على محمد الجندى — القاهرة ١٩٥٨ م
- ٧١ - ديوان الطرماح بن حكيم : بعناية الدكتور عزت حسن — وزارة الثقافة بدمشق ١٩٥٦ م
- ٧٢ - ديوان عبد الرحمن بن حسان بن ثابت : طبعة بغداد ١٩٧١ م
- ٧٣ - ديوان عبد الله بن الزبير الأسدي (شعر عبد الله ...) جمع يحيى الجبوري — بغداد ١٩٧٤ م
- ٧٤ - ديوان عبيد بن الأبرص : بتحقيق الدكتور حسين نصار — القاهرة ١٩٥٧ م
- ٧٥ - ديوان العرجي : بعناية خضر الطائي وآخر — بغداد
- ٧٦ - ديوان عمر بن أبي ربيعة : بعناية محمد يحيى الدين : طبعة السعادة ١٩٦٠ م
- ٧٧ - ديوان الفرزدق : نشرة الصاوي ١٩٣٦ م ، ونشرة بيروت .
- ٧٨ - ديوان ابن قيس الرقيات — بيروت .
- ٧٩ - ديوان قيس بن الخطيم : بعناية الدكتور إبراهيم السامرائي وآخر — بغداد ١٩٦٢ م
- ٨٠ - ديوان قيس بن ذريح : بتحقيق الدكتور حسين نصار — القاهرة ١٩٦٠ م
- ٨١ - ديوان كثير عزة : بتحقيق إحسان عباس — دار الثقافة — بيروت ١٩٧١ م
- ٨٢ - ديوان الكميت بن زيد (هاشميات الكميت) .
- ٨٣ - ديوان ليبد بن ربيعة : بتحقيق إحسان عباس — الكويت ١٩٦٢ م
- ٨٤ - ديوان ليلي الأخيلى : طبعة دار الجمهورية ببغداد ١٩٦٧ م
- ٨٥ - ديوان مجنون بنى عامر : بعناية عبد الستار فراج .
- ٨٦ - ديوان المعاني : أبو هلال العسكري — طبعة المقدسي ١٣٥٢ هـ
- ٨٧ - ديوان نابغة بنى شيان : طبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٢ م
- ٨٨ - ديوان النابغة الديباني — بعناية كرم البستاني — بيروت ١٩٦٣ م

- ٨٩— ذيل الأمالي : أبو على القالى (ملحق بالأمالي)
- ٩٠— رسائل الجاحظ : أبو عثمان الجاحظ — طبعة الخانجي ١٩٦٤ م
- ٩١— زهر الآداب : أبو إسحاق الحصرى — طبعة الرحمانية ١٩٢٥ م
- ٩٢— سمط اللآلئ : أبو عبيدة البكرى — طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٦ م
- ٩٣— سنن أبى داود — طبعة دار إحياء النسبة النبوية — دون تاريخ .
- ٩٤— سنن ابن ماجه — طبعة الحلبي ١٩٥٤ م .
- ٩٥— السيرة النبوية (سيرة ابن هشام) الطبعة الثانية — الحلبي ١٩٥٥ م
- ٩٦— شاعر الغزل : عمر بن أبى ربيعة : عباس محمود العقاد — دار المعارف بمصر ١٩٦٥ م
- ٩٧— شرح ديوان الحماسة للمرزوق — طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٢ م
- ٩٨— شرح رسالة الحور العين : ابن نشوان الحميرى — طبعة السعادة ١٩٤٨ م
- ٩٩— شرح المفضليات : أبو القاسم محمد بن الأنبارى — طبعة بيروت ١٩٢٠ م
- ١٠٠— شرح نهج البلاغة : ابن أبى الحديد — طبعة الحلبي ١٩٥٩ م
- وطبعة دار الكتب العربية الكبرى بمصر ١٣١٩ هـ
- ١٠١— شعراء النصرانية : لويس شيخو — بيروت ١٨٩٠ م
- ١٠٢— الشعر الأموى ، دراسة فى التقاليد والأصالة الفنية : د . محمد فتوح — القاهرة ١٩٧٧ م
- ١٠٣— شعر الحرب : د . على محمد الجندى — مطبعة الرسالة ١٩٥٨ م
- ١٠٤— شعر الخوارج : جمع إحسان عباس — دار الثقافة — بيروت ١٩٦٣ م
- ١٠٥— الشعر والشعراء : أبو محمد بن قتيبة — الطبعة الثانية — المعاهد ١٩٣٤ م
- ١٠٦— الشعر العربى بين الجمود والتطور : د . محمد عبد العزيز الكفراوى — القاهرة ١٩٥٨ م .
- ١٠٧— الشمّاخ بن ضرار الذبياني ، حياته وشعره : د . صلاح الدين الهادى — دار المعارف بمصر ١٩٦٨ م
- ١٠٨— الشوقيات : أحمد شوقي — المكتبة التجارية بمصر .

١٠٩ — الشيعة في التاريخ : الشيخ محمد حسن الدين — الطبعة الثانية — بيروت ١٩٧٩ م

١١٠ — الشيعة في الميزان : محمد جواد مغنية — دار التعارف بيروت — دون تاريخ .

١١١ — ضحى الإسلام : أحمد أمين — الطبعة الثالثة ١٩٤٣ م

١١٢ — طبقات الشعراء : ابن المعتز — طبعة المدني ١٩٧٤ م

١١٣ — طبقات فحول الشعراء — محمد بن سلام الجمحي — دار المعارف بمصر ١٩٥٢ م

وطبعة المدني ١٩٧٤

١١٤ — الطبقات الكبرى : أبو عبد الله محمد بن سعد — طبعة بيروت ١٩٥٧ وطبعة ليدن .

١١٥ — العبر في خبر من غير : أبو عبد الله الحافظ الذهبي — طبعة الكويت ١٩٦٠ م

١١٦ — عقائد الإمامية : الشيخ محمد رضا المظفر الطبعة الثامنة — القاهرة ١٩٧٣ م

١١٧ — العقد الفريد : ابن عبد ربه — طبعة الجمالية ١٩١٣ م

وطبعة بولاق ١٢٩٣ هـ

١١٨ — العقيدة والشريعة في الإسلام : جولد زهر (مترجم) دار الكاتب المصري ١٩٤٦ م

١١٩ — عقيدة الشيعة : دوايت . م . رونلندسن (مترجم) — طبعة السعادة ١٩٤٦ م

١٢٠ — عيون الأخبار : أبو محمد ابن قتيبة — دار الكتب المصرية ١٩٢٥ م

١٢١ — الغزل في العصر الجاهلي : د . أحمد الحوفي — الطبعة الثالثة ١٩٧٣ م

١٢٢ — فجر الإسلام : أحمد أمين — الطبعة الثانية — الاعتماد ١٩٣٣ م

١٢٣ — الفرق بين الفرق : عبد القاهر البغدادي — طبعة المعارف — دون تاريخ .

١٢٤ — الفهرست : ابن النديم — طبعة الرحمانية ١٣٤٨ هـ

١٢٥ — فوات الوفيات : ابن شاکر الکتبی — طبعة بولاق ١٢٨٣ هـ

١٢٦ — في الشعر الإسلامي والأموي : د. عبد القادر القط — بيروت ١٩٧٩ م

١٢٧ — القاموس المحيط : مجد الدين الفيروزبادي — الطبعة الثانية — الحسينية

١٣٤٤ هـ

- ١٢٨— قصة الحضارة الفارسية : ول . ديورانت (مترجم) القاهرة ١٩٥٢ م
- ١٢٩— القيم الروحية في الشعر العربي : ثريا عبد الفتاح مَلَحَس — بيروت .
- ١٣٠— الكامل (في التاريخ) : ابن الأثير — الطبعة الأميرية .
- وطبعة بيروت ١٩٦٥ م
- ١٣١— الكامل (في اللغة والأدب) : أبو العباس المبرد : المطبعة الأزهرية ١٣٣٩ هـ
- وطبعة الاستقامة ١٣٦٤ هـ
- ١٣٢— كتاب التيجان في ملوك حمير : أبو محمد عبد الملك بن هشام — طبعة حيدر آباد ١٣٤٧ هـ
- ١٣٣— كُنَى الشعراء : محمد بن حبيب (نواذر المخطوطات) القاهرة ١٩٥٤ م
- ١٣٤— المؤلف والمختلف : أبو القاسم الآمدي — طبعة القدسي ١٣٥٤ هـ
- ١٣٥— مجالس ثعلب : دار المعارف بمصر ١٩٦٠ م
- ١٣٦— مجالس العلماء : أبو القاسم الزجاجي — طبعة الكويت ١٩٦٢ م
- ١٣٧— المختصر في أخبار البشر : أبو الفدا — طبعة الحسينية دون تاريخ
- ١٣٨— مروج الذهب : أبو الحسن المسعودي — طبعة السعادة ١٩٥٨ م
- وطبعة البهية ١٣٤٦ هـ
- ١٣٩— مسالك الأَبصار في ممالك الأمصار : ابن فضل الله العمري — دار الكتب المصرية ١٩٢٤ م .
- ١٤٠— مصارع العشاق : أبو جعفر السراج — طبعة الجوائب — القسطنطينية ١٣٠١ هـ
- ١٤١— معاهد التنصيص : عبد الرحيم بن عبد الرحمن العباسي — طبعة البهية ١٣١٦ هـ
- ١٤٢— معجم الأدباء : ياقوت الحموي — طبعة دار المأمون ١٩٣٦ م
- ١٤٣— معجم البلدان : ياقوت الحموي — طبعة السعادة ١٩٠٦ م
- ١٤٤— معجم الشعراء : أبو عبد الله المرزباني — طبعة القدسي ١٣٥٤ هـ
- ١٤٥— المعرُون والوصايا : أبو حاتم السجستاني — طبعة الحلبي ١٩٦١ م
- ١٤٦— الفضليات : المفضل بن محمد الضبي — دار المعارف بمصر ١٩٦١ م

- ١٤٧— مقاتل الطالبين : أبو الفرج الأصبهاني — طبعة الحلبي ١٩٤٩ م
- ١٤٨— المقاصد النحوية في شرح شواهد شروح الألفية (الشواهد الكبرى) : بدر الدين العيني — على هامش خزانة الأدب طبعة بولاق .
- ١٤٩— مقالات الإسلاميين : الإمام أبو الحسن الأشعري — النهضة المصرية ١٩٥٠ م
- ١٥٠— مقدمة ابن خلدون : عبد الرحمن بن خلدون — المطبعة الأدبية — بيروت ١٩٠٠ م
- ١٥١— الملل والنحل : أبو الفتح الشهرستاني — المطبعة الأدبية ١٣١٧ هـ (على هامش كتاب الفصل لابن خزم) .
- ١٥٢— الموشع في مآخذ العلماء على الشعراء : أبو عبد الله المرزباني — طبعة السلفية ١٣٤٣ هـ
- ١٥٣— النقائض : أبو عبيدة معمر بن المثنى — طبعة ليدن ١٩٠٥ م
- ١٥٤— النوادر : أبو علي القالي (ملحق بالأمالى) .
- ١٥٥— وفيات الأعيان : ابن خلكان — طبعة السعادة ١٩٤٨ م
- ١٥٦— وقعة صفين : نصر بن مزاحم المنقري — طبعة الخانجي ١٩٨١ م

فهرس الموضوعات

تقديم ٣ - ٥

الفصل الأول

أبرز العوامل التي وجهت الشعر في العصر الأموي ٧ - ٦٨

تقديم ٧

عوامل سياسية :

الفتنة في عهد عثمان ٨

النزاع بين علي ومعاوية ١٢

موقعة صفين ونتائجها ١٨

اتجاه معاوية إلى توريث الخلافة بالعهد لابنه يزيد ونتائج ذلك ٢١

خروج الحسين بن عليّ على يزيد بن معاوية ونتائجها ٢٤

خروج عبد الله بن الزبير ٢٨

تأثير الظروف السياسية في ازدهار الحركة الشعرية في العصر الأموي ٣١

الأحزاب السياسية في العصر الأموي (دعاواها وعقائدها) :

حزب الشيعة ٣٣

الحزب الأموي ٤٣

الخوارج ٤٦

الزبيرون ٥٠

عوامل اجتماعية وجهت بعض فنون الشعر في هذا العصر :

صحوة العبيات القبلية ٥٢

- التخطيط القبلي لمدينتي العراق : البصرة والكوفة ٥٣
- الغراء والترف والفراغ في حضر الحجاز ٥٧
- ظروف الحياة في البادية ٦١
- الاتجاه إلى اللهو والمجون في بعض بيئات العراق والشام : أسبابه
- ونتائجه ٦٢

عوامل ثقافية وعقلية :

- مجالس الصحابة وحلقات الدرس وأثرها في إشاعة روح الزهد ٧١
- ظهور المذاهب الكلامية وتأثيرها في توجيه الشعر ٧٤
- بدايات النظر في العلوم الدخيلة ، والاتجاه إلى الترجمة من الثقافات
- غير العربية ٧٧
- أهم الاتجاهات الشعرية المتأثرة بهذه العوامل في العصر الأموي ٧٨

الفصل الثاني

شعر الخصومات السياسية ٧٩ - ٢٣١

تقديم :

- مفهوم السياسة في الإسلام ٨٠
- احتدام الصراع حول منصب الخلافة ٨١
- المقصود بالشعر السياسي ٨١
- اختلاف مسار الشعر السياسي الأموي ٨١

الشعر السياسي في ظل الأحزاب السياسية :

- شعر الشيعة ٨٧ - ١٢٨
- الاتجاهات الموضوعية لشعر الشيعة ٨٨

- إظهار المحبة لآل البيت ٨٨
- الاحتجاج لحق الأئمة في الخلافة ٩١
- إبراز الجوانب الإنسانية والدينية في شخصية أئمة الشيعة (المدح السياسي) ١٠١
- إظهار الحزن على الأئمة الشهداء (الرثاء السياسي) ١٠٦
- التصدى لخصوم الشيعة (الهجاء السياسي) ١١٤
- الدعاية لعقائد الشيعة (الشعر المذهبي) ١١٩
- نظرات فنية في شعر الشيعة السياسي ١٢٦
- شعر الأمويين** ١٢٩ - ١٦٤
- كثرة الشعر والشعراء في ميدان الحزب الأموي ١٢٩
- شيوخ التكسب بين شعراء الأموية ١٣٠
- شعراء أخلصوا للأموية ١٣١
- الاتجاهات الموضوعية لشعر السياسة الأموية : صور من الإشارة ببنى أمية والاحتجاج لخلافتهم (المدح السياسي) ١٣٤
- التصدى لأعداء بنى أمية (الهجاء السياسي) ١٤٦
- تخليد ذكر من قضوا من زعماء الحزب الأموي وأبطاله (الرثاء السياسي) ١٥٦
- نظرات فنية في شعر الأموية السياسي ١٦٢
- شعر الخوارج** ١٦٤ - ٢٠٧
- الملاح الهامة لشخصية الخوارج الإنسانية والدينية والسياسية ١٦٤
- الاتجاهات الموضوعية لشعر الخوارج ١٦٩
- صور من شخصية الخوارج المذهبية ١٦٩
- صور من شخصية الخوارج الدينية والبطولية ١٧٦
- نظرة الخوارج إلى مخالفهم (هجاء الخصوم) ١٨٥

١٩٠	تمجيد شهداء الخوارج (البراء)
١٩٧	نظرات فنية في شعر الخوارج السياسي
٢٢٧ - ٢٠٧	شعر الزبيرين
	قصر فترة حياة هذا الحزب وسياسة زعيمه أضعفت خطه من الشعر
٢٠٧	والشعراء
٢١٤	الاتجاهات الموضوعية لشعر الزبيرين السياسي
٢١٤	التنويه بآل الزبير ومحاولة تأييد خلافتهم
٢١٩	التصدي لخصوم دعوى ابن الزبير
٢٢٤	رثاء قتلى الزبيرين
٢٢٦	نظرات فنية في شعر الزبيرين السياسي
٢٢٧	تعقيب على الشعر السياسي بعامة في العصر الأموي

الفصل الثالث

شعر الخصومات القبلية

٢٦٤ - ٢٣٣

٢٣٥	الفرق بين شعر الخصومة القبلية والخصومة السياسية
	أهمية العصبية القبلية في الحياة العربية الجاهلية بعامة وفي الشعر السياسي
٢٣٦	بخاصة
٢٣٧	العصبية القبلية في صدر الإسلام ثم في العصر الأموي
٢٣٨	موقعة صفين رددت النغمات الأولى لشعر العصبية القبلية
٢٤٢	دواعي الخصومة بين أشهر العصبية القبلية في العصر الأموي
٢٤٢	الخصومة القبلية بين قيس وتميم
٢٤٣	وبين قيس وتغلب
٢٤٤	وبين قيس واليمانية
٢٤٦	شعر الخصومة بين قيس وتميم

- شعر الخصومة بين قيس وبكر من ربيعة ٢٤٩
 شعر الخصومة بين قيس وتغلب من ربيعة ٢٥٠
 شعر الخصومة بين قيس واليمنية ٢٥٤
 شعر الخصومة بين بطون من قبيلة واحدة ٢٥٧
 تعقيب على شعر الخصومات القبلية في العصر الأموي ٢٦١

الفصل الرابع

شعر الخصومة الفردية الأدبية (النقائض)

٣٤٢ - ٢٦٥

- معنى هذه الخصومة والفرق بينها وبين الخصومة السياسية والقبلية ٢٦٧
 المقصود بالنقائض ٢٦٨
 الأصول الفنية لشعر النقائض ٢٧٠
 نشأة فن النقائض وتطوره ٢٧٣
 موقف شعراء العصر الأموي من اصطناع هذا الأسلوب الشعري ٢٨٠
 شعراء المناقضات العامة ٢٨١
 نقائض الفحول ٢٨٦
 نقائض جرير والفرزدق وحظها من التطور أو التجديد ٢٨٦
 العناصر الدينية في نقائض الفحول ٣١١
 نقائض جرير والأخطل والموازنة بينها وبين نقائض جرير والفرزدق ... ٣١٥
 تعقيب : ملامح التطور والتجديد في النقائض الأموية بعامة ٣٣١
 قيمة النقائض الأموية من النواحي التاريخية واللغوية والأدبية ٣٣٤

الفصل الخامس

الغزل في حضر الحجاز

٤٢٢ - ٣٤٣

- لماذا آثرنا تسمية هذا الغزل بالغزل الحسى المتطور اللاهوى ٣٤٥
 آراء لبعض الباحثين المحدثين في حظ هذا الغزل من التقليد والتطور
 والتجديد ٣٤٧

تصور عام لبيئة هذا الغزل وظروفها الحضارية والفنية ٣٤٩
صور المرأة في الغزل الحجازي وأبرز ملامحها :

الترف والتنعم والتحضير ٣٥٩
 مقارنة هذا الملمح بنظيره في غزل الجاهليين ٣٦٢
 الصلة بين المرأة والرجل في الغزل الحجازي الأموي ٣٦٤
 العناية بتحليل مشاعر المرأة ونزعاتها النفسية ٣٧٤
 تفرّد غزل عمر بن أبى ربيعة بتصوير نفسه معشوقا ومناقشة بعض الآراء
 في تفسير هذا الاتجاه في غزله ٣٧٩
 الجانب الحسّي في هذا الغزل ٣٩١

صور الرجل في الغزل الحجازي وأبرز ملامحها :

الكلف بالجمال في معارضه المختلفة من النساء ٣٩٣
 من أهم ملامح صورة العاشق في هذا الغزل : بث الأشواق وشكوى
 الهجر ٣٩٥
 الفرق بينه وبين الغزل العذري في هذا الملمح ٣٩٧
 صور من الضراعة والتوسل ٤٠٣
 صورة العاشق المغامر ٤٠٦
 أهم ملامح الفن في الغزل الحجازي الحضري ٤١٢

الفصل السادس

الغزل العذري في بادية الحجاز

٤٢٣ - ٤٩٣

تقديم في معنى العذرية والعشق والغزل العفيف ٤٢٥
 حول نشأة هذا الضرب من الغزل ٤٣٠
 رأى في تأثر نشأة هذا الغزل بالعامل الديني ، ومناقشة هذا الرأى ٤٣١
 أشهر الشعراء العذريين الأمويين ٤٤٤
 أهم اتجاهات الغزل العذري الأموي ٤٤٦

٤٤٦	شكوى الحرمان مع غلبة الهوى
٤٥٣	تمرد القلب على محاولة السلوى
٤٦٠	صدق الصبابة فى العشق
٤٦٧	أثر الحب فى اعتلال الجسد
٤٧٢	الشكوى من صد الحبيبة
٤٧٨	تعقيب على الملامح الفنية للغزل العذرى الأموى
٤٩٤	فهرس المصادر والمراجع

★ ★ ★

رقم الإيداع ١٩٨٦/٥٣٦٥ م

الترقيم المولى ٣ - ٠٢٤ - ٥٠٥ - ٩٧٧

الناشر
مكتبة الخانجي بالقاهرة